

١٨٣

تاريخ المصريين

شاهد على العصر

مذكرات

محمد لطفى جمعة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

(١٨٣)

قانون المصريين

٨٩٢. ٧٥٣

٢

• تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عيد العظیم ومضان

مدير التحرير:

تحت إشراف
الهيئة المصرية العامة للكتاب



ود الجزار

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابع لطفي جمعة

المهكمة الدستورية العليا

شاهد على العصر مذكرات مجتهد لطفى جمعة



مكتبة الجمهورية العربية السورية
مكتبة الجمهورية العربية السورية

المكتبة العامة لكتبة الاسكندرية
رقم المكتبة
رقم التسجيل
رقم المكتبة



الهيئة المصرية العامة للمكتبات

٣٠٠٠

الإشراف الفني

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب الشيق : « شاهد على العصر » ، وهو مذكرات الأديب والصحفي الكبير المرحوم محمد لطفي جمعة ، وهو واحد من الرواد الأوائل الذين تركوا بصمتهم على الحياة الأدبية والفكرية والسياسية من موقع انتمائه الى الحزب الوطني ، وقد ترفع في بعض أهم القضايا السياسية التي شغلت الرأي العام .

وقد جمع هذه المذكرات وأعدّها للنشر ابنه المستشار راجح لطفي جمعة ، وهو أكثر من رأيتهم من الأبناء وفاء لوالدهم . وتشمل المذكرات التي بين أيدينا مذكرات الكاتب في الفترة من ميلاده في يناير ١٨٨٦ الى ديسمبر ١٩٣٧ ، وأهميتها أنها تصور عصرا بأكمله من زواياه الاجتماعية والفكرية والسياسية ، بقلم أديب صناعته الأدب ، وسياسي وطني حظي بتقدير عصره .

وتتناول هذه المذكرات طفولة الكاتب ، وتكوينه العقلي والعلمي ، ونظام التعليم في عصره في مراحل المختلفة ، وصداقات شبابه . وقد انتقل فيها الى عمله بمهنة التدريس والصحافة ، وسفره الى فرنسا للالتحاق بكلية الحقوق بليون ، وتأسيسه جمعية مصرية للطلبة المصريين بليون ، ومعارفاته في فرنسا ، كما يسجل يوميات سنة ١٩٠٩ ، ولقائه بالمستر بلنت ، واتصالاته بمحمد

فريد وزعماء حزب العمال البريطاني ، وبعزيمة روشبرون ، وجون نينيه صاحب كتاب « عرابي باشا » كما تناول سياحته في إيطاليا بوصف بديع لمدنها السياحية ، وحضوره المؤتمر الوطني المصري في بروكسل سنة ١٩١٠ .

وقد خصص الكاتب فصلا كاملا لعمله في الحمامة ، وذكرياته عن القضاء والحمامة ، كما تعرض لبعض القضايا التي ترفع فيها ، وفيها قضية اغتيال السردار السير لى ستاك . وقضية القنابل ، وقضية مقتل أمين عثمان ، وقدم لذلك بمقدمة عن الاغتيال السياسى وأسبابه .

كذلك تحدث عن انشغاله بالتفكير فى العالم العلوى وعالم الأرواح ، وأحاديثه مع الشيخ محمد عبده . وتحدث عن تكوينه الفلسفى وسبب دراسة الفلسفة ، كما تحدث عن زواجه . وقد استهل هذا الكتاب على يوميات الكاتب من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٧ .

والمذكرات سياحة شيقة فى عصر بأكمله ، تصور جوانبه الاجتماعية والسياسية والفكرية . وهو جدير بالقراءة .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

الحديث بالعديد من التراجم الذاتية لأدياء ورجال سياسة واجتماع ودين في مصر، الى جانب العديد من الفصول والمقالات المنشورة بالصحف والمجلات والتي تمثل ترجمة ذاتية لكتابها ومنشئها وأحاديث عن جوانب عديدة من حياتهم .

والحقيقة التي يكاد يجمع عليها الأدباء والباحثون أن من أصعب الأمور على الكاتب أن يدون تاريخ حياته وما دار في فلكها من أحداث ، وظهر على مسرحها من شخصيات ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى أنه مهما أوتي الكاتب من عدل واعتدال وصدق وحسن نية ونبل مقصد وشرف غاية ، فهو غالباً متهم بالتحيّز لنفسه أو لذويه وصحبه ، ولا سيما عند معاصريه وأهل زمانه ، ومن هنا ينشأ الخوف من الانزلاق والزلل ويتولد الحرج من الصراحة والصدق مع النفس أو الغير .

ولأجل هذا فقد تعود الكتاب ألا يدونوا أخبارهم وترجمة حالهم الا في أواخر حياتهم وألا تنشر الا بعد وفاتهم ووفاء المعاصرين الذين ورد ذكرهم فيها .

وقد احتال الأدياء في الغرب والشرق حيلة شتى لاتقاء مجابهة المعاصرين ، من ذلك اختفاؤهم وراء شخصيات أخرى أو الرمز الى الأشخاص بأحرف من أسمائهم أو افراغ ترجمة حياتهم في قالب القصة .

على أنه مهما تحايل الكاتب على تسجيل تاريخ حياته وتدوين سيرته الذاتية ، فانه من المستبعد أن يكتب فيها كل شيء ، لأن من أصعب الأمور على الانسان أن يقول عن نفسه كل شيء أو أن

يعرى نفسه بحيث يذكر مساوئها وأهوائها على نحو واضح وصريح ، فالإنسان بطبعه يرفض فكرة الكشف الكامل عن حياته وأهوائه وطباعه وأخطائه وفضائله وريائته وكمالاته ونقائصه .

ومهما يكن من أمر صعوبة الترجمة الذاتية وأنها لا تعطينا كل شيء عن حياة كاتبها * إلا أنها تلقى ضوءا كاشفا على هذه الحياة .

ولما كان الإنسان ينشد دائما معرفة ذاته ويسعى الى معرفة أوجه الكمال والنقص في غيره مقرونا الى ذاته ، كأنما يريد أن يطمئن الى نفسه بما يراه من صورة غيره ، فان كتب التراجم الذاتية أو المذكرات الشخصية تعتبر من أكثر الكتب تشويقا وأمتعها الى نفس القارئ .

وبعد ...

فهذه مذكرات محمد لطفي جمعه تنشر لأول مرة ، وهي تنتظم أنواعا شتى من الكتابة ، منها ما يمكن أن نسميه بالترجمة الذاتية Autobiography ومنها ما يعرف باليوميات أو المذكرات اليومية Diaries ، ومنها ما يمكن أن نطلق عليه اسم تذكارات Memories .

على أن لطفي جمعه في سياق كل من هذه الألوان من الكتابة يتحدث عن كثير من المسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية والأخلاقية والقضايا الأدبية والفكرية والثقافية التي كانت محل اهتمام ومثار جدل ونقاش بين رجال الفكر والأدب والسياسة والاجتماع والدين والصحافة في النصف الأول من هذا القرن

الشخصيات المعاصرة له ويبدى رأيه فى هذا كله بصراحة

ومن هنا فاننا نستطيع أن نقول - بكثير من الاطمئ
مذكرات محمد لطفي جمعه تعتبر بحق وبكل المقاييس
صادقة على عصره بكل ما كان يموج به هذا العصر
ويضطرب فى ساحته من أفكار وما ظهر على مسرحه من شئ

ومن هنا فقد أطلقت على هذه المذكرات عنوان «
العصر» ، على أن هذه التسمية ليست مستحثة أو
عندى ، وإنما هى فى حقيقة الأمر والواقع مستمدة مما
جمعه نفسه عن هذه المذكرات ووصفها بأنها « شهادة على
فقد عبر عن ذلك أكثر من مرة فى كتاباته فقال :

« لو لم يكن من شرف التاريخ الا أن يستطيع ر
شديد الشوق الى الحقيقة شوقا محرقا اثبات صورة لعصر
لمحات خاطفة كلمحات البرق - لكفاه فخرا ٠٠٠ فم
أو خمس سنين شغلت ليل نهار بتصوير العصر الذى أ:
على قدر طاقتى » .

ويقول بمناسبة حديثه عن جان جاك روسو وثم
القيلسوف لجه الحرية ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقا
المساواة الانسانية « أرى عند الرجوع بفكرى الى تلك
الأفكار تتزاحم على ، لا كطالب علم فى بلد أوربى أنا غري
ولكن كشاهد على العصر وناقد متعرق على تحقيق العدل
فى وطنه ، أقارن حياتنا فى بلادنا بحياة هؤلاء القوم فى
حياة العقل والخلق والجسد والروح » .

فمن هذه المقتطفات وغيرها مما كتبه لطفى جمعة ، استمددت
عنوان هذه المذكرات •

لقد حاول لطفى جمعه فى هذه المذكرات أن يعطينا بقدر
الامكان صورة صادقة عن العصر الذى عاشه وأن يرسم بالكلمات
بعض شخصيات هذا العصر من خلال علاقاتهم به أو علاقاته بهم •

وان القارئ لهذه المذكرات ليشعر أحيانا - فى شمولها
واتساع مناحيها - انها أشبه بالبانوراما Panorama أو اطلالة
عامة شاملة نافذة لأحداث العصر وشخصياته ، وأنه يعيش هذه
الأحداث ويعايش تلك الشخصيات •

ومن هنا فقد ذخرت هذه المذكرات بكثير من الأسرار والخفايا
التي تذاق أو تعرف ، ربما لأول مرة • كما تتضمن انتقادات ووجهات
نظر قد تكون مريرة واليعة ولادعة لكثير من الأوضاع والأفكار
السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية والاقتصادية فى مصر
فى النصف الأول من هذا القرن • كما حفلت بالعديد من الأحداث
والمواقف المثيرة والطريفة رواها لطفى جمعة بأسلوبه المتميز الذى
يجمع بين السخرية اللاذعة والنقد الهادف •

ويهمنى - وأنا أقدم هذه المذكرات لأول مرة للقراء والنقاد
والمؤرخين فى مصر والعالم العربى والاسلامى ، أن أنبه بأن لطفى
جمعة لم يعن حال حياته بجمع هذه المذكرات أو ترتيبها وتنسيقها
وتبويبها ، ولكنه كتب فى بعض مذكراته المخطوطة سنة ١٩٤٤
يقول « لمن أكتب هذه المذكرات ؟ الله ولنفسى ، ولا أظن أن أحدا
يعرفها أو يدركها وهى مكتوبة بسرعة وتحت تأثير ضغط شديد

لأسرى عن حالتى ٠٠٠ فعلى من يعثر عليها من أولادى أو الغرباء
أن ينسقها وينشرها بعد موتى . وان مد الله فى أجلى فانا أقوم
بهذا العمل لأنه يعطى صورة ، ولو ضعيفة ، عن العصر والحياة فى
مصر أثناء هذه الحرب ٠٠٠ » .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذه المقدمة الا أن أدع القارئ الكريم
يطالع هذه المذكرات الممتعة والذكريات الشائقة .

والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٨ يناير سنة ٢٠٠٠ م .

راجح لطفى جمعة

٢١ شارع أمين الخولى

مصر الجديدة

تقديم (١)

من أصعب الأمور على الكاتب أن يدون تاريخ حياته وإن كان هذا التدوين من أوجب الواجبات ، بل يكاد يكون فرضاً .

إنه من أصعب الأمور لأن القلم لا يكبح جماحه ، والشهوات غلابة ، وقول الحق شديد على النفوس ، وصاحب الشيء نفسه لا ينجو من أن يكون موضع الظنون ، ومهما أوتى الكاتب من عدل واعتدال ، وصدق وحسن نية وتبيل مقصد ، فهو متهم بالتحيز لنفسه أو لذويه وصحبه ولاسيما عند معاصريه وأهل زمانه ، ولكن الذى يكتب ترجمة حاله يقصده فى الأغلب أن يكون قراؤه من أبناء الأجيال المقبلة ، وفى هذه الفكرة نفسها غرور مبناه أنه يلقي شهرة وصيتاً دائماً بعد وفاته حتى تكثر له الأجيال ، ولكن قد لا يخطر هذا البال بنفسه ، ويكون قصده مقصوراً على الكتابة مجردة من كل غاية لأن فيها تفريجاً للنفس وراحة للقلب وتصفية للعقل ووضعاً للحمل الذى ينوء به وشفاء لغليل نفسه وتوضيحاً لما هو مبهم فى ضميره واجتهاداً فى تصوير ذاته التى يراها دائماً غامضة مبهاً وقف أمام مرآة روحه ليرأها ، ولكن الناس لا يرون رأياً من هذه الآراء لأن معظمهم محوط بالأوهام والظنون ، فهم لا يبرئونه ولا يحسنون الظن به ولا يأخذون الأمور على ظواهرها ، بل يذهبون فى تفسيرها وتعليلها كل مذهب .

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل فى ٢ رمضان سنة ١٣٦٠ هجرية .

وقد نشأت شديد الشغف بمن قرأت لهم كتباً من أى جنس
كانوا ، فعندى الكاتب أهم من الكتاب ، وترجمته تلقى نوراً على
حياته ، ولو خيرت لقضيت حياتي فى قراءة التراجم وكتابتها .

ان تواريخ الحياة أهم من الحياة ، لأنها أصدق منها فى
مجموعها ، والتراجم أقرب التواريخ الى الحقيقة ، كالأخيوط قبل
أن تنسج ، فهى بلونها الطبيعى وعلى قياسها الأصل ، لم يعتورها
تدخيل ولا تخليط ولا حياكة ولا جباكة ولا تعقيد .

وأحب الكتب الى مطولات المعاجم فى الأعلام ، ويتلوها فى
التقدير عندى تراجم الضاديين من الرجال . ألا ترى أن الكتاب
الذى شغل نصف حياتي هو سيرة محمد بن عبد الله النبى العربى ،
لقد شغلت به لأنه أقرب التراجم الى الحقيقة وأول مراجعه القرآن
الذى أجمع العلماء فى كل ملة وجنس ولغة على صدقه ، ومهما
كُتبت فى وصف شغفى بهذا النوع من الأدب ، فلا أوفيه حقه
ومكانته من نفسى .

ولما قرأت شعر المتنبى - وكنت فى السادسة عشرة من
عمرى - غاظنى جداً أننى لم أجده له ترجمة وافية ضافية ، وعجبت
لهؤلاء الناشرين والشارحين كيف يكثرئون لترتيب الديوان
وشرحه ولا يعيرون تاريخ الشعراء نفسه نصيباً من عنايتهم ، وقد
شرعت اذ ذاك أن أرتب له ترجمة من شعره .

وقد كان هذا الميل أشد ميولاً وتخصصى لو أننى ملكت
التخصص فى صغرى ، ولكن أشياء أخرى غمرتنى وغمرت معى
هذا الميل وسواه ، فحشت مثلاً محروماً من الدراسات التى كنت

أريدها ، فقد كانت الفلسفة والطب أول ما تعلقت به نفسي ، ولكن الحياة قهرتني وأرغمته على سواهما ، وعندما تأملت اليهما وجدتتهما لا يخرجان عن دراسة الانسان في عقله وجسده ، ولكن الحياة الاجتماعية مصنوعة في عصرى بحيث لا تمكن انسانا من ممارسة ما يهوى اليه فؤاده ، بل تقوده وتسوقه وترغمه على عمل ما يهيئه له ماله وقدرته الاقتصادية ، فتكون أعمار كثيرة مضيعة مضللة .

لقد ضربت بالأدب والشعر والخطابة والسياسة عرض الحائط ، ولم أرغب في واحد منها ولم أتفرغ لفرع من فروعها ، وأحببت الطب والفلسفة من كل قلبي ، ولكنى لم أتمكن منهما الا بالاجتهاد بعيدا عن الدراسة التى حتمتها على ظروف الحياة ، فضاع كثير من وقتى ، بل معظمه في معالجة أعمال الباطل والضلال والآكاذيب لأرد باطلهم وأدمغ ضلالهم وأصحح أكاذيبهم ، وكنت أود أن أعالج أجسامهم وأفحص عقولهم وتفكيرهم وأن تكون هذه المعالجة عملى وصناعى .

ولما شبيب عن الطوق ، رأيت نفسى محاطا ببهور من الأوهام والواقعات ورأيت خيوط الحق ضئيلة هزيلة تائهة في وسط هذه البهور الطامية لا أكاد ألمسها ، فهدتني غريزتى الى أن التعرف على حقائق الأشخاص عن طريق تراجعهم مكتوبة أو محكية هو أضمن الوسائل للوصول الى بعض الحق .

وكان أول ما أدهشنى في شبابى في كتب العرب سيرة النبى وأحاديثه التى فيها كثير من تاريخ حياته وطرائق تفكيره ، وعرضت لى تراجم نابليون بوناپرت وفيها تمجيد عظيم للحروب والقوة

واحراق السماء والتطلع الى المجد ، ثم اعتبرت قصة روبنسون كروزو قصة صادقة ، ثم وقعت لى رحلة ابن بطوطة .

وانى لفى تلك الغمرة الذهنية اتحسس طريقى ، واذا بى أقرأ عن ترجمة هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزى كتبها بنفسه فى جزئين كبيرين ، وكان ذلك فى فجر القرن العشرين (حوالى سنة ١٩٠٣) وأنا فى السابعة عشرة من عمري ، وكان فى سننى شاب اسمه يوسف كرم يحب الفلسفة ويناقشنى ، فقرأنا معا فى صيف تلك السنة أو التى بعدها وفيها كثير ممل متعب .

وكان يوسف كرم - وهو من متخرجى مدارس الفرنسيين - يبدو لى كزاهد متعب ، نترك المدينة ونقصد الى الحقول الخضراء ومعنا الكتب والأوراق والصحف والمجلات ، وقد اشتركنا فى الدرس والتفكير بثلاث لغات ، العربية والفرنسية والانجليزية ، وكان أعظم تمتعنا فى هذه الساعات من أطراف النهار والليل .

حدث هذا فى مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية على ضفة قناة اسمها « الجعفرية » ولا أعلم من هو جعفر المنسوبة اليه ، وكنا نتجول فى الحقول والحدائق ، وقد وجدنا صعوبة فى تفهم ترجمة سبنسر لأن معظمها يدور حول جهاده فى ابراز مؤلفاته الفلسفية التى قضى فى وضعها ثلاثين أو أربعين عاما وأنفق فى طبعها من أموال الصدقة التى جاد بها المحسنون فى أمريكا وانجلترا ، بينما كان هو يقاسى شطف العيش والمسغبة ، وبينما كانت ملايين الجنيهات تنفق فى الشهوات والملذات والمظاهر الكذابة ، وبينما كان الانجليز يباهون به الامم ويقولون انه فيلسوف بريطانيا العظمى وفيلسوف الناطقين بلغتهم وعددهم

خمسماية مليون فى قارات الأرض الخمس وعلى ظهور البحار السبعة ٠٠٠ الخ ، كان الرجل غارقا فى الفقر لولا احسان المحسنين ، فأحدهم منحه بيتا على شاطئ البحر وآخر من أمريكا وهبه « بيانو » وتعهده بأجر العازفة عليه ، وثالث تعهد بنفقات الطب والدواء ، لأن فيلسوف بريطانيا قضى معظم أيامه ولياليه مريضا .

ف عجبت وصاحبى من هذه الحال المقلوبة وتساءلنا فى غفلة الفتوة : كيف يكون أكبر فيلسوف فى هذا العصر الحديث - على حد قول أبناء جلدته - فقيرا الى هذا الحد ؟ وكيف يعيش وحيدا منعزلا لا يزور ولا يزار ؟

وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت هى مثلنا الأعلى ، وكنا نتخيل الفيلسوف ملك الملوك جالسا على عرش ولايسا تاجا مرصعا وقائضا على صولجان ، ولم تكن نفهم أن المال له هذه القدرة العظمى ، وأن الصوت المسموع والكلمة النافذة لأرباب المصانع والمطاحن والمعاجن وملاك الأراضى الزراعية والمبانى المشيدة الذين نجحوا فى الحصول على أرزاق ضخمة تصل اليهم دون أن يعملوا أو يحركوا ساكنا سوى الحراسة والسهر على مصادر أرزاقهم بالحيلة والمكيدة والقوة واهزاق الدماء ان احتاج الأمر .

كنا نظن أعظم المجد وأعظم الشرف وأعظم الطاعة للفيلسوف ، وطالما مر بخواطرنا اسم المعرى وتولستوى وأرسطو وأفلاطون ولم يخطر ببالنا قط كيف عاشوا وكيف سلكوا فى سبيل الحياة المعوجة الملتوية .

وكانت حياة هربرت سبنسر خليقة بأن تفتتح أعيننا الى أهمية المال لتتخذ لنا وسيلة للحصول عليه أو على الأقل لنستعد

له ، ولكننا كنا أبعد الناس عن ذلك التفكير محمولين على أجنحة من الخيال والصور الجميلة البراقة .

كيف عاش سبنسر بغير أسرة ولا زوجة ولا ولد بعيدا عن الحب العائلي وعن مواساة الأهل وتشجيعهم وحيدا فريدا بين عانسين من عوانس بريطانيا العظمى ، واحدة تدق له على مفاتيح البيانو والأخرى على مفاتيح الآلة الكاتبة فى بيت صغير على شاطئ البحر فى بلدة برايتون ؟

هل خطر ببالنا الفقر وأنه ملازم للعلم والفلسفة ، وهل خطر ببالنا أن سببه انصراف ذهن الفيلسوف الى التفكير البعيد عن الجنيه والقرش والمليم ؟ هل خطر ببالنا أن نحصر تفكيرنا وهمنا فى الدرهم والدينار ؟

لم يخطر ببالنا شئ من ذلك ، وربما داعبت أفكارنا مظنة الفقر فاستعذبناه فى سبيل الفلسفة وفى سبيل الوطنية وفى سبيل المثل العليا والتحرير والتجوير والتفكير .

فلما مات سبنسر قرأنا فى الصحف أنه لم يدفن وقد أوصى باحراق جثته فنفذت وصيته ، وخطب على قبره كريشنا فارما تلميذه الهندى البالغ من العمر خمسين عاما ، لأنه تبرع بمال كثير ينفق من ريعه على منصب أستاذ لتدريس فلسفة سبنسر فى جامعة اكسفورد . وقد لقيت كريشنا فارما نفسه بعد ذلك بسبع سنوات فى باريس حيث كان ينشئ مجلة انجليزية باسم « الاجتماعى الهندى » يناصر فيها وطنه ويدعو الى تحريره واستقلاله .

بعد أن قضيت ثلاثين عاما فى المحاماة أردت أن أدون ذكرياتى فى عالم القضاء والاجتماع ولكننى ترددت كثيرا خوفا من الانزلاق

والزلل أو من الصراحة والصدق في بند لا يحب الصراحة والصدق ، ولأجل هذا تعود الكتاب ألا يدونوا أخبارهم إلا في أواخر حياتهم وألا تنشر إلا بعد وفاتهم و وفاة المعاصرين الذين ورد ذكرهم فيها ، وهذا كله نفاق وخوف من الحقيقة ، والا فما فائدة المذكرات والتراجم بعد وفاة الذين شهدوا حوادثها ، فأنها بعد موتهم تنزل الى درجة الأدب المكتوب وتحتل موضعا في التاريخ .

وقد احتال أهل أوروبا حيلة شتى لاققاء مجابهة المعاصرين ، فمذكرات الشقيقتين « جونكور » لا تزال مجبوسة في دار الكتب الوطنية ببازيس مخطوطة لا يفرج عنها الا في سنة ١٩٥٠ ، وكذلك بعض مخطوطات أوسكار وايلد ومذكراته .

ولكن من شجعان الكتاب ويلفريد سكاوين بلنت الانجليزى ، فقد نشر كل مذكراته الى سنة ١٩١٤ في حياته وأبقى الجزء الخاص بالحرب الى ما بعد موته ، وقد توفي في سنة ١٩٢٢ ولم يصل الى يدى كتابه الأخير ، وأرجح أنه نشر بعد ذلك بمضغ سنين .

ويحتال بعضهم بالرمز الى الأشخاص بأحرف من أسمائهم خوفا من المقاضاة والمطالبة بتعويض ، فان للورثة حق المقاضاة اذا ذكر أسلافهم بشر ما لم يثبت أنه من صلب التاريخ .

ولا يسلم من يترجم لنفسه من النقد اللاذع ، فابن خلدون ترجم لنفسه في كتاب خاص ، فقال أحد معاصريه « لم يفعل أحد قبله مثل ما فعل بتدوين ترجمته حياته ، ولكنه لم يقصد بتدوينها الا التبيجح وتزكية النفس (كذا) وهذا من امارات صلفه وزهوه » .

وكان الأجدر بهذا الناقد أن يمدحه لا أن يذمه لا ابتكاره تلك الطريقة كما ابتكر علم العمران وعلم الاجتماع ، وقد حذا حذوه علماء الغرب وساستهم وبعض الحاملين الذين عاصروا كبار الحوادث كالثورة الفرنسية .

وقال آخر عن ابن خلدون « انه في ترجمة نفسه ذكر أسانئده ووصف تبهرهم في العلوم ، يريد أن يحملنا على الاعتقاد بأنه عالم عظيم مادام شيوخه في هذه المرتبة من العلم والفضل » . ولمزوه بأنه ذكر في ترجمته أنه استظهر جزءا من الأغاني ثم ذكر في مقدمته المشهورة أنه يستحيل الحصول على نسخة من الأغاني ، وهذا تناقض في كلامه ، فهو لم يعرف من الأغاني الا الاسم ، وأنه كان متلونا في رأيه ومودته وسياسته ، وانتقدوا في ترجمته أنه منذ كان قاضيا للمالكية في مصر ، كان شديدا قاسيا لا يقبل شفاعا على خلاف عادة قضاة زمانه ، مع أنه اعتذر عن عدم قبوله الشفاعات بأنه حمله على ذلك رضا الله تعالى . وزعموا أنه كان يحب المال أشد من حبه لأولاده ، لأنه قال في ترجمة نفسه مشيرا الى حادثة غرق أولاده وأمواله في البحر عندما دعاهم الى مصر « فقد أصابتنى نكبة واحدة فأفقدتنى الى الأبد المال والسعادة والبنين » . قالوا : انه قدم المال على البنين في الذكر ، وهذا يدل على أن المال يهمه أكثر من أولاده ، كأنهم نسوا قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فقدم سبحانه المال على البنين .

هذا بعض ما يغمز به أصحاب المذكرات ، أو الذين يترجمون لأنفسهم ، ولذا تراهم يحجمون عن تدوينها ، وان دونوها أحجموا عن نشرها في حياتهم ، ولم يسلم من شرورهم رجل يعد من أسلم الناس قلبا وأنقاهم ضميرا وأرقاهم عبقرية وهو جان جاك روسو ،

فقد أفرع ترجمة حاله فى قالب الاعتراف ووصفها بذلك ، وكان فيها صادقا حتى انه قال يود أن يقبل بها يوم البعث والنشور فى يمينه . ولكن أعداءه صاغوا من اخلاصه سهاما صوبوها الى صدره ونحره ، فأخذوا عليه كل صغيرة وكبيرة وعابوه بها ، فاتهموه بأنه زير نساء وأنه باع نفسه لشهوات الغانيات من النساء ، فلولاهن ما قامت له قائمة ، وأنه كان ضيع القلب فاقتن بنخامة اسمها تيريز ليفاسور ، يعجب هؤلاء لاستغراقها فى الجهل ، فكيف يرضى بها عشيرة ان لم يكن حب جسدها قد أعماه عن سخافة عقلها ، وأن قلبه قد قلّد من صخر ، لأنه ألقى بأولاده الخمسة من حائق دير يحضن اللقطاء ، فلم يسأل عنهم ولم ينظر فى مصيرهم بعد أن أترى ، وأنه كان سارقا ويتهم الأبرياء ويسبب شقاءهم ولا يؤنبه ضميره ، وأنه كان مصابا بأدواء خلقية شاذة ... الخ .

وكل هذه التهم يعلم قراء اعترافه أنها مختلقة أو مبالغ فيها ، ولكن الجاسدين والمنافسين والحقادين لا يرحمون ، بل تراهم - اذا لم يجدوا أساسا يقيمون عليه صروح باطلهم - كذبوا ولفقوا مطمئنين الى أن أكاذيبهم أبقي على وجه الدهر من الحقائق لغريزة خبيثة فى الانسان ولا نغماس المجتمع فى النفاق وتعرض أهل المواهب لغيرة المعاصرين وأضعفانهم .

وقد يحتال الكاتب لترجمة حياته بافراغها فى قالب القصة كما فعل امام الأدب الفرنسى أناتول فرانس فى أربعة كتب من مؤلفاته جعلها ترجمة حياته وهى على التوالى ، بيار الصغير وبيار نوزير وكتاب صديقى وازدهار الحياة ، وترتيبها بحسب وضعها السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والأخير من كتبه ، فقال : انه تحاشى ذكر الأسماء على حقيقتها لأن معظم الواردين بها مازالوا أحياء عند نشرها خوفا من جرح شعورهم ولا سيما اذا كانوا ممن

يحبشون في عزلة عن العالم ولم يتودوا أن يروا أسماءهم منشورة
ومطبوعة ، فلم يشأ أن يمس كبرياءهم أو تواضعهم •

وفى الحق أن المدح والذم يستويان في أنظار هذه الطبقة ،
فيعتريهم الانفعال اذا عرضوا لأبصار القراء وتناقلت أسماءهم
السنة الرواة ، حتى ان والديه اللذين كانا على قيد الحياة لم يجرؤ
على اظهارهما بحقيقتهما ، وان كان الذي كتبه عنهما لا يتعدى الشناء
الجم وحسن الذكرى ، ولو لم يلجأ أناتول فرانس الى هذه الحيلة
لأرغمته العادة والعرف على أن يكف عن كتابة ترجمته ، وقد بدأ
في تدوينها في السابعة والثلاثين من عمره (عهد تاليف
بيار الصغير Petit Pieire) وقد استحسن هذه الطريقة
ليتمكن من مدح نفسه أو ذمها والزهو بها أو الحمل عليها ، تارة
مباهايا وطورا مؤنبا •

ولكن متبع هذه الطريقة - طريقة افراغ الترجمة في قالب
قصص - لا يمكنه أن ينجو من الكذب ولو قليلا حتى ولو أراد
أن يجعل خلقه أو يعلم القراء ، لأن الحق لا يظهر للناس مجردا ،
بل من المحال أن يبدو للعيان خاليا من الحلية أو التشويه ،
والا فإن الأصل يسوء القارئ ويحنقه •

ولم ينج أناتول فرانس من النقد مع ما اتخذ من أدوات
الاستخفاء والتغمية ، فقد لمزه لوسيان ديكاف صديقه الحميم بأن
أباه كان كتيبيا فجعله طبيبا وبذا أفقده كثيرا من جمال حياته
وجلال صنعته •

وقد أنف أناتول أن يصف أباه بصنعته فاختر له ما هو أرقى
وأثمن وقال ان والده كان قليل الاكتراث بالمال الذي يعود عليه من
البيع والشراء ، وكان شغفه بقراءة محتويات دكانه أكبر من شغفه

بالربح وقال « لم أتحد الناس كما تتحداهم روسو بأنهم شر مما يظهرون ولا يجعلونك تراهم على حقيقتهم ويتمنون أن يكشفوا عن أنفسهم وهم يفعلون ما يجلب عليهم الكراهية والازدراء ، ولم أفتح بابا مغلقا الا رأيت وراءه منظرا ما يستدعي الشفقة أو الاشمئزاز أو الرعب ، فماذا أفعل ؟ لقد غلبتني رغبة الفول فقلت ، لقد أحببت الحقيقة وهويتها حبا متمكنا فهل احترمتها ؟ » قد لا أملك أن أقسم قسما لا أحنث فيه بأنني لم أحد عنها قيد شعرة ، ولا أدري ان كانت اللغات البشرية قديرة على التعبير عن الحقيقة دائما . لقد خرجت لغاتنا من أصوات الحيوان ، فهي تترجم عن العواطف والاهواء والحوائج والألم والحب والبغض ، ولكنها عاجزة عن التعبير عن الحقيقة ، لأن الحقيقة لا تقطن أرواح الوحوش الضارية . الا أن علماء ما وراء الطبيعة الذين عاجوا الحقيقة قد فقدوا عقولهم ولم يسلموا من الوثة وخبال وتخليط . أقول أنني حسن النية وقاصد خير ، محب للحقيقة لأن الانسانية في حاجة اليها وهي في حاجة أشد الى الكذب الذي يملقها ويتزلف اليها ويخدعها ويفسح امامها مجال الأمل :

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

والانسانية جديرة بأن تهلك من الضجر والقنوط ان لم تدركها رحمة الكتاب أمثالي بجرعة من الكذب . انتهى كلام أناطول فرانس نقلا عن الصفحات الأخيرة من « ازدهار الحياة » .

والفطن اللبيب لا تغيب عنه لبافة الكاتب الكبير ودعابته ومرارة قلبه ، الا أنه لا يجيد عن خطة فيجارو الذي ينلهى بالضحك خشية أن يقضى نحبه باكيا .

الا ترى وتسمع الى سخريته وتأله ، ومن ذا الذى يفهم الناس ويعمل على النجاة من مخالبهم بمثل هذه الصورة الواحدة الخالية والحكمة الرائعة الرهيبة ؟ أترى رجلا مثله يلجأ الى الكذب ، وهو الذى صاغ تاريخ فرنسا منذ نشأتها الى قضية دريفوس فى كتاب واحد « جزيرة بانجوان » ؟ أم تراه يطعن رجال السياسة والعلم والأدب والدين والقضاء طعنات قاتلة فلا يهرق نقطة دم فينال منهم نيلا وهو يداعبهم ويدغدغهم ، ويلوى أعناقهم وهو يحتضنهم ، ويفرى جلودهم وكأنه يقبل خدودهم ، ويعبث بخلائقهم وكأنه يربت على أكتافهم ، وينفث فيهم سموم القذف وهو يزيل الغبار عن ثيابهم بيد من قطيفة تخفى وراءها أشد النصال وأحد السهام ؟

أترى هذا الرجل الموهوب الرقيق القلب البالغ الشفقة ، يرضى بالمظالم والمكاييد تحاك ، والمؤامرات تدبر من الكبراء والأقوياء لاستغلال المهضومين والضعفاء وهو يسمع ويرى ، ثم يجرهم ويحرق البخور من عود وندى ومسك لتلك الأوثان الجامدة فى حضرة سدنتها الفجرة ١٩٠٠ أو تراه يموت بحسرة الصمت متلفعا بملحفة من الخوف والنفاق ، الخوف من بطشهم والنفاق خشية الاملاق الذى يجلبه السخط ؟

أتراه يغفر هذه الخطايا لعصره وكل العصور التى درسها ؟
 ألا تراه يقول فى صفحة ٣٣٤ :

« لن تكون ذرية ، لن يعقبنا أخلاف ، مثلنا مثل كتاب العصر القديم البائد فى أثينا وروما ، وإن أوروبا الجديدة لن تختلف كثيرا عن أوروبا المعاصرة التى نراها الآن تغرق بمرأى منا ومسمع ، فلا فائدة تعود علينا من الاحتفاظ بفنوننا وآدابنا ، لقد بدأت تدوين هذه المذكرات قبيل الأربعين ، لأننى لم أكن نبيا ولا أعلم

الغيب ، فلم يكشف لى عن الخراب العجل الذى تسير اليه المدنية الأوربية بخطى واسعة مجدة جاهدة نحو الهاوية (يشير الى حرب سنة ١٩١٤ وعواقبها ، فماذا كان يقول لو امتد به الأجل الى سنة ١٩٤١) .

ان هذا الرجل لا يكذب ولا يخدع ، وقد يتحایل تحایل الصيدلى فيطلى الدواء المر بغشاء من السكر ليسهل على المريض ابتلاعه ، فكذبه طلاء السكر الذى يذوب فى الفم ، لاطلاء النحاس بالذهب الذى يخدع العين ولا يعلى قدر النحاس ، ولكن السكر يهون أخذ الدواء ولا يغير من تأثيره ولا يبطل فعله .

لقد حرت والله بعد قراءة هذه النبذة ، فليس كل كاتب بقادر على صياغة أخباره فى صورة قصة ، وما كل كاتب بقادر على فن مؤلف « تاييس » ، وما يكلف الله نفسا الا وسعها ، وان هذا الأمر ان لم يبلغ درجة من الكمال تدانى هذه الكتب فلا خير فيه ، والاضطرار الى ذكر الحقيقة المجردة على أنها حقيقة ، أشون من الفشل فى النهاية ، وهو يقول « لو ان هذه الترجمة فشلت لرفع القناع عن التاريخ لكادنى ذلك كيدا » .

وقد استغرق أناطول فترة أربعين عاما كتب خلالها وأعاد-نظره وراجع ونقح وتدارى جهد طاقته ، وقد فاق رومان رولان فى « جان كريستوف » الذى حبر عشرة مجلدات ولم يكتب سواها ، فاستنفدت جهوده واستنزفت دماء فنه .

وهذا الكتاب الآخر لرولان ترجمة حياة مقنعة حتى تكاد لبضع أصبعك على كل شخص من أشخاصها وتعرف اسمه بوصفه وتحليل أخلاقه وصنعتة . ولكن رولان جعل كتابه أمل حياته وتفانى فيه وأسهب وأحسن وأتقن ، ونال فرانس هذه الغاية وحقق الأمنية على مدى السنين ، فكان أقرب الى النجاح .

لم يقصد فرانس الى الشهرة ولا ايلام أحد ، ولكنه قصد الى التعليم والتهذيب وأخرج الشهد بعهد أن اهتضم الأزهار وكان بعضها مريرا وبعضها ساما ولكنه أخرج عسلا فيه شفاء للناس وتنوير لعقولهم .

ان من أهم الأشياء التي يجب أن نلاحظها أن وصف العصر والحياة بيد المعاصر من أصعب الأمور ولا يصل اليه الا بقدرة فائقة وتوفيق عظيم من الله .

وقد ساورتني هذه الفكرة من الصغر فحاولتها بتدوين مذكرات ثم بتأليف قصص ثم بسرد لوصف الحياة من جملة جوانب ودراسة شخصيات مختلفة ، وكان فكري في هذا الطور الاول ، منصرفا الى مجرد التسجيل ، مدفوعا اليه برغبة خفية ، وكانت الوقائع والحوادث التي تلفت نظري أكثر من سواها تتجه دائما اتجاها واحدا وهو مخالفة ما يحدث لما ينشر ويكتب ويدون سواء في مصر التي فيها المشاهد واقعة تحت نظري ، أو في الخارج الذي أقرأ كتبه وصحفه ، وأن في مصر صورة مصغرة من أوروبا ، وأن الاثنين جميعا حالات مناقضة لما يجب أن يحدث ، وأن الجميع سائرون الى حالات هلاك وانحلال في الاقتصاد والأخلاق والاجتماع والسياسة ، سواء في الأفراد أو في الجماعات .

ولأجل أن أنصف الحق ونفسي بدون تواضع كاذب ، يجب أن أقول : ان فكري اتجه مباشرة الى أن المال هو سبب هذا التدهور ، وأنه لا شك توجد قوانين ثابتة خاصة بالوقت والعدد والزمان ، سائدة على كل حركات الأمم والعالم ، فوضعت في كتاب « حياة الشرق » الذي طبع سنة ١٩٣١ - وطبع الفقه قبل ذلك بسنتين سنة ١٩٢٩ - شيئا سميت « القانون السبعي » بدون نظري

الى فكرة دينية أو تراثية Traditional ، فقلت : ان حياة الأمم تبلغ ٧٠٠ سنة من الحضارة والثقافة ، وكذلك الحوادث الكبرى (انظر الى هذا القانون وكيفية تطبيقه فى الكتاب صفحة ٣٣ ، ٣٤) .

ثم ان مسألة تأثير المال تأثيرا سيئا فى حياة الأمم كانت مبهمة فى ذهنى ابهاما عظيما حتى كنت أسمى هذا الشر « شيطانا » ، أو أن المال من اختراع شيطان ، ولم يكن فكرى منصبا على المال من حيث هو مال أو شيء مادي ، ولكن على القدرة التى وضعت فيه وكونه مقياسا لكل الشهوات والطلبات وقوة الاغراء ، وأن الذى يملكه يكون عنده قوة عظيمة جدا ، فاذا استعملت فى الشر أو فى الأغراض الشخصية كانت سبب هلاك وأسى كبيرين .

وفى الوقت نفسه نظرت الى الأمم ، فرأيت أن اليهود وحدهم هم الذين أدركوا من قديم الزمان أهمية المال وبذلوا كل ما فى وسعهم للحصول عليه والسيطرة به والتصرف فيه وتسخير الآخرين أفرادا وجماعات لأغراضهم ، وأن الذين صنعوا ذلك من الأجناس الأخرى كالفينيقيين وغيرهم - كانت فيهم أخلاق اليهود ، ورأيت أن استيفاء هذا البحث يستغرق مجهودا كبيرا للوصول الى حقائق جازمة لاثبات وجهة نظرى ، وفى النهاية اذا توصلت الى اثبات ذلك فى كتاب ، فما الفائدة منه غير قناعتى العقلية وسرورى بالوصول الى حقيقة حاسمة ، وهى لذة عظيمة أشعر بها دائما .

أما فيما يتعلق بأعمار الحضارات ، فهنا يجب أن أقول : ان أسباب انهيار الحضارات كان دائما فكرة شاغلة لذهنى مشغولية كبيرة ، وهنا يجب أن أشير الى مسألة مهمة للغاية تفوت كثيرا من الباحثين ، هى أنهم يخلطون الحضارات بالشعوب ، فيتوهم كثير من الناس أن ضياع الحضارة اليونانية معناه فناء الشعب اليونانى ، وأن زوال الحضارة المصرية القديمة معناه زوال الشعب المصرى ،

مع أن الحقيقة غير ذلك على خط مستقيم ، فإن الحضارة نزول بالتدريج وتبقى الأمم خاضعة لشعوب أخرى أقوى منها في الغالب وهي التي جاء عليها الدور في القوة .

وقد تكون الأمم القديمة قد زادت في العدد والنماء والكثرة ، ويكون أهلها سعداء ، ولكنها إما غارقة في الجهالة بالنسبة لماضيها ، أو عاجزة عن استرداد مجدها .

ولم يحدث أبدا أن دولة استردت عظمتها القديمة ، ولكنها تعيش على الماضي ، وإن حاولت احداها العودة أو التجديد فإنها تفشل كما حدث لبعضها في القرن العشرين ، أو يكون انتعاشها وقتيا .

ومن مصائب الحضارات أنها تفكر فورا في السيطرة على العالم ولا تقنع بالقليل أو الوسط (روما - الاسكندر الأكبر - نابليون ٠٠٠٠ الخ) ، ولا تتخيل عظمة قومية بدون فتوح ، فتصل أحيانا إلى التضخم المعجز .

وعلى كل حال لم أفهم أسباب زوال الحضارات ، أو أنها أسباب أيا ما تكون لا تقنعني ، وبعضها متشابه ، وبعضها متفاوت جدا ، ولكن النتائج التي وصلت إليها هي :

١ - أن الحضارات لها أعمار .

٢ - أن الحضارات إما دينية ، أي تعتقد في إله وروح وبعث ونشور وثواب وعقاب ، وإما أخرى لا تعتقد في ذلك ، وأن الحضارات الدينية تنتهي بأن تصير لا دينية وتتحول من روحية إلى مادية .

٣ - أن الحضارات اللادينية تعيش أكثر وأقوى من الدينية أو من التي تنقلب من دينية الى لادينية ، مثال ذلك اليابان والصين ، فان هذه الأمم - ما عدا البوذية الطارئة على بعض سسنانها والقادمة من بلاد غير بلادهم - عاشت طويلا وعمرت كالصين أو ما زالت قوتها في صعود كاليابان .

٤ - ان الأديان ليست لاصلاح الانسانية وتحويلها الى الخير المحض ولكن للحد من الشر والتقليل منه على قدر المستطاع .

٥ - قد تكون الأمة قوية متحضرة ، ولكنها قانعة بالاقامة في حدودها وليس لها مطامع خارجية اذا قنعت بأراضيها والخير الذي لديها ، كالصين والولايات المتحدة الأمريكية .

٦ - أن الأحوال المعاصرة للشخص العارف والفاهم ، تختلف بالمرّة عن الأحوال الموصوفة في الكتب أو على ألسنة الناس ، فالأحوال الموصوفة في الكتب هي على كل حال بالاجماع استهجان الطبيعة البشرية والعجز عن هدايتها ، وأن ما يسمى خيرا ليس الا مثلاً أعلى Ideal يرقب ولا ينفذ ، وما يسمى شرا هو الشيء الدائم المستمر .

٧ - ان اهتمام الناس الآن بكل شيء كان اهتمامهم به من قبل شديدا ، وتحكم رجال المال في كل شيء ، وبعبارة أخرى تحكم المال في الرجال حتى أصبح أحد لا يبالي كيف يحصل عليه مادام يصل اليه ، وأصبح لا يوجد حاجز تقف عنده شهوات الناس ومطالبهم ورغباتهم .

٨ - اني اشعر منذ بضع سنين بنوع من الشعور بزوال الحاضر وتغييره الى آخر ، ولكن ما هو ؟ ما نوعه ؟ ومتى ؟ ... لا أدري .

لو لم يكن من شرف التاريخ إلا ان يستطيع رجل مثل شديد الشوق الى الحقيقة تنويعاً متحرراً اجبات صورة لصوره ولو في لمحات خاطفة كلمحات البرق ، لكناه فخوراً ! ، لان ولوعى - ولا بد انه من نوع ولوع المساكين الذين عذبوا بنار المعرفة - لا ينطفىء ولا يخمد أبداً جرياً وراء الحقيقة ، وهى التى عديتني منذ نعومه اظفارى وقضت على بالأسر وكبت العواطف وحبس الاحاسيس والمشااعر ، وقد عبرت عن هذا الولوع على قدر طاقتى فى كتاب « ليالى الروح الحائر » ، واننى أشعر دائماً فى نومى ويقظتى وصحوى وسكرى بأننى مسوق بسيط الذع وأشد من سياط الجلد ، لأصل الى الحقيقة المطلقة ، فان لم أستطع ، فعلى الأقل الى الحقيقة التى تقنعنى .

ومنذ أربع أو خمس سنين ، شغلت ليل نهار بتصوير العصر الذى أعيش فيه على قدر طاقتى .

أقول لو لم يكن للتاريخ شرف وفضل أدركهما ابن خلدون وأمثاله ولاسيما فى الشرق المظلم المبهم - لكفى التاريخ فخراً !

انظر الآن يا أخى الى هذا العصر الذى يظن الناس أنه لم يوجد مثله ولم يسجل ما يقرب من تسجيله ، وهذا ظن خاطئ وهم باطل ، فان الانسان حنق شبيئين ، الأول المثل الأعلى للحق والجمال والخير ، والثانى انشورر بأنواعها ، وترك الباحث فى حيرة عميقة بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن بالفعل .

لقد عكفت منذ زمن طويل على الدرس والمطالعة حبا بالمعرفة وشفافاً بالوصول الى الحقيقة ولو كانت نسبية على قدر ما يصل اليه اجتهدى وقدرتى الانسانية فى البيئة التى نشأت فيها وهى مصر .

فوجدت في سبيل عقبات كثيرة ايجابية وسلبية ، وأهمها وأشدّها خطورة عدم اهتمام الجمهور بغير الأمور المادية ، ما يتصل منها بالمعاش والتكاثر والتفاخر والحصول على القوة المادية ، فنأيت عنهم جانبا مع شدة الحاجة الى الاستعانة بهم ، واتجهت الى من اعتقدت فيهم بعض الميل الى المعرفة والشوق الى العلم ، فوجدتهم مفكرين غير مؤتمنين ، ووجدت فيهم أزرارا وعنتا وترفعا عن العامة والدماء مع أن واجبهم أن يعملوا على انارتهم وتنويرهم ، ووجدت في الناحيتين تشييطا يكاد يكون فطريا ، فالحماسة للرفعة العقلية والتسامي الى المثل العليا والبحث في شئون الانسانية كل هذه معدومة بتاتا . وأنا لا ألومهم لأن شئون السياسة والوصول الى الحكم والوظائف ومشايعة أقوياء اليوم أو أقوياء الغد ، قد ملكت عليهم نفوسهم .

وهذه المتنبطات لحليقة بأن تقتل الهمة وتقت في العضد وتجرد المحارب المستعد من سلاحه ، لم تتمكن مني لأنني كنت أشعر من حداثة سنني بواجبي في المساهمة بنصيب مهما كان ضئيلا في خدمة الانسانية عامة وهذه البسالة المصرية خاصة ، فبدأت في سن الثامنة عشرة في التأليف والنشر واخراج الكتب وكتابه المقالات في المجلات والصحف والخطابة والمحاضرة ، وكان ذلك في العام الاول أو الثاني من القرن العشرين ، ولكثرة ما كتبت وخطبت ، يظن أكثر المعاصرين أنني أسبقهم في السن بكثير من العقود لا السنوات ، ويسألني بعضهم ان كنت أدركت جمال الدين الأفغانى وحضرت دروسه ! ، فأقول لهؤلاء الفضلاء اننى وان فاتتني صحبته ، فلم تفتنى صحابته وقد عرفت خيرهم وفي مقدمتهم المرحوم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ولا أقول لهم اننى كاتبته وقابلته سنة ١٩٠٣ في داره بعين شمس ، ولكننى أحمده الله على أنهم أحسنوا الظن بى حتى وصلوا بين هذا المصلح العظيم وبينى .

وقد شعرت من اللحظة الأولى أن هذه الأمة المصرية الكريمة أمة كلام وحديث وجدل ومصالح ومساائل شخصية ومحاورات

أما كتبى التى وضعتها وسودتها وبيضتها وطبعتها ونشرتها ، فكان معظمها براءة دمه ورغبة لى العيام بسرض عين لا فرض كفاية ، وقد عانيت فيها كثيرا وأحمد الله على أنى لم أجد منها أقل ثمرة مادية ، وقد بدأت الطبع والنشر سنة ١٩٠٣ واستمرت الى سنة ١٩٤٠ ، وفى أثناء دراستى فى أوروبا اشتغلت بالتأليف فى أوقات فراغى ، وقد بينت ذلك فى الكتب نفسها وعند طبعها فلا لزوم لذكرها .

ثم فكرت منذ بضع سنين في وضع كتاب وجيز يكون بمثابة الخلاصة لدراستي وتجاربي ، ولا أقصد أن يكون وصية عقلية لهذه الأمة الكريمة فانها أعظم واكبر من أن تصغى الى أحد أبنائها ، وان تكن بها فضيلة لا تنكر وهي أنها تصغى للموتى وتقدرهم بعد وفاتهم وتحثفل بهم وتمجد ذكراهم مهما كانت درجة اهمالها اياهم وهم أحياء ، فكل متوفى - سواء اكان شاعرا أم نائرا أم خطيبا أم مصلحا أم حكيما أم مفتيا أم فاضل الأخلاق - ينقلب بعد وفاته عظيما جديرا بتقدير الوطن وخليقا بالتكريم والحفاوة ، ومهما كانت درجة اهمالهم اياه في حياته ، وكل واحد من هؤلاء الموتى المغبونين خليق في نظرهم بأن يقام له تمثال أو يدفن في « بانثيون » ، وخليق بأن يعاد طبع كتبه ويجمع كل ما دونه ولو بالقلم الرصاص .

وقد فكرت في هذا الأمر طويلا الى أن هداني التفكير الى أن هذا الأمر ليس مصادفة ولا خطأ ولا قصورا عقليا ، وإنما هي « المعاصرة » ، وقد صدق من قال « ان المعاصرة حجاب » ، فهي تفتي أبصارهم عن محاسن الأحياء ، فإذا قضوا نجبهم أمنوا خطرهم ومنافستهم ، وكان يضر عليهم أن يشجعوهم في حياتهم ، فلا مانع من الإقرار بفضلهم بعد أن صاروا تحت الثرى !

وقد أيد هذا الرأي عنى أن المصريين شديدا الاهتمام بالآحياء اذا كانوا أهل سلطة ونفوذ ويمكنهم أن ينفذوا ويضروا ، فهم معبودون لديهم ، يحرقون أمامهم البخور صباح مساء ، ويكادون يشيدون لهم المعابد والهيكل ، فاذا انحدر رجل وهبط درج المنصب الذى كان يخلع عليه المهابة ، أو تزعت مكانته المالية ، فقد لحق بالموتى ، ولكن الموتى الذين يهملون ولا يمجدون لأنه على حياته لا تخشى منافسته ولا مزاحمته ، لأن كل قيمته كانت محصورة فى منصبه .

وهذه الخلطة تدل على كل حال على أنهم ينصفون الموتى من أهل الامتياز العقلى والخلقى ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تعد وقد شهدتها منذ نعومة أظفارى ومنذ اتصلت بالمطالعة والقراءة ولاسيما ما كان حادثا فى أوروبا من تمجيد الأحياء وتشجيعهم والأخذ بأيديهم وإبراز مواهبهم للاستزادة من منافعهم للمجتمع ، لأن الرجل النافع كالزهر اليناع ، كلما زده ربا وعناية ، زادك عبرا وحسن منظر ، فاذا أهملته ذوى وذبل .

وأحب ان أشير الى أننى منذ سنة ١٩٤٠ - وهو تاريخ آخر ما نشرت من الكتب ثورة الاسلام وبطل الأنبياء - عكفت على الكتابة والاختزان وكففت عن الطبع والنشر وجعلت هذه المخطوطات أمانة عند أولادى ، وقد أشركت بعضهم فى تحضيرها وتدوينها ، وقصدت بهذه المخطوطات - وهى أنواع شتى فى الفلسفة والتاريخ والأدب والقصاص والمسرحيات والمذكرات - اشباع رغبتى ونهمى فى التدوين والانتفاع بالقدرة مادامت والاعتراف بفضل الله على بتمكينى من الدرس والتأليف ، فهذا نوع من العبادة والتمجيد لله والعرفان ، وقد قال شاعر غربي « اعمل ما دمت قادرا أن ترى النور Work while thee hast the light ، وربما كان هذا قول بروننج الانجليزى . ولكن قول يعجبني ، ومادمت قادرا على القلم ،

متمكننا من خطامه ، فأرى فرضا على أن أعترف بفضل الله على الكتابه ، وما دمت متمكنا من الكتاب ، متمكنا من جلده وصحفه ، فأرى واجبا على أن أقر بكرم الله على بالقراءة ، وقد أحبت القراءة والكتاب محبة العاشق لا اصبر على فراقهما وهما النعمتان اللتان استطيع ان أستغنى عن كل شيء دونهما ، ولذا أسأل الله أن يديمهما على الى اخر نسمة من حياتي ، ولو كنت محاربا وتقلدت سيفي ورمحي - او مدفعي الرشاش على نسق اللغة الحديثة بعد الحرب - ما تخليت عنهما ، فالقلم والكتاب سيمى ورمحي وسلاحى فى هذه الحياة ، بل صرت اعتقد انهما سبب وجودى لأننى أصل وهما تبع ، وأرى أزلية القلم والحرف أزلية مطلقة الهية ، فهما أداة عبادة وتقديس وتمجيد لخالقهما والذي أقسم بهما وعلم الانسان بفضلله سبحانه ثم بفضلهما •

انى أعجب عندما أنذكر أننى قضيت معظم وقتى فى دراسة وقراءة كتب وصحف وتواريخ وآداب لا يعود منها نفع مادى أو مباشر مطلقا ، كنت مندفعاً - وما أزال - نحو المثل العليا وتغذية الروح وتجميل العقل وادخار المعرفة من كل مصادرهما دون أن أفكر فى أى نفع يعود على ، وقد أنفقت مالا طائلا فى الحصول على الكتب والمجلات والصحف فى كثير من اللغات ، وسافرت أحيانا للحصول على كتاب أو لقراءته فى مكتبة عامة •

قد يبدو هذا عجيبا ولكنه وقع لى •

وعندما أدنو من مكتبة تباع فيها الكتب بأية لغة من التى أعرفها أو أطمح فى أن أعرفها أصير كالمقامر الذى يدنو من مكان لعب الميسر أو كمدمن الخمر عندما يرى حانة لا يملك أحدهما أن يعوف نفسه عن غشيانها •

والآن أتذكر فلا أجد الا صورا باهتة مما قرأت أو لخصت ،
ولكن لذة الذكرى وحدها عظيمة جدا عندي ، انها نشوة ، انها حياة
تنتعش وتعود ، انها نوع من بعث الروح ، واطن أننى أموت وأخرج
من الدنيا بالايمان بالله ثم بهذه الذكريات تؤنسنى وتعيننى فى أداء
امتحانى الذى يبلغنى النجاح فيه غاية اللقاء بهذه الأرواح الطيبة •

لقد سافرت الى بروكسل سنة ١٩١٠ لحضور مؤتمر وطنى
مصرى ولاشتري كتابا لا أحب الآن أن أذكره • بروكسل مدينة
جميلة غنية ، ولكنها ثقيلة الظل ، عليها سيما اليهودية الحسناء التى
لا تزينها العفة ، وفيها رأيت كير هاردى ، كان شيخا وقورا فقيرا ،
وكان أخطب خطباء انجلترا وأيقوسية وايرلندا فى عصره ، وهو
مؤسس حزب العمال ، وكان أقرب الناس شبها وخلقا بجان جوريس
وتنقصه ثقافة جوريس ، لأن جوريس كان أستاذ فلسفة ، ولكن
طبيعة هاردى كانت أقوى وأسلم ، وقلبه أبسط ، وقد ذهب كلاهما
ضحية الحرب العالمية الاولى •

كان هاردى لا يحمل نقودا ، كان متقشفا يفخر بالفقر ،
ويصفع فقره غنى زعماء الشرق عدا غاندى • كنا نركب سيارة ثم
يتجه الى فى عظمة الأستاذ والصدى قائلا : جمعه ادفع أجر
السيارة • فأفرح اذ أجد فى جيبى ما يكفى •

وكان فى بروكسل فى تلك الفترة مدام كاما الهندية التى
خطبت فى المؤتمر المصرى وقالت : « ان الحرية لا تنال الا بسفك
دمائنا » ، فاضطرب المرحوم فريد بك رئيس الحزب الوطنى وقال
« نحن لسنا فى مؤتمر هندي » ، فهاج عليه الجمهور وأسكتوه •

وكان معها هارديال ، وهو وطنى وأديب هندي كبير وناخب فى
الرياضيات والشعر ، وكان « أنموذجا » فى الفاقة والفلاكة (١) ،

(١) الفلاكة : الفقر • وللطيفى جمعة دراسة أدبية عنوانها « الفلاكة والديمية
فى الأدب » طبع عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ - ١٩٩٩ •

عاش بعيدا عن وطنه وأهله ، يروح ويغدو جائعا ، ثم هاجر الى أمريكا واستغل الأمريكيان مواهبه فجمع مالا ولم أسمع عنه خبرا بعد ذلك .

كنت في ذلك الوقت اقرأ مجلة اسمها *Oeuvre* لجوستاف تيري ، وكان هجاء ثائرا ومتخرجاً في « الايدول نورمال » وزميلا لادوار هريو ، ولكنه كان مفلونا ، وشتتم رؤساء الجمهورية والوزراء واشتهر شهرة واسعة ، ثم أسس جريدة « الحرب الاجتماعية » وحمل فيها حملات منكرة على البورجوازية ، ولما أعلنت حرب سنة ١٩١٤ جبن وتظاهر بالوطنية ، سمعته يخطب فلم يعجبني ، كان سبابا طالبا للمال والمنصب .

لم يعجبني من خطباء فرنسا غير جوريس وبريان وادوار هريو ، ولكنه متأنق وليس مثلهما ، وسمعت شاعرا يخطب « جان ريشبان » من شعراء مونبارناس (المدرسة الادبية) كان ملحدا وثائرا ، خطب في تياترو سلسيتين بليون ليلة مثلوا احدى مسرحياته الشعرية ، تكلم في موسيقى الشعر وتفكير الشاعر في القوافي فكان بديعا ، وهو أيضا خريج النورمال ، ولذا كان سرورى عظيما في تلك الليلة ، فنسيت المسرحية ولم أنس المؤلف ، وتكاد صورته تشخص أمامي الآن ، وكذلك صوته وألفاظه منذ أربعين عاما .

لم أر هنري باربوس ، ولكن قرأت كتبه « النار » ومجلته ، ومن أقواله « ان الأفكار الكبيرة تسير طويلا ثم تنفجر ويكون لها دوى عظيم » ، لقد كان شيوعيا صميما وبغيضا عند كثير من أهل فرنسا لشيوعيته ، هل كان يقصد الى الثورة الروسية أم يتكهن بالقنبلة الذرية ؟

لقد اجتمعت الاثنان في زمن واحد .

وبمناسبة الثورة في روسيا أذكر أنني في سنة ١٩٠٩ شهدت مسرحية عنوانها « الليلة الكبرى » وكتبت عنها فصلا في جريدة اللواء بتوقيع « قارىء ناقد » ومثلت دور البطولة فيها « فبراسيرجيتي » الاسم روسي والمرأة فرنسية (لعله اسم منتحل) ، لا أزال أذكر جمالها وهيبته وقوتها عندما صرخت « صوت الدماء يرن » .
ما هو صوت الدماء ؟

وهذه الفتاة التي كنت أعشقها بالعقل كأنها كائن علوى من عالم المثال ، أين ذهبت ؟ وماذا كانت حياتها ؟ وهل كان شعورها الذاتي ينطبق على فنها الرائع ؟

لقد خلقت شخصية أخرى في مسرحية سان سيباستيان التي نظمها شعرا فرنسيا جبرائيل دانونزيو الشاعر الإيطالي ، كانت تمثل فتاة مريضة ألسوها لتشفي من الحمى كفن المسيح الذي لفوا فيه جثمانه بعد الصلب (على العقيدة المسيحية) ، وقد بقيت في الكفن صورة الوجه العيسوي (حسب الأسطورة التاريخية) ولأجل اتقان التمثيل رسم دانونزيو بيده ذلك الوجه كما تخيله ، وتفضل على الممثلة بعد قيامها بالتمثيل بأهداء الثوب إليها وعليه الصورة التي رسمها ذكرى لفنها واتقانها . تأمل ! من « صوت الدماء ترن » إلى دماء المسيح نفسه ! . . . مظاهر للفن .

ما قيمة هذه الذكريات التي سجلتها ذاكرة فتى في العشرين من عمره في بلد غريب وفي طور التعليم في الجامعة الفرنسية ؟ وكيف فكرت في أن هذه الحياة تؤهلني للجنة أى لنعيم الروح والعقل والاجتماع بالارواح العليا واجتياز امتحان الفردوس ؟

أننى لم أفكر قط في المال ولا في المنصب ولا في أمجاد الدنيا ولا في العشق المحلل أو المحرم ، في تلك الفترة كنت على الفطرة مدفوعا الى الحق والجمال والخير ، ولم أظفر بما يملأ يدي

من سعادة لها علاقة بالحواس أقرأ الكتب وأستمع الى الدروس والخطب وأنشد الجمال وأفكر ، وأتمنى مستقبلا سعيدا للانسانية ولوطنى ، والدليل على ذلك أفكارى التى أودعتها فى كناشات عشرين وجمعتها فى مخطوط بدائه فى بيتى بمدينة ليون سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٠ ثم وقفت العمل فى تسجيلها (١) .

كانت بداية رحلتى بل حجتى الى كعبة الحقيقة .

وكيف انتهت تلك الحجة ؟

تلك الثورة الروسية التى رأيت شررا من نارها الكبرى قد اشتعلت - وليس لى فيها غرض ولا ميل ، قد أسفرت عن قوى متضاربة ، وتلك الأفكار التى كانت تغل وتفور فى سنة ١٩١٠ انفجرت عن حربين عالميتين جلبتا الشقاء على العالم ومازلنا نخشى حربا ثالثة !

ولم يتحقق من آمال الخير والحق والجمال شئ ، بل جاءت النقائص على أنقاض الحضارة التى آلت الى السقوط والانحيار وانقضت وليس صحيحا أنها تريد أن تنقض بل انقضت فعلا .

وأنا نفسى وجدت فى وطنى عجائب وغرائب ، فهذا الشعب يعيش فى القرون الوسطى المظلمة ، وبعضه يعيش فى عصور ما قبل التاريخ بعقولهم وعواطفهم ، وهذه المثل العليا التى كنت أنشدها . وتلك الأمنى التى كانت تداعبنى ، وتلك المعارف التى هويتها وحشدتها وامتلات بها لا تصلح لتلقين أحد ، لأن الذى بينى وبين بنى عمى مختلف جدا ! ، بل الذى بينى وبين أخى وأبى وأمى وابنى وزوجتى وتلميذى وأستاذى مختلف جدا جدا . الخ .

(١) اطلق لطفى جمعة على هذه الأفكار عنوان « خطرات أفكارى ، تجارب والشباب فى الشرق والغرب » ، مخطوط تحت الطبع .

ففيهم يا صاح كان كل ذلك الجهاد والتعب والسهو والتحرير
والتحير والدرس الطويل ؟

وفيم كان استحقاق الجنة ؟

مما لا ريب فيما أن كتابة الخواطر والأفكار التي تدور في
النفوس وتجول في الضمير تعين صاحبها على توضيحها وتصنيفها
وعلى الشعور برفع عبئها عن كاهله ، وهذا الذي دعاني في السنة
الرابعة بعد الخمسين من عمري الى الكتابة في هذه الناحية (١) ،
وكنت أظن أنها من أصعب النواحي وما أزال أعتقد أن أصعب الأشياء
لدى الانسان أن يحلل عناصر حياته ، سواء التي في نفسه أو التي
تحيط به .

ومن هنا كنت أعتقد أن كتابة التاريخ المعاصر من أشق أعمال
الأدب ، ولكن الذي أكتبه هنا لأضع عبئا عن كاهلي ولأبين حقيقة
خطئي في الحياة ، ليس أدبا ولا فنا ، ولذا أكتبه خاليا من كل تصنع
أو تزويق أو تجميل ، ويمكن لي أن أقول ان التصنع وتعمد إخفاء
الحقيقة أو تغميتها ليس من دأبي في كل ما أعمله أو أقوله ،
وما كان من ذلك في أي قول أو فعل فليس الا نتيجة المعيشة في
المجتمع وليس الا ما أحسبه ضرورة تقتضيها العشرة التي تحتاج
في العهد الأخير الى كثير من المجاملة ، والا فأنني أشعر في كثير من
الأحوال أنني لست من أهل هذه الأجيال أو أن قرابتي لأهل العصر
« قرابة بعيدة » .

(١) كتب لطفی جمعه هذه النبعة من هذه المذكرات في يوم الاثنين ١٨ أغسطس

سنة ١٩٤١ .

وان الذى بينى وبين بنى أبى
وبين بنى عمى لمختلف جدا

نعم ان الرجل الذى ينظر فى مجتمع متحرك رجراج كالزئبق ،
وهو كان يؤمل الثبات والاستقرار - لخليق بأن يعتبر نفسه غريبا
فى وطنه ، ويحن الى معانقة المعرى حبا فى قصيدته الهمزية التى
استفتح بها ديوان اللزوميات :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء
تشدد وتنأى عنهم القرباء !

كنت ألقى أديبا رواية وهو المرجوم صادق عنبر ، فكان يشكو
ويتألم وينتقد ، وأنشدنى يوما هذه الأبيات الأربعة :

قدر الله أن أكون غريبا
بين قوم أغدو مضيعا لديها

ورمتنى الأقدار بعد دمشق
فى بلاد أساق كرها إليها

وبقلبنى مخدرات معان
حين تبدو تختال عجا وتيها

صرت ان رمت كشفها فأراها
نزلت آية الحجاب عليها

وهذه الأبيات المتوسطة تحوم حول فكرة الاغتراب فى الوطن
وهى عجيبة حقيقة ، لأنك ما تزال تلقى رجالا - ولا سيما من أهل
العلم والأدب ومكارم الأخلاق - يعتبرون أنفسهم غرباء فى أوطانهم ،
واذا رجعنا الى التاريخ القديم ، عثرنا على أسماء فطاحل فى كل علم
وفن أساء اليهم مواطنوهم حتى أخرجوهم من ديارهم ، فلقوا كرامة

فى أوطان أخرى ولقوا نجاحا وتوفيقا ، وكان الاخراج بأحكام النفى السياسى لسنين معدودة وتحريم الإقامة أولا ثم العودة •

ويظهر أن جنس الإنسان شديد الغيرة والحسد لأهل الحق أو أصحاب المواهب وعدو لدود للصراحة ، فكل من كان منسوباً لأحد هذه الأنواع الثلاثة لابد أن يلقى وبالا قبل أن يصل إلى شيء من النجاح إن لم يلق حنقه فى هذا السبيل ، ولست فى حاجة إلى تعديد الأشخاص من طبقة الأنبياء والزعماء والعلماء والمصلحين والأدباء •

إن أكتب هذه المذكرات ؟

لله ولنفسى • ولا أظن أن أحدا يعرفها أو يدركها ، وهى مكتوبة بسرعة وتحت تأثير ضغط شديد لأسرى عن حالتى ، وهى - كما يقال - نفثة مصدور ، فإن رأسى كالمرجل الذى يغلى ، وصدرى يكاد ينفجر مما أرى وأسمع فى هذا الوطن الأسيف •

فعلى من يعثر عليها من أولادى أو الغرباء أن ينسقها وينشرها بعد موتى ، وإن مد الله فى أجلى فأنا أقوم بهذا العمل ، لأنه يعطى صورة ولو ضعيفة عن هذا العصر وعن الحياة فى مصر أثناء هذه الحرب ، ويقينى أن كل مجهود فى مصر ضائع وأن سادتها يعملون لمصلحتهم ولا يراعون الله ولا الضمير •

المهم عندى فى هذه المذكرات الإشارة إلى المسائل العامة السياسية والاجتماعية فى مصر والعالم وتدوين أخبار العظماء الذين يلحقون بربهم ، والإشارة الخفيفة إلى حياتى الخاصة وتتبع النضال المستمر بين الأحزاب المصرية التى أوشكت على الهلاك بفعلها ، وانتظار نهاية الحرب التى طال وأوشكت على تمام السنة السادسة منذ اشتعالها فى سنة ١٩٣٩ ، أما فيما يتعلق بعملى وصحتى فأننى أكتب الأقل •

ان وظيفة الكاتب الحقيقية هي تسجيل الحياة كما هي ، وقد يكون هذا التسجيل ملونا ببعض شخصية الكاتب ، وهذا هو العمل الفني في أصح معانيه ، فليس عليه أن يسعى للنقد أو للإصلاح ، فهذا عيب ، ولكن الوصف نفسه يعمل أكبر عمل ويحدث أعظم أثر «كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » صدق الله العظيم .

(محمد لطفي جمعة)

الطفولة

(١)

المولد والعائلة (*)

ولدت فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٠٣ هجرية الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٨٦ مسيحية فى مدينة الاسكندرية فى منزل لا يزال قائما فى أحد الاحياء التى تسكنها الطبقة الوسطى (حتى كوم الدكة) ، من والدين من تلك الطبقة ، وكان ميلادى فى فصل الشتاء بعد العشاء أو أثناء أذانها ، وكانت ولادتى عسرة ولم أستطع الرضاع الا بعد ثلاثة أيام حتى كدت أهلك لولا أن جارة أشارت بتغذيتى بقطرات من ماء الورد المحلى . ولما كان لبن أُمى شحيحا ، فقد عثروا على مريض مصابة بالتهاب فى الجفون وضعف فى المصران ولم يجدوا سواها فأرضعتنى (١) وأورثنى هاتين الحاليتين ، فبرئت من الأولى ولازمتنى الثانية ، ولعلى لم أَرْضِع من أُمى بعد ذلك الا بعد بضعة أشهر .

أما المنزل الذى ما يزال قائما على حالته ، فهو بناء مرتفع فى شكل مستطيل وليس فيه شيء من الجمال سوى نخلة يتيمة فى فناءه ، والبيت محصور بين منازل أخرى لا يدخله الا قليل من النور والهواء ، وقد شهدت الغرفة التى ولدت بها ، فإذا هى واطئة

(*) كتب لطفى جمعة هذا الفصل فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ .

(١) هى السيدة ملوك والددة الموسيقار سيد درويش .

يغطي أرضها بلاط قائم وقد رأيتها في الأربعين من عمري وهي خالية من الأثاث ، ورأيت موضع كرسي الولادة الذي وصف لي والنافذة الصغيرة التي كانت أمي تنظر إليها كلما ازدادت عليها أوجاع المخاض التي استمرت يومين وليلة . وقيل انني ولدت عند الأذان بينما كان المؤذن يقول « محمد رسول الله » ونادى شخص في الطريق باسم ولقب فجعلوهما للمولود الجديد تفاؤلا واستحسانا ، وكان والدي يجلس بعتبة الباب الخارجي باب الدار ، فقد طلقت أمي بعد الحمل بي ، فجاء الرجل في ساعة الميلاد يعلن أنه لم ينجء مصلحا ولا مجاملا وإنما ليستقبل ابنه الذي سيولد في هذه الليلة وهذه الساعة ، فعجبوا لدقة حسابه وصدق تقديره ولكنهم أخفوا خبر حضوره عن الوالدة لأنها لم تكن تميل الى مطلقة كل الميل .

وكانت خالة لي صغيرة في السن قد أعدت لي ثيابا ولفائف وطاقية من أقمشة قديمة لتكون طرية لينة على بدني الصغير . كانت هذه الصبية تعين أمي وتساعدوها وهي شقيقتهما كلما اشتد مخاضها قبل الطلق .

وقيل انني ولدت مستورا في غشاء جلدي رقيق اختلسته الداية ، ولكنني ولدت ضعيفا كأنني هيكل عظمي في كيس من الجلد أظهر ما فيه تجاعيد جسمه وعنقه وخفوت صوته ثم صراخه عندما بحث عن الثدي فلم يجد ، حتى هبط صوته ، وصار كأنه نزع لا عويل وحشجة لا استغاثة الى أن أدركته عناية الله بمشورة الجارة التي أفتت بتعليقه بالماء المحلى .

كانت مجموعة من النساء المختلفات سنا وعقلا هي التي استقبلت الطفل ، يقوم عليهن رجل واحد وزوج أحدهن وهو كهل شبه ميسور محافظ ذو تقاليد يتعاطى التجارة اسمه (حسن الطويل) ، كان ربعة أسمر اللون أنيقا في ثيابه

الاسكندرانية من سراويلات وصدرية وحزام وحذاء « كونتره »
وطربوش مغربي تحته طاقية بيضاء لا يبين منها الا نصف قيراط ،
ولحيته بيضاء وهو يتكلم بلهجة « أهل بحري » التي كأنها تقتلع
الحروف اقتلاعا وتبالغ في الجيمات المعطشة وغير المعطشة ، مع
سماحة وبتساشة وميل للخير وعقيدة دينية هائلة ، كان شعاره
« رأس الحكمة مخافة الله » ، يحب الحلال وينتجراه ويكره المحرمات
ويحاربها ويتسوسو على نفسه وعلى من معه ، وكان تاجرا في الغلال
« بميناء البصل » وفي « الميدان » ، وكان يحوطه لون من البطولة ،
كان محترما ومحبويا وفصيحيا ولكنه لا يفهم المزاح ولا يشجعه ،
كان واسع العينين ، كبير الرأس ، نافذ الكلمة ، قوى الارادة
ولم يكن يكيده الا حرمانه من النسل وقد صنع المستحيل ليولد له
ولد ذكر فلم يصبه •

كان خفيف الروح حازما شهما يتحمل أشد الصعاب وكريما
لا يبخل بماله على الأقرباء والغرباء ، وها هو ذا قد رأى مولودا يولد
لبنت زوجته التي يعدها بنتا له منذ غيببت الأقدار والدها ، وزاده
غبطة أنه هو الذي اختار الزوج الذي أعقب هذا الولد وان لم يكن
الزواج قد نجح لاختلاف الخلق بين الوالدة الفتية والزوج الذي
اختاره لتقواه وصلاحه ، فظن النقوى مبررا والصلاح صلاحية فكذبته
الحوادث ، اذ وقعت الفرقة قبل ميلاد الطفل وشيكا •

كان حسين الطويل بعطف على الأم وأختها وهما ابنتا زوجته
كأنهما ابنتاه وعلى سيده ثالثة هي أم زوجته ويسميهم « كوم لحم » ،
وقد كان شهما لأنه عندما قامت النورة العرايية وأرغم أهل
الاسكندرية على الهجرة ، رحل بهذا الكوم اللحم من النساء -
ولم أكن قد ولدت - من مقرهم ومسكنهم الى حجر التوتية سائرا على
رجليه ، بينما كانت النساء محمولات على دواب أو على مركبة يجرها
حصان ضعيف حتى تمكن هذا الكهل من ملازمة ركباهن كأنه جمال

أو حارس وهو يجرح حمل ثيابه من سراويلات وقباء وحزام « سلبند » وعلى رأسه ذلك الطربوش الضخم ذو الزر الثقيل في وهج شمس يوليوي وتحت أشعتها المحرقة وهو لا يمت لاحداهن بصلة الرحم أو الدم وإن يكن زوجا لاحداهن ، فكانت نخوته ومروءته تقضى أن يحافظ عليهن وهن ثلاثة أجيال مجتمعة ، مباركة والددة جدتي وفاطمة جدتي وخديجة والدتي وحميدة خالتي ، ثم أقام بهن في خيام ما شاء القدر أثناء صرب المدينة بالقنابل واطفاء النيران بعد احتراقها ، ثم عاد بهن في هذا الموكب الحزين عودة المهاجرين الى بيوتهم ، فهل وجدوا بيتهم وأثاثهم ؟ • لقد أخذوا معهم ما خف وغلا ولكن ما تركوه لا يستهان به •

لقد كان الرجل تاجر غلال ولكنه لم يربح أرباحا طائلة ، لأن الأوقات لم تقل والخبز لم يعدم من السوق ولو أنه وجد فرصة الاغتناء على حساب الشعب الجائع ما فعل ، لأنه تقى ورع لا يدخل في وهمه أن الرجل يربح المال عن دماء أمته في أحوالها •

عادوا وهن يروين له وصف مرور القنابل على رؤوسهن اذ صعدن على سطوح المنازل يشهدنها وهي تدوى وتصفر كالأفاعى حتى جعل العوام لها أسماء نسائية فهذه « الحاجة فاطمة » وتلك « الشيخة عيشة » بحسب حجمها وقوة انطلاقها وسرعة انفجارها • وقد رأينا بأعيننا بعض هذه القنابل مظلورة في أراض زراعية بين ترعة المحمودية وخط باب سدرية بعد رميها بخمسين عشرة سنة وقد أكلت الرطوبة والسبخ غلافها الظاهري •

بعد هذه الحوادث بأربع سنوات أو خمس ولدت وما زالت مفعمة الشورة وأهوالها مرسومة في ذهن أمي وخالتي وجدتي ، وما يزالن يذكرن الأقهشة البيضاء التي أمرن بوضعها على أذرعتهن علامة التمسليم وجلب الأمان ، لأن من لم يمسسها يعرض لخصمه بانه

تأثرا أو محاربا حتى ولو كان امرأة أو فتاة ! ..

والدى واسمه جمعه أبو الخير ينتمى الى عيلة نزحت من الوجه القبلي قبل عشرين أو ثلاثين عاما وتختلف بعضها لأسباب لا اعلمها فى قرية « الدلجمون » بجوار كفر الزيات ، والسيدة واسمها « خديجة بنت محمود السنباطى » وكانت سن كل منهما عند مولدى حوالى منتصف العقد الثالث .

وأعرف يقينا أن عيلة الزوج الذى صار والدى كانت مؤلفة من اخوة وأخوات وقد عاش أحد هؤلاء الاخوة الى السبعين من عمره فى قرية الدلجمون ورزق أولادا رأيت بعضهم يطلب العلم فى الأزهر .

اما الاخوات فقد رأيت منهن عددا وفيرا وهن يحملن الأسماء الانية بسيونيه ونواره وسيدة ، وكن متزوجات ومرزوقات بنين وبنات ولا يزال نسلهم على قيد الحياة ، وكانت أوامر القرابة بينهم وبين والدى شديدة متصلة حتى لا يمضى يوم أو ليلة دون أن يجتمعوا فى بيت أحدهم فى حى من الأحياء التى يقطنونها ، ومن تلك الأحياء التى رأيتهم فيها حى العطارين وحى باب سدره وحى ميناء البصيل وحى كرموز وحى بوالينو ، وقد ملك بعضهم عقارا حسنا وادخر بعضهم مالا حتى بعض نسايتهم الا والدى الذى كانت غريزة الملك ضعيفة فى نفسه والميل الى الادخار أضعف ميوله على الرغم من انه كان يعتبر رئيسا لهذه الأسرة رياسة روحية ، فما يبرمون شيئا ان يتنقصونه الا برأيه . وقد صار بعض أصهاره ولا سيما أزواج بنات أخواته من أرباب المال وقد صحبهم فى مدارج حياتهم وتعهدهم حتى نموا ونما معهم أولادهم وأموالهم .

وقد مات هذا الوالد في شهر أغسطس سنة ١٩٣١ بمدينة الاسكندرية ودفن في مقبرة العيلة بمدافن عمود السوارى (سيرايموم) وكانت سنى عند وفاته ستا وأربعين سنة ، مات فى السبعين من عمره ، فى حين أن والدتى سبقته الى العالم الآخر فى سنة ١٩٠٣ أى أنه عاش بعدها ثمانى وعشرين سنة تزوج خلالها أكثر من عشر مرات على التوالي ومات عن الأخيرة منهن وهى سلمى ، وكان عمى عند وفاة أمى سبع عشرة سنة وكنت أطلب العلم فى السنة النهائية فى المدرسة الخديوية التجهيزية بدرب الشماميز ، وكانت وفاتها فى السادس من شهر أكتوبر من تلك السنة المشؤومة بالنسبة لى والى ما أصابنى من الآلام التى لازمتنى .

كان والدى رجلا قصير القامة قوى البنية أبيض اللون متحريرا بحمرة لين الصوت حاد البصر شديد الصبر على المكار ، قنوعا الى درجة الزهد يعمل فى الحياة ليستطيع العيش والعبادة ، وقد قضى الشطر الأكبر من شبابه فى صحبة الشيخ حسنين الحصافى المتصوف المدفون فى دمنهور (١) ، وكان يصحبه فى سياحته ورحلاته وحله ، ولا يزال أولاد الشيخ ومنهم عبد الوهاب على قيد الحياة ، وكانوا يقطنون بيتا كبيرا فى قصر الشوق بالحى الحسينى . وكانت صلة والدى ببيت الحصافى قوية حتى انه كان ينزل وزوجته سلمى فى بيتهم عندهم بعد زيارتى وكنت أعجب لذلك . وعبد الوهاب الذى حل محل أبيه فى شياخة هذا الحزب الدينى رأيت له للمرة الأخيرة فى ربيع سنة ١٩٣١ فى بيت بشارع فاطمة النبوية بالعباسية منفردا عن بقية أخوته وأخواته .

(١) ولد الشيخ حسنين الحصافى سنة ١٢٦٥ هـ فى الحصافة مركز شبين القناطر وانتسب اليها كعادة أكثر العلماء وحفظ القرآن ثم ارتحل الى القاهرة حيث التحق بالأزهر ومال الى طريق الصوفية فحزب الادل والاوطان وساح فى البلاد والقرى . وكانت له طرق صوفية عديدة ولكنه اشتهر بالطريقة الشاذلية =

لقد كان والدي متعبدا الى درجة بعيدة ، وكان حريصا في المعاملات وان لم تكن ظروفه تسمح له بالاستفادة من حرصه ، وكان شديد التحمس لكل ما يمس الشريعة .

كلما رجعت بذهني الى الفترة الأولى من تاريخ حياتي أرى نوعا من المقارنة المحتملة ، فقد كانت أسرة أمي مكونة من جدي محمود السنباطي الذي اشتغل بنجارة العطاراة وأعمال العمارات وتجارة الخشب ، وكان رجلا معتدل القامة أبيض اللون سريع الغضب يدمن تدخين الطباقي الشديد ، وله لثغة تعوقه عن سرعة الكلام فربما سبق فعله قوله . وكان أبوه يقرأ القرآن وقد انتهى بأن هاجر هذا الجد الى أرض الحجاز بعد أن أقام أمدا في بعض مدن الوجه القبلي ، وقد وافقت هجرته وجود أختين له في المدينة المنورة ، وقد مات بلا شك في البلاد المقدسة .

(٢)

من ذكريات الطفولة

ان القصد من هذه المذكرات تسجيل خلجات النفس التي تشعر بادراك وظيفة العقل عند شخص مدرك بان نضج الحياة الفكرية في حرية تامة بغير محاباة ولا طابع ذاتي ، وتدوين كل ما يصح تدوينه باخلاص تام وتطويع اللغة على قدر المستطاع

= والطريقة المحمدية التيجانية . وكان الشيخ الحصافي يكثر التردد على دمنهور لزيارة ضريح الشيخ أبو الريش وضريح السائح تلميذ أبي الحسن الشاذلي ثم يسافر منها الى الاسكندرية أو كفر الزيات أو دسوق الى أن توفي سنة ١٣٢٩ هـ . ودفن بدمنهور والحق بضريحه مسجد .

للتعبير عن خفايا النفس الانسانية وما يتناوبها من عواطف ومشاعر
وأفراح وآلام .

خلقت ميالا الى الحب المطلق الذى يقترون دائما بالمودة وحسن
الظن بالناس وبالدينيا ، ولذا كانت خيبة الأمل فى حب أو صداقة
من أكبر الصدمات التى تصيبنى .

فقد بدأت حياتى بحب طفلة شعرت نحوها بحنان عظيم
وربما كان السبب أننى ولدت وحيدا بغير اخوة وأخوات ، فكان
تعلقى بهذه الطفلة مظهرا أو مصرفا لهذا الحب . وقد بقيت
صورتها وقصتها فى دخيلة نفسى عشرين عاما فسجلت ذكراها
فى كتابى « ليلالى الروح الحائر » فى فصل بعنوان « نرجس
العمياء » ، ولم تكن عمياء ولم أكن أقصد الى إخفاء شخصيتها
ولكن الحزن الذى ساور نفسى عند فراقها طبع فيها صورة قائمة
فأخرجتها كما وردت .

وللذاكرة فى هذه السن المبكرة - على الأكثر أربع أو خمس
سنين - شأن عجيب ، فمن ذلك أننى أذكر بعد خمسين سنة
حوادث صغيرة لا تمتاز عن غيرها من أحداث الحياة ، ولكنها
ثابتة لا تتزعزع .

فمن الذكريات الفعلية أننى كنت أبغض جنسا أجنبيا
معينا ولا أطيق رؤية أفرادهِ ، وكان أحد أقاربنى يحملنى على
كنفيه ويجعلنى أعتمد بين رأسه وساقاى على صدره ، فلما
أشرفت على فرد من أفراد هذا الجنس ، وكانوا يلبسون ثيابا حمرا ،
قلت لحاملى « خبينى من هذا الـ ٠٠٠ لأنى أخشاه وأكره أن أراه » ،

ولم يكن حاملي ليملك تخبيثتى ، فاذنا دنا هذا الشخص البعوض
ارتعدت فرائضى وأغمضت عيني حتى يمر بى ونترك البقعة الى
لاقيناه فيها فيطمئن روعى ، وكان رعبى وانزعاجى وبغضى بسببه
ما يصيب القط عند رؤية قط غريب ، يعلو ظهره وينتفش شعره
ويزوم متحفزا للهجوم أو الدفاع ، وكان حاملي لا يدرك سرا
لهذه الحال التى تنتابنى كلما صادفنا فردا من هذا الجنس . وقد
لازمنى هذا الكره طول حياتى ولكن تشكل بأشكال تلائم تقضى
فى العمر وحصول الظروف والملايسات .

واننى أذكر هذه الحالة بالتفصيل لأنها تثبت عندى أن
الحب والبغض بالغريزة وأنهما لا يمكن تعليلهما ، ولكن عند
بعض الناس تأتى حوادث المستقبل بتأييدهما كما فى هذه الحالة
التي تأيدت تأييدا كليا ، لأننى عندما ظهرت عندى غريزة كره هذا
الجنس - وهم الانجليز - لم أكن أعرف شيئا ولم أسمع ولم
أناثر بشيء بخصوصه .

وقد درجت على هذا بعد فى حياتى فيما يتعلق بالأفراد
والحوادث ، فأشعر فى أغلب الأحيان بانجذاب أو نفور من
الأشخاص ، ويحدث دائما أننى كنت أقاوم هذا الشعور وأكذبه .
فتأتى الحوادث بتصديق الشعور الأول أن خيرا وإن شرا ولو بعد
سنين طويلة ، وقد يخطئ ظنى أحيانا ولكن هذا نادر جدا .

ومن الحوادث التى تعيها الذاكرة بوضوح ، وإن كانت
تافهة ، أننى كنت أسير يوم شتاء ماطر بشارع كبير فى الاسكندرية
فى صحبة أحد أقاربى ، وكنت حافيا وشعرت فى وقت ما بالآلم

من المشى والبرد ومن اضطرارى للملاحقة الشخص الكبير وهو بحكم
كبره اسرع واوسع خطى منى ، وبينما كنت أفكر فى الشكوى
وكنيت كثير الاحتمال ، كان هناك نوبى كهل جالسا على باب احدى
العمارات فوقف وجهه بالقول والتأنيب لقرينى قائلا « مش حرام
عليك تخلى ولد صغير كهذا صفته كيت وكيت يمشى حافيا على
الأرض فى البرد ده ؟ أنت مش فى قلبك رحمة ؟ لازم ده مش
ابنك » ، وكان هذا هو الواقع فخجل قرينى وحملنى واعتذر بأن
لى حذاء فى البيت وأننى رفضت استعماله . فأجبت هذا النوبى
وأدركت أنه أشفق على من قرينى هذا ، وأدركت بهد ذلك أن هذا
النوع من الامر بالمعروف ، ولما كبرت اتخذت هذه العادة بغير خجل
وهى أن أدافع عن الأطفال والضعفاء مهما كلفنى ، وكلمة نهتنى
نفسى أو انتظرت جوابا لثيما ممن أخاطبه فى شأن الطفل
أو الضعيف، أتذكر صنيع هذا النوبى الكريم . وما أزال حتى الآن
أعرض للآباء والأمهات الذين يسهدون أطفالهم فى سبيل ملذاتهم
مثل السهر فى الملاهى ويجرون الصغار الآخذ منهم النوم والتعب
كل مأخذ وتعريضهم للبرد واستنشاق هواء الطريق المشبع
بالتراب والجراثيم فى أوقات يجب أن يكون فيها الطفل يغط فى
نومه تحت غطاء مدفا ، وكثير من هؤلاء الوالدين يبدو عليه الغنى
والتعليم والفهم ، وبعضهم يقول ان تعريضه لقليل من التعب خير
من تركه بمفرده فى الدار أو فى رعاية خادم خائن أو مهممل ، وهذا
حق كل الحق وحجة ناصعة لا يمكن الرد عليها ، وإن الأم التى
تحتجز نفسها طول حياتها فى البيت تمل وتسأم وقد تبغض
الطفل والحياة !

وقد سهرت ليلة بطولها فى مولد الدسوقى فلم أنسها ولم
يبرأ قلبى من الغيظ على من سبب لى السهر ولمت ضيفا فى بيت
أسرة ربها لا يعرف الشفقة .

ولكن بعد هذا الحادث بأعوام قليلة نعلقت بالموسيقى ولم يكن امامى الا سماع المغنين فى الأفراح والمنشدين فى الأذكار ، وهناك كنت أقاوم النوم مقاومة الجبابة لأنصت الى المغنى الكبير وآتمنى لو يستمر السماع الى ما لا نهاية له من زمن ، ولكن هذا الميل الشديد الى الموسيقى الذى لازمنى منذ الطفولة لم يدفعنى يوما الى محاولة تعلم العزف على احدى الآلات ولا تعلم أى شىء له ارتباط بالفن الموسيقى وان كنت استريت كثيرا من المزامير والنايات والكمنجات فلم أوفق الى اخراج نغمة أو شبه نغمة لا بصوتى ولا بيدي .

وقد رأيت فى الرابعة عشرة من عمرى أحد رفقاءى فى المدرسة وقد نبغ فى القانون والغناء نبوغا نادرا ثم تدرج الى الضرب على بقية الآلات وهو المرحوم عثمان الفندى ، ومن معاصرى النابغين من هذا النوع حسن أنور وعلى صفر وفؤاد المرباط ومحمد فتحي وبعضهم فطاحل فى فن التلحين وعلم الموسيقى ، ولكننى بعد أن تتبععت الموسيقى الأوربية ولا سيما فى نوع « الأوبرا » ، أيقنت أن الموسيقى العربية - فيما عدا المرحومين سيد درويش أخى فى الرضاع ومحمود صبيح وقبلهما عبده الحمولى ومحمد عثمان - نوع من العبث واللهو الذميم ، وقد صارت فى أفواه بعض مدعى التجديد دعوة فاضحة لأحط الشهوات والنزول بالنفس الى الحضيض لفظا ومعنى وتلحيننا ، وأما الذى وصفوه « أوركسترا مصرية » فهازل ومخزيات وفى أحسنها مما يقوم به معهد الموسيقى أخلاط وسرقات ، وليس فى الموسيقى الشرقية مما يشرفها غير الموسيقى التركية التى هى على نسق واحد ونظام جميل .



التكوين العقلي والعلمي

- ١ -

التعليم الابتدائي

نشأت مبغضاً للاستظهار وحفظ الدروس عن ظهر قلب ،
وسببه أننى أنفر من غير المعقول ، فلم أكافأ فى المدرسة أبدا
لأننى برعت فى المحفوظات ، ولم أعرف أبدا أوزان الشعر ، وكان
رضاء الأستاذ مصدره انتاجى على ضعفه ، لا ما أعيده من أقوال
الآخرين ، وكان نظام التعليم فى عهد طفولتى وصباى مشوبا
بداء الحفظ فى الكتب والكراسات ، وكان أنبغ التلاميذ هم الذين
يحفظون دروسهم ، والغريب أن بعض هؤلاء صاروا قضاة ومحققين
ومستشارين، ولكن الذين كانوا لا يستلهمون هم الذين نبغوا فيما
درسوه من العلوم العليا .

دخلت الكتاتيب أو المكاتب المعدة لتعليم الصبيان ، وكشفت
حبل الصبيان على الفقى الضرب وعرفت نفسية الجريف ، وعهدت
الجريدة والزخمة من أدوات تعذيب لا تهذيب الأطفال ، وهربت
من الكتاب مرات لا تعد ووضعت طرف ثوبى على نار الكانون
لأنهى حياتى بغضا فى الكتاب وبقيت مدة معطلا عن التعليم لخلو
القرية التى كنت فيها من معاهد العلم غير ذلك الكتاب الشمس .

ولما دخلت مدرسة الأقباط في طنطا ، كانت الفرق فيها مزدحمة والتلاميذ مهملين ، كان فيها عريف ضرير لتعليم اللغة القبطية لكل التلاميذ بغير تمييز حتى بين المسلمين واليهود .

لم أتعلم شيئا في مدى سنة أو سنتين ولم أعرف في تلك المدرسة الا الظلم والتعسف وعجزت عن جدول الضرب وعن الخط الأفرنجي وعن النحو وعن كل شيء .

وفي ذلك الوقت كانت لي جملة عجوز فصيحجة اللسان تتحدث كمنها عن ظهر قلب عن طريق السماع والتلقين ، فقرأت لها معها كتباً دينية كأجزاء من البعاري دون أن أعلم معانيها وبعض القرآن وشعرها كثيرا وقصصا كالف ليلة وسيف بن ذي يزن وبعض الجرائد اليومية ، وهي التي روت لي قصة ابراهيم الخليل وزوجته سارة وابراهيم بن آدم وكان هذا أول درس لي في التصوف .

هذه هي الثقافة البيئية التي تلقيتها بشوق وشغف ، واني أرجع الى جدتي السيدة « مباركة بنت ترك ومنصور الوكيل » الفضل على في حب القراءة والتطلع الى المعرفة دون سواها من خلق الله ، وان كانت ابنتها فاطمة لازمتني وخدمتني بشيخوخة مباركة وبنية قوية وقلب كريم ومحبة فائقة منذ حداثتي الى وفاتها ولم تجعل لها في الحياة هما غير رعايتي .

وأذكر الآن أنني لو لم أرزق هذه الجدة المباركة التي أرشدت عقلي في خطواته الأولى ووجهتني الى حب القراءة وسماع الحديث ، فماذا كانت تكون حياة فكرى ؟ . كانت معلمتي الأولى والأخيرة ، فأنني لم أستفد من امرأة سواها .

عنيت في المدن والريف ، وفي المساجد والكنائس وفي المدارس والكتاتيب وفي الموائد وشيام الذكر وفي سرادقات الأفراح والمآتم وشهدت سامران الخواة ومناهي الفصاح والمنشدين على الرباب وغشيت ملاعب « البهلوان » وكانوا يسمونها تتجاوزا « تياترو » وشهدت ألعاب الخيل والفيلة والكلاب والنعابين وسمعت النحاتي (الهونوغراف) عند أول اختراعه ، وشهدت رفص الخيل وضرب الرصاص في أفراح البدو ومنازلة الشبوت ومصارعات الفتوات ، وسمعت مشاهير القراء والمنشدين ، وحضرت بعض دروس العلم في الجامع الأحمدي وحظيت باللعب الغالية وشققت بالأسلحة ، وشهدت التمثيل العربي في روايات من التاريخ القديم ، وشهدت خيال الطفل والفقره جوز . . . كل هذه المسرات والويلات لا يستها ولا مستها قبل بلوغى عشر سنوات ، وأشدها ألما وأثبتها ذكرى شهودى جلسات المحاكم وسماع مراقعات المحامين فى قضايا كبيرة فى قاعات مزدحمة بالمتفرجين ، وشهدت مواكب الحاكم واستقبال الخديو وأفراح الرعية وسمعت صوت « أفندينا يتحدث الى مستقبله ويمزح مع قريب أحد الموظفين » بالمعية » ، ورأيت يجوس خلال مقاعد الفصل المدرسى ويتناول كراسات التلاميذ ويحى بيده الصغيرة المشايخ والأفندية ونحو نصيح ونهتف « أفندمز جوق يشا » بالتركية ولا نفهم معناها وما أزال أجهلها الى الآن ، كل هذا قبل « يحيى » و « يعيش » .

وفى أحد أيام يناير سنة ١٨٩٢ ذهبت لشراء طعام من بقال يونانى يحسن الكلام بالعربى وبيده جريدة ، فلما باع قال لى : أفندينا مات فى الليل ، وعجبت لأن الرجل رأى على حادثة سنى أهلا لأن يعنى الى أمير البلاد وتذكرت ذلك الخديو منذ كان يمر بالبلد فى قطار فخم ويحشد التلاميذ والأعيان للاقائه فى محطة طنطا ، فلما نعى الى هذا الرجل كان أول خاطر مر بى أن هذا

الرجل لن نراه فى القطار الفخم ، ولم أدرك أن له خلفا ، ونهيات
لى ظروف السفر الى القاهرة مع شخصين أو ثلاثة من أهلى لشهيد
الجنادة الخديوية ، وأتذكر وصولنا الى القاهرة ، وخوضنا غمار
الزحام الشديد ، زحام أعيان ورجال متشحين بالسواد والطرابيش
الحمراء ، فكانت دهشتى لكبر المدينة دهشة عظيمة جدا ، فقد
كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها القاهرة ولأول مرة أحتك
بجماهير القاهرة الصاخبة الطلقة المرحة فى كل شئ حتى فى
تشبييع الموتى ولو كانوا ملوكا . يا لها من فرجة ويا له من يوم
غريب !

كل هذا شهدته قبل بلوغ سن العاشرة ، لقد كان نوعا من
الفوضى والعماء والمصادفة والمخاطرة ساعدت على تكوين عقلى فى
جو مضطرب بطبيعة الأشياء ، فلم أدرك معنى لحياة الطفولة الهادئة
المطمئنة ، ولكن أدركت الحياة القلقة المضطربة المنوعة المنبهة
للعواطف والغرائز واليول .

ولكن أشياء معينة لفتت نظرى ونهت ذهنى ، القرآن الكريم
عندما حفظت جزء « عم » لضرورة الامتحان فى ليلة قمرية على سطح
منزلى ، فتعددت السهر لأشهد النجوم وأسبح فى عالم التخييل
الذى يملأ فكر الأطفال . وتتبع حروب الترك واليونان وهجر
والسودان فتعلمت قراءة الصحف والاهتمام بالأخبار ، وبدأت
أدرك ما يسمى بالسياسة الداخلية من قراءة المجلات الهزلية مثل
« الأستاذ » لعبد الله النديم « وأبو نظارة زرقا » لصنوع اليهودى
الوطنى المصرى « وحمارة منيتى » ، وكانت هذه المطبوعات أكثر
حرية من الجرائد كالمؤيد والأهرام .

وقرأت مقالات لا أزال أذكرها مثل مصرع فليكس فود
وفهمت الفرق بين حكومة الجمهورية والمكية والامبراطورية

بمناسبة موت هذا الرجل ، كما قرأت مقالات في الوطنية المصرية ، وشهدت تولية الخديو عباس ورأيت أصحاب الجلايب الزرقاء يحيطون بمركبته وهم يهتفون له « ربنا ينصرك يا أفندينا » وهو يأمر من حوله بتهدئة السير اشفاقا على الحفاة الذين يجرون خلفه !

وتكونت في ذهني صورة مشوشة عن حياة الحكام والمحكومين ، ولم يكن للحكومة مظهر في ذهني غير « الضابط » و « العسكري » و « الغفير » و « شيخ البحارة » ولم أعلم العلاقة بينهم وبين المحكمة والمدير الا بعد بضع سنين ، وكنت أمر بمقر الشرطة « الضبطية » عند الذهاب الى المدرسة والعودة منها ولا أدرك ما يحدث وراء جدرانها الى أن شهدت ذات ليلة جنودا يحيطون برجل مكبل بالحديد وقد شهروا أسلحتهم ٠٠٠ وسألت نفسي اذا كان هذا الرجل مكبلا ومقيدا ثم انه لا يحمل سلاحا فلم يحيط به عشرة رجال من الشرطة بأسلحتهم مشهورة ؟

ووقع في نفسي أول معنى للشرطة وهو الارهاب وادخال الرعب في النفوس ولا تزال فكرة « الضبطية » مقترنة في ذهني بفكرة هذا الرجل .

- ٢ -

نظام التربية والتعليم في المدارس المصرية

أذكر في ذلك العهد أيضا أن أعظم ضرر يلحق بالتلاميذ لا يرجع الى استعمالهم الفطري ، ولكن يرجع الى سوء اختيار

الاساتذة وسوء طرف التعليم ، فقد كان معظم الاساتذة في تلك المدرسة الابتدائية (مدرسة الأقباط بطنطا) جماعة من انصاف الجهال الذين لم ينالوا اجازة في علم من العلوم واشتغلوا بتلك المهنة اضطرابا وفرارا من الفاقة ، أمثال أستاذ الانجليزية الذي قضى في تعليم الأطفال الصغار احدى خرافات « ايزوب » منذ أشهر ، وأستاذ الحساب الذي حتم على أولاد الخمس والست سنين حفظ جدول الضرب والا فليركعوا على الحجر ساعة أو ساعتين ، ومثل الشيخ الذي كان يجمع بين تلقين الحساب وأدب الطالب في حق أستاذه على الطريقة الآتية فيقول لفرقة التلاميذ : كم يكون مجموع تسعة وتسعة ؟ فيقولون : ثمانية عشر . فيقول ! تسعة عشر !! فيقولون : لا . فيقول : أنا حينئذ كاذب ؟ فيقولون : كلا نحن كاذبون ! ، وذلك خشية أن ينسبوا إليه الكذب ، ولا أدري أى الأمرين أعظم شأنا في نظر العلم . صدق الأرقام أو وصف الأستاذ الذي يخطئ تلاميذه عمدا بالكذب !

ومن الظلم الذي رأيته في تلك المدرسة عندما صمم شيخ اسمه أبو الشدائد أن يعاقبني بالضرب مائة مرة على كفى لأننى ضحككت عندما سمعت للمرة الأولى لفظ « كان وأخواتها » فتنبهت في حاسة ادراك النكتة ودهشت أن يكون للألفاظ أخوات كبنى آدم ، فنقذ الشيخ القاسى تهديده حتى ورمت يداى !

كانت فترة اقامتى في تلك المدرسة فترة سوداء مظلمة أظهر ما فيها الاضطهاد والفوضى وجهل الأساتذة والفروق الكبيرة بين عمر « سن » التلاميذ وتعلم اللغة القبطية على عريف أعشى يخطئ بعصاه وعوس التلاميذ يخطئ عشواء والركوع على البلاط الجارح في الشتاء لتقصير طفيف في استظهار جدول الضرب والسبب باللغة الفرنسية !

كنت في الفترة الاولى التي انتهت بسن التاسعة خاملا في كل شيء له مساس بالتعليم ، فلم احفظ القرآن ولا قواعد اللغة العربية ولا قواعد الحساب ، ولم اتقن الخطين العربي والافرنجى ، ولم اتفهم معنى الجغرافيا ، وقد حكم على جميع الاساتذة بالخيبة في فروع العلوم كلها ولم يحسن بى الظن الا أسستاذ « علم الاشياء » الذى قضى نصف عام في وصف الجمار !!

لهد كان عقلى مضطربا لفقر الاساتذة في طرق التعليم المتلى ، فلم يسعدنى الحظ في تلك السنين الاولى بأستاذ يعرف ما هو التعليم ما عدا رجلا فاضلا ألفت به الأقدار على شاطئ تلك المدرسه كأنه بقايا سفينة غارقة ، كان هذا الأستاذ محمود عمر من المهذبين الذين وصل اليهم شعاع من نور العلم الحديث قد سافر الى مؤتمر المستشرقين في استوكهلم ، وقد ألف في وصف رحلته كتابا وكذلك ألف كتابا في الأمثال العامية وآخر في المواويل وأوشك أن ينتهى من كتاب في « علم الركة » ، فأقبلت على مؤلفات هذا الفاضل وقرأتها بمزيد السرور فكانت أول ما تغذى به خيالى المتعطش . قرأت في كتبه وصف عواصم أوروبا وعرفت أسماءها وأدركت وجود عالم وأقوام آخرين غير الذين أراهم في السكة الجديدة ودرب الأثر وحارة الكنيسة وكفر اسكاروس ، وتلوت أمثال العوام وتفسيرها ومواضع الاستشهاد بها ، وحفظت بعض المواليسا أو المواويل وأدركت معناها . وقد أيقنت بعد سنين أن هذا الأستاذ كان عالما بالفطرة وأخصائيا فيما يسمى عند الأفرنج « بالفولكلور » أى علم حياة الشعوب (١) ، ولكنه لم يجده من يشجعه أو يأخذ بنصره .

(١) للطفى جمعة مجموعة مقالات في الفولكلور جمعت في كتاب عنوانه « مباحث في الفولكلور » ، طبعة أولى سنة ١٩٩٨ - ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب ، ثم طبعة ثانية سنة ١٩٩٩ في سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية ، رقم ٣٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة .

هذه الستون العشر الأولى قضيتها في جهات تامة ومعارات
خاتمة في سبيل ادراك مبادئ الانبياء وتكميهم وفق الى نبي
أثير من فك الخط ، ولم يتن شعوري عن التمسك في السور
المدرسية راجعا الى غباء أو عجز فطري ، ولكن كان نتيجة جهل
الأساتذة وفوضى الحياة المدرسية وعدم ادراك المعلمين فيهم
الطفل التي أصبحت في أوروبا تدور عليه سمائر نظريات
التعليم منذ ظهور مدام مونتيوري الشهيرة .

أما الضرب في المدارس ، الضرب الموجع المؤلم المذهب
بالكرامة والمولد للأحقاد بين الأساتذة والتلاميذ ، فقد كان قاعدة
عامة الى درجة أحداث العاهات المستديمة كالصمم وفقد إحدى
العينين ، وقد أسفرت المباحث الحديثة في التربية والتعليم عن
خطأ هذه الطرق .

كل هذا وقع وجرى وحدث قبل بلوغى عشر سنوات .
وفي ختام العشر تغير وتبدل في لمحة عين ، كل هذه الفوضى
انتهت سنة ١٨٩٦ بدخول مدرسة ابتدائية حكومية ، وكان كل
ما بذلته في الماضي في المكاتب والمدارس الحرة لم يعوض على
الا تعليم السنة الأولى ، فبدأت بالسنة الثانية .

الحمد لله ! لقد نجونا من الفوضى العقلية وخرجنا من كهوف
الظلم والجهل المنظم وودعنا المهلهلين والممزقين والجهلاء الذين لم
يعرفوا قيمة الأمانة التي عهدت اليهم وهي عقول صغار التلاميذ
وقلوبهم .

كانت مجموعة الأساتذة في المدرسة الأميرية أرقى من
السابقين بمدرسة الأقباط ، ووسط التلاميذ أفضل من غيره ،
ولكن كان بعض الأساتذة مصابين «بالساديزم» أى التلذذ بتعذيب
التلاميذ على الرغم من تحريم الضرب ، فكان أحدهم يهيج أحيانا

على الفرقة بأسرها فينساو حاملة الخرائط الجغرافية ويصوّل بها ويجول ضارباً على الرأس والأوجه والأكتاف والأعناق كإبطال الحروب حتى يفر الجميع من وجهه ويستغيثوا بنظر المدرسة ، وتحملنا سفالة أخلاق بعض التلاميذ ، وتحملنا إماراة المفتشين الأجانب وشهدنا ارتجاف النظر والأساندة عند حضورهم ، ولكن وقع هذه المتاعب كان أخف على أنفسنا من حوادث المدارس السابقة .

فى أول السنة الحادية عشرة من عمرى شعرت بالتبعة والمسئولية وأدركت أن الحياة جد ونظام وأن عهد الطفولة الذى لم أخرج به الا بسنة واحدة من التعليم قد انتهى فعلا وحكما ، واتجهت اتجاها آخر عندما وجدت فراغا كبيرا للقراءة فى غير كتب المدرسة ، فمن الشهر الأول اقتنيت كتباً كثيرة ، وبدأت أقرأ هذه الكتب بغير نظام ولا ترتيب وأسهر الليل فيها بعد اتمام واجب المدرسة وكان نافها بالنسبة لما فى هذه الأسفار الضخمة ، وعندئذ فكرت فى تكوين مكتبة ، وشعرت بهيل لداسة أخبار الرجال التى عرفت بعد أنها « التراجم » ولا سيما ما كان منها مكتوبا بأقلام أصحابها .

ثم ملت الى ما له علاقة بالفكر والعقل والروح والموت والبعث ، ولم تكن عندى فكرة خاصة بالدين الا من ثلاثة أشياء ، أقارب لى ذكور واناث يقيمون الصلاة ويصومون ويحتفلون بمولد النبى و ليلة القدر ، وقارىء يتلو القرآن فى البيت فى كل يوم يقرأ ربعا أو عشرة أو سورة صغيرة ، وحفظ بعض السور (جزئى عم وتبارك) فى المدرسة ، ولم يحاول الأساندة تعليم الدين . . كأنهم كانوا يتحاشون - تنفيذاً لبعض الأوامر - أن يعرضوا علينا بضاعتهم ، وكان جلهم من متخرجى الأزهر ودار العلوم .

لم أسمع - وأيم الحق - كلمة إيمان أو عقيدة من أحدهم . . .
 لم يقولوا ولم ينطقوا طحوا ثمانى سنوات قضيتها فى التعليم
 الابتدائى والثانوى كلمة فى الوطن أو الدين أو الأخلاق أو التاريخ
 الصريح ، ولم يحاول أحدهم - عفا الله عنهم وطيب ثرى من مات
 منهم - أن يرفع الغشاوة عن أبصارنا ولو تلميحا ، كانوا يخافون
 شبح دنلوب والمفتشين الانجليز والنظار والمنافقين والدساسين
 والجواسيس ، فقمعوا بالمرتببات والثياب الجديدة والطرايب
 الحمراء عن أداء الواجب نحو التلاميذ ، وبعد فترة الشهادة
 الابتدائية التى قطعتها بسرعة ، فبروا دروس التاريخ المترو
 القديم وبدأوا تاريخ الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية وأوربا
 فى القرون الوسطى والحروب الصليبية ، وعلمونا العلوم كلها
 بالانجليزية من رياضيات وكيمياء وطبيعة الى جغرافيا وتاريخ ولم
 ينقص الا أن يعلمونا اللغة العربية بالانجليزية !!

وكان المعين على هذا البلاء والغدر دوجلاس دنلوب ويعتقوب
 أرتين وجميع نظار المعارف أمثال فخرى باشا ، فكان من المستحيل
 على تلميذ أن ينبغ فى اللغة العربية التى أعان رجالها على الحط من
 قدرها بالكتب الزرية الحفيرة التى ألفوها فى النحو والصرف
 والبلاغة ، فكان تعليمنا يؤهلنا للعبودية للأجانب ويحصر أرزاق
 التلاميذ بين أيدي أساتذتهم من الانجليز فى دواوين الحكومة .

الحق أننا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل
 القرن العشرين الى سنة ١٩٠٨ كنا مسرعين الى الدمار العقلى
 بخطوات واسعة ، ولم نقتلنا الا الله بحادثة دنشواى ، فبالها من
 نعمة فى صورة نقمة ، وبالها من موقعة دموية رن فيها صوت
 الدماء رنيننا موقظا منبها ، ثم صار مطربا لديدنا .

اننى لا انكر فضل اللغات الأجنبية على التعليم ، ولبن اندر
الشروع فى قتل اللغة العربية والقضاء على التاريخ القومى ونعويد
التلاميذ على العبودية للإنجليز من النظر والاساندة وتعليمهم
الخضوع من سن الرابعة عشرة الى العشرين .

أقول اننى قضيت فى تلك المدرسة الاميرية من سنة ١٨٩٦
حتى سنة ١٩٠٠ ، فتعلمت فيها بالتمسك بالأساندة والمنحضة أكثر
مما تعلمت من علوم المدرسة ، اذ ليس فى العلوم المدرسية شئ
جدى يفاد ، فبرامجها محدودة ومنهجها مقصورة على القشور ،
والأخلاق فيها لا تقوم والدين فيها لا يعلم ، والسلامة متروكة
فوضى لأهلهم واجتهادهم ، رغبة النهايات حفظ النظام بين
جدرانها واداء الامتحانات بما يشرف اسم المدرسة ، ولكن الذى
تعلمته من المراقبة وفهم الطباع وتعليل الوقائع وضرورة تعديل
نظام التعليم كان أكثر .

ولكن اقول وأشهد أن مجموعة الأساتذة فى مدرسة ابتدائية
ريفية فى أواخر القرن الماضى كانت أرقى من مجموعة أساتذة فى
مدرسة عليا أو جامعة فى أواسط هذا القرن العشرين ، كانوا
رجالا كل الرجال وكانوا أهل مروءة ونخوة بين بعضهم بعضا
وبينهم وبين تلاميذهم ، كانوا ينظرون الى أنفسهم نظرة المعلم
المحترم والمنا نظرة الآباء الى الأبناء ، كانوا أساتذة راشدين
مرشدين ، وكان المشايخ منهم متدينين والأفندية مستقيمين .

وأنا هنا لا أشير الى أحد ولا أنتقد أحدا من أساتذة هذا الجيل
الحاضر ، فلم أعاشهم ولا أعرفهم الا من آثارهم وتربية أولاد هذا
الجيل ، اننى مع احترامى لبعض القائمين على أمورهم فى المدارس
والكليات ، أندب حظ التعليم والثقافة والأخلاق ، ولا يخالفنى
فى ذلك حتى الرؤساء أنفسهم .

لقد تحول التيار من نزعته الخير المعنوي الى الرعيه البسيده
فى المال والوظيفه و « العلاوات » و « الدرجات » و « المرتبات » ،
وتحكم الحسد فى النفوس والتطلع الى العير ، واتسعت ابواب
المطامع وانصرفت الأفكار عن العلم الى النفع الدائى ، وعميت القلوب
والاعين عن الواجب ، وتضخمت كلمه « الحفوف المنسببه »
والفوائد المرتقيه ، وطغت المحسوبية على كل اعتبار حتى لهجت
اللسنه بأن انقطاع دابر المراقبين الأجانب قضى على النظام ورجع
القهرى بالتعليم والأخلاق ، وأن وزارة المعارف لا تصلح الا بادره
حازمة غريبه عن موظفيها ، وساءت النتائج الختاميّه والوسطى ،
وأصبحت الامتحانات المزدوجه (الدور الاول والدور الثانى) بلاء
ومهازل وعمت البلوى وضربت الفوضى أطنابها ، هذا ما يقال
وكثير منه صحيح .

والدليل على ذلك ما تراه من الفروق بين متخرجى هذا الجيل
ومتخرجى الجيل السابق عليه مثل جيلنا ، وليس المجال مجال
تفاخر ومقارنه ، بل مجال بكاء وعويل على مستقبل البلاد !

لم نعرف الخمر ولا السموم البهيمه والسوداء ولا اللهو
ولا الغزل ولا البطالة ، ولم نعرف غش الآباء وخداع العائلات ،
ولم نعرف الرسوب المتكرر ولا الرحلات المضلله ، ولم نعرف فساد
الأخلاق ولا فضائح الأخلاق ولا المباهاة بالأهل والأقارب ، وكذلك
كانت مدارس البنات نماذج للفضيله .

لم نعرف قراءة الروايات الغرامية ولا التردد على دور الصور
المتحركة ولا الحانات ولا التسكع فى أركان ونواصى الشوارع
ولا دخول أقسام البوليس ولا خطف حقائق السيدات ، بل كنا
نلقى أساتذتنا فى الطريق فنخجل ونحييهم ونسير فى طريقنا
متسحيين ، ولم نمازحهم ولم يمازحونا .

حتى هؤلاء البسطاء في مدرسة الاقباط الذين قسبت قلوب بعضهم لا نزال نحمل لهم تجلة واحتراما ، لأننى عرفت بالخبرة ان شدة الجانِبِ وغطرسه المعلم وجفاء طبيعه أسلم عاقبه فى حياة التلميذ من لين العريكة والتساهل ودمانة الخلق ، لأنها مغرية بالذيلة وهذا كلام يعرفه كل خبير بالأخلاق .

فالى هؤلاء جميعا ، أحياء وأمواتا والى أولادهم وأحفادهم أبعث أطيب تحياتى وأعمق عرفانى بالجميل ، واعتذارى عن سوء التقدير أو الخطأ فى التعبير فيما كتبتة بنية حسنة وأودع هذه الفترة من الحياة التى كنا نظنها تعذيبا وهى منطوية على الرحمة والهناء ، ولكننا لم ندركها لقصور عقولنا بحكم الشباب .

كنت فى تلك الفترة السابقة على انتقالى الى القاهرة للالتحاق بالمدرسة الخديوية ، أتردد على بيئتين ، الأولى بيئة بعض الطلاب فى المدارس الأجنبية ومعظمهم من السوريين والروم وقلة منهم مصريون لئن تحدثت فى الأدب ، وكان بينهم بعض المصريين كالمرحوم فؤاد سليم (*) ومحمد بهجت ، وكان أولهما شاعرا والثانى اشتغل سكرتيرا خاصا للمرحوم سعد باشا زغلول فى وزارة المعارف .

(١) فؤاد سليم : ولد بطنطا فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٣ . جركسى الاصل . كان يجيد الفرنسية والانجليزية واليونانية وكان شاعرا وجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية ، الى جانب انه رسام وخطيب : عرب روايات تمثيلية مثل لوكريس بورجيا ومارى تيدور ، والكابورال سيمون ، وروايات قصصية مثل وفاء الزوجين وعشيقه الملك . ومثل فى فرقة جورج أبيض روايات كثيرة منها رواية نابليون ورواية لويس الحادى عشر وغيرها .

والى هذه البيئة فى هذه الفترة المبكرة يرجع كثير من معرفتى بتاريخ الثورة الفرنسية وترجمة نابليون وشعر هيجو وكتاب البؤساء ، فلما شئت الأقدار بعد ذلك بثمانى سنوات أن أقصد الى فرنسا لاتمام دراسة الحقوق ، لم أجد نفسى غريبا كل الاغتراب عن الأفكار والمبادئ والمعتولية الفرنسية وان كنت أجهل اللغة الفرنسية جهلا تاما مطبقا .

اما البيئة الثانية فكانت مزيجا من المشايخ والافندية الذين يجلسون بالصيدليات وهى مجالس وسط بين المنازل والمقاهى ، وبعضهم كانوا ضباطا حضروا مواقع الثورة العربية يذكرون أسماء الخونة ويصفون معركة التل الكبير وصف شاهد عيان . كنا نتحدث فى السياسة وفى حرب البوير وحروب السودان لقرب عهدنا بها وحروب تركيا واليونان وسكة حديد الحجاز وعودة عربى من منفاه ونعجب لقسوة شوقى عليه بقصيدته البائية :

صغار فى الزهاب وفى الاياب
أهذا كل شأنك يا عربى !

ونقرأ العينية الكبرى التى حيا بها الكاظمى وصوله أرض مصر ونحضر مولد العارف بالله سيدى أحمد البدوى ونشهد موكب « ربة الخليفة » و « ربة الحاكم » ويحار ذهنى فى الدروع والخوذ التى يلبسها بعض البؤساء ويسيرون بها فى مقدمة الموكب وهم مقيدون بالسلاسل رمزا الى أن البدوى جلب الأسير من بلاده ، فلا أدري ان كان أسير الروم فى الحرب أو أسيرنا من البلد النائى ، ونختتم مناقشتنا بأكل الحلوى والحمص ثم نتمشى على ضفاف الجعفرية وترعة القاصد متخيلين أن بلدتنا تباهى فلورنسا وبيزا فى فخامتها وجمال مناظرها !

- ٣ -

التعليم الثانوى

أول يوم فى المدرسة الخديوية الثانوية

فى السنة الأولى من القرن العشرين ختمت دراستى الابتدائية واتفقت آراء اهلى على مواصلة تعليمى الى أن أصل الى مدرسة عليا ، ولم تتفق هذه الآراء الا بعد جهاد طويل من جهتى ، فان والدتى المسكينة انطلقت من أبى من بضع سنين لشقاق دب بينهما ، كانت كثيرة الصمت والصبر ، وكانت كذلك كثيرة الامل فى ولدها الذى كانت تعزه وترجو بكل قواها ومن اعماق قلبها أن يصير طبيبا ، ولم يكن لاختيار هذه المهنة الشريفة من سبب لدى تلك الوالدة المسكينة سوى كونها مريضة ولم ينجح الطبيب فى علاجها ، فكانت ترجو أن يصير ولدها طبيبا ليشفيها .

فلما صبح العزم على تنفيذ هذا المشروع ، طلبوا الى قريب لهم فى القاهرة أن يصحبني فى تقديم طلبى الى المدرسة . ولا تسيل عن الانفعالات الكثيرة التى جاشت بنفسى عندما وطئت قدماى لأول مرة فناء ذلك المعهد العلمى ، فان كل شئ فيه كان يؤثر فى نفسى أثرا قويا جميلا ، فمن فناء تلك الحديقة الكبيرة الى النافورة القائمة فى وسط الرواق المؤدى الى غرف الدرس ، تلك الغرف التى كانت تبدو لعينى مع شغفى بالعلم كأنها هياكل تعبد فيها منرفا آلهة الحكمة وأن نوافذها المطلة على الحديقة تكاد تطل منها رؤوس الفلاسفة والشعراء .

ولا غرابة فى وجود تلك العواطف فى نفس صبى عمره
اذ ذاك أربع عشرة سنة دخل لأول مرة حظيرة مدرسة كبيرة مشهورة
هى المدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجمايز .

وفى يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ ذهبت الى دار
المدرسة حيث امتحنى الأساتذة امتحان الدخول ، وفى اليوم ذاته
فحص طبيب شهر بطب العيون كافة التلاميذ المائلين لى فى
الصبا ، ويظهر أن الامتحان والفحص لم يكونا الا مراعاة للنظام ،
فان جميع التلاميذ قبلوا فى الامتحان وفى فحص الطبيب .

ان لأول أيام الدراسة فى مدرسته الجديدة تأثرا عظيما فى
أذهان بعض التلاميذ وقد لا يزول مهما تقدموا فى السن ومهما
شاهدوا من الحوادث وتتابعت الأيام بأحوالها المتقلبة ، وأظن هذه
القوة فى البقاء خاصة بأيام آخر فى حياة الناس لها ما لليوم الأول
بالمدرسة من السرور والدهشة والجمال أو الحزن والألم كيوم
العرس وموت الوالدين ، ويمكن القول أيضا بأن بعض النفوس
— لا كل النفوس — هى القادرة على الاحتفاظ بالذكرى بالقوة التى
ذكرتها لشدة احساسها أو ضعفها وعجزها عن النسيان الذى هو
أعظم شئ فى الحياة ، ولعله أعظم نعمة .

ولا شك فى أن يوم المدرسة الأول كان من هذه الأيام ،
ونفسى كانت من تلك النفوس .

وبالجملة فان « يوم المدرسة » يوم تجتمع فيه الأقدار شبانا
وفتيانا من كل فج وعلى مختلف الدرجات من حيث الذكاء وعكسه
وسمو الأخلاق وضده ، ولكن الأقدار جمعتهم بصفة دائمة
وأرغمتهم على أن يصطخبوا ويتنافسوا ويتباغضوا أو يتصادقوا

فى ميدان الحياة الاول الجميل الفسيح المحفوف من الجابين
بأشجار باسقة تخفى ما أمامه وما فوقه ، ذلك الميدان الذى يسمى
بأيام المدرسة !

فى تلك الفترة قابلت المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى،
لقينته مصادفة فى اجزخانة وسمعت لهجته غير المصرية فأنصت
اليه فسألنى عن اسمى ، ثم سألنى ان كنت قرأت قصيدته العينية
وهى التى حيا بها مصر عند وصوله الى ثغر السويس ونشرها فى
صدر المؤيد ، فأخبرته بأننى قرأتها ولكننى لا أحفظها ، وافترقنا
ولم أره بعد ذلك الا فى القاهرة بعد ثلاث سنين فى صحبة
المرحوم حافظ ابراهيم (١) .

وسمعت بمعرض باريس فشغلت بالسفر الى باريس
وكانت سنى أربع عشرة سنة ولم تكن لى أية فرصة لمثل هذه
الرحلة ، ولكن كان اعتقادى حاسما جازما بأننى لابد مسافر الى
باريس هذه .

وفى تلك الفترة لم يعجبني أن أقتصر على لغة أجنبية واحدة
فشاركت بعض تلاميذ مدرسة الفريز فى تعلم مبادئ الفرنسية
فى كتاب « ماشويل » ، ووصل الى يدى كتاب « النقش فى
الحجر » للماسوف عليه كرونليوس فأتديك ومجانى الأدب
بكامل اجزائه ، وكانت هذه النعم كلها محض مصادفة ولم أبذل
جهودا فى الحصول عليها .

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالكاظمى ، راجع
كتاب « محمد لطفى جمعة ومؤلام الاعلام » تأليف رابع لطفى جمعة ، مطبعة
الوزان ، سنة ١٩٩١ ، ص ١٣١ - ١٤١ .

وكننت فى سنة ١٨٩٩ قد سافرت الى صلفط الملوك احدى
قرى البهرة واقمت فى بيت أحد أصهارى حتى مللت الإقامة فى
الريف وعزمت على التمارض للفرار لأنه كان منتظرا أن اقيم
ثلاثة أشهر . . . ولكن حدث أمر فتننى واستبقانى وسمر أقدامى
بأمراس كثنان الى جنادل تلك الحياة التى مللتها ، وهذا الشىء
هو الغرفة المهجورة وكانت فى آخر البيت مظلمة مغلقة وقد
فقد مفتاحها ، فصممت على فتحها فوجدت بها كنزا ثميننا أغل
مما وجد علاء الدين ، كانت الغرفة ملائنة من أرضها الى سقفها
بالكتب والجرائد منذ عهد الوالد الكبير . . . فأقبلت عليها
وأخذت اذنا بالنظر فيها فلم يكتفوا بالاذن لى بل وهبوني اياها
وأباحوا لى نقل ما شئت منها لأنها عديمة القيمة والفائدة لديهم .

فما كان أسعدنى فى ذلك اليوم ! لقد تغير كل شىء فى
نظرى وأصبحت العزبة روضة من الجنة ونسيت نشاط الحقول
وركوب الخيل وأطعمة الريف الدسمة وخضرة الحقول النضرة
ونأى الشاعر وأنين الساقية واتجهت الى الغرفة المسحورة .

كانت فيها كتب وصحف من عام ١٨٨٦ تاريخ مولدى
ولا سيما الأهرام والبصير ولسان العرب والمقتطف .

أما الكتب العربية الشىء تصيدت أسماءها ونزبهت حتى
اشتريتها وتكبدت المشقات حتى قرأتها فام تتجاوز فى سن
المراهقة خمسة أو ستة هى تهذيب الأخلاق لمسكويه والعقد
الفريد لابن عبد ربه ومقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة ولزوميات
المعمرى ، وبدأت اتصل بالعقول العالمية الكبرى ، وأسدى الى
صديق فضلا كبيرا بتاريخ ابن رشد وابن سينا وبكتاب صغير
فى المنطق وآخر فى الفلك .

يا لها من ليال سعيدة تلك التي عرفت فيها اسم الفلسفة
وموضوعها وتاريخ بعض رجائها في الشرق والمغرب .

ولكن لغت نظري في المدرسه شعر شمسبير وبعض قصصه
وأنتاب في فلسفه اهلطون واخبار عن داروين ، فودعت دروس
المدرسه وجعلت لها أضيق حيز وعكفت على مجله المجلات الانجليزيه
وعلى تاريخ الاسلام بتلك اللغة من تليف بول ، وزارنا الدوارد
براون وعلمنا علاقته بالششيخ محمد عبده (١) ، وسمعنا باسم
الافغانى فتحررت وجدى دون غيرى من التلاميذ .

وبدا خوجات الانجليز يناصبونى العداء ويضطهدونى
ويوقعون على مختلف العقوبات مثل غداء الخبز بغير أدام ظهرا
وكنت طبعا لا آكله ، وجمبار الصباح فى الساعة السادسة سبتاء
والبحجز بعد ظهر الخميس ولم اكن بعد تكلمت فى حب الوطن
أو التعلق بالدين ، ولكن هؤلاء الجواسيس الماكرين يدركون الامور
فى بواكيرها ويتقون الحوادث قبل الحاجة لعلاجها وكانوا ينفذون
خططا مرسومة باحكام .

ومن كل هذا الجيل الذى عاصرني لم يتحرر أحد غيرى لأننى
عانت أهلى وأعرضت عن كل نصيح ولم أقبل الخضوع مطلقا ،
ولم ير أحد من التلاميذ وقبلوا كل المظالم كأنها أمور واقعة لا مفر
منها تحت تأثير آبائهم الذين كان معظمهم من الموظفين أو من
الفلاحين الخاضعين للموظفين .

(١) مستر ادوارد براون أستاذ اللغات الشرقية بجامعة كامبردج وقد حضر
لزيرة مصر سنة ١٩٠٢ واقترح تدريس اللغة العربية فى جامعة كامبردج ورافقه
كرومر على سلك ، وكان يدرس اللغة العربية بها فى حين كان مرجليوث يقوم
بتدريسها فى جامعة اكسفورد .

كان الكلام عن الوطن أمرا مجهولا لديهم ، كل هذا بعد الثورة العربية بعشر أو خمس عشرة سنة فقط ، وكان معنا بالمدرسة الخديوية الثانوية على فؤاد طلبة أحد أبناء تلك الثورة ، خاضعا وديعا محبوبا من الانجليز لأنه ولد ونشأ في سيلان وتعلم لغتهم ، لقد عرف الانجليز كيف يسيطرون على عقول الشباب في الخديوية والنوفيقية ورأس التين ، ولم تكن هناك مدارس ثانوية سواها وكبلونا بسلاسل من الجهل والخوف .

ولم يشر أحد من الأساتذة سوى اثنين هما المرحومان طنطاوى جوهرى وعلى فوزى ، الأول شذ فى تعليمه فهجر النحو والصرف والبلاغة وأخذ يلقي علينا دروسا من احياء العلوم للغزالي والرسالة القشيرية ، والثانى ثار لظلمه فى مرتبه وارهاقه فى العمل ، فتحملوا الأول بعد أن أنذروه وتهددوه ، وأغدقوا على الثانى المال ورقوه ، وأما البقية فكانت ترعى برسيم الحياة الحكومية فى أمان !

فأى خير كان ينتظر من هؤلاء حيال عصابة قوية متينة معتزة بسلطانها الجنسية والسياسية فى البلاد ؟

بئست هذه الفترة ! التفت حولى فلا أجد واحدا من رفقاء صباى تحرر من أغلال ماضيه وقد خرجوا جميعا كأقمار السكر على وتيرة واحدة ، وكانوا ينظرون الى التلميذ الذى يخالفهم فى الفكر أو الرأى أو العزيمة كما تنظر الغربان الى الطاووس يمشى

(١) للموقف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ طنطاوى جوهرى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق . ص ٩٤ - ١٠٢ . وعن على فوزى كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد لاعلام المتعاصرين والانداد » ، ص ١٧٤ - ١٨٠ ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ .

مستقيما لا اعوجاج في خطواته ، ليس هذا فحسب ، بل لقد قتلت هذه البيئة عاطفتي الثقة والصدقة بين الأولاد وقسمتهم شيئا وطبقات .

لم تفلح الحرية أو المبادئ العليا أو الكفاح القومي أو العلم العالي أو الاكتشاف المغري أو الأدب الرفيع أو الفنون الجميلة أن تجذب أحدا من أبناء هذا العصر ، لأن قوة المحتلين وضعف الخاضعين تضافرا على افساد عقول مطبوعة بفطرتها على الأنانية وحب المال والشهوات والنساء والمقامرة والخمر والحسد والأحقاد ، وأضف الى هذا كله اختلاط الأجناس أجدادا وأولادا وأحفادا ، وأضف اليه أيضا ديننا مهملًا وفضيلة مزدرة ورذيلة ممجدة وطبقة محدثة النعمة ومحدثة السلطان ، وأجانب ودخلاء ، ومثل سفلى في الحياة الخاصة والعامة ، ينتج حاصل الجمع أو الضرب تلك الأصفار على الأشمال التي تكونت منها الطبقة المتعلمة ، ومن هؤلاء مخاليق المحسوبة والوساطات والاستثناءات ، ومن هؤلاء الذين نبذوا النيفاء والنبهاء أو أعانوا على نبذهم واضطهادهم وحسدوهم ليسودوا وحدهم دون سواهم ، فهبط مستوى الأمة وتمت غاية الفاتح المستعمر !

- ٤ -

دوجلاس دنلوب وسياسة التعليم في مصر

لم تكن المدارس الثانوية في أوائل القرن العشرين إلا أداة من أدوات الحكم البريطاني في مصر ، غايتها تخريج طبقة من

الأفندية ليشغلوا الوظائف الصغرى فى دواوين الحكومة وليعملوا
فى طاعة وهبوط تحت اشراف السادة الانجليز الذين يشغلون
المناصب العليا الادارية على مثال الحكم المندى الهندى .

وقد حشدوا لأجل اتمام هذا العمل جيشا من النساب
الانجليز المتخرجين حديثا فى جامعتى اكسفورد وكمبرج بدرجة
بكالوريوس آداب ، يعينونهم أساتذة للمدارس الثانوية ومعظمهم
يدرسون علوما غير التى تخصصوا لها ! ، وغايتهم من ذلك وضع
كل شىء فى أيدي غير الأكفاء حتى تاتى النتائج منكوسة ، وقد
أثمرت هذه الغاية فكان معظم الذين تخرجوا فى ذلك العهد جهالا
ومعادمى الكفاية والثقافة .

وقد وضعت وزارة المعارف تحت سلطة رجل واحد هو
مستر دوجلاس دنلوب (١) وما زال يدرس ويترقى ويجمع الأمر
بين يديه . ويستخدم نفوذ الاستعمار فى قتل النفوس المصرية حتى
أصبح هو الكل فى الكل فى وزارة المعارف ونجح فى تكوين بطانة
من الانجليز والمصريين يسبحون بحمده وينفذون جميع أوامره
وينتهون عن سائر نواحيه ويسسرون وزارة المعارف ومدارسها
بحسب اشارته ، فحارب اللغة العربية وآدابها واضطهد المشايخ
المخلصين وصار هو الحاكم بأمره ، ولم يكن وكيل الوزارة فى
ذلك العهد الا رجلا من القش كما أن الوزير نفسه كان صنما
مصابا بالصمم والبكم اللهم الا القليلون مثل سعد زغلول باشا .

(١) كان دوجلاس دنلوب مدرسا للغة الانجليزية بالمدرسة الخديوية الثانوية
ثم أصبح مفتيا عاما لجميع مدارس نظارة المعارف فى عهد الاحتلال البريطانى
بمصر ، وفى سنة ١٩٠٦ عين مستشارا لنظارة المعارف فبلغ ذروة السلطة
والنفوذ .

والعجيب أن دنلوب قد أخذ الوقت الكافي لتعميد مخططه ولم يتعرض له أحد بأكثر من انتقاد الجرائد البسيارة ، وذلك بالطبع لعدم وجود البرلمان وكان يشاع في كل صيف أنه سيذهب إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم وأنه لن يعود وأنه استنقال لأنه مسلول أو مصدور ، ولكن عيشا كان انتظار تحقيق هذا الحلم ، وكان دائما يعود في شهر أكتوبر على رأس قافلة من الخواجات وقد انتقاهم بنفسه وهم في غاية البساطة وسلامة النية ، ثم لا يلبثون أن ينقلبوا أفاعى وأعداء لنا يذلوننا ويعلموننا الصغار ونحن في ريعان الفتوة وفي سن الحماسة الحققة ، فيطفئون جذوتها بالتهديد والوعيد والاحتقار ، فقد وصفونا في مكاتبنا بأننا أمة نصف متحضرة وداسوا على كل عاطفة وطنية .

كذا عمد دنلوب وعصبته إلى اضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفة أو ميلا نحو الاجتماع أو تأليف القلوب أو الهداء باسم الوطن ، وهكذا بدأ نظام فظيع من التجسس في المدارس وصار نجباء الطلاب يطردون ويطاردون ويحرمون من دخول الامتحانات العامة ليكونوا مثالا لغيرهم وليكون في عاقبتهم موعظة وعبرة !

كذلك كل أستاذ مصرى كان لا يباح له أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئا . ولا يباح له أن يقرأ جريدة أو يصرح لطلاب براءة جريدة ، وتاريخ مصر والاسلام نفسه كان يدرس باللغة الانجليزية في بضع صفحات أولها « ان مصر لم تحكم نفسها بنفسها أبدا » ، وآخرها « وقد هزم الجيش المصرى في التل الكبير وذبح الجنود المصريون في ليلة ١٤ سبتمبر التي كانت قمرية كما نذبح الخراف وفر قائدهم عرابى باشا ٠٠٠ » .

وهكذا كان تعليم كل ما له مساس بالوطن واللغة .

فكيف نؤمل أن تنتج هذه الأجيال رجالا كالفلاسفة والمصلحين
والمكتشفين والمخترعين والمبتكرين وكبار الكتاب والشعراء ؟

كيف للمعاقل الكامل أو العالم أن ينتظر غير هذه النتيجة من
الحكم الأجنبي الذي استعان ببقاياها وأذئاب الحكم السابقين من
ترك وأرمن وشراكسة وألبانيين ومماليك ليكونوا واسطة بينه
وبين الشعب المسكين ؟

لقد كان عند الأمة الغالبة اختبار طويل من التاريخ ومن حكم
الأمم العربية والشرقية فرأوا أن الأمم تحكم بطريقتين ، طريقة
العنف الملحم وطريقة اللطف المسمم .

أما الأولى فباستخدام الجيش والبوليس وهذه قل أن يلجأوا
إليها إلا في الضرورة القصوى .

وهناك الطريقة الأخرى اللطف المسمم المنطوى على الظلم
المنظم وهنا في مصر الأرض خصيبة جدا وقابلة لزراعة هذا النوع ،
لأن الأمة في مجموعها محبة لذاتها منقسمة على نفسها متزاحمة
بالمناكب على المناصب ، متفانية في عبادة المال والشهوات ، باقية
على الوثنية الأولى من تمجيد أصنام الأشخاص الذين يقضون
الحاجات .

لقد جعل كرومر وشميعته برامج التعليم مثالا يحتذى للتوافه
والسفساف ، وقيدوا التعليم بالشهادات الحكومية التي لا تبسج
سواها دخول الوظائف ، وحاربوا التعليم الحر والمهن الحرة
ليقتلوا الاستقلال في العمل ويخنقوا الشوبغ في مهده .

وهكذا ضمن الانجليز الجهل للتلاميذ وحددوا المستقبل
للطائعين منهم وقفلوا بابه في وجوه المستقلين والنوابغ .

ولما فشل نظام المستشارين الانجليز ، قسموا بينهم رجال
المستقبل فقالوا هؤلاء الباشوات المصريون صنيعة فلان المستشار
وهؤلاء صنيعة فلان، وتبارى كل فريق في تسييد (من السيادة)
سياسة صاحبه ومولاه ، وبعبارة أخرى خلق في مصر نظام جديد
من الولاء كالولاء العربى القديم بين الأمراء والتابعين ، وانتقلت
الصنيعة من الانتساب الى الأشراف والأمراء والزعماء والقواد الى
الانتساب الى المفتشين والمستشارين .

وقد جعل دو-جلاس دنلوب لنفسه جيتيا جرارا من هؤلاء
الصنائع فى نظارة المعارف وبشه فى حنايا المدارس والمعاهد
والدواوين وبعت منهم جواسيس وأرصادا وألزمهم بكتابة التقارير
اليه فى الليل والنهار .

هنا هو الوسيط الذى تربى فيه رجال المستقبل وأمل الجيل
وذخيرة مصر ورجاء الأمة وذخر الوطن .

هذه المحنة التى عانىتها فى صغرى وفى مقتبل عمرى وأوان
نضجى وشدة شوقى الى المعرفة ، كابدت فيها الحرمان ، لأن
الحياة العقلية مفقودة والنظام فى مصر لم يكن معدا لأمثالى أو أن
أصحابه لم يعملوا لنا حسابا ، ولكن كان الحساب لطبقة الأفندية
والموظفين الهادئين الذين لا يتطلعون ولا يسألون ولكن يعيشون
ويترقون ثم يحاولون على المعاش مكرمين معززين وقد شبعوا من المال
والسلطة وكل من فتح منهم عينه ليرى أو فتح فمه ليتكلم وجب
انذاره وتخويفه ثم تحذيره ثم حرمانه وطرده .

- ٥ -

ذكریات المدرسة الخديوية

قرأنا فى المدرسة الثانويه قشور العلوم لان التعليم فى أوربا يمتد فى الثانوى الى سبت أو سبع سنوات ، بينما كان فى مصر خمس سنوات ثم صار أربعا فتلاتا ، وقد حذفت من مناهج التعليم علوم كثيرة كانت تنير العقول وتعد للتعليم العالى ، ولكن أفلت من هذه القشور رغم أنف المعلمين بعض مبادئ الحق والحرية فى كتب المطالعة أو فى دروس التاريخ أو فى قصائد الشعراء ، فكانت دليلا لمثل من محبى الاستطلاع والاطلاع .

وهذا الامر الذى كان يخشاه المدرسون والنظار والمنشئون ، ولذا منعوا قراءة الكتب غير المدرسية وحرموا مطالعة الصحف السياسية ، وابتدعوا جريدة للمدرسة باسم « المدرسة » باللغة الانجليزية ، وجعل الانجليز ساعة فى كل ثلاثة أشهر للخطابة تمت اشراف أستاذ انجليزى يراقبها ويعد موضوعها ويفهم مراميها .

لقد عبث اخواننا فى البشرية من شاطئ المانش وبحر الشمال بمقدرات هذه الأمة عبثا شديدا ، وشاءت الأقدار أن تكتم أفواهنا فى الحروب العظمى ، وشاءت الأقدار المتعسة أيضا أن تتطور الدنيا لا فى سبيل الحرية والخير والمساواة ، بل فى سبيل الطغيان والقوة المادية الغاشمة ، وصارت السيادة للقوة والغلبة والفظافة ، وذهبت المثل العليا واندثرت الآمال وأصبحنا ننتظر المستقبل :

الا أيها الليل الطويل الا انجلي

بصبح ، وما الاصبح منك بأمثل

بإجماله كانت فترة التعليم الثانوي بالنسبة لي ولا مثالي في
أوائل القرن العشرين محنة ، وإن نال أحد منا تسييماً من المعرفه
فبمقتضى جهده وشغفه وشوقه واستعداده ، أما الآخرون ، وكان
معظمهم من الريف ، فكانوا يقبلون على التعليم المدرسي بنية أن
يأخذوا شهادة ليتوظفوا بها ، وقد نجح كثير منهم وصاروا في
الحكومة باشوات وبكوات وأفندية وهم في غاية الغفلة من الناحية
السياسية والقومية والثقافية ، وتراهم الآن كما كانوا من قبل
يدافعون عن الحكم القائم الذي صاروا بفضل كرومر وجورست
وكتشنر وماكسويل من عباده ، ولم يكن ينتظر غير ذلك .

وبينما كان أفق تفكيري يتسع ونفسي تتطلع الى العلم الصحيح
والمعرفة الحققة والأخلاق العالية والمبادئ السامية ، كنت أختنق في
الواقع وأشعر بالضيق ، وهذه هي أعز وأعلى سنوات الشباب ذهبت
هباء لو لم ألتقف وألتقط وأتصيد الكتب والمعلومات وأدون
بقدر ما أستطيع لأن نفسي كانت منذ ذلك العهد تأبى أن أتم حياتي
كما يتمها زملائي القادمون من الريف أو أبناء أعيان العاصمة الذين
جعلوا التعليم جزءاً من الحياة مع أن الحياة يجب أن تكون جزءاً من
التعليم .

لقد كنت غير مفهوم من التلاميذ ولكن كان لي نخبة من الأصدقاء
الذين جربتهم واختبرتهم أمثال أحمد مختار بخيت ومحمد المنجوري
وابراهيم رمزي (١) وعلى فؤاد طلبه وحسن نشأت وحسن أنور
وعبد الرحمن الطوير وصالح كامل الحكيم وأحمد واصف
ومحمد عبد الله صالح ومحمود السبع وعبد العزيز اسماعيل

(١) للبروف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بابراهيم رمزي .
راجع كتاب « محمد لطفى جمعة هؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ -
٢٨٣ .

ومحمود وهبى وعبد العزيز حلمى ، ولم أزد على هؤلاء الا بعض طلاب القسم الفرنسى مثل على أيوب وعبد الرؤف حلمى واثنتين أو ثلاثة آخرين لسماحه فى أخلاهم .

كانت الوطنية غير معروفة عندنا بتاتا مع وجود مصطفى كامل وبريدة اللواء ، ولا الدين كذلك مع معاصرة الشيخ محمد عبده ، ولا الاجتماع مع وجود قاسم أمين وسعد زغلول وأمثانها ، ولا ندرى شيئا عن الحياة العامة .

لقد أحكم الملاعين غلق الأبواب على عقولنا وأخلاقنا وضيقت الخناق علينا تضيقا شديدا واستعملوا « ضباطا » من الطراز القديم ليحفظوا النظام ، وهؤلاء كانوا فى غاية الذل والخنوع لا ينطق أحدهم بكلمة .

نعم كان هناك شعاعان من النور أطلا عليهما رغم القيود والسدود ، الأول الشيخ طنطاوى جوهرى وهو شيخ متجرب يريد التقدم والفهم ولكن فى حدود الوظيفة ، وقد نجح معى نجاحا عظيما اذ وجهنى او ساعدنى توجيهى الى التفكير لى اخدمه وقد استمرت علاقتى به الى أن توفى سنة ١٩٣٨ وقرأت جميع ما كتب وحاولت ترشيحه لجيل جازة نوبل .

والشعاع الثانى صدر عن المرحوم على فوزى أستاذ الترجمة ، وذلك بأن ساعد ذوقى فى التفانى الترجمة واحسان اللغتين العربية والانجليزية ، ثم استقال ولم يخف أو يخش صولة دنلوب ، فكان لاستقالته طنة ورنه فهمت منها أنه رجل أراد أن يقاوم سلطة الانجليز التى تستغله أشنع استغلال لشغل كل وقته فلا يجد ساعة فراغ للتفكير ، فتملقوه وزادوا مرتبه ورقوه الى ناظر مدرسة باب الشعرية الابتدائية ليسكتوه ، وقد نجحوا فى اسكاته الى أن

هاجر من مصر الى اسطنبول تم عاد الى أرض الوطن ليموت في سنة ١٩٣٥ أو سنة ١٩٣٦ ، ولم ينتج كتابا ولا مقالة ، ولم يلق محاضرة ولم يشغل قط بالحياة العامة مع وفرة علمه وأدبه وسعة اطلاعه ومعرفته بست لغات أو سبع ، وهذا دلني بعد التأمل على أن الآلة الطبية أو الشخص المستعد ، يعرفه الصدا ويتعلم كالسلاح ولا يعود صالحا للعمل .

لقد خدمتني اللغة الانجليزية أجل خدمة لأنني اطلعت بواسطتها على الكتب والمجلات والجرائد التي تطبع في أوروبا .

ولتعلمى اللغة العربية أكثر من غيرى قصة ، فقد تحررت من كتاب النحو العقيم تأليف طوموم وشركاه ومن كتاب البلاغة وقرأت كتباً أكبر مما يدرس في الأزهر ، هداني اليها محمد عثمان الفندى وكان صديقى واشتهر أبوه وهو محام شرعى بقضية الشيخ على يوسف وبنت السادات ، تم اشتريت مقدمة ابن خلدون وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه والعقد الفريد لابن عبد ربه وقرأت هذه الكتب قراءة نصوص بتدقيق واتقان .

أما اللغة الانجليزية فقد حذقتها في السنة الرابعة الابتدائية . وحاولت ترجمة رباعيات الخيام وكنت أول مصرى اشتغل بها من سنة ١٩٠٤ .

ولتعلمى اللغة الانجليزية قصة أيضا ، ففي سنة ١٩٠٠ في شهر رمضان المبارك كنت بعد الافطار عند رجل يبيع التين والتمر المنقوع ، فجاء رجل آخر وهو خادم عند رجل انجليزى يحمل على كتفيه كتابا تبلغ الثلاثين أو الأربعين يريد أن يبيعها للبطاريين والبدالين في القيسارية ، فلم يقبل أحد شراءها منه بخمسة قروش ، فاشتريتها منه ونقلتها الى منزل ، فلما عدت اليها قررتها فوجدتها

اعدادا من مجلات الانجليزيه شهريه مشهوره يكتب فيها أشهر الكتاب قصصا وزحلات واديا منظوما ومنتورا وبعض تراجم العظماء وشذرات فى السياسة ، فنظمتها وصممت على ان ابدا القراءة فيها فاحضرت القاموس والورق والقلم وبدأت أفرا ، وما كان اعظم سرورى عند طلوع الفجر بعد مدفع الامساك فى تلك الليلة المباركة وقد قرأت قصة كاملة فى مجلة « ستراند » .

ومن تلك الليلة لم أنهيب كتابا انجليزيا ولا مجلة ، بل شعرت بالشوق والنهم وحب الاطلاع ، ونقلت معى هذا الشوق الى المدرسة الثانوية ، فكنت ألتهم كتب المطالعة وكتب المحفوظات من نشر وشعر وحفظت قصائد بيرون فى حريه اليونان وخطب جون برايت فى حرية الصحافة وانفتحت لى قوة اثر كوة من النور ، ثم علقنت شكسبير ، فكنت كلما رأيت قطعة منقولة من احدى قصصه اشتريت القصة كاملة من مكتبة ديمر وكان صاحبها المانيا وقد دامت علاقتى بهذه المكتبة ثلاثين سنة .

لقد كان فرحى عظيما عندما تمكنت من المطالعة الانجليزية . وكنت كثير التكلم بهذه اللغة فأحقد هذا بعض التلاميذ على وتالبوا على عندما رأونى أحاول التكلم بالعربية الفصحى أيضا فأقاموا على حربا واندرونى بالانتقام اذا حاولت احدى الحسينين ، اتقان لغتى وتعلم لغة اجنبية !

(٦)

الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين

كنت فى تلك الفترة يافعا ولكننى أقدر الأقوال والأعمال حق قدرها وأغضب لما أرى وأسمع وأحنق على الذين يكشرون عن أنياب اللؤم لهذه الأمة .

وكننت أظن بالمجموع خيرا وأمجده رجلا أمثال الشيخ محمد عبده (١) ومصطفى كامل (٢) وقاسم أمين (٣) وأحسن الظن بهم جدا وأكاد الملح عجزهم عن اصلاح الأمور لقوة خصومهم وأكاد أدرك الفرق بين أسلجة الفريقين .

فان الشيخ محمد عبده أبى أن يحامل الخديو فى مسائل تتعلق بالأوقاف على أن يطلق الخديو يده فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، محتجا بأن الباطل لا يكون سبيلا الى الحق ، أى أن الشيخ محمد عبده أبى ورفض أن يكون منافقا متساهلا فى حقوق المسلمين ولأنه ذلك النفاق والتساهل من احداث خير كبير للمجموع ، وقد احتج عليه أصدقاؤه وتلاميذه وبعض أتباعه فأبى أن يسمع نصيحهم أو يعمل برأيهم وفضل أن يعتزل العمل قبل أن يعزل حتى لا يقال ان الشيخ قد انطوى، ولم تجده صداقته باللورد كرومر نفعا ولم يمد اللورد يده اليه وتركه فريسة لخصومه الأقوياء ، ولعل اللورد أيضا كان يرى فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية خطرا على الاحتلال .

وقد مرض الشيخ او ظهرت العوارض الأخيرة لمرض السرطان عليه وبعد خروجه من مجلس الأزهر مرغما ، توفى والناس تعلم أنه تأثر بما سمع فى خطبة الخديو التى ألقاها فى قصر عابدين فى ١٧ محرم سنة ١٣٢٣ هـ على ملأ من العلماء وفيهم الحاسد للشيخ والناقم عليه والمخلص له .

وأظهر الخديو أنه يستطيع أن يقتل أعداءه بغير السيف والنطع وكيف تفقد الأمة فيلسوفا مصلحا فتركه وحيدا لا تدافع

(١) ، (٢) ، (٣) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ١٧ - ٢٧ ، ٧٩ - ٨٧ .

عنه ولا تشد أزره وكيف يترك المسلمون مصلح الجيل المبوع
لاصلاح الأمة فى ذلك القرن الرابع عشر الهجرى دون ان تحرك
ساكننا .

وكان لموت الشيخ أثر شديد فى نفسى ، فقد عرفته فى
السنوات الأخيرة قبل وفاته وورثته فى داره بعين شمس بعد مكاتبات
طويلة أثبتتها المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا بأمر الشيخ عبده
فى الجزء الاول من تاريخ حياة المفتى (١) ، وكان جواب الاستاذ
الامام لى بعد أن زرتة فى داره هو الاستمهال والنصح بالاستمرار فى
الدرس والنظر وعدم الطفرة ، ولكنه لم يتحدث الى فى آلامه لعلمه
أننى لحدائث سننى لا أفهمها ، ولكنه ألمع مرات عدة الى آلامه وغيظه
من جهل المجموع ومن عدم ادراك الأمة حقائق الامور ووقوع العلماء
تحت المظالم ، وقال لى ان أخلاق الغرب فى السياسة والاجتماع أرقى
من الشرق بكثير وان كل صالح من الأعمال والآراء والنظم اذا دخل
الشرق فسد ، وأن الدين معناه التنوير واليقظة بجانب العبادة
وليست العبادة وحدها هى المقصودة لذاتها ولكنها جزء من حياة
الروح لا كل شئ فى حياة الروح ، وكان الألم مرسوما على وجهه
وهو يظن بالناس انهم اميل الى منافعهم المادية والى مداخلة من
يمنتظرون قضاء هذه المنافع على يديه وقد حرموا نعمة الاخلاص
والوفاء لأسباب يطول شرحها وأنهم فطروا على حب الفتن والدسائس
والنفاق .

أما مصطفى كامل فقد لقينته والمرحوم محمد فريد (٢) بمدينة
لوزان بسويسرا أثناء سياحتى فى أوروبا سنة ١٩٠٦ ، فتأكدت بيننا
أواصر الصداقة المتينة وانضممتم الى الحزب الوطنى بارتيماح

(١) تراجع هذه المكاتبات فى كتاب « حوار المفكرين » رسائل اعلام العصر الى
محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن ٩ ، عالم الكتب سنة ٢٠٠٠ م .
(٢) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد فريد ،
راجع كتاب « محمد لطفى جمعة ومؤلف الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٥١ .

لاعتقادي أن مؤسسه على حق وقد استغلت من عشرته كثيرا من المبادئ السامية والاتجاهات الشريفة ومن بينها عدم التمرغ في تراب الميرى والنأى جانباً عن وظائف الحكومة أو السعى إليها والاعتماد فى رزقى على الأعمال الحرة .

وكننت فى هذه الفترة (سنة ١٩٠٥) أشغلت بالصحافة واشتركت مع المرحوم محمد كرد على (١) والسيد عبد العادر المعربى فى تحرير جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شادى ، وألقت فى يناير سنه ١٩٠٦ خطاباً فى حفل عيد جلوس الخديو عباس حلمى الثانى شرحت فيه سياسة الوفاق التى بانت بوادرها بعد اتفاق إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وأنحيت باللائمة على هذه السياسة وطعننت فى استسلام القصر للاستعمار وانصراف الجالس على العرش الى تنمية تروته دون الاكتراث بشئون الأمة ، فغضب على أمير البلاد وأوعز الى صاحب جريدة الظاهر باضطهادى وفصلنى من عملى ووسط فى ذلك الشيمى بك الذى كان موظفاً فى المعية .

وتركت العمل بجريدة الظاهر وانتقلت الى جريدة اللواء وعملت مع مصطفى كامل فى تحرير الجريدة ، وعندما أنشأ مصطفى كامل جريدة الجبشيان ستاندارد عيننى محرراً لها مع شارلس رودى وجون مالونى الانجليزيين .

كان النضال بين المؤيد واللواء شديداً والتمراشق بالألفاظ الجارحة بين الرجلين قويا غير أنهما لم يتجاوزا لفظى «طاحونة الهواء» و«الهلفوت» ، قال الأولى مصطفى كامل فى الشيخ على يوسف ورد عليه الثانى بالآخيرة ، وهاتان الكلمتان تعدان من الأدب العالى

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد كرد على .
المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

بالنسبة الى ما يقرأ فى الصحف المصرية بعد ظهور الأحزاب الجديدة
فى سنة ١٩١٨ وما تلاها .

كانت الصحافة فى تلك الفترة ما تزال فى حدود الشرف
والأمانة ، فلم تبع ذمتها لأرباب الاعلانات ولا للشركات الأجنبية
والوطنية ولم تعتمد على الاعتمادات السرية .

هذه كانت أحداثا طفيفة بالنسبة لحياة أمة شرقية محتلة
سحكومة بطريقة استبدادية فى عهد أمير لا يخضع للدستور ولم
تحدث الا فى الطبقات العليا التى تأثرت عداوتها لأغراض شخصية
ولم يكن المال يلعب فيها دورا كبيرا . بل كانت الخصومة السياسية
والتطاحن على الجاه والسطا .

أما قاسم أمين فقد كان وثاب الذكاء شديد الفطنة مخلصا
لدينه ووطنه وجنسيته المصريه وان يكن كردى الأصل ،
وعندى أنه فكر فى أصل البلاء فى مصر فرآه فى جهل المرأة لا فى
حجابها ولا فى مكانتها التى حددتها لها الشريعة الإسلامية ، فألف
كتبه راجيا أن تتحرر المرأة المسنمة المصرية من قيود الجهل قبل أن
تتحرر من قيود الحجاب وأن تمارس حقوقها المعترف بها فى
الشريعة ، ولم يقصد أبدا الى التهنك أو التحرر من قيود العفة
والاستقامة والطاعة والأمانة الزوجية ، ولا يوجد فى كتبه جملة
أو نص يحيد عن هذا المأرب النبيل ، ولكن طبقة المتظاهرين بالغيرة
والتحمس على الأخلاق والدين والآداب أرادوا أن يتخذوا الرد عليه
ذريعة للشهرة بحماية الأخلاق والدين والآداب .

وانى لا أتعرض الآن فيما عاد على البلاد من مبادئ قاسم أمين
وسوء فهمها أو سوء تطبيقها وعدم تحميله وزر ذلك ان كان هناك
وزر ولكن أقرر ان سير الحوادث فى هذه البلاد كان سيؤدى حتما

الى ما نحن فيه خصوصا بعد الحرب العظمى الاولى ، فيعد قاسم اذن متقدما على جيله بأربع عشرة سنة ومعبرا عما كانت ستتمخض عنه تطورات الاحلاف فى بلد ممتزج بحياة الغرب كل امتزاج وخاضع لمؤثرات الافرنج فى معظم مدنه .

وبالجملة فقد تأثرت بالمفتى كثيرا كما تأثرت به مصطفى كامل وخاسم امين ، وكان كل منهم من أرباب المثل العليا ولم يكن بينهم وصولى أو مستجلب للفتية أو مثاق أو تميم معتم ، فاحمد الله على هذه النعمة وإن كان كثير مما صادفنى من الهفوات فى حياتى كان بسبب اتباعى مبادئهم السامية ، فقد حميتنى تلك المبادئ السامية ورغبة التشبه بهم من الوقوع فى فخاخ اللؤماء والمنافقين والخونة وبائعى ضمائرهم ، وعلمتنى الصبر على المكارة وتحمل الشدائد فى سبيل ما أعتقده حقا ، وإن كان ثلاثتهم قد توفوا متعاقبين فى سنتين أو ثلاث لأن اتصالى بهم لم يكن الا فى ختام حياتهم ، وكل منهم توفى مغيفا محنقا وإن لم يكن قانطا من رحمة الله ، ولكنه قانط من صلاح هذه الأمة فى الدين والسياسة والاجتماع .

(٧)

تأليف أول مجموعة قصصية مصرية « فى بيوت الناس »

فى هذه المرحلة كنت أطلع للتأليف والنشر ونشر التعليم رخدمة الأمة واشباع الفقراء - وأنا منهم - ومعالجة المرض ولا أجد السبيل +

وفى صيف سنة ١٩٠٠ بدأت أقرأ بعض كتب الأدب العربى
واخذت أحفظ الشعر القديم والحديث وأشتغل بتراجم بعض
العظماء ، ونقلت بعد فترة وجيزة قطعة « ماكبث » من الانجليزية
الى العربية نقلا رديئا ومثلها لكيف من تلاميذ المدارس ، وقلدت
المؤلفات التمثيلية فى قصة اسمها « اللصوص الكاسرة فى الجبال
المقفرة » وبقيت خجلا عشر سنوات من هذا العنوان وخاطرت بمال
فى طبع هذه القصة ولكن لا أدرى أين هى ولا ما جرى لها .

وفى سنة ١٩٠٢ كنت أقرأ مزيجا من مؤلفات تولستوى وكونان
دويل وفيكتور هيجو وسكسبير والمعزى والشيخ محمد عبده وغير
مرشد ولا غاية ولا خطة مرسومة ، لأن مناهج المدارس كما ذكرت
كانت قاصرة خاطئة ناقصة ، فكنت أتسقط الكتب والمجلات وأوجه
نفسى توجيهها حرا أساسه الشوف الشديد الى المعرفة .

وفى سنة ١٩٠٣ كنت فى قطار المرج فلما تركنا محطة الزيتون
رأيت شارعا كبيرا محازيا لخط الحديد وفى الشارع مركبة أنيقة
يقودها حوذى نظيف حسن الهيئة ، وتبينت فى المركبة سيدة حسنة
تتلفت نحو القطار وكذلك الحوذى ثم اختفت المركبة والحوذى
والحسنة لأن الخيل لا تدرك القطار ، فكان هذا المنظر كافيا لتوليد
الفكرة التى أنتجت مجموعتى القصصية القصيرة « فى بيوت الناس » .

لقد اتخذت كل مركبة وكل حوذى شأننا خاصا ولا سيما اذا
كان فى المركبة حسنة مضطجعة ، وأخذت الحوادث ترسم فى
ذهنى ، وبطولة الحوذى الأنيق وغموض الحياة المحيطة بالحسنة ،
والمركبة ، ووصلت منزلى وأخذت أكتب على الورق أسماء ووقائع
قبل أن أعرف ما هى القصص .

وهكذا بدأت قصص « فى بيوت الناس » وهى أول قصة
مصرية كتبت فى العصر الحديث ، وفيها قصص قصيرة فكانت جرة

منى على طريقة لم يعرفها الكتاب ولا القراء في مصر . فهذه القصة التي ولدت في صيف سنة ١٩٠٣ فيها وصف الحياة المصرية بحبرها وتبرها كما مرت بذهن شباب في نصف العقد الثاني من عمره عقيب امتحان السنة الشامية الثانوية وفي بداية عطلة الصيف المدرسية (١) ، وقد تم الكتاب بجزئية وطبع الجزء الأول منه ونشر بعد ستة أشهر (يناير سنة ١٩٠٤) ، ولم أشأ أن أضيع اسمي خشية النقد ، ولكن حافظ عوض الذي أصبح بعد ذلك صاحب جريدة كوكب الشرق كتب في إحدى الصحف الكبرى ولعلها المؤيد يقول ان الكتاب تأليف شاب ينظر الى الحياة من نافذة المدرسة ! .

وانى اذ أرجع بذهنى الى اقاخيص هذا الكتاب أسائل نفسي : ألم يصدق هذا الناقد ؟

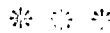
نعم نظرت الى الحياة من نافذة المدرسة بلا غرض معين سوى التعبير عن بعض المبادئ التي كانت تزدهم بها نفسي ولم أكن أعرف شيئاً عن قواعد فن الفصحى ولا طرائق التأليف الخيالى ، ولكن أولادى الذين قرأوا قصتي منذ أربعين عاماً يكتبون الآن فى قواعد فن القصة ، والذين كتبوا منهم قصة انما ترجموها أو اقتبسوها وألبسوها « جورج » طاقية أو عمامة أو طربوشاً بعد أن خلعوا عنه قبعته ، وكذلك جعلوا من « اينيل » أو « ليلي » - بكسر اللامين - فاطمة وزاهية وعائشة ! ، ونقلوا أحداث « بيكاديللى » الى عماد الدين ، « وهامر سميث » الى باب الخلق ، وشارع « ريفولى »

(١) عن مجموعة قصص « فى بيوت الناس » ، راجع الفصل المعقود عنها فى كتاب أحمد حسين الطماوى « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والأدب » ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٧٥ - ٨٩ ، كتاب الدكتور محمد رشدى حسن عن « أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة » ، هيئة الكتاب ، ص ١٥٤ .

جعلوه شوارع المغربى ، والمعادى هى « سان كلو » و « أنير »
وهكذا !!

ثم جاء أبطال القصة انفردوا بها واعتلوا صهوة براقها
واستعملوا المال والنوال ونفوذ الأب والعلم والخال فى الدعاية لهم
وترجمة حالهم وترويج خصائصهم ليربحوا شهرة محرمة بالباطل .

ثم جاء الرمزبون والغمازون وجعلوا لهم طبالين وزمارين
ومهرجين يكتبون فيهم المقالات لقاء « تعريفية » و « مرتب »
و « هدية » ويقولون فيهم ما قال أبو نواس فى الخمر ! • ولعمرك
انه لا يقرأ تلك الرمزيات سوى مؤلفيها ومادحيها .



(٨)

جليلا هانم

منذ انتهت لنفسي من غفوة الطفولة - اى فى حدود
الثانية عشرة من سننى ، وكنت اذ ذاك تلميذا فى مدرسة طنطا
الابتدائية سنة ١٨٩٨ - شعرت بشيء من الكبرياء •• وحاولت
التخلص من هذا العيب واكثر من تلاوة القرآن ، ولكننى لم
أتخلص من شعور الكبرياء والتعالى واخذت أحس - على رقة حالى -
باختلافى عن بقية الناس واننى من طبقة تخالف طبقة عشرائى ورفقاء
الدرس •

وما زالت هذه الحال تنمو معى ونصوننى عن الدنيا وتحتفظنى
من التذنى ، فكنت أحفظ نفسى من اظهار عواطفى للبلوغ

يعلمنا اللغة العربية - فاطرق ثم قال لى « ان شعورك بأن هذه الحالة ميزة ينفعك وطنك أنها مرض يضرك ، وهى ليست ميزة ولا مرض بل هى مزاج واستعداد فانسخ لى ما كتبته من تفسير القرآن ينفعك الله به واقرأ الرسالة الفشيرية وكتاب الاحياء للغزالى » . فعملت بنصيحته ونسخت له فى تفسيره وأخذت أقرأ الرسالة والاحياء .

فى تلك الفترة حدثت لى حوادث خدمتني فيها هذه الكبيرة
 بل خدمة ، فاننى سكنت فى بيت رجل شيخ مريض متزوج من
 امة جميلة صغيرة السن ، وكان بينى وبين مالك الدار وهو زوج
 امة ، نفور شديد ولكننى محتاج الى مجاورته لقرب داره من
 رسة ، فقد كان هذا البيت فى الحلمية الجديدة على قيد خطوات
 باب المدرسة فى تلك الفترة . فتقدمت لى زوجة جارى صاحب
 ار بالوان من الفتنة والغزل ، لأننى رقت فى عينها فظننت أن
 فوقها بوصفها زوجة المالك تمتد الى المستأجرين فتتهوى من تشاء
 وتستتهوى من تشاء !

وأخذت تقدم الى الهدايا وتحتال على الرغم من غيرة زوجها
 ومراقبته الشديدة حتى دبرت خلوة على حين غفلة منه وعلى بغلة
 منى ، فادركت فى لحظة عين أن المرأة لايقف فى سبيلها شئ وان
 اسمها « جلييلة » ، واتخذت السيدة الشابة حيلة حتى رأيتها أهامى
 مزينة أجمل زينة ومشتعلة بنار الهوى وهى فى عنفوانها وقد سمعت
 معاشرة زوجها الشيخ ولم تبال خطرا يقع لها او لى .

فلما رأيتها على هذه الحال فى بيتى ، رحبت بها وقلت لها :
 ا تريدين يا جلييلة هانم ؟ قالت بغير خجل ولا تردد : أريد
 أنغدى معك وأجلس اليك لأننى راغبة فيك !

فغالبت نفسي وقهرتها وقلت لها وأنا أنصنع الابتسام :
لا بأس ! وأنا لذلك .. ولكن أنت في بيتي وأنا في بيت زوجك
وليس كل وقت صالحا للحب . وقالت لي : ان زوجي يبغضك
ويتمنى أن تخلى له مسكنك ولكنه يحب ان يقبض أجرة البيت
كل شهر وان يكن لا يحب شابا اعزب في بيته . قلت لها : ان ما قلته
يجعل توقيري له أكبر وأنا لا أحب الخيانة لأى انسان وأشفق على
هذا الرجل بذاته ولا أشفق عليك لأنك تخونين أمانته دون أن تعلمي
ان كنت أحبك أولا أحبك ، وان كنت تحبين كما تقولين فقد أحببت
مصادفة لأنك وجدت شابا يجاورك ، ولكن أسأت الى لأنك سوف
تجعلين حياتي جحيما ، فاما ندوم على الحب وهذا يقتضى الاستمرار
فى الغدروا ابتكار الحيلة حتى نتغلب على سلطة زوجك ، واما أضطر
الى ترك البيت وأنا أحبه لقربه من المدرسة وهدوء المسكن
وجمال المنظر ، وكلا الأمرين شديدا على نفسي ، فأنا لا أعرف الحيلة
ولا أميل الى الغدر .

فقالت لي : هذا كله كلام كتب ومدارس ولا بد لي منك .
فقلت لها : اسمعي يا جلييلة هاهم .. أتركيني ودعيني افكر يوما
أو يومين . فقالت لي : اذا كنت من غير تفكير تقول هذا فما بالك
وماذا تكون الحال اذا فكرت ؟ أريدك الآن .. الآن .. هذه
الساعة .

ودنت مني حتى أحسست أنفاسها ورأيت أنفعالها ، واننى
مازلت حتى الآن وأنا فى الستين من عمري أعجب للقوة التى بلكتني
وحفظتني وصانقتني من هذه الخيانة (١) .

فقلت وقلبي ينفطر : على رسلك ، ماقولك وأنا شاب ليس
عندى قدرة على النساء ؟

(١) كتب لطفي جمعة هذا الفصل سنة ١٩٤٦ .

متراجعت المرأة قليلا وقالت لى : لا عاية لى الاحديتك وسماع
صوتك . . ولم افدر فى شئ ، احر وابت لم بهم مرادى ثاسات
الظن بى .

تم جلست على مقعد من فرط انفعالها وخيبة أملها ورهبه
الموقف ، وفرحت ورضيت لنفسى تهمة العجز بدلا من الفضيحة .
وشعرت بقوة كبيرة فسالت لى : أرجوك ألا تخبر زوجى .
فلت لها : وكيف لم تبالى من قبل ؟ قالت : لو صح الحب لنا كان
السرى بطنى ويربطك ، أما الآن فقد صرت فى حل لا تبالى
لو اتهمتنى وبرأت نفسك . فضحكت وقلت : لا تخافى بشرط أنك
لا تحرضى زوجك على ولا تدبرى لى انتقاما . قالت : اطمئن .

وصعدت الى مسكنها ، وجلست أنا أردد بيتا من الشعر :
خرجت أجر الذيل نيهنا وانما
يتيه الفتى ان عف وهو قدير

وكننت أقابل الزوج بعد ذلك وكلما تحرش بى أضحك
والأطفه وأحاسنه وهو لا يدري ما كلفنى الحفاظ على عرضه من الكبت
والقهر والهوان فى عين أنتاه الجميلة جليلة هانم !

وبقينا على هذا الجوار ثلاث سنين ، ولم أغادر بينه الا لأسافر
الى فرنسا سنة ١٩٠٨ ، وكانت هدايا جليلة هانم والطفها قد
انقطعت ، ونقرها على السقف من أرض غرفتها وتعمدها فتح النافذة
عند مجيئى وانصرافى واخراج صوتها الرنان وأنا صاعد فى
الدرج قد تلاشت ، وبالجمله كل هياج الانثى لم يعد له اثر .

» روح يا زمن تعال يا زمن « الى سنة ١٩١٢ اذ عدت من
أوربا وصرت فى الخامسة والعشرين من عمرى ، وكننت راجعا الى

دارى ظهرا فى عمرة وانا منعجب جدا وجائع جدا وفى بينى من أحب من الامل (خالتى) • ولم اكذ ادخل واجلس حتى دق الباب دقا عنيقا ، وفتح الباب واذا بسيدة فارعة القامة جميلة الوجه ، مهيبة الطلعة تصحبها فتاة لا تقل عنها جمالا • فلما دخلت السيدة وفتاتها قلت فى نفسى هذه قضية جديدة، ولكن كيف تحضر السيدة فى هذا الوقت من النهار ؟ لعل القضية « تلبس » تقتضى السرعة •

وفى طرفة عين دنت منى السيدة وألقت بنفسها على صدرى ،
قلت : مجنونة ورب الكعبة ! وقد وقعت فى مشكل •

وجاء أهل البيت وضجوا، واذا بالسيدة التى تعانقنى وتقبلنى
تقول :

— يا حبيبى ! كبرت والنحيب وكنت أمرد ، ولكننى أحبك على كل حال ألا تعرفنى ؟ ألم يدلك قلبك على ؟ • انظر الى وجهى • أنا جلييلة !

لم تبال بمن فى البيت ولم تبال بابنتها ولم تبال بدهشتى
وانما استرسلت :

— أنت حبيبى الأوحده وأنت حفظتنى ، أنت صنتنى ، أنت حرمت نفسك وحرمتنى لباك أحببتنى حقا • كان هذا هو الحب الصحيح ، أليس هكذا ؟ لقد اتهمت نفسك وصبرت ، أليس هكذا ؟

— جلييلة ! أنت جلييلة ! الله ما أجملك • لكننى متزوج الآن —
ولم أكن قد تزوجت بعد — وهذه زوجتى ولعلها تسيء الظن بى •

فضحكت وقالت : لا أبالي • اذا كنت فى السابعة عشرة عفيقا وهى سن الجنون أفلا تكون عفيقا الآن ؟

وجلسنا وأكلنا معا وتحدثنا وقلت لها : كنت تريد أن
تتغدى معي وأن تتحدثي إلى وقد ضرب الدهر لنا موعدا من سنة
١٩٠٥ إلى سنة ١٩١٢ ، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها .

فأطرقت وقالت لي : لم أنسك طرفة عين ، وقبل أن يتوفي
المرحوم زوجي وأنت مسافر ، وعندما اشتد مرضه اعترفت له ،
لم أستطع أن أكتب عنه ما جرى بيني وبينك . قل لي لماذا سخرت
منى . انك طول عمرك منكبر ، هذه الكبرياء هي التي حرمتك
لذات كثيرة وخيرات لا تحصي ، لم تكن العفة ولا الفضيلة ولا حب
وجي ولا احترامه هي التي منعتك عني ، بل كبرياؤك !

واستيقنا الأم وكربمتها ، وقضيت العصر والمغرب والعشاء
نحضرتهما ، فلما استحق الانصراف ، قامت جليلة وبكت قليلا
ضحكت وقالت :

- لا أدري لم تعتريني هزة وحزن شديد في قلبي .
- فقلت لها : لعل ذكرى المرحوم زوجك تتحرك في قلبك .
- وودعتها وكان هذا آخر العهد بيننا .

* * *

(٩)

حياة القسم الداخلي بالمدرسة الخديوية

جمهورية تونس الهادي

في سنة ١٩٠٣ حدث لي حادث عائلي هو وفاة أمي ، فاضطرت
إلى دخول القسم الداخلي بالمدرسة الخديوية ، وكانت محنة ليس

بعدها محنة ، ذلك النوم المَحْنِط مع مائة ولد تحت رقابه الضابط
والعراش وتلك المذاكرة الليلية العقيمة بالاجتماع فى غرفة سفلى
عاريه باردة تحت ادارة شاب من أهل الجهل وانغطرسه ، ثم النوم
والطعام والفسحه والوقوف والحمام والبيطة بمواعيد عسكرية
أليمة . وكنا فى فصل الشتاء فأردت مخرجا من هذا المأزق ،
فأسست جمعية باسم « شمس الهدى » لانقاء المحاضرات ومطالعة
الكتب المفيدة والاجتماع الحر فى اوقات فراغ انداخليه ، ووضعت
للجمعية شارة ووساما وأغرقت الأفندية اخوانى بكل الوسائل
حتى انشغلت .

وكنا نجتمع فى كل غروب بين العشاء والمذاكرة ، وكان
المجدون منا موضع سخريه المهرجين والحاسدين من التلاميذ واختار
أحدهم واسمه عبد الحميد عمار لنكايتنا أن يحضر انعقاد الجمعيه
وهو جاثم فوق فروع شجرة فى حديقة المدرسة ليضحك علينا !

وبعد بضعة أيام وشى بنا أحد الضباط الى الناظر فاستدعانى
واستعلم منى ونظر الى شزرا ، ثم بدأ عهد الاضطهاد الحقيق ، فأولا
أباح لنا الاجتماع مرة واحدة كل أسبوع وتحت اشراف الضابط
المنوب وألا يلقي فى الاجتماع كلام دون أن تقدمه للناظر أولا
بواسطة سكرتيه ولا يلقي حتى يوافق عليه الناظر « شيرمان » .

ثم أخذ الضباط يرهبون التلاميذ ويوعزون اليهم أن ينفضوا
من حولى ، ثم تقصدتنى الناظر بالعقوبات الدنيئة مثل « العيش
الجاف » و « دريل الصبح » وهو الحضور قبل الساعة السادسة
لحمل الحديد تحت امره أحد عساكر الجيش .

كان الناظر يعطف على سألنا لاتقانى اللغة الانجليزية وظهورى
فى أوائل الفرقة ولا يقبل فى لوما ولا شكوى ، فانقلب على مرة

واحدة - ورمنى من ادارة مكتبة المدرسة وددنى بالرفق وأنا لا اعلم السبب ، فلم نكن نفهم انهم لا يريدون التلاميذ يعرفون ولا يتعلمون ولا يتدربون على الخطابة والحياة العامة ، فشكوت الأمر الى المستر « فوستر سميث » ومستر « جونز » ومستر « تاتون - براون » اساتذة الانجليزى والتاريخ والرياضيات وكانوا يعطون على الاجتهادى هوعدونى خيرا ، ولكن الاضطهاد استمر بل زاد ، وجاء الى يوما مستر « جونز » بعهد احد الدروس وعلى انفراد وقال لى بسر ارحه لم تدهشنى فى ذلك الوقت :

- ان الناظر والخوجات والاضباط نالهمون عليك بسبب الالهية السيماسيه التى استنتها فى النفسى المادى . وبينت الانجليزى لاسقف يا بسى بنظر الى مثل هذا الأمر على مصرى وانتهت وبقيت المستعرات (كندا) بعين الريب ختمية ان تكون مقرا للمودة والاهميج ، وهذا أمر غير مرغوب فيه بناتنا وهو يعطىكم عن دروسكم ولم يثن أوائه ، فان كنت تريد أن تعود الى سابق مكانتك فى عين الناظر فاصرف هذه الجمعية وانفض بنيانها ، لانه لا معنى لاسم « شمس الهدى » . هذا رأى الناظر والأساتذة ، أما رأى أنا فهو ان هذا تقييد للحرية وكان يجب علينا أن نشجعكم وتدريبكم على الفصاحة والتفكير والخطابة مادام ليس فى مصر جامعة مثل اكسفورد أو كامبردج ، بل مجرد مدارس فنية عالية ، فاختر لنفسك يا جمعة ما يحلو لك ، واعلم أن استمرارك سيؤدى الى رفتك من المدرسة ، وكل الخوجات ينظرون اليك بعين الارتياح وقد يكون لهذا عواقب سيئة فى الامتحان .

عندما قال لى « جونز » هذا الكلام الخصب المذب فى لهجة مؤدبة وإخلاص ، أشرقت على « شمس الهدى » الحقيقية وفهمت السياسة الانجليزية ، وخرجت مطرقا مفكرا وخفت أن أطلع اخوانى على هذا الأمر فيفروا من يدي هلعاً أو يبقى بعضهم معانداً ، فصممت

على الاستمرار وقلت ان الناظر يمكنه أن يحل الجمعية بالامر الرسمي فليفعل هذا وصممت من ناحيتي على ألا أستجيب أبدا لعقوبة الدريل اللعينة وألا ألبى النداء مطلقا في الساعة السادسة ولو شفق المدرب نفسه أو بح صوت الضابط .

كان في سنى شاب اسمه يوسف كرم (١) يحب الفلسفة ويناقشني فقرأنا معا في العطلة المدرسية في صيف سنة ١٩٠٣ أو التي بعدها بمدينة طنطا ونزلت نشاط جمعيتنا الى المدينة ووقعت على السرعة أن ألقى الماضرة الأولى عن أبي العلاء المرسى وليوتولستوى والمقارنة بينهما ، ولان بولستوى لا يزال على قيد الحياة . فالتقيتها في ليلة من ليالى الصيف سنة ١٩٠٤ في حديقة عامة ، ويظهر انه فلتت منى كلمة تقرب هؤلاء المنكرين المتزهدين الواهبين أموالهم وأعمارهم للانسانية من درجات النبوة أو الرسالة الربانية ، فهاج الناس وماجوا وترامت الشائعات وتحركت الأضغان والأحقاد لغير سبب .

وفى الاجتماع الثانى للجمعية رشنا بعض السفهاء بالتجارة ونزلنا هروا مظهرة كعبيرة ، وكتب بعض الجهلاء ومنهم المرحوم دؤاد سليم أحد زملائنا وابن احد الأعيان فى كفر كلا الباب فى بعض الصحف اليومية يصفون عملنا بالاحاد والكفر ، وكتبت جريدة يومية شهيرة مقالا افتتاحيا بعنوان « ظهور ملحد جديد » استعدى كاتبها علينا الحكومة ورجال الدين وطلب من الدين والنيابة تحقيق هذه الحادثة ، وطلب من المدير منع هذه الاجتماعات ومجاربة الكفر والفتنه ٠٠ الخ ، فنصح لى بعض أصدقائى بالفرار

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بيوسف سكرم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٨٣ ، عالم الكتب . سنة ١٩٩١ .

من طنطا خشية الانتقام ، فعدت الى القاهرة مندهشا من هذه
الحوادث .

وقد حدثت أشياء طريفة فتحت عيني لأول مرة للنفاق ، فقد
كان فؤاد سليم من أعز أصدقائنا ، ولكنه كان أول زاعق فى وجهنا
من وراء ستار ، فهو الذى كتب الى الصحف والموعز الى بعض رجال
الدين وأذنان الحكومة بالتحرش بنا ، وكان يلقانا قبل ذلك وبعده
ضاحك السن هاشا باشا فلما سألناه عن وشى هذه الوشاية
أنكر كل شئ ، وكان الذى حرض الصبيان على رشقنا بالحجارة من
أصحابنا وممن يظهرون الود وقد كشفتهم لنا ألسنتهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قاطعنى لفيف من الأصدقاء
الذين لا دخل لهم فى الفلسفة والعلم ، بل كانوا يجلسون معنا فى
نتهى عى شاطئ النهر ، وعللوا مقاطعتهم باختلافنا فى الدين
(كذا !!) ، وكان بعضهم ممن يشربون الخمر ولا يقيمون صلاة
ولا يتورعون ، ولكنهم يستبيحون المحارم فعلا ولا يطيقون أن
يسمعوا رأيا لا يفهمونه ويكفرون صاحبة تقربا الى الله ، فكانت
صورة عجيبة .

وقد أصيب يوسف كرم بمرض بسبب هذا الحادث ،
فدما انقطع ظننت أنه هو الآخر معاطع ، فلما ابل أخبرنى انه مرض
متأثرا بموجة التعصب الذى ظهر ، ولم أكن سمعت باسم التعصب
ولا أفهمه فقال لى : ان أساتذة الفرير يعلمونهم أن الشرق كله
متعصب ، وأن هذا التعصب يمتد الى أحرار الفكر ، وقال لى ألا ترى
ماذا أصاب قاسم امين بعد كتابيه « تحرير المرأة والمرأة الجديدة » ؟
فقلت له ان الذين نقدوا رأيه انما أرادوا مناقشته للوصول الى
النتيجة . فقال لى : هذا هو التعصب بعينه ، اذ لو كانوا يريدون
مناقشته لبحثوا فى فكرته لا فى عقيدته ولحصروا ردودهم فى تنده
لا فى تكفيره .

وكان يوسف من أنور تلاميذ الفرير وكان هو من أشد الناس تعصبا لعقيدته .

أما أساتذتي بالمدرسة الخديوية ، فكانوا مزيجا من المصريين أفندية ومشايخ ، والانجليز والفرنسيين ، وفي مقدمة الأوائل المرحوم ادوار فاندريك نجل المرحوم كرنيليموس فاندريك ، وكان يعلمنا المترجمه والدروس ويسمى ستر ابن السارضى ، وطالما خطا هي الفرقة خطوات موزونة على الروى الشهير ناشدا موقعا « كرة ضربت بصوالجة ، فتلقفها رجل رجل » . وطالما حدثنا عن حياة والده ومؤلفاته ، وقد سلمنا الى الأستاذ على فوزى خريج كلية بوردو وكان خير أستاذ للمترجمه لأنه أتقن سبع لغات وكان مثال الجهد والاجتهاد والتدقيق .

ومن هؤلاء الأساتذة الشيخ طنطاوى جوهرى ، وقد بدأ من ذلك العهد المعبد بتفسير القرآن على مبدأ النظر فى خلق السموات والأرض وتطبيق العلم على التمسك والتوفيق بين الدين والمعارف الحديثة ، وكان فى شجار دائم مع المفتشين لأنه لم يعط النحو والصرف والمبنى للمجهول والممنوع من الصرف من العناية ما أعطى للفلسفة والأدب والشعر القديم والحديث ومؤلفات الغزالي .

ولا أنسى عبد المجيد رضا وعبد الجواد عبد المتعال وعبد العزيز خليل ومحمود على وأحمد سالم وفوستر سميت ، وكل هؤلاء كانوا أساتذة لى فى المدارس ، ولكن توثقت بينى وبينهم صداقة قوية ولكل منهم على فضل افادة وإرشاد وعناية ، وسببها من ناحيتى اعجاب بعلمهم وأخلاقهم ، وسببها من ناحيتهم أنهم الذين أنقذوا من الظن بى وحسبوا أنى أبلغ شأوا فى الحياة ، فأرادوا باخلاص ومكرمة أن تكون لهم عندى يد ، فإهم الشكر منى جميعا .

صداقات الشباب

الحمد لله على أن الخير لم ينقطع من الدنيا ومظاهر الخير كبيرة ولها نعم ، ومن تلك النعم توثق الصداقات بين الرجال ، والصداقة المتينة لون من الحب القوي الشريف المنزه عن الغرض .

وقد من الله على بالصداقة في كل أطوار حياتي ، فمن أصدقائي الذين لا أنساهم والذين لم يطوا على علاقتي بهم ما يذكر صفاء المودة المرسومة الشبيهة بدمعته الذهبية التي لا تموت . ومنهم فريد والدكتور عثمان شالب والمستر ويلفريد سكويون بلنت (١) وأدوارد لامبير (٢) وعبد المحسن الكاظمي وأحمد شوقي (٣) ومحمد حافظ إبراهيم «جورجي زيدان» (٤) وفرح أنطون ومحمد كرد علي وعبد العزيز الشعالبي وإبراهيم رمزي وأمين الريحاني (٥) ، هؤلاء عرفتهم جميعا وتوثقت عرى المودة بينهم وبينى في أوقات متقاربة بين سنة ١٩٠٠ ، سنة ١٩٠٥ ، وقد دامت تلك الصداقة إلى أن وافاهم الأجل .

وكانت أسباب تلك المودة من ناحيتي الإعجاب بهم وتوافق الأمزجة وتفوقهم في المواهب بالنسبة لي ، فكنت مع معظمهم بمثابة التلميذ للأستاذ .

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي جمعة بالمستر ويلفريد سكويون بلنت وأدوارد لامبير وأحمد شوقي وجورجي زيدان وأمين الريحاني ، راجع كتاب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الأعلام » المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٧٨ ، ص ٢٥٦ - ٢٦١ ، ص ٨٨ - ٩٣ ، ص ٣٦١ - ٣٦٧ على التوالي .

وكان لي أثناء دراستي الأولى صداقات الشباب التي بقيت مختلصا لها طوال حياتي ولم يخطيء ظني ولم يخب أمني في واحد من رفقاء الصبا الذين أحببتهم ومنهم يوسف كرم أستاذ الفلسفة بجامعة الاسكندرية وابراهيم رمزي ومحمد المنجوري وحنا حلاج المصور من مدينة صور بسوريا وعبد الرحمن الطوير واسماعيل كامل الحكيم وأحمد مختار بخيت وطاهر محمد ومحمد عثمان الفندي، وكانت عصابة للخير لم أذكر أسماء جميع أفرادها أمثال الدنور عبد النيز اسماعيل وأحمد حسنين وعبد الحميد سليمان وسالم هندوى ، كنا نجتمع على الدرس والبحث وأحيانا على التندر والسماع في أوقات الفراغ يطربنا حسن النور وصبر على وقد صار فيما بعد من كبار الموسيقيين وأحيانا ابراهيم رمزي وقد وهب حياته للفنون ومنهم محمود السبع وقد شغفه التاريخ حبا وعلى فؤاد طلبة وكنا نتبارى في آداب اللغة الانجليزية كتابة وخطابة وبعض أخوة وهبى ، محمود وهبى واسماعيل وهبى .

وهذه الصداقات أقواها وأمتنها وأدومها على الدهر تبدأ عند تفتح الحياة وتنمو بنمو الشباب وازدهار المواهب ، وكل حوادثها تثبت في النفس وتنطبع في الروح وتستقر في الذاكرة ، فلا يمتورها نسيان ولا يزعزعها شيء من عواصف الحياة ، ومجرد التفكير فيها على الكبر وعلى تغيير ظروف الحياة لذة وحنين يسبغ عليهما الزمن ثوبا من الجمال واحساسا بالدفع يتجدد في كل حين ، ولكن الحياة الاجتماعية في مصر ممقوتة ، تفرق بيننا ونحرمنا دوام الاتصال فتذهب هذه الصداقات سدى !

ومصر وحدها هي التي يقال فيها للاعتذار بين الأحياب الذين لا ياتقون « الدنيا تلاهي » ، ما أقبحها كلمة ! وما أضعفها عذرا !

قلت لم يخب أمني في واحد من أصدقائي ولكن خاب أمني في الصداقة نفسها ، كنت أحسب أن هذه مقدمة لصداقة الرجولة

والكهولة ، دع عنك الشيوخوخه ، فاذا بصداقة اليغوع هى وحدها
التي نمت وازدهرت ثم انتهت وصارت ذكرى وكان المامول والمرجو
ان تكون أساسا لصداقة تتلوها وتقويها وتنميها وتسقيها وتنعدها
تعهد البستانى للزرع .

وأسياب هذا الفتور الطارىء على الصداقات فى مصر ضعفت
الحياة الاجتماعية وتفككت الروابط وانصراف كل لنفسه الخائن
وضعف روح الألفة ، ثم تكن صداقتنا صداقة أخلاق ومبادئ ،
ومعاصد ، بل كانت صداقة شباب وفتوة وميول متشابهة عندما
منها اختلاف الوسائل عصف بها الزمن !

وما أوفر الزمن وما أكبر الفراغ فى مصر ، وانه لا ييخـل
علينا اذا أنفقنا بعضه فى تنمية هذه الصداقة والانتماع بها . ألسنت
ترى الى صداقات تدوم العمر كله عند الافرنج وهى خلو من كل
غرض ويكفى لحياتها تشابه المواسم والأمزجة ؟ ، ومن العجيب أن
المصالح والمظالم تتجمع فى بلدنا هذا وفى زماننا هذا بين الرجال
جما لا يقوى على تفريقه مغرف مهما بذل !

ان صحبة نشأ حول مائدة طعام وشراب وقمار تدوم
الف مرة أكثر من صحبة شباب وعلم وأدب ونقوى تدعمها قرابة
أو مصاهرة !

عندما غدر بنا الزمن أنسا ولفيف من اخوانى ورسبنا فى
الامتحان الثانوى وانقطعت بنا أسباب الحياة واشتغلنا بطلب الرزق
ودخلنا صفوف المهزومين ، واتصل اخواننا بطلب العلم فى المدارس
الهدايا فى أوائل هذا القرن ، نصبح الى أستاذى وصديقى على فوزى
ورفيق صباى محمد النجار القاضى وابن الأديب الشاعر أن احاول
الفوز فى الامتحان ، وكنت اذ ذاك مترفا متعما معرضا عن العود الى
العلوم الثانوية التى احتقرتها وازدريتها ، وكنت أربح من عمل

فى الصحفافه بحريده الظاهر والدواء أضعاف أرباح الموظفين ، فصح عزمى على تحقيق أمنية صديقى وبعض أقرابى وذلك فى أواخر الربيع وقبيل الامتحان النهائى بأسابيع تعد على الاصابع . فاتجه فكرى اول ما اتجه نحو أصدقائى الذين خانهم الزمن وقبلوا وظائف لا يزيد مربىها على فروش أربعمائه فى وزارة المعارف لعهد دنلوب وعصبته من السكرتيريين والتراجمة ، وكان أصحابى ورفاق صباى يعانون شظف العيش فى نلك الوزارة الذميمة فى ذلك العهد ، وكان بعضهم قد تزوج ورزق أولادا وقنع بدون القليل من الرزق وانصرف عن التعليم والتعلم . فقصدت اليهم فردا فردا وفاتحتهم فى غايى أن ينضموا الى ، وكان بينهم نوابغ فى الرياضيات واللغات ، فرحب بعضهم بالفكرة وأعرب كثير عن يأسه وهزا البعض بالمشروع ، فما زلت بهم حتى جمعت شملهم فى غرفة من مدرسة مهجورة وجعلنا منها مدرسة ليلية ، وجمعنا أساتذة فى كل فن وبذلنا المال الفليل بى المقاعد والمصاييح والنظافة واعداد الكتب ، واخفيت الأمر عن كل اصدقائى المستجدين الذين يعرفون مظهرى وأبتهى ويسارى ومجالس السمر واللهو ، ودبت بينى وبين أصدقائى الاقدمين محبة جديدة ، بل قل بعثت صداقتنا القديمة من مرقدىها وتحمسوا لفكرتى .

كنا نبدأ العمل من السادسة مساء الى نصف الليل ، واذا عدت الى منزلى بشارع سنجر الخازن بالدلمية الجديدة ، واصلت الدرس حتى الثالثة ونمت غرارا الى الخامسة وواصلت العمل من الخامسة الى الثامنة فى بيتى ، ثم اتجهت الى عمل فى جريدتى اللواء العربى والانجليزى حتى الأولى بعد الظهر ، ومن الأولى الى السادسة كنت أخرج عائدا فى شوارع القاهرة خلال أشهر ابريل ومايو ويونيو أطلب درسا خاصا فى اللغة الفرنسية بشمرا وآخر فى الرياضة فى متهى ثم الرجوع الى دار الكتب لأجل التاريخ والأدب العربى .

كانت تعرفونا فترات يأس كلما دنا موعد الامتحان وهالينا كثرة المواد ، ولكن لم يتخلف أحد وتقدمنا للامتحان صفا واحدا كالمجاهدين في معركة حاسمة ولكن الله جبر كسر قلوبنا وكافانا على اجتهدنا ونجحنا جميعا وفاز أحدنا بأعلى الدرجات وكان ترتيبه الخامس مع الأنسة نبوية موسى ونحن الذين نوصف باننا تقدمنا « من منازلنا » وهم أخيب الطلاب في نظر الممتحنين .

وفي اعتقادي أن الفضل في هذا النجاح راجع الى فضل الله علينا ثم الى محبتنا واتحادنا وثقتنا وخشية النشل الذي يكون قاضيا على آمالنا ، وهذه ثمرة من ثمار الصداقة والوفاء ، وقدر أحدنا من مرتب القروش الى عمادة كلية الطب وكانت مدرسا في عهد الدكتور كيتنج ، وكذلك وثق غيره وتغيرت حياته الى الأفضل وأوسع وأرحب بسبب المحب والصداقة والاتحاد وحصر الهمة في هدف واحد ، وكان بيننا طالب فشل قبل ذلك في امتحان « البكالوريا » تسع سنوات ونالها معنا في العاشرة !

ومما لاحظته في الصداقة أنك لا تستطيع أن تجمع صديقين على كتاب أو حوار علمي أو نقاش أدبي لسرعة الملل وضيق الصبر ان لم يكن المجلس للسمر وتبادل النكات وذكر الموانع والنسيء ، وقد صار بعد ذلك في الدرجات والعلالات والموظفين المنسحقين وانصاف المستخدمين وشكوى الغلاء والكادر القديم والجهيد والوهالات والرسوب الوطني الى آخره !!

ولكن حدث مرة أن طلبت الى أستاذي على فوزي أن يقرأ معي جمهورية أفلاطون بعد الإفطار في رمضان ، فكنا نلتقي قبيل الغروب في دكان لبيع الألبان « ليثري دي بيراميد » ، فقرأنا الجمهورية بالإنجليزية وبعض كتب توماس كارليل ، وكان هذا أول عهدنا بالاشتغال وفلسفة أفلاطون ، فبدأت أترجم « المثالية » (١) .

(١) نشرت « مائدة أفلاطون » عن مكتبة التأليف سنة ١٩٢٠ .

لذلك فرات مع استاذي ادوارد فانديك كتابا في المنطق
ودرسنا على فريق من اصدقاءنا منهم فؤاد سليم ومنصور شوقي
(صابر باشا) كتاب النفس في الحجر ، فقرأنا في الفلك والمنطق
وبما في آخره الكتاب وهي مصححة من تأليف كونييليو فانديك ،
ولكن سرعان ما ملوا ما عدا منصور فانه كان متعبا للدرس .

ومن أحفظ هؤلاء الشباب للود من صداقات الشباب على فؤاد
طلبة ابن أحمد ثوار عرابي وأظن أن والدته كانت من سيلان لأنه
كان يجيد العربية بقدر اجادته الانجليزية ، وهكذا جعل الانجليز
من أبناء ثوارنا أبواقا للغتهم كما فعلوا بالدكتور عبد المجيد محمود
الذي كان والده من أعظم رجال الحرب والمدفعية والتاريخ وهو
المرحوم محمود فهمي باشا ، فعاد الابن الى مصر طبيبا يجرر أذيال
زوجة انجليزية !!

لقد عرضت لهذه الصداقات التي صادفني في مقتبل العمر -
على قصر أعمارها وخلوها من روح البقاء والاستقرار وفراغها من
المعاني التي كنت أتمسكها وأبحث عنها - لسببين :

الأول : أنها حدثت في الشباب ، والشباب أجمل أوقات
الحياة وأعمرها بالعواطف الجياشة والمشاعر المتوثبة وأملؤها
بالآمال والطموحات على الرغم مما فيه من كفاح ونضال ومرارة ،
ولذا كانت ذكريات الشباب أعز وأغلى الذكريات عند الرجل لأن
الحياة كانت مصحوبة أثناءها بالقوة والفتوة والصحة التامة وخلو
النفس من الهموم ومرارة الخبرة وامتلأها بالآمال في المستقبل
الذي يبدو باسمها متفائلا مستبشرا ومبشرا ، فتصبغ الأعمال والأقوال
بصبغة الورود والبهجة والتفاؤل ، فإذا صارت تلك الأعمال
والأقوال ذكريات لازمتها هذه الألوان الزاهية وأسبغت عليها
أثوابا من الجمال الذي قد يكون معظمه من نسيج الخيال . فان

الانسان لا يعرف طعم الحياه ويندر على وزنها الا فى بهولته واكتمال رجولته ولا يصدر عليها حكما الا عند اشرافه على مغادرتها ومفارقتها .

أما سبب خيبه آمال بعض الرجال فى الصداقات التى يرتبط بها فى تلك السن من الخامسة عشرة الى الثلاثين - وهذه هى فترة الشباب الحقيقى فى نظرى - فهو انعدام الحب بناتا من قلوب الأصدقاء ، وهذا راجع الى سببين ، الأول عجز بعض النفوس عن المحبة شعورا وتبادلا لأن المحبة موهبة الهية ، فمن خلت نفسه من تلك الموهبة فلا يلام ولا يعتب ولا يبغض لأن الذنب ليس ذنبه بل الخطأ والنقص فى تكوينه ، وإن حيك اياه لا يحرك شيئا لا وجود له عنده وأنت لا تسمع من فى القبور .

والسبب الثانى هو النفاق السائد فى المجتمع الانسانى وبصفة أظهر وأوضح وأفجع وأفضح فى المجتمع المصرى .

فان الناس يظهرون لك الود فتصدقهم وتسرف فى الاخلاص لهم وفى حسن الظن بهم وهم لا يشعرون بك ، فان كان حفظك حسنا لم تحوجك الحياة لامتحانهم والاطلاع على حقيقة قلوبهم ، وان كان غير ذلك فهم يتكسفون لك عند أول فرصة .

وهذا النفاق قد تغفل فى النفس واستولى عليها وتصرف فيها وخلع على الوجوه أقنعة يخفون وراءها معالمها .

وقد أخذت أسائل نفسى عن هذه الحال ، فظننت - وما أزال أظن - أن النفاق قد يكون فطرة مثل الاخلاص فى القوة ، وقد يكون وراثة أو قدوة ، وقد يكون لمصلحة ملحة كال فقر والجھل ، ولزم المنافق فيهما ضعيف لأن عذره قوى ، ولكن الذى يغيظك هو النفاق الفطرى أو الذى لا تدفع اليه حاجة .

ان النفاق للأسف داء مزمن في الشرف عامة وفي مصر خاصة ،
ومن مصادره المهمة الفراغ وطول الوقت وسرة الدم وحلو النفس
مما يشغلها من مهام الأمور ، فلا يجد المنافعون الا الدلام في الباطل
ويتأثرون به روايه منهم وسماعا من غيرهم ، فيذب الايحاء في أنفسهم
بن الباطل حق ويتشعرون بالحاجة الى احماء الحق فيتخدون صورا
جديدة في الوجوه والحركات والسكنات والبسمات ثم تسرى سماء
الحالة التنكريه على جميع شئونهم •

قد لا أكون واضحا في هذا القول بالقدر الذي أريده مع اننى
أحب أن أجلى الحقيقة جلاء تاما •

ان مصادر النفاق متعددة ، أهمها الخوف من الأخطار الراهنة
والمقبلة ، والخوف من الظلم ، والخوف على الحياة ، والخوف على
الرزق ، والخوف من فقد الصديق أو الزوج ، والخوف على فرص
المستقبل التى قد تعرض للمنافق فيحتاج الى معونة من يريد أن
يحصارحه ، الخوف المادى والمعنوى ، الخوف على المصلحة ، عدم
الايمان بالله وعدم الثقة بالنفس ، الاقتناع التام - بحسب البيئة -
ان الحق وحسده لا ينفع صاحبه وأن الحق ينفر الناس منك
ويغضبك اليهم •

ان الحياة سياسة والسياسة صنعة ومداينة وحيلة وخديعة ،
فان كنت مخلصا واتخذت الحيلة وسيلة للخير ، لخير الطرف
الأخر وحده فلا تنريب ، أما اذا خذت الحيلة لجلب الخير لك وحدك
فتنقلب الحيلة نفاقا وشرا •

وقد قر في نفوس الناس أن الصراحة تضر صاحبها ، وفي
هذا صدق وصحة نظر ، لأن مجابهة الناس بما يسوؤهم محرم لأنه
ينطوى على أذى ، ولكن اذا كان فى تلك المجابهة ما ينفع الطرف

الاجر ، بالاعراض عنها دس ، سواء أكن حبيبا لك أو غريبا عنك .
وهنا فى مصر من يمسى ان تنصحه عدوا لك وان أظهر لك التسدر
أو الود فهو ينادق ، ان ولدك أقرب الناس اليك ينفر منك اذا
نصحتته ، فما بالك بالغريب !؟

فتصور تراكم هذه الأسباب فى الطبيعة البشرية وفى الحياة
الاجتماعية وفى عهود الأسكام الظالمة منذ فجر التاريخ الى الآن ! ،
ولكن هذه كلها لا تقوم أعذارا للنفاق فى نظرى ولا يمكن استنباط
مبررات أو مسوعات له ، لأننى سرفت رجلا صريحين صادقين نصحونى
وهم لا يضمرون لى حبا فأحببتهم ، وعرفت المجتمع الأوربى فى
أحسن أوقاته وهى أوائل القرن العشرين الى بداية الحرب العالمية
الأولى ، فلم أجد عشر معشار النفاق الذى لمستته فى مصر فى يوم
واحد وفى مكان واحد . وبالطبع لا يمكن المقارنة أو الموازنة بين
أوربا ومصر ، فان فى أوربا تكوينا آخر وأخلاقا أخرى وتاريخا آخر
ونزعات للفضائل أولاها الحرية والكرامة الذاتية ، وهذه الأمة
المصرية بجميع عناصرها محرومة منها .

أنا لا أصف علاجا ولا أشخص داء ولا أدعى علما ولا أنعى
رذيلة على أحد ، ولكنى أقرر الواقع الذى لمستته فى مجال واحد
من مجالات الحياة وهو مجال الصداقة . وأعزو هذا الواقع لأسباب
كثيرة قد لا تحصى ، منها الغيرة والحسد والعجز والطمع وطموح من
لا كفاية عنده ، وانتشار الغيبة والنميمة واعتبارهما صفات جائزة
مباحة ، وتدهور المعتقدات الدينية وانهايار صرح الأخلاق وانتشار
المفاسد والمظالم وعبادة المال والمناصب وتفكك روابط الأسرة
واشتعال الحروب فى العالم .

يؤلمنى أن يعرض لى موضوع النفاق عند الكلام على الصداقة
ولا سيما الصداقة فى الشباب ، ويحز فى نفسى أن يقودنى قلبى الى

هذا الحزن والأسى وكنت فى أول القصد أريد أن أجعل كتابتى
عن أصدقائى كالغدير الصافى والبستان المرهر والصباح الضاحى
والوجه الجميل الضاحك فما حيلتى ؟

ان فى قلبى صورا كثيرة لوجوه باشة وقلوب نقية ولا سيما
بين أصحاب الصبا عندما كنا نجتمع فى فناء المدرسة ونتصافح ،
ونضحك ملء أفواهنا بقلوب لا تحمل هما ونفوس لا تعرف حسدا
ولا غيرة ولا رغبة فى منافسة ، ولا تعرف نيمية ولا غيبة
ولا دسيسة ، ولا ننظر للفوارق بيننا فى المكانة الاجتماعية ،
ولا نحقد على غنى أو ابن كبير ولو كان ناظر النظار .

تلك كانت أياما جميلة . نعم لقد تنكرت لنا بعض الوجوه
وتحالت وصعرت حدودها وشممخت بأنوفها لا عن جدارة ولا عن خلق
كريم ولا مجد أثيل ولا عن عظمة حقيقية ، ولكن لمجرد مال ورثوه
أو لقب يتباهون به وليس لهم ولم ينله آبائهم عن شرف أو اجتهاد ،
ولكننا أثناء الدرس لم نكن نفكر فى هذا ولا فيما قد يحدث فى
المستقبل . كل هذا كان جميلا وعذبا ويشعرنا شعورا باطنا بأننا
الآن نعيش عيشة راضية تبقى ذكرها فى أنفسنا الى الأبد وأننا
سوف نفتقدها يوما فلا نجدها وأننا سوف نأسف عليها .

لم نكن ندخن ولا نشرب الخمر خلصة ، ناهيك عن الحشيش
والأفيون والسموم البيضاء والسوداء ، ولا نذهب الى السينما
لأنها لم تخلق ولا الى المسارح ولا نجلس فى مقهى ولا نقرأ كتبنا
خليعة ماجنة ، ولا نتندر بأحاديث جنسية ولا نسيء الظن ولا نكتب
مكاتيب حب لمعشوقة معلومة أو مجهولة ولا نخدع آبائنا وأهلنا
ولا نكذب عليهم ولا نخفى حياتنا ولا نكذب على بعضنا بعضا
ولا ننافق ولا نوارى ولا نمارى . لم نكن ملائكة بل كنا فتيانا
أطهارا لا نعرف الا البيت والمدرسة والفكاهة البريئة ونعرف
الكرامة ونحافظ عليها ونعرف الرجولة ونعتز بها .

وقد اكتشفت بعد ذلك أن هذه الفترة بعينها كانت فترة عهد الانحلال في الاخلاق والادب في أوروبا ولا سيما في الجزر البريطانية، وكشفت أن هذا العهد نفسه هو عهد « أوسكار وايلد » وتهتك الأدباء في الأدب شعرا ونثرا ، فانظر كيف أن انجلترا وألمانيا حاولتا التخلص من عيوب الأخلاق ونحن الذين كنا أطهارا تدنسنا وانحلت أخلاقنا وتدهورت قيمنا فأمسينا في نصف القرن العشرين نشبههم في أوله لأنهم حكموا واحتلوا وأفسدوا من أخلاقنا ما كان صالحا .

وليس معنى هذا أن نفوسنا لم تكن تشعر بالجمال والفن . نعم كنا نشعر بهما عن طريق الجمال والكتب والادب ولا نعرف الدنس ، وكان الفساد مستشرياً في الحياة السياسية ونهض مصطفى كامل وشرع يتكلم في الوطنية ويحرك عواطفنا في جريدة اللواء ، وكنا ننظر الى مشايخنا ووزرائنا على أنهم كبار وأهل وقار وعقل وأنهم سيصلحون القاسد ، فلترك لهم هذه الأمور حتى نتم تعليمنا .

لم نعرف الأحزاب ولا الرشوة ولا المشايعة للزعماء ولا الأحقاد والضغائن ، ولم نعرف المداوات ولا كراهية الأساتذة ، ولكن كنا نشعر أن في وجود الخوجات الانجليز شذوذاً لم نفهم مداه ولا سببه لحدائث سننا ، وكنا نحمل لبعضهم بغضا دفيناً لأشخاصهم ولكن لعنجهيتهم وصلفهم وكبرياتهم ونفختهم الكذابة ، وقد اضطهدناهم وعاكسناهم قليلاً شعوراً منا بأنهم أعداء يدعون السيادة ويريدون اذلالنا ، ولكن كان لبعضنا منهم أصدقاء مخلصون ، وهم الذين تتقارب سنوات أعمارهم بنا وبعض الكبار الذين كان لهم أبناء في عمر كعمرنا .



(١١)

العمل بمهنة التدريس

والصحافة

أسلمتني الحياة المدرسية الثانوية بالمدرسة الخديوية لا الى مدرسة عليا ببقية رفاقي ، بل الى الجهاد في الحياة ، فأول ما وقعت وقعت في مدرسة المعلمين في درب الجماميز حيث تلقيت فنونا في التربية وآداب اللغة الانجليزية واجتمعت بشبان شبه ناضجين وتوطدت بيننا صداقة قوية ، وقد نجحوا جميعا وصاروا أساتذة ونظار مدارس ثانوية وبلغ بعضهم قمة الوظائف التعليمية ، ولكن الكثرة الغالبة منهم كان يشوبها خنوع وأظن مرجعه الى الحاجة الى الوظيفة والشعور بأن أمرهم أصبح في يد الخوجات الانجليز أمثال سوانسون وسميث وهاونتون وآخر درجات السلم دوجلاس دنلوب غريق الغرور والاستبداد معبود عائلات المغاربة والمراكشيين الذين احتشدوا في ديوانه اخوة وأبناء عمومة وأصهارا وتهتكوا في عبادته والاخلاص له ولو بالتجسس على بعضهم بعضا وعلى غيرهم وكانوا أساتذة وتراجمة •

فلما نلت اجازة مدرسة المعلمين قصدت صباح يوم من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٤ الى مدرسة القرية الابتدائية ومعنى خطاب التعيين لأشغل وظيفة مدرس اللغة الانجليزية والترجمة والأشياء والخط الافرنجي والجغرافيا (!!) مقابل أربعة جنيهات أنقاضها مشاهرة من نظارة المعارف العمومية •

فلما دخلت المدرسة ، تقدمت الى ناظرها في غرفته وكان رجلا في الخمسين من عمره تبدو من كلامه طيبة القلب وسلامة النية

والاعتقاد بأن العمل الموكول اليه وهو ادارة مدرسة ابتدائية فيها نحو خمسمائة تلميذ أمر بسيط حين التدبير للغاية ، فلما لقيته ، قابلني ببشاشة ولطف ورحب بى على عادته مع كل قادم وفهمت من سياق حديثه أنه من متخرجى الأزهر الشريف وقد وضع الهمامه وخلق الجبة فيمن وضعوا العمائم وخلعوا الجبب وحلقوا اللحى فى العهد الحديث ليظهروا أمام السادة الجدد بمظهر القايلين للإصلاح والسائرين مع المدنية الحديثة قدما بقدم ! ، وقال لى انه سمع عنى ثناء تبين أنه فى محله وأنه يود أن أجد فى المدرسة مجالا لعملى ونشاطى ثم افترقنا .

قصدت الى غرفة الأساتذة المدرسين فاذا هى أسوأ وأردأ قاعة فى البناء ، دخلت فلفت دخولى نظر الجالسين اذ كنت لا أزال فى مقتبل صباى لا أزيد عن ثمانية عشر عاما ، نحيفا حاد النظر متأنقا فى ثيابى على قدر ما تسمح لى وسائل المادية ، وكان فى حركاتى وكلامى ما يدل على النزق والكبرياء ، ولم أكن فى الواقع نزقا ولا متكبرا ، ولكنى كنت خجولا متهيبا ومخدوعا بالمثل الأعلى فى كل شىء .

دخلت غرفة الأساتذة المدرسين فاذا بى فى حضرة مجمع علمى صغير حوى كل صنف من أصناف المعلمين أو « الخوجات » كما كانوا يسمون فى ذلك العهد فى المدارس المصرية ، كان معظمهم أساتذة ضرورة قضت عليهم الظروف بممارسة مهنة التعليم فمارسوها مرغمين مضطرين غير حاسبين لعملهم حسابا وهم عاجزون حتما عن تقدير مسئوليتهم نحو « النظارة » التى عينتهم والأمة التى وكلت اليهم أمر تهذيب الشباب والأطفال الصغار الذين ألفت بهم حوادث الأقدار بين أيدي هذه الفئة التى يقال فى أحسنهم قصدا وأكثرهم علما انه انما يمارس عمله هذا لأنه لم يجد عملا آخر !

لذلك كانوا جميعا ناقلين غاضبين ساخطين تبدو عليهم علامات التعب والضجر ولم أجد بينهم واحدا يقبل على عمله بسرور وغبطة ، ولم أجد أستاذا منهم يطيل الوقوف معي أو يستقبلني ببشاشة تسهل على عملي أو يقبل على شارحا ومفسرا بعض ما يحتاج المدرس المبتدئ الى شرحه وتفسيره .

صعدت الى الفصل فكانت دهشة التلاميذ لرؤيتي عظيمة اذ كنت أقل عن كبارهم في السن والطول ، وامتاز عليهم بحسن الحياة ، وكان التلاميذ على استعداد تام لانفساد النظام واحداث الجلبة والضوضاء وابتداع الحيل المعروفة في وسط المدارس المصرية ، لولا أن رأوا مني شيئا من المعرفة بأصول التعليم ومقدارا وافرا من البشاشة وحسن المعاملة واكثر اثارا عظيما بأداء الواجب ، وكنت أمني نفسي بالفوز لأول مرة في هذه الفرقة فافوز في بقية الفرق وقد حدث هذا بالفعل ، فلم تنته الحصة الأولى حتى انتشر في المدرسة أن « الخوجة » الجديد قادر عمله ، لطيف العشرة ، سريع الادراك وأنه متنبه جدا الى حسن النظام في العمل .

وهكذا قضيت بقية يومي في القاء دروسى بهمة وسرور وأفرغت قصارى جهدى في اكتساب ثقة التلاميذ . ما أجمل وأعظم هذه الصناعة في نظر من يحبها ويدرك حقيقتها ويسعى في تفهم حقيقة عقل الطفل ، وما أفسح مجال العمل للرجل الكفء المخلوق بفطرته لأداء واجب التعليم اذا أقبل على تلك النفوس الطفلية يهذبها ويعلمها ويقوم اعوجاجها وهى في طور القبول لكل الصور !

ولكن ما أغرب حوادث الدهر التى قضت على مصر بوصول التعليم فى مدارسها ومعاهدها الى هذه الحالة التى لا يمكن وصفها ، ووضعت فى مصاف المعلمين أشخاصا لا يحبون الأطفال ولا يفهمون عقليتهم ولا يحبون صناعتهم اللذيذة الشريفة !

وفى هذه المدرسة فهمت للأسف أن المدارس الأميرية بكل ما فيها من ترتيب محكم وإدارة حسنة وبرامج ومناهج قائمة على قاعدة واحدة تنحصر فى الإجابة عن هذا السؤال : ما هى الوسيلة المثلى التى يستطيع بها ناظر المدرسة ومن معه من الأساتذة والضباط أن يحفظوا نظام المدرسة حفظا ظاهريا بدون أن يتعبوا أو ينزعجوا أو يصل اليهم أى إيلام أو توبيخ من الرؤساء ؟ وما هى أقل كمية من العمل يمكن بذلها للحصول على أكبر مقدار من التنظيم الظاهر ؟

وما عدا هذا من تهذيب التلاميذ وترقية نفوسهم وتوسيع مداركهم وتجميل الحياة فى نظرهم والبحث فى تحسين شئونهم وسلوكهم فى بيوتهم وتربيتهم بصفتهم رجال المستقبل أو أعضاء عاملين فى المجتمع المصرى ، كل هذا بعيد عن خاطرهم .

وقد خطر ببالي أحداث عدة أمور فى المدرسة ، منها تكوين مكتبة للتلاميذ فيها كتب مختلفة وبعض الجرائد والمجلات ليتعودوا المطالعة الحرة فى أوقات الفراغ ، ومنها أيضا تأليف جمعيات من التلاميذ ليتعودوا الاجتماعات النافعة والخروج لزيارة الآثار والتنزه جماعات فى الجهات الخلفية .

وقد اخترت من تلاميذى أصدقاء واستبقيت صداقتهم ومنهم عبد الرحمن عزام وعبد القوى أحمد وعبد الرحمن الساوى ، وعرفت أولاد ادريس راغب وأولاد عمر لطفي (١) وصادقتهم وعلمتهم

(١) كان عمر لطفي بك (١٨٦٧ - ١٩١١) مدرسا بمدرسة الحقوق الخديوية فوكيلا لها ، ثم تولى رئاسة نادى المدارس العليا فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ وكان من خاصة أصدقاء مصطفى كامل ويعتبر رائد الحركة التعاونية التى ظهرت فى مصر سنة ١٩٠٨ ، وله جملة مؤلفات فى القانون والامتحانات الأجنبية =

وأحببتهم وجمعتهى الحياة ببعضهم بعد ذلك بأعوام فى أوربا ومصر ،
وتكتشف بعضهم عن مواهب باهرة وعن اخلاص وولاء وحسب صميم ،
وفى معارفهم الاساذ عبد الرحمن الساوى عميد كلية الهندسة الى
آخر سنة ١٩٤٦ وهو نموذج الرجل الكامل والصديق الوفى يكتر
من ذكر عهد دراسته مع ان عشرتنا وعلاقتنا المدرسية لم تطل أكثر
من سنة ، ولكنه لا ينساها وقد حباه الله جميع الفضائل من
شهادة واخلاص ، وشاعت الأقدار السعيدة أن يدخل أحد أولادى -
يحيى لطفى - كلية الهندسة وأن يكون للأستاذ الدكتور الساوى
بك عليه فضل التعليم والتعهد والعناية الى أن تخرج ، وقال لى مرة
« اننى سعيد سعادة مضاعفة لأن الله من على بأن أخدم أساتذى
وابنه وأرد لك جميلك » ، فأسرنى الرجل بأدبه وكرم أخلاقه
ونخوته ، ومرجع هذه المناقب والفضائل طيب الأصل ، فان حسن
الأصل وطيب النشأة فى بيوت المجد هى أعظم ضمان للأخلاق .
هذه مجموعة من الأصدفاء أشعرتنى بكرامة الصداقة ومتانتها
وخلوها من الأغراض فسمت الى أعلى الدرجات .

لم يطل عهدى فى التدريس بمدرسة القريية الابتدائية
وانتقلت الى مدرسة حلوان الابتدائية ، وكان ناظرها رجلاً ضيق
الفكر فنازعنى حقى فى ترجمة بعض آيات القرآن الكريم الى اللغة
الانجليزية لأنه رأى فى ذلك مساساً بالدين على حد زعمه فأقنعتنه
بأن القرآن الكريم نفسه منقول الى اللغات الأجنبية فى عشرات
التراجم بكل لغة أوربية وانه لا يوجد فى القوانين واللوائح ما يمنع
من تقديم نماذج عليا فى الترجمة أو التعريب ، وبادرت بتقديم

= والتعاون وله أيضا كتاب حق المرأة وكتاب حق الدفاع (د . عبد العظيم رمضان ،
مذكرات سعد زغلول ، الجزء الأول ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٧ ، هامش ٧٧٠ ، ص ٤٧٠) .

استقالتى وأنا لا أملك شيئا ولا يوجد ما أعتمد عليه الا الله ، فاتصل الرجل بنظارة المعارف بالتليفون فحضر الى المدرسة فى نفس اليوم مستر سوانسون المفتش الانجليزى بالنظارة وفهم النزاع واقنع الرجل بخطئه فاسترضانى ، ولكننى تشبثت باستقالتى ، فعرض على أن ينقلنى الى الديوان العام بمرتب حسن فاعتذرت له وألح فازددت تمسكا وتركت هذه المدرسة غير آسف .

لم يكن أمامى غير الاتجاه الى العمل فى الصحافة فلم أقصد اليها ولكننى دعيت الى احدى الصحف فلبيت دعوتها ، ذلك أننى فى مدة سابقة كنت ألقى محاضرات وخطبا فى جمعية النهضة الحديثة فتعرفت على المرحوم عبد الفتاح بيهم الذى كان يعمل مترجما فى جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شادى المحامى ، فآلح على الاشتغال بالصحافة ، وقدم على مصر سنة ١٩٠٥ المرحوم محمد كرد على والسيد عبد القادر المغربى والمرحوم عبد الحدييد الزهراوى فاشتركت مع كرد على والسيد عبد القادر المغربى فى تحرير الجريدة بعد وفاة عبد الفتاح بيهم .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت أعمل فى الأعمال الحرة واستمرت عليها أربعين عاما لم ألجأ خلالها الى خدمة الحكومة ولم أنظر الى وظيفة أو منصب لاعتبارات كثيرة قد يأتى شرح بعضها فى سياق هذه المذكرات .

وقد استمرت علاقتى بالصحافة ثلاث سنين ، وفى ربيع سنة ١٩٠٧ حصلت على شهادة البكالوريا « من منازلهم » على ما سبق أن ذكرت آنفا ، وأشار على المرحوم مصطفى كامل بطلب الحقوق فى المدرسة الفرنسية وخاطب الأستاذ ديروزاس فى ذلك ، ولكننى عدلت عن ذلك والتحققت بمدرسة الحقوق الخديوية لجهاد ناظرها المستر

هيل خليفة الأستاذ ادوارد لامبير الذي كان قد استقال سنة ١٩٠٦
من نظارة المدرسة عقب خلاف شديد نشب بينه وبين دوجلاس
دنلوب ، وكان هيل يدرس التاريخ لنا في المدرسة الخديوية
التجهيزية على طريقة غير وافية بالمرام ثم صار في بضع سنين
أستاذا بمدرسة الحقوق ثم ناظرا لها خلفا للأستاذ لامبير أستاذ
تاريخ القانون في كلية الحقوق بجامعة ليون .

السفير الى فرنسا لطلب العلم وخدمة الوطن

- ١ -

كلية الحقوق بليون

فى مارس سنة ١٩٠٨ ألقى خطاب فى ذكرى الأربعين لوفاة
المرحوم مصطفى كامل أقامت المستر هيل ناظر مدرسة الحقوق
الخدوية ولم تقعه ، فاضطهدتني ادارة المدرسة وطلبت مني
الانسحاب من صفوفها ، فصاح عزمي على السفر الى فرنسا لأتم
دراستي بكلية الحقوق بليون .

غادرت مصر فى ابريل سنة ١٩٠٨ والربيع فى أوج ازدهاره
وسمت نضارته وكان هذا الصبح وذاك الجمال وتلك الحياة الوليدة
والنور المتدفق نعينني على تخفيف آلامي والاقبال من قوة المعركة
الدائرة فى صدري ، فقد كانت المسألة صراعا بين الحياة والموت
والنور والظلام والمستقبل البهائم والأمل الضاحك المستبشر وبين
المستقبل العابس واليأس القاتل وخيبة الرجاء ، وأنا الوحيد
الطريد الغريب الوجه واليد واللسان أهاجر فى طلب العلم والرفعة
وخدمة الوطن ولا أطلع أحدا من الخلائق على سري ولا أبوح لأحد
بما انطوت عليه جوانحي ولا أعتمد على أحد ولا أنتظر معونة من
أحد .

كنت أشعر بقوة غامضة تدفعني وتشجعني وتأخذ بيدي
وتيسر لي الأمور المهمة في أوقاتها ، ربما كانت غريزة الحياة ودفعة
الشباب والقيظ من الظلم والغبن والكيد والأذى والخفلة المحيطة
بي وموت القلوب والأرواح . ان هذه الحالة النفسية لم تغادر
ذاكرتي وما زلت أشعر بها في كل الأوقات .

تركت أهلي وبينتي وكتبتى وهى أعز الأشياء عندي وثيابى
وكل ما اقتنيتنه وأحببتنه فى ثمانى سنوات من أثار ومتاع وذكريات
وأشياء ألغت رؤيتها ولمسها ، تركتها فى بيت جميل فى الحلمية
الجديدة .

وجدت نفسى فى ثغر مرسيليا ومعى حقائبى وركبت مركبة
الى محطة السكة الحديد لألحق بالقطار السريع الى مدينة ليون .
وطال السفر حتى بلغنا ليون (محطة بيراش) عند نصف الليل
كانت المدينة كثيبة مظلمة ، تلك التى دعوتها بعد ذلك « ليون
الزاهرة » أين أزهارك فى هذا الليل البهيم وتلك الوحدة القاتلة ؟

ولو علم العالم حينذاك أننى كنت أحمل فى كيس حزام
تمنطقت به خمسة جنيهات انجليزية فقط لا غير ، لضربنى المشفقون
بالسيف ! . تلك المغامرة فى سبيل العلم والوطن والشرف
لا يؤيدها سوى خمسة دنانير !!

قصدت فندق الغرباء ولم أنم فى البقية الباقية من الليل
وتيقظت مع الديكة وأسرعت بالنزول وقصدت الى كلية الحقوق
وسألت عن الأستاذ ادوارد لامبير فقال لى البواب « وآسفاه
يا سيدى انه مسافر فى الريف . . . ان الجامعة مغلقة لعطلة عيد
الفصح » . فعدت أدراجى يائسا وفهمت بالاشارة أن الأستاذ لابد
أن يعود وأن الكلية سوف تفتح أبوابها بعد أيام .

وقصدت تحت المطر مكتبه فى ساحه بدور وطلبت من الرجل كتابا فى القانون الرومانى واخر فى الاقتصاد السياسى وورقا وكراسات وقلما وعرضت عليه التمن ، وفهمت أنه يمهلى الى ان اعود لآخذ بقية الكتب بعد عطلة عيد الفصح .

وعدت الى عرفتى بالفندق وفتحت حقيبة الكتب وأخرجت قاموسا وكراسة وقلما ، وبدأت أقرأ كتاب القانون الرومانى
انك لا تدرى مقدار اللذة النفسية والمتعة الروحية والحماسة العقلية التى شعرت بها فى ذلك المساء حتى كدت أنسى العشاء او أتهاون فى أمره لولا أننى خشيت أن صاحب المطعم يطمع فى مالى القليل فينكر ما قبضه .

وكنت أشعر بالذل وأنا أخطو بعتبة المطعم لحقارته بالنسبة الى المطاعم التى عرفتتها فى مصر وفى أوروبا فى سياحتى الأولى سنة ١٩٠٦ ، وقد أخبرت صاحب المطعم أنى لا أشرب النبيذ وأشرب بدله ماء فيشى أو ايفيان .

كنت فى حالة نفسية لا تسمح بالمرح وكنت طريد الظلم من بلدى ومجبرا على ترك مدرسة الحقوق ومرغما على الانسحاب ، قليل المال عديم الهون ضعيف الأمل ، جاهلا بلغة البلاد مستهزئا لاضطهاد الانجليز والقصر والحكومة المصرية بعد نهاية دراستى التى لم أبدأها .

ولكن هذه الحال النفسية ذاتها سلاح ذو حدين ، فكما أنها تقضى الشاب عن الشهوات فهى خليقة أيضا بأن تغريه بالاستمتاع ولو ترويجا للنفس وانتهازا للفرص ، ولكن الذى نفعنى لم يكن المنطق ولا موازنة الأدلة ، ولكن الغريزة وحدها ، غريزة البقاء

والطموح ولوفاء مع نفسى وبغضى الظلم ورغبتي فى أن أنجو
بتحقيق أملى والخلاص من شماتة الأعداء .

هذه حقيقة أقررها وقد علمت فيها بعد أن كل مرة انتصرت
فيها على نفسى ازدادت قوة على المفاومة كانه تدريب على الجندية
أو رياضة بدنية تقوى العضلات وتشد أزر الرجل .

فى تلك الفترة فتحت الكلية أبوابها ولقيت الأستاذ ادوارد
لامبير والتحققت بالدراسة وبدأت أحضر المحاضرات مع الطلاب
الفرنسيين ولم يكن فى الكلية طالب مصرى واحد لأننى كنت
البادئ بالدراسة الى ليون فى مصر ، فأقبل الطلاب بعد ذلك زرافات
ووحدا ، وأنا أحتفظ لكل واحد من هؤلاء الشبان بأعمق الشكر
لأنهم لبوا دعوتى وأقبلوا وسمعوا نصيحى وأنسوا وحشتى
وشرفوا مصر ورفعوا ذكرها عاليا .

ولم يأت شهر نوفمبر التالى (من ابريل سنة ١٩٠٨ الى
نوفمبر سنة ١٩٠٩) حتى كان فى ليون أكثر من خمسين طالبا ثم
تزايدوا ونموا وربوا حتى بلغوا فى سنتين نحوا من ثلاثمائة طالب
فى كليات الجامعة ومدرسة التجارة العليا وبقية المعاهد .

وتأسس المعهد الشرقى خصيصا للعلوم العربية والشريعة
الاسلامية واعتز لامبير بطلابه كما اعتزوا به .

فما قيمة المتاعب القليلة التى امتحننى الله بها فى سبيل
هذه الثمرة الحلوة الناضجة وتلك القطوف الدانية ؟

كنت أقصد الكلية صباح كل يوم وينظر الى الطلاب
الفرنسيون نظرة تعجب من الطالب الذى بدأ دروسه فى آخر
السنة الدراسية وهو فوق هذا لا ينطق الا بكلمات قليلة يتلقى

المحاضرات ويدون ما يسمع منها بأحرف عربية تارة وبأحرف لاتينية بنطق انجليزي تارة أخرى ، ثم اننى لم اكن ألبس ثيابا أنيقة كما يفعل معظمهم لأنهم من أبناء الأعيان ، وأجلس فى ركن قريب من الأستاذ لأتلقى كلامه حرفا وحرفا وأقول « اذا لم يكن من الموت يد فمن العجز أن أكون جباناً » .

ثم نظرت فى حالى فرأيت أن أقرأ الصحف صباح مساء وأحضر تمثيل المسرحيات وكان الأجر للطلاب زهيدا جدا وهو فرنك واحد ، وأقصد الى الاجتماعات العامة وألتقف الكلمات وأغشى المجالس وأتكلم خطأ وأرجو محدثى أن يصحح أغلاطى ، وأبدأ كلامى دائما ببضع كلمات محفوظة اشادة بفرنسا والفرنسيين مما يعين على نفخ أوداجهم ونفس ريشهم لأنهم دبكة أصلاء وانقلبوا رجلا ويهز المدح أعطافهم . وهكذا قليلا قليلا حتى شققت طريقى .

وأثناء ذلك مرضت مرضا خطيرا فى القلب والأعصاب وأظنه من صدمات نفسية ، الوحدة والاعترا ب والفاقة والتعفف والكتمان والكبت وفقدت شهية الطعام والنوم ، ولكننى عند الصباح أجمع من ضعفى قوة تكفى لحضور الدروس . ونصحنى طالب طب بالذهاب الى الأستاذ الدكتور « موبسيه » ، وهذا الطبيب العظيم رجل لا أنسى فضله ما حييت وانى مدين له بعد ربه الى علمه وعطفه وأدبه ومواساته ، فقد تفرغ لى وفحصنى فحفا كاملا وهز رأسه وقال :

— ليس بأحشائك الباطنة أى مرض عضوى .

ولكن قال لى : هل لك صديقة صغيرة ؟

فاستفسرته حتى فهمت منه أنه يقصده الى عشيقه من
العاملات أو الطالبات اتنزه معها وأخلو بها وأغارلها واقضى منها
وطرا ، فأجبتة نفيا وعللت عفتى بخوفى من الامراض الجنسية ،
فهز رأسه وقال :

— ان اى مرض جنسى يصيبك انا كفيل بعلاجه ، أما المرض
الذى يصيبك من الكبت والحرمان فلا قبل لى بعلاجه ، فان امتنعت
عن سماع نصحي فخير لك أن ترحل الى بلادك ، فان الكبت
والرطوبة هنا وقيظ الصيف تصطلح عليك فتؤذيك ويعقبها مرض
خطير .

ثم وصف لى نظام طعام خاصا ومياها معدنية .

وقد اتبعت نصيحته ولزمت عيادته طوال اقامتى فى أوروبا ،
أما نصيحة العشيق فقد أضمرت أن أخالفها معتمدا على الله ،
وكذلك العود الى الوطن فقد صممت أن أموت بعيدا عن بلدى
وألا أعود الا اذا أتممت دراستى وجاهدت ضد أعداء الوطن فى كل
مكان ، لأننى بجانب ذلك الذى وصفوه بالعفة ، كنت مصحوبا
بخجل شديد ، فلا أذكر أننى تبعت فتاة فى الطريق ولا نطقت
بكلمة غزل ولا شربت خمرا حتى النبيذ لم أذقه أثناء اقامتى ،
وما دخننت قط .

أما مصادر رزقى فقد فتح الله أبوابها من مراسلة جريدة اللواء
وبعض مبالغ ضئيلة أخرى ، وكان مجموعها فى الشهر لا يزيد
على ١٢ جنيها ، فلما نشرت فى الصحف المصرية أن نفقات الطالب
لا تزيد فى الشهر على هذا القدر ، حقد على الشبان المقبلون على
ليون لأننى فتحت أعين أولياء أمورهم وقالوا لهم ان فلانا هذا
الذى يدعو الى التعلم فى ليون يعيش عيشة الكفاف بنفقة المحجور

عليهم ، ولم يحسب حساباً للملابس فى برد الشتاء ولا للملاهي والكتب والدروس الخاصة ورحلات الصيف والشتاء وغشيان المجتمع وتبادل الهدايا فى الأعياد والمناسبات ، فأية عيشة هذه النى يرسمها لنا ويضرح ميزانيتها ويكتفى بوصف جمال ليون وأنهارها وبساتينها وأشجارها وشوارعها وجنورها ؟

وأنا كنت أعلم هذا كله وأكثر منه ، وأعلم أننى ظلمتهم بشرح هذه الفكرة ، انما كنت أقصده الى تيسير الأمر على الآباء لبيادروا بارسال أولادهم أولاً ثم يرغموا على تسديد مطالبهم بالاتفاق بينهم وبين لاميير ، ولكننى كتبت هذا الأمر خشية أن يحجم الآباء لأن معظمهم كان يخشى أن يضطهد أولادهم بعد عودتهم الى مصر ، لأن ليون كان منظورا اليها بعين السخط وتعتبر البجالية المصرية فيها طلابا فائرين وكارهين للاحتلال الانجليزى وللحكومة المصرية الخاضعة ، وقد زاد موقفنا حرجا فى سنة ١٩٠٩ بعد المؤتمر الوطنى الذى عقد فى جنيف ، ثم ان المقالات التى كنت أنشرها فى جريدة اللواء ثم جريدة العلم بتوقيع « قارىء ناقد » كانت بغضمة الى الجالس على الأريكة الخادوية والى الرجعيين المصريين .

- ٢ -

جان جاك روسو

كان من أوائل الكتب التى اشتريتها « اعترافات جان جاك روسو » ، فقد سبق لى أن قرأت كثيرا عن هذا الفيلسوف العظيم الأطوار باللغة الانجليزية ، فأقبلت على الكتاب بشغف لأستطلع

اسرار هذا المعترف العجيب ، وجدت في شخص هذا الحبيب
المسكين شبيها شديدا بيته وبينى ، فقد كان طريقا شريدا وقد علم
نفسه بنفسه والقي بذاته في خصم الحياه وهو لا يحسن السباحه
فاجتهد حتى اتقنها ، وكان على الفطرة غير منصنع ولا متدلف ،
وكنت أنا كذلك ، وكان يحب الحق والصراحه وقد هاجر من وطنه
الى اوطان أخرى في سن تقرب من سننى وكان لا يحفل بأمال ان
قل عنده او كثر ، الا خلة وإحدة ذميه نانت عنده اشفقت عليه
منها وهى تعلقه بأذيال النساء ، وخله جمينه زادتنى به تعلقا وهى
حبه للحريه ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقاومه اعداء المساواة
الانسانية ، وكانت رساله الأولى التى قدمها لأتاديمية ليون عن
« أسباب التفاوت بين البشر » فندت جاززه ، هذه الاسباب كلها
مجتمعة حبيت الى هذا الرجل .

لم يكتب العرب عن روسو شيئا فيه غناء لمتلى لانه ليس مؤلفا
يعريهم فهو مشهور بانه من دعاة الثورة الفرنسية ، وكان المصريون
فى أول القرن العشرين يخشون ذكر الثورة لان الانجليز أرهبوهم
وأرعبوهم ، وأعان الانجليز على العرب والارهاب وغرس بذورهما
فى نفوس المصريين ، حب الوزراء والكبراء وطبقة الباشوات
للمناصب والمال وطمعهم فى المناصب واعتقادهم - وكانوا على
حق - أن الانجليز وحدهم الحاكمون المطاعون ، وكانت جرائد
الانجليز تسميهم « أولى الحل والعقد » و « ولاة الامور » حتى بعد
حادثة دنشواى التى لم ينهض لمقاومتها أحد غير مصطفى كامل ،
وكان سعد زغلول نفسه وقتها وزيرا للحقانية (العدل) وكان
أخوه فتحي زغلول وكيل له فى تلك الوزارة ، بل كان أحد القضاة
الذين كتبوا الحكم فى قضية دنشواى ومهره بأسمائهم وهو من
فريق الباشوات الذين نشأوا من طبقة الفلاحين كما كان أخوه
الأكبر سعد ، ويزيد فتحي زغلول على شقيقه الذى صار زعيم مصر

بعد حادث دنشواى بعشر سنين انه كان مثقفا ثقافة فرنسية وكان عاكفا على نقل بعض كتبهم الى اللغة العربية ولا سيما ما كان ضد جرية الامم مثل مؤلفات جوستاف لبيون ، وكانت غاية فتحى زغلول أن يقاوم النزعة الدستورية فى مصر وأن يعنارب مصطفى كامل ومبادئ الحزب الوطنى .

وهذا أمر لم يكن منكورا فى زمنه لأن الانجليز كانوا اقرباء والمصريين كانوا جهلاء وضعفاء ولا يؤمنون بالوطنية ولا سيما الطبقة المتعلمة المنتفعة بالوظائف ، وقد أرادت هذه الطبقة أن تجعل من نفسها ارسنقراطية تتحكم فى رقاب الفقراء من الفلاحين وغيرهم ، ولم تكن لديهم طريقة غير الزلفى للانجليز واتخاذهم سادة ليتمكن أفراد هذه الطبقة من اتخاذ الفلاحين عبيدا .

أرى عند الرجوع بشكرى الى تلك الأيام أن الأفكار تتزاحم على لا تطالب علم فى بلاد أوربى أنا غريب فيه ، ولكن كشاهد على العصر وناقد متحرق على تحقيق العدل الاجتماعى فى وطنه ، أقارن حياتنا فى بلادنا بحياة هؤلاء القوم فى بلادهم ، حياة العقل والخلق والجسد والروح .

- ٣ -

الدفعة الأولى من الطلبة المصريين بليون - جمعية

الطلبة المصريين بليون - اترك لنا شمال
افريقيتنا

أقول قضيت ما بقى من السنة الدراسية من وقت وصولى فى ابريل سنة ١٩٠٨ الى أوائل يولية فى عذاب النار ، وكنت

أواصل المدرس ولا أطمح في التقدم الى الامتحان في الدور الأول، ولكنني أكافح وأكسب نفقتي بعرق جبينى بالتحضير فى جريدة اللواء وأعمل كشبان أمريكا أنفق معظم ما أربح فى التعليم والكتب، وكان قد وصل الى ليون عشرون طالبا بسبب دعايتى فى الصحف المصرية واقتداء بى على ضعفى ، ففرحت بهؤلاء الواردين واجتهدت فى جمع كلمتهم بتأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين (١) ، ولعلمى بحب الرياسة والتناطح عليها عند كبار الأمة وصغارها اكتفيت بايجاد الافكار حتى اذا انعقدت الجمعية العمومية قلت لهم : أقترح عليكم أن تكون جمعيتنا بدون رئاسة دائمة بل ينتخب

(١) ارسل لطفى جمعة الرسالة التالية باسم اعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون الى محمد بك فريد وقد نشرت فى كتاب « أوراق محمد فريد ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الاول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٥٠ » .

سعادة الشهم الهمام محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى .

قرانا بمزيد السرور خبر قدومكم الى الاقطار الاوربية لخدمة الوطن العزيز ، فهدعونا الله أن يمدكم بقوة من عنده لتقوموا بأعباء المهمة العظيمة التى وكلت اليكم ، وسرنا تعريجكم فى طريقكم على مدينة لوزان لزيارة جمعية مصر بها ، كما انا فرحنا باجتماعكم بأعضاء جمعية مصر الفتاة بلندرة .

وحيث قد أسسنا منذ نصف شهر تقريبا جمعية لأبناء وطننا من الطلاب فى مدينة ليون ، ولدينا مشروعات علمية ذات أهمية .

وحيث انا نود أن نحظى بلقائكم كما نحظى به اخواننا فى ذلك البلدين ،

كما انه يسر لذلك استاذنا العلامة لامبير . وللتعرف بسعادتكم . فنرجو ألا تكلفوا انفسكم كبير عناء فى عودتكم الى الوطن المحبوب فى تعريجكم بمدينة الزاهرة ، لنحظى بلقائكم ولنجمع بينكم وبين العلامة الأستاذ لامبير (رئيس الشرف للجمعية) ونرجو ان تخبرونا بتاريخ قدومكم لتتحفز لقبالبتكم وتكون مراسلتنا بهذا العنوان :

Bialy, Secrétaire de l'Association des étudiants Egyptiens,
= faculté de Droit, Lyon.

رئيس في كل جلسة أو على الأكثر لمدة قصيرة لا تتجاوز شهرا .
قال أحدهم : ولم هذه البدعة ؟ ولم لا ننتخب رئيسا دائما مثلك
لأنك صاحب الفكرة ؟ قلت : لسبب بسيط وهو رغبتى فى أن
يتدرب كل واحد منا على الرياسة ولأجل أن وجود كل عقل بخير
ما فيه من الأفكار . ففرحوا بهذا الرأى .

== ولنا كبير الأمل فى أن تلبى دعوتنا .

تحريرا فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٨ . أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون
كما أرسل املئى جمعة الرسالة التالية الى محمد فريد ، وقد نشرت فى كتاب
« أوراق محمد فريد » المراجع السابق ، ص ٥٥ .

ليون فى ١٤ يونيو سنة ١٩٠٨ .

سعادة الشهم الفضال محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى .

بلغنا كتابكم الكريم وسرنا وعدكم بالقدوم لزيارة جمعيتنا الزاهرة . اما
شناؤكم علينا فقد تقبلناه شاكرين وان كنا نعتقد اننا لم نبلغ غايتنا من أداء
الواجب نحو الوطن العظيم العزيز ، واننا وان كنا بعيدين عن تلك الغاية الشريفة
الجليلة بمراحل ، فاننا نسير نحوها سيرا حثيثا ونعمل للوصول اليها .
وثبات ، فكلنا مجاهدون فى هذا السبيل كما كان يجاهد فقيد الوطن مصطفى كامل
باشا وكما تجاهدون انتم الآن .

هذا وقد سر العلامة لامبير فى تفضلكم بزيارته ، فلعل وراء تلك الزيارة
للشبيبة المصرية « خير عظيم » ، وهو لا يفادر ليون قبل ٢١ يوليو القادم ، وكنت
أود من صميم فؤادى أن أكون بليون لأحظى بلقاؤكم ولكن ستعوقنى الظروف
عن ذلك اذ عذمت فى عدة أيام على حضور دروس فصل الصيف فى مدرسة لوزان
الجامعة لأشتد فى اللغة الفرنسية ولأمتلك ناصية فنون أدائها ، فان كنتم تمرون
بجنىف كما وعدتم أعضاء جمعية مصر بلوزان ، فاننى سأس بلقاؤكم وأمتع نفسى
بحديث رئيس الحزب الوطنى المصرى .

وتذكرون اننى بعثت اليكم بكتاب من ليون قبيل مبارحتكم القطر المصرى وودت
لو القاكم هناك ، ولكن يظهر لى أن كتابى لم يصلكم الا بعد أن مرت الفرصة .

ان هذه الدفعة الأولى التي وردت أواسط سنة ١٩٠٨ وأواخرها وأوائل سنة ١٩٠٩ قد انطوت على أنفخ الطلاب ، ومثلهم كطلّاع المهاجرين من مكة الى المدينة وقد أعانهم الله على النجاح فحلّقوا في أجواء القانون والأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة وسائر العلوم الفرنسية باشتياق وإقبال حتى حازوا أعلى الدرجات وظهر منهم نوابغ وفحول هم دعائم النهضة الحديثة التي بدأت في أوائل القرن العشرين في مصر ، فالحمد لله على ذلك ، وهم الذين أجابوا دعوتنا لعقد المؤتمرات الوطنية في جنيف وباريس

== هذا وفي الختام تقبلوا تحيتي واحترامى وتكرموا بتبليغها سعادة الوطنى الدكتور عثمان بك غالب .

المخلص

محمد لطفى جمعة

طالب علم بليون

كما ارسل لطفى جمعة الرسالة التالية باسم جمعية الطلبة المصريين بليون الى محمد بك فريد ، وقد نشرت في كتاب أوراق محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ٥٦ :

سعادة المفضل محمد بك فريد - رئيس الحزب الوطنى .

وانانا خطابكم يوم الأحد ١٤ يونيه ، وانا لنتشكر لعزتكم هذه العواطف التي تمثلت بأجمل مظاهرها وتلك العبارات التي زففتها الينا ، تحيى بها آمالنا وتبشّرنا بمستقبل مصر الجليل ، جعلكم الله خير قائد لخير شعب يتعلّق بمن يجاهدون في سبيل اصلاح احواله .

ولقد اوصلنا العلامة لامبير ما شئت من آيات الشكر والتسليم ، وسالته عما طلبته ، فاجاب بانّه لا يسافر الا في أواخر يوليو ، وعليه فهو يستقبل حضوركم بكل سرور وترحيب ، كما نستقبله نحن كذلك بالبشر والسلام .

١٦ يونية سنة ١٩٠٨ .

أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون

وبروكسل ، فكانوا جيش مصر المجاهد وتلاميذ مصطفى كامل
وابناء البكر ، وهم الذين نهضوا بأعباء ثورة سنة ١٩١٩ بعد ان
غرسوا بذورها وتمهدوها بالسقيا ، وهم الذين نفخوا في رماذ
الامة فاشعلوا النار المقدسة في قلوبها .

ان التربة الفرنسية صالحة لنماء النهضة بلا ريب اذا لم
تكن لفرنسا مصلحة أو فائدة في اخمادها واطفائها كما شهدت
بالتجربة . فقد حدث في تلك الأيام أن تقدم جزائري اسمه ابن
على فخار الى امتحان الدكتوراه ونجح وقدم أطروحة في القراض
وهو نوع من المعاملات المعروفة في الشريعة الاسلامية ، وقد تأثرت
جدا بنجاحه وأردت أن تأخذ قدوة وأؤدي له تحية وأشجع
المصريين ، فكتبت مقالا مسهبا في وصف الاحتفال بأطروحته
ونشره اللواء وجاء فيه عفو قولي « ان أهل الجزائر وشمال افريقيا
عرب مثلنا ومسلمون يتطلعون الى الحرية والاستقلال ، فمتى ياتي
اليوم الذي ينضم فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد
خلع نير الاستعمار والاستبداد ؟ . انني أرى في الأفق وميض
بوق ، وأنخيل السيد الأستاذ ابن على فخار من حملة الشمعة التي
تضيء المستقبل » .

ونشر اللواء هذه المقالة في صدره وورد في البريد على بعض
الطلاب المصريين بامضائي « قارئ ناقد » في شهر يونيه سنة
١٩٠٨ .

وحدث في يوم وصول البريد بهذا العدد من اللواء أنني
مغادرت الكلية مبكرا وقابلت ابن على فخار ولكنه لم يرني ، ورأيت
في يده اللواء منشورا ووجهه غاضب وممتقع ولم أفهم لهذا
الامتناع سببا ، وقصدت الى منزلي ، وبعد قليل وافاني رسول من

قبل الأستاذ لامبير يطلب مقابلي ، فأسرعت إليه فوجدت في يده عدد اللواء ووجهه أصفر كالكرم يقطر غيظا ، فجبهني بقوله :

- يا عزيزي لطفى انك خربت بيت ابن علي فخار تحت ستار الوحدة في الدين والعواطف ، وسوف يطرده المجلس البلدي في ليون من وظيفته التي هي مصدر عيشه وأسأت اليه من حيث أردت الاحسان !

فقلت له : وكيف كان ذلك يا أستاذي الأعز ؟

قال : خذ . السمت كاتب هذا المقال ؟

قلت : نعم .

قال : انك تدعو الى الثورة في الجزائر وفي شمال افريقيا .
اعمل معروفا فينا واترك لنا جزائرنا وتونسنا ومراكشنا واصنع
ما بدا لك في الانجليز دواعا عن مصر .

قلت : انني أمجد كلية الحقوق وأستجلب الطلاب المصريين
والوح لهم بالمجد وأعمل على جمع كلمتهم حولك وأنت حامل لوائنا
ووالدنا والداي لخيرنا ومؤسس نهضتنا وصديق مصطفى كامل
وشريك جهاده في آخر سنة من حياته .

فلم أنل من الرجل غايته وام تنفع معه جيلتي ، وقال لي :

- ولو ! اصنع جميلا واترك لنا شمال افريقيتنا (هكذا)
واصنع بالانجليز لأجل وطنك ما بدا لك . لقد أسأت الى شخصيا .

فقلت له بعزم يكاد يكون يأسا :

— لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر وشمال إفريقيا
ملك لكم بل هي ملك أصحابها .

قال : لو رأيت رأس ابن علي فخار (أي وجهه) وما عليه
من الغضب والقنوط لفهمت قولي .

قلت : ولكن يا سيدي انه ليس كاتب المقال بل أنا ، وليس
الموعز به لأنه لا يفهم شيئا ، ولو كان يفهم لعده مفخرة ، فأننا
لا أبالي به . ثم انك علمتنا التضحية والبذل في سبيل الكرامة
فاستقبلت من منصب نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل
كرامتك ولم تخضع للانجليزى دنلوب ، فكيف تعيب علينا الدعوة
للحرية ؟ . سلام عليك .

وخرجت غاضبا وصممت على أن أطلب تحويل اسمي الى
كلية باريس أو بوردو أو ديجون .

فبعث لامبير في أثرى بالأستاذ عزيز ميرهم وكان طيب
القلب فقال لي :

— خير وسيلة للمخرج أن تعتذر للأستاذ لامبير وتكتب
خطاب أسف لابن علي فخار .

فلم أر جوابا على كلام هذا الرجل الطيب الا نظرة جهنمية
أدركها ميرهم وأدرك ما وراءها وقال :

— أنا مالى ومالك . قل وافعل ما بدا لك ، أنا واسطة خير
ليس الا .

قلت : أنت تحلم يا عزيز وتتكلم كأهل الكهف . ثم اطمئن
فاننى عقدت العزم على مغادرة ليون الى الأبد .

فقال : كيف تترك ليون ؟ ان لامبير يبني عليك كبار الآمال
ويتنبأ لك بمستقبل عظيم .

قلت : لو كان هذا حقا ما صدمنى فى أعز شئ لدى ، ومع
ذلك فالبركة فيمن دعوت من الاخوان ولبنى دغوتى . السلام عليك

وعدت الى منزلى ، وبعد قليل تنازل الأستاذ الكبير ادوارد
لامبير بزيارتنى فخرجت واعتذرت اليه عن خلو دارى من مظاهير
الفخامة والغنى ، وقلت له اعتبرنى مجاورا فى الأزهر ، فضحك
ثم قال : ما هذا الذى سمعته من ميرهم ؟ انك اعتزمت على الرجيل ؟
ومن ذا الذى يترك تفعل ما تشاء قبل أن تدخل الامتحان الأول ؟
الا ترى لى حقا عليك أرشدك الى ما فيه الخير حتى تتم دراستك ؟
هل تكبدت كل هذه الأهوال ليشمت بك دنلوب وهيل (ناظر
مدرسة الحقوق الخديوية) وقمحة (وكيلها) وكل أعداء مصطفى
كامل وتزيد فيك شحاتة ديروزاس (ناظر مدرسة الحقوق
الفرنسية بمصر) ، ذلك الفرنسي الذى نسى وطنه ؟ أما زح أنت ؟
ومن يقابل فريد بك عند وصوله بعد أسبوع ؟ ومن يلقى دروس
الشريعة الاسلامية بالفرنسية على اخوانك فى العام المقبل ؟ أتريد
أن تهجر المعسكر بعد التجنيد وتفر من خدمة وطنك ؟

فضحكت وقلت له : ان ميرهم لم يفهم قصدى ، انا أسافر
بعد زمن فى أواخر يولييه لأستريح فى سويسرا أو هوت سافوا
الى نهاية العطلة المدرسية ليس الا

وفى نهاية الحديث قمت مع أستاذى وصحبته الى باب داره
زيادة فى تكريمه لتنازله بزيارتى وأنا أضعف أبناء وطنى وأقلمهم
شباناً .

- ٤ -

ضحك كالكاء !

لقد قاسيت أثناء اقامتى الأولى فى ليون صنوف الحرمان
بأنواعه ، وذقت ألوان المرض وشعرت بألوان من الآلام بسبب
لا يدركه أحد الا اذا وقف عليه . قاسيت الحرمان فى كل شيء
لا يترواح عنه من كان فى سنى ، وقاسيت القبط فى ليون وهو
أشد من حر مصر ثلاث مرات ، وحكمت على نفسى بقصر غذائى على
الخضر والفاكهة دون اللحم والنشويات ففقدت المقاومة مع الاجهاد
فى الدرس ، واعتكفت فى كسر بيتى معظم الوقت لأحفظ نفسى
من التبذل مع اخوانى الطلاب المصريين وكان بعضهم ينظرون الى
نظرة الاعزاز والتعظيم فأردت أن أحتفظ بهذه المهابة لأخدمهم ،
واكتشفت أخلاق ثيابى وتمزيق نعالي ، ولم أعود أن أرقعها لأننى
كنت فى مصر أربع ثلاثين جنيها فى الشهر وأصنع ثيابى من أجود
الأصواف وكذلك أحذيتى من أفخر الجلد . وقرأت فى تلك الأيام
شعرا لدانتى يقول فيه : « ليس أقسى على النفس من تذكر النعيم
فى أيام الشقاء » .

ولكننى لم أسخط ولم أغضب ولم أذرف الدمع ولم أحن الى
الوطن والأهل لأننى كنت قوى الأمل وأتوهم أنني قوى الإرادة .
وقلت لو لم أفرض على نفسى العقبة عن النساء واللحوم والخمر

والدخان ، فماذا كانت تكون حالى ؟ • لقد ألزمت نفسى الحرمان فلم أشعر بكل آلامه •

وحدث أننى شعرت من لامبير أنه أشبار من طرف خفى فى استحياء أنه مستعد لمعاونتى بقرض حتى يصل المال الى يدي ، فضحكت أمامه وشكرته وعدت الى غرفتى لأبكى وألزم الفراش ثم تجنبى لقاءه ، ولم يتركنى الطلاب المصريون بالسنتهم فى تلك الفترة فاتهمونى بالتعاطف والتعالى والتعالم وغموض الحياة ، وأننى لا أقابلهم لأننى أخلو بمعشوقة غريبة الأطوار مثل ، وذهب بهم الخيال الى وصفها كأنهم رأوها ، وترامت الى غيبتهم فعذرتهم والله وضحكت ذلك الضحك الذى قيل انه البكاء ! •

وحدث ذات يوم أن دق جرس الباب الخارجى للخان الذى كنت نازلاً به ، ودخلت على صاحبة الخان بغير استئذان وهى تلهث وقالت : ان رجلاً رسمياً بالباب فى يده محفظة كبيرة وهو يسأل عنك يا سيدى •

فقلت لها دعيه يدخل فوراً •

وبعد لحظة دخل الرجل ويده قبعة نابليونية وحيانى بأدب جم وقال :

— هل أنت السيد ماهوميت (محمد) لفتى (لطفى) جوما (جمعه) الطالب بالجامعة ؟

قلت : نعم أنا •

قال : ألدبك يا سيدى وثيقة اتثبت شخصيتك ؟

قلت : نعم •

وابرزت له تذكرة الكلية وبها اسمى وصورتى ، فنظر فيها
بغير اكتراث وقال : اشعار من بنك كرىدى ليونيه .

وناولنى اياه فوقعت عليه باسمى ، ثم فتح محفظته وأخرج
نقودا ذهبية وأخذ يعد ألفه فرنك . ثم أخرج اشعارا آخر فيه
مائتا فرنك وعدها من أوراق البنك الفرنسية ، ثم أخرج اشعارا
ثالثا فيه مائة وخمسون فرنكا وعدها ورقا وقطعا فضية ثم قال :

— ألف وثلاثمائة وخمسون فرنكا . تمام يا سيدى ؟

فنظرت الى النقود مكسدة على المنضدة وأنا ذاهل ، ثم طلبت
منه كل اشعار على حدة لمراجعتها فى ظنه ولكن المتأكد من أنها
باسمى حقيقة ، لأننى دهشت من وصول هذه النقود بهذه الكمية
وأنا فى أشد الحاجة اليها وخشيت أن تكون لغيرى لآلى وأن البنك
وعماله قد أخطأوا ، فلما تبقت أنها باسمى ابتسمت . وحيانى
الرجل وخرج مسرعا لا يلوى على شىء .

فجلست خائر القوى لأننى ممن يدخرون الانفعال من طول
ما مارسنته ، جلست صامتة مذهولا . كيف وصلت الى يدى هذه
النقود فى تلك اللحظة ؟

لقد استغثت بطلب المدد من أهلى منذ أشهر ولم يصلنى
جواب ولا رد ولا بشرى ولا انذار بهذه النعمة ! . . . أ يحدث أن
كل مطالبى استجيبت فى وقت واحد ووصلت الى يدى فى هذا
اليوم السعيد ؟ هل فى تعقضى وصبرى سر الاستجابة ؟

لقد احتقرت المال فى هذه اللحظة . . . لم أرى أن أمس
النقود ورأيتها كجذوة من نار . . . اننى لا ريب مريض أو أن
الحرمان والوحدة وسوء المظهر قد أصابت نفسى بعقدة نفسية
من نوع جديد !!

من يوميات سنة ١٩٠٩

سجل لطفى جمعة أحداث العام الدراسى سنة ١٩٠٨ -
سنة ١٩٠٩ فى صورة يوميات وكان قد عاد الى القاهرة لزيارة
الأهل والأصدقاء قبل أن يعود الى فرنسا لمواصلة الدراسة بكلية
الحقوق بجامعة ليون .

وفيما يلى مقتطفات مما سجله فى هذه اليوميات :

الاثنين ٤ يناير سنة ١٩٠٩ :

اليوم الثانى من عيد الأضحى . اجتمعنا فى نادى المدارس
العليا (١) لنعلم بعضنا بعضا وكان الجمع قليلا وحضره فريد بك
رئيس الحزب الوطنى ، فخطب عمر لطفى بك وهنا الأعضاء وحثهم
على التكافل والتضامن ، وتلوته الى المنبر - وكانت هناك اشاعات
عن عزم الحكومة على مصادرة النادى - فخطبت فى استراحة مثل
هذا العمل وبينت خطره اذا تم وقلت : ان اغلاق نادى المدارس العليا
يسبب افتتاح ألف ناد سواه فى طول البلاد وعرضها وبينت مبدأ
ستيوارت ميل فى ذلك الموضوع .

الثلاثاء ٥ يناير :

ذهبت الى حلوان ٠٠٠ ولقيت هناك الشيخ طنطاوى جوهرى
وبعض الأصدقاء ، كان حديث الشيخ طليا وتكلم عن أصل الحياة
وأظهر حرية فكرية عظيمة ، وحثته من طرف خفى على الخروج .

(١) تأسس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٥ وكان احد معاقل الوطنية فى
مصر وتعبيرا عن تطلع الوطنيين المصريين للتخلص من النفوذ الأجنبى والسيطرة
الاستعمارية على الوظائف والمهن والصناعات ، وقد انتخب عمر لطفى رئيسا .

من خدمة الحكومة لخدمة مبادئه الفلسفية ليلتفت حوله تلاميذه ومريدوه ، ولكن يظهر لى أن الأستاذ مع فضله وعلمه وذكائه يحتاج الى شىء من العزم والشجاعة للقيام بمثل هذا العمل ، ولكننى لا أشك فى حدوثة .

الجمعة ٨ يناير :

لقيت فى هذا اليوم حامد العلايلى . بعد أن افترقنا فى لوزان فى صيف هذا العام فسرنا لمشاهدة المظاهرة الكبرى التى نشرت الصحف أخبارها ، فلما بلغنا باب الخلق . استأجرنا مركبة وزيناها بالأعلام وبلوحتين كتب عليهما « ليحيا الاستقلال والدمستور » ، وقد رأينا من أصحاب المحال الوطنية والعمامة مساعدات غربية عند علمهم بأن العمل وطنى وأنه فى سبيل انقاذ مصر من العدو الأجنبى ، وطفنا بالمركبة سائر الشوارع ونحن نصيح والشعب معنا « لتحيا مصر . ليحيا الوطن . . . ليحيا الاستقلال . . . ليحيا الدستور » .

وتجمع الناس حولنا تجمهرا عظيما فى ميدان عابدين وكان كلهم طوع اشارتنا ، ودخلنا حديقة الأزبكية فجمعت الناس حولى فى لحظة وخطبت فى معنى الأعياد وقالت ان عيد الأمة أهم بكثير من أعياد الملوك والأمراء .

السبت ١٦ يناير :

لقيت عرضا المستر يانز محرر الاجبشيان ستاندارد سابقا فتحدثنا فى المسألة الايرلندية وأرشدنى الى أسماء كتب كثيرة يمكننى مطالعتها قبل سفرى الى ايرلندا وهو ما أنويه لأخدم الوطن المصرى فى البلاد البعيدة وأسمع الأجانب صوتنا من جديد .

الثلاثاء ١٩ يناير :

أوشكت معدات سفري أن تتم وأرجو من الله أن يكون كل شيء لما فيه الخير . عذمت على اهداء دائرة المعارف الانكليزية الكبرى الى المدرسة الجامعة المصرية وكتبت اليها بذلك لارسالها من يتسلمها .

الخميس ٢١ يناير :

أعد اليوم مواد محاضرة ألقيا مساء في نادي اللجنة الفرعية للحزب الوطني بالسيدة زينب . ستكون المحاضرة ذات ثلاثة أجزاء ، الأول عن الحرية ومعناها وأنواعها ، والثاني عن كيفية نيل انواع الحرية للأفراد والأمم ، والثالث عن ضرب مثل بالامة الايطالية التي نالت الحرية بأكملها .

الثلاثاء ٢٦ يناير :

آخر يوم أقضيه في القاهرة قبل سفري ٠٠٠ لقيت حافظ ابراهيم فقال لي « اذهب ولا تعد الا بعد اكمال دروسك » فأنرت هذه الوصية في نفسى سيما وأنها هي التي كانت تجول في رأسى .

الأربعاء ٢٧ يناير :

كل يوم أرى أدلة جديدة تثبت لي أن الشيخ عبد العزيز جاديش أساء كثيرا الى القضية الوطنية بمقالاته التي طعن فيها على اخواننا الأقباط ، فليس أقدر على الخدمة الحقيقية من القبطي الأمين .

أبحرت الباخرة شلزويج في الساعة الثانية . هذه هي المرة الرابعة التي أركب فيها هذه الباخرة ذاتها . كدت أبكى عند

صغير الباخرة ، ولكن الواجب والخدمة الحقيقية للعلم والوطن
أعظم من حب الأهل •

الخميس ٢٨ يناير :

البحر لا يزال هائجا والسفينة فى اضطراب لا مثيل له •
وقد تعرفت هذا اليوم بالمستر بيربوم ترى الممثل الانكليزى
الشهير ، فأخبرنى أنه جاء مصر ليدرس بعض الشئون الخاصة
بتمثيل رواية « النبی الأبيض » التى وضعها « هول كين » ولكنه
متردد لأنها ضد السياسة الانكليزية على خط مستقيم ويخشى
أن يضر به تمثيلها فى الدوائر العالية ، فشرحت له تاريخ المسألة
المصرية وأظهرت له أن قول الحقيقة للرأى العام الانكليزى هو
أعظم خدمة يمكنه أن يقدمها لانكلترا كرجل يحب وطنه وقد أقنعت
بعده ذلك فافتتح ووعدهى بحذف بعض الأمور الشخصية المتعلقة
بكرومر وأن التمثيل سيكون بلندن فى شهر سبتمبر القادم ودعانى
لزيارته هناك ، وتكلم كثيرا عن غمينا وبارنل ستون وكوكلان وقد
قيدت بعض الملاحظات لكتابة مقالة عما دار بيننا من الحديث •

الاثنين أول فبراير ١٩٠٩ :

خرجت عصرا وكان البحارة يعدون الجبال والآلات للميناء
ورأيت شواطئ فرنسا البنفسجية •

ركبت القطار من مرسيليا الى ليون •

فكرت بعد وصولى الى الفندق فى سياحتى فى بلاد الأندلس
ومراكش والجزائر وتونس ، لابد لى من زيارة العالم الاسلامى كله
لاكتب عنه كتابا ولاخطب فى أبنائه •

الأربعاء ٣ فبراير :

شرحت لاخوانى مشروع سياحتى فى العالم الاسلامى ودعوتى
أمم شمال افريقيا للاجتماع لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة
روابط أدبية ومادية .

الجمعة ٥ فبراير :

فى الساعة الثانية بعد الظهر ذهبت لزيارة الأستاذ لامبير
فوجدته فى المدرسة وسرنا معا نتحدث فقال لى ان الحركة الوطنية
فى مصر ينبغى أن تكون فى أيدى الشبيبة وأن فريد بك من الأعيان
(ارسقراط) وهو بعكس مصطفى كامل الذى فهم أن الحركات
الكبرى لا تقوم الا بالطبقات الوافرة العدد ، وذكرنى بما تكهن
به عن مشروع الجامعة المصرية من أنها ستكون الكهوبة فى أيدى
الانكليز ، وقال : ان عيب المصريين هو ان كل واحد منهم يريد
لنفسه الظهور والصيت مع أن العمل الحقيقى لا يتم بالفضضاء .

قابلت على الشمسى وحادثنى عن المؤتمر المصرى فى
جنيف (١) .

(١) هو مؤتمر الشبيبة المصرية الذى عقد فى جنيف فى ١٣ سبتمبر سنة
١٩٠٩ لمحاولة الحصول على التأييد الدولى ازاء حصار الاحتلال البريطانى للحرب
الوطنى محليا ودوليا .

أما على الشمسى فكان من ضمن أعضاء الحزب الوطنى وعمل مع محمد
فريد أثناء هجرته ولكن فريدا كان يشك فيه لعلاقته بالخديو ، ثم انضم الشمسى
بعد ذلك للوفد المصرى بعد قيام شوره سنة ١٩١٩ واشترك فى وزارة سعد زغلول
الاولى سنة ١٩٢٤ كوزير للمالية ثم وزيرا للمعارف العمومية فى وزارات عدلى
يكن وثروت ومصطفى النحاس .

السبت ٦ فبراير :

فى الساعة الخامسة حضرت درس « الهيروغليفيه » على
الأستاذ لوران ووعدنى بالبداية فى الهجاء مساء الأربعاء القادم
وأوصانى باسم كتاب وللحال عزم على دعوة اخوانى غدا
لناقشتهم فى هذا الأمر .

الأحد ٧ فبراير :

قصدت نادى جمعية الطلاب المصريين بليون بشارع الجمهورية
فالتقينا هناك ودارت المناقشة حول ثلاث مسائل مهمة ، الأولى
مسألة الاحتفال بذكرى مصطفى كامل يوم الخميس الآتى ١١
فبراير ، وسألنى خطابا بالعربية يترجمه الى الفرنسية فؤاد أفندى
برسوم ، والمدعون طلاب فرنسيون وبعض رجال الصحافة .
ثم اقترحت على الاخوة الاقبال على تعلم اللغة الهيروغليفيه فكانت
الأغلبية فى صفى ، وفى الحال قيدت أسماء ثمانية طلاب دفع كل
منهم عشرة فرنكات لشراء كتاب النحو الهيروغليفى .

أما المسألة الثالثة وهى مسألة الخطاب المتعلق بالاسلام
فأجل النظر فيه الى وقت آخر .

الاثنين ٨ فبراير :

قرأت فصولا فى كتاب القانون الجنائى تأليف العلامة جارو
ثم أخذت فى كتابة الخطاب الذى سألقيه يوم الخميس الآتى فى
الاحتفال بتمجيد ذكرى مصطفى كامل .

الثلاثاء ٩ فبراير :

فى الساعة الرابعة قصدنا الجمعية (جمعية الطلبة المصريين
بليون) ، ولما تكامل العدد تلونا الخطب كلها وقامت بعض

الاعتراضات على خطاب عزيز أفندي ميرهم لذكره الخديو ونحن لا نريد ذلك احتفاظا بحيادنا .

أدهشنى جدا خبر تعيين الأمير حسين كامل فى مجلس الشورى رئيسا لعدة أمور وسأكتب عن هذا مطولا فى مذكراتى السياسية .

وان خبر طرد طلاب الأزهر بعد قرار مجلس الجامعة الأعلى المرءوس بالخديو مهم جدا ، لأن هؤلاء الطلاب ينتشرون فى سائر القرى وينشرون أفكارهم التى تشبعوا بها .

الأربعاء ١٠ فبراير :

قصدت المدرسة الجامعة فحضرت درس القانون الإدارى وخطبت فى طلاب السنة الثانية الفرنسيين داعيا إياهم للحضور غدا ببنادينا لمشاركتنا فى الاحتفال بتكريم ذكرى مصطفى كامل . وقد تقبل بعضهم هذه الدعوة بسرور واحترام .

وفى الساعة الخامسة قصدت الى المدرسة الجامعة حيث كان أول درس فى اللغة الهروغليفية ألقاه علينا الموسيو مونيت أحد طلاب مدرسة الآداب ، وكان عددنا يزيد على عشرين وقد تعلمنا الحروف وأهم المقاطع وبعض الرموز التى لا نطق .

الخميس ١١ فبراير :

قصدت بعد الظهر غرفة الجمعية لأن الاحتفال يكون فى الساعة الثالثة والنصف وقد أم مكان الاحتفال عدد عظيم من الفرنسيين وكان على أحسن ما يرام ، وقد ألقى خطابى الذى أعدته منه يومين للترجمة .

تحدثت طويلا مع الموسيو مونتيه الذى يعلمنا الهيروغليفية
عن تاريخ مصر القديم ، وذكر لى أن نسخة هيروغليفية من حكم
بتاحوتب موجودة بدار الآثار بليون وقد حدثتني نفسى بنقلها الى
العربية (١) .

الجمعة ١٢ فبراير :

طالعت الفصل الأول من كتاب « موت قصر أنس الوجود »
تأليف بير لوتى وهذه أول مرة أقرأ فيها بالفرنسوية وكنت أمتنى
نفسى بذلك من زمن طويل . ثم تناولت كتاب الهيروغليفى وقرأت
منه أكثر من عشرين صفحة تفهمت نقوشها ، ووجدت نفسى مساء
أقرأ الفصل الرابع من كتاب الموتى فكنت أظن فرحا واندھاشا
وسبب ذلك أننى منذ عهد طويل كنت أرجو أن أتعلم هذه اللغة
واحل رموزها .

السبت ١٣ فبراير :

طالعت فى القانون المدنى من كتاب بلانيول .

زارنى موسيو مونتيه وتحدثنا عن مصر وعن الاحتلال
فشرحت له المسألة المصرية وكسبته لجانب الوطنية المصرية ووعدنى
بخدمة مصر على قدر استطاعته .

(١) نقل لطفى جمعة فعلا « حكم فتاح حوتب » الحكيم المصرى القديم الى
اللغة العربية ونشره سنة ١٩١٢ مع ترجمة « جولستان » أو روضة الورد للشاعر
الفارسى سعدى شيرازى وكتاب « التعليم الراقى للمرأة فى اليابان » فى كتاب
واحد بعنوان « الحكمة الشرقية » .

الأحد ١٤ فبراير :

لاحظت أمرا غريبا وهو أن أغلب أيام الأحد تكون عادة ذات جو حسن وهنا من كرم الطبيعة التي تجود على الناس براحة يوم من زوابعها وأمطارها ، ولعل في اختيار هذا اليوم للراحة سرا .

خرجت واستلمت بعض رسائل بريديّة أحداها من مدام ذا مانسكى (١) ، وقصدت زيارة الموسيو لامبير فقابلني في مكتبه وتحدثنا ساعة قال لي فيها انه ليس لمصر ولا له أمل في الطبقة القديمة أنصار العهد العتيق ، وانما الآمال كلها في الشبيبة المتعلمة ، ثم قال لي عن فريد انه يخشى ظله وأنه يخاف الانجليز جدا وأنه أساء الى الوطنية المصرية بحضوره الى أوروبا كرئيس للحزب . ثم تكلم عن مصطفى كامل فأسف لموته قبل الأوان ولا سيما في هذه الظروف التي كان يمكنه فيها أن ينتفع بأشياء كثيرة خارجية وداخلية ، وقال ان انكثروا سعيدة الحظ بموت أشد أعدائها .

الجمعة ١٩ فبراير :

ذكر لي عبد السلام الجندي مساء أن غدا يكون موعد اللقاء محاضرة عن الاسلام طلبتها منا جمعية التعليم اللاييكي (العلماني) ، فكتبت خطبة جعلت همي فيها البحث فيما يوجه نحو الاسلام من التهم وفندتها ورمي الاسلام بالتعصب ورميه بالتأخر والتقهقر العلمي .

(١) انظر ما كتبه لطفى جمعة فيما يلى من هذه المذكرات عن الاديبه الروسية أوجستاد امانسكى وعلاقته بها .

الجمعة ٢٦ فبراير :

وصلت المكتبة بالمدرسة واشتغلت بالقانون الجنائي الى الساعة أربعة والنصف حيث لقيت مونتيه فتحدثنا مليا عن آراء المدرستين الفرنسية والألمانية فى مسألة الحروف المتحركة فى النحو الهيروغليفى .

تسلمت كتابا مؤثرا من مدام دامانسكى قالت فيه انها ستسافر الى روسيا عما قريب .

السمبت ٢٧ فبراير :

لم يكن حديث المائدة (بالبنسيون الذى أنزل به) متعلقا بموضوع خاص ، ولكننا تكلمنا مليا عن الأدب الفرنسى وذكرنا موديس باريس وجول ليمتر ٠٠٠ وبهذه المناسبة ورد ذكر الموسيو هريو محافظ المدينة ، وأنا شخصيا أظن أن هذا العالم السياسى الشاب سيكون له شأن مهم فى المستقبل لا سيما اذا دخل مجلس السناتو ولا يستبعد أن يكون يوما رئيسا للجمهورية .

الجمعة ٥ مارس ١٩٠٩ :

تحدثنا على المائدة ٠٠٠ وتناقشنا فى هل نشر أخبار الجرائم والفضائح فى الصحف السيارة يشجعها ويزيدها ، وكنت ضد من يقولون بهذا الرأى وان كنت أبغض الصحف المهولة كالماتان . وفى نحو الساعة الثانية لقيت مصادفة الأستاذ لامبير فبقينا معا ساعتين نسير فى الطرق وكان معظم الوقت يحدثنى باهتمام عظيم عن مصر وأحوالها ، وقال لى انه ينوى تشغيل طلابه فى تأليف كتب للحقوق واختارنى لكتاب فى الشريعة الاسلامية

والقانون المدني وقال لى ان حركة الأزهر تسره كثيرا لأنها حركة
صادقة (١) .

الاثنين ٨ مارس :

طلعت بعض أعداد اللواء ، وحوادث الأزهر تهمنى جدا لأن
فيها علائم المستقبل ، لو كان فى مصر أبطال حقيقيون لا انتهزوا
فرصة هذه الحركة ليثبتوا أن حياة الأمة فى اتحادها وقوتها .

من المصادفات العجيبة أن اللواء نشر مقالتي عن « المحكام
فى الشرق والغرب » فى العدد الذى نشر فيه خبر استجواب
النيابة لخليل حمادة باشا ودلاور بك (٢) وكلاهما متهم بضرب
طلاب الأزهر واهانتهم (راجع عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٩) .

الأربعاء ١٠ مارس :

وضعت هيكل لرواية مصرية للملعب المصرى ، ان لم تمثل
اليوم فغدا .

(١) انظر عن ثورة الأزهر وأسبابها سنة ١٩٠٩ ، مذكرات سعد زغلول ،
الجزء الثانى ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، هامش رقم ٣٧٢ صفحة
٨٩٦ ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
سنة ١٩٨٨ .

(٢) خليل باشا حمادة مدير الاوقاف منذ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وقد اسندت
اليه ادارة الأزهر واتهم بضرب الطلبة وقدم للتحقيق ، وقد هاج الأزهر لذلك
هياجا عظيما ، أما محمد بك على دلاور فقد كان مدير الادارة والحسابات
بوزارة الاوقاف .

(انظر الجزء ٢ من مذكرات سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٩٠٠
وما بعدها) .

طالعت بعض أعداد اللواء وقرأت تفصيل حوادث الأزهري
فبكيت واقشعر بدني واعترااني ذهول من الحزن . من العجيب أن
تهان أمتنا مثل هذه الإهانة ونحن سكوت لا نرفع صوتا ولا نحرك
يدنا ، انه قد آن لنا أن ننهض مرة أخرى لنضرب ضربة قاضية ،
فاما حياتنا كشعب حر شريف واما موتنا الى الأبد .

الاثنين ١٥ مارس :

طالعت في القانون المدني والجنائي طول الصباح وقلبت
صفحات كتاب كوشري عن مركز مصر الدولي فأعجبت به جدا
وسألت في هذا العام لدرس القانون الدولي العام لتطبيقه حررا
بحرف على مركز مصر في الوقت الحاضر ، وهذا يكون ان شاء
الله أساسا بحثي عن المسألة المصرية عند تقديم أطروحة الدكتوراة .

أخذت أنقل ما سودته منذ عامين من كتاب « الأمير » لميكافلي
في دفتر جديد الأنجز التعريب والترتيب بأسرع ما يمكن (١) .

وبدأت أيضا في تبليض « حكم نابليون » (٢) .

(١) ، (٢) كتب لطفى جمعة في كناشه مؤلفاته عن كتاب الأمير ما يلي
« الأمير تاليف ميكافلي شرعت في تعريبه من زمن طويل ولم أنجزه الى الان
ثم كتب « أنجز في يوليو سنة ١٩١١ بجنيف » وقد طبع هذا الكتاب ونشر
في القاهرة سنة ١٩١٢ ، كما كتب في الكناشه سالف الذكر عن كتاب « حكم
نابليون » ما يلي « نقلتها من الانجليزية الى العربية عام ١٩٠٧ ولا ينقصها
الا التبليض مع بضع صفحات عن حياة بوناپرت بايجاز » وقد طبع هذا الكتاب
ونشر بالقاهرة سنة ١٩١٢ .

الأربعاء ١٧ مارس :

قابلت ليلا بن علي فخار وتحادثنا عن تركيا ومصر والجزائر
وقال لي انه سيكون مصطفى كامل الجزائر فسرني هذا التصريح
منه وقارنت بين شجاعته هذا العام وجبنه في العام الغابر (١) ،
وقال لي كلما أساء الفرنسيون لنا كان ذلك في مصلحتنا .

الخميس ١٨ مارس :

كان حديث المائدة متعلقا بتهذيب المرأة المصرية وعلاقتها
بالدين والتربية المنزلية . اننى أقبل كل ما تقتضيه التربية
العاقلة لأجل المرأة المصرية وان العلم يكمل أخلاق المرأة وينقص
معايبها .

الثلثاء ٣٠ مارس :

وصلتني أعداد كثيرة من الصحف العربية أخصها اللواء
ومصر الفتاة ، فرأيت فيها مسألتين تشغلان الرأي العام حاليا ،
مسألة الأزهر وقانون المطبوعات وهما جديرتان بالنظر ، ورأيت
أن الانكليز يخدمون أمير البلاد كثيرا ويسهلون له الصعب ليقعوه
فيما يريدون له .

(١) انظر صفحة ١٣٥ من هذه المذكرات .

الأربعاء ٣١ مارس :

الجرائد تصلنى مفعمة بأخبار قانون المطبوعات الذى يسعى الانكليز والخبديو فى تنفيذه (١) . انهم حسنا يفعلون لأنهم يزيدون النار اشتعالا ويعلموننا كيف نستتر أفكارنا وكيف نجعل كثيرا ونقول قليلا . ان مصادرة الحرية فى تركيا لم تمنع الأحرار من الثورة وعلان الدستور .

الخميس أول ابريل سنة ١٩٠٩ :

عند الظهر فاجأنى على المائدة أحمد السيد بخبر مزعج للغاية وهو اعادة العمل بقانون سنة ١٨٨١ القاضى بتقييد حرية الصحافة والمطبوعات وقد أثر فىنا هذا الخبر تأثيرا شديدا ، فأسرعت حالا الى دعوة سائر أبناء الوطن المقيمين فى ليون وفى الضواحي جميعا لعقد جلسة فوق العادة للنظر فى هذا الأمر المهم بأسرع ما يمكن . وفى الساعة الثامنة كمل عقدنا فى غرفة رحيبة من غرف قهوة الأوبرا فخطبت فى اخوانى ساعة شرحت لهم أثناءها ما اتصل بنا وتكلمت عن حرية الصحافة وتاريخها ومعنى تقييدها وعواقب ذلك ووضعت أمامهم ثلاثة اقتراحات نعمل بها لساعتنا للملاقة الحوادث ، الأول الاحتجاج فى الصحافة اليومية ، والثانى عقد جلسة علنية نلقى فيها الخطب ، والثالث تأليف كتاب عن حرية الصحافة والمطبوعات والاجتماع وتوزيعه فى مصر بأى الوسائل ، ثم النظر بعد ذلك فى طرق عملية لمقاومة المظالم .

(١) جاء بمذكرات سعد زغلول يوم ١٧/٣/١٩٠٩ أن بطرس غالى وضع بمساعدة مستشارى الخديو مشروع قرار وزارى بتنفيذ بعض نصوص قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ (مذكرات سعد زغلول ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، سنة ١٩٩٠ ، ص ٢٣) ، وللوقوف على مزيد من المعلومات عن اعادة قانون المطبوعات ، راجع كتاب سعد فريد لعبد الرحمن الزافعى ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، دار المعارف ، صفحة ١١٨ - صفحة ١٢٢ .

وفي منتصف الليل زرنا ادارتى جريدتين وتركنا فى كل.
ادارة مقالة احتجاج للنشر .

الجمعة ٢ ابريل :

أخذت فى جمع المواد واعدادها لأجل خطاب الغد لأننا قررنا
أمس أن يكون الاجتماع غدا بمقر الجمعية الجديد . ان المواد فى
رأسى كثيرة أريد أن يكون الخطاب موجزا وشاملا لكل ما أريد .

السبت ٣ ابريل :

زرت بعض أصدقائى الفرنسويين لأدعوهم الى احتفال اليوم
وأسرعت الى مقر الجمعية وألقيت خطبتى على الاخوان لأرى موافقتهم
عليها فوافقوا عليها بالاجماع .

ورأست الجلسة رغم ارادتى وكانت الحفلة غاصة بالمدعوين
الفرنسويين بينهم أربعة من محررى الصحف وبعض مندوبى
جمعيات الطلاب . وألقيت خطابى ثم تناقشنا فى مسائل شتى لها
علاقة بالموضوع .

الاثنين ٥ ابريل :

نهضت صباحا وأعددت متاعى للسفر وفى الساعة السابعة
تحرك القطار الى جنيف وطالعت ما كتبته جرائد ليون (البروجريه
والنوفليست) عن اجتماع يوم السبت الماضى .

الثلاثاء ٦ ابريل :

خرجت صباحا الى شاطيء الدون وفكرت فى وضع كتاب
باللغات الثلاث اسمه « مصر تتهم انكلترا » أشرح فيه المسألة
المصرية شرحا عادلا . ان من أعظم آمالى فى الزمن الماضى أن أكتب
مهما يكون له شأن عن المسألة المصرية .

الخميس ٨ ابريل :

أشتغل على الدوام بأعداد المواد اللازمة للكتاب ، مصر منهم
الانكلترا ، .

الاحد ١١ ابريل :

أطلع كتاب فروست فى « الجمعيات السرية فى أوروبا »
وهو كتاب فى غاية اللذة ويرينا بوضوح وجلاء لا ريب فيهما
ان كل الأمم نالت حريتها بأمرين ، الأول حركة سرية تدبر من
زعماء القوم المخلصين ، والأمر الثانى بمقاومة حربية أى بثورة .
فان تمت الثورة بلا دماء فنعمنا بها ، وهذا ما رأيناه أخيرا فى تركيا
ونتمنى حدوثه فى وطننا الأسيف .

الاثنين ١٢ ابريل سنة ١٩٠٩ :

احتفلت اليوم احتفالا عقليا قليلا بمرور عام على حياتى
العلمية فى أوروبا ، فانه منذ عام بالضبط فى مثل اليوم لمست
قديماى أرض فرنسا بميناء مارسيليا .

الثلاثاء ١٣ ابريل :

استلمت من البريد كتاب « خطابات مصطفى كامل » وقرأتها
كلها فى ليلة واحدة ، قرأت فى ليلة واحدة تاريخ رجل عظيم منذ
كان طالبا فى المدرسة الى أن صار زعيما الى أن مات ، وهذا زادنى
إعجابا به . ولكن لا أزال أنتقد شيئا واحدا فيه وهو التصاقه
بالخديو فى أول الأمر وسعيه فى التقرب منه بعد حادثة ديفون

الشهيرة (١) • قال ابنسبن فى احدى رواياته على لسان رجل سبيء
الحظ « لقد اكتشفت شيئا مهما وهو أن الرجل لا يكون قويا
الا اذا كان وحيدا » أى يعمل بمفرده •

الخميس ١٥ ابريل :

حمل الى شاب فارسى يحضر معنا على المائدة اسمه « غلام
رضا خان » - حمل الى كتابا فارسىا عن تاريخ الحركة الدستورية
فى بلاد فارس ، وقد علمت أن هذا الكتاب يدرس للتلاميذ فى
مدارس الفرس الابتدائية فسرئى شرح الأفكار الوطنية لهم وهذا
ما أود صنعه فى كتاب للتلاميذ المصريين ، وغرضى من هذا الكتاب
أن يكون تاريخا للنهضة الشرقية الحديثة •

الأربعاء ٢١ ابريل :

طالعت فى القانون الجنائى وقد وجدت لذة عظيمة فى
الأبحاث الجنائية • أريد أن أكون محاميا جنائيا •

طالعت فى الجرائد أخبار تقدم جنود حزب تركيا الفتاة
وأرجو أن يفوزوا فى اخماد نار الفتنة البتقهقرية • ان الثورة

(١) كانت مسألة زواج الشيخ على يوسف بابنة السيد عبد الخالق السادات
محل خلاف شديد بين مصطفى كامل الذى كان يقف منها موقفا معارضا وبين
الخدويى عباس حلمى الذى كان يساند الشيخ على يوسف فى هذا الزواج ،
وفى لقاء مصطفى كامل بالخدويى فى ديفون بفرنسا فى اغسطس سنة ١٩٠٤ ،
أخذ يلوم الخدويى على مداخلته فى هذه القضية ، مما دعا الخدويى الى الاحتداد
على مصطفى كامل ومغادرة الاجتماع ، فكانت القطيعة بينهما (مذكرات سعد
زغلول ، مقدمة الدكتور عبد العظيم رمضان لها ، الجزء الأول ، مركز وثائق وتاريخ
مصر المعاصر ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٨٢ وما بعدها) •

التركية الأخيرة. أخذت شكلا جديدا وهو ما يسمى فى فرنسا بالثورة المضادة أى أنها ثورة ضد ثورة الصيف الماضى ، وان أعداء الشرق والاسلام يقولون ان هذا دليل على عدم صلاحية الشرقيين للنظومات الدستورية ، وأنا أقول انها دسياسة مدبرة . ان السياسة القومية محتاجة الى القوة لحمايتها .

طالعت صحفا كثيرة فى كتاب الموسيو جون نينه عن الثورة العرابية وأهم ما فى هذا الكتاب تدبير فتنة الاسكندرية ومذبحتها التى دبرها الخديو توفيق ومحافظ المدينة بايعاز قنصل انكلترا أو وكيلها السياسى .

حضرت اجتماعا فى غرفة « هاندويك » بساحة بلا نبلية خطب فيه برتونى زعيم الفوضويين فى سويسرا وصاحب جريدة اليقظة وقد طعن فيها على البوليس السرى وأعمال المجلس العمومى بجنيف ، وهذا الرجل مع كونه عاملا بسيطا - رأيته خطيبا مقتدرا ويستند فى خطبته على معلومات حقيقية وتواريخ واحصاءات وحوادث .

السبت ٢٤ ابريل :

أتممت مطالعة كتاب لومبروزو « الانسان المجرم » . اننى أتخذ التربية الأولية والوسط الذى عاش فيه المجرم عاملا مهما من عوامل سقوطه الأدبى وكذلك حالته الصحية ، وعلى ذلك فأنا أعتقد اعتقادا لا أتحوّل عنه أن الاجرام مرض ينبغي معالجته لا ذنب يليق بالانسانية الانتقام من المجرم بسببه والبحث فى هذا الموضوع يطول . لا أظننى أكون قاضيا جنائيا لأننى سأطبق فى أغلب الأحيان قانون الرحمة وأضرب بقانون المحاكم عرض الحائط . علموهم قبل أن تعاقبوهم واذا عاقبتموهم فكونوا بهم مشفقين ،

فمنذ أن ارتفع معدل القراءة والكتابة في فرنسا هبط معدل الحرائق ، فهل بعد هذا برهان ؟

الأحد ٢٥ ابريل :

سررت بحوادث الأستانة وباحتلال جنود الثورة لها واني أشدد في خلع السلطان لأن بقاءه مجلبة للضرر ، وانه لنذل جبان حانت يمينه ، فلو أبقوا عليه هذه المرة فانهم يقضون على آمال الشرق والشرقيين في الحرية والدستور .

الثلاثاء ٢٧ ابريل :

اليوم أقيمه بسرور عظيم خبر انتصار حزب تركيا الفتاة أو « لجنة الاتحاد والترقي » وهذا ما كان ينتظر ، لأن فتنة ابريل لم تكن في الواقع الا دسياسة مدبرة من أنصار النظام القديم الذين لا يرون لأنفسهم نجاحا في ظل العدل والحرية والمساواة . واني بقدر ما كنت من أنصار إبقاء عبد الحميد على العرش بعد حركة الصيف الماضي ، أراني الآن من أنصار خلعهم وأرى في عدم خلعهم أعظم خطر يهدد البلاد العثمانية ، ولا أرى أكثر من ذلك وهذه عادة اسلامية جعلت الأمم الاسلامية تكتفي بخلع ملك ظالم ، وهذه عادة حسنة ولكن قد يكون أثر العمل بها سيئا :

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها
ان كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

الخميس ٢٩ ابريل :

قرأت اليوم نبأ سقوط السلطان وفرحت للغاية وعلمت أن ذلك الحادث هو بدء حياة جديدة للبلاد العثمانية ، لأن أنصار العهد

القديس سوف يختفون كلهم باختفاء السلطان الأحمر ، ذلك الشيخ
الذى عطل الحياة الدستورية نحو أربعين عاما وذهب إليها البلاد
الإسلامية ، ولن يكون لخلعه تأثير سيئ لأن الأمم الإسلامية في
الشرق تحققت الآن معنى الدستور ، وهو السلطان المسلم الثاني
الذى تم خلعه بعد السلطان العزيز الذى أسقطه العبد ، ويبقى
ثالث لابد من إسقاطه هو الظالم الفاشم شاه العجم .

أعددت مقالة عن الحالة السياسية في مصر لأنشرها في
جريدة جنيف .

الجمعة ٣٠ إبريل :

فرت اليوم إدارة جريدة جنيف Journal de Genève
وأعطيت رئيس التحرير المقالة التى أعدتها أمس عن حالة مصر
السياسية وعن قانون الصحافة .

السبت أول مايو سنة ١٩٠٩ :

تناولت اليوم كتابا ممتعا تأليف بطرس أو بولس ليروا
بوليو عن الشرق الأقصى وهو خاص بالصين واليابان . وقد
استفدت كثيرا من فصل خاص بشورة اليابان ودستورها وخالتها
الاقتصادية ، وآخر في نهضة الصين البطيئة ، واننى ألخص هذه
الفصول أو أنقلها برمتها لتكون مواد نافعة لكتابى « تاريخ
نهضة أمم الشرق الحديثة » (١) .

(١) لمن هذا الكتاب كان بذرة كتاب لطفى جنتى « حياة الشرق » دولة
وشعوبه وماضييه وحاضره » الذى طبع سنة ١٩٢٢ بمطبعة دار احياء الكتب
العربية لعيسى البابى الحلبي .

شاهد - ١٦١

الأحد ٢ مايو :

خرجت في الصباح فلقيت على الشمسي أفندي من أعضاء لجنة المؤتمر (١) وقال لي إن العطار أفندي سأله أهل تعتقد في نفع المؤتمر ؟ فقال له الشمسي كيف تكون عضوا في اللجنة ونستال هذا السؤال ؟

وعدت الى المنزل واشتغلت بتحرير بعض المراسلات ومنها رسالة الى « شيامدجي كريشنا فارما » بباريس .

قصدت الغرفة الوسطى Salle Centrale مساء هذا اليوم، وخطبت شعبي طعن في الاسلام زعم آخذهن لذلك ونهضت وندبت باللغة الفرنسية نحو ساعة وفندت زعمهم وذكرت أن دين الاسلام دين حب وتسامح وأن النبي دعا أهل الأديان الأخرى للاخاء . وهذه أول مرة أخطب فيها بالفرنسية ارتجالا .

الاثنين ٣ مايو :

هذا اليوم موعد زيارتي لبرتوني زعيم حزب العمال بسويسرا وصاحب جريدة اليقظة Le Reveil التي يحررها ويظفها وينشرها باللغتين الفرنسية والاطالية ، وقد وصفوه بأنه فوضوي ولكنه لا يخشى المجاهرة بأرائه . لقينا برتوني بأكرام وتواضع وروى

(١) كانت لجنة مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف الذي انعمد في سبتمبر سنة ١٩٠٩ مكونة من بعض الشباب الوطنيين وهم محمد فهمي وعلى الشمسي ومحمد لطفي جمعة والدكتور سامي كمال وحامد العاليلي والأمير العطار وحلمي مسلم وعثمان فايد والدكتور سيد مرعي (أوراق محمد فريد ، المجلد الثاني ، المراسلات . الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦ ، ص ١٥٦) .

لنا تاريخ حياته وقال انه لما شب أخذ يفكر فيما حوله حتى رأى الحقيقة في رفع الظلم عن كاهل العمال فأعطى نفسه لهذا الغرض الشريفة ولا يزال يعمل لتحقيق أهدافه ، وقال ان كل الأعمال السياسية الكبرى لا تنجح الا اذا كان وراءها مجموع العمال والحركات والثورات لا تفوز الا اذا عضدها الشعب ، اما ما يبقى في يد صفة القوم Elite فماله الزوال والفشل ، ثم باع لنا مؤلفات البرنس كورتيمكين الروسي وأهدانا عدة رسائل ومجلات اشتراكية .

الجمعة ٧ مايو :

اشتغلت صباحا بالقانون الادارى والمدنى .

وبعد الظهر طالعت فى كتاب « الاستعمار عند الأمم الحديثة »
La Colonisation Chez Les Peuples Modernes
تأليف ليروا بوليو . ان هذا الرجل المسكين يعبد انكلترا والنظمات الانكليزية ويكاد يؤله سياستهم وينصح لفرنسا أن تنسج على منوالهم . ان الكتاب يغيظنى كلما توغلت فى صفحاته ، انه مكتوب للماضى لا للمستقبل ، وسبب ذلك هو أن النظريات الاستعمارية التى يضعها المؤلف كانت نظريات الاستعمار فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأن نظريات الاستعمار فى الوقت الحاضر قد تغيرت جدا . ثم اننى أقول بكل صراحة وسرور ان الاستعمار قد زال من العالم أو كاد يزول وأنه لا يأتى آخر القرن العشرين حتى تكون كل أممه متمتعة بحريتها وحقوقها مهمة شأن هذه بين الأمم ، ولى فى ذلك نظريات يطول شرحها . انظر الى القارات الخمس ، أمريكا ليس فيها الا مستعمرة واحدة وهى كندا ، وأوروبا ، إيرلاندا وبولندا ، آسيا الهند وحدها وهى تحارب لأجل الاستقلال ، أفريقيا مستعمرات انكلترا فيها مستقلة استقلال اداريا . فهل

تنبسى بلاد مستقلة استقلالاً ادارياً مستعمرة في شمال إفريقيا ،
مصر حرة ومحتلة احتلالاً مؤقتاً ، أما تونس والجزائر فهذه
الاسلام ضامنة استقلالهما . ومع ذلك فهذه بقايا النظام الاستعماري
التقديم وسوف تزول .

الأحد ٩ مايو :

كتبت الى أحمد شوقي بك الشاعر أذكره بالجزء الثاني من
كتابه « في بيوت الناس » وأطلب اليه أن يرده الى إذا لم يكن في
طويعه طبعه .

الثلاثاء ١١ مايو :

تسلمت اليوم كتاباً من كريشنا فارما الزعيم الهندي المقيم
بباريس يحادثني فيه عن حركة الشرق وينصح للمصريين بأعداد
أنفسهم للحكم الذاتي بالعلم والعمل ويقول لي : انه ينشر جريدته
الهندي الاجتماعي Indian Sociologist في لندن لئلا
تصادر اذا نشرها في باريس ويدعوني لزيارته اذا مررت بباريس .

السبت ١٥ مايو :

كتبت اليوم مراسلات كثيرة منها واحدة الى الأستاذ ادوارد
براون أطلب منه أن يدلني على كتب عن فارس بالانكليزية
والفرنسية أستعين بها في وضع كتاب « تاريخ نهضة الشرق » .
فقد قرأت له كتاباً صغيراً في تاريخ الدستور الفارسي ينفي فيه
عن الشرق والاسلام تهماً كثيرة عاتقة بأذهان الأوربيين ورأيت
يذكر كتاباً يؤلفه أوفي من هذه الرسالة ، وأسأل الله ألا يفرغ
منه حتى يكون الفرس قد فرغوا من جهادهم المؤلم الذي تصلني

أخباره في كل يوم عن يد غلام رضا خان أحد طلاب العلوم الأدبية
بجنيف . فأين لسائر أمم الشرق رجال مثل ادوارد براون
مسموعي الكلمة في بلادهم ثم هم يقولون الحق ؟

وكتبت للشيخ طنطاوي جوهرى أطلب منه أن يدلني على
آيات قرآنية وأحاديث شريفة وكلم لفلاسفة العرب عن . الحكومة
الدستورية « لما اشتهر به هذا الشيخ الفاضل من الاهتمام
بالتوفيق بين العلم والدين » .

الجمعة ٤ يونيه سنة ١٩٠٩ :

ذكرت للأمير العطار خبر سفرى غدا الى ليون فأسف للفراق .
عند العشاء لقيت محمدا فهمى أفندى رئيس لجنة الشبيبة
الدائمة لأول مرة ، فاحتفى بى وحديثى عن سياحته فى انكلترا .
وسألت فهمى أفندى عن المعدات التى أعددتها اللجنة للمؤتمر
(مؤتمر الشبيبة المصرية الذى يعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة
١٩٠٩) - فلم يحر جوابا . فسألته عن البرنامج فقال انه لم يعد
موضوعا واحدا ، فأخذت أملئ عليه برنامجا وأسماء لموضوعات
تامة عندى أردت تقديمها للمؤتمر (١) ، ورسمت له خطة ذلك
وكان يكتب بسرور ما أملئ عليه . وتكلم عن مقابلاته للخديو مع
الشبان وقال ان الخديو لم يعطه فكرة حسنة كما تكلم عن على
الشمسى وسفره المفاجيء الى مصر وأظهر مخاوف من انقلابه .

(١) تقدم للمؤتمر الكثير من الموضوعات باللغات الفرنسية والانجليزية
والعربية ، وألقى لطفى جمعة فى هذا المؤتمر موضوعا باللغة الفرنسية عن
« نهضة الشرق ومصر » وأخر باللغة العربية « عن نهضة المصريين وواجباتهم »
(انظر كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠
وما بعدها) .

السبت ٥ يونيه :

نهضت صباحا وتركزت غرقتى فى المنزل ثمره ٨ شارع
بونت دارف ٠ وبلغت المحطة وتزودت منها بكتب وصحف وركبت
القطار الى أن بلغت ليون ، واهتديت الى غرفة جميلة جدا ٠٠
فأخذت أرتب أعمالى استعدادا للامتحان ٠

الأحد ٦ يونيه :

خرجت لزيارة الأستاذ لامبير ودعانى الى العشاء بمنزله ،
وقبيل ذهابى الى وليمة لامبير شربت لبنا كثيرا ٠ قالت لى زوجته
اذ رأتنى لا أكل لحما ولا أشرب نبيذا ولا قهوة « أنت ملك !
Vous etes un ange ٠ ان حديث لامبير ينعشنى ويحيى آمالى ٠

الثلاثاء ٨ يونيه :

حضرت درس القانون الدولى على الأستاذ بول بيك والدرس
الثانى - وهو فى القانون الجنائى - أحب الدروس الى قلبى ،
هناك الأستاذ جارو العالم الجنائى ، انه يدرس مثل علماء الأزهر
الشريف ويصق مثلهم من حين لآخر وينهض من كرسيه ويشمر
ويشخط ولا ينقصه الا ولد أعشى يضرب على رأسه عند النقطة
المهمة مثل بعض أساتذة الأزهر ، ولكن درسه واضح جلى ومملوء
بالأمثلة المقربة للذهن ، والجميل فى عمله وتعليمه انه يسير
خطوة بخطوة مع كتابه ، فنحن لا نحتاج الى تدوين مذكرات بل نفتح
كتاباه ونقارن بين قوله ومؤلفه ٠

الخميس ١٠ يونيه :

قابلت الأستاذ لامبير ويدور حديثه معى على نقطة واحدة
وهى أن الإصلاح فى البلاد الاسلامية مثل مصر لابد أن تكون له

ضبيغة شرقية وأن خروجه عن تلك الصبيغة يضربنا ويضرب لى مثل
اليابان التى جعلت المدنية الأوربية يابانية . وعلى نقطة أخرى وهى
أن الانكليز لا يتركوننا نفر من أيديهم بالمسألة أو بالطرق الودية
ولكن يظهرون قوتنا المعنوية والعملية ، والأستاذ لامير لا يتعب من
الحديث بهذا المعنى وأنا لا أتعب من سماعه ولو طال الحديث الى
آخر الدهر .

الجمعة ١١ يونيه :

اليوم يوم الاقتراع لتاريخ الامتحان معنا للمشكوى ، لأن أيام
الامتحان تمتد من ١٤ يوليه الى أواخره ، وقد سحبت قرعتى فكانت
فى يومى ١٩ ، ٢٠ . أمامى الآن شهر وأسبوع يمكن صرفهما بغاية
الاهتمام للوصول الى الغرض المطلوب ، ولا يشغلنى من جهة
الامتحان شئ ولكن الذى يشغلنى حقيقة هو حيرتى المالية ، فان
نقودى قليلة بل دون القليلة .

السبت ١٢ يونيه :

أخبار مصر عنى منقطعة فلا أكتب ولا أكتب ما عدا المقالات
التي أبعث بها الى اللواء ، ولكن فى اللواء أشخاصا يعاكسوننى
فلا ينشرون مقالاتى ، منهم الطرابلسى أمين الرافعى والمصرى
المطبعى اسماعيل حافظ ، وقد كتب لى عبد العزيز جاويز بهذا
المعنى خطابا لطيفا ويقول انه قصير الحيلة ولا يملك شيئا !

الأحد ١٣ يونيه :

نهضت صباحا وحررت خطابات الى مصر ، بدأت بالكتابة
الى جريدة اللواء التى صارت شركة وقد أخلف هؤلاء القوم معى
وعودهم وعهودهم ، فقد وضع لى المرحوم مصطفى كامل قاعدة وهى

أن يكون أجر كل مقالة تنشر جنيهاً وذلك منذ التحققت بمدرسة الحقوق ، ورغب هو ألا ينقطع قلبي عن التحرير باللواء ، وهذه كل علاقتي المالية بهذه الصحيفة من أكتوبر أو نوفمبر السنة الماضية ، ولما مات المرحوم مصطفى كامل لعب مجلس الإدارة بديله في معاملتي فلم أخاطبهم في شيء وبقي لي طرفهم مبلغ ضخم ، ثم بعثوا إلى خطاباً وصلني في العام الماضي في لوزان علمت منه رغبتهم في استمرار المراسلة فراسلتهم ولكنهم منذ ذلك العهد السحيق لم يبعثوا إلى ثمن المقالات التي تربو على الستين ، فضلاً عن أن كتاب « تحرير مصر » (١) الذي أودعته عندهم لم يصلني من ثمنه شيء ولا أعلم نتيجة مخاطبتي إياهم .

الاثنين ١٤ يونيه :

وصل إلى خطاب من طنطا حيث توجد جدتي وخالتي . هذا خطاب لم أفهم معناه ولكنه مملوء بتلميحات غريبة أدركت منها استدعائي ، فلما خطر ببالي هذا الخاطر وظننت إمكان حرمانى من اتمام تعليمى - صممت على الهجرة إلى تونس لأتناول عملاً ما يمكننى معه اقتصاد مبلغ أستطيع الاتمام به ، وهذه فكرة يمكننى تنفيذها إذا تحتمت عودتى إلى مصر .

أمجنون أنا حتى أجعل نفسى أضحوكة أعدائى فلا اكمل عملى الذى قاسيت فى سبيله الشدائد ؟ . اننى أفضل الموت على الهزيمة وأفضله أيضاً على طلب المعونة من أحد .

(١) كتاب ترجمة لطفى جسة عن الانجليزى ونشره المطبعة النيل سنة ١٩٠٦ .

هذا الانسان العجيب أحمد زكى باشا سكرتير الجامعة (١) ،
 كتبت اليه مستنجدا لالتحق بارساليتها التي يعيشون فيها جماعة
 من الجهال اكرا ما لأقاربهم وأصحابهم فلم يجيبنى ، وهم يسعون
 أنهم يساعدون العلم والمتعلمين ، ولكن اظن أن افكارى السياسية
 هى التى تجعلنى شوكة فى حلقهم ، فالحمد لله على ذلك (٢) .

الثلاثاء ١٥ يونيه :

اليوم دفعت رسوم الامتحان مبلغا ضخما وهو الذى كنت
 أحجزه وأصونه لهذا اليوم ، دفعته ذهبا ، جنيهات انجليزية من
 نقود مصر التى أتيت بها ، الأمر الذى أدهشنى أن الأستاذ لاميير
 لقينى مصادفة وأنا أمام السكرتير أستعد لدفع الرسوم ، فأخذنى
 جانبا ولا طفنى ثم قال لى هكذا « يا لطفى اذا كنت فى احتياج الى
 نقود فأنا أدفع لك ما تريد ريثما تصل اليك نقود من مصر »
 فشكرته من أعماق قلبى ثم لم أتمالك نفسى من البكاء من مجموعة
 الحوادث والأحوال المحيطة بى (٣) .

(١) للوقوف على مزيد من المعطيات عن علاقة لطفى جمعه بأحمد زكى باشا
 الملقب بشيخ العروبة ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ،
 المرجع السابق ، ص ٤٤١ - ص ٤٤٨ .

(٢) ظهرت فى سنة ١٩٠٩ حركة فى نظارة المعارف ونظارة الحقائق ترمى
 الى اصلاح نظام التعليم فى مدرسة الحقوق ، وكان من مظاهرها ايفاد وزارة
 المعارف فى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٩ ، لأول بعثة علمية من خريجي مدرسة الحقوق
 للجامعات الفرنسية للتخصص فى العلوم القانونية .

(٣) انظر صفحة ١٢٩ من هذه المذكرات .

الخميس ١٧ يونيه :

اليوم تكلم الأستاذ بيك عن الحماية وسمى العهد الانجليزى فى مصر « حماية مقنعة » ، فقابلته واحتججت عليه فقال لى : اننى أشعر معك بالأسف ولكن هذا لا يمنع الحقائق الثابتة • اذا كنتم تغضبون من حكم الانجليز فما عليكم الا أن تقاوموه الى أن يزول • وقابلت لامبير وحكى له ذلك وأظهرت له غضبى •

وحدث اليوم أيضا حادث من هذا القبيل وبيانه أن الأستاذ جونار مدرس الاقتصاد السياسى تكلم فى درسة عن حكومة مصر فسمها « الحكومة أنجلو اجبسيان » ، فاحتج عليه الطلبة وأوعزت إلى على فوزى بكتابة خطاب احتجاج وإرساله اليه ، وفعلا تحرر الخطاب ومعناه أن حكومة مصر هى مصرية محضة وأن وجود الانجليز مخالف للقوانين ورغبة البلاد وأمضيها جميعا وتقدم الى جونار وفيه بعض العبارات الشديدة ، فامتعض الرجل ولم يبد اعتذارا مقبولا ، وحادثه لامبير فى ذلك فأظهر نطاعة • انه بغض نفوسنا هذا « الجونار » ! • وقد علم الطلبة الفرنسيون بذلك وكانوا فى صفنا •

السبت ١٩ يونيه :

بلغتنى اليوم أخبار سيئة من مصر وهو خبر مصادرة الحكومة لجريدة اللواء لسان الحزب الوطنى ، واننى هتسائم منذ أعادت الحكومة قانون المطبوعات المنحوس الذى احتججنا عليه • ان عهد

سعيد باشا الوزير (١) عهد القوانين الاستثنائية والرجعية وعهد سجن رجال السياسة والفكر ، يقول البعض هذا وأنا أقول ان الانجليز أنفسهم هم الذين يضيّقون الخناق علينا لأن الحرية التي تركها كرومر لم تنفع في التوفيق بيننا وبينهم ، فهم يجربون الاستبداد ، والتخديو عباس متفق معهم ضدنا لأجل مصالحه الذاتية وهو أول عامل على محاربة الوطنية خوفا من الدستور الذي يقيدده . وما سعيد باشا ومصطفى فهمى قبله الا أدوات في يد الانجليز .

الثلاثاء ٢٢ يونيه :

علمت اليوم أن ما أشيع عن غلق جريدة اللواء غير صحيح
خسرت ولكن لابد من حدوث أمر أدى لهذه الاشاعة .

الخميس ٢٤ يونيه :

اننى لما وصلت ليون وجدت بها مصريين اثنين فقط ، الأول عزيز ميرهم والثانى محمد صالح . وعلمت بعد ذلك بوجود اثنين آخرين وهما ناجى المحب للتصوير وأحمد طاهر . ولكن منذ

(١) كان محمد سعيد باشا مستشارا في محكمة الاستئناف سنة ١٩٠٥ ثم اختير وزيرا للداخلية سنة ١٩٠٨ في وزارة بطرس باشا غالى فأعاد احياء قوانين القمع وعلى رأسها قانون المطبوعات الذى كان قد أبطل استخدامه وهو القانون الذى يقيد حرية الصحافة ، وقد أثارت اعادة العمل بهذا القانون سخط الشعب والامركات الوطنية ، فقامت المظاهرات احتجاجا على تقييد حرية الرأي والكلمة في ٢١ ، ٣١ مارس وأول أبريل سنة ١٩٠٩ ، ونشر الشيخ عبد العزيز جويش مقالة باللواء عن ذكرى دنشواي في ٢٨ يونية سنة ١٩٠٩ عدتها الثيابة العامة طعنا في حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التي حاكمت المتهمين في الحادث وفي حق أحمد فتحى زغلول أحد اعضائها وأقامت عليه الدعوى الجنائية حيث قضى عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

حضرت وكتبته في اللواء عن المدينة وأهلها وعيشتها تواتروا
وتنابحوا وقسم بعضهم أنفسهم فرقا ، فتوجه عصابة الفتوات ٠٠٠
وفريق لاعبي الطاولة ٠٠٠ وفريق الحشاشين ٠٠٠ وفريق القيافة
والعياقة ٠٠٠ وفريق الفقهاء ٠٠٠ وفريق النصابين ، وإني أعادي
كل هذه الفرق لأنني لا ألتزم مع واحد منها ولا أتفق معها رأيا
ولا مذهبا ، على أنني أعطف عليهم جميعا وأتمنى لهم النجاح لأنني
مستول شبه مسئولية معنوية عن وجودهم .

الأحد ٢٧ يونيه :

نهضت في الصباح تلبية لدعوة الموسيو لامبير وأخوانه
للإحتفال بمدينة شاربونير بالنظام المدني للتعليم Mission Laique
فلبست أفر ملابسي وقابلت الأستاذ على رصيف محطة سان بول
وهو لا يركب الا في الدرجة الثالثة لأجل المبدأ ، فلما بلغنا
شاربونير نزلنا فقابلنا عدد كبير من المصريين المقيمين بها أهمهم
في نظري على فوزي وعبد الحليم البيلى ، وهناك أيضا قابلنا أعضاء
المجلس البلدى والموسيقى ، فتكون موكب يتقدمه تلاميذ المدرسة
ثم الأعيان ثم نحن ، وكنت أسير بجوار الأستاذ لامبير ، فلما شعر
بالخطوة العسكرية قال لبورت بجواره : هذا يذكرنا بالخدمة
العسكرية .

وأخيرا وصلنا الكازينو وهناك صعدنا الى المسرح وخطب
لامبير في فضل المدارس الحرة وفضل انتشارها على الأمة وأن
خلاص التعليم من قيود الدين وفتح المدارس لجميع الطبقات يعود
منه خير على البلاد عميم ، فأعزت اذ ذاك لعبد الحليم البيلى أن
يحمل وردا ويقدمه للأستاذ بعد القاء خطبته ففعل .

السلاطء ٢٩ يونيه :

الأممخاآن هو شغلى الشاغل ببنون ريب ولا يمكنى أن أغفل
عن الاستعداد له اللحظة ، لأجل هذا شرعت فى تلخيص المطولات فى
دفاتر صغيرة ولم أجد صعوبة الا فى تدبير ثمن الدفاتر الصغيرة
فإن دراهمى أقل من أن تعد !

ان مصر فى ذهنى الآن كأنها بلاد أحلام سعيدة ومزعجة
تربطنى بها روابط ضعيفة من ناحية أهلى وقوية من ناحية خيى
للوطن الذى يخفق له قلبى .

الأربعاء ٣٠ يونيه :

لما كنت فى جنيف منذ شهرين كنت أتردد يوميا على مكتبها
الجامعة وكان همى منصرفا الى مطالعة كل ما كتب عن الشرق عامة
ومصر خاصة ، وهناك نشأت عندى فكرة وضع كتاب « تحرير أمم
الشرق » أو « نهضة الشرق » بمناسبة ما نراه من نهوض اليابان
خالفرس فتركيا فيقظة الهند ومصر ، وقد جمعت ما استطعت من
المعلومات لأسبكه فى قالب كتاب مفيد .

الخميس أول يوليه سنة ١٩٠٩ :

وصلنى أخيرا كتاب من حضرة فريد بك يقول فيه ان شركة
اللواء مقصرة جدا فى حقوقى ووعد بارسال المتبقى فى ذمتهم .

السبت ٣ يوليه :

طالعت فى جريدة الديلى ميل خبر مقتل أحد أصدقاء الموظفين
«الانكليز فى الهند واسمه السيد كيرزون ويلى فى احتفال رسمى

بيد طالب هندي اسمه دنجرا وقد جاءت الجريدة بتبيان شافه لهذا العمل السياسي ، وذكرت أن القتل سياسي محض وأنه لم يكن هناك أى عدااء شخصي بين الطالب والقتيل . وقد رمت هذه الجريدة إلى الانتقام من الصحافي الهندي الحر شيامدجي كريشنا فارما المقيم بباريس وصاحب جريدة الهندي الاجتماعي ونسبت إليه تحريض الشبان على القتل بنشره مقالات عديدة قال فيها : ان القتل السياسي ليس قتلا بالمعنى العادي ، ثم قالت : ان أصل هذه الشرور هو البيت المسمى « انديا هاوس » الذي يقيم فيه الطلاب الهنود بلندن ويتفق عليه كريشنا فارما ، وأن هذا المنزل هو مركز ثورة في البلاد الانكليزية وطلبت من الحكومة الانكليزية مصادرته .

الاثنين ٥ يوليه :

أفتتح هذا اليوم بما يسمى « سخرية الأقدار » Comédie de La destinée . فقد وصل إلى البريد وفيه خطاب كبير من أمريكا داخله شهادة باسمي تدل على أن مجمع الأكاديميين Academy of the Immortals قد انتخبني عضوا لمدة تسع وتسعين سنة بعد أن ثبت لهم أنني استحققت الخلود ... الخ الخ . فدهشت جدا من هذه الشهادة لأنني لم أفعل شيئا يدعو إليها . وضحكت من المقارنة بين استحقاقى للخلود في نظر جماعة من الأمريكان وعدم قدرتي على الحياة المادية في نظر الحقيقة !

الثلاثاء ٧ يولييه :

حضر الى هنا ابراهيم دسوقي اباطة وهو فرع من تلك الشجرة الاباطية الكريمة (١) ، وتحدثنا في شئون مصر لانه من أشياخ وأنصار أحمد لطفى السيد رئيس حزب الأمة ، فتكلم عن مجلس الشورى ووظيفته في مصر .

الخميس ٨ يولييه :

وصل الى خطاب من احد الأصدقاء المصريين يخبرني أن علاقة بجريدة اللواء وأنه ذهب مصادفة الى البوسطة فوجد خطابا من خطاباتي لم يسلم لأن عليه ضريبة بريدية قدرها مليمان ، فامتنعت ادارة اللواء تحت اشراف الشيخ عبد العزيز جاويش واسماعيل حافظ وايحاء امين الرافعي وأخيه عن استلامه ودفع الضريبة ، فاستلمه صديقي بعد دفع المليمين فوجد به احدي مقالتي ، ثم سأل عما اذا كان يوجد غيره فعلم أن هناك أكثر من ثلاثين خطابا على هذه الصورة ، فدفع عنها ستة قروش صاغ وهي عبارة عن ثلاثين مقالة لي حررتها في شتاء وربيع هذه السنة ولم

(١) تحدث لطفى جمعة في كتابه « قطرة من مداد لاعلام المتعاصرين والانداد ، نراجم مصرية واجنبية » عن عرفهم من الاسرة الاباطية ومنهم ساكر اباطة واسماعيل باشا اباطة وابراهيم دسوقي اباطة وفكرى اباطة وقال عنهم « كلهم اصدقاء اوفياء ولكل منهم معنى مكرمة ، والاسرة الاباطية من خير الاسر في مصر وفيها رجولة ووفاء ووطنية وعلم وأدب ، ولا أدري ان كانوا من اصل تركي أو فوازى أو عربى ولهم الى غرب أسبا أقرب ، ويعجبني فيهم تضامنهم ونظافة أيديهم وطباسة ذمهم ووفائهم لأصدقائهم ولبلادهم في غير تعصب ولا حرج ولا ضيق عطن ، وهم وان كانوا جميعا فضلاء ، الا أن كل فرد منهم قد استقل بفضيلة أو خلة جميلة ، تميزه عن سواء » .

تُنشر وكنيت اظن أنها مزقت أو القيت في سلة المهملات بفضل
صداقه أحيابى وأقرانى فى الجهاد الوطنى وبفضل سلامة نية
الرئيس فريد بك ، فاذا بهم سلكوا طريقا آخر هو قتل تلك
المقالات وهى فى المهد لتتحرق بواسطة البوسطة بحجة عدم دفع
مليين !

فيا سماء ويا أرض اشهدى ! ثلاثون مقالة تعبت فيها ودونتها
فى نحو خمسة شهور يهلكها زملائى فى العدل وهم يعلمون كم
تكلفنى كتابتها ، كل هذا فى سبيل الوطن .

السبت ١٠ يوليه :

خطر لى هذا الخاطر صباح اليوم وهو وضع رسالة بالعربية
للمصريين لتوضيح حقوقهم بعنوان « حقوق المصرى وواجباته »
أعتمد فيها على اعلان حقوق الانسان الذى وضعه رجال الثورة
الفرنسية وذلك بمناسبة مطالعتى للقانون الذى نشر حقوق
الانسان فى فرنسا أيام الثورة .

ولكننى لما تأملت فى الحقوق المذكورة وجدت أنها مواد
أملتها روح برجوازية فيها مبادئ الاشتراكية وحرية الفكر ما يبرر
إذا عنتها فى مصر .

حقيقة أننا فى مصر مهضومو الجانب مغلوبون على أمرنا
وخصوصا الفلاح ، وحيث أن مستقبل العالم يسير فى طريق
الاشتراكية الكاملة وهو ما يسمى هنا : Socialism in Legal
فانا أفكر أن الأصلح عدم افساد هذا المثل الأعلى بتقديس المبادئ
البرجوازية ، بل نترك الباب مفتوحا للمبادئ الاشتراكية ، ومركز

فرنسا في سنة ١٧٩٠ غير مركز مصر في سنة ١٩٠٩ لأننا
لا نعرف ما يخبئه القدر لوطننا السعيد الشقي بأهله وغاصبيه !
وعلى كل حال فأننى لا أستطيع أن أعطي هذه المسألة كل انتباهي
قبل الامتحان .

الاثنين ١٢ يوليه :

اليوم انتهت الدراسة بالجامعة انتظارا لامتحان .

الثلاثاء ١٣ يوليه :

خرجت بعد الظهر الى الطرق فوجدت الاستعدادات قد تمت
للاحتفال غدا بعيد ١٤ يوليو الشهير ، اننى لم أشهده في فرنسا
الا هذه السنة لأننى في العام الماضى سافرت في أول يوليو الى
سويسرا . لا يمكننى وصف هذا اليوم لشدة الزحام وكثرة
الزيارات وأغريها ما وضع أمام منزلى في ميدان امير الرياضى
الشهير ، فقد شبعت آداب الخلف الصالح أن يخفق تمثال هذا
الرياضى بحبال من الزينة ليجعلوا لهم ساحة للرقص بحيث تمند
من رقبة التمثال حبال بها رايات وفوانيس يابانية . يظهر أن
الحفلات الوطنية تفقد معناها بمضى الزمن ، فان الذى أراه الآن
هو تهتك في المسرات وقد أعدوا أماكن للشرب والرقص في كل
حي لحياء ذكرى هدم الباستيل وأعدوا على شاطئ الرون تجاه
الجامعة ألعابا نارية وكل الأحباب تواعدوا للقاء ولتحيا الجمهورية !

الأربعاء ١٤ يوليه :

خرجت عند الغروب لأجوس خلال الطرق فاذا الزحام يذكرنى
بمولد أحمد البدوى مع الفارق : رأيت مناظر فجور تقشعر

منها الأبدان، اما الرقص والعريضة والسكر والقتل بين « الأباش »
وبعضهم فحدث ولا حرج !

وعند المساء حصل الطواف بالمشاعل وهى زفة عسكر
بالموسيقى مثل خروج المحمل ، وهذا شئ عظيم عند الفرنسيين .

وبعد مرور هذا الاحتفال أمامى بالمنزل نزلت لمشاهدة الألعاب
النارية على شاطئ النهر ، فوجدت ليون كلها نذحت ووجدت
الظلام مساعدا على الغرام بين العشاق فضجرت واشمازت نفسى ،
ان الحكومة تضحك على عقول هؤلاء الدهماء بالألعاب النارية
ولتحيا الجمهورية راقصة مغنية !!

الأربعاء ٢١ يولييه :

تتوقف على هذا اليوم آمال كثيرة .

حدث امتحانى فى قاعة « الكتبخانة » وتقدمت بقدم ثابتة
وقلب خافق أمام الأستاذ فلورير فقال لى : اجلس يا سيدى ،
تكلم عن الرهن وأنواعه . فتكلمت ، فقال حسن . ثم ألقى على
أسئلة دقيقة لم تحز اجابتي عليها كل رضائه ، فقال لى : هذا
يكفينى شكرا يا سيدى ! ثم تقدمت الى الأستاذ اميو
فألقي الى أسئلة فى البيع والتعهدات فأجبتة اجابة حسنة .

ثم تقدمت الى الأستاذ ليمير وهو رجل رحب الصدر والبطن
والفكر أيضا ، فامتحننى فى القانون الدولى العام فسألنى عن
مراكز المستعمرات والحمايات وقال لى ان مصر محمية مقنعة
وسيرفعون قريبا هذا الحجاب عنها اذا سنحت الفرصة ، ثم سألنى
عن التحكيم الدولى فأجبتة وشكرنى .

اعلنت نتيجة الامتحان فكانت بين من هنتهم اللجنة . وفرح
بى لامبير .

الخميس ٢٢ يولييه :

الأستاذ برويه ممن يتولوننى بعطف ومراقبة جدية منذ
وضعت قدمى فى هذه الجامعة ، وقد ظهر هذا النهار اذ ألقى على
أسئلة فى غاية الصعوبة من الوجهة العلمية وهى مسائل اقتصادية
فرنسوية محلية محضة ، ولحسن الحظ ذكرتها لحضوري الدروس
التي ألقى فيها مذكراته ولولا ذلك لعجزت .

وفى الجنائي كان حظى سيثا لأن جازو كان عنده عسر هضم
فأخذ يشخط وينظر ويقول لى « تكلم لى على المسئولية المخففة وأشرح
لى جميع النظريات الحديثة » ، وبالرغم من اتقانى علم هذا الأستاذ
فقد وجدت صعوبة فى إرضائه كل الرضا . أما الأستاذ ابلتون
الصغير فقد سألنى أسئلة تقليدية فأجبته اجابات جيدة .

النتيجة نجاحى فى جميع المواد ، وقد هنتى الأساتذة
ولامبير وخرجت فرحا جدا بنتيجة الامتحان .

الثلاثاء ٢٧ يولييه :

اعداد الخطبة الفرنسوية للمؤتمر (١) (مؤتمر الشبيبة
المصرية الذى انعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ وشارك فيه
الحزب الوطنى برئاسة محمد فريد) .

(١) كان موضوع خطبة لطفى جمعة فى هذا المؤتمر « نهضة الشرق ومصر » .
(كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠) .

الخميس ٥ أغسطس سنة ١٩٠٩ :

سافرت صباحا الى ايكس ليبيان واخترت فندقا بسيطا .

الجمعة ٦ أغسطس :

سافرت من ايكس صباحا أقصد قرية جراند بورنان في هوت سافوا ، ونزلت هناك في بنسيون اسمه « جراند هوتيل دى لافيكتوار » ، انه بنسيون غاية في الرخص ونقودى قليلة جدا وأنا انتظر الفرج من مصر .

الاثنين ٩ أغسطس :

حدث اليوم حادث غير منتظر وهو أنني اذ كنت في أشد حالات الضيق المادى ولا أملك نفقة الفندق ، صبح عزمى على مفاتحة صاحبة الفندق في حقيقة أمرى لتمهلنى أو تطلقنى بعد أن أكتب على نفسى سنداً ، فشرعت أنفق الصلادى القليلة الباقية معى فى حلاقة لحيتنى لأظهر أمامها بمظهر حسن فيكون طلبى أكثر قبولا .

وفعلا كلفت الخادم بدعوة حلاق فعاد الى بعد قليل « بشحط » طويل يلبس قبعة مثل صائدى الاسفنج بالاسكندرية وله شوارب كثة مخيفة وفى يده قفّة صغيرة ، فأخرج منها موسى كأنه نصف ساطور وصابونة جافة . فقلت له : هل أنت حلاق ؟ قال : لا انما أنا فران . قلت ولماذا حضرت اذن ؟ قال : لأننى أشغل فرانا شتاء وحلاقا صيفا وليس غيرى بالقرية !!

فاستسلمت له ، واننا لكذلك واذا الباب يدق ودخل على ساعى البريد يحمل الى حوالة بأربعة آلاف فرنك ، فدفعها الى

بعضها ورقا وبعضها ذهبيا ووضعها على المنضدة أمامي وأمام الحلاق
الفران ، ثم حوالة بألف فرنك تم نقودا أخرى بشيك على بنك
كريدي ليونيه ، فدهشت من هذا الفرج بعد الشدة ، ورأيت
الحلاق الفران - وشغلته الحديد والنار - يرمقني ويرمق الذهب
وينظر الى النافذة وكانت واطئة جدا ، فخطر ببالي أنه يفكر في
ذبحي وخطف المال والفرار ، فنهضت وقلت له : أنا عدلت عن
الحلاقة ، وكان قد حلق نصف ذقني ، فدهش جدا ، وأعطيت له
خمسة فرنكات فكاد يجن من الفرح وأخذ ينظر الى حتى غادرني .

الثلاثاء ١٠ أغسطس :

شرعت في كتابة خطبتي التي أزمع القاءها في مؤتمر جنيف
الوطني المصري الذي سيعقد في سبتمبر القادم .

بدأت أتكلم في السياسة مع الأستاذ بيك فاذا هو رجل
مستعمر واذا امرأته على أعظم نصيب من الجهل بكل شيء ولكنها
تعرف أين الجزائر لأنها وزوجها اشتريا أو ورثا قطعة أرض هناك
وينويان الانسحاب اليها بعد انتهاء مدة الخدمة ، فلما كلمتهما في
حرية الجزائر ووجوب استقلالها نظرت المرأة الى شزرا وقالت لي :
هذا مستحيل لأننا سننقض شيخوختنا هناك . فقلت لها : هل
يا سيدتي لأجل شيخوختك تذلل أمة بأسرها ؟ فقال لي بيك :
اعمل معروفا أترك لنا جزائرا وتكلم عن مصرك .

وهذه هي عين العبارة التي سمعتها من الأستاذ لامبير
لما نشرت في العام الماضي مقالة عن الجزائر وتونس في اللواء .

ان الموسيو بيك لا يوافق مطلقا على أفكارى السياسية وقال
لي : لا أستطيع كيف تتصور مثل تلك النظريات . والعجيب أن

هذه النظريات هي التي قضى عامه في تعليمي اياها في القانون
الدولي العام ، فانظر بعد المسافة بين العلم والعمل !

الجمعة ١٣ أغسطس :

مللت الإقامة هنا من كل وجه وتولاني ضجر لا مثيل له
وعزمت على الرحيل غدا لضعفى وتعبي من الإقامة في الجبل .

السبت ١٤ أغسطس :

ركبت صباحا المركبة الحافلة وقصدنا طون Thones
التي جئت عن طريقها ، وهناك ركبت قطارا الى مدينة آنسى
Annecy فوصلتها في الغروب . ان لبعض المدن روحا مطمئنة ومن
هذه المدن آنسى ، فأننى اطمأننت لها بمجرد رؤيتها وضمنت أن
أقضى بها يوما وأنا بلا ريب قادم على أعمال متعبة في جنيف .

الاثنين ١٦ أغسطس :

سافرت صباحا من آنسى قاصدا جنيف فبلغتها ظهرا ، وإذا
المدينة مزدانة من أقصاها الى أقصاها بالرايات والأعلام والمصابيح
والاعلانات احتفالا بمؤتمر الموسيقى الدولي .

الثلاثاء ١٧ أغسطس :

اجتمعت هذا الصباح بأعضاء اللجنة (لجنة المؤتمر) ولم
أجد اهتماما من أحد ، فقط رأيت محمد فهمي يعاق أهمية على
المؤتمر بصفته موسما في جنيف ليس الا ، ولكن اعتمادى أنا على
الشعبية الحاضرة من أطراف البلاد ، وأبدت اللجنة مزيد اهتمامى
واستعدادى للخدمة بكل قوتي لأنه لا غاية لى الا خدمة وطنى بأى
شكل كان .

الأربعاء ١٨ أغسطس :

انقطعت لتحرير خطبتي وموضوعها « نهضة الأمم الشرقية »
وهي باللغة الفرنسية .

الخميس ١٩ أغسطس - ٢٣ أغسطس :

حضور حامد العلايلي ومحاضرة اللجنة معنا لدعوة المدعوين
الانكليز (١) والفرنسيين لحضور المؤتمر وذهابنا الى هارديال
والتعرف به واعداد برنامج السفر الى باريس ولندن .

الثلثاء ٢٤ أغسطس :

ركبنا قطار اكسبريس من جنيف الى باريس وودعنا على
المحطة على الشمسي ومحمد فهمي وبعض الاخوان المصريين وأقرضني
الشمسي ثياب السهرة لأستعملها في بلاد الانجليز .

غاييتي هي أنني أتمكن باكراً من زيارة أمهات الصحف في
باريس ونشر اعلان فيها عن المؤتمر .

نسيت أن أذكر أن هارديال الذي تعرفت به أمس حضر الى
المحطة وودعنا وأعطانا جملة خطابات تعارف ومن ضمنها خطاب
لدام كاما بباريس وشدد علينا في مقابلتها .

(١) اشترك في المؤتمر من احرار الانجليز المستر كيرهاردي والمستر باريز
والمستر كتل والمستر هازلتون من أعضاء مجلس العموم (عبد الرحمن الرافعي
كتاب محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ١٣٠) .

الأربعاء ٢٥ أغسطس :

وصلنا باريس السادسة صباحاً وبدأنا بزيارة الجرائد المهمة فزرت جريدة « الطان » وقابلت رئيس تحرير الشئون الخارجية وذكرت له مهمتنا واسم مدام جوليت آدم لأؤثر عليه فكان جوابه أن مدام آدم لم تعد لها أهمية الآن في فرنسا لا في عالم السياسة ولا في عالم الأدب وأن ذكر لجنتنا أهم وأدعى للعطف ، ووعد بنشر اعلاننا . ثم زرنا جريدة « الديبا » وقابلنا المحرر وطلبنا منه نشر النبذة المطلوبة . ثم زرنا « الجورنال » و « الماتان » و « الاكلير » وقابلنا من يحل محل ارنست جوديه ووجدنا بغرفته صورة مكبرة لمصطفى كامل ففرحت كثيراً .

وبحثنا طويلاً عن عنوان مدام كما فلم نهتد اليه للأسف .

عدنا عند المساء للمحطة لتركب منها الى ديب ومنها الى « نيوهافن » :

الخميس ٢٦ أغسطس :

ركبنا القطار من نيوهافن الى لندن ولا يوجد منظر أجمل في الطريق مما رأينا ، وأظننا كنا نقطع مقاطعة كنت Kent الشهيرة بخصبها .

وصلنا لندن الساعة السادسة صباحاً وعكفت على تحرير منشور للأمة الانجليزية ، وفي الساعة الخامسة قابلنا رونسستين في موعد سبق أن ضربته له بتلغراف من باريس وأطلعتني على المنشور فوافق عليه ونقح بعض الفاظه من الوجهة اللغوية وكلفته بطبع ألف نسخة لارسالها لأكابر النواب والكتاب في إنجلترا .

وتوجهنا مساء للبرلمان وقابلنا كيتل فأحسن لقاءنا وأعطانا موعدا لمقابلته باكر .

الجمعة ٢٧ أغسطس :

حضر اليانا بعض المصريين مثل توفيق دياب والشميشيني ولم يظهر أحدهما أى اهتمام بعملنا .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ذهبنا كموعدا الى مجلس العموم وكان توم كيتل العضو الايرلندى فى انتظارنا ، فأحسن وفادتنا وعرفنا بجملة أعضاء من الايرلنديين وهم « ريد موند » و « ديلون » و « هازلتون » ، وقد شجعنا ديلون بالفاظ قوية وقال انه يعرف مصر ويعرف مصطفى كامل ويدعو لنا بالنجاح ، وقال **ريد موند ان الانجليز لا يخرجون باللطف ولا بمقالات الجرائد** ودعا لنا بالنجاح وهو الآن زعيم الايرلنديين فى البرلمان .

وقدما كيتل الى بعض أعضاء حزب الأحرار وتحدثنا معهم وقد تكلمنا طويلا عن المؤتمر والأعضاء الذين سندعومهم ، وطبعا ليس أمامنا الا الحزب الايرلندى وحزب العمال ولا أظن أن أى حزب آخر يعيرنا أعضاءه أو يمد لنا يد المساعدة ، وقال لنا كيتل انه مسافر غدا ليتزوج فى وطنه وأنه سيحضر اليانا فى جنيف مع عروسه .

السبت ٢٨ أغسطس :

فى هذا الصباح ذهبنا لمقابلة بعض محررى الجرائد مثل جريدة « وستمنستر جازيت » وجريدة « جلوب » وجريدة « ديلي نيوز » فقابلنا مقابلة حسنة .

وفي العصر ذهبتا للبرلمان الانجليزي وفابلنا كيرهاردي لأول مرة ودعوتيه للمؤتمر واستعملت كل ما آتاني الله من نعمة الفصاحة والتأثير لأقنعه بإجابة دعوتنا فاعتذر بأنه سبق وأعطى مواعيد ولا يستطيع اجابة دعوتنا ، فتكلمته بشدة وقلت له : أنت كنت تبكى لأجل الشعب الجائع منذ عام واحد والآن شعب مظلوم يستغيث بك ولا تساعده لأنه شعب شرقي ، اذن اشتراكيتك قومية لا انسانية . فبهت وتركنا .

الأحد ٣٠ أغسطس :

تعودت أن أذهب الى البرلمان كل يوم وأجد لذة في ذلك ، متى يكون لنا برلمان ؟ يجب أن تكون الأمم مستقلة وقوية حتى يشعر أعضاء البرلمان فيها بالقوة والمهنة .

في الساعة الثانية بعد الظهر حدثت حادث عجيب لي فقد رأيت مكدونالد (سكرتير حزب العمال) ببدلة زرقاء وربطة عنق حمراء (رمز الاشتراكية) جالسا يكتب خطابا ، فجلست أمامه وكتبت خطابي اليه أستعطفه وأطلب انتداب بعض أعضاء الحزب للسفر معنا الى جنيف وكتبت العنوان على الطرف فلمحه وقال : سيدي لا أستطيع منع نفسي عن قراءة اسمي . فقلت له : هل لي شرف التحدث الى مستر ماكدونالد ؟ فقال نعم سيدي أنا هو نفسه . فأعطيته الخطاب وقراه فورا ، ثم قال لي : اننا سنعقد جمعية اليوم مساء وستكون هذه المسألة في مقدمة المسائل التي نبحثها وودعني خيرا وودعني .

وعدت الى هازلتون ورويت له كل ما جرى فهأنني على هذا النجاح وقال لي انه أقوى رجل في الادارة الحزبية ، كما أن هاردي أقوى رجل في النفوذ .

وعرفنا هازلتنون ببعض أعضاء الأحرار والعمل ومنهم
سنودون ، وتعرفنا أيضا بفيكتور جريسون العضو الاشتراكي
المتطرف وله تاريخ غريب اهتم به ستيد وألف عنه رسالة صغيرة .

الثلاثاء ٣١ أغسطس :

فضينا في الصباح وقتا في ارسال الدعوة الى مختلف الجهات
معتمدين على Year Book وقد خذلنا بعض المصريين أمثال مجاهد
توفيق موسى دياب الذى يقيم فى البنسيون ولا يظهر أى اهتمام
بعملنا .

وصل اليانا فى الساعة العاشرة تلفراف من المستر بلنت
يسعونى فيه أنا والعلالي الى العشاء وقضاء ليلة فى قصره العتيق
المسمى واسمه « مقر المباني الجديدة » New Building Place
بجوار هورشام بسسكس بجنوب انجلترا الشرقى .

سافرنا على عجل من كلايهام جنكسن وكنت فى غاية التعب
والاعياء ، وفى محطة هورشام كانت تنتظرنا مركبة تجرها جناد
الخيول العربية لمسافة ساعة تقريبا فى وسط الحقول والأحراش
النضرة ، ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم وأبلغنا تحية
السيد واعتذر لنا أنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا .
فصعدنا الى غرفنا ، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب « السموكنج » .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار
الرحبة رجل مدينه القامة نحيف ذو لحية كشة يلبس الثياب العربية
من عباءة وكوفية وعقال وقفطان وبيده عصا طويلة كالعكاز ولكنها
الى رقة العود اقرب منها الى ضخامة الهراوة ، فجيانا باللغة العربية

بصوت جميل رقيق كأنه صوت فتى في مقتبل العمر وقال لنا انه
يفضل أن يلبس الثياب العربية في منزله .

ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء على ضوء الشموع ،
وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديته ووافر أدبه وحلو حديثه
وأيقنت باختلاصه عند وقوع نظري عليه ، وكان يتكلم أثناء الطعام عن
مشاهير من عرفهم من المصريين كلاماً وجيزاً يدل على شدة حبه لمصر
وأهلها .

وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس وهي قاعة فسيحة جدا
وعالية جدا وقد زينت بأثاث قديم يدل على عراقة أصحاب العصر في
النبل والثروة ، ولها مدفأة من المرمر الملون ضخمة جدا نقلوا اليها
شجيرات بأسرها للاحراق ، فكان منظر تلك الشجيرات وهي تحترق
وذلك الشيخ الجليل العربي الشوب والمنطق وهو يتكلم في
ضوء تلك النار وذكرياته القديمة الواضحة الجليظة بصدقها ودقتها ،
يجعلنا نتخيل أننا في إحدى خيام أمراء العرب الكرام الذين مثلوا
في تاريخ الانسانية دورا عظيما وقد عادوا الى بيوتهم ليقتضوا الأيام
الأخيرة من حياتهم بعد طول الجهاد في هدوء وسلام ويروون على
خلصائهم ما يذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة .

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة الى
الساعة الاولى صباحا ولا أذكر أنني قضيت أمتع منها ولا أنفع
ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقي الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم
الذي كان قطعة حية من حياة مصر العزيزة وصدقته في روايته
وتحمسه مع شيخوخته لكل ما فيه نفع لمصر - من أكبر العوامل
على جعل ذلك المجلس من الذ المجالس وأمتعها وأنفعها .

كان الحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها ، أسئلة منا وأسئلة منه ، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبه فى مسائل تحريره وتهمة .

سألناه عن رأيه فى عرابى فقال لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل وآخر اتصال به كان بشأن مراجعته ترجمته التى كتبها بيده ونقدمها الى كتاب « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى فى مصر » ، وقد ارسل الى بعد ذلك برسائل لم أتمكن من الرد عليها ، لقد كان عرابى صادقا ومخلصا فى وطنيته حقا ، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل ، وكان ذا استعداد خطاطى عظيم ولكنه كان ضعيفا فى السياسة والحرب ، ويظهر أن تعليمه الدينى دخلا فى تكوين حالته هذه ، لقد كنا نود جميعا أن يموت فى ساحة الوغى لأن فرائده وطاعته لخدمته قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معا ، ولم يكن عرابى مطلقا خائنا ولا مرتشيا ولا بائعا وطنه ، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوروبا .

وسألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟ أجاب : لايجوز لهم أن يحرقوه أو يفتنوه ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالا بل يكفى أن يقفوا على تاريخه ويعذروه ، ومعاملته بالاحترام والتسامح أولى وأجدر .

سألناه : هل كان دخول الانجليز مبنيا على غلطة من عرابى أم أنه كان أمرا محتملا من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث ؟

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية اقتصره عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل معركة التل الكبير بأيام وهو الذى حضره أركان حربه وعبد الله

النديم وجان نينيه المؤرخ السويسري المحب للمصريين ، فقد اجمع رأى هذا المجلس على تعطيل مساء السويس تعطيل ما ديا يمنع الجيش الانجليزى من الوصول الى الشاطئ الغربى لها ، فارسل عرابى تلغرافا الى ديليسبس يخبره فيه بأن الانجليز يخرقون حياد القناة وأنه مضطر لتعطيلها مادامت دخلت فى ميدان الحرب ، فرد عليه فردنان ديليسبس بتلغرافه الشهير « لا تمس قناتى (١٩) بسوء وأنا الكفيل لك بانزال عسكريين فرنسيين مع كل عسكري انجليزى ! » فتمسك عرابى بهذا التلغراف ، وقال له أعضاء المجلس ديليسبس هذا مجنون وكاذب وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطان فرنسيان فضلا عن الجنود وأنه لا نفوذ له فى بلده وان أعمال الهندسة شئ والحرب والسياسة شئ آخر ، فلم يعمل عرابى بصحهم وقال أنا خائف من أوروبا . وفى الليلة التالية دخل الجيش بالسياسة بعض الضباط وبعض الباشاوات المصريين (وهنا ذكر لى واحدا واحدا) .

سألتنا عن المرحوم مصطفى . أمل لنقف على رأيه فيه لاننا كنا نعلم ما بينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فأثنى عليه ثناء كبيرا وشكرا من نراسى فريد بك وقال : فقد كان مصطفى كامل هذا الشاب عجبيا وكانت له حدة ذكاء ونشاط لم أر مثلهما عند كبار الأوروبيين ، فقد كان عندي هنا فى سنة ١٩٠٦ (عام دنشواى) وكانت صحته ضعيفة ولكنّه بعد الغداء استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوبا لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها ، وقد أسفت كثيرا لموته قبل الأوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير .

وتكلم عن علاقته بالخدو فقال : انه لا يحبّه وان علاقته به قد انقطعت منذ بضع سنين ، وقد حاول سموه تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف .

وتكلم عن فريد بك فقال انني معجب به بوصف كونه رجلا مهذبا من أسرة شريفة (جنتلمان) ولكنه سييء الحظ لأنه خلف زعيما عظيما بنفسه ولم يكن لديه مواهبه ، ان فريد بك رجل طيب فحسب وهو صادق أيضا •

وسألناه عن رايه في بلاد العرب فقال انه ينتظر للجزيرة العربية مستقبلا عظيما ولا بد أن يتحد العرب لتأسيس دوله حرة مستقلة ، وقال ان أخلاق العرب أعظم أخلاق في العالم ولهذا فهو لا يخشى عليها صياعا ولا استعمارا •

وباحثنا في انشاء جمعية سرية على غرار جمعية الاتحاد والترقي التركية ، فقال لنا انني أعتقد أنه من العيث وضياح الوقت تحويل أو محاولة تحويل انجلترا الى فكرة الجلاء عن مصر ، فان عقول الانكليز غير مستعدة للاقنناع بذلك ، ولكن يمكن أن يتحولوا عن فكرتهم فيما لو أحسوا وتأكدوا من أن قبضتهم على مصر سوف تثير لهم الأخطار والمتاعب •

تم سألنا عن بنيامين موزلى وظهر لنا أنه لغاية الآن لم يكن يعرفه ولم يره ولم يعلم بالدور الذي مثله موزلى في السياسة المصرية بمهونة الخديو وبعض رجال سياسة انكلترا ، فأفدناه بما نعلمه عن الرجل وحيه مصر ورغبته في اتفاقها مع انكلترا على قدم المساواة وحيه للخديو حبا شخصيا وبغضه للورد كرومر وحققه عليه (١) •

(١) يذكر سعد زغلول في مذكراته أن امرأة قدمت عريضة للنيابة العمومية بأن هناك جمعية سرية تآلفت من سبع سنوات لمعارضة الحكومة الانجليزية وتهيج الرأي العام في انجلترا على ادارتها في مصر ، وأن الخديو كان مشجعاً لهذه الجمعية مع بعض الانجليز والوطنيين وأن لدى هذه المرأة أوراقا تؤيد =

ثم توسط بنيت بيننا وبين مستر روتستين على أن يدفع له ثلاثين جنيهًا ليسافر مندوبًا عن بعض الصحف الانكليزية ليصف المؤتمر ويكتب عنه ما يجب أن يكتب خدمة لمصر لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق ، فوعده بأن فريد بك يفي بدفع دين صهدف الحزب الوطني لروتستين مد كان مكاتبًا لها في لندن ، وأخبرنا بلنت أن روتستين يعد كتابًا عظيمًا عن مصر وأنه يخدم مبدأنا بلا ريب .

كان بلنت يود أن يطيل السهر معنا ولكن صحته لا تسمح فاستأذنا في نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقي معه أيامًا متتالية ولم تغض لنا عين بعد فراقه ، وكانت الغرفة التي نمنا فيها حافلة بمؤلفات حميه بيرون فقرأنا فيها حتى الصباح .

في نظري أن بلنت من أجهل الرجال وأفضلهم ونفسه ظاهرة جدا وأخلاقه لم تكن تسمح بنجاحه في السياسة لأنه صريح وصادق ومحب للحق مثال .

= دعواها ، وأن موزلي متهم فيها (مذكرات سعد زغلول ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، الجزء ٢ ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥) .

وينكر محمد فريد في مذكراته أن موزلي كان قاضيًا بالمحاكم وكلف بالاستعفاء فاشتغل بعد ذلك بالحاماة وأنه كان من شركاء الشيخ على يوسف في الأمور السياسية وتوصل إلى أن صار رسول الخديو لدى بعض كبار الانجليز بلندن وكان يأخذ منه سبالغ جسيمة لهذا الغرض .

(أوراق محمد فريد ، المجلد الأول ، مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤ - ١٩١٩) ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، اعداد الدكتور عاصم الدسوقي ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥٦) .

وقد اعطانا نصائح كثيرة وخطابات توصية عديدة منها الى
اسرة مينيل الشاعر وزوجته الشاعرة أو الكاتبة .

لقد تبددت من ذهني عند لقائه كل الشكوك والاشاعات التي
نامت نهمته في مصر أنه صنيعة الانجليز وأنه كان يعمل لمصلحته
الاستعمار . هذا كذب ليس هذا الرجل من هذا النوع ، انما هو
صادق وعود الانجليز وآمن بحرية حزب الاحرار لاسيما غلادستون
وفلور أن في مصر رجلا فخاخته الظاروف في الأمريين .

هذه حقيقة الرجل ، والذي نفعه وستره والذي أضر به في
الوقت ذاته هو ماله وثروته ، ان المواهب مع المال قد تموت وقد
نجنى على صاحبها .

الأربعاء أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ :

نهضنا في الصباح مبكرين وأفطرننا مع بلنت وزرنا بقيادته
مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه
ووصفه العربي كقوله « هذا محجل اليمين » وهذا « الأغر » وهكذا .

واعطاني خطابه الى المؤتمر باللغة الفرنسية وحتم على أن
أقرأه بنفسى نيابة عنه وطلب منى رده اليه لأنه ليس لديه نسخة
أخرى منه فوعده بذلك . وزودنا بصورته باهدائه وهي تحمل
تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

وقد علمنا منه عرضا أنه يعيش منفصلا عن زوجته
لادى آن بلنت حفيدة اللورد بيرون ، وأن ابنه البكر مات في
السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة وهي التي
وهبت أرضا للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها
وباع جزءا منها وأنها عاشت في مصر وصحبت بلنت في أسفاره
وأقننت اللغة العربية .

فهمنا من بلنت أن ونستون تشرشل سيزوره ظهرا ، ولاجل
هذا عزمنا على السفر قبل حضوره لأنه لا يسرنا ان نراه ولا أمل لنا
فى شئ ، وعلاقه بلنت به ترجع الى صداقته بابيه رادولف
تشرشل .

وصلنا لندن بعد الظهر وذهبنا توا الى البرلمان حيث روينا
لهازلتون مقابلة بلنت ، وقابلنا كير هاردى وقال لنا : انه لن يحضر
المؤتمر لأنه ارتبط بمواعيد سابقة فتوسلت اليه واستعملت كل
وسائل الفصاحة والاستهواء بحضور هازلتون وبارنز وحامد العلايلى
فكان كلامه الرفض كما أن حزبه رفض أيضا حضور المؤتمر بكتاب
ارسله اليها وقالوا انهم لا يستطيعون الاشتراك فى المؤتمر (١) .

الخميس ٢ سبتمبر :

زرنا ويلفريد هانيل فى بيته بشمارع اكسفورد بلندن وتعرفنا
بزوجته وابنته وهو صديق حميم لبلنت وتعشنا عندهم ، ولكن
العلايلى أزعجهم بقوله انه يتمنى احتلال انجلترا بالألمان ليذوقوا ألم
الحكم الأجنبى (١٩) ، فتألمت المرأة وكظم الزوج غيظه وصار مركزى
حرجا ، وانصرفنا بعد أن دعوناها للمؤتمر فرغبت المرأة واعتذر
الرجل ، ولعله كان يقبل لو لم يفسد علينا حامد قلبه بفكرته .

(١) سجل بلنت فى مذكراته اليومية زيارة لطفى جمعة له يوم ٢١ أغسطس
سنة ١٩٠٩ ودعوته لحضور المؤتمر ، كما سجل ماتلا ذلك من علاقة بينه وبين
الأنى جمعة والرسائل المتبادلة بينهما .

(راجع :

— My Diaries, Being a personal narrative of
events, 1888-1914, by Wilfrid Scawen Blunt,
P. 2, 1900-1914, London, P. 278, 282, 290, 296, 329, 332 : 334, 410)

تم زونا الزعيم الهندي خايردى فى منزله وهو قادم ليدافع عن صديقه تيلاك المسجون فى الهند وأعطانا تقريراً عن القضية ، وزودنا بنصائح استفادها الهنود من طول الاحتكاك بالانكليز أهل المهارة السياسية ، وقال لنا اكنموا ما تريدون تنفيذه من الاصلاح وأعلنوا الأمور التافهة لأنكم اذا صرحتكم بكل شيء تجدون من يعرقل أعمالكم .

الجمعة ٣ سبتمبر :

ذهبنا الى مجلس النواب الانجليزى وحادثنا بعض الأعضاء الايرلنديين والانجليز وقد قابلنا مستر ويلسون وأخبرنا أن حزب العمال قبل الحضور للمؤتمر ، ووصل الى يدنا تلغراف من كيرهاردى جاء فيه أنه سيحضر المؤتمر مع عضو آخر بالنيابة عن حزب العمال ، وأخذنا نتساءل عن العضو الآخر الذى سيحضر مع كيرهاردى ولكن المهم هو حضور كيرهاردى نفسه .

الثلاثاء ٧ سبتمبر :

سفرى من لوندرة ووصولى باريس مساء واشتغالى بالخطبة الفرنسية المزمع القاؤها بالمؤتمر .

الخميس ٩ سبتمبر :

سفرى من باريس مساء ووصولى القطار الى محطة جنيف الساعة السابعة صباحاً . لم أجد أحداً فى انتظارى على الرصيف سوى عبد الحميد سعيد فحسبت أنه حضر للقائى ولكنه سرعان ما بدد الوهم بسؤالى عن أحمد لطفى السيد بك وهل هو معى فى القطار فقلت له اننى لم أره وفهمت من حديثه أنه سمع أن لطفى السيد يحضر غداً فجاء لاستقباله . فتركته .

السبت ١١ سبتمبر :

وصلت برقيات تنبئ بوصول كيرهاردى وهارلتون وروستين
فأخبرت الجماعة (أعضاء اللجنة) وذهبنا فى المساء الى محطة
السكة الحديد لاستقبالهم ، فلما رأنى هاردى هال لأنه لا يعرف
سواى ، فعرفته بالجميع ، وكان هارلتون هاسا باشا وأخبرنا أن
كيثل يصل عما قريب • وقد أحدث وصول كيرهاردى الى جنيف
طنة ورنه فجاء مكاتبو الصحف لمقابلته واجراء أحاديث معه ، فكنت
أترجم له من الفرنسية الى الانجليزية وبالعكس وعملت على راحته
فى فندقه والقيام بكل مطالبه ورايت معتمدا فهمى يتزلف اليه
ويستعمل على الشمسى فى الترجمة له •

الأحد ١٢ سبتمبر :

استغللت فى الصباح قليلا فى تنقيح الخطبة وذهبت لزيارة
كيرهاردى فوجدت فريد بك قد ذهب لزيارته ومعه بعض أعضاء
الحزب الوطنى أمثال اسماعيل لبيب والشيشينى بك والدكتور
منصور رفعت • ثم جاء محمد فهمى وعلى الشمسى ، فلما رأونا
انقبضوا وقالوا باللغة الفرنسية بلفظ سقيم : اعملوا معروفًا
يا سادة لا تتعجلوا الرجل ولا تجعلوه يتأثر بأى فكرة سابقة فاننا
هناكنا فى سبيل قبوله الدعوة للمؤتمر (١١٩) •

فسألنى هاردى عن أقوالهما فنقلتها اليه مخففة فقال :
أنا لا أتأثر بأحد وأتبع دائما ضميرى ولا أعرف شيئا الا الحق •

وفى المساء اجتمعت اللجنة فبدأ محمد فهمى يلقي خطبة
خلاصتها أنه ساخط لمجيئ الحزب الوطنى وأنه مستغن عن اشتراكهم
فى المؤتمر وأن هذا المؤتمر من عمل اللجنة الدائمة فى جنيف ،
ثم نظر الى وقال : « اعمل معروف يا أخى ماتخليش مبادئ حزبك

تؤثر عليك لأنك عضو في اللجنة فقط ولست تمثل الحزب الوطني « (١) . ولم يتكلم الشمسي لأنه متفق معه على هذه الخطوة ، وكان حامد العلالي مأكرا في كل المسالك ويوعز الى اللجنة سرا ضدي مع أنني أنا الذي أحضرت كيرهاردي وأقنعتهم بقبوله .

الاثنين ١٣ سبتمبر :

عقد المؤتمر جلسته الأولى هذا الصباح في قاعة كبيرة للحفلات تستعمل مسرحا .

وألقى محمد فريد بك خطبته قراءة من الورق (٢) .

وحضر المكاتبون والسكرتاريون وأرسلت الأخبار بالتلغرافات الى أنحاء العالم .

وكان عثمان غالب باشا حاضرا وكانت له هيئته كما حضر جميع المصريين الذين قدموا من مصر ومن أنحاء أوروبا ، وقلقت لعدم حضور كيتل .

وعند الظهر توجهنا لتناول الغداء في حديقة Park de Eaux Vives وجلس بجوارى لطفى السيد بك وابتداء يغمز ويلمخ محمد فهمي ويقول انه لا يليق لرئاسة اللجنة ، فقلت له انها رئاسة اسمية والجلسات تعقد تحت رئاسة رجل ممتاز بالدور .

(١) انظر فيما يلي خطابات الدكتور منصور رفعت والأمير العطار الى محمد فريد بشأن قرار لجنة المؤتمر بفصل لطفى جمعة من هيئة المؤتمر « لكونه جرمي وثوري وينتمى للحزب الوطني » ، وكذلك فصل حامد العلالي لكونه صديق لطفى جمعة « وغير مؤدب » .

(٢) راجع الخطبة في كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعي . ط ٤ . دار المعارف ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٢ - ١٣٦ .

وحضر أثناء جلسة بعد الظهر جون كيتل وزوجته ، فرحبنا
بهما وقضيت سهرتي معهما ومع هازلتون في شرفة الفندق .

الثلاثاء والأربعاء والخميس ١٤ ، ١٥ ، ١٦ سبتمبر (١) :

اليوم هائل جدا ! ألقى كيرهاردي خطبته المنتظرة في حفل
حاشد لم أر أكثر منه عددا ، فالتحى على مصر باللائمة ومدح كرومر
والاحتلال وامتن علينا بالاصلاحات في الري والزراعة ، فغابت
آمالنا ودهش أعضاء البرلمان وصفق له الجميع ونجح نجاحا بالغا .

وفي الحال نهضت وطلبت الكلمة فرفض محمد فهمي ، فرجوته
أن أقول كلمة لشكر الرجل ، وهذه حيلة مني ، ولما وقفت دهش
الناس الذين سكروا بكلام الزعيم دون أن يفهموا مغزاه ، فالتقيت
خطبة من نار ورددت عليه كل آرائه كلمة كلمة وقلت له أنت جئت
تسمعننا مدحا في كرومر ومدحا في الاحتلال وليس هذا أملنا فيك ،
هذه صورة طبق الأصل من كلام الانجليز في مصر وأنت زعيم حزب
العمال تقول الحق وتدافع عن الحرية ، وهنا لم تقل الحق ولم تدافع
عن الحرية ، بل قويت ساعدهم علينا ، فنحن لا نقبل كلامك ، وإن
الذين صفعوا لك لم يفهموا الانجليزية ولا يمكنني أن أترك هؤلاء
الناس في حيرتهم ، نحن نطلب الحرية والاستقلال كاملا ولا نرضى
بهما بديلا ، وإذا كنا نقبل النصح بالصبر والرضا فلم اذن عقدنا
هذا المؤتمر ؟ وهل نسميت حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ وتقييم
الصحافة وحبس الزعماء وفيهم جاويز الذي في السجون ؟

(١) للموقف على مريد من المعلومات عن مؤتمر الشبيبة المصرية بجذيف
(سبتمبر سنة ١٩٠٩) ، راجع كتاب « محمد فريد » للمرحوم عبد الرحمن الرافعي ،
ط ٤ ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٠ - ١٣٦ .

فحدثت موجة جنون في المؤتمر وهللووا وصفقوا وحدث اضطراب شديد وهرب هاردى بدعوى أنه غضبان .

وكاد محمد فهمى وعلى الشمسى يجنانا جنونا ، وحملنى الطلبة والأعيان على اكتافهم وطير البرق نص خطبتى الى العالم بالتلفراف .

وعاد النظام بالتدريج وقام بارنز عضو البرلمان مع هاردى والقى كلمة هادئة عن صاحبه وقال نحن استكلنديان لا انجليزيان .

وخطب هازلتون وكيتل خطبا يؤيدان فيها وجهة نظرى ، وبالجملة فزنا فوزا عظيما وافسدنا الخطة التى وضعها هاردى وحزبه فى الخفاء وهى انه يخطب خطبة معتدله ليحسن علاقته مع حكومته ولا تهمه السياسة الخارجية ، لأنه لو خطب خطبة حامية لهاج سخطهم ، وهذه خطة دبرها ماكدونالد بعد أن ظن أننا نكتفى بأعضاء ايرلنديين وبدعوة جريسون Groyson وهو اشتراكي متطرف ، فجاء هاردى ليحيط أعمالنا مع أنه كان يرفض الحضور ، وقد فطن هاردى الى أنه فشل وسقط فى نظرنا وأن مجاملته للسياسة الانجليزية لن تفيده فتبلا .

وحقيقة أننا لم نشفق معه على شيء ، ولكن كان معلوما أنه جاء لنصرتنا لا لأجل خذلاننا ، وكان محمد فهمى يتملقه وهو يوافقه مع الشمسى على هذه الخطة الخبيثة والا خرج المؤتمر من أيديهم ، وظنوا أنني عملت هذا باتفاقى مع فريد بك ، ومع كذب هذا فان فريد لا يفهم هذه المسائل ولا هم له الا القاء خطبته وحضور الولاثم .

ولأجل هذا كانت دهشة فريد عظيمة حتى انه قبلنى وبكى وضمنى الى صدره وقال لى : أنت ابنى ، أنت خليفتى ، أنت زعيم . . الخ ، ولكننى لم أكثرث لكل هذه المسائل وكان كل همى أنني أحضرت كيرهاردى من انجلترا وتكبست

مشقات ، فضميرى لا يسمح لى أن أراه يحون فكرتى ويخيب آمالنا فيه ونظرت اليه بين الاحقار ، ولكننى أخذت بحق أمتى ووطنى .

وبعد الظهر حضر الى بارنز وقال : ان هاردى عائب عليك لأنك لم تطلعه على خطبتك وردك عليه . فقلت له : أنت مازح يا مستر بارنز كيف أطلعه على خطبة ارتجلتها ارتجالا ردا على خطبة ارتجلها هو ولم أكن أعلم ما يقول ، ولو أطلعته أو أخذت اذنه لذهبت الفرصة ، واذن كان الموت أحب الى من أن أفرط فى هذا الحق . فقال بارنز : أرجوك بالنظر الى سنه ومقامه أن تأخذ بخاطره لأنه اعتذر عن وليمة العشاء ، فقلت له . ان عدل خطته فأنا صديقه وتلميذه ولكن ليس قبل هذا .

وخطب بارنز وهارديال الهندى والهلباوى ولطفى السيد وحامد العلالي كما خطب هاردى خطبة عظيمة جديدة مدح فيها مصر وأنذر الظالمين بمقايمة كالتى أصابت فرعون موسى لتعذيبه بنى اسرائيل ومدح الوطنية المصرية وانتهى المؤتمر وسافرت الى ليون .

الجمعة ١٧ سبتمبر :

لقد تعبت فى هذا المؤتمر تعباً شديداً ووجدت خيانات ودسائس حتى من صديقى حامد العلالي الذى ناصبني العداء منذ رآنى أعمل باجتهاد وأن أعمالى تكلل بالنجاح وقد اتهموه بأنه من حزب الخديو ، بل انه مبعوث الخديو مع أنهم هم كانوا أتباع سموه والمؤتمر يعمل لحسابه سرا وقد أمدهم بأموال وأنا لا أعلم شيئاً عن هذا ولم أطلع على أسرارهم .

كان فى المؤتمر تياران ، تيار الحزب الوطنى وتيار الخديو وأنا لا أعلم ولكننى اتبعت تيار الحق والوطن ولذا كتب الله لى التوفيق ، وأصبحت جنيف مبعوضة فى نظرى فلم أودع أحداً غير

كيتل وزوجته وهازلتون وقد أقاموا لى مع هارديال الهندى حفلة صغيرة لتكريمى وهم يعتقدون أننى قمت بعمل ناجح بمقاومة كير هاردى وقد فهموا روح محمد فهمى هو ومن معه (١) .

وصلت الى بيتى فى ١٤ شارع رامبار دينى بليون وأنا مريض منهوك القوى .

الاثنين ٢٠ سبتمبر :

بداية تعريب خطبتى فى المؤتمر .

عزمت عزمًا ثابتًا على تمثيل الأمة المصرية فى مؤتمر « الأمم المظلومة » الذى سيعقد فى لوندرد فى الشهر القادم .

• الفراغ من ترتيب كتابى الحديث « نفثات الروح الجائر » .

(١) نورد فيما يلى خطابات الدكتور منصور رفعت والامير العطار الى محمد فريد بناربخ ١٨ ، ٢٠ ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بشأن قرار لجنة المؤتمر بفصل لطفى جمعه وحامد العلالى من عضويتها ، وقد نشرت هذه الرسائل فى كتاب « أوراق محمد فريد » ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦ ، صفحات ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، على التوالى .

ليلة ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٩

سيدى العزيز فريد بك .

بعد السلام يحزننى أن أفيدكم بأن لجنة المؤتمر انعقدت بعد ظهر اليوم وطلبت حامد العلالى ليكون ضمن الأعضاء وبعدها قررت ما يأتى :

اولا : طرد لطفى جمعة من هيئة المؤتمر بناء على كونه جرمى وثورى وينتمى للحزب الوطنى .

ثانيا : طرد العلالى بك لكونه صديق لطفى ولأنه غير مؤدب .

الثلاثاء ٢١ سبتمبر :

وصول جواب من هازلتون ومقالة عن المؤتمر في الديلي نيوز
بقلم روتستين ومقالة في المورننج ليدر بقلم كيتل ومقاله ما لشسستر
جارديان بقلم هازلتون *

زيارة عبد الحميد سعيد ومشروع تأسيس لجنة جديدة على
شروط أحسن من اللجنة القديمة *

= وحيث أن هذا الأمر يهمكم جدا ، فقد أسرع بتسطيره اليكم . وقد أخرجوا
العلالي من الجلسة بعد أن طعنوا طعننا مرا على الحزب الوطنى وقالوا انهم كانوا
فى غنى عنه وعن مساعدته لهم ، وأنهم لجنة دائمية منفصلين عن كل الأحزاب ،
فهل هذا نتيجة مجاهدتكم وسعيكم لتتريفهم ؟ . يأسف الانسان من أمثال هؤلاء
الجهلة الأغبياء وان ذلك مما يدعو لتثبيط الهمم ، وقد وعدت اللجنة بتسطيره
بهذا المعنى لكل من العضوين المرفوتين وسأرسلها لكم عند الحصول عليها ويعدّها
تقروا الرد عليهم وفضحهم واطهار خبث نواياهم لكافة المصريين حتى ينبذوهم
ويتبرأوا من أعمالهم ، وفى الحال نعقد مؤتمرا مكونا من أعضاء جداد ويكون
مركزيا حتى نقضى على هؤلاء الأسفقال ، وان كل الطلبة ناقدون عليهم ، ساخطون
على أعمالهم *

فأرجوك أن تفيدنى عن رأيك فى هذه المسألة ، وفى حالة صدور الجوابات بهذا
الشكل وبهذه الالفاظ ، سأتوجه أنا والعلالي وخالد بك الفورال الى ليون لمقابلة
الشهم البطل املفى جمعة الذى توجه أمس الى ليون ، ونطلبك بالتلغراف حتى
تحضر وتقرر ما يمكن اعماله . لأن الأوباش قرروا ارسال جوابات الرفع عند
صدرها لحرائد مصر وجرائد أوروبا ، فيدنى عن رأيك . وتقبل سلامى *

منصور رفعت
عنوانى كوك حنيف

يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٠٩ *
سيدى العزيز سعادة محمد بك فريد
أهديك سلامى ٠٠٠

الأربعاء ٢٢ سبتمبر :

تلغراف من فريد بك استدعائي لباريس وسفري الى باريس
ووصولي الساعة الواحدة بعد نصف الليل .

الخميس ٢٣ سبتمبر :

اليوم الاول في باريس . وحديث مع فريد بك عن
مصطفى كامل والخيرو وغداء مع طلعت حرب .

مكاتبه فرح أنطون في فندقه بباريس وزيارة
عثمان غالب باشا .

أما مسألة عزل لطفي جمعة وحامد العاليلي فقد وقفت الآن ، حيث أن باقي
اعضاء اللجنة وجدوا أن الرأي العام معضد لطفي جمعة وزميله ، ولذلك أدركوا
خطأهم وأرسلوا مصطفى الشمسي كي يستسمح العاليلي بك فرفض هذا طلبهم ،
ولأن لم يرسلوا جوابات الرفت إليهم ، وقد نصحت الى العاليلي بأن لا يجتمع
عليهم ولا يتشاكل مع أحد منهم ، وأنا ممنون جدا لأن أغلب الطلبة والزائرين
ناقمين على فهمي (يقصد محمد فهمي سكرتير لجنة الشبيبة بجنيف) وشركاء ،
وان كل الاحتياطات ستعمل للمسير في خطة التعقل والتروي ، وكل شيء مهم
سنحيطك علما به أولا بأول سواء في مصر أو في باريس ...

وتقبل اخلاصى واحترامى .

هديقكم المخلص

منصور رفعت

٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٩

سعادة والدنا الفضال محمد بك فريد .

وصلنى كتابك الكريم ، وعليه فأخبركم بأن اللجنة (يقصد اللجنة الدائمة
لجمعية الشبيبة المصرية فى اوربا ومقرها جنيف) كانت قد نظرت فى احدى جلساتها
فى امر لطفي أفندى ومعه العاليلي أفندى بحضور الأخير ، وفى نهاية الجلسة =

الجمعة ٢٤ سبتمبر :

صباحا مع فريد بك ومحادثات سياسية معه .

السبت ٢٥ سبتمبر :

صباحا مع طلعت حرب وفريد بك وآراء الأول في المسألة المصرية .

بحثت مع فريد بك في شأن اللجنة الممثلة للحزب الوطنى
فى باريس وتحرير جريدة « ليتندار اجبسيان » (١) .

الأحد ٢٦ سبتمبر :

غداء مع فريد بك ومدموازيل بيه (٢) وزيارة مدام آدم
وقضاء المساء مع فرح أنطون ومحادثات لذيذة .

== عند أخذ الأصوات ، طلبت من السكرتير أن يكتب ما أُمليه عليه بخصوص
العضوين المذكورين ، وعليه فرفعت الجلسة وأنا فى البدء ، ولم ترد اللجنة أن تقر
شيئا حتى تتم جميع ملحوظاتى التى أتعشم أن تهيننا لقبول الحق واسه ولى التوفيق ،
وفى الختام تقبل منى فائق التحية وعظيم الاحترام .

ولدكم المحافظ

الامير

(١) تأسست فى سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار جريدتى « ليتندار
اجبسيان » و « اجبسيان ستاندر » ، الاولى تصدر فى المساء والثانية تصدر
فى الصباح ، وقد صدرت جريدة ليتندار اجبسيان يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ .

(٢) مدموازيل بيه : Biais سكرتيرة جمعية النساء الفرنسيات
بباريس .

الاثنين ٢٧ سبتمبر :

- سفرى من باريس صباحا ووصولى ليون فى الساعة ١١ .
- حديث حامد العلايلى عن أعمال لجنة المؤتمر فى جنيف وإساءتهم اليه .

الأربعاء ٢٩ سبتمبر :

- تغدينا فى وليمة أولها لنا الدكتور منصور رفعت مدير سياسة اللواء فى قهوة بلكور وتحادثنا مليا فى الشئون السياسية .
- استلمت كتابا مهما من المستر بلنت عن المؤتمر وفيه نصائح نافعة .

الخميس أول أكتوبر ١٩٠٩ :

- بعد الظهر حررت جوابات لبلنت وكتلت عن المؤتمر الدولى ودعصر كما حررت خطابا لمحمد بك فريد (١) .

(١) نشر هذا الخطاب فى « أوراق محمد فريد » ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الاول ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ . ١٧٥ ، وهذا نصه :

- ليون نى أول أكتوبر سنة ١٩٠٩ .
- سعادة الرئيس الهمام محمد فريد بك حفظه الله .
- السلام عليكم ورحمة الله
- أرجو أن تكون متمتعا بتمام الصحة والعافية وأن تكون سفرتك الى بلاد الانكليز عادت بالنفع المطلوب .
- اخرنى عن الكتابة اليك منذ فارقت باريس مرض لازمنى الى أمس وقد خفت وطأته والحمد لله .

كتب الى مستر بلنت مفسرا لهجة روتستين بأن ادارة الديلى فيوز شوهت المقالة ، ونحن قد نقبل هذا العذر ولكن هذا لا يرد الضرر الذى وقع ، ومهما تكن الحال فلا أظن أن هذا المكاتب القديم يعود يخدم غرضنا باخلاص ، ان الافاعى وان لانت ملامسها ... الخ .

الانمين ٤ أكتوبر

لقيت مسيو لامبير فقضيت معه ربع النهار فى محادثات علمية وسياسية فنصح الى بحث أبناء وطنى على تأليف جمعيات لتشجيع التعليم كما هى الحال فى فرنسا وقال ان أمل مصر الحقيقي هو فى شبابها لا فى المتعلمين فى السن ، وتكلمنا عن الشريعة الإسلامية فاثبت لى بالأدلة العقلية والنقلية أن ديننا هو دين تطور evolution ونترقى .

== هذا وان اقامتى معكم ببافيس اكدت لى من جديد علو همتكم واخلاصكم فى خدمة متجدد مصر الشريف ، واننى واثق أن هذه المهمة لن تضعف وذلك الاخلاص الطاهر لن يتحول ، لذا جئت من جديد مؤكدا لكم تمام موافقتى على هذا المسلك الشريف ، راجيا من الله أن يوفقنا جميعا الى ما فيه خير الوطن .

واننى منتظر بفارغ الصبر بروجرام المؤتمر الوطنى المصرى الذى سينعقد فى مصر تحت رئاستكم يوم ٢٥ ديسمبر ١٩١٠ ، والذى سيكون - كما تفضلتم باخبارى شبيها بالمجالس النيابية من وجهة المناقشة ومدة الانعقاد - (عقد هذا المؤتمر فى ٧ يناير سنة ١٩١٠ بدار اللواء سحت رئاسة محمد فريد وألقى فيه فريد خطابا جامعا تناول فيه المسائل الوطنية والديمقراطية والاقتصادية وحقوق الفلاحين وتشريعات العمال ، تراجع الخطبة فى كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٧ - ص ١٤٨) .

وانى أؤكد لكم - يا سعادة الرئيس - أنه ان تم كما تريدون ونريد ، كان له أعظم تأثير . سيما عقيب مؤتمر جنيف الذى لا يرتاب أحد فى أنه كان ذوق ما أمل أصدق أصدقائنا .

أرجو تبليغ تحيتى واكرامى لسعادة الهمام الفاضل عثمان بك غالب الذى شجعنى كثيرا بنصائحه وحكمه المخلصة .

ربما مر بكم اخونا حامد العلايلى بعد يومين . نحن منتظرون قدومكم الى ليون كذلك الدكتور منصور رفعت .
تقبلوا تحيتى واكرامى .

المخلص

محمد لطفى جمعة

وصوت خطاب من فريد بك وقدموه .

الثلاثاء ٥ أكتوبر :

هضت صباحا وطأمت شى تاريخ الفلسفه .

كان حديث المائدة متعلقا بالحب والطبيعة البشرية ، وأخبرتني السيدات عن صديقنا ناجى المصرى وما يعمل من الأعمال الدالة على الجنون ، فدافعت عنه بكل قواى ، وأنا أنتظر رؤيته لأحادثه فى ذلك . زارنى الدكتور رفعت منصور وتحادثنا فى سفره الى مصر فنصحتنه نهائيا بالسفر الى مصر فقبل نصيحتى وقرر السفر .

الأربعاء ٦ أكتوبر :

ذهبت صباحا الى منزل الموسيو لامير وتحادثنا عن مشروع كتاب « مقدمة لدراسة الشريعة الاسلامية » ووعدنى باعطائى بعض المعلومات النافعة ، والغرض الاكبر من وضع هذا الكتاب هو التوفيق بين العلم والدين والاثبات بطريقة نهائية أن الدين الاسلامى هو دين تقدم وترق لا تأخر وانحطاط .

بدأت بعد الظهر فى كتابة مذكراتى عن مؤتمر جنيف .

فى الساعة الخامسة وصل فريد بك ولقيه لفيق من الشباب واجتمعنا جميعا فى منزلى واشتبرنا فريد بك عن تصريحات المصير الاعظم فى جريدة « الطان » وردده عليها ، وقررنا ارسال احتجاجات برقية للمصدر وللصحف الكبرى وللمصر .

وفى الساعة ١١ مساء ودعت فريد بك وكذلك منصور رفعت . بعد أن خلونا (فريد ومنصور وأنا) قررنا سفر الدكتور منصور الى مصر .

الخميس ٧ أكتوبر :

استلمت تذكرة بحثها الى فريد بك مع الدكتور عثمان غالب
من هورشام اثناء زيارتهما لبلنت كما استلمت كتابا من روستين
ينشرح لى فيه سبب نشره مقالة الديلى نيوز عن المؤتمر وتعليقه
غريب جدا .

الجمعة ٨ أكتوبر الى الأربعاء ١٣ أكتوبر :

كتابة مذكراتى عن المؤتمر وذهابى الى نيوفيل وسماع خطبه
لامبي عن المدارس العلمانية Ecole Laïque
مطالعات فلسفية .

الخميس ١٤ أكتوبر :

وصول جواب من عزيزة دى رشبون وطلب مقالة منى لأجل
العدد الأول من مجلتها واعداد مواد تلك المقالة .

الثلاثاء ١٩ أكتوبر :

انجاز مقالة « نهضة الشرق » وارسالها الى مجلة « الشرق »
بباريس .

الاثنين ٢٥ أكتوبر :

اعداد كتب الحقوق للعام القادم . مشروعاتى العلمية فى هذا
العام الميسمانس والاعداد لندكتوراه فى العلوم الاجتماعية ودراسة
الفلسفة .

الأربعاء ٢٧ أكتوبر :

جواب من أهلى بمصر فيه توبيخ شديد على اشتغالى بشئون
الأمة !

السبت ٣٠ أكتوبر :

- كتابة تقريرى عن المؤتمر والاستمرار فى كتابته .
- تحمسي لكتابة روايات تمثيلية وشروعى فى ذلك ليسلا فى
قهوة بلكور بكتابة رواية « هرماكيس » (١) .

الأربعاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٩ :

- افتتاح المدرسة الجامعة بصفة رسمية وابتداء الدروس .
- فراغى من كتابة كتابى عن المؤتمر .
- نقلت الى اللغة العربية التقرير المنشور فى جريدة لبتندار
اجبسيان عن المؤتمر الأول وقد بعثت به الى عثمان بك غالب .

الاثنين ٨ نوفمبر :

- حضرت فى الصباح درس القانون المدنى والتجارى .

(١) كتب لطفى جمعة بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ فى الكناشة المتضمنة بياناً
بمؤلفاته عن هذه الرواية ما يلى « هرماكيس المصرى اسم لرواية تمثيلية فى فصل
واحد وضعتها خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٠٩ وخلصت منها فى يومين ، وهى من
حوادث التاريخ المصرى القديم وبطلها تبنى جاء قبل موسى ، ولكنها لا تزال فى
حاجة الى بعض التنقيح والتصحيح » .

وفى الساعة الخامسة توجهت لمقابلة الموسيو لامبير فلم أجده
فى المدرسة فقصدت منزله فلم أوفق كذلك للفائه فتركت له ملخص
الدرس الذى سألقيه غدا فى الشريعة الاسلامية ليبدى فيه رأيه .

وعدت الى منزلى فكتبت مقالة عن « قتال السويس » وبينت
الخطرين العام والخاص اللذين يهودان على مصر من مد أجل امتياز
الشركة . ان الامة المصرية اذا فازت هذه المرة فستستقل قريبا .

الثلاثاء ٩ نوفمبر :

قابلت الموسيو لامبير وتحادثنا مليا فى الدرس الذى سألقيه
عصر هذا النهار لاخوانى المصريين .

اتفاق غريب ! اليوم يمر عام بالضبط على نجاحى فى امتحان
السنة الأولى ، واليوم ألقى درسا باللغة الفرنسية !!

بعد القاء الدرس حدثت مناقشة لطيفة وانتقدنى الموسيو لامبير
وأرشدنى الى الطريق المثلى . أريد جمع الدروس التى ألقيتها على
الطلاب المصريين فى مدرسة ليون الجامعة فى الشريعة الاسلامية
وقد أفادنى الأستاذ لامبير بنصائحه وارشاداته كثيرا (١) .

الأحد ١٤ نوفمبر :

صباحا كتابة مراسلات ومنها الى هارديال بايطاليا .

(١) كتب لطفى جمعة بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ فى الكناشة المتضمنة
بيانا بمؤلفاته « أريد جمع الدروس التى ألقيتها على الطلاب المصريين فى
مدرسة ليون الجامعة فى الشريعة الاسلامية ، وقد فرغت من درس حالة العرب
قبل الاسلام ، وسأدرس بعد ذلك اصول الفقه الاربعة . وقد أفادنى الأستاذ
لامبير بنصائحه وارشاداته كثيرا . هذه الدراسة علمية محضة مع المحافظة على
مبادئ الدين كل المحافظة » .

محاضرة الأستاذ جازو في قضية ستانهيل لكتابة مقالة في
اللواء عن ذلك .

الأربعاء ١٧ نوفمبر :

دراسة الحقوق صباحا . ودرس الفلسفة بعد الظهر في كلية
الآداب على الأستاذ جوبلو ومحادثتي معه ونصيحة الأستاذ بقراءة
طريقة ديكار ، شروعي في ذلك نوا سروري بدرس الفلسفة .

الأربعاء ٢٤ نوفمبر :

مطالعة حياة وفلسفة ديكار .

دراسة الحقوق صباحا ودرس الشريعة الاسلامية بعد الظهر

شروعي في وضع كتاب عن « فلاسفة العرب » (١) .

الجمعة ٢٦ نوفمبر :

لما رأيت على المنضدة كتب الفلسفة لم يقر لي حال فأسرعت
الى المطالعة والى انجاز حياة الفارابي التي بدأتها واننى لا أفدر أن
أقيس شيئا بسعادتي التي وجدتتها عند تقييد رأي الفارابي في

(١) هو كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » الذي طبع ونشر بالقاهرة سنة
١٩٢٧ بمطبعة المعارف ، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب ،
وقد كتب لطفى جمعة عن هذا الكتاب بتاريخ ٤ ديسمبر
سنة ١٩٠٩ في الكناشة المتضمنة بياناً بمؤلفاته « فلاسفة العرب كتاب شرعت
فيه في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ لذكر تراجم فلاسفة العرب وشرح مبادئهم
والمقارنة بين هذه المبادئ وبين الفلسفة الحديثة » . ثم كتب بتاريخ فبراير
سنة ١٩١١ عن هذا الكتاب « نجح هذا الكتاب وهو لا يزال بدون تنقيح وكان
تمامه بجنيف في أواسط أكتوبر سنة ١٩١٠ ، وقد طرقت بابا جديدا في تأليف
هذا الكتاب وأنجزت على النمط الجديد الكلام على الكندي » .

سعادة أهل المدينة الفاضلة التي ورد وصفها في كتاب « مبادئ الموجودات » ، فقد كنت أظير فرحا لتوافق أفكارنا .

قطع على أحلامي الفلسفية عبد السلام أفندي الجندى جاء يقول لي بالفتوح ان معه الأغلبية في الجمعية المصرية وأنه قد ترشح أربعة للرئاسة منهم هو وآخر اسمه سامي أفندي كمال وآخر اسمه محمد جمال وأنا ، وأن الجمهور افر على ألا تكون لي أغلبية وقد انحصر الانتخاب للرئاسة فيه وفي الشابين الآخرين ، وجاء يطلب صوتي ، فدهشني ذلك لأنني مخالف على خط مستقيم لهذه النظمات الاستبدادية وقد هدمتها في نوفمبر العام الماضي ولأن حديثه أنزلني من سماء الفكر الفلسفي إلى الأحقاد وحب الرئاسة التافهة فقلت له انني وان كنت أحبه كصديق ، فانني أحب مبادئك أكثر منه .

السبت ٢٧ نوفمبر :

اشتغال بالحقوق في الصباح ، وبعد الظهر حديث مع مدام Melien في الروحانيات Spiritism .

الأحد ٢٨ نوفمبر :

في هذا الصباح قصدت مركز الجمعية المصرية برقم ٦ شارع لا بار وتكامل العدد عند الساعة العاشرة وترأس اللجنة حسن الديواني أفندي ، وتلا سامي أفندي كمال تقريراً عن مالية الجمعية ، ثم دارت مناقشات بشأن نظام الجمعية وقلبها من دستورية بدون رئيس أبدي إلى رئاسة ذات رئيس ، وهي المسألة التي قامت عليها حرب العام الماضي وتم الرأي على الانتظار لفحص هذه المسألة في الأسبوع القادم بهيئة دستورية .

استلمت مكتوباً من البريد أدهشني لأنه من محمد كرد علي محرراً من مرسيليا وقد التقينا في الساعة الثانية فحكى لي ما جرى له من الاضطهاد في سوريا وتهمته بالارتجاعية أولاً وبالبدء بالخلافة العربية ثانياً ، وظهر لي من الحديث أن الخطأ نشأ من تسرعهِ ومن وصح رجال العهد القديم في وظائف الحكومة كناظم باشا الذي كان والياً على دمشق • وكرد علي في طريقه الى باريس وهو يؤمل الحكم ببراءته وقد قضينا اليوم معا وتحادثنا في شئون شتى وافترقنا قبيل نصف الليل •

ذكر لي كرد علي أن رجالاً ممن كانوا أحراراً ونالوا المناصب في الوقت الحاضر لاهم لهم الا الحصول على المال والنفوذ في البلاد العثمانية •

وذكر لي أن أمين الريحاني الشاعر اللبناني الأمريكي قد أنجز كتابين ، الأول رواية تمثيلية شعرية اسمها « علي بن أبي طالب » بالانكليزية وقد سمعت عنها عندما كان بمصر ، والثاني عن علاقة الشرق بالغرب في قديم الزمان (١) •

الاثنين ٢٩ نوفمبر :

طالعت في الجرائد المصرية خبر الافراج عن الشيخ عبد العزيز جاويز بعد سجنه ثلاثة أشهر بسببه بطرس غالي وفتحى زغلول ومحمد يوسف ، وقرأت وصف الحفلة التي أقيمت لتقليده وسام الشعب في فندق شبرد يوم ٢٢ نوفمبر الجاري عقب خروجه من السجن وقد قالت الجرائد انها كانت فوق الوصف •

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بأمين الريحاني راجع كتاب « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الاعلام » المرجع السابق ، ص ٣٦١ - ٣٧٦ •

الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٩ :

انجاز حياة الفارابي في كتاب « فلاسفة العرب » والشروع
في تدوين ترجمة ابن سينا وفلسفته .

الأحد ٥ ديسمبر :

صباحا انعقدت الجمعية المصرية وانتصر الحزب الدستوري
الذي يريه أن يكون تعيين الرئيس لجلسة واحدة فقط على الحزب
القاتل بتعيين رئيس لمدة طويلة وتمت الموافقة على ذلك بأغلبية
عظمى وحدثت فوضى في الاجتماع .

الثلاثاء ٧ ديسمبر :

اعداد درس الشريعة الاسلامية .

محاضرة طويلة مع لامبير وطلبى منه أن يتوسط لي في لقاء
محاضرة بجمعية الميسيون لايك Mission Laïque عن مصر
والاسلام .

السبت ١١ ديسمبر :

مقابلة سكرتير الميسيون لايك وانجاز خطبتي عن الاسلام
ومصر واعدادها واستلامي كتاب « الهند » تأليف بلنت وكتابة
مقالة عن هذا الكتاب .

الثلاثاء ١٤ ديسمبر :

محاضرة لامبير بشأن محاضرتي التي سألقياها بجمعية الميسيون
لايك وحضور جلسة اللجنة الادارية للجمعية برئاسة هريو محافظ
المدينة بصالة الموزايك في المجلس البلدي .

ترشيحي عضوا بمجلس ادارة الميسيون لايبك بواسطة
المحافظ وانتخابي وانتخاب الأستاذ لامير والموسيو بورت
وعضو آخر .

الجمعة ١٧ ديسمبر :

حزنى الشديد لاختفاء جريدة الدستور مع ما كنت أملت من
نجاحها .

موت ملك بلجيكا وانهدام ركن من أركان الاستبداد الأوربي
فى أفريقيا .

انهاء المحاضرة التى سألقيها فى جمعية الميسيون لايبك يوم
الثلاثاء القادم .

بعد الظهر مراسلات لبنت ودرهرست وغيرهما .

الثلاثاء ٢١ ديسمبر :

اشتغلت بإعادة النظر فى بعض النقاط المهمة فى الخطبة التى
أريد أن ألقيا هذا المساء .

وعند الساعة السابعة أعدت المعدات اللازمة وكان محل
الاجتماع (سرائى التجارة) حافلا بالمدعوين . وفى الساعة الثامنة
ونصف حضر كثير من الأساتذة والأطباء والصحافيين والطلاب
الفرنسيين وحضر معظم الاخوان المصريين ، قدمنى أستاذى لامير
ثم خطب فى الحركة الاسلامية خطبة بليغة ثم تكلمت من الساعة
التاسعة وعشر دقائق الى الساعة العاشرة الاربعاء ، ودخل ادوارد
أريو عمدة المدينة أثناء الخطبة وترأس الجلسة .

اقتُرحت في ختام الخطبة تاليف هيئة رعاية للطلاب الأجانب وخطب العمدة فشكرني وعضد اقتراحى وذكر موافقة الجمعية عليه وتبرع الموسميويك باشتراك جمعية الشئون الاجتماعية مع المسييون لاييك للقيام بهذا العمل وقبل اقتراحه .

تم خطب هريو العمدة خطبة بليغة عن التوفيق بين فرنسا وأمم الشرق .

وانفض الاجتماع في الساعة الحادية عشرة تماما . وانضم المصريون الحاضرون الى عضوية المسييون لاييك وتعهدت الجمعية بأن تقدم لهم كل الخدم النافعة التي يطلبونها .

انتصار عظيم لى لأنها أول مرة ألقى فيها خطبة فرنسوية الفاء بدون تلاوة وكان لها وقع حسن وانتصار عظيم أيضا للإسلام والشرق ومصر لأننى شرحت حالته الحقيقية لجمهور فرنسوى فتأثر واعتبر ، وهنأتى لامبير ويك وابن على فخار وصافحنى كثيرون ممن لا أعرفهم وشكرنى الطلاب المصريون مع أن عملى تافه ولا يذكر وأتمنى أن يقوم الكل بعمل واحد تظهر فيه آثار التضامن والتكافل .

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

قابلت الأستاذ لامبير واستأذنته فى السفر الى الجنوب لاسترداد صحتى وحييته فأذن لى مبتسما (١) .

(١) سجل لطفى جمعة رحلته فى دفترين مستقلين ابتداء من ٢٠ الى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان « رحلة الشتاء الى شاطئ الذهب ، جنوب فرنسا - سان رفاثيل - نيس - كان - مونكارلو » . ولكنى لم أعر الا عظمى دفتر واحد من الدفترين المشار اليهما .

اجتمعت الجمعية المصرية في الساعة الثامنة والنصف
للمناقشة فيما ينبغي عمله غدا لأنه يوم عيد الأضحى ، وطرح على
الأعضاء إيفادهم أثناء المسامحات (العطلات) القصيرة الى مدن
فرنسا الكبرى لالقاء محاضرات عن الاسلام والشرق ونهضة مصر .
فقبل اقتراحى بالاستحسان وأجل النظر فيه الى يوم الأحد .
الخميس ٢٣ ديسمبر :

عيد الأضحى المبارك ! ٠٠ هذا هو العيد السابع الذى أقضيه
بحسرة وألم ٠٠ كل عيد من أعياد الأضحى أجدى فى حال أسوأ
من الذى قبله :

عيد بأية حال عدت يا نبيد بما مضى أم لأمر فيه تجديد !

نشرت جريدة البروجية فى عددها الصادر اليوم وصفا
لمحاضرة يوم الثلاثاء التى ألقيتها تحت رعاية الارسالية الفرنسية
الحرة Mission Laïque وذكرت أن عدد الحاضرين يقدر بثلاثمائة
وأربعين شخصا .

الجمعة ٢٤ ديسمبر :

صحتى رديئة للغاية ٠٠ ان الناظر الى وجهى لا يعرفنى ،
فاننى نحيل جدا فضلا عن أن لون بشرتى كلون أديم الأرض وأسباب
ذلك ثلاثة :

أولا : رداءة جوليون .

ثانيا : سوء التغذية فان مآكل البنسيون أضرت بى كثيرا .

ثالثا : وحدتى وكثرة همومى (١)

(١) هذا آخر ما سجله لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٠٩ .

أوجستا دامانسكى

ذكرى ١٩ مارس سنة ١٩١٠

لقد مضى على هذه الذكرى سبع وثلاثون سنة وهى تتجدد فى خاطرى وقلبى وذاكرتى وعلى رأس قلمي ، فأعدها وفاء مفروضا على وأعد مرورهما بخاطرى نعمة من الله تستحق الثناء والشكر (١) .

فى مثل هذا اليوم - وكان يوم الأحد - التقيت بمدام أوجستا دامانسكى فيليبوفنا كاتبة وأديبة عارفة باللغات والآداب وخبيرة بالفنون الرفيعة وعريقة فى تاريخ الثورة الروسية ومخلصة للجمال والحق والخير .

التقيت بها فى بيت ريفى فى ضاحية « بيتى لانسى » بجنيف لأسرة راسين ، رأيتها فعرفتھا وتجددت بيننا صداقة أحكمت المصادقة البحتة عروتها من صيف سنة ١٩٠٨ فى مدينة لوزان ، وكان اليوم السابق على اللقاء ١٨ مارس يوما مطيرا غموسا قمطيرا مثل نفس اليوم السابق للذكرى فى هذا العام ١٩٤٧ فى مصر .

ففى ذلك اليوم من سنة ١٩١٠ أمطرت السماء مدرارا فى ليون حيث كنت وفى جنيف عندما بلغتھا واستمرت انهماج المطر

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات فى ايل ١٩ مارس سنة

• ١٩٤٧

طول اليوم وكنت بغير ماوى ولا صديق ولا رفيق ولا انيس قادما من
ليون مقر دراسى شبه عارب من الظلام والبرد والوحدة ، ضعيف
البدن منكش الروح منطويا على نفسى ، شاعرا بحزن عميق .
وان عندى الآن كتابا ما يزال جلده ملطخا بأحوال المطر والكتاب
ترجمة حال يوسف متزينة النائر الايطالى ألقبه بين يدي فى مثل
هذا اليوم فيحرك أشجانا مضى عليها نحو أربعين سنة وما تزال
تعتلج فى صدرى .

ولما تهديت .. آنست لطيفا ودقة فى وجه السيدة التى قدمت
الى الطعام فسألته عن مستقر لى الى حين فى ضواحي البلد فقالت لى
عليك بحى « بتى لانسى » واقصد الى بيت آل راسين تجد ما يسرك .

وسرت هائما لا أدرى أين أقصد وقد مال ميزان النهار ودقت
الساعة السابعة ولم يبق على الغروب الا دقائق معدودة . وفجأة
رأيت نورا ينبعث من نافذة ، فلما دنوت من البيت .. أدخلوني
الى قاعة استقبال .. وظهرت سيدة تتقن لقاء الضيف وأجلستنى
ورحبت بى ثم قالت لى : هنا بيت راسين .. هل تقصد إلينا ؟
أين متاعك ؟ .. على بالايصال لأبعث فى طلبه . فقدمته اليها واتصلت
بالتلفون وعادت فرحة وقالت : بعد ساعة يصل اليك متاعك ..
وبعد ساعة أقبل حوذى ينقل حقائبى .. وتقدمتنى السيدة الى غرفة
فسيحة ذات أثاث جميل ونور ساطع ومقاعد وثيرة وفراش رطب
ومتناضد للكتب وخزائن للشباب وتوجهت الى الحمام .. لله ما أعظم
الشعور بنعمة النظافة والراحة بعد هذا اليوم الأليم المضنى !

قالت لى مدام راسين بعد ذلك بأسبوع : لقد أقبلت علينا
فأشفقنا من غبرة وجهك . لشد ما عانيت من المطر ! وقد صدقت .

... ودعتنى السيدة الى غرفة الطعام للعشاء ، وللمرة الأولى رايت
زوجها واسمه جان راسين ولم يطل العشاء وعرفت السيدة أننى

لا أكل اللحم ولا أتذوق النبيذ ، فتضاعف تقديرها لى لأن الضيف
الذى يوفر اللحم والخمر فى نزل عائلى (بنسيون دى فامى)
نعمة من السماء .

وعندما صعدت الدرج للنوم تبعتنى السيدة وقالت : سوف
تلقى مفاجأة سارة عدا صباحا . فأسألتها عن تلك المفاجأة ، أجابت
فى صوت خافت : ان عندنا سيده تعرفك ! قلت : تعرفنى انا ؟
لا بد أن تكون مخطئة فاننى لا أعرف أحدا فى جنيف . قالت انها
تعرفك باسمك وصفاتك وقد اعتذرت الليلة عن المشاء لأنها
متوعدة . فقلت لها : ما اسمها ؟ . قالت : غدا تعرفها لأنها
لم تأذن لى بذكره .

وقد تعود الأرق أن يلرمنى فى الليلة الأولى أينما كنت كلما
بدلت فراشى ولو كان فى جنة الفردوس فلا بد لى من الأرق .

ولكننى تيقظت فى الصباح فرحا نشطا متفائلا مرحبا باليوم
الجديد ، وقضيت ساعتين فى اخراج كتبنى من صندوقها وتصنيفها
وعطفت خاصة على كتاب « متزبنى » الذى قاسى معى برد الجو وأنهار
المطر وشعرت أن مؤلفه شاركنى محنتى ، فأكبرنا مات فى الغربه
مكافحا فى سبيل وطنه وقد اقتديت به فأصدرت من ذلك البيت
جريدتين للدفاع عن وطنى احدهما بالعربية « صوت الشعب »
مطبوعة على الحجر والثانية « مصر Egypt » بالانجليزية مطبوعة
عند فيفر ، وكاتبت صحف فرنسا ولا سيما اكليز (البرق) لصاحبها
ارنست جوديه ، وفيها رددت على تيودور روزفلت الرئيس الأسبق
لجمهورية الولايات المتحدة وكان قد حمل على مصر حملة شعواء فى
القاهرة ولندن لأن أبناء عمومته الانجليز واليهود أكرموا مشوا على
حسابنا فى السودان ومصر فرد تحيتهم بالطن فى الوطنية المصرية
ولم يخجل هذا الرجل السخيف أن يعرض علينا الانجليز ويدعوهم

الى استعمال الهراوة فى معاملتنا ، فان لم يرغبوا فليدخلوا عن مصر
لتحكمها الجمهورية الأمريكية ١١ (١) . وهذا الرجل هو عم رورفلت
الآخر الذى توفى سنة ١٩٤٥ وكان اسوأ اعلان لاحلاف الاسريكان
وشر نذير لسياستهم فى الشرق والغرب وكشف المناخ لنا وغيرنا
عن خليفة الأمريكان منذ أربعين سنة .

فى الساعة الحادية عشرة صباحا نزلت الى قاعه الجلوس
فتلقنتنى صاحبة البيت بالبشر وقدمت الى مدام أوجسستا فيليوفنسا
دامانسكى وحيثنا وانصرفت .

- أين رأيتك يا سيدتى ؟ نعم فى فيلا بيانكا منذ عامين
فى لوزان فى بيت الكونت دى نافا ، ثم فى فيلا ترميدور فى ضواحي
لوزان ثم فى فندق مارتان المطل على البحيرة حيث قضينا سهرة .
ثم فى منتزه مونيونان ونى دكان الكتب وفى مكتب البريد .

(١) يشير لطفى جمعة الى زيارة الكولونيل نيودور روزفلت رئيس جمهوريه
الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق لمصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠
والقائه خطبة سياسية بمدينة الخرطوم مجد فيها الاحتلال ودعا الى الخنوع
لحكمه ، ولما وصل القاهرة ألقى خطبة أخرى بالجامعة المصرية عرج فيها على
حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها حينذاك معارضا تلك الحركة
ومؤيدا لسياسة الاستعمار ، فاثار سخط الرأى العام واستياءه ، وأرسل اليه
محمد فريد بركة احتجاج نيابة عن اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى ، كما أقام
الحزب اجتماعا ألقى فيه على فهمى كامل خطبة ردا على خطبة روزفلت ، وبعد
انتهاء الاجتماع سار الحاضرون جميعا فى مظاهرة صاخبة يرفرف عليها العلم
المصرى يؤمهم محمد فريد الى فندق شبرد حيث كان روزفلت ينزل به ، وهناك
هتفوا بالاستقلال والدستور وسقط روزفلت ، ولما وصل الى الاسكندرية ليستقل
البخرة قوبل فى المحطة بمظاهرة كبيرة نودى فيها بسقوطه وبحياة مصر
والاستقلال . (كتاب عبد الرحمن الرافعى ، محمد فريد ، المرجع السابق ،
ص ١٨٣) .

نعم ! انى سعيد برويتك ، تظنين اننى جئت قصدا اليك ؟ كنت اود ذلك من صميم قلبي ولكن كيف اعرف مقرك ؟ .. انها مصادفة باحته لعبه من القدر .. وانت بذكرين حتما اننى كنت ذاتما أشكرك ولا أطيل الحديث معك .. نعمم أذكر جيداً والدتك وطفلك « بوريس » وقد رأيته وهو نائم وأذكر قولك حين حنوت عليه « ان من يمسك يد الطفل يميناه يقبض على قلب الأم بيسراه ! » .. كنت صادقا في تلك الليلة واظن صدقي هو الذى أخافك .. لقد قلت لك وأنا أذكر أنه كان في الساعة الأولى بعد نصف الليل « يتجمل الى أننا اجتمعنا في حياة سابقة من زمن طويل جدا مثل هذا الاجتماع في هذا المكان وهذا الوقت » (١) ، وأذكر أن القمر كان مضيئا على جبل مون بلان وعلى مياه بحيرة ليمان، وأذكر أنك نهضت فجأة وقلت لي : يا سيدي قد آن أوان الرحيل .. فنهضت وقلت لك : الرحيل رحيلي .. فضحكت واعتذرت ، وتيقظت وكنت شبه نائم وقلت : نعم لقد أطلت المجلس وأمك لابد تنتظرك في الغرفة المجاورة .. طاب ليلك يا سيدي وشكرا على الشاي الذى شربته والحديث الطلى الذى سمعته .. وقد تركت بينك الساعة الثانية صباحا ، فلم أتم لأننى عزمتم على السفر الى باريس وكنت الى بروشيه صاحب فيلا ترميدور وقلت له سافرت لأن تلك السيدة الروسية أقلقت راحتي وأقضت مضجعي فتركت لها لوزان بمن فيها، وبعد ثلاثة أسابيع وصلنى خطاب من بروشيه قال لي فيه انك لحقت بي الى باريس وذهبت الى فندق فوياجير وهو عنوانى الذى

(١) سجل لطفى جمعة هذا الشعور في مقال بجريدة الدستور في مايو سنة ١٩٤٤ عنوانه « رجوع النفس الانسانية الى الماضى واشرافها على المستقبل » ذكر فيه ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أوجستا في تلك الليلة من ليالى أغسطس سنة ١٩٠٨ ، كما سجله أيضا في روايته « الفتى العادل » التى نشرت مسلسلة في حلقات بجريدة البلاغ اليومي سنة ١٩٣٠ ، وفي روايته الاخرى « عائدة » التى نشرت ايضا في حلقات مسلسلة بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٢ ، وفي روايته « سوسن هانم » التى لا تزال مخطوطة .

تركته لموسيو يروشيه ولم تجديني وأنت تبحثين عني . . كل هذا علمت به مصادفة ولكنني سسينته . . لعلك أردت أن تفسري لي سبب ذعرك وتناقض مسلكك إذ كنت تلحين على أن أزورك وأن أشرب فتجان شاي في بيتك ثم انقلبت بعد ساعة تقولين : يا سيدى لعلك متعب حتى خطر ببالك هذا الهاجس وهو أننا انسينا قبل الليلة في حياة سايقة فخير لك أن تؤوى الى فراشك . وأحب أن اوكد لك أنني كنت صادقا في قولي وفي شهورى ولم يكن ما قلته لك مصطنعا ولا مفتعلا ولم يكن هذا هذيان محموم ولا حلم محروم ولا استدراج خبير بقلوب النساء لعذراء مفتونة . . لا تغضبى ، ان لقاءنا هذا حل عقدة من لساني . . ان ما قلته لك في شرفة بيتك في لوزان كان لمحة قصيرة كالالهام الذى ينعم به شاعر أو مصور في طرفة عين ، ولكنه يكون واضحا وضوحا أليما لابد أن يعبر عنه . . هذا كل ما أردت أن أقول لك قبل أن تنمقى لي كلمة جديدة أو تدبرى لي فتنة !

وكادت السيدة أوجستا تنفجر من الغيظ والغضب . . ولكنها ملكت أعصابها وكنمت ما بها وتحكمت في لسانها وعواظها وقالت لي :

— شكرا لك على صراحتك التى لم أعود مثلها الا في وطني ولأجل النفاق الأوربي نحن نحتقر أهل هذه البلاد كلها ، وشكرا لك على أنك لم تجاملنى لئلا كنت أفر بعد أن استقرت بى النوى في هذه الضاحية لأكون قريبة من ولدى الوحيد . . وما دامت الصدفة قد جمعت بيننا فاقول لك اننى أعتقد فى الأقدار ولا بد أن للأقدار من غابة جمعتنا ! . . فان كنت قادما تنته الصحة ففي خير مكان وقمت ولن تجد من يعكر صفاء خلوتك ، أما أنا ففي شغل شاغل أرقب تنشئة ولدى وهو فى العاشرة من عمره وأكتب للمطالع في موسكو وبطرسبرج وستصل الأنسة « زينا » فى مساء هذا اليوم

وهي كاتبة يدى ومساعدتى فى تربية ابنى واعداد المواد لانتاجى
الأدبى وهو مصدر عيشى ٠٠ انها فتاة طيبة القلب من الحزب
الاشتراكى الديمقراطى مثل كل فتياتنا اللواتى ينتسبن للأحزاب
ويفكرن فى مستقبل بلادهن قبل التفكير فى الزواج .

ونهضت السيدة الروسية وعزفت على البيانو وقطعة « حديقة
تحت وقع المطر » من وضع ديبوسى وقطعة أخرى من وضع
تشايكوفسكى ثم نهضنا الى المائدة .

وامتدت تلك العشرة وطابت وان لم تطل ، وفى جنيف بضعة
أسابيع ، وفى شاربونير شهر ، وفى ايطاليا شهر ، وفى جنيف
شهر وفى مصر خمسة أشهر وفى بوفريه شهر تم فى ليون شهران
ثم فى جنيف شهر ، ولم تزد هذه الفترات فى مجموعها عن عام بدأ
فى مارس سنة ١٩١٠ وانتهى فى نوفمبر سنة ١٩١٠ .

واجتمعنا بضع ساعات فى يونيو سنة ١٩١٢ فى فيفى ثم
افترقنا الى الأبد ولم نلتق الا فى رؤيا كالحقيقة .

وما زال الدهر يجد فى القطيعة بيننا حتى سنة ١٩٢٧ فجاءنى
منها خطاب أهملته لسوء حظى فى الرد عليه وقد ندمت على تقصيرى
ومازلت نادما ، لأن هذه السيدة أدت الى من الفضل والجمال
مالا يحصى وتحملت بسببى آلاما كثيرة واستهانت فى سبيلى
بما لا يستهان به وادخلت الى عقلى وقلبى وروحى خواطر ومبادئ
ومشاعر تركت فيها آثارا لا يمحوها الزمن ولم يكن اليها من سبيل
او ذريعة غيرها ، وقد تفتحت فى ظلها كل مواهبى ورغائى ،
وتجسدت كل حقائق الحياة فى نظرى بفعلها وقوتها وإيمانها ،
وأرشدتني الى مطالعات ودراسات لم أكن أتناولها بدونها ، وأعانني
على قراءات وتحصيل علوم وسهرت على سهر الشقيقة والزوجة

والصديقة والام الروم ، جمال المرأة وخلالها وعقل الرجل وشمس تصرفه *

ولكن حيال هذه النعم كلها ادنتني بفعله واحدة من الموت المحقق لولا عنايه الله ورحمته ، فأزهدتني في الحياه احواسا وأفقدت ثقتي في جنس الانسان وأخرجتني من حلم الأديب الى غيظ المنتقم فكُتبت رواية « قلب المرأة » وبالغت في تسويد صفحتها وما كان ينبغي لي أن أفعل هذا (١) .

نعم لقد عراها الندم فترة ولكنني كنت اذ ذاك على شفا حفرة عميقة من اليأس ، الشمس الشفاء فلا أجد شفاء النفس والقلب ، وأخرجتني الى الضلال والعريضة أياما معدودة وما كان ينبغي لي لولاها .

ولكن غفر الله لها ، فقد علمت أنها تأملت كثيرا ، وأشد ما آلمني منها أنها هتكت أستارا وأباححت أسراراً كنت أظنها مصونة الى الأبد .

غفر الله لها لقد كهرت عن سيئاتها ، ولا ريب أنها قضت نحبها وقد اجتمعت بها بعد موتها مرة واحدة اجتماعاً لا تشك فيه ورأيتها في الرقوى مرات عدة ، واننى أسهر بها الآن بجانبى ، ولأجلها وقفت اليوم واللييلة على احياء ذكراها عافيا مصافحا سامحا متسامحا .

(١) « قلب المرأة » مسرحية وضعتها لطفي جمعة ومثلت بدار الاوبرا الملكية سنة ١٩١٦ ، وتدور أحداثها عن « أوجستا دامانسكى ، وقد قامت بتمثيلها فرقة جورج أبيض والشيخ سلامة حجازى ، وحازت جائزة التأليف التمثيلى سنة ١٩٣٦ . وقد قام الدكتور سيد على اسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا باصدارها ضمن أربع مسرحيات أخرى للطعن جمعه سنة ١٩٩٧ عن طريق مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة .

لقد نظرت الى الدنيا والحياة خلال شخصيتها وأدركت للمرة الأولى فضل المرأة على الرجل الناشئ في تفتيح ذهنه وعينه وقلبه للجمال والحق والخير ، وأنه لا سبيل لبلوغ هذه الدرجة الا في كنف قلب مخلص وروح صافية وعقل مدبر يخلق نوعا من الصداقة وسطا بين الحب والمودة وأداة لتهديب النفس وكمالها واطهار ما كمن فيها من الخير ويعمل على تنقيتها وتطهيرها ، وليس كل النساء بموهوبات هذه النعمة المزدوجة التي يسيطر بها العقل والفكر على الجسد ، وتتحكم المشاعر العالية والعواطف السامية على ما يتطلبه البدن ، وهذا ما يطلق عليه بعض الكتاب صفة الصداقة العاشقة (٢) .

ليل ١٩ مارس سنة ١٩٤٧

(٢) كتب لطفي جمعة عن هذه الصداقة العاشقة كتابا ممتازا عنوانه « تذكارات الصبا » ، ذكرى ١٩ مارس « تحدث فيه عن ذكريات لقائه بالمسييدة أوجستا دامانسكى وما تلاه من أحداث وسياحات معها في ربوع إيطاليا » . وقد شر هذا الكتاب سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب

العام الدراسي ١٩٠٩ - ١٩١٠

[١]

زيارة جون نيينه - اصدار صحيفتي صوت الشعب ومصر -
عيد العمال في أول مايو - ظهور المذنب هالي

قرأت في العام الدراسي ١٩٠٩ - ١٩١٠ كتباً كثيرة وكتبت كثيراً وجعلت في كل يوم أربع ساعات لمواصلة مذاكرة دروسى وتلخيصها واستعرت من كلية الحقوق فى جنيف كتباً ضخمة فى الاقتصاد والاشتراكية وكانت جزءاً من مقرر الاقتصاد السياسى ومن القانون التجارى ، وقرأت كتباً فى الاستعمار تطبيقاً على القانون أو التشريع الاستعمارى فى فرنسا ، ومن هنا جاء تخصصى فى مكافحة الاستعمار الانجليزى ، وواظبت على قراءة المجلات الفرنسية والانجليزية وكبريات الصحف اليومية وارتبطت ببعض المكتبات لاستجلاب المطبوعات الحديثة فى كل فن .

وكان حى كاروج فى تلك الفترة مقر الثوار وكنا نلمحهم فى ذهابهم الى الحفلات السياسية وسماع الخطب التى يلقيها أمثال جوريس والمساجلات بين الساسة والزعماء فى بيت الشعب بساحة بلانبلية ، وأصغيت الى الأوبرات للمرة الأولى وان كنت شهدها كثيراً فى مصر وباريس ولم أفهم لها معنى ولم أطرب لموسيقاها ، ولكننى سمعت لوهنجرين وطائفة من موسيقى فاجنر فرأيت عالماً روحياً كان مغلقاً دونى ، وعجبت لمن كانوا من أهل مصر

يعرضون عن الأوبرا ويدعون أن لا فائدة فيها الا لمناظرها ويقصدون
جمال النساء ورقصاتهن !

وذهبت في هذه الفترة لزيارة جون نينيه Ninet
الكاتب المحارب السويسرى وضيف مصر فى عهد الخديو اسماعيل
ومستشار عرابى أثناء الثورة العراقية وهو الذى أفتى له عشية التل
الكبير قبيل الموقعة بساعات بردم قنال السويس وعدم الثقة بوعود
ديليسميس فجبن عرابى خوفا من أوربا فكان جبنه سبب نكبة مصر
فى التل الكبير ، لأن القنال لو ردم فى تلك الليلة ما استطاع
الانجليز هؤلاء اللصوص الحمر الشباب والوجوه والسود القلوب
والأرواح أن يصلوا الى جيشنا أو يدخلوا بلادنا كما فشلوا فى
كفر الدوار .

كان نينيه عندما رأيته فى التسعين من عمره ، أبيض الشعر
مجعد الوجه مهيب الطلعة خافت الصوت أكبر من بلنت الذى زرته
فى العام الماضى (سبتمبر سنة ١٩٠٩) بخمس عشرة أو عشرين
سنة على الأقل ، ولم يكن الرجل فى تمام وعيه ولكنه أدرك أننى من
مصر وأننى عدو الانجليز وأننى جئت لزيارته لشكره ، وكنت قرأت
كل ما كتبه عن مصر منذ سنتين «بلد الخديوين» و «اسماعيل باشا»
و «عرابى باشا» و «ضياح مصر على يد أوربا» . ويعد نينيه من
مفاخر سويسرا وقد تأثرت كثيرا بهذه الزيارة وشربت عنده قهوة
وهو مخدوم خدمة فائقة وبينه فى غاية الأناقة والجمال وقد توفى
بعد ذلك ببضع سنين (١) .

(١) جون نينيه رجل سويسرى أقام فى مصر أكثر من أربعين سنة منذ أن
قدم إليها فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ، وقد خالط أهل مصر
من جميع الطبقات وعرف أحوالها معرفة وثوق كأنه من أهلها ، وقد شهد بنفسه
مأساة الاسكندرية فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ والتي اتخذتها انجلترا ذريعة لضرب

لم تطل هذه الفترة الأولى الا أسبوعين رحلت بعدهما الى ليون
 •• فزرت الكلية وحضرت بعض المحاضرات وقابلت الأستاذ لامبير ،
 وحاولت البقاء في بيتي ولكنني لما شعرت بالضعف يعاودني عقدت
 العزم على العودة الى جنيف ، وشددت رحلي على أن أعود في يونيو
 قبل الامتحان بشهر على الأقل ، وعلى ألا أقطن ليون وأقيم بضاحية
 شاربونير وهي ضاحية باسمة فيها هواء وبساتين وحمامات
 وملعب للتمثيل •

وفي هذه المرة أصدرت الصحيفتين اللتين ذكرتهما « صوت
 الشعب » و « مصر » وتوجد منهما نسخ في كل مكتبات أوروبا العامة
 ولكنهما صودرتا ومنعتا من الدخول الى مصر ، وبالرغم من ذلك
 تمكنت من ايصال بعض النسخ بطريقة سرية •

ومن أهم ما أذكره في هذه الفترة الثانية عيد العمال في أول
 مايو سنة ١٩١٠ وكان الاحتفال به في جميع أنحاء أوروبا عظيما جدا
 ما عد انجلترا ، وكانت حركة العمال قد قويت في فرنسا بتأثير
 جوريس وفي ألمانيا بتأثير أوجست بييل وفي انجلترا برياسة
 كيرهاردي ، ولكن الانجليز لا يفهمون المظاهرات الا نادرا •

وفي هذا اليوم خرجنا الى المدينة لنشهد المظاهرة الكبرى التي
 اشتركت فيها جميع طوائف الشعب ولم أر مثلها الا في مصر أثناء
 ثورة سنة ١٩١٩ ، وأثناء تلك المظاهرة السلمية الجميلة لم يمد
 البوليس يده ولا لسانه •

= المدينة بالقنابل أثناء الثورة العربية وما تلا ذلك من أحداث الاحتلال الانجليزي
 لمصر ، وقد وصف في كتاباته حادث الاسكندرية وصف شاهد عيان وأورد ما دار
 بينه وبين عمر لطفي محافظ الاسكندرية حينذاك ولموه على موقفه السلبي من
 هذه الأحداث وطلبه من ادميرال الاسطول الانجليزي أن ينزل جنودا بالمدينة لان
 عرابي لن يقوى على حفظ الأمن فيها !! •

ان طبقة العمال مفلأومون ومفلأوبون على امرهم فى أوطانهم
ويظهر أنهم يشعرون أن عدوهم المشترك هو الرأسمالية ، فهم
يحتجون عليها ويجدون لهم متنفسا فى أى مناسبة ممكنة •

كانت حياتى فى تلك الفترة شسبه انتصار فى معركة على
الموت والمرضى والخمول الذهنى واليأس والغربة ، فأراد الله لى
أن أفوز فى المعركة وأن ينصرنى على عوامل الضعف والخيبة ،
وقد هيا لى أسباب النصر وعناصره ، وانى الآن - بعد نضج العمر
ومذاق الحياة والوصول الى غروبها وظهور الشفق فى الأفق -
لأدهش من تلك الذكريات للحوادث والأيام المواتية !

نعم • أصابتنى فى تلك الفترة صدمات تحطم القلب وتهد
القوى وتضعف الجهد وتتهدد السعادة وتكاد تعصف بها • ولكننى
صمدت لها جميعا وتغلبت عليها واجتزت جميع عقباتها •

كان شهر مايو هذا من عام ١٩١٠ عجيبا ، فقد ظهر فيه مذنب
هائل ورئى فى جميع أنحاء العالم وأخيرا قالوا انه سيطهر فى سماء
سويسرا فى ليلة حدودها ، فسهرنا فى تلك الليلة وعولنا على ان
نسير الى المرصد الفلكى من كل أهل الدار وكنت أكره أن أترك
فراشى ليلا لأشهد تلك الظاهرة ، ولكننى علمت أن هذه الظاهرة
لا تبدو للمعيان الا فى كل ثمانين سنة مرة ، فتحملت المشقة وقمت
فى منتصف الليل ، ولم أكد أخطو خارج الدار بضع خطوات وأرفع
رأسى الى الأفق الأعلى ، وفى ظنى أن الكوكب لن يبدو الا بعد ساعة
أو ساعتين ، واذا بى أرى منظرا فخما رهيبا لا ينسى ، وانى آسف
على أن الصور المتحركة لم تكن سنة ١٩١٠ قد بلغت ما بلغت
الآن لتسجل هذا المشهد الرائع الذى لا ينسى •

فجأة رأيت سباعيا من النور مكونا من عشرات الكواكب
الكبيرة المصحوبة بعدد آخر أصغر حجما ومذيلة بسلسلة نورانية

وقد ملأت الأفق نورا وبهاء ، وهى تقطع أجواز الفضاء بسرعة عجيبة كأنها القطار السريع من الشمال الى الجنوب ، وكانت لشدة جمالها فى موكبها ولغراية المنظر وجلالته ولاعتقادك أنه لن يعود لك فى هذه الدنيا ، تكاد الروح تطير شعاعا اليه ، فمقيت فى مكانى كما لو أن أقدامى شدت الى الأرض بأمراس كتان ، مشدوها سائحا سائحا فى عالم الجمال والدهشة !

لقد مرت بى فترة من الأزالية والمستثنى يد علوية وأطن كل من
شهد هذا المنظر يذكر هذا الشعور العجيب ، لقد كان المذنب العظيم
أغرب من القمر لأنك ترى القمر ثابتا وينتقل فى منازل ببطء
شديد ، ولكن المذنب يجرى لا مستقر له ، وناهيك بهذا الكون الذى
يتسع لان يذرعه هذا الجرم المزدحم بالكواكب والأقمار ويطوف
ركنا من أركانه مطافا مئينيا بحيث لا يظهر لأهل الأرض - ذلك
الكوكب القاتم المطفأ - الا فى كل قرن مرة واحدة !

وعندما عدنا الى المنزل قابلت فتاة بدرتني بسؤالها : هل رأيت يا سيدى الكوكب ؟ • وكان وجهها مضيئا مملوءا عجباً واعجاباً وإيماناً ، فقلت لها : نعم وأنت ؟ • قالت : نعم رأيتهُ ولم أعرف نعمة رؤيته الا بعد أن مرق في السماء مروق السهم المخترق جوف الفضاء العلوى ، ويا حبيذا لو كنت أراه مرة أخرى • طبعاً لن أراه لأنه لن يظهر الا بعد ثمانين سنة أخرى وأين نكون بعد ثمانين سنة ؟ طبعاً سنكون تحت التراب • قلت لها : من يدري ؟ قالت : أترضى لى أن أعيش ثمانين عاماً أخرى ؟ قلت : ربما ولكن لملك تكونين بحيث يكون هذا الكوكب من أصغر ما تتمتع روحك برؤيته • فنظرت الى السماء وقالت : من يدري !؟

كنت أتسلى في هذه الفترة بالمطالعة في أوقات الفراغ وأغشى

الدرس وأروح عن نفسى بكلية الآداب ودراسة الهيروغليفى على
الأستاذ لورتيه وكان من رفاقى فى الدرس « بيير مونتيه » الذى
اكتشف مقبرة « بشمس » فى صان الحجر والمرجوم أحمد زكى .
وكنت أحاضر فى قاعات المحاضرة وأشارك لأمير وهريو فى تكوين
المدارس العلمانية « ميسيون لايبك » ومن بينها الليسية الفرنسية
التي تأسست فى مصر لمقاومة النزعة الدينية فى مدارس الفرير .

ولقد عشت عيشة سعيدة ، وكنت أنسلم بريدا ضحما ،
فانى لم أقطع صلتى بأصدقائى الايرلنديين والهنود الذين عرفتهم
فى مؤتمر جنيف المصرى سنة ١٩٠٩ وكان كثير من الفضلاء
يبحثون الى بكتبهم المطبوعة .

(٢)

فترة جديدة

جان جاك روسو - سباستيان فور - جان جوريس -

برتونى - مجلة ميركوردى فرانس -

الراقصة العالمية ايزدورا دنكان

غادرت بيت آل راسين فى ضاحية بيتى لانسى ووصلت
شامبل ونزلت بفيلادى روز لصاحبتها مدام فارين ، وبدأت فترة
جديدة فى حياتى ، وصار قريى من جنيف أنفع لى فى الوصول الى
المكتبة الجامعية ، فان الطريق كان قصيرا بين شامبل وساحة

يلانباليه وساحة الملعب وميدان الجنرال ديفور بطل سويسرا الوحيد مثل الميجور دافل في لوزان ، ومن هناك الى كاروج فشارع مونبلان والجسر الكبير وجزيرة جان جاك روسو وساحة بلير وموقف الكهرباء الموصل لبيتي لانسي ، وحرصت على الاطلاع على روائع الأدب الفرنسي ولا سيما مؤلفات جان جاك روسو « الاعتراف » و « العقد الاجتماعي » و « أسباب التفاوت بين البشر » فالتهمتھا ، ودرست حياة جان جاك وكتبه وداومت على تفھمھا وصممت على أن أفتتح بفلسفته وأفكاره وآرائه ومبادئه محاضرات ألقیھا على المتأدبين من أهل مصر عند عودتي الى وطني ، فهو لابد أن يكون أقرب الناس الى قلوب هذه الأمة فقد كان للحق وللحرة وللضعفاء .

وكنـت أـحـضـر خـطـبـا ومـحـاضـرات فـى بـيـت الشـعـب وسـمـعـت سـبـاسـتـيـان فـور وجـان جـورـيس وبـرتـونـى ، وسـبـاسـتـيـان هـذا كـان كـهـلا مـكـافـحـا و كـان يـتـجـدى خـصـومـه لـمـنازـلـتـه فـى مـيـدان الفـصـاحـة والتـاريـخ والفـلسـفـة ، و كـان اذـا تـحـمـس يـخـلـع سـتـرـتـه ويـشـمـر عـن سـاعـدـه وبـفـيـض نـهـر مـنـهـم مـن الـبـلاغة المـرتـجـلة .

أما جوريس فكان نوعاً آخر من الرجال يشبهه خطباء اليونان والرومان الأقدمين ، وكان أسنأذ فلسفة وادب في السوربون وقد غادر منصب التدريس لينصر الشعب المظلوم وينشر الاشتراكية ، وقد تعودت من ذلك العهد أن أقرأ جريدة الانسانية « هيومانيتي » .

وكان برتوني عاملا سويسريا في مطبعة يعيش من عرق
جيبينه وجهه ذراعيه (١) ، ولكنه كان ينشر مبادئ العمال في أنحاء
سويسرا ويتنقل ويرحل ويؤلف اللجان ويكتب الرسائل ويبيع

(١) كَتَبَ لحافى جمعة مقالا نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩
عنوانه « صفحة من حياة العمال فى أوربا ، كيف مات برتونى الشهير بساحة =

الكتب ويجمع المال لنصرة المبدأ الذى يدافع عنه ، وقد زرناء فى بيته ، وعشنا فى جنيف حتى رأينا البوليس السويسرى - وهو مطبوع على الغدر والتلفيق والانتقام - يلصق بـ تـ نـى وثلاثة من أنصاره ورفاقه تهمة التحريض على الثورة والشروع فى قتل الشرطة وأنه ورفاقه كانوا يعلقون منشورات ويلصقونها بالجدران تدعو الى الفتنة وزعزعة الأمن الى آخر تلك التهم الحاضرة فى أذهان البوليس فى كل مكان . والعجيب فى أمر هذه التهمة فى تلك البلدة الضيقة العقل المحكومة بجمهورية رجعية وحكومة رأسمالية . أنها عندما وصلت الى محكمة الجنايات ، تقدم للدفاع عن برتونى لفيف من المحامين متطوعين فشكرهم واعتذر لهم وقال انه سيتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، فبهت الرأى العام لأن برتونى لم يكن على علم بإجراءات المحاكم ولكنه قال ما دام فى المحكمة محلفون فلست أبالى فان تهمة البوليس أوهن وأضعف وأخرى وأكذب من أن تقف على قدم واحد فضلا عن قدمين . وقد كان وصح نظره وصدق رأيه وتحطمت التهمة وحكم قضاة جنيف ببرائه بعد أن أبدى المحلفون رأيهم بأن لا جناية ، وهلل الناس فى المحكمة وهتفوا للعدل ولبرتونى .

وانتهزت فرصة زيارتى المكتبات واطلعت على مجلة « مركودى فرانس » ، ولم أكن قد سمعت بها ولا قرأتها ، فكان اهتدائى اليها ظفرا لى ومصدر معرفة واسعة بالأدب والفنون الحديثة ، فاقبلت على المجلة فهى تنشر للأساتذة الراسخين والنوابغ البادئين وتميل الى التجديد فى كل شئ . ونلخص الكتب والمجلات الأوروبية وتصدر مرتين فى الشهر وتطبع كل مرة أكثر من مائتى

= بلانبلية بمدينة جنيف « وصف فيه اعتداء الشرى كوشو نموران على بيرتونى زعيم العمال على اثر ضبطه متلبسا بلصق منشورات بساحة بلانبلية وحى مون بلان حتى لفظ أنفاسه نتيجة الضرب على الرأس والبطن والظهر والدوس بالأقدام . »

صفحة بفرنك ونصف ، فبادرت الى الاشتراك فيها ومازلت مشتركا الى عام ١٩١٨ او ١٩٣٩ واحصيت بمجموعتها ، وشاءت الاقدار ان اكتب فيها مقالا سنة ١٩٢٠ (١) ، وتنامت مقبالتها فمدمني بالذنب الجديدة ، وفيها اطلعت على الحركة الجديدة في فرنسا والمبايسا وايطاليا وحتى انجلترا والممارس الادبيه نثرا وشعرا وتعرفت في صفحاتها الى الناشر الشاب وتسلسلهم كابرا عن نابير ، وكانت جريدتا « الطان » و « الميجارو » ومجده «مركردى فرانس» تغذى نهى في الادب وتربط الماضي بالحاضر ، فكم قرأت لبول فرلين وآرتور ريمبو وجان ريشبان وفرنسيس جام وريمى دى جورمون صاحب الشهريات الباهرة وهى مزيج من الفلسفة والادب والعلم ، اما نقد الكتب والحركة العملية وتلخيص الرسائل والبحوث الممتعة المسهبة فحدث ولا حرج .

وفي هذه الفترة دعيت الى حفلة لمشاهدة الراقصة العالمية ايزيدورا دانكان وكانت ترقص فى كازينو الكورسال وكنت شغوبا برؤية هذه المرأة لكثرة ما قرأت عنها فى الصحف الانجليزية لأنها اسكوتلاندية متحررة وأوربية النزعة عالمية الشهرة كونية الفن !

كانت الساعة التاسعة عندما رفعت الستار عن مسرح ايزيدورا دنكان ، ولهذه الفنانة العظمى مناظر خاصة وديكور خاص يقوم به عمال تابعون لها لأنها ذات فرقة كاملة ولها أوركسترا كاملة ولها حواريون وتوابح كالنجوم التى تتبع الكواكب السيارة فى أفلاكها ، وهى الكوكب السيار ، فأكون قد رأيت فى هذا الربيع

(١) عنوان المقال الذى كتبته لطفى جمعه فى مجلة Mercure de France

بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٩٢٠ هو :

« A propos du tour hindou de La Corde Rigide ,

ص ٨٥٢ - ٨٥٥ .

كوكبين سيارين ، أحدهما رامح وهو مذنب هيلي والثاني راقص وهو ايزيدورا دنكان ، فلم يقل أحدهما في نظري في الجمال والروعة ودقة الحركة ، وان كان يصح اطلاق صفه الكوكب على امرأة ممثلة أو راقصة ، لصح اطلاق هذا الوصف على ايزيدورا دنكان دون سواها ، لان كل كواكب الفنون المسرحية عيال عليها .

وهذه المرأة لها بدن ليس مثل الأبدان ، فهو طوع ارادتها كأنه خال من العظام ، تنشره وتطويه وتفردته وتثنيه وتمده وتمطه وتطيله وتقصره وتسهب فيه وتختصر ، وأعصابها طوع عقلها وعضلاتها طوع أعصابها ، وميزتها وحدتها كالمقصيدة الملتحمة أو الأغنية الموقعة ، ثم مع هذا كله مجموعة من المناظر العجيبة النابضة بالحياة .

وعندما ترقص تنفس وتختلج تبعا لرقصتها وكل عضو من أعضائها طروب يتبع النغم الرتيب ، وكأنها بمجموعها ساعة دقيقة الصنع شديدة الضبط تتبع الكواكب في حركتها الفلكية ، وهي لا تنطق ولا تغنى ، ولذة النفس منها بصرية سمعية ، فأنت ترى هذا البدن اللين اللين المرن ، وتسمع تلك الأنغام العجيبة ، وتتحد اللذتان فتوحدان لذة عقلية تمثل اللذة التي نسيبها عند سماع موسيقى فاجنر .

ولقد حبست أنفاسي مرتين بغير قصد مني وطال احتباسها ولم أشعر بضيق ، المرة الأولى عند سماعي أوبرا لوهنجرين والثانية عند مشاهدة رقص ايزيدورا ، وفي كل منهما لم يكن لغير العقل لذة مطلقا ولا دخل لعاطفة الجمال ، ولا أدري ان كنت أقول ما يطابق آراء النقاد والخبراء ولكنني أقول ما شعرت به .

هذه المرأة قالوا عنها انها أحببت الرقص اليوناني القديم وانها تقلد رقص الهياكل في الهند وفي ذلك ، قالوا كثيرا ، ولكن

أقول انها تبتكر رقصا نوعيا مثل « رقصة الأوزة » ، و « رقصة
السمف في السب » وهن الفتيات اللواتي يتعقبهن « بان » ، وهى
تجعل هذه الأشياء والكائنات صورة ذهنية تفسر بها المعانى تفسيراً
بالحرثات ، حتى الجماد تعطي الحياة ، فقد رقصت فى تلك
الليلة « رقصة الأوعية Les Vases » لا نقصد الصحن والسلطانية ،
ولكن نقصد الى الأوعية من الصينى والفاشاني والخزف والذهب
والعاج والكريستال والمرمر التى تفنن النحاتون والمصورون فى
صنعها فى العهود القديمة لأسباب دينية أو فنية ، وهى الأواني التى
تعرض فى المتاحف وقد حذقها أهل الصين واليابان ، تخيل ونصور
أن هذه الأواني ترقص أمام عينيك ! ، أو أن امرأة من لحم ودم
وعظم تتخذ أوضاع تلك الأواني المختلفة فتتبع الأوضاع بعضها
بعضاً فى أناة حتى تملأ عينيك ويتم تخيلك وتدرك النسبة بين
الحقيقة والتقليد ، وترى الحياة تنبض فى الجماد وترى الجماد
الجميل يندمج مع الحياة وصورة امرأة عارية لا يسترها إلا مهلهلات
من الأقمشة الشفافة بلون البحر أو الورد أو الفل أو الشفق
أو الفضة !

وأرجو أن أكون صادقاً عندما أقول اننى لم أر من بدنها
إلا التوقيع ، وكانت فى رقصة الأوزة تبتكر أوضاعاً وحركات
برأسها ويديها ورجليها وجذعها تجعلها كالأوزة فى سباحاتها وفى
طيرانها وحركة أجنحتها وفى طول رقبتها !

وكانت الموسيقى الموضوعية لكل منظر خاصة به تتمشى مع
المنظر والحركات تمشياً مذهشاً ، ولم يكن الناس مسرورين
أو مدهوشين أو معجبين ، بل كانوا مجانين وصرعى ومأخوذين ،
وكان أغرب الشيء أن المرأة المخلصة لفنها كانت هى أيضاً طروباً
رفخورا ومنتشبة بنشوة الرقص الذى أبدعته وحققته لاهرة الأولى
فى تاريخ الفنون .

هذه ساعات يقول العوام انها لا تحسب من العمر ، ولكن حقيقتها أنها دون سواها هي التي تحسب من العمر !

ولم أشهد ايزيدورا بعد ذلك أبدا ، ولكنني تتبعت أخبارها بشغف شديد وشهدت إحدى تلميذاتها « بافولوا » في مصر وهي مقلدة لا مبتكرة ولم يظهر لها ذكر ولا شأن الا بعد موت شبيخة الطريقة ومؤسسة المدرسة .

وقرأت بعد ذلك بسنوات أن ايزيدورا دثكان عشقت شاعرا روسيا شابا فتنت به فعذبتها وأذاقها مرارة العيش ومرارة الحب من امرأة في خريفها لولد في ربيعها ، وقد دونت ذلك في مذكراتها التي نشرت في كتاب ، وكان لها ولدان ماتا باهمال مربية مستهترة وهما يتنزهان على أحد جسور باريس ، ومن ذلك التاريخ فقدت الفنانة العبقرية عقلها وحظها وانتحرت ، ولكن أصدقاءها صاغوا خبر موتها في صورة فنية فزعموا أنها كانت تقود سيارتها فاشتبكت أطراف شال حرير بالعجل والتفت على عنقها فراحت ضحية الشال والعجل مشنوقة ، ولم أصدق هذه الرواية في وقتها .

(٣)

الاستعداد لامتحان اليسانس - الإقامة في شاربونير
خلوة الشرق - حياة الريف الفرنسي - حالة العالم في أوائل
القرن العشرين

كان يخيل الى في تلك الأيام التي بدأت برحلتى الى جنيف أنني مقبل على عهد سعيد جدا . وقد تحقق ذلك التخيل كما يتحقق

وصلت شاربونير في يوم شديد القيظ في أوله شديد المطر وهو أول يونيه وكان الامتحان يعقد في أواخر يوليه وشددت رحلي في آخره واهتديت الى مسكن جميل مستقل نزلت اليه متاعى ثم نظمت عملي وقصدت الى الكلية وأعدت صلات المودة وحضرت المحاضرات ، وفي أسبوع واحد اتصلت اتصالا وثيقا بدراستي فلم يفتنى شيء وأكثر من التردد على الأساتذة أسألهم وأناقشهم لأفحص نفسي وأقيس استعدادي ، وأخذت أعمل بعد الظهر في بيتي ويزورني فيه الطلاب المصريون المقيمون في شاربونير ومنهم المرحوم علي فوزي وعبد الحليم البيل ومحمد بيومي وغيرهم .

وزارني في هذا البيت الأستاذ محمد ناجي المصور وكان طالبا بالحقوق معي في فرقة واحدة وروى لي وصف سياحته في إيطاليا وزيارته المتاحف في روما وفلورنس ، وذكرني بسياحتي إليها منذ أربعة أعوام (١٩٠٦) ولكنه تكلم بلسان الفنان الذي عرف ودرس فلزمت الصمت خشية أن أكتشف عن جهل وأنا سأشيد السمعة ونذرت أنني اذا نجحت في الامتحان فلابد لي من السفر الى فلورنس .

كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتي ، فأنني كنت في جوار العلم وأحضان كليتي وبين أساتذتي وإخواني الطلاب ، أقصد الى ليون في كل صباح أتابع دروسي وأشهادك في تكوين « خلية الشرق » وهي المعهد الذي أسسه إدوارد لامبير لمواصلة بحثه في الشريعة الإسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى ، وقمت بقسطين من اللقاء المحاضرات العامة فيها وفي الكلية ، وقد خلفني الأستاذ مصطفى عبد الرازقي في فترة غيابي ، وكنت ألقى تلك المحاضرات بالفرنسية ثم بالعربية لمصلحة إخواني المصريين والتهرب من الاصطلاحات الفقهية .

وقد وجدت سرورا كبيرا في حياة الريف الفرنسي لما فيها من الطرافة والعراقة ، فكان لحياة الريف الفرنسي لذة وجمال يفوقان لذة الحياة في ضواحي جنيف ، فانك هنا تشعر بأنك في وطن لا في اغتراب ، وتشعر بأن الناس لا يستغلونك لأنك سائح بل يعاونونك ويقدرونك ويألفونك ولا ينافقون في معاملتك كما يفعل أهل جنيف بقصد المكسب والمن عليك بأنهم أصحاب البلد والأرزاق والجبال والبحيرات والأنهار ويؤجرونها لك ويبيعون لك جمال الطبيعة بيبعا ، ثم ان للجمال في ليون وضواحيها طابعا خاصا ، طابع الفطرة لا طابع الاصطناع .

كانت هذه الأيام زاخرة بالحياة والحركة والمعرفة الحماسية في كل أنحاء العالم ومن بينها مصر وكذلك انجلترا ، وكانت تتمخض عن حركة العمال الاشتراكية على طريقةهم الجامعة الباردة ، وصار الجمهوريون في فرنسا شيوعيين والأحرار ملحدين وأحزاب الشمال فوضويين ، ونزل أناطول فرانس وأندريه جيد ومارسيل سامبا الى الشوارع لقيادة الحركات الجديدة .

وبالجملة كانت الدنيا تغلي كالمرجل المقبل على الانفجار ، وأظن أعظم الأسباب لهذه الحال كانت سلطة الرأسمالية وحرب الطبقات وانتشار الفقر وفحش الثروات الطائلة في بريطانيا وأمريكا وفرنسا وانحصارها في أيد معدودة وحرمان الكافة .

فلا عجب ان كان الشباب المتعلم قد تأثر بهذه النهضة التي كانت تنفخ وراءها تحفز أوروبا للحرب سنة ١٩١٢ ثم كظمت أوروبا غيظها سنتين ريثما تستكمل استعدادها لتخوض غمار الحرب العالمية الأولى .

لقد ازدهرت الحضارة الأوروبية ونمت وتضخمت ، والاذهان تفتحت والنفوس اشتعلت والأمزجة توهجت وأنذرت بنهاية هذه الحضارة التي عجل بنهايتها سياسة إنجلترا أمثال اسكويث ولويد جورج وكتشنر وغلبيوم الثاني وفرانسوا جوزيف والسلطان عبد الحميد وتيودور روزفلت ، وكان بعض المفكرين رأوا علامة الخطر ونذير الهلاك وإشارة آخر الزمن ولا سيما أرفالد شينجلر في ألمانيا وماكس نورداو في النمسا ورومان رولان وأناطول فرانس في فرنسا وأجست بييل في ألمانيا ، وحاولوا تفكير الدنيا وتذكيرها بواجبها ، ولكن الزمان أفلت من أيدي هؤلاء وتقدم الجناة والسفاحون وخدام المستبدين وأذئاب المستعمرين وعباد المال الى المعركة التي كانت الضربة الأولى .

وأظن هذه الحالة وما تلاها يفسر الغليان الذي كنا نشعر به كأننا نودع العصر الحديث الذي لم تكن قد قضينا منه الا عقدين من الزمان ، فقد كان عمرى في مستهل العقد الثالث ولم أتمتع بالوعى والادراك وقتها الا منذ خمس سنين .

— ٤ —

النجاح فى امتحان الميسانس

كان من أهم الأمور أن أسارع الى جواز الامتحان لاتحرر من قيود الدراسة ، وإن لم تكن الدراسة عاقبتنى عن المساهمة فى مؤتمر جنيف (سبتمبر سنة ١٩٠٩) ، ولم تعقنى عن الاتصال

رجال السياسة والأدب في أنحاء العالم ، ولكنني مازلت طالبا
ولا ينظر الى قولي وفعل الا نظرا للرجال الى طالب في ريعان
الشبابه ، وكانت ترد على خطابات ومكاتيب من المعروفين « بلنت »
و « كلير هاردي » و « نوم تيمبل » و « هزلتون » و « روشسنين »
والقيف من السياسة الانجليز والفرنسيين ، وقد انصت منذ عام
بالهشود ولا سيما شيما دجى كريسنا فارما صاحب مجلة « انديان
سوسيميولوجيست » ومدام كاما وهارديال وسافاركار ، وكانت
تصلني كتبهم المطبوعة والمخطوطة واخبارهم المتنابهة .

عندما حل يوم الامتحان - وكنت سأؤديه في ثلاثة أيام -
تبعت حمية خاصة وانقطعت عن المذاكرة وقضيت يومين في
الرياضة البدنية والسير في الحقول وفي غابة قريبة من
شاربونير .

وحدثت لي في هذا الامتحان بعض الحوادث العجيبة ، منها
أننى في عشية الامتحان رأيت في الرؤيا بعض الأسئلة في القانون
التجارى والدولى ، فاحتطت لذلك بمراجعة خاصة لهاتين المادتين
ولا سيما الأسئلة التى رأيتها فى المنام .

ودهشت اذ صادفتنى هذه الأسئلة نفسها فى الامتحان
وأجبت عنها اجابة حسنة جدا .

وفى اليوم التالى كنت أتوجس خيفة من امتحان عمانوئيل
ليفى الاسرائيلى لأنه شديد الفطنة وشديد مع الطلاب فى الامتحان
ولا سيما الغرباء ، وهو خطيب سياسى اشتراكى النزعة وثقة فى
القانون المدنى ولا يرجع الفضل فى نجاحه الا لاجتهاده ويحقد على
الارستقراطية والبورجوازية حقدا فى محله .

فلما كان يوم امتحاني أمامه - وهو اليوم الثاني - أقبلت عليه وأمامه طالب ياباني. وقد اضطرب ابن طوكيو اضطرابا شديدا ، فألقى عليه ليفي. سؤالا لا يعمده سهلا ولا صعبا ولكن بين بين ، فاحمر الياباني لأنه أصفر بالفطرة وقال له : أرجوك يا سيدي الأستاذ أن تكتب لي السؤال لأجيب عنه . فنظر الى ليفي وتنهده واستجمع قوته لأنه مصاب بربو مزمن وقال : وأسفه يا سيدي الياباني ان خطي أردأ من نطقي . أشكرك وأرجوك الانسحاب ! .

فلما جلست بين يديه بعد الياباني قال لي : وانت أيها السيد المصري ، أجب عن السؤال الذي عجز عنه سلفك ان شئت .

فأجبت بتوسع فقال : لا عجب فقد كانت عندك فرصة الاجابة بينما كان صاحبك مضطربا ، فهذا لا يدل على شيء . . . فأجبتني عن كيت وكيت . فأجبت به باسمي ، فقلب أوراقي وقال : بما أنك تعرف مقررك فما سبب الشائعة بأن الطلاب المصريين لا يستعدون ؟ . فقلت له : لا علم لي بهذه الشائعة . فألقى على سؤالا ثالثا وقال لي : لا تغضب ولكن أسألك ليطمئن قلبي ، ما الفرق بين القانون المدني والقانون التجاري في آراء الفقهاء ؟ . قلت : أجيب من المراجع أم من واقع درسك فقال : يكون أوقع . قلت كالفرق بين الحسنة المحتشمة والدميمة اللعوب ، فافتتر ثغره عن ابتسامه عريضة لأن هذه كانت نفس ألفاظه في محاضراته فقال : أشكرك لا فائدة في تعذيبك وتضييع وقتي . فابتسمت وتركته .

ومررت أمام كل اللجان وفي كل منها ثلاثة أساتذة محلفون وعميد الكلية ، وفي اليوم الثالث كان امتحاني في التشريع الاستعماري وتشريع العمال والمبادئ الاقتصادية .

وفى اليوم نفسه ظهرت النتيجة وهى نجاحى بتهنئة المحلفين وهى نتيجة تعلن والأساندة وقوف وتلوها تصفيق جمهور الطلاب وأهلهم ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى نلت فيها هذا الشرف فى كلية الحقوق ، وخرجت مسرورا ووصلت الى شاربونير فى الساعة الثانية بعد الظهر .

وفى تلك الليلة سهرت فى الكازينو وحضرت التمثيل الموسيقى وشعرت بحرية وسعادة لم أشعر بمثلها منذ أربع سنوات أو ثمان وهى مناسبات الشهاداتين الابتدائية (١٩٠٠) والثانوية (١٩٠٧) وكل منهما تدل على قضاء مرحلة من الحياة والدخول فى المرحلة التالية ، ولكننى عزميت على أداء امتحان الدكتوراه ، وإن كنت مجبرا على أداء امتحان المعادلة فى مصر بعد عام ، ولم أكن أعلم أننى فى شهر سبتمبر من تلك السنة نفسها (١٩١٠) ساكون فى باريس وبروكسل فى سبيل المؤتمر المصرى الوطنى الثانى ، وكنت أظن أن الدهر يسمح لى براحة ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل قبل استعدادى للدراسة الختامية .

- ٥ -

عقب النجاح فى امتحان الليسانس

إن الأيام السعيدة التى تعقب نجاحى فى الامتحان هى وحدها التى استمتعت بها وحسبتها أعيادا يجب على الاحتفال بها وهى أيام معدودة فى سنوات محدودة وكانت تتخللها أعوام شقاوة وعناء وعنت من الدهر فيخفف الله عنى أهوال تلك السنوات بأيام غر مججلة يعقد المحرية فيها النصر لوطنى .

ومن الآلام التي تخللت تلك الأعوام انشغالى الدائم على رزقى
اثناء دراستى ولم يكن لى مصدر محدد معلوم الا جهادى بقلمى
وما وجود الله به على من فيض نعمائه فتغنيى عن الناس .

ومن أحزان تلك السنوات وفاة المرحومين الشيخ محمد عبده
ومصطفى كامل وقاسم أمين وفى تلك السنه (١٩١٠) اعدام
المرحوم ابراهيم ناصف الوردائى ، وكانت قضيتته فى نفس ايام
الامتحان تنظر أمام محكمة الجنايات بمصر ، وكانت الصحف
المصرية تحمل الى مرافعات المحامين وفى مقدمتهم محمد على علوبة
بك ، وكانت مرافعة الهلباوى لا تهزنى لأننى كنت أشعر بأنه
يحاول الاخلاص ويبذل أقصى جهده ليمحو عن نفسه وصمة المرافعة
ضد الفلاحين اخوته وأبنائه الذين شادوا مجده وأغنوه وأوصلوه
الى مكانة العظماء فى غفلة الزمان ! .

وقد لاحظت أن جريدة الطان الباريسية كانت تعنى بذكر
الحوادث المهمة التى تحدث فى الشرق ، فهى وحدها التى نشرت
فى العام الماضى نص الصلاة التى وجهها « دنجرا » قبل اعدامه فى
لندن لقتله سيركيرزون وايلي وطبيب هندوسى ممالئ للانجليز ،
وبسبب هذه القضية قبض على سافاركار مؤلف كتاب الثورة
الهندية الذى وصلنى فى مارس بجنيف وهو ربيب وتلميذ مدام
كاما المقيمة فى باريس وصديق شيامدجى كريشنا فارما ، وقد
قبض على سافاركار فى لندن ونقل الى الهند وحكم عليه بالهفى
المؤبد فى جزيرة لاكاديف المشهورة بسوء جوها وفضاعة طقسها .
وفى تلك الصلاة التى وجهها دنجرا الى أمه الهند « باندى ماترام »
تمنى أن يموت ثم يبعث مرات لا عداد لها وفى كل مرة يتاح له
أن يقتل عددا من أعداء وطنه .

ونشرت في جريدة الطان وقرأتها أيضا في جريدة « ديلي ميل » وعلمت أن الشيخ عبد العزيز جابوش حكم عليه في مصر بالسجن ستة أشهر لأنه كتب كلمة في اللواء يوم إعدام دنجرا عنوانها « اليوم يعلم دنجرا » وكان وكيل إنجلترا المدعو الدون جورست صديق الخديو عباس .

كانت مثل هذه الحوادث تعكر صفو أيامي ولكنها تستحقني على المثابرة والمصابرة حتى أتم دراستي وأقوم بنصيب أوفى وأوفر في خدمة وطني .

ولم يكن نشر جريدتي « إيجيب » و « صوت الشعب » بكاف مع أنني كنت طالبا وقانون وزارة المعارف الفرنسية يحرم الاشتغال بالسياسة على الطلاب في جامعات فرنسا ، وقد لقيت عنقا شديدا من الموسيو اريسيتيد بريان وزير الداخلية ومن « دومرج » وزير المعارف ومن عميد الكلية الأستاذ فلورير ، ولكنه كان أقلهم تشددا وأكثرهم فهما ولطفا ، لأنني ذكرته بأنه ألزاسي الوطن والمولد والنشأة وأن كراهيتي للاحتلال البريطاني تشبه كراهيته لاحتلال ألمانيا للالزاس واللورين مسقط رأسه .

وكان من أثر انفعالي بتلك الحوادث أنني اتجهت في إنتاجي إلى نوع جديد من النشر الشعري أو الشعر المنتور هو الذي ظهر في ليالي الأرواح الحائر ولا سيما مصرع طيبريوس أحد طقاة روما وجوديت قاتلة هولفرن وقد جاء في حقها سفر في التوراة من الأسفار المحذوفة باسم « يهوديت » وكانت أوجه اخواني المصريين وأدعوه اسماع تلك النبتة التي كنت أعدها تجديدا في الأدب .



سياحة إيطاليا

- ١ -

قراءة مؤلفات « رينان » - زيارة معالم جنوا

زيارة مسقط رأس « متزيني »

حاولت أن أستريح عقيب الامتحان في شاربو نير ولكن القبط اشتد كثيرا ففضلت أن أرحل الى إيطاليا وأن يكون مقصدي الأول شواطئ البحر الأبيض الى جوار جنوا ، وودعت شاربونير وسافرت من محطة بيراش الى حدود إيطاليا ثم ركبت قطار باريس السريع الذي يهدف الى رومة فبلغت جنوا بعد ظهر اليوم الثاني ، ونزلت في فندق قريب من المحطة ، وكانت رحلة جميلة تتخللها لمحات من جمال فرنسا وإيطاليا وشاطئ البحر أحيانا ، ولكنني شعرت في أعماق نفسي أنني مقبل على المجهول وأرجعت حالتي النفسية وأوهامي الى مزاجي العصبي ومخاوف المشتغلين بالدراسة والأدب أمثالي ، فانهم كثيرا ما يتوهمون خيرا وشرا فلا يأتي هذا ولا يقع ذاك ، ومن بين تلك المخاوف ما كان يصيبني من حداثة سني كلما شرعت في وضع كتاب مثل « في بيوت الناس » ، و « تحرير مصر » ، وكنت أتوهم دائما أنني ساموت فجأة قبل أن أرى نسخة مطبوعة من هذين الكتابين ، وقد رايت أن هذه المخاوف لم تقادرنى حتى بعد أن تقدمت السن بي ، فكانت تعاودني تلك

الحال أثناء اعداد كتبي للطبع ولا سيما اننى اجعل لها فى وهى
شأنا خاصا مثل « حياة الشرق » و « تاريخ فلاسفة الاسلام »
و « اشهاب الراصد » ، وكانت هذه المخاوف تصيبنى قبيل
الامتحانات المهمة والأسفار ذوات النتائج الحاسمة فى حياتى ،
ولكن الله كان يطفئ بى فى كل حال ولهذا صرفت من ذهنى هذه
المخاوف .

وأذكر فى هذه الأيام أننى تعلقت بقراءة كتب « رينان »
تاريخ شعب بنى اسرائيل وحياة المسيح ، ولست أدري سبب هذا
الشغف برينان فى تلك الفترة ، ولكن أسلوب الرجل سحرنى
وتاريخ حياته وشجاعته وحرية عندما خلع ثياب الكهنوت بهرتنى ،
وأعجبنى منه قبل أن يكتب حياة المسيح وأعمال الرسل أنه سماح
فى الأرض المقدسة ، وقرأت صلاته الى منرفا آلهة الحكمة والجمال
عند الأقدمين وقد ألغاهما الرجل عند زيارته الاكروبول بأثينا ،
وقد ألف رينان كتابا عن ابن رشد فيلسوف الاسلام فى الأندلس
وكنت قرأته بالعربى فى ترجمة المأسوف عليه فرح أنطون منذ
بضع سنين وقام بالرد عليه المرحوم الشيخ محمد عبده فى مجلة
المنار ، وأعلم أن رينان احتفى بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده
فى باريس سنة ١٨٨٢ عندما كانا فى باريس وكانت نقطة الخلاف
بين المفتى وفرح أنطون أن أنطون استنتج من كتاب رينان عن ابن
رشد أن الاسلام أضيق عطنا بالفلسفة وحرية الفكر من المسيحية ،
فرد عليه المفتى ذاكرا قتل فلاسفة النصارى بأمر الكنيسة ولا سيما
برونو وأمثاله ومحاكم التفتيش .

وفى اليوم التالى خرجت لزيارة كنائس جنوا الشهيرة ورأيت
اللوحات الباهرة ولا سيما التصاوير من صنع الأساتذة الأوائل
والمباني الفخمة للمعابد وبعض قصور جنوا القديمة ، وزرت

الناميو سانتو وهو قصر الموتى ورأيت هناك من آيات الفن وبراعته
التصوير وحذق المثاليين والنجارين والحفارين فى المرمر ما يدهش
الألباب ويبهز الأبصار ويندهل العقول ، فلكل قبر تمثال لصاحبه
مرسوم فى المرمر ، الوجوه وسائر الأعضاء ناطقة شاخصة كأنها
أحياء ، ان تلك المناظر تبديل الأفكار وتسرى لرؤيتها رعدة خوف
وهزة اعجاب ، فان الصور والأشباح تكاد تنطق وتحل فيها أرواح
أصحابها !

وجلسنت فى الجاليريا وهى أفخم أسواق جنوا وأزخرها
بالبضاعة الحديثة وأثمنها ، وفيها أفخر المفاهى ومشارب المثلوجات
ودكاكين الحلوى والأقمشة النفيسة والتحف والألطف ، ولحجت
تماثيل لكريستوف كولومب واندريا دوربا وجوزيف مازينى
وأذكرتنى المدينة وخليجها الفخم بناهولى والبندقية فى وقت واحد .

وزرت متحف الصور وفيه لوحات عظيمة من صنع الأساتذة
الأقدمين ، وكنت لا أحب أن أزور متحفا الا اذا قرأت عن محتوياته
كلما كثيرا من آراء النقاد وتاريخ المصور ورأى الباحثين فى فنه
والا فأكون كالقروى الذى يزور العاصمة أو البندر ويتنقل فى
بلاهة وغفلة بين الأسواق !

كان معى كتاب متزنى الذى صهجنى فى يوم ١٩ مارس
وتحمل معى المطر والبرد وهطول الأمواه كأفواه القرب فى ذلك
اليوم الذى لا ينسى وقد تلطخت جلده من أثر ذلك اليوم ولم
أحاول ازلتها لتبقى ذكرى لما عانيت . . . ها أنا ذا فى مسقط رأس
متزنى نفسه وقد جذبتنى روحه الى وطنه ورأيت تمثاله ، ان مثل
هذه المصادفات فى الحياة لها أثر بالغ فى نفس الانسان ويظن

الناس أنها مصادفات ولكنني أعتقد أنها خطة مرسومة وثابتة ولا بد من حدوثها وتنفيذها حتى خطواتنا محدودة ومحسوبة :

مشيئتها خطي كتبت عليها
ومن كتبت عليه خطي مشيئتها



- ٢ -

فلورنسا

عزمت على الارتحال من جنوا ، وحزمت أمتعتي وقصديت الى المحطة فوجدت قطارا فحما يقف بضغ دقائق فتنبأت مقعدي وقطعنا مسافة بعيدة لم يمر بنا رقيب ولا مفتش ، وبعد ساعة وصلت الى محطة جنوا ووقف التفتار فترجلت وذهبت لأخذ التذاكر ، وبعد نصف ساعة تقدمت الى افرين القطار فوجدت مركبة عليها كلمتان « جنوفا - فيرنزة » وأخذت مكانى فى مركبة الدرجة الثانية وسألت أحد الموظفين عن موعد وصول القطار الى فلورنس فأجاب الساعة الرابعة عشرة يقصد الثانية بعد نصف الليل .

والعجيب فى هذه البلاد أن « الكوميسارى » يكاد لا يرى وجهه لأن أحدا منهم لا يتهم مسافرا بالانفلات واستغلال الحكومة بالباطل ولا يقبل على كرامته أن يركب قطارا بغير أجر كما هي الحال فى بعض بلاد الشرق .

وأشرف القطار على تورينو ودخلنا أرض توسكانيا السعيدة
ودنت ساعة النزول ، وعند وقوف القطار نزلت واخترت فندقا له
مركبة تنتظر الواصلين فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وبعد
ربع ساعة وصلت الى الفندق وعزمت على ألا أعادر الفندق الا فى
اليوم التالى بعد أن أكون رسمت خطة منظمة لعيشتى فى المدينة
ولا سيما وأن للغرفة التى اخترتها شرفة مطلة على شارع نهر الأدانو
وشباك يطل على حديقة غناء ، ورأيت من بعيد جسرا هو الذى التقى
عليه دانتي وبياتريس ملهمته التى صعد مع روحها الى السماء
لينظم جنته وجحيمه •

وفى صباح اليوم التالى ٣٠ يوليو سنة ١٩١٠ خرجت من
الفندق واتجهت الى ساحة القصر العتيق « بلانزوفيكيو » وكان
الوقت مبكرا والجو مشعبا برائحة وروح الأزهار والربيع والجمال
والتاريخ والجلال والذكريات •

شعرت للمرة الأولى بأننى فى بلد عجيب خالده ساحر ،
ونظرت فى وجوه الرجال والنساء والأطفال ، فاذا طابع خاص من
طوايع الجمال والفتنة والنبيل ، شعب رافع رأسه يحلم بالماضى
ويستمتع بالحاضر ، وثيق الصلة بالمستقبل وخاصة النساء
والعدارى بنات توسكانيا وكلهن ذوات خفر وحوار وسمرة جذابة
وشعر أسود فاحم وأعين ساحرة وأهداب طويلة وأفهام دقيقة
كثيرة الكرز وقودود فارعة وخصور نحيلة وسيقان جميلة وأقدام
مستوية وأيد ناطقة وأنامل كالعنب وحواس مرهقة ورؤوس كرؤوس
الطير فى لفتاتها وأعناق كأعناق الأطباء ، رأيت هؤلاء رائحات
غاديات كأنهن يتمتعن بكل لحظة من الزمن وبكل نظرة تلقى
عليهن أو يلقينها على الناس والأشياء فى ثياب فضفاضة ثمينة

تزئيتها محاسنها ، ذوات أطراف موشاة وذئبال تجر وراءهن
ولا يعلق بها تراب لأن شوارع فيرنزة لا تراب فيها وبعضها من
المرمر وهى محفوفة بالحدائق والبساتين والتلال العالية المكسوة
بالخضرة الدائمة .

سبحان الخلاق العظيم ! هؤلاء النساء والفتيات هن حفيدات
ربات الجمال والجمال اللواتى أخلدهن المثالون والمصورون فى
ألواح تزداد حسنا كلما تقدمت العهود عليها . وأية خسارة
أصابتنى بما قضيته فى السياحة والأسفار قبل أن أرى تلك
المدينة !

لم تكن الوجوه والأبدان وحدها ولكن المباني المشيدة
ومنعطقات الطرق والجماد ، الوجوه توحى وتلهم والجماد ينطق !

والمضوء هنا تأثير عجيب ، ولا بد أن يكون فى جو هذا البلد
وفى هوائه وأرضه وسمائه ما لا يوجد فى بلد آخر . . . ان الله
أعد بقاعا من الأرض وشرفها وجمالها وزينها وأحسن خلقها وجعلها
فتنة خير وأبدعها وجعلها كنوزا وجنات لخلقها ، وهذه المدينة
فلورنس فى مقدمتها ولعلها تبصت يوم القيامة على صورتها وحالتها
وهيأتها ! .

ما رومة وما باريس وما لندن وما برلين وفينا ؟ . . .
فيرنزة وميونخ والقاهرة تلك مدن الجمال والجلال والسحر
الجلال .

وددت أن أعيش فيها وأن أسكنها وأن أعشقها وأعشق
أهلها ولا أموت فيها أبدا لأن من يعيش فيها لا يموت أبدا . ليت

الى حظ كتابة كتاب كامل عن فيرنزة ، تاريخها ومعالمها وجمالها
وأبطالها وفنونها وماضيها وحاضرها ، اذن لكتبته بشغف وسعادة
لا تحيد !

وقد حدث لى أننى رأيت الكنيسة الكبرى التى تسمى « البومو » أى القبة ، وأقسم غير حانت أننى استبنت فيها عنصرا من عناصر الطبيعة مع أنها من صنع الانسان ، بناء ضخيم كالجبل من المرمر الملون ، وأؤكد أن مهندسيها وواضعى خططها وراسمى تصميمها وبانيها ومشيدوها كانوا من عباد فينوس ومرفا وكل أرباب الجمال العتيق العريق . . . وكانوا يستلهمون الجمال وحده فى وضع الأساس ورفع الجدران ونصب الأعمدة وتنسيق الزوايا والأركان ، ولا أدرى عدد أساتذة الفن الذين اشتركوا فى صنعها ، ولكن أعلم أن « جيوتو » الجبار صنع بابها من مصراعين من خشب الساج وزين كل مصراع زينة على حدة ، الأولى جملة للجنة والثانية للنار فى صورة بارزة من البرونز والنحاس .

وجلست فى مقهى فى ساحة القصر العتيق ، ومن العجيب
العاجب أن هذا المقهى يتسببه بعض مقاهى القاهرة التى تصف
مقاعدما فى الطريق وبينها مناضد نحاسية صغيرة وكل شئ
مصنوع بسطر عليه الفن والجمال .

وكننت اذ ذاك مأخوذاً بواجهة القصر العتيق وساعته الكبرى التي تشبه وجه الزمان وتزرى بألف ساعة لـ « وستمنستر » ، فنظرت ورائي واذا بي أرى سقيفة ذات شرفة عالية من مستوى الطريق بضلع خطوات وقد صفت فيها تماثيل من البرنز في مجموعة منسقة على ضخامتها وفخامتها تشبه الدبراري المنتظمة في سلك ، والسلك صار عقداً ، والعقد في جيد والجيد لحسناء فاتنة والحسناء الفاتنة هي المدينة فلورنس ، تلك السقيفة اسمها « لوجيا » وهي أفخر وأعرق ساحة .

أرجو ممن يقرأ هذه الصحف أن يعفو عني ويعذرني إذا لم أعد إلى ذكر المحاسن والمفاخر والمباهج والمشاعر التي هاجتها في نفسي تلك الإقامة السعيدة في هذا البلد ، فأنني أذن لا انتهى ولا أفرغ ولا أسمع ولا أكل ولا أمل ، بل إن القول يتجدد ولا يتكرر ، والعواطف تنهال والمعاني تنثال ، والمجال يتسع والطرق تتشعب والذكريات تنداغى والأعلام تترى ، ويصبح الحديث مزيجاً من الجمال والتاريخ والأدب والسياسة والفن والشعر والدين والحق واليمان والتقوى والعدل والظلم والفساد والباطل والجور والقسوة والفسوق والاحقاد ، ولست أنا بسبب هذه أو بعضها ، فقد وضعت قديماً كتاباً عن نهضة الأحياء ، أحياء العاوم والآداب والفنون ودرست هذه الفترة من الزمن دراسة وافية (١) ، ونقلت كتاب الأمير « ليكيا فليلى » أحد أعلام هذا البلد (٢) ، وأحببت « ليونارد دافنشى » و « ميكل انجلو » و « بوتشيلي » بعض سادة الفن الإيطالي ، وترجمت « ليجورو لومو سافونا رولا » أحد أتقياء وشهداء هذا البلد ، وقرأت نعيم دانتى وجحيمه في كوهيدرينته الإلهية التي نظمها مستوحياً حبه لبياتريس إحدى فائنات فلورنسا ، وكذلك قصص « بوكاشيو » أكبر قصاصيها وواصفى حياته في جده ولهوه وفي صحته ومرضه وفي شقوته وسعده ، وأننى لأحب فيرنزى وأعيش وفي قلبي ركن لها وفي نفسى حنين يجذبني إليها كأنه حنين لوطن الجمال .

بادرت بشراء « دليل الغريب النازح إلى ما في فيرنزى من المساكن والمطابخ » والتعريب من عندي ، وأخذت أطوف بالبيوت

(١) انظر هذه الدراسة في كتاب لطفى جمعه « مباحث في التاريخ » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

(٢) ترجم لطفى جمعة كتاب « الأمير » إلى العربية ونشره سنة ١٩١٢ ثم أعادت مؤسسة النورى بدمشق نشره سنة ١٩٩٠ ، كما أعادت دار قرطبة بليما سول بقبرص نشره سنة ١٩٩٨ .

حتى اهتديت الى بيت فيه غرفتان وحمام ومطبخ وشرفتان تطلان على الشارع والحديقة وهذه النعمة كلها لقاء خمسين قرنكا فى الشهر ، والفضل فى هذا اليسر لدليل الغريب النازح .

وحدث فى هذه الليلة أننى جلست أقرأ فى كتابين الأول لهيبوليت تين والثانى لجون رسكن وكلاهما فى وصف آثار فيرنزه وشرح لفنونها وتراجم مقتضبة للفنانين والكتاب والمفكرين من كتب السياحة الراقية وليس لهما منيل فى اللغات الأخرى ، لقد ودعت رينان بتوديع جنوا وافتتحت عهدا جديدا ورسمت خطة فوضعت بيانا للمصورين والمثاليين وحصرت المتاحف وما احتوى كل منها من صور وتماثيل ، وعرفت على الخريطة من دليل فلورنس للسائحين أماكن الكنائس الشهيرة وبيوت أبطال التاريخ لأزورها .

ان حياة الفن تقتضى حياة فنية ، والحياة الفنية هى « البوهيمية » وأنا لست فنانا ولا ناقدا فنيا وانما أنا طالب حقوق فى اجازة ، ولكننى شديد الشغف بالفنون الجميلة ، وحيث حططت رحالى ادعو ربى زدنى علما .

كانت الرابطة الأولى بينى وبين فيرنزه أنها كنز فنون ومعرض جمال ومدينة نادرة مثل أثينا فى العصور القديمة ، بل هى أثينا القرون الوسطى . نعم لم يظهر فيها فلاسفة كسقراط وأفلاطون وأرسطو ولا شعراء كهوميروس وسوفوكليس وأوريبيد وايشيل ، ولكن ظهر فيها فلاسفة وشعراء وساسة وفنانون ، ألم يكن نيكولا ماكيافلى فيلسوفا فى الاجتماع والسياسة والتاريخ وقد تطورت الأزمان ؟ ودانتى البجبرى كان شاعرا حكيما ألم بالدنيا والآخرة والجنة والنار ، وسافورنارولا ألم تكن له فلسفة فى الأخلاق والاصلاح لقى فى سبيلها حتفه ؟ وليونارد دافنشى لم يكن مصورا ومثالا فحسب ، بل كان فيلسوفا ومؤلفا ومخترعا ومكتشفا وعابدا من عباد الجمال والحق والخير .

لكل زمان أفكاره ومبادئه، وهذا البلد ليس كغيره من البلاد،
انه يحمل طابعاً خاصاً به وانه لتفوح منه عطور التاريخ .
وقد مرت به عواصف قواصف وحداث في أحداث كالتى مرت
بأزينا ورأى طغاة وجبابرة كالذين رأتهم أثينا أمثال أسرة مدينتى
وبورجيا ، وتحمل واقعات حروب وذاق آلام الجوع والمرض وذل
الحكم الأجنبي ، وكان جمهورية وطمع فى جيرانه وطمع فيه
القريب والغريب .

هذه المدينة كانت دائما كالمملكة المتوجة الباهرة الجمال لا يفنى
شبابها ، تحمل وتلد وتقذف الى الحياة فتينا وفتيات منهم النوايح
والعقريون الذين يحملون الشعلة المقدسة .

وقد حملت نفسى تبعة جديدة ، لابد أن أستعين بنسخة
إيطالية فى تمام ترجمتى لكتاب الأمير ، ومادمت فى بلد ميكافيلي
فلا بد أن أنتسب مع مواطنه فازور بيته ومغانيه وأقرأ من مؤلفاته
ما أستطيع ، ولابد أن أزور قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفيللا ،
وبيته ما يزال قائما فى رقم ١٧ فى جوتشاردينى ومؤلفاته محفوظة
فى بيته ، كما رأيت آثار سافونارولا وخط يده وتفسيره الانجيل
وبعض ثيابه والصليب الذى صلب عليه ، أما بدنه فقد أحرقوه
وذروا رماده فى نهر الأرنوكما فعلوا فى أشلاء بعض الأولياء عند
المسلمين فى بغداد (الحلاج) قبل ذلك بخمسةائة عام !

وما دمت بصدد هؤلاء العظماء فكيف لا أدرس حركة النهضة
كلها « رينسانس » فى القرون الثالث والرابع والخامس والسادس
عشر ، يقظة أوروبا بعد القرون الوسطى المظلمة . ألم أكن متوهسا
فى حب المعرفة ومجنونا بالوقوف على كل شيء اجمالا وتفصيلا ؟
نعم . انها كلها أشياء خليقة بالدرس والبحث وانها جديرة بأن

توقف عليها الأعمال والأموال ، ولكن أين الأعمار بل العمر الواحد الذى أستطيع وقفه على هذه الأمور كلها ؟ وأين الأموال التى يحتاج لها بعض فروع أصل واحد من هذه الأصول ؟ وهل يمكن لرجل واحد أن يحب كل هذه الأشياء ويتقنها ؟

اننى أكره التخصص وأمقت الرجل الذى يصغفونه بأنه متخصص فى قراءة الوثائق الخاصة بعلاقة فرانسوا الأول بليونارد دافنشى أو بصلة ليونارد بكونت سفورتزا وبتاريخ صورة جيوكندا وبتحقيق شخصية السيدة التى جلست للمصور حتى أتم رسم وجهها وعينيها وفمها وصدرها ويديها ، ولكننى إذا شغفت حبا بموضوع أجد نفسى كأحد هؤلاء المتهوسين بالتحقيق والتدقيق ، وفيهما تذهب الأعمار !

لقد قرأت قبل زيارة فلورنس كتاب « الزنبقة الحمراء » لأناتول فرانس وأعجبت بها ، انها قصة غرام وغيره للكاتب نفسه وقد وصفها وروى واقعاتها فى ذلك الاطار العجيب ، اطار فيرنزه ٠٠٠ لا بلد فى العالم يصلح للحب مثل بعض مدن ايطاليا كالبنديقية وروما وفيرونا وبادوا ، ولذا اتخذ شكسبير بعض هذه المدن مسرحا لقصصه الغرامية العنيفة ، « أوتلو » و « روميو وجوليت » ، وحتى شيلوك فى « تاجر البندقية » اتخذ لها اطار ايطاليا ، فلم يكن أناتول فرانس مخطئا بل ترسم خطوات سابقيه ولا سيما الناجحين منهم فوفق توفيقا عظيما فى اختيار الزمان والمكان ، ولعله لم يحسن اختيار المعشوقة فقد اکتوى بنار حبها .



فلورنسا مدينة الفن والتخيل والجمال

فلورنسا بين بلدان أوروبا - أثر فلورنسا في
النفس والعقل والعاطفة - جولة في متاحف
فلورنسا - زيارة بيت ماكيافيلي ودير سافونارولا

أظن أنني كنت أعالي في تقدير آرائي قبل أن أسافر الى
الأقطار البعيدة عن وطني ، ولو أنني خلدت الى أرض مصر التي
نشأت فيها لعشت ومث على وتيرة واحدة ، ولكن نعمة الله على
بالأسفار الى سوريا ولبنان وتركيا واليونان وأنا في السابعة عشرة
من عمري ، ثم مواصلة الرحلة بعد ذلك بأعوام الى أوروبا وانجلترا
والإقامة في فرنسا ، غيرت حياتي وبدلت نظرتي الى الكون والوجود
والى شخصي ، وجعلت الأفكار التي ظننتها ثابتة الأساس راسخة
الأركان تتهاوى وتتداعى كالحجارة في جدار يريد أن ينقض ، وإذا
بكثير من الحقائق التي غرست في نفسي أوهام وأخيلة ، وأن بيني
وبين حقيقة واحدة - لا جملة حقائق - أبعاد شاسعة ومسافات
بعيدة .

ثم ان أسفاري في ثلاث ممالك في العهد الأخير وفي أكثر
عهود الدنيا رخاء ، من شأنها أن تتيح للإنسان من سعة العقل
ورحابة الصدر ما يجعله قابلا لكل صورة من صور الفكر البشري ،
وكان الحوادث نفسها التي تتولد عن التنقل تطلعك على اختلاف
أطوار الجنس الانساني اختلافًا لا يكاد ينتهي ، وكل خلق من
الأخلاق المختلفة قد اكتسب حق البقاء لصاحبه مستقلا عن سواه .

ومند حلت مدينة فلورنس مهد الاحياء - لمحت فى فرح
ورغبة بعض الاشياء الازلية أو القوانين العامة ، وأظن المرجع
لهذا الكشف يعود الفضل فيه الى روح البلد .

رأيت تحت هذا الاختلاف بين أهل سويسرا وفرنسا وإيطاليا
- وكنت من قبل أعرف بريطانيا وإيرلندا وألمانيا والنمسا - رأيت
وحدة جامعة ، ومظهر هذه الوحدة احساس عميق بتقدير قيم
الاشياء وهذه القيم تكاد تكون متشابهة فى أصولها عند جميع
الأمم فى كل عصر وهى الحق والخير والجمال . وفى فيرنزه هذه
بالذات ، رأيت العناصر الثلاثة مجتمعة ، وفى سويسرا رأيت الحق
يعلو أحيانا على الرغم من قوة الظلم والباطل ، وفى فرنسا رأيت
كثيرا من الخير .

ان فيرنزه نفسها لا تحتوى الفنون الرفيعة وضروب الجمال
والشعر فحسب ، بل هى نفسها آية متجسدة ومعجزة مجسدة
وكتلة من نور الطبيعة والعقل الانسانى والالهام الربانى تشع
بأروع المعانى الخالدة . ان يد الطبيعة الصناعات هى وحدها ذات
الفضل الأول فى هذه المدينة ، فقد وضعتها فى واد جميل وجعلت
حولها تلالا سندسية ذات مناظر فتانة ، وشقت ذلك النهر
لونجارنو، ثم توجتها بمرتفعات فيزوليه التى تبسط للنظر ما خفى
من الجمال السالك الوادى وتفسح أمامه الآفاق فتبدو آيات الله
فى محاسنها .

وان الطبيعة هى التى كونت الأرض الخصيبة والأجسام
السليمة والقذود المشوقة والأعين الساحرة ، وهى التى كونت
العقول والأخلاق والمواهب ، ووضعت فى الأعين من قوة النظر
ودقة الفهم والتقدير، وفى الأيدى من القدرة على الحركة والاتزان ،

وفى الذوق من خلال التمييز بين الالوان فى الطبيعة وبين
الاستطاعة على تمثيلها بالمزج والخلط بينها حتى تحاكي صنع
الطبيعة أو تدنو منه ، وأودعت القلب كتوزا من الجمال وأوحت
الى صاحبها أن يفسرها ويعبر عنها ويمررها ويظهرها بالالوان تارة
وبالنحت والحفر فى الأحجار والمعادن تارة اخرى ، كما أودعت
فى اللسان الانسانى وما وراءه من ذاكرة وبلاغة وحسن انتقاء
وعاطفة جياشة تمكنه من التعبير بالشعر والنثر ، فان التعبير
بالموسيقى والشعر والقصة والتصوير والنحت هو وظيفة هذه
المدينة ، فمقامها بين المدن - بحسب فهمى فى تلك الفترة - كمقام
العابرة والمصلحين بين الأمم ، ودليل على ذلك كثرة ما حشد فى
تلك المساحة الضيقة من العابرة والنوابغ وأرباب الفنون
وأصحاب العقول وربات الجمال وذوات المحاسن الفاتنة ، ونطقوا
جميعا فى فترة واحدة من الزمن أو فى فترات متقاربة .

كانت هذه الخواطر تملأ نفسى وفكرى طول اقامتى فى
المدينة وفى كل خطوة وعند كل نظرة .

لست بصدد ذكر حوادث الحياة اليومية ولا خطط المدينة
ولا بسرد معالمها وأعلامها أو الامعان فى ذكر تاريخها ، فهذا كله
قديم ومدون ، وكذلك لست بسبب تعداد الآثار الفنية فى متاحفها
وقصورها فكتب المؤرخين وأهل الفن كفيلا بذلك ، ولكن الذى
أكثرته له هو أن أصور أثر العالم الجميل فى نفسى وفى عقلى وفى
عواطفى ومشاعرى ، واننى كلما كتبت أو شرحت أو حاولت
التفسير والوصف ، أشعر بعجز اللغة عن التعبير وقصور الشعر
والنثر عن التمثيل أو تقديم صورة تقرب مما يختلج فى النفس .

ان فيرنزه مثل المولدة الماهرة الحاذقة ، تعين كل ذات حمل
على وضع حملها ، تولد بنات الأفكار ولا يدخلها قط انسان عنده

مثقال ذرة من موهبة ثم يبطىء فى التوليد ما لم يكن عقيما كالصخرة الصلدة أو الأرض الجرداء ! ، ولم أفر بشيء من هذم المواليد لفقر طبيعتى وجمود قريحتى ولم يزد حظى عن تفتح ذهنى وشعورى بنور جديد لم أكن من قبل أرى منه شعاعا ، وأخذت معنى جديدا للحياة ولونا جديدا للأشياء والعواطف وهذا ظفر كبير وخير كثير .

لو كنت من أرباب المواهب - ولو كامنة - لخرجت من فيرنزه شعاعا أو نائرا أو مصورا أو مثالا أو على الأقل ناقدا ، ولكننى - وآسفاه - خرجت صفر اليدين ، باكيا على أن الأقدار لم تهبنى موهبة أو لم تتج لى فرصة كافية للحضانة والتوليد .

لما سافرت الى أوروبا فى سنة ١٩٠٦ أقبلت على المتاحف اقبال الجائع المحروم ولم أترك متحفا لم أزره فى نابلى وروما وفينيسيا وبولونيا وبادوا وفيرونا وجنوى ، فانه لا تخلو بلدة ايطالية أو قرية من متحف مهما صغر ، لأن فى كل قرية أو بلد كنيسة ، وفى كل كنيسة تصاوير قديمة وحديثة وتماثيل ، وقد شهدت ألوف اللوحات فى ايطاليا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وسويسرا وميونخ وفيينا والوفر ولكسمبورج ، خصوصا وكان يعيننى دليل « بديكر » وهو دليل أدبى فنى يلفت أنظار الجهلاء أمثالى الى شأن اللوحات والتماثيل المهمة . وأذكر أننى رأيت عشرات الآثار الجميلة ، منها تمثال لاوكون ودرس التشريح لرمبرانت وتمثال فينوس العارية المكسورة الذراع وتمثال موسى فى الفاتيكان من صنع ميكال انجلو ، واهتممت بتصاوير روفائيل ، وانقبضت من الفن الانجليزى بقدر ما انشرح صدرى للفن الأسباني لازدهار ألوانه وبراعة مصوريه .

وبعد أن عدت الى مصر جعلت همى أن أدعو الى تأسيس مدرسة للفنون الجميلة رأيتها فى باريس بشوارع بوناپرت ، وكانت الدعوة الى مثل هذا العمل فى سنة ١٩٠٦ تعد من هراء القول وصاحبه من السخافة بمكان ، ولكن الله أدركنى بدليل خاسم وهو أن المرحوم مصطفى كامل - وكان على قيد الحياة - تقدم الى مجلس نواب فرنسا بعريضة باسم مصر تستنجد فرنسا ضد بريطانيا ورفح الى المجلس فى نفس الوقت لوحة مصورة بالزيت تمثل مصر مقيدة بالأغلال الانجليزية وقد وقف لفيف من أهل مصر منهم مصطفى كامل والشيخ على يوسف وغيرهما يرفعون العريضة الى فرنسا وتمثلها الصورة فتاة جميلة كريمة ، فأتخذت من هذه اللوحة التى تقدمت سنة ١٨٩٣ على ما أتذكر حجة لضرورة تعليم التصوير وصنع النماثيل لأنها على الأقل تنفع مسألتنا السياسية . ولكن الحكومة المصرية فى سنة ١٩٠٦ كانت واقعة تحت أقدام الانجليز وعلى رأس الوكالة البريطانية عتل زعيم معتد بعد ذلك أنثيم ، فكان يسخر من كل نهضة أو حركة فكرية وكان يحب أن تبقى مصر فى جهالة عمياء لترسيف فى أغلال الذل والاستعباد الى الأبد ، فكيف يسمح - وهو القابض على زمام المال والمعارف - بتأسيس مدرسة للفنون الجميلة أو تشجيع النحت والتصوير ؟



ما هذه الثروة يا رباه وما هذه النعم ؟ ما هذا الغنى ؟ سبحانه ما أعظم كرمك وعطاءك لمن تحب وتختار ، ما مال قارون وما كنوز الذهب والفضة ومن هم الأوغاد وأرباب الملايين وملوك الحديد والبرنز والجاز والكهرباء والزيت والسوم حيال هذه الكنوز من العقول والمواهب والجمال ؟ ان الذهب والطين والأوحال

والرجال والمصارف والبنوك كلها فانية وهالكة، ولكن ذرة من هذه المواهب تزيد فى الوزن عنها لأنها خالدة أزلية ، لأنها معان ومن فيض الله ومتصلة بالله وباقية لأنها أشعة من نوره .

ان أضعف مصور أو شاعر أو فنان وأفقره وأحقره ولو كان لاصقا بالتراب، يعد انسانا وقدره أعظم ألوف المرات من أقدار الأغنياء جميعهم ، لأن فنه وموهبته ونبوغه جزء منه وهو من صنع الله ، أما أرباب الأموال وحتى الملوك ، فكل ما يملكونه ويتحكمون فيه منفصل عنهم لا يخرجون من الدنيا بشيء منه وقد يورثونه أبناءهم وأحفادهم ولكن حكم هؤلاء حكم أسلافهم ومورثيهم ، ولهذا يتفانى الذين يسمونهم عظماء وينهاكون فى اقتناء آثار الجمال ، ويبذلون أموالهم فى سبيل اقتنائها ويتشرفون بالحصول عليها ولو أنفقوا فى سبيل ذلك مئات الألوف ، وقد يكون الشاعر أو المصور أو الموسيقى أو المثال مات جائعا عاريا مرتجفا من البرد وتباع آثاره بالألوف بل بالملايين لأنه خالد وكل الآخرين زائلون .

وهذه المدينة نفسها فيرنزه كانت دليلا على هذا ، فهؤلاء الكوزمات والمديتشات واللورنات وبيتى وسفورزا وستروز مثلوا أدوار حماة الفنون والآداب مثل خلفاء المسلمين الذين اشتهروا بحماية الشعراء والخطباء والكتاب ، فخلد الخلفاء فى أبيات من الشعر ولو لم تكن تلك القصائد ما عرف أحد أسماءهم ولا اُكثرت بهم .

لك الله يا فيرنزه ولكل من تنفس فى جوك وعاش على أرضك واطلته سماؤك فى كل الأجيال !

اننى لا أستطيع ولا فى بضعة مجلدات أن أحصى ما رأيت أو أسرد ما أعجبنى وأدهشنى ، لا لوفرة التحف وتعدد اللطاف ،

بل لوفرة المزايا الفنية والمجاسن النوعية والمعاني التي لا تحصر
 لتلك الآثار من تماثيل ولوحات ٠٠٠ انظر الى تماثيل السقيفة
 (لوجيا) وفيها ميدوزا أفرغها تشيليني في البرنز ، وانتقل منها
 الى تمثال النبي داوود في شبابه في ساحة بيانزا لميكل أنجلو والى
 تمثال الليديا وفرخ الأوز في وضع غرامي خيالي وهي من صنع
 ميكل أنجلو أيضا ، وتخيل اليد التي أنتجت تمثال موسى وداوود
 هي التي أنتجت تمثال ليديا ذات الجفون الناعسة نقبل منقار طير
 وترقد له رقدة عجيبة لتطفئ شهوتها وقد نشر الفرخ عليها
 جناحيه ، بينما يصعد المصنور الى عنان السماء في موسى وداوود
 تراه يهبط ليروى بلغة الحجر حب انسية لطير جامح ، ولكن لا فرق
 في الجمال والمعنى والموهبة بين تمثال موسى البالغ أربعين مترا
 مكعبا من المرمر والفن والجمال وبين تمثال حجري صغير لا يتجاوز
 حجم اليد والمعصم من حجر الطلس الأحمر في زاوية متواضعة من
 زوايا متحف الفن الحديث *

ومن أميز اللوحات تصاوير من انتاج ليوناردو ومنها
 جيوكندا وجان باتيست وفرانسوا الأول ودوقة سفورزا ، ومن
 أعجبها في التقديم العشاء الأخير - ومن اللوحات ما أبدعته يد
 ساندرو (بوتشلي) وهو يستعمل الألوان كما في لوحة «جوديت»
 وفي فنه ميل ظاهر ثائر للتجديد بالنسبة لعصره القرن الخامس
 عشر ، ولكن انتاج بعض معاصريه من أبناء فيرنزه لا يضارع انتاجه
 في صورة الربيع « بريما فيرا » وميلاد فينوس وصورته الرمزية
 « عقوبة التهمة » *

ولطالما بهرتني معجزة الألوان ومزجها وأظنها للفنان بمثابة
 دقة المثال ، لأن اللون يعطي الحياة ، فإن اللون الأخضر في صورة
 البريما فيرا لا يقل شأنا عن لون اللؤلؤ والدر والأصداق التي

تمتلك الألباب في ميلاد فينوس ، وكذلك الأحمر الأرجواني في
تساوير روفائيل والخمار المخطط في ثياب العذراء من صنعه .

قد تتضاءل خصائص القيم في أخص خصائص الفن كما
نرى في الريالزم والسيرياлизм وتشويه الخلقة البشرية والاكتفاء
بشكل ثلاثي للتدليل على الرأس البشرية مثل صورة البهلوان
وتساوير البحر الجديد وليس فيها من البحر الا ألواح خشبية
يفترض الناظر والناقد - رغم أنه - أنها تمثل بقايا السفن !!

ولنعد الى مهارة مصوري فيرنزه في رسم الوجه البشرى ،
فمن صنع بوتشيلي صورة ثلاثة رجال الفتى والرجل والشيخ
وقد جمع فيها من الفن ما لم يسبقه أحد في التأليف بين السداجة
والدقة وعمق المعنى وبعد الآفاق .

ولكن سيد المصورين في كل ما تناوله ولا سيما الوجه
الانسانى هو ليوناردو داڤنشى مصور الجوكندا ولم أرها في
فلورنس لأنها من كنوز اللوفر وقد سرقت سنة ١٩١٢ وكادت
الدينيا تبحر لفقدها ، انها صورة امرأة ساحرة بابتسامتها ونظرتها
وليس فيها غيرهما ، ولم يصور أحد ابتسامة أو نظرة كما رسمها
ليوناردو ، انها ممجزة الأسرار والغموض والخفاء ، فقد فتنت بهذه
الصورة أمدا طويلا وما أزال أتحرك لها كلما رايتها أو تذكرتها ،
وسرها لا يعلمه أحد الا مصورها ، ويمكننى أن أفسر النظرة
والابتسامة ولكن أفضل أن أحتفظ بسرى لنفسى فان فيه فتنة
لغير صاحبه .

وبين الأسماء العظيمة لأرباب الفنون الذين رأيت لوحاتهم
دوناتيلى وبيلينى وجير لانداجو وفرا بارتوليو ورفائيل وسيلفيو
لييو وفيروكيو وجيوتو وبنفنتو تشييليني وعشرات غيرهم ، وقد
تأثرت بأعمالهم ولا سيما عودة جوديت وهى فى متحف اوفيتشى
بفيرنزه وهى من صنع بوتشيللى ، كذلك العذراء (المادونا) له
أيضا .



كانت حياتى فى فيرنزه مرتبة وخططى معدة ممهدة ، فى
الصباح أقصد الى معهد من معاهد العلم او متحف من المتاحف
لزىارة أثر من الآثار المشهورة له علاقة بدراستى فى الأدب
أو التاريخ أو الفنون .

ومن هذه الآثار التى زرتها بشغف عظيم بيت ماكيافلى وهو
ما يزال قائما فى شارع جويتشاردينى كما كان فى أثناء حياة
صاحبه ، قرأت أثناء تلك الفترة كتابا عظيما هو تاريخ الجمهوريات
الاطالية تأليف سيسموندى ، وشهدت تمثال ماكيافلى فى متحف
أوفيتشى ، وزرت قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا وقد لحقه
البلى والتهدم ، ولكن اسمه مكتوب عليه بوضوح ، وكذلك تاريخ
وفاته ، وجمعت ما استطعت من الكتب عن ماكيافلى من المكتبة
العامة ، واشتريت من الكتب مما له علاقة بتاريخ الرجل وعصره
حتى وجدت الجو التاريخى وشملت عبقه كأننى أعيش فى زمنه ،
وترى هذه الفكرة مجسمة فيما كتبتة فى مقدمة كتاب الأمير .

وفى يوم تال زرت الدومينيك وهو الدير الذى نشأ فيه
جيورولومو سافونارولا وله تاريخ حافل وقد أصبح الدير كله

متحفا لهذا الرجل الذى ضحى به وحوكم وصلب وأحرق ، لا كتبه وحدها بل جسمه وذرى رفاته فى النهر ، وكل ذنبه أنه عندما استشرى الشر والفساد فى المدينة ، أراد أن يدعوها الى الخير والاستقامة وحاول أن يحكمها حكما دينيا فيه حزم وشدة ، ولولا مخالفته كنيسة روما وحملته عليها ما تعرضوا له ، ولم يكن سافونارولا ممن يحذقون فن استغلال الأمم . بل كان ثائرا على كل المظالم ولم يكن لبقا ولا مداورا ، فلقى حتفه جزاء اخلاصه واستقامته .

وفى الدير آثاره وصومعته وفراشه وكتبه ومخطوطاته وتماثيله ومحابره وأقلامه ، لقد كان شخصية جذابة وان يكن على نصيب وافر من الدمامة ، وقد كان لهذا الرجل أثر فى نفسى وشبهت منه رسالة وبنية سلبها الانجليز فيما سلبوا من مخطوطاتى وأوراقى عند تفتيش منزلى فى مصر سنة ١٩١٦ وهو ما كان أدباء العرب يسهونه « كبسة » ، وهذا عمل الشرطة فى عهد الظلم .

فيرنزه مدينة نابغة عاشقة ، ونابلى مدينة مستهترة فاسقة ، وروما مدينة خالدة منافقة ، وقد عشت فى المدن الثلاث ، ورأيت أكثر من عشرين ألف أثر فنى بين تماثيل منحوتة ولوحات منقوشة ، ولم أر فى فيرنزه شيئا من مناظر الفجش والدعارة التى يحمر لها وجه الشيخ الأشيب والعجوز الشحطاء فضلا عن الفتى الأمد والماء ، لأنها مدينة حماها الله من العيب فى أدبها وفنونها . فلا تقع العين منها على ما يؤذى النظر أو يخدش الذهن النظيف .

هنا ثروة لا تحصى من الألوان وهنا مهارة وحذق على مدى الأجيال ، هنا أفكار وعواطف ومحاولات من الروح للتعبير عن انفعالها فى كل أحوال النفس ، هنا تنطق الأيدي بدلا من الألسنة

وتسمح الأعين بدلا من الآذان ، ولكن نشعر بأن كل الحواس
تتشارك في هذه المتعة ، العين والأذن والعقل والقلب ، حتى ان
اللمس نفسه يحاول أن يشارك بقية الأعضاء في الشعور .

ليست هذه المذكرات قصة ولا سردا للمتخف ، انها تسجيل
للأحاسيس والمشاعر والعواطف في فترة قصيرة ، ولكنها من أكثر
الفترات سعادة بل لعلها أسعدنا في تلك الأيام وكل ما سبقها
ومعظم ما لحقها .

المؤتمر الوطنى المصرى فى بروكسل سنة ١٩١٠

- ١ -

السفر الى باريس - عزيزة دى وشيرون -
التجسس على المؤتمر - اشتراك الهنود فى
المؤتمر - كريشنا فارما - مدام كاما

بينما كنت عند مكتب البريد بميدان القصر العتيق أسأل
عن المكاتب التى ترد الى وتحفظ به ، قدم الى أمين البريد رسالة
برقية صادرة من باريس ، ففضضت غلافها فاذا فيها طلب سفرى
فورا الى باريس لمباشرة تنظيم المؤتمر الثانى الذى تجدد انعقاده فى
١٤ ، ١٥ ، ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٠ بعاصمة فرنسا ويستجلفنى.
كاتبها وهو المرحوم الدكتور المخلص منصور رفعت بكل عزيز
ومقدس لدى ألا أتخلف وأن أبادر بالسفر وأن أتذكر وطنى
وحاجته الى خدمتى ، ولم أكن بحاجة الى ذلك لأنى أتلف على قيامى
بالواجب ولا يقف بى ولا يعوقنى الا ضيق ذات اليد . وأرسلت
اليه برقية أطمئنه فيها بمبادرتى الى اجابة طلبه وليبلغ تحياتى
الى محمد فريد بك الذى ذكر أنه فى انتظارى .

وقد شعرت بهزة اذ كنت فى أقصى درجات السعادة العقلية
وكنت هادى البال مشغولا بالدراسة الفنية واتمام تعريب كتاب
« الأمير » لميكافلى ، ثم حملت هموم الرحلة الطويلة الشاقة .

وأخيرا حان الحين وأخذت أعد الحقائق وحددت يوم السفر وشددت رحالي وركبت القطار فى المساء فى طريقى الى ميلانو وبقيت فى القطار ساعات طويلة حتى بلغت لوزان وأخذت أضجع مشروعا لنزولى باريس ومقابله اخواى وعزمت على ان انصرع لعملى .

بلغت باريس فى اليوم الثانى ونزلت بشوارع فوجيرار رقم ٣٢ فى غرفة علوية عند كهلة مترملة لقاء الثلاثين فرنكا مشاهرة ، وبعد وصولى واستقرارى لبست ثيابا حسنة وقصدت الى العنوان المكتوب لى وهو « فاميلى هاوس » على قيد خطوات من بلاس ايتوال (ميدان الكوكب بالشانزاليزيه) ، وهو خان اقرب الى الفندق منه الى المشوى العائلى (ينسيون دى فامى) ، وصعدت الدرج وكان أول من لقيت وجه امرأة دميمة صفراء هزيلة اسمها « الأنسة دى رشبيرون » (١) هى نفسها التى كانت تكاتبنى منذ سنة تطلب منى مقالة فى مجلة تزمع اصداؤها نجدة للمسألة المصرية وقد بعثت اليها فعلا بمقولة عن الثورة العربية وعن جهاد مصطفى كامل .

(١) الأنسة عزيزة دى رشبيرون هى مدام فيبار المعروفة لدى المصريين ولدى الكثيرين ممن يعتقدون انها تزوجت من محمد فريد ، وكانت تعيش فى الخمسينيات بعنوان ٤ شارع كلواتر نوتردام خلف كنيسة نوتردام بباريس ، وعقب قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، زارت مصر سنة ١٩٥٤ فأكرم رجال الثورة وفادتها وظلت مقيمة بمصر حوالى ستة اشهر .

وقد أخبرنى الاخ زكريا لطفي جمعة انه زارها فى بيتها بباريس أكثر من مرة وشاهد عندها بعض اثار الزعيم محمد فريد وعصاه ومنظاره « المونكل » ، كما شاهد تمثالا له من المرمر واطلع لديها على بعض مذكراته ، وكان يقوم على خدمتها ورعايتها حينذاك رجل من الروس البهض ظل فى خدمتها أكثر من خمسين عاما الى ان مات وقد ناتهى الامر بدمام فيبان فى اواخر ايامها الى تركها منزلها والدخول فى احد ملاجىء العجزة .

كانت تلك المرأة تعمل كاتمة أسرار لجنة المؤتمر الوطنى
الثانى فى باريس ، عينها فى هذه الوظيفة محمد فريد بك رئيس
الحزب الوطنى بعد أن سمعت للتعرف اليه منذ أشهر .

قابلت هذه المرأة وحدها تدق على الآلة الطابعة فى الخسق ،
وكنت أظن سأقابل فريد بك والدكتور منصور رفعت والدكتور
عثمان غالب باشا فعيد الوطنية المصرية فى باريس وحامد العلايل ،
فانقبض صدرى عندما رأيت وجه تلك البنت الديمة ، فلما عرفتها
بنفسى تظاهرت بالفرح بهذا اللقاء المفاجئ وأخذت تثرثر بلسان
درب فسيح وعبارة بليغة ضاعت كلها محجوبة بتلك الدمامة التى
لم أشهد مثلها فى أقطار أوربا ولا سيما فى باريس المشهورة
بمحاسن النساء ، فسمعت إليها على مضض فوعيت من أقوالها أنها
تتكلم عن الزعيم الوطنى فريد بك بقولها « فريد » وتصف حامد
العلايل بأنه « الأسمر الجميل الذى لا يعرف الفرنسية
ولا الانجليزية » وعن غالب « الباشا الدكتور العجوز » وأنهم كلهم
غائبون وأنهم يعيشون فى هذا الخان وتسالنى لماذا لم أحضر متاعى
وأين نزلت وكيف أصنع لأحضر جلسات اللجنة وأنا سكرتيرها
وأنها سكرتيرة مساعدة لى ؟ ثم أخذت تهذى بقولها انها صدمت
بلقائى لأنها كانت تتخيلنى عملاقا ملتجيا بلحية بيضاء وأن أكون
من أبطال التاريخ كما دلت على مكاتيبى ومقولاتى التى قرأتها منذ
عام وأنها وجدتنى على نقىض ذلك فتيا أجرد أمرد قصير القامة وأنها
تعانى خيبة أمل deception ، فلم أجب على هذا التودد وقلت
لها : يا آنسة . . . قالت : الآنسة عزيزة دى رشبرون ، فأنى
فرنسوية نبيلة كما تعلم من تقديم لقبى بنسبة « دى » والكنى
مسلمة ، أسلمت حديثا هادئى الى الايان فريد .

فلم أجب ولم أدهش وقلت في نفسي « يا لسوء حظ الاسلام » .
وهممت بالقيام فقالت : الى أين ؟ قلت : أطوف وألف لفة في مقهى
حتى يحين وقت مجيئ الباسوات والبنكوت وبقية الزعماء .

وهبطت الدرج وأنا أشد ما أكون حزنا ، وحمدت الله على
أننى اخترت مسكنا بعيدا عن هذا المستقر الذى تحرسه عزيزة ،
وسرت في الطريق فبهرنى جمال باريس ورأيت مقهى بدعيا عليه
اسم « كافيه فوكيه » فأعجبني واخترتة مجلسا وأخذت أفكر في
الأيام المقبلة ، فتذكرت أن على خطابا ألقيه في المؤتمر وأن استبقى
عزيزة للنقر على الآلة الطابعة وأن أشرك العلابي في كتابة السر .
فصممت على أن يكون موضوع خطابي في المؤتمر عن « وجوب حياد
مصر حيادا دوليا احتراما لقناة السويس لأنها طريق بحرية
دولية » .

وأردت أن أحدد علاقتي بالزعيم محمد فريد والكواكب التى
تدور فى فلكه أمثال غالب باشا والدكتور منصور رفعت وهو
شقيق اسماعيل البيب بك أحد أصدقاء المرحوم فريد بك المخلصين ،
وأحمد لطفى بك المحامى ، فأبقيت هذا الى أن نجتمع بعد ساعة .

ولما انتهيت من التفكير ودونت رؤوس أقلام وعنوانات ،
تمثلت لى فرصة سانحة لوجودى بباريس وهى أن أتردد على المكتبة
الوطنية لأتم بحثى ودراستى عن عهد الاحياء « رينيسانس » فى
ايطاليا لاستكمال فوائده اقامتى فى فيرنزه .

وفى تمام الساعة السابعة قصدت الى « فاميل هاوس »
فوجدت الحفل حاشدا بالسادة والأعيان وقد حضروا لتناول العشاء
لأنهم مقيمون عائشون نائمون يقظون فى الخان على حساب المؤتمر

الوطني المزمع اجتماعه ، لأنهم وقفوا أيامهم ولياليهم على خدمة الوطن ، فوجبت على الوطن نفقاتهم وهى الأموال التى جمعت بالاكنتاب ولا أعلم من كان أمين الصندوق !!

وفى تلك الليلة الأولى رأيت فريد بك وعشرات من البكوات الذين هاجروا من مصر جماعات وأفرادا ليساهموا فى خدمة الوطن وبينهم الدكتور محبوب ثابت ، وجاء الأستاذ حسين هيكى مستخفيا لأنه كان طالب بعثة يخشى أن عرف أمره أن يقتص منه بالحرمان لأن شوكة الانجليز قوية ، ورأيت أحد أبناء ادريس راغب بك وهو أكبر أنجاله سنا وكان لا يحسن التكلم بالعربية ، فقال على المائدة وهو يهمس فى أذنى : لماذا لا تعملون مثل التركى الصغير ؟ فاستعدت السؤال لأفهمه ، وبعد عناء فى الاستفسار والاستقراء والتخمين والتنجيم وتقليب الألفاظ والمعانى ، ضحكت ضحكا شديدا على غير عادتى لأننى اكتشفت أن ابن البيك المصرى العظيم يريد أن يقول لماذا لا تعملون كما عمل حزب تركيا الفتاة !!

فانطلق يخاطبنى بانجليزية فصيحى لأنه كان فى جامعة اكسفورد وهو يعبر بها أبلغ تعبير ولا يعرف العربية ولا الفرنسية ، وهو الآخر جاء مستطلعا مشتركا بقلبه وبعض ماله كغيره ، ولكننى أحبته لجهله وسلامة قلبه لأنه كان بمعزل عن كل شئ يهم وطنه ، ولا عجب فان هؤلاء الناس ترك فى دمائهم خضعوا لعبد الحميد طول القرن ، فلما ظهر حزب تركيا الفتاة أرادوا تقليده ، فأفهمته بالانجليزية التى يجيدها أننا لا نستطيع تقليد « حزب تركيا الفتاة » لأنه ليس عندنا جيش ولا سلاح ولا أنور ولا نيازى ولا طلعت حتى نقوم بالثورة •

ومحمد بك راغب هذا عنوان على عدد كبير جدا من أهل مصر الذين يعيشون فيها وينتمون الى الدولتين الحاكميتين قديما

وحديثنا (تركيا وإنجلترا) ، ولم أجد وطنيا صادقا الا الفلاح المصرى المتعلم الخالى من مطامع الوظائف ، وكان المال دائما عتبه فى سبيل الوطنية فى الأمم الضعيفة المستسلمة ، لأن الحكاميين يهددون الأغنياء فى ثروتهم ، كما كان الفقر عقبة أخرى لأن الفئير النابغ عاجز عن التعليم ومحتاج الى القوت . وفى الحق لا ذنب للفقير أو الغنى وانما الذنب للصغار والضععة ودناءة النفوس ، ولكن على كل حال كان الناشئون فى الطبقة الوسطى أميل الى التقدم والعواطف السامية أمثال مصطفى كامل .

وفى هذه الجلسة العتباتية عرض على فريد بك وألح أن أنزل معهم بالخان لأنه أقرب الى وأجدى لأننى أكون ضيفا على الجماعة (أى أموال المؤتمر) ، فاعتذرت بأننى ألفت النزول بأحياء الطلبة مادمت طالبا وأننى أستمتع بخلة عذبة وأننى طول اليوم أكون فى صحبتهم أعمل معهم وأننى لا أستطيع الطعام معهم لأننى أتبع تديرا طيبا وحماية غذائية ، فقبل عذرى وأعفانى من ذلك الاختلاط المشوش . ذلك لأننى علمت أنهم ينفقون من الأموال التى جمعت فى مصر على ذمة العمل السياسى ، وقد درجت ودأبت طول حياتى على الاعتماد على الله ثم على ما أملك فى الانفاق على كل عمل عام أستطيعه ، ولم أعرف ولم أقبل معونة مادية من أحد لأن من يفعل هذا يكون أجيرا غير مأجور . ودهشمت اذ علمت أن البكوات والسادة والأعيان ينفقون من الأموال المجموعة على معيشتهم وفيهم أغنياء أمثال عمار بك وفؤاد حسيب بك والدكتور بدران حتى حامد السلايلى ، ويرون هذا جائزا وحلالا لأنهم يقومون بعمل وطنى ، ولعل بعضهم اكتتب بمال فاشتركوا جميعا فى الاعتراف منه ، فاعتذرت لهم بأننى لم أكتتب بغير عمل ذهنى ومجهودى الفعل فلا حق لى فى أن أعيش على نفقة أحد ، خصوصا وأننى لست ممن يميلون الى الترف والاناقة فى الماكل والمشرب .

وسألتني صاحبي العلايل كيف وصلت ؟ قلت له في الدرجة
التاسعة ، وسألتني على المدينة الايطالية التي كنت بها ، فلما كنت
له « نيرنزه » ضحكك وقال ماذا كان عنوانك يا لطفي ، قلت نهر ،
٦ شمسار لليونارد دافنشي ، فأغرق في الشمسك لأنه لم يسمح
باسم المدينة ولا باسم الفنان الكبير ، ودعاني الى غرفته وألح من
جديد على ضيافته وأنها توفر على كثيرا وكيف أستطيع لنفسى البعد
عنه بنتيجة الحمى (يقصد الحمية !) والسيار (يقصد السيارة !)
فضحكت كثيرا ثم افترقنا وعدت الى ركنى المسعبد فى شارع
فوجيرار على أن أعود فى الصباح الباكر لنبدأ العمل .

وفى اليوم التالى قابلت فؤاد حسيب وكان كاتباً بالفرنسية
طارنا على الوطنية وقد تخرج فى دير مسيحي ثملقى ثياب الرهبان
وانضم الى المصريين يكتب فى الصحف الفرنسية ، ورأيت عمدا
ومشايخ بالعمائم والقفاطين ولقيت المرحوم شفيق منصور وكان
حديث الانضمام الى الحزب الوطنى وحديث العهد بالنجاة من قضية
الوزداني وتهمة الاشتراك فى اغتيال المرحوم بطرس غالى باشا ،
وكان معهم خالد الفوال بك وهو من أعيان دمياط وموظف بديوان
الأوقاف ، فعجبت لحاله ومجيئه ، فقال لى خبير به انه جاء
ليتمسك على المؤتمر وقد دفع مائة جنيه قيمة اشتراكه وهى طبعاً
من المصاريف السرية وكان يتظاهر بالسكرك لئلا يمتنع المؤتمر جانبه ،
والكن أمره لم يكن خافياً على أحد لأنه لا يعقل أن يجمع بين وظيفة
الحكومة وخدمة الخديو وبين الوطنية النائرة على الاحتلال
وعلى الخديو .

وعلمت أن الحكومة المصرية أرسلت لفيفا من المصريين
الموظفين والعاطلين وجعلتهم جواسيس على لجنة المؤتمر ومنهم خالد
الفوال المذكور وعبد اللطيف سمعدى بك وكان موظفاً فى محافظة

مصر وآخرون ، وقد تظاهروا بأنهم وطنيون لأول مرة فى حياتهم ،
كذلك أرسل الانجليز جواسيس من الرجال والنساء وكثرة أخرى
من المشبوهين المنسبين رسل فيليبس وهارفى باشا ووزارة
الداخلية •

فلما خاطب بعض المخلصين فريده بك فى أمرهم ضحك
وقال : يا اخوانى لا تظهروا علمكم بأمرهم ، فأولا نحن نستفيد
من أموالهم التى يدفعونها بمثابة اشتراك ، وثانيا ليس عندنا
أسرار نخشى عليها ، واننا لو أظهرنا اهتمامنا بهم لبلغوا أمانهم
عند سادتهم وكادوا لنا كيلا •

ثم اتجه الى وقال :

— ان صاحبك الروح بالروح الذى اصطفتيه فى مؤتمر
جنيف حتى جعلناه سكرتيرا (يقصد حامد العلايلي) ها هو ذا قد جاء
هذه السنة وقد قيل انه محمل بأموال الخديو عباس ليقتضى
لبانته من التجسس علينا وعليك أنت بالذات لأنه موظف رسمى
بالمعية السنية (ديوان الخديو) ومصاهر أحب الناس الى الخديو
والصقهم به (يقصد أمير الشعراء أحمد شوقى بك) هل يمكننا أن
نجاهره بالعداء بتهمة التجسس ؟ يا لطفى دع الخلق للمخلق والله
منتقم جبار •

فقلت له :

— ياسعادة البيك أنا لا يهمنى هذا الأمر لأننى لست موظفا
ولا عينا ولا مليونيرا لأخشى عواقب تجسسهم ، ومادمت أنت ترى
هذا الرأى فالقول لك ، على أننى لا أعرف أحدا من هؤلاء الناس
لغيبتي الطويلة عن مصر •

فربت على ظهري وقال :

— أنا أعرف المصريين جيدا ، ان هؤلاء الكلاب جميعا غدا ينقلبون علينا وعبيدا عندما تظهر قوتنا ونصبح ذوى الشأن ، فهذه صنعتهم فى كل عهد ودولة ، يعبدون الأقوياء ويخضعون لصاحب الأمر .

وفى هذه الأيام رايت الأستاذ محمد حسين هيكى وكان يطلب الدكتوراة وكان يقابلنا وتحدث ونسير معه ولكنه كان يتعد قدر طاقته عن الظهور بمظهر الوطنية المنتظرة ، لأنه معوث على نفقة الحكومة المصرية ويخشى أن يفصله من البعثة المدرسية .

وكان رئيس الوزراء فى الحكومة الفرنسية ارستيد بريان قد ثبت علينا العيون والأرصاء ولا سيما الفتاة التى انتحلت الاسلام وأطلقت على نفسها اسم « عزيزة دى رشبون » ، وكان لها تاريخ طويل . ولما أدركت جو المؤتمر حمدت الله ألف مرة على انفرادى وعزيتى واتخاذ مسكنى فى غرفة فى الدور الخامس فى شارع فوجيرار عند أرملة مسنة ، فكنت أتناول وجبات الطعام فى مسكنى واجتمع باخوانى فى أوقات العمل قبل الظهر وبعده .

وجاء الينا عنصر جديد من الرجال والنساء ، هؤلاء هم الهنود المقيمون فى باريس تحت رئاسة السيدة الفاضلة طيبة الذكر والأثر الوطنية المخلصة « مدام كاما » (١) ، وكانت تقيم على قيد أمتار من « فاميل هاوس » بشارع بونتيفو رقم ٢٥ وهو حى ارستقراطى متصل بالشانزاليزيه ، ويعيش فى كنفها رهط من

(١) نفاخر لطفى جمعة فى الحديث عن هؤلاء الهنود فى رواية « الفتى العادل » التى نشرت منجمة بالملاغ اليومى عام ١٩٣٠ .

الوطنيين الهنود أمثال هارديال وشاتو يادايا وأكبرهم سفاركار
الذى فر من لندن عقب اغتيال سير كيرزون وإيلي رأس الجاسوسية
الانجليزية على الطلاب الهنود والذى قتله « دنجرا » الشهير وسجن
الشيخ عبد العزيز جاويز بسبب تمجيده بمقال فى اللواء نشره
فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٩ بعنوان « اليوم يقتل دنجرا » .

وكان سفاركار الطالب الهندى السابق مقيما فى لندن
فاتهموه بالتخريب كما اتهموا الوزير الهندوكى القديم « شيامدجى
كريشنا فارما » ، وكان الوزير يصدر جريدة « الاجتماعى الهندى »
ويحمل فيها على الاستعمار البريطانى فى الهند حملات صادقة ،
وكان الانجليز يطبقونه رغم أنوفهم لمكانته السياسية والعلمية
ولوفرة ثروته ولأنه تلميذ الفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر »
وقد وقف ثلاثين ألف جنيه على عالم يلقى دروسا فى فلسفة سبنسر
فى كلية اكسفورد ، فكان الانجليز ينجحون أن ينفوه أو يطردوه
لأنهم فتحوا أبواب بلادهم لكل لاجئ سياسى ، فوجب أن يعتبروه
لاجئا حرا وأن يحموه كما حموا ماتزىنى ، وكما كانوا يحمون فى
هذا الوقت نفسه لينين وهو يصدر مجلة « اسكرا » الشرارة ،
فتحملوا كريشنا فارما على مضض وهم يتربصون به الدوائر
ويحرقون الارم كلما أصدر عددا من مجلته الشهيرة « The Indian
Sociologist » وقد زاد النار ضارا أنه خصص جزءا كبيرا من
ماله لتأسيس وتأثيث بيت الهند : India House لياوى اليه
الطلاب الهنود المغتربون صيانة لهم وحفظا لصحتهم وأخلاقهم ،
فقد علم القاصى والدانى ان عمل « كيرزون وإيلي » كاد أن يضل
الشباب الهندى وهو رئيس لجنة استقباليهم والاشراف
على اقامتهم وتعليمهم ، وقد ثبت فى قضية « دنجرا » أن كيرزون
وإيلي كان ينصح المشبان الهنود أن ينزلوا منازل ظهر للملا أنها
مواخير لينصرفوا عن العلم والأدب والوطن الى اللهو والغزل

والدعارة فتنهده قواهم ويمرضوا ويموتوا ، ولأجل هذا قتله دنجرا وقتل معه طبيبها هنديا مسلما اسمه « محمد علي خان » كان شريك ديرزون وايلي ، وقد قال دنجرا في دفاعه أنه يفضل ان يموت في سبيل وطنه لينقذ مئات الشبان .

وكان « شياماجي كريشنافارما » ماهرا جدا في القزاز ، ونجا معه في سفينة واحدة الى فرنسا « سافاركار » فلما هجم البوليس السرى على بيت الهند لم يجد فيه هنديا واحدا ، فعظم أثامته واستولى على كل ما وجده من أوراق ووثائق وخرب البناء نفسه حتى لا يعود اليه أحد يستظل بظله . وكان كريشنا فارما حصيفا ، فلم تكن قدمه تطأ أرض فرنسا حتى يعث بهبة قدرها عشرة آلاف فرنك اعانة للمصابين بفيضان نهر السين سنة ١٩١٠ وأرفقها بخطاب الى رئيس الجمهورية قال فيه انه يعتذر لضالة قيمة المنحة ، ولكنه غريب الديار مطرود من انجلترا ومظلوم في تهمة باطلة ، فلما طالبت انجلترا بتسليمه ، اعتذرت حكومة باريس بأنه لاجئ سياسى ولا ترى الحكومة فى مسلكه عيبا ولا عليه غبارا .

وأقام كريشنا فارما فى بيت جميل فى أحياء الأعيان وكانت معه زوجته وطالما تغديت عنده وقضينا ساعات طويلة فى الحديث والنقاش .

أما سافاركار فكان فقيرا فلجأ الى مدام كاما يعيش فى كنفها ، وكان بين كريشنا وكاما عداة شديدة سببه التنافس فى خدمة الوطن ، ولأن كاما كانت كالرجل الحازم العازم الواعى بل أشد رجولة وقوة ، وكانت سخيخة كريمة وهى أرملة فى الخمسين من عمرها من « البارسى » سلالة الفرس المقيمين فى

بومباى من تلك القبيلة التى نزلت الى جنوب ايران عند رحلة القبائل الآرية التى كانت نازلة قبل التاريخ حول البامير فنزح اكثرها الى اطراف الهند وايران ، وكانت أكثر تلك القبائل النازحة الى ايران نفوذا وقوة قبيلة « بارسيان » التى نزلت فى جنوب ايران واتخذت مدينة « اصطخر » مستقرا لها وعاصمة للملكها ثم اضطهدوا فى وطنهم الاصلى فرحلوا منذ ألف سنة الى الهند وهم طائفة « البارسى » الموجودون فى بومباى التى تنتمى اليها مدام كاما (١) .

وقد أسست مدام كاما بضع جرائد أشهرها جريدة باندى ما ترام ومعناها « نحبيك أينها الأم الرؤوم » أى الوطن أو « عمى صباحا يا أمنا الهند » .

وأنفقت ثروتها فى قضية الحرية الشرقية وعاشت عيشة الزهد والتشغف فى نيويورك وشيكاغو ولندن وباريس وجنيف وشتوتجارت ولوزان وتوفيت منذ بضع سنين فى السبعين من عمرها فى سويسرا وأحرقت رفاتها على غير مذهبها ، لأن مذهبها يقضى بأن يوضع الجسد عاريا على بناء يسمى « برج الصمت » ويبقى معرضا حتى تأكله الطير !

كانت مدام كاما سمراء اللون جميلة التقاسيم حلوة الصوت عذبة الحديث قوية القلب ذات جمال ومال وأخلاق عالية ، كما كانت واسعة الحيلة ذات هيبة خاصة وفصاحة نادرة وسلطان أدبى على كل من يقرب منها ، وقد أخذت تنشر الدعوة للحرية

(١) كتب لطفى جمعة مقالا عن « مدام كاما » عنوانه ، وطنية البارسى فى الهند « نشره بمجلة الرابطة العربية ، عدد ٧٠ فى ٦ / ١٠ / ١٩٣٧ .

فالتف حولها فريق من خيرة شباب الهند ومكنوا لها عقد الاجتماعات والقاء المحاضرات الانجليزية التي كانت تجيدها ، فخطبت فيها واكتسبت جانبا كبيرا من الرأي العام ونشرت الصحف الأمريكية صورها وأحاديثها ومحاضراتها .

وبعد أن أقامت كاما في نيويورك وشيكاغو نزحت الى انجلترا سنة ١٩٠٧ وخضع لها كريشنا فارما واتفقا معا على التعاون في انجلترا فأسسا جريدة « انديان سوسولوجيست » التي وصفوها بأنها جريدة هندية ثورية ، وكان فارما كاتبها بليغ العبارة حاضر النظم ، خبيراً بتاريخ العالم والاستعمار ولا سيما في وطنه وله أحيانا أسلوب كأنه قطع من نار ، فنال من بعض الظالمين نبلا وانتصر لمهاتما تيلاك الذي قام في الهند قبل مهاتما غاندى وأسس جريدة كيسانارى أى الأسد وقضى في السجن بضع سنوات قبل موته .

ثم حدث خلاف بين كريشنا فارما وبين مدام كاما للفرق بين الاثنين في طريقة الجهاد ، فان الأول لم يكن مهيجا بالمعنى المعروف بل كان زعيما فكريا وثائرا علميا يجادل بالعلم والاقتصاد والفلسفة ويقنع العقل ولا يكثر للمعاطف ، ولذا كانت تلتفت حوله الطبقات أو العناصر الرشيدة من الناقمين والساخطين .

أما مدام كاما فكانت بيثتها مشتتة بالشباب والاقدام والتضحية ومن أشبالها هارديال وسافاركا وشاتويا دايا وهم من أشهر رجال النهضة الهندية الحديثة وقد خدموا القضية قبل أن يتناولها غاندى .

وقد حضرت مدام كاما جميع المؤتمرات السياسية والاجتماعية التي عقدت في أوروبا من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٤ ، ومن

بين المؤتمرات التي حضرتها واشتركت فيها بعملها وقولها مؤتمرات
الوطنيين المصريين في لوزان سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩٠٩
وبروكسيل سنة ١٩١٠ ولها خطاب ثابتة في محاضر أعمالها وفي
الصحف .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى وتحالفت إنجلترا وفرنسا
على الحرب ، انتقل كريشنا فارما الى سويسرا وتبعته مدام كما
لأن الحكومة الانجليزية سمعت في حقها وشاية « أحمد خان
بها دور » أحد مشاهير جواسيس الهند من أنها كانت ذات يد
طولى في الاعتداءات السياسية التي وقعت في الهند على بعض
حكامه ولا سيما لورد هاردينج سنة ١٩١٠ ، سنة ١٩١١ ، وادعوا
أيضا أنها كانت على اتصال ببعض ثوار روسيا القيصرية وخصوصا
بورتزيف الصحفي الثوري الذي رفع القناع عن وجه « آزييف »
الشهير الذي كان أول عميل عالمي للاستخبارات ، ولكن هذه التهم
لم تثبت عليها وان كانت أخرجت موقفها مع الحكومة الفرنسية
فنزحت هي الأخرى الى سويسرا سنة ١٩١٤ ، واستمرت في
جهادها الى سنة ١٩٢٢ حتى قضت نحبها في نفس السنة التي
توفى فيها المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى وكانت
بينهما صداقة ، وكذلك بينها وبين المرحوم الدكتور منصور
رفعت واسماعيل لبيب بك وبعض زعماء المصريين في الحركة
الوطنية المصرية الأولى .

أعود فأقول ان هؤلاء الهندو أقبلوا علينا لأنهم انضموا اليها
في العام الماضى سنة ١٩٠٩ في جنيف ، وجاءت مدام كما بأبنائها
وبنائها وأحجم كريشنا فارما رغبة منه في عدم الاتصال بمنافسته،
وقد حاولت أن أكون حلقة اتصال بينهما فلم أوفق ، وقالت لى
مدام كما :

— خل عنك يا ولدى ! فأنت لا نعرف عمق أحقاد كريشنا
ولا تحيط بدعائه وانا لا أطعن في وطنيته ولكن أقول لك انه
موظف قديم عند الانجليز ولم ينل منهم كل أغراضه وهذا يكفي *

ولكنني احترمت كريشنا وأحبته لأنه أعان عشرات الشبان
على الكفاح ولا سيما سافاركار الذي ألف كتابا في تاريخ الثورة
الهندية سنة ١٨٥٧ *

لم يكن سافاركار يدعو الى الثورة السافرة ولا الى اوراق
الدماء وان كان دنجرا من أخص أتباعه ، ولكن مدام كاما كانت
تدعو لها ولها يد حمراء في قذف القنابل التي أصابت اللورد
هاردينج نائب الملك في الهند ، فقد قالت لأحد خلائها انها
انتهزت وجود « بورتزيف » الثائر الروسي في باريس واتصلت
به وجعلته يعلم بعض شبان الهنود صنع القنابل فصنعوها في
بيتها وسافروا بها الى الهند وألقوها على نائب الملك *

كان فريد بك ينظر الى هؤلاء الهنود شذرا ويخشاهم لأنه
يخشى أن يتهم أعضاء المؤتمر المصري الوطني بالتآمر مع الهنود
على الحكم البريطاني وهو يزعم أن يعود الى وطنه ، ولكن كان
ماخاف أن يكون ، وجاءه السجين والنفي عن طريق كتاب « وطنيتي »
وهو ديوان شعر نظمته على الغاياني (١) *

(١) اكاد الدكتور عبد العظيم رمضان أن غياب محمد فريد خارج البلاد لم
يمنع من تقديمه للمحاكمة الجنائية كما يذكر بعض الباحثين ، وأن سعد زغلول
لم تكن له علاقة بهذه المسألة أو الحكم الذي صدر ضد محمد فريد (مقدمة مشكرات
سعد زغلول ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، الجزء الاول ، سنة ١٩٨٧ ،
ص ١٢٩ وما بعدها) *

كنت أقسم وقتى بين مؤتمرا فى « فامبلى هاوس » وبين مجامع الهند ، رأيت مدام كاما تنأهب للحضور معنا محفوفة بمشراته الشبان والفتيات وقد أعدت خطابا لالقائه فى المؤتمر ، كما أخذ الشباب المتعلمون فى لندن يكتبون لبعض أبناء الأعيان من المصريين المتعلمين فى اكسفورد وكمبردج خطبا يلقيها المصريون وهم لا يجيدون النطق ببعض ألفاظها لقاء جعل معلوم الفقر الهنود على علمهم وغنى المصريين على عميق جهلهم ، وبعض هذه الخطب مطبوع ومنسوب الى الذى ألقاه كذبا ومينا وكاتبه هارديال الذى كان فى تلك الأيام فى غاية الفقر !!

وكتبت باسم فريد بك خطابا مطولا الى مستر بلنت ، فاجاب بمكتوب طويل الى فريد بك بوصفه رئيس المؤتمر ومعه خطاب جليل باللغة الفرنسية واشترط أن أتولى تلاوته ، وهذا الخطاب نشر بالعربية فى مصر مرارا فلا داعى لتكراره ، ولكن أقول ان كل ما تكهن به بلنت عن سياسة الانجليز الاستعمارية ومسالكتهم الملتوية وخطبهم الجهنمية قد تحقق كانه كان يقرأ فى كتاب مبسوط !

لقد سرنى أننى قابلت لفيفا من رجال الثورة الهندية فى باريس وآخرين تجارا مقيمين بها يتجرون فى الآلآء ، وزرت شيامدجى كريشنا فارما ، فوجدت راحة وسرورا ومتعة فى عشرة هؤلاء الهنود وهم أبطال ومخلصون وثقات ومتعلمون ومطلعون ، وعليهم هم الآخرين لفيف من الجواسيس الانجليز والهنود ولا سيما المسلمين منهم .

وقد رغب الوطنيون الهنود أن يشتركوا معنا فى المؤتمر وأن يشدوا أزرنا بخطبهم وبحوثهم ، وكان بعض الأغنياء من

المصريين يعارضون في ذلك بحجة أن هذا المظهر يجرح صدور الانجليز علينا ويزيدهم أحقادا خصوصا أن الهنود يلجأون في بلادهم الى القوة والعنف ، والمصريون يريدون أن يناضلوا على بساط القانون ويتخذون ما وصفوه بالطرق السلمية المشروعة التي تطمئن الانجليز ، وكان فريد بك يميل الى هذا الرأي الى أن أقنعتة وساعدني في ذلك الدكتور منصور رفعت وحامد العلايلي ، وأقنعتة بأن الهنود يتخذون من مؤتمرا متنفسا ولا يجوز لنا أن نمنعهم وأننا في العام الماضي (سنة ١٩٠٩) اتخذنا أنصارا من الأيرلنديين والألمان والاشتراكيين الفرنسيين أمثال روانيه وجوريس ، فكيف نمنع الشرقيين ، وشرحت لفريد بك أن الانجليز اذا علموا أن لنا أنصارا من أمم مختلفة يتهيمون جانبنا ويحسبون لنا حسبا ، وأن هذه كانت خطة المرحوم مصطفى كامل في فضاله وأنه نجح فيه في دنشواي وما بعد الاتفاق الودي بأنصاره من الفرنسيين وأحرار الانجليز ، فاقتنع رحمه الله ولكنه اشترط على من يستأجر منهم ، ولا سيما مدام كاما ، ألا يذكر المقاومة بالقوة أو تبرير اهراق الدماء ، وكانت حوادث المرحوم الورداني ودنجرا يرصداهما في الآذان والأذهان ، فتمهدت له أن أقنع مدام كاما بضرورة عرض خطبتها علينا قبل القائها .

وعملنا واشتغلنا وتعبنا أياما وليالي ، وكان في مقدمة مساعدينا الدكتور عثمان غالب باشا وهو مقيم بشارع بولانجيه بباريس وكان يروى لنا من أخبار مصطفى كامل الشيء الكثير لأنه كان أكبر أصدقائه من المصريين في فرنسا ، واتصلنا الصحافة وكافة الأوساط السياسية ، وحضر اليانا من انجلترا مستر كيرهاردي زعيم حزب العمال ومؤسسه .

وفى يوم ١٠ سبتمبر وصلت دعوة باسم فريد بك وأخرى باسمي وثالثة باسم حامد العلالى لمقابلة رئيس الوزراء ووزير الداخلية مسمو أريستيد بريان بقصر وزارة الداخلية برقم ٦ بميدان بوفو ، فلما وصلت هذه المكاتيب الثلاثة تناولتها عزيزة روشبرون وخاطبتنى أنا وحامد العلالى بقولها « أيها الثوريان - على سبيل المزاح - لقد وصل اسميكما الى وزارة الداخلية وعرفت عنوانكما » . وضحكت ضحكة صفراء !

وذهبنا الى مقر وزارة الداخلية وقابلنا رئيس مكتب الوزير الموسيو جينو وكان رجلا فى الخمسين أحمر الوجه ، فمهد الى الحديث بأن اتجلبترا ننظر الى مؤتمرنا بعين السخط وأن حكومة فرنسا متحالفة مع بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ وأن الأحوال الدولية متحجرة وأنها أحسنا صنعاً فى العام الماضى اذ عقدنا مؤتمرنا بمدينة جنيف وهى جمهورية حرة محايدة . فأجبناه ورددنا حججه ، فقال ان خلاص المسألة فى يد موسيو بريان . ودار بيننا الحديث الآتى :

رئيس المكتب : لقد علمت الحكومة أنكم قادمون بعقد مؤتمر وطنى
مصرى فى باريس .

فريد بك : نعم وسيعقد في صالة جمعيات العلماء (سويسستى
سافانت) يوم ١٤ سبتمبر أى بعد بضعة أيام .

رئيس المكتب : هل أخذتم اذا بذلك من الحكومة كنص القانون ؟

فريد بك : ان الحكومة تعلم باجتماعنا وكثير من أعضائها ومن النواب والشيوخ مدعوون لحضور المؤتمر .

رئيس المكتب : هل يمكنك أن تذكر لي أسماءهم .

فريد بك : موسيو جوريس وموسيو روانيه وموسيو بالنفيه . . .

رئيس المكتب : تعنى الاشتراكيين ؟

فريد بك : انهم على كل حال نواب فرنسيون .

رئيس المكتب : ان الحكومة تحب أن تلفت نظركم الى ضرورة نقل اجتماعكم الى مكان آخر غير باريس .

فريد بك : هل هذا طلب رسمي ؟

رئيس المكتب : اعتبروه كما تشاءون .

أنا : نحن لا نعتبره رسميا الا اذا كان صادرا عن رئيس الحكومة نفسه ، وحيث أن الدعوة صادرة لنا باسمه فنحن أن نراه ونسمع منه ما يريد الادلاء به .

رئيس المكتب : اذن فعودوا الى هنا في الساعة الخامسة بعد الظهر لعلمكم تتمكنون من مقابلته .

فانصرفنا وعند خروجنا وجدنا في فناء الوزارة جيشا من الجواسيس تبيننا بينهم بعض الذين كانوا يترددون على دار المؤتمر باسم الرغبة في الانضمام اليه وباسم حب الاسلام والشرق ومصر وما الى ذلك من الدجل والغش .

وأراد الجواسيس تتبعنا فالتفت اليهم وقلت لهم :

— أيها السادة اننا كنا فى مكتب الوزير وسنعود فى الساعة الخامسة لمقابلة موسيو بريان فلا فائدة من اقتفاء أثرنا !

فلم تجد تلك الخطبة نفعا عند الجواسيس وتبعونا .

وفى الساعة الخامسة عدنا ودعانا موسيو بريان الى مقابلته بحضور رئيس مكتبه ، وكان فى أول الأمر هاشا باشا ، ثم تغير ودار بيننا الحديث الآتى :

موسيو بريان : لقد علمت ما دار بينكم وبين رئيس مكتبى وأنكم تطلبون منى تصريحاً بصفتى رئيس الحكومة .

فريده بك : أليس لنا الحق فى ذلك خصوصاً وأن فرنسا تخالف سياستها للمرة الأولى مع المصريين الذين تربطهم بها مودة قديمة وتقليدية ؟

أنسا : كما أنه لا يزال عدد كبير من المصريين يقصدون فرنسا للتعليم والاقامة ويعتبرونها وطناً ثانياً ومصدراً للحرية وملجأ لكل مظلوم .

بريان : هذا صحيح ، هل أنت أحد الطلاب فى جامعاتنا ؟
أنسا : نعم ولى الشرف وأعلم أن القانون لا يمنع اجتماعنا مادام فى حدود النظام .

بريان : أنت طالب بكلية الحقوق فى ليون وتعلم أن القانون لا يبيح لك الاشتغال بالسياسة .

فقلت له : نعم ولكننى لا أشتغل بسياسة فرنسا ولكن بسياسة وطنى وفرنسا وطن ثان لكل ضيف وهى أم الحرية وحقوق الانسان .

بريان : ألم تجتمعوا فى العام الماضى فى جنيف أو لوزان لست أدرى، فلماذا لا تجتمعون هذا العام فى دولة صغيرة مجاورة ؟
فريد بك : اذا تركنا باريس فلا ندرى أين نجتمع وسوف يكون لقراركم مدى سيئ الأثر فى العالم كله .

بريان : نحن لا نريد منعكم ولكننا فى نفس الوقت لا نريد أن نؤثر فى عواطف الأغيار ، فان دولة أخرى ربما تكون محبة لفرنسا تتسلم من اجتماعكم فى عاصمتنا ، فنرجوكم أن ترحلوا « بالدوق » وألا تلجئونا الى

فقلت له : لم نعلم أن الأمر وصل بحكومة سعادتك الى تهديدنا بالطرد ، وان كنا قد لاحظنا أن الحكومة الفرنسية سمحت لأشخاص اجانب ربما ينتمون الى تلك الدولة الأجنبية أن يتجسسوا علينا فى نفس عاصمتكم وفى الدار التى اتخذناها مقرا لمؤتمرنا .

فقال بريان بغضب مكظوم : لم يصل الى علمى ذلك ، ومع هذا فإنه خارج عن موضوع هذه المقابلة ، ونحن الى الآن لم نخرج عن المألوف فى معاملتكم .

فقلت : لا ينسب سعادة الوزير أن أعضاء من جميع برلمانات أوروبا ...

فريد بك مكمل : نعم ! ان نوابا من جميع برلمانات أوروبا مدعوون الى المؤتمر وسيحضرون الى باريس ولا نملك الآن فى بضعة أيام تغيير خططهم ، وقد تكلفنا جهودا شاقة ولم يبق بيتة وبين المؤتمر سوى ثلاثة أيام أو أربعة .

بريان : من هم هؤلاء الأعضاء ؟

فريد بك : من البرلمان الانجليزى مستر كيرهاردى ومستر بارنز
ومستر كتل ومستر هازلتون ومن الصحفيين مستر روشستين
ومن البرلمان الفرنسى موسيو جوريس وموسيو روانيه
ومن البرلمان الالماني الهر أوجست بيبل وآخرون من ايرلندا
وبافاريا والمجر وايطاليا والسويد والنرويج وروسيا وبلجيكا
وايطاليا ورومانيا والهند وتركيا

فرد بريان ببرود تام : عندى خبر ، ولكن هذا لا يغير فى عزم
الحكومة ، يمكنكم أن تذهبوا الى جمهورية أخرى بجوارنا
إذا شئتم .

فريد بك : سنذهب ايكس لا شابل فى ألمانيا لأنها أقرب بلد
الى الحدود .

وقلت : وسننشر هذا الحديث بحذافيره وكل ما جرى بخصوصه
وما سوف يحدث لنا من الآن الى أن تغادر أرض فرنسا
الكريمة !

فريد بك : ولا ريب أن النواب الفرنسيين على الأقل سيطلبون
من الحكومة حسابا عن هذه المعاملة .

وتكلم فريد بك بعبارات بليغة ، فقال بريان :

— لأجل هذه الأسباب كلها أنصح لكم أن تعقدوا مؤتمرهم
خارج فرنسا وليكن فى سويسرا أو فى امارة اكسمبورج
لأننا لا نود أن نصدر أمرا بطردكم من فرنسا (كذا) ، وإذا
صدر هذا الأمر تحرمون من الدخول وتقعون تحت مراقبة
الشرطة السرية .

فقلت له : ان فرنسا لا تفعل هذا ، لأننا دعونا عشرات من
أعضاء البرلمان الفرنسى والرايستساج الالماني والبرلمان

الانجليزى ، وهؤلاء اذا صدر قرار نفينا يقدمون استجوابات
بشأنه ، على أننا مسالمون ولا يزيد عملنا فى المؤتمر على
الخطابة والكتابة فى حدود القانون .

فاعندل الرجل وقال : على الرغم من هذا فاننى لا أريد أن أصدر
قرارا بطردكم ولا أريد أن يعقد مؤتمرهم عندنا وأنصح لكم
بمغادرة البلاد بطريق المودة .

فأشار فريد بك اشارة فهمت منها أن لا فائدة من مناقشة
هذا الرجل ثم قال له :

— وكيف يمكننا الآن أن ننتقل بقضينا وقضيضنا الى بلد
آخر ونغير خططنا وقد أزف الوقت واتخذنا أهبتنا فى هذه
العاصمة ؟

قال بريان : الحقيقة أننى بذلت جهودا كثيرة لاستبقيكم
ولم أتمكن .

فنهض فريد بك ونهضنا واستأذنا فى الانصراف ، فنهض
بريان لتوديعنا وقال :

— أيها السادة أستودعكم الله وأعبر عن أسفى الشخصى .

فقلت له مبتسما : لم أكن أظن يا سيدى الوزير الأكبر
ورئيس المجلس أن كلمة دولة كائنة من كانت تكون هى العليا فى
باريس !

وأنا أقصد أن انجلترا تحكمت فيهم الى هذه الدرجة .
فقال الرجل : ماذا تريد أن تقول ؟

فقال فريد بك : أنت ونحن رجال قانون ونعد أفراد أسرة واحدة
وأنا أؤكد لكم أننا رأينا جواسيس دولة أجنبية يحيطون بنا
ويتبعون خطواتنا في كل مكان .

فابتسم بريان ابتسامة صفراء وتدلّت شفته السفلى وكانت
مثل شفة العجل الصغير وله شوارب متصلة بشعر كثيف حول
فمه وقال :

— ان الأوهام يا سيدي تجعلكم ترون الانجليز في كل مكان .

فقال فريد : سواء أكانت أوهاما أو حقائق فقد لمسناهم في
باريس .

وتظاهروا كلنا بالضحك لننقذ هذا الموقف الأليم !

وخرجنا نجرر أذيال الأسف والندم على أننا وثقنا بدولة
تحكّمها النساء والانجليز .

واجتمعنا وتحرينا ألا يكون بيننا ذو ريبة حتى لا يذيع
سر هذه الخبيثة ، وبحثنا وتناقشنا واستعرضنا كل المحاكمات
والمستحبات والمدن والدول التي نستطيع الالتجاء اليها قبل أن
يعرف الأمر ويشمت بنا الانجليز أو يلجأون الى دسيسة أخرى ،
فأبدي المرحوم أحمد وفيق اسم بروكسل وكان فيها معرض دولي ،
فوافقنا على اختيارها وقررنا ايضاده في فجر اليوم التالي ليهيئ
لنا مكانا وجوا للاجتماع فيها بعد ثلاثة أيام .

وقضينا الأيام والليالي الباقية في فضيحة فرنسا والتشهير
بها باعلانات الجدران وتوزيع منشورات بالأيدي وفي التظلم الى
الصحافة ، وقصدنا الى بعض شركات السكة الحديد لنستأجر

قطارا خاصا فرفضت ، وبذلنا جهودا جبارة فى لم شعشنا وحصرنة العمل فى خمسة أو ستة أشخاص لم يعلم احد غيرهم بمقاصدنا ولا باتجاهنا ، وعقدنا النية على أن يغادر المصريون المدعوون باريس فى القطار السريع الذى يسافر الى بروكسيل فى أربع ساعات ، وقد وفق الله « وفيقا » فى اتخاذ مكان فسيح بديع فى قلب العاصمة البلجيكية وحجز ثلاث طبقات فى فندق كبير وكانت بروكسيل مزدحمة جدا بسبب المعرض الدولى (١) .

ومما يؤسف له أن الدهر دار دورته وأن عزيمة دى روشبرون بعد أن طردت من المؤتمر وثبت تجسسها ، اشتغلت مع مصرى شهير وقيل انه تزوج منها وأقام معها فى اصطمبول وجاءت الى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم ظهر أنها كانت لها صلة لقاء بأمير شرقى كبير (الخديو عباس) واتصلت بالألمان وبلغت ضد شارل همبير صاحب مقالات « ذخيرة ومدافع » فى « الجورنال » وشهدت فى المجلس العسكرى لمصلحته فى سنة ١٩١٩ فشتمها ورئيس المجلس ، ثم اختفت وانه قطعت أخبارها عن الصحف .

وظاهر من ذلك أن بريان ساعد الحكومة الامبراطورية على مطاردة الوطنيين المصريين من باريس ولم يسمح لهم بالاجتماع ولم يعاملهم ولم يتبع القانون فى معاملتهم ، وكان فى أول أمره اشتراكيا متطرفا ثم صار معتدلا ثم حكوميا .

(١) سجل لطفى جمعة أحداث هذا المؤتمر وانعقاده فى بروكسل ومطاردة الوطنيين المصريين فى باريس وعدم السماح لهم بالاجتماع وعقد مؤتمراتهم فى العاصمة الفرنسية فى مقال له نشر بجريدة البلاغ فى ٢٠ مارس سنة ١٩٢٢ بعنوان « بريان والمسألة المصرية ، حادثة تاريخية عن مؤتمر سنة ١٩١٠ لا يزال بعض أبطالها أحياء » . وأشار فيه لطفى جمعة الى دور عزيمة دى روشبرون فى التجسس على المؤتمر .

وقد أراد الله أن يعقد المؤتمر الوطنى المصرى الثانى فى نفس
موعد الذى كان مجددا لانعقاده فى باريس ، وقد حضر اليه كل
المدعوين والأعوان والأنصار وقد أبلنناهم الدعوة فى وقتها
المناسب ، وعددنا هذا العمل نصرا من الله .

ويوجد كتاب ضخيم مطبوع باللغة الفرنسية فيه أخبار
المؤتمر عنوانه :

Oeuvres du Congrès National Egyptien tenu à Brux-
celles Le 2, 23, et 24 Septembre 1910 Bruges St.
Catherine's Press, 1911.

فليطالع من يريد الوقوف على أعمال هذا المؤتمر (١) .



(١) للوقوف على مزيد من التفاصيل عن مؤتمر بروكسل ، راجع كتاب
« محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ - ص ٢٢٨ .
وقد نشرت مجلة الطليعة الترجمة الكاملة لجلسات مؤتمر بروكسل سنة
١٩١٠ فى أعدادها الصادرة فى ابريل ومايو ويونيه سنة ١٩٦٩ ، كما نشرت
الجلة فى عددها الصادر فى مايو سنة ١٩٦٩ ما جاء بمذكرات لطفى جمعة عن
الظروف التى لابتست انعقاد المؤتمر ومطاردة السلطات البريطانية له .

المحاضرة

(١)

أول حديث عن المحاضرة مع كبار المحامين - امتحان المعادلة -
طلب القيد في جدول المحامين - محاولة عبد الخالق ثروت معي للعمل
في النيابة العامة - القيد في جدول المحامين

لما كنت في باريس سنة ١٩١٠ (١) مع أصدقائي ورفاقي
من رجال الحركة الوطنية لنعد معاهدات مؤتمر باريس الذي عقد في
بروكسل في أواسط سبتمبر من تلك السنة ، جرى بيني وبين
المرحوم أحمد لطفى بك (٢) أول حديث عن المحاضرة ، وكان المرحوم
حسن العشرة جم الأدب ناعم الملمس ، قلت له : كيف يكون حالى
إذا عدت الى مصر لأشتغل بالمحاضرة ؟ قال : هذا من أبسط الأمور ،
فما عليك لدى عودتك الا أن تقابلنى فأرشدك الى امتحان المعادلة
وبعد أن تجوز هذا الامتحان بكل بساطة وسهولة (كذا) تعمل
معي فى مكتبنا مع أخى وهو يعرفك جيداً ويحبك . فشكرت الأستاذ
كثيراً وآمنت بقوله واعتقدت لفرط حبه له وثقتى به أن هذا الأمر
من السهولة والبساطة حيث وضعه .

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل سنة ١٩٤١ .

(٢) كان أحمد لطفى بك وكيلاً لالحزب الوطنى .

المهنة وكان يسميني : Mon Confier en embryon . وقد عاش رحمه الله حتى لقينه وأكدت له بالاختبار صدق نظريته .

ولقيت المرحوم الأستاذ محمود عبد اللطيف بقهوة فاشيت Vachette بباريس وتكلمنا عن المحاماة مليا وقال لي هو أيضا انه يود من صميم قلبه أن يعيننى فى بداية عملى بأفكاره وخبرته .

ولما عدت من أوروبا الى مصر فى سنة ١٩١٢ بعد خمس سنوات من سفرى ، كان على أن أدخل امتحان « المعادلة » كشرط لفيد اسمى بجدول المحامين ، وعرضت لى ضرورة الاستماع الى عالم ثقة فى الموارث ، ولم يكن بينى وبين امتحان المعادلة سوى عشرة أيام ، فدلنى أهل الفضل على الشيخ محمد زيد الابياني أستاذ الشريعة الاسلامية فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية ، وكنت أقرأ كتبه وأنطلق الى درسه ولكنى لم أحضر عليه دروسا بمدرسة الحقوق الخديوية فى سنة ١٩٠٧ التى دخلت المدرسة أثناءها ووقع نصيبى فى الأستاذ عبد الحكم وكان رحمه الله نحويا غليظا ارتقي الى التدريس بمدرسة الحقوق بحكم الأقدمية ، وكنت رأيت فى امتحان شفوئى يلج الحاح معلم الصبيان ويتعالم كأنه سيبويه ، فلما رأته على منصة التدريس فى الشريعة انقبضت نفسى وعزمت على ألا أحضر عليه أبدا وتركت مصر ولم أسمع منه درسا ولا محاضرة ولا أغبط تلاميذه .

فلما دلنى أهل الفضل على الشيخ محمد زيد ، قصدت اليه فى داره صباح يوم جمعة فى يونيه والحر شديد والنفس ضائقة والقلب بين الرجاء وضده ، فاستقبلنى فى « المنطرة » فى بيته بجوار مسجد السيدة صفية ، فرحب بى وأكرمنى ثم قال بصوت أجش رنان : خيرا يا محمد أفندى . قلت له : أحمل اليك تحية الأستاذ

فبعدما تقدمت الى محكمة الاستئناف بطلب قيد اسمى فى
جدول المحامين احسن السريير رزق بى ساسى ورتدى حيرا ،
تم بردت عليه مرات فاخذ فى التسويف والتأجيل ، تم لمح لى بان
التوظف فى النيابة اجدى على من المحاماة واقرب الى منفعتى ، وكان
يسألنى من طرف خفى لماذا لا تدخل النيابة ؟ لماذا لا تقبل وظيفة
فى الحكومة ؟ لماذا لا تبدأ عملك فى المحاماة فى احدى مدن الريف
مثل طنطا او اسيوط . فكنت أجابه أجوبة سطحية وأنا أعلم
صداقته واخلاصه وأضمر فى نفسى العجب من أسئلته وأردد فى
أعماق قلبى : كيف يعرض على العمل فى الحكومة وأنا خارج من
مظاهرات سياسية كل اسمائها اسماء اعمال الحكومة والمطالبة بحقوق
الأمة ؟ كيف أكون فى طليعة المشتغلين بالحركة الوطنية منذ تنبّهت
للحياة وأعود اليوم بمجرد حصولى على اجازة الحقوق أطلب وظيفة
ميرى فى النيابة والقضاء ؟

وكان رزق بك جزاء الله خيرا يلمح لى بان الجهات المختصة
ترحب بى وأنها تضرب صفحا عن الماضى وتود الانتفاع بى فى خدمة
القانون .

وأخيرا أجبته بالصراحة التامة فقلت له :

— قد أكون مرغوبا فى لما يظن بى من الكفاية وأنا أنكرها ،
ولو فرضنا أننى ذو كفاية ، فلماذا لا تكون فى صف الشعب ؟
ان فى الحكومة كثيرين من أصدقائى ورفقاء شبابى القادرين العلماء
ولا بد من حدوث التوازن بين القوتين ، فيكون للحكومة رجالها
وللشعب رجاله .

ولم تكن الحكومة فى سنة ١٩١٢ من الشعب واليه وبأذنه
وأمره بحكم الدستور كما هى الآن ، فلما يشس رزق بك مما اعتبره
نصحا لى يمليه عليه الاخلاص وحب الخير ، حاول تحويل عزيمتى

عن القاهرة وقال ان فى المدن الكبرى مثل طنطا وأسيوط مجالا عظيما لمثلك ويمكنك أن تقيم هناك حتى يشته عودك وتنمو قوتك وتملك الوقوف على قدميك واقصد بذلك حتى تجمع ثروة حسنة .

وعند ذلك دخلنى غرور وازدريت العمل لأجل المال وطننت أن منى لا يرضى بفتح القرى والبنادر ولا يقبل أن يكون الا فى العواصم ، فذكرت له الوسط العلمى والوسط العقلى والاتصال بالأدباء ووجود فطاحل المحامين فى القاهرة وان كنت لا أنكر أن فى الأرياف رجالا لا يقلون فضلا وعلمًا وشهرة عن مشاهير القاهرة .

فلما سمع رزق بك منى هذا وذاك ، هز رأسه وأيقن بلا شك أن « دماغى ناشف » وأنه لابد لى من خبط الجدار حتى أفيق من غشيتى !

لقد كنت ثملا بخير البذل والتضحية فى سبيل الوطن والمنفعة العامة ، التضحية بالنصب والمال ، وأقول لنفسى اذا كان كل من أرى من العلماء والفضلاء فى صف الحكومة فمن يكون للضعفاء يدفع عنهم غوائل الحوادث ويرد عنهم كيد الزمان ؟ وأية وسيلة أقرب وأفضل من المجاماة ؟ . وفى حظيرة هذه الصنعة الكريمة الشريفة يمكن أن أكتب وأخطب وأدعو للخير والحق والحريية وأخدم العاجز واليتيم والأرامل الفقيرات . وهذا الجانب البراق اللامع الذى يخلب اللب ويخطف بالأبصار هو الذى استهوانى وجذبنى واستمالنى ، ولم يكن - وأبيك - لذلاقة اللسان أو حضور البديهة أو سعة العلم والاطلاع والاستعداد الفطرى لممارسة هذه الصنعة أقل أثر فى اقناعى ، لأننى خلو من تلك الصفات ، ولأن الرجل فى وقت التصميم على أكبر الأعمال لا ينظر الى صفاته أو مراهبه وما يليق به وما لا يليق ، وإنما يطبع العاطفة طاعة

عشواء • وماذا كانت عاطفتي منذ دخلت مدرسة الحقوق الخديوية
في خريف أكتوبر سنة ١٩٠٧ الى أن تقيده اسمي في جدول المحامين
في يناير سنة ١٩١٢ ؟

كانت الخدمة العامة رائدة ومرشدة وغايتي التي أرمي اليها •

ثم أشسار على رزق بك بمقابلة المرحوم عبد الخالق ثروت
باشا (١) ان كنت راغبا في تعجيل طلبى ، فلقبته فأكرم وفادتي
وفاتحنى في أمر الوظيفة ووعدهنى بمرتب حسن وبالعمل في القاهرة
في قلم النائب العام • فدهشت من عرضه على وظيفة في الحكومة
وللنت في الأمر وسيلة لانضوائى وانضمامى الى خدمة من كنت
أنتقد في المؤتمرات السياسية وفي الخطب وفي مقالاتى بجريدتى
مسوت الشعب وايجبت اللتين أنشأتهما بجنيف • فكبر الأمر في
نفسى وطلبت منه امهالى بضعة أيام للتفكير ، وخرجت مصمما على
الرفض ، ولكننى أبست أن أجابه الرجل به وقد أكرمنى وأراد اسداء
المعروف لى •

وفي أول الأمر لم أفاتح أحدا وقلبتى على أوجهه وقلت اننى
لم أنتو الوظيفة والا ما سلكت مسلك الحرية فى السياسة ، وان
الحزب الذى أنتمى اليه ما يزال على قيد الحياة ، وأننى قيدت اسمى
فى المحكمة المختلطة ودفعت عشرين جنيها ، فماذا أقول لنفسى اذا
قبلت وظيفة بعد هذا الماضى القريب الذى لم أجامل فيه أحدا من

(١) تخرج عبد الخالق ثروت من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ وتدرج فى
مناصب القضاء الى أن عين فى أبريل سنة ١٩٠٨ نائبا عاما خلفا للمستتر كوريت
النائب العميمى ، فكان أول مصرى يشغل هذه الوظيفة واستمر فيها حتى سنة
١٩١٤ الى أن اختير وزيرا للحقانية سنة ١٩١٤ فوزيرا للداخلية سنة ١٩٢١
رئيسا للوزراء سنة ١٩٢١ ايضا • (دكتور عبد العظيم رمضان ، مذكرات
سعد زغلول ، ج ١ ، سنة ١٩٨٧ ، هامش صفحة ٢٦٣) •

أهل السلطة ؟ فهل كنت خادعا أو مخدوعا ؟ وهل أكتب نفسى
بنفسى وأعرضها للقليل والقال ؟ وهل اتخذت الرأى المعارض لأتمكن
من دخول الحكومة من باب الانقلاب على حزبي وتطبيق مبدئي ؟
• وكان هذا الموقف منى قبل الزميلين من أعضاء الحزب الوطنى
اللذين أعلننا تطبيقهما الماضى عند قبول الوظيفة بعشرين عاما تقريبا ،
فلو بادرت بتوقيع الطلاق قبلهما فى سنة ١٩١٢ فأين كنت أصل ؟
وكنت على الأقل مهدت لهما السبيل ، فانهما لم يفعلوا جزءا مما فعلت
ولم يجاهدأ فى أوربا ومصر بل قنعا بتدبيج عبارة احتجاج مبتذلة
كان أحدهما ينشرها فى كل عام فى مناسبات معينة الى أن دخلت
الوظيفة فوفرا نفقة التلغراف المعهود !

ولو دخلت الوظيفة لكان انتصارا كبيرا للذين اتهموا الحزب
الوطنى بالطيش والرعونة والتهوئش كما فعلوا عند تعيين المرحوم
الشيخ عبد العزيز جاويش فى سنة ١٩٢٤ عندما قبل وظيفة كبيرة
فى وزارة المعارف بعد طول الجهاد وخاتمة المطاف ولم يعمر فيها
سوى عامين أو ثلاثة •

كنت جده خجلان من نفسى أكاد أتوارى متوهما أن كل الناس
قد عرفت بما عرضه على الباشا الرقيق الحاشية ، وكان يعرفنى من
سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧ فى إدارة اللواء ، فقد كان يحضر كثيرا
ويزور مصطفى كامل فى مكتبه فألقاه كل صباح وأحييه ، وكان
صاحب اللواء يقرأ عليه سطرًا من مقالة ليرى رأيه فيها ،
فاذا اقترح ثروت باشا تعديلها أو تخفيفها شدد مصطفى وزاد
عليها ، وقد رأيت ذلك بنفسى مرتين أو ثلاثا •

كنت أظن فى سنة ١٩١٢ عقيب خروجى من مكتبه أن أحجار
الأرض عرفت بما جرى ، فيا لها من فضيحة !! وعلمت فتذكرت أن
الامر لم يخرج عن ثلاثة ، ثروت باشا ورزق بك وأنا وليس لأحد

منا مصلحة في اداعته ، فانشغلت بهذا الموضوع وتحيرت خشية ان رفضت بعنف أن يتصدانى النائب العمومى فيعطل قيد اسمى ، خصوصا وقد ذكر لى رزق بك أن لجنة القيد لا ميعاد لها ولا ضابط لقراراتها ، فقلت ان حدث ذلك فأنا أكتفى بالمحكمة المختلطة •

وعرانى هم ثقيل لأننى لم أكن ذا مال ولا مصدر رزق منظما وقد تكبدت وأهلى مشقات عديدة خلال ست سنوات ولم يكن لأحد على يدى، وكان بعضى المخالفين قد انتساع أننى تلقىتم العلم فى أوربا على نفقة حزبي ، فكذبت ذلك فى جريدة اللواء ونشرت التكذيب فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ وقراه الذين سمعوا هذه الوشاية ، ولو لم يكن شقيق الذى أشاعها عزيزا على لذكرت اسمه (١) ، ولكنى عندما شعرت بالضنك ، اتجهت كعادتى الى الله وجعلت عليه اعتمادى ، وقلت بصوت مسموع لى - فأننى لم أكتف بحديث النفس - كلما وقفت فى مفترق الطرق وخيرت بين الشرف والفضيلة مع الضنك المصاحب لهما وبين غيرهما مما قد تصحبه مذلة ويسر ماذى واخترت الطريق الأول ، رأيت توسعة من الله ولم يخذلنى أبدا ، وقد وقع لى مثل هذا بضع مرات ، فلم أتردد فى هذه المرة وصممت على أنه لابد من بقائى على رأيى الأول ، ففيه كرامتى وفيه تفويض أمرى الى الله وفيه بياض الوجه ولو كان خصومى سود الوجوه ، وما أقبح من قال وأظن اسمه كان سلما تلميذ بشار :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور !

وفى رأيى الاول ايضا حريتى المطلقة وهى لاتعدل بمال وفيه رزق مستور قد يربى على أرباح الوظيفة ، وفيه بقائى فى القاهرة فى وسط الحركة العقلية والسياسية والكتب والأقلام والأدباء والأندية والحياة العامة •• الخ •

(١) هو المرحوم على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل •

وان كان الباشا أفراني بالعمل في مكتبه ، الا أنه قد يترتب
 فينقل فيجيب من ينقلني الى أقصى الصعيد أو الريف فأقضي بضع
 سنين في العروات في « بور » فاص جزبي ومأمور مرتن أو على
 قهوة « ينى » أو « ماركو » وهي الوحيدة في القرية أو البلدة
 الصغيرة .

وقد ثبت لي بعد ذلك أن هذه كانت أوهاما قد اخترعها خيالي
 لتقوية نظرية الرفض .

ثم ماذا أقول لأهلي وأصدقائي الأوربيين أمثال بلنت ولأمير ؟
 وهل عجزت عن الكسب من المحاماة التي خرجت أمتال الهلباوى
 وأبى شادى وأحمد لطفي وهم أصدقاء على فوارق السن وقد
 وعدوني في جنيف وباريس وبروكسل وليون ، كما وعدني
 أحمد عبد اللطيف ومحمود أبو النصر (١) وعثمان محمد ومحمد
 عبد الوهاب في باريس ورومة بأن يسهلوا لي خطواتي الأولى في
 المحاماة وقد استعددت لهذه الصناعة وأحببت فيها نصره الضعفاء
 والأخذ بيد المهضومين والمظلومين ؟

وكانت الحجة الأخيرة هي الآتية : لنفترض أن لدى مواهب
 كما يزعم الناس ، فإذا كان في صف الحكومة أرباب مواهب معروفة

(١) محمود أبو النصر أحد أعضاء الحزب الوطنى القدامى الذين شاركوا
 مصطفى كامل ومحمد فريد في العمل السياسى وكان أول المكتبين في شركة جريدة
 « لتندار اجبسيان » و « ذى اجبسيان ستاندرد » ، وله مواقف وطنية مشهورة
 تحمل بسببها العنت من سلطات الاحتلال البريطانى (اوراق محمد فريد ، المجلد
 الأول ، مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥١) . والى
 جانب ذلك كان من أصحاب الأقلام ، وقد رأس تحرير مجلة الموسوعات « بعد
 تولى أحمد حافظ عرض عنها .

يخدمون السلطة الحاكمة ، فلم لا يكون في صف الأمة أرباب مواهب
يخدمون الأمة المحكومة ؟ • هذا وأنا لا أعترف لنفسى بشئ بل أقوله
تمشيا مع أقوال الناس وتسليما جديلا بصحة رأيهم .

وشارفت الأيام التي حددتها لاعطاء الرأي للمرحوم ثروت باشا
على الانتهاء ، فقلقت وخشيت صدمة الرفض عليه ، وصدمة المقابلة
بالمثل على ، وأخيرا ذهبت وقابلت رزق بك وأفضيت إليه بكل ما جال
بنفسى ، فتأمل قليلا ثم قال لى - وكان نوع من الصداقة قد
نشأ بيننا :

- اسمح لى أن أخطئك ، فكل الذى ظننته أوهام ، فلا أحد
يلومك على خدمة وطنك فى الحكومة ، واعلم يا أخى أن كل شئ فى
مصر بيد الحكومة ، ومن كان خارج الحكومة لا يعمل شيئا ولا يصل
الى شئ ، ألا ترى أن كلهم ينتهون بوظائف الوزارة ؟ ولا يلومك
الا حاسد أو حاقد أو جاهل ، انك تضمن عملك أولا وتفقنه أينما كنت
ثم لا تبالي ، هل الحكومة وقف على فريق دون آخر ؟ هل كانت العقبة
فى طريقك ان سعييت فى التوظيف أن يحتجوا بأفكارك المعلومة لهم ؟
فما داموا قد تخطوها فلا بد أن تقبل • لا تؤاخذنى أنا لا أعرف
ظروفك ، فقد تكون غنيا جدا ولست فى حاجة الى العمل ولديك
ايراد وافر ثابت ، ولكن رغبتك فى سرعة القيد تدلنى على أنك تريد
أن تستثمر مسرتك وسوف تبقى عاما فى التميرين حتى تعرف نظام
العمل ، فان العلم شئ والعمل شئ آخر ، ولا أدري متى يأتى
لك ربح ، ولا بد أن تندمج فى مكتب محام كبير قبل أن تستطيع أن
تقبل دعوى واحدة ، وليس الأمر بالسهل وليس الربح مضمونا
ولا منتظما ، أما الآن فانك تقبض فى نهاية هذا الشهر وتنظم حياتك
وتستقر فبرهة ، بالك وتروق لك الحياة ، فان أردت رأيي فاقا
نصيحة الرجل •

فى تلك اللحظة حدث لى كما يحدث للغريق ، لقد استعرضت تاريخ حياتى فى طرفة عين ورأيت مواقفى فى الدفاع عن وطنى ضد الحكومة والقصر والاحتلال ومشهد مصطفى كامل وخطبى وكتبى ومقالاتى وقلت أبدا أسداً وأنتهى ثعلبا ! . ان قبولى بمنصب حكومى من أخلاق الثعالب ، وكنت واثقا من اخلاص رزق ميخائيل الذى اشتغل بالقضاء ثم المحاماة بعد ذلك وما يزال على قيد الحياة (١٩٤١) وهو صهر الأستاذ مرقص فهمى ، وانه خال من الغرض وبعيد عن الظن ولم يعرفنى من قبل وان سماع باسمى أو قرأ شيئا عنى فقد نسيه ، وتفضل بيشرنى بمستقبل حسن ثم قال : أتقابله اليوم . قلت : ان موعدنا غدا قال : خير البر عاجله . وكان كلما ألح قويت المعارضة فى ذهنى وخشيت أن أضعف أو أتردد ، فنهضت وقلت : غدا أقابله .

وخرجت ولم أعرض أمري على أحد ولم استشير أحدا ، وكان الناس يقبلون على فى الطرق بالتحية والتجمل فأظنهم يكرمون فى الآباء والمحافظة على المبدأ ، وأنهم لو اطلعوا على نيتى لازدادوا محبة لى ولو اطلعوا على ترددى لمقتونى !

هكذا كنت أقدم رأى العمام وأحترمه وأنا الذى أعرف الناس منذ عشر سنوات على الأقل ومرت بى بعض الأحداث فى المؤتمرات وفى ليون كشفت لى عن كثير من طباعهم وتقلبيهم ولؤمهم ، ولكن كنت أقول ان مصر لا تغلو من الأخيار والفضلاء والمخلصين الذين يقدسون الحرية والكرامة .

وذكرت ما قاله لى مصطفى كامل سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧ فى إدارة جريدة اللواء اذ كنت أقدم له نسخة من كتابى « تحرير

مصر « (١) في جمع حاشد من الباشوات بعضهم لا يزال على قيد الحياة وبعضهم ذهب الى رحمة الله ، قال لي بعد أن هنأني ووعدني بقراءة الكتاب وتقريره في اللواء :

— اسمح يا لطفى ، ماذا ننوى ان تعمل في حياتك عند اتمام دراسة الحقوق ؟

قلت : لا أعلم والله يا سعادة الباشا ، وعندما أنهما يوجهني الله توجيهها .

قال : اياك والاشتغال بالسياسة دون أن يكون لك عمل ثابت ومورد رزق معروف ، فانهم في مصر يسمون الخادم العام المتفرغ لمصلحة الوطن بالنصب والاحتياال . كما يفعل الآن الشيخ على يوسف ضدى ، ولو أننى اشتغلت بالمحاماة ولم أنقطع لخدمة الوطن عن طريق السياسة كنت ربحت اموالا وفيرة واحتفظت بصحتى وضمنت السعادة لأهلى وأسرتى ولكننى فضلت المصلحة العامة على المنافع الخاصة فكانت النتيجة كما ترى !

هذا ما قاله المرحوم بنصه قبل وفاته بسنتين فى محفل من الباشوات ذكرهم لى رحمه الله بالاسم عند نهوضهم لتحيتى ، فأمنوا على ما قال وربما لم يفطنوا الى أنهم هم المقصودون بأسفه وأمله ، لأن منهم ومن أطيانهم تتكون الأمة والبلاد ، وفى سبيلهم

(١) كتب لطفى جمعة عن كتاب « تحرير مصر » ما يلى « هذا الكتاب نقلته من الانجليزية فى السنة التاسعة عشرة من عمرى بالقاهرة وعريته فى أسبوع منه أيام عيد الأضحى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦) بمنزل نمرة ١٣ شارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة بالقاهرة » . وقد أهدى لطفى جمعة هذا الكتاب « الى الشعب المصرى الكريم » ، وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٠٦ .

قضى فى ريعان الشباب ، رحمه الله رحمة واسعة ما كان أبعد نظره وأصدق فراسته وأعلمه بأخلاق أمته !!

ان المصريين أنفسهم هم الذين يصفون قادتهم بالتدجيل اذا اشتغلوا بخدمتهم العامة وليس الأجانب ، لأن الأجانب يقدرون الحياة العامة والخدمة العامة ويقدرون رجالها ، أما المصرى الذى تنفرغ لخدمته ، فهو أول من يصفك بالتدجيل ، بل لعله الوحيد الذى يفعل ذلك •

ما كان أشد حب مصطفى كامل لله والناس ! لقد نصحتنى وإخلص النصيح وأعاننى مادام حيا ، فلما مات خلف وراءه ذئابا وتعالبا وأبقارا ، تجارنهم كلام ومبادئهم أوهام ورأس مالهم أكاذيب منمقة وغايات مزوقة ، ومقاصدهم حياثل •

تذكرت كلامه وأنا أسير فى طرق القاهرة لا أأتمن أحدا على سرى خشية أن يشينى عن عزمى على رفض الوظيفة التى عرضها على ثروت باشا •

لقد كان فيها الأمن والضمان والمعاش وراحة البال وأبهة الحكم وتحيات الحجاب والشرطة والقاب الشرف وشمخة السلطة وفسحة الأمل فى الترقى وصحة البدن وفرحة الزواج من بيوت الكبراء الذين يفضلون أصغر موظف على أكبر محام ، والاجازة السنوية برزق جار وحفظ مستقبل السسل اذا أتى ، وكنت أقدر ذلك كله وأفهمه وأزنه بميزان المنطق وكان عمري اذ ذاك خمسا وعشرين سنة وكنت محاميا فى المختلط وعلى وشك أن أصير محاميا أهليا ، وقرأت ودرست واختبرت وكتبت وحطبت وطبعت ونشرت وخضت غمار السياسة والاجتماع ، فام اكن غرا ولا طائشا ولا عميا عن المنافع المادية ، وأعلم أن أصغر موظف محاط بضمانات أبدية ، وأكبر

عامل حر محاط بالمخاطر والأشواك ، ومع هذه كلها صممت على
الرفض .

قلت ان أهلى الأحياء الذين يهتمنى أمرهم والد وجدة وخالة
وهم على حال من اليسار ، فلو مت قبل هذا كانت فجيعتهم فى
شخصى لا فى مالى ، فلأفترض أننى مت وأننى بعثت محاميا ، فهناك
بعض الأمل لهم ، أما لو قبلت الوظيفة فان روحى تموت وضميرى
يؤنبنى ، وصممت فى نفس الوقت على المحافظة على مبدئى .

ودخلت على الرجل الكبير فى مكتبه وحيينه فقبال لى أهلا
وسهلا ان شاء الله تكون صممت ، وأخذ يدي بين يديه بما يدل
على العطف والتشجيع ، فقلت له ولعلنى كنت ممتقا :

— نعم يا شعادة الياسا صممت على أن أخبرك بعجزى عن
شكرك وعرفان جميلك وعدم نسيان يدك الكريمة ، وصممت على أن
أشمتغل محاميا .

فانقبض الرجل واعتدل فى مقعده وحوله عنى قليلا
طلب لى قهوة وقدم لى سيجارة فاعتذرت عن عدم التدخين ، فأشمتغل
هو سيجارته ثم قال لى :

— هل فكرت أيها الشاب (كذا) فيما عزمتم عليه ؟ وهل
صممت على رفض ما أشرت به عليك ؟ .. لم يدفعنى اليه الا حذائى
والضن بك .

قلت : نعم فكرت .

قال مغضبا وهو يبتسم فأدهشنى :

- وهو كذلك .. أتمنى لك مستقبلا سعيدا .
ونهض لتحيّتي ، فلما اتجهت نحو الباب قال لي :
- اسمع ان قيد اسمك لا يمنعك في المستقبل القريب ان
أردت أن تعود الى رأيي .
فقلت له : يفعل الله ما يريد .
وخرجت « ولطعتني » اللجنة بعد ذلك ثلاثة أشهر ، وعلم
رزق بك بما حدث فازور قليلا وأخيرا قال لي : سنبلغك بخطاب .
وفي اعتقادي أنه كان في رأيه يريد لي الخير كله ولم يكن
يعلم بكل ما جال بخاطري .

وعدت الى بيتي في شارع شيتي بك بشبرا ، وكم هموم
كابدتها في هذا البيت وكم عانيت فيه من التعب !

وفي يناير سنة ١٩١٢ تقييد اسمي في جدول المحامين (١)
فتقييد جسمي وفكري وعقلي وقلبي بحبال من مسد أتقنت جدها
وأجادت حبكها صنعة المحاماة . ولا أحب أن أدعوها مهنة ، انها
تفتن الراغب فيها ولا تزال تغريه بذاته حتى تنملكه وتستأثر به
وتتسلم زمامه وتغلب لبه وتسحر عقله فيمسي بعد بضع سنين
وهو لا يستطيع الافلات منها ولا يفكر في الخلاص من قيودها ويهود
من استسلام لها بحيث لا يقدر على محاولة النجاة مما وقع فيه
باختياره .

(١) بعد أن أمضى لطفى جمعة فترة التمرين اتخذ لنفسه مكتباً للمحاماة برقم
(١٥٢) بشارع محمد على بوقف السيد شريف باشا الكبير ، وقبل للمرافعة
إمام محكمة الاستئناف العليا في ٤ مايو سنة ١٩١٥ ، وقيد اسمه بجدول المحامين =

قال الأستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب وهو من أمجاد أبناء هذه الصنعة في حفل تكريم الأساتذة المحامين الذين صاروا وزراء (ابريل سنة ١٩٢٨) ان المحامي ملك عظيم لانه لا يقدم حسابا لأحد الا لله ولضميره .

صحيح يجوز أن يكون في هذا التمثيل شبه حق ، يجوز أن يشعر محام بهذا الشعور الجميل السامي ولكن في البندرة ، مرة في العمر ، وهذه المرة لا تتجاوز برهة قصيرة ولا يدري أحد مقدار الآلام التي يقاسيها ذلك المحامي للوصول الى هذه الدرجة من الرفعة المعنوية الخيالية .

ويجوز أيضا أن يتمتع ببعض هذا الوصف محام فحل في بعض جمهوريات أوروبا أو في مملكة الانجليز ، ولكن بعد أن يصل الشبيب الى أهذاب عينيه من هول مواقف الشرف والنزاهة والحق والمهارة وحتى يصل به جلال العبقريه وجمال الفضيلة الى ذروة الكمال الفني .



= المقبولين أمام محكمة النقض والابرار في مارس سنة ١٩٣٥ ، وظل يزاوّل المحاماة بهذا المكتب الى أن تركه في مارس سنة ١٩٣٨ ولم يتخذ بعد ذلك مكتباً وان ظل يزاوّل المهنة بمنزله برقم ٤ شارع الأسيوطى بمنشية البكرى حتى طلب إحالته الى المعاش في مارس سنة ١٩٤٨ بعد أن بلغ الثانية والستين من عمره وبعد أن قضى في المحاماة ستة وثلاثين عاماً .

(٢)

اختيار « سبيل » الحرية والكرامة

لقد عدت من أوروبا وأنا أردد أنني لست الا ملك الوطن فكيف أضن بنفسى على الوطن ؟ وكيف أنتقل من جهادى المتواصل من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٢ الى وظيفة مستريحة ومكانة آمنة مطمئنة فى أحد دواوين الحكومة ؟ كيف أنتقل الى هذه كلها دون جهاد أو كفاح وأنا لم أشف نفسى من النضال فى معترك الحياة ، ذلك النضال المقترن بحرية الفكر والقول والعمل ؟

لم يكن يخيفنى من الوظيفة أن يتحكم فى رئيس مستبد أو يرغمنى على نفاق لا تقبله نفسى حتى يكسر من حدتى ويجعلنى قابلا كل صورة من الذل والهوان لأصبح موظفا مصرية نموذجيا يخضع لكل سلطة وينفذ كل أمر ويتبع كل اشارة ولو كانت بالعين والخاجب ويفقد شخصيته ليتفانى فى منصبه .. لم أتهيب جانب الاخضاع لأننى كنت أعتقد أنه لن يقدر أحد من الخلق على اخضاعى ، ولكننى تهيبت مغبة الخروج على مبادئى ، وأعترف بأننى لم أحسب حساب الحاجة المادية ولم يدخل فى نفسى رعب من هذه الناحية اعتمادا على عقيدة لم تفارقنى وهى ضمان الرزق فى الغيب اذا اقترن الاعتقاد بالاجتهاد والسعى والامانة فى العمل .

وها انا ذا قطعتم فى هذا الشوط ثلاثين عاما ولم أغير رأىى ورأيت أمامى كتاب حياتى منشورا ورائى صفحة صفحة وسطرا سطرا ، وتكدست التجارب حولى وأمامى آكواما حتى ليتمكننى أن أحكم حكما صادقا مبنيا على النظرية والعمل ، فأقول لو كنت فى

سنة ١٩١٢ - وأنا في الشباب - على خبرة سنة ١٩٤١ ،
 أى لو كشفت لى فى سنة ١٩١٢ حجب الغيب عما سوف ألقاه فى
 ثلاثين عاما من الاكاذيب والخيانات والغدر والنفاق وخيبة الأمل فى
 الناس والأشياء والمبادئ فى بلد كمصر ، لما تحولت عن فكرتى
 هذه ، أى أننى لو أتيت لى من جديد أن أختار خطة لحياتى مع
 اختياري الذى كسبته وآمالى التى خسرتها ، لاخترت الطريق التى
 سلكتها ، فأننى لم أندم قط ولم أسف ، فأهم شيء لى المعرفة ،
 فلو لم اختر هذه المسكة الشائعة لما تهيأت لى ظروف المصروف ،
 وأنه أحب الى أن أموت وقد ذقت الحلوى والمر من أن أنقى حياتى فى
 أقل الدلو دائما ، هذا اذا كان فى وسعك أن تضمن أن تكون خطة
 حياتك التى لم تختبرها آمنة من كل خطر وبعيدة عن كل مفاجئة
 رمسية من كل سوء ، وهذا أمر بعيد الاحتمال جدا ولكن لننخباه
 كذلك .

وها أنا ذا قد اخترت فيما مضى سبيل الحرية والكرامة ،
 فحسنت حالى فى كل مرة ولم يكن فى زمنى قد استجد عادة رجوع
 الوزراء الى المحاماة بعد التخلي عن مناصب الوزارة ولاقنع وزير بأن
 يعود الى القضاء ولو كان مستشارا ، فقد صاحب دخولى فى هذه
 الصناعة تأسيس النقابة لحادث أصاب محامين ألقى عليهما
 القبض ، أحدهما لأسباب سياسية والآخر لاعتداء أحد القضاة عليه ،
 وهكذا فى مصر لا يبدل مجهود فى حفظ الكرامة الا اذا ديست تلك
 الكرامة وأرغم أصحابها على الدفاع عنها بدمائهم ولا تسدد الحقوق
 الا اذا وثق المدين من أنه لا مناص له من الدفع حيا ل قوة القاهرة .

(٣)

فترة التمرين

التمرين في مكتب اسكندر عمون - العمل أمام المحاكم المختلطة
عدالة القضاة نيهولم

اكتشفت أول صدمة أخلاقية عقب عودتي من فرنسا سنة ١٩١٢ أى منذ ثلاثين عاماً ، وإن جميع المحامين الذين عرفتهم في مصر وأوروبا وصادفوني وتطوعوا بوعود شتى خاصة بعمل في المستقبل ، أى بعد عودتي من اتمام الدراسة - قابلتهم في مصر بعد قيد اسمي في جدول المحامين وطلبت اليهم الوفاء بوعودهم فاعتذروا جميعاً أعذاراً ذميمة ما عدا اثنين هما المرحوم حسن صبرى باشا المتوفى في رئاسة الوزراء سنة ١٩٤٠ والمرحوم اسكندر عمون ، فإن الأول اعتذر عذراً جميلاً والثاني استقبلني مسروراً وأشركني في عمله بعقد كريم .

فقد كان على أن أتقدم الى المحامين من مشاهير الطائفة لأقضى عام التجربة والتدريب في مكتب أحدهم ، وكانوا كلهم أصدقائي وكانوا كلهم وعدوني في أوروبا وهدموا أن يتعهدوا خطواتي الأولى في هذه المهنة المباركة ، فقابلتهم واحداً إثر الواحد ، فاختلفوا في حسن اللقاء والترحيب وتكرر معظمهم واعتذروا بأعذار وإهية ، فقال أحدهم انه ليس لديه مكان ، أى غرفة بمكتب ، وأن مكتبه ضيق النطاق لا يتسع لمنضدة وكرسى فهو آسف ، وقال آخر انه لا توجد لديه قضايا جزئية بتاتا وتتل قضاياهم في الاستئناف العالي والناقض والابرار ، وقال ثالث اننى استعحق أن اتقاضى أجراً على عملي وهو لا يملك أن يدفع لى أجراً ، فلما قلت له اننى قابل أن أعمل

بغير مقابل مدة عام ، قال لى ان ضميره لا يسمح بتشغيلى مجاناً !
وقال آخر أهملنى يا ابنى شهراً حتى افكر فى الموضوع
وأخذ له عدته .

وكانت خاتمة المطاف عند المرحوم حسن صبرى بك (صار فيما
بعد رئيس الوزراء) ، فلفينى هاشا باشا الى أن عرف غايتى من
زيارته ، فلما رفض واطمان الى هدوئى قال لى وهو يودعنى :

— يؤلمنى أن تنصرف دون أن تعرف حقيقة الدافع لى على
الاعتذار ، وانى مصارحك لعلمى بأنك لا تبتئس ولأريج ضميرى
وضميرك . واعلم أن رجلاً مثلك لا يقبل على معاونته كبار المتهمين
لأسباب ، واولها أنك مشهور شهرة سياسية قد تخرج موقف بعضنا
من لا يالفون سياسة الكتزب الوطنى ، وثانيها أنك قد يدفك
حب العمل الكثير فتستدرج عملاءنا فيرغبون فيك كعادتهم فى التعلق
بكل جديد وقد سبقنا تجارب فى هذا الباب فزاحمنا الذين
ربيناهم ، والسبب الثالث أن أحداً يمرن أخاه أو ابنه أو « ختنه »
أى الرجل الذى لا يخرج عليه أو رجلاً ظاهر العجز حتى اذا تركه
لا يفلح بعده ، فهو فى حاجة اليها أكثر مما نحن فى حاجة اليه ،
وكل من يقول لك غير ذلك فقد كذبك ، وكل من يعتذر لك بغير
هذه الحقائق فانما يخفى وراء اعتذاره خوفه على مصلحته وخوفه
منك لظنه الكفاية فى شخصك ، ولك أعمال قديمة فى الصحافة
والكتابة والخطابة ، وانى لا أقفل مكتبى دونك ، فأنا مستعد أن
أشير عليك أو أفتيك فى مستقبل الأيام اذا احتجت الى ذلك من
حين الى آخر ، أما العمل المنظم والارتباط ولو بغير مقابل فلا !

وكان هذا هو الرجل الوحيد الصريح الصادق الذى رأيته فى
خمسة عشر محامياً من فطاحل هذه الصناعة فى مستهل العقد الثانى
من هذا القرن ، رحمه الله وطيب ثراه فقد عاملنى معاملة الوالد

والصديق في هذه المسألة الوحيدة ، ولم أره بعد ذلك الا متراسا في المحاكم وقد حملت له حبا حتى نافرت المرحوم أحمد رأفت بك المحامي عندما رأيته يتراجع ضد حسن صبرى بك في قضية شخصية رفعها صبرى على وزارة الأوقاف مطالبا بتسوية مدفاته بعد أن كان رئيسا لقلم قضاياها وقد حل محله رأفت فرأى من حسن اللياقة أن يقف ضد زميله في مطالبته بحقه ، ولم تنزع الوزارة نى ذلك الزمن - ولعلها كانت ما ترال ديوانا تحت اشراف أحمد شفيق باشا صاحب مذكراته في نصف قرن - لم تتورع عن تعريض كرامة الاثنين للضياع ، فكان صبرى بك ذا كرامة وعفة وأدب وعدل وكان رأفت متعاملا جافيا ، ولعله ظن أنه اذا خسر هذه الدعوى فقد منصبه في رئاسة قلم القضايا ، وسألت في ذلك فعلمت أنه متعاقد لثلاث سنوات أو خمس وأنه لا يفقده أبدا ، ولكن شدة حرصه دفعته الى ما فعل ، وسمعت المرافعة كاسف البال متألما ، ولكن رأفت نفسه وقف نفس هذا الموقف مع خلفه بعد ذلك ببضع سنين !! •

انا ادون هذه الحوادث كائننى اراها وأسمعها الليلة ولا أحرص على الوقت والقوة التى أصرفهما فى تدوينها ، فانى ان لم أجد الوقت لكتابة مالا يقدر على كتابته عنى سوى فلا خير فى الحجة !

خرجت من مكتب حسن بك صبرى ضيق الصدر مرتاح الضمير فياله من تناقض ! ، وأخذت سمى الى رجل سورى فاضل كان يظهر لى المودة ، فكلمته فى الأمر وطلبت منه أن يدلنى على محام من غير هذا الطراز ولم أجد له الأسباب حرصا على كرامة قومى وكبار صناعتى وبعض قادة الراى وأصدقائى الحميمين ، فدلنى على مكتب المرحوم اسكندر عمون بك وهو رجل تشكره عظامى فى قبرها •

لم أكن رأيته من قبل ، فلما رأنى أقبل على اقبال الوالد الحنون على ولده وبذل فوق طاقته لتطمينى ولم يسألنى عن سبب

واننى أنتهز هذه الفرصة لأثنى عليه وعلى أهل بيته وأنجاله
وكريماته وعلى كل من يمت إليه بصلة • وقد عشت فى أكنافه
عاما كاملا وهى الله لى أن أخدمه وأنفعه وأن أرضيه وأن أعوض
عليه كرمه وادبه وسمو نفسه ولكن جميل هذا الرجل الفاضل
الشريف لا يرد بقناطير الذهب ، فاننى لم أشعر عنده يوما بنقص
فى حرىتى أو رغبة فى استغلالى أو تفصير فى مكافأتى أو تقصير
فى تعليمى وتدريبى أو رغبة فى حجبى عن خاصة عملائه أو عدم
إقرار بعملى مهما كان تفها ، فضلا عن تشجيعى وتبشيري
بمستقبل حسن •

كان هذا الرجل الفاضل رئيسا لعبدة الخالق ثروت باشا أيام كان في خدمة الحكومة المصرية ، فانه وصل الى منصب رئاسة إحدى المحاكم وكانت تربطه بشروت باشا أواصر صداقة متينة حتى ان النائب العمومي لم يكن يرد له طلبا ، فقصده اليه زميل أرمني الجنس وطلب وساطته في تعيينه في وظيفة بالنيابة العمومية ، فحكيت له ما وقع بيني وبين ثروت باشا منذ بضعة أشهر وعرضه على ما طلبه الأستاذ الأرمني لنفسه ، فعجب ثم سكث وسعى للأرمني فوظفه وما زال يترقى الى أن توفي في منصب مستشار بالاستئناف .

لم يكن التزامهم على الوظائف في تلك الفترة على شيء من التكاليف الذي نراه الآن أو قبل الآن بعشرين سنة ، ولم يكن السادة المشايخ قد تفتحت أعينهم الى أن الحكومة « تكية » مضمونة وأن

الكفاية فيها ليست لازمة وأن الابن أحق من ابن الأخ وأن الأخ أحق من الصهر والصهر أحق من ابن الصديق وابن الصديق أحق من المحسوب والمحسوب أحق من أنبغ الرجال وأصلحهم لاشغال الوظيفة المرموقة !! ؟ وأن تراب الميرى كان ما يزال نرابا عاديا ، فاصبح رملا ذهبيا ناعما ثم زعفرانا عطرا ثم تبرا ، فلا ينال التمرغ فيه الا كل أصـئيل فى الغش ، عريق فى « النسب » ، مطواع فى العمل ، وان الوظيفة أمنية تبذل فى سبيل تهقيفها الأرواح والأموال وكل مرتخص وغال ، بل وما هو أعلى من الأرواح أحيانا .

كانت السنة الأولى فى المعاناة فى أكتاف اسكندر عمون بك
من أسمعده أعوام الحياة ، فقد رجاني حافظ رمضان باشا برابطة الحزبية أن أباشر قضاياها أمام محكمة الجنائيات لأنه ظن بى خيرا ، فعملت له بدون مقابل لأكسب خبرة ولأقيس قوتى فى محكمة عليا كانت نفسى تتوق اليها من زمن طويل ، وقد حصلت على أحكام كثيرة بالبراءة ولم أحصل على دائق ولكن كان يلد لى أن أدرس القضايا وأحسن الدفاع فيها وأنفق من مالى ووقتى لأفوز بانتصار ، وما يزال حجاب المحكمة الذين رأيته من منذ ثلاثين عاما هم هم لم ينش عود أحدهم ولم تبيض شعرة فى رأس معظمهم ولم تنجمد خطوط جبينهم ولم ينحن ظهر أحدهم ولم تؤثر قصص الحياة ومآسى الدنيا فى عواطفهم ، ولم تضعف نبرات أصواتهم ولم يتغير لون ثيابهم الزرقاء المحلاة بزراير النحاس اللامعة ، ولم يتغير أدبهم ومجاملتهم وعفتهم فى طلب المكافأة البريئة عندما يؤدون لنا خدمة بريئة أو البشرى بنجاح قضية ، وهم عدا عن هذا كله كنز معرفة ومعين أحاديث طلبة لا تنضب وذكريات لا تخلو من فكاكة وطرب ، وكانوا من الوفاء للقضاء بدرجة فائقة ، فان أحدهم - وكان حاجبا خاصا لمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف ورئيس محكمة النقض طوال مدة وجوده - لم يطق الحياة بعد اعتزال القاضى الايرلندى فذبح نفسه بموسى فى محكمة الاستئناف نفسها ، وقيل انه لم يكن يرى

فيمىن استخدمه بعد مستر بوند موضعاً للحنان فرأى الحياة غير خليقة بأن يحرص عليها ، ولم أعلم برجل من كبار الموظفين فى هذه المحكمة أو صغارهم قد انتحر قبل هذا الرجل أو بعده ، وقد يكون أحدهم قد ناله من الهوان أكثر مما نال هذا الحاجب ، فهل كان أقلهم عقلاً وإيماناً أم كان أكثرهم كرامة ؟!

كانت هذه السنة الأولى سعيدة حقاً ، فقد تقدمت الى المحكمة المختلطة فى قضايا كثيرة ، فأجبت تلك المحاكم واحترمت قضائتها ، ولا سيما الموسيو نيهولم اللندركى كان أعذل قاض وأعظم رجل على الفلاحين المصريين، ورأيت به عيشى يحطم رؤوس المراهين من اليونان الذين امتصوا معظم دماء هذه الأمة ، أى حطم رؤوس أموالهم وكسر شوكتهم ودمغهم بأحكام عادلة بلغت أسباب بعضها سبعين صفحة .

وقد سمعت الحوار الآتى بينه وبين مراب كبير فى قضية مرفوعة من فلاح بسيط اسمه أحمد منصور العزب من إحدى قرى القليوبية :

الرومى : أنا غنى جداً .. أنا عندى مائة ألف جنيه .. أنا لا أسرق
هذا الفلاح الفقير .

نيهولم : اسكت يا خريستو والا أمرت باخراجك .

الرومى : أنا راجل غنى كثير .. ودى راجل مسكين مس يمسك
عسرة قرش .. أنا موش ممكن أكون حرامى (كذا) أنا رجل
سريف (شريف) أنا عندى مائة ألف جنيه .

نيهولم : لقد جمعت هذه الثروة من مجهود هذا الرجل وأمثاله ،
وهذه وقائع القضية تثبت ذلك .. فهذا الذى تقوله
عليك لا لك .

وصمت الرومى ولم يجب بشىء .

ولم يلبث نيهولم بعد ذلك ان نقل الى محكمة العدل الدولية فى لاهى فاحتفل به القضاة والمحامون وقدموا له باقات الأزهار يوم سفره وكان على افريز المحطة شيخ فان هو أحمد منصور العزب يعتمد على عكاز ولسانه يلهج بالدعاء للقاضى ويهتف « روح الله ينصرك وينصر كل مظلوم على يديك » .

لعمرك لا تظن أن أغنياء مصر وكثيرا من باشاواتها وأعيانها وأرباب الآلاف من الأفدنة يهلون عن خريستو الرومى ظلما لفلاحهم ومستأجريهم ، ولكن رعب الفلاحين المظلومين من ظالميههم أكبر من رعب العزب من ظالمه الاجنبى ، فانهم يؤجرون للفلاح ويأخذون عليه عهودا وعقودا مهورة بامضانه أو ختمه ولا يعطونه مثلها زاعمين أنهم موضع الأمانة والشرف وأن حسابهم لا تتسرب اليه شائبة وأنهم ليغالطون ويغشون ولا يبالون ، ولولاهم ما تعلم الرومى ولا تجرأ على نهش لحم ابن البلد ، ولو وجد الرومى من يعتذر له من بنى جلدته أو مستخدميه وحاشيته ، فمن يعتذر لهؤلاء الباشوات الاقطاعيين والأعيان أصحاب الأطيان التى يعجز عن حصرها العدد والذين كدسوا فى حياة جيل واحد ما لم تستطع القراعة أن تجمعهم ، فمن لنا بنيهولم ثان بل عشرة من أمثاله !؟

كان الاستمرار فى العمل أمام المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية أمرا مستحيلا ، لأن الأولى تقتضى أن تلازمها طول أيامك وتنقطع لها ، وانهما كالضرتين ، ولكن الضرة الأهلية تسمح لك بقضاء أعمالك فى سعة وفسحة من الوقت ، أما الثانية فشديدة الغيرة ، ثم انها أوفى وأرحب للأجانب وكل متقاض لديها يقصد الى بنى جلدته حتى المصريين يحسنون الظن بالأجانب لظنهم أنهم يتقنون التفاهم مع القضاة بلغاتهم أحسن مما يصنع المصريون ، وهذا وهم

لا شك فيه ، ولكن الحق أن أقدامنا لا تثبت هناك حتى لو كان أحدنا قاضيا سابقا بتلك المحاكم كالمرحوم اسماعيل الشيمى بك ، أو كان ذا مكانة عالية في اللغات كالرحومين عمر واحمد لطفى بك ، ولذا لم أحاول أن أتعلق بأهدابها طويلا ، ولم يرد الى الا مظالم الفلاحين المنهوكين المطحونين بعد أن خسروا كل قضاياهم يحملون أكواما من الأوراق التي لا يتبينها الا خريج مدرسة الوثائق التاريخية ! ، فلا أجدها بعد العناية الطويل تجدى نفعا أو تعود على صاحبها بثمرة ، فكان مجهودى معهم ضائعا .

وقد بليت برجل تركى ينتمى رغم تركيته أو شركسيته الى دولة أجنبية وكان يقاضى وقفا كبيرا فواصلت له العمل أعواما رأيت فيها المتاعب ألوانا وانتهى بصلح منفرد لم يطلعنى عليه كشرط خصومه ، فكانت هذه القضية آخر عهدى بتلك المحاكم .

وفى تلك السنة رأيت رجلا غنيا عرفته فى أوربا وهو امام المشاغبة فى هذا العصر بلا منازع . كان هذا الرجل يعيش ويمسى ويصبح ويسهد وينام ويحلم ويتيقظ من لذيت الأحلام فى القضايا ، ويأكل ويشرب ويزهد فى لذيت الطعام بسبب القضايا ، ويسعى ويكد ويجتهد ويطوى الأرض على قدميه ويمكنه أن يشتري الخيول المطهمة والعربات الغالية ولكنه يضحي بكل هذا فى القضايا ، وقد أهمل تعليم ابنه الوحيد على ذكاء الولد وحسن استعداده ليمرنه على السير فى القضايا ، فالمال عنده كل شيء وغاية كل حى وفسر قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » بأن البنين لا قيمة لهم بغير المال ولكن المال له قيمته بغير البنين !!

ولا يخطرن ببال أحد أن هذا النوع من الرجال قد انقرض أو خفت وطأته ، انه ما يزال موجودا وأفراده أقوى وأمهر مما سلف !

وهناك آخرون يشربون مجهودك بفنجان قهوة وابتسامة ،
وآخرون لو يستطيعون قطع الطريق وقطع الوريد - وهم من السادة
الأغنياء - لفعّلوا ، وآخرون يجدون من لين طمعك وسهولة خلقك
مدخلا الى حصن نفسك ليسرقوا ما استطاعوا !

وكنت أغضب من الجهلاء والفقراء المستغلين الى ان وجدت
خاصة المتعلمين وخاصة الأصدقاء وخاصة الأذكياء يفعلون هذه
الفعال ويتقنون تمثيل أدوارها .

قد تعذر الفقير أو متوسط الحال أو الجاهل اذا طمع فيك
وتوهم أنك غني وقادر على أن تخدمه بغير مقابل وأن تعطيه من عقلك
وفكرك وهمتك ما ينقذه أو ينجيه أو يحفظ حقوقه ، ولكنك اذا وقعت
مع صديق ومتعلم وذكي وخبير بأحوال الدنيا ، فهذا هو البلاء
الأكبر ، وقد يبدل في القمار وفي سباق الخيل وعلى موائد الخمر
في شهر ما يكفي أسيرة في عام ، ثم هو يطعم فيك ويحرمك حقك
بعد أن يجلب عليه مجهودك خيرا كثيرا .

فاذا تناسيت يوما كل آداب اللياقة وفاتحته بلباقة وحسن
تعبير ، فاعلم أن هذا هو نهاية عهد صداقته وآية رفع قناعه عن
وجهه وتكره وإعلان عدائه لك وافتتاح مقولاته عليك وبسط لسانه
في عرضك ، لأنه أدرك أنك كشفت له فلن تلين له بعد ذلك فأصبحت
معدوم النفع له فلا يبقى عليك ، فاذا حدث أنك قاضيته ، فهناك
المجزرة والمذبحة والمحملة وأخلاق الطبقات التي لم يذكرها
التاريخ !

ذكریات عن القضاء والمحاماة

الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى محاكم
الجنايات - نظام تلخيص القضايا - النكتة
فى مجلس القضاء -
قضاة ومحامون

فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٣ وجهت الدعوة الى ادخال نظام
المحلفين فى القضاء الأهلى ، وقد بدأت الدعوة بخطاب وجهته الى
الأستاذ داوود بركات رئيس تحرير الأهرام نشر بالمصفحة الأولى
تحت عنوان « اصلاح القضاء الأهلى ، وجوب ادخال نظام
المحلفين » (١) .

ومما جاء فى هذا الخطاب أننا أصبحنا الآن على أبواب الحكم
النيابى ، فأصبح واجبا على كل مصرى أن ينظر ما تضرره نفسه
من الأفكار والمبادئ التى يظنها نافعة لأبناء وطنه ، فإذا صح أن
يتغير نظام الحكم فى مصر من النظام المطلق وسيادة الأجنبى الى
نظام دستورى شبه استقلالى ، فأول ما يخطر ببال المصلح النظر
فى النظام القضائى الذى عليه مدار تقسيم العدل بين الناس
وانصاف الضعيف من القوى والضرب على أيدى الجناة حتى يكفوا
أو يدفعوا دينهم للهيئة الاجتماعية .

(١) نشر هذا الخطاب المفتوح بالمصفحة الأولى من جريدة الأهرام فى :

١١ أغسطس سنة ١٩٢٣ .

ان أهم تعديل أدخله قانون سنة ١٩٠٤ على النظام المصرى هو ايجاد محاكم الجنائيات الجديدة ، وعندما شرعوا فى وضع نظام تلك المحاكم ، عرضوه على رجال القضاء والمحاماة فى مصر ، فاعترض عليه كثيرون منهم ، وبكى القول بأن كل قاض ونائب ومحام اشتغل بهذه المحاكم وسئل عن صلاحيتها لا يتردد فى سرد جملة أوجه الانتقاد .

وأولها بطؤها فأصبحت بعض القضايا تؤجل جملة مرات أشهراً متوالية لأسباب تافهة ، وبذلك ضاع الغرض الأول من العدل الجنائى وهو السرعة فى القضاء للموعظة ، وثانيها نظام قاضى الاحالة فانه لا فائدة منه بتاتا ويندر أن يأمر بتحقيق تكميلي أو استيفاء واجب ، وثالثها جلوس قاض أجنبى فى تلك المحاكم لا يفهم لغة البلاد وعاداتها ، فلا يمكنه مهما كان عالما مخلصا أن يعطى العدل للناس ، ورابعا تكليف المستشارين بالقضاء فى القضايا المدنية والقضايا الجنائية فى وقت واحد بحيث لا تكون للمقاضى ذهنية جنائية Mentalité criminelle تمكنه من ادراك أحوال الجرائم والمجرمين على حقيقتها ، وظاهر مما كتب البارون جافالو فى كتابه الشهير « الاجرام » أنه يلجأ فى نهاية الأمر الى نظام التخصص الذى أصبح شائعا فى سائر العلوم والأعمال مثل الطب والتدريس والهندسة وغيرها . وخامس أوجه الانتقاد التى وجهت الى محاكم الجنائيات نظام انتداب المحامين للدفاع عن المتهمين المعوزين ، ويحدث كثيرا أن المحامى المنتدب لا يستطيع اعداد الدفاع والاستعداد له على الطريقة المثلى لأسباب كثيرة يطول شرحها ويعلمها حق العلم جميع القضاة والمحامين .

وخلاصة القول ان محاكم الجنائيات قد عاشت مدة كافية ويصح الآن أن تذهب من عالم القانون المصرى ، لا سيما وقد دخلنا فى عهد جديد يحتم اشراك الأمة فى كل شئ ، فعندما يكون

الأمة ومقتضيات الأمن ، وقد قال العالم توكفيل ان نظام المحلفين أعظم مدرسة للشعب ، ونحن الآن في مصر في حاجة الى تكثير عدد مدارس الشعب ، فالبرلمان أعظمها والمحاكم تتلوه في الأهمية ، فيجب والحالة هذه أن يدخل هذا النظام الى البلاد المصرية من سنة ١٩٢٤ (١) .

لقد تكون عندي اعتقاد يفيني أن كثرة القضاة الجالسين لنظر الدعاوى لا يفيد فتىلا ، لأن الأمر ينتهى دائما أو غالبا بتحكيم الرئيس ، وفى الدوائر الأخرى يتحكم القاضى الأقوى خلقيا أو شكيمة لا الأعلم ولا الأفضل خلقا ، ولذا أعتقد أن الأفضل أن

(١) لم تكد دعوة لطفى جمعة الى ادخال نظام المحلفين فى النظام القضائى المصرى تنشر على صفحات الأهرام حتى تصدى لها كثيرون من رجال القانون والمشتغلين به من القضاة والمحامين وأساتذة الجامعة والصحفيين وغيرهم ، تارة بالموافقة والتأييد وطورا بالمعارضة والتفنيد ، وتشعبت المناقشة والمجادلة حول هذه الدعوة واحتدت واحتدمت بين المؤيدين والمعارضين على صفحات جريدة الأهرام أكثر من شهر .

وممن شاركوا بأرائهم فى هذه الدعوة داوود بركات رئيس تحرير الأهرام والدكتور عبد العزيز نظمى والأستاذ عزيز خانكى والأستاذ حسين رمزى الأستاذ بالجامعة المصرية وحسين عامر المحامى واسكندر داوود المحامى وأحمد الصاوى محمد الكاتب الصحفى وغيرهم (جريدة الأهرام فى ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩٢٣ ، أول سبتمبر سنة ١٩٢٣) .

وجدير بالذكر أن اقتراح لطفى جمعه بإسهام الشعب فى إقامة العدالة بإدخال نظام المحلفين فى محاكمنا الجنائية ، لم يتحقق الا بعد ثمان وأربعين سنة عندما تم دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ على الأخذ بنظام مشاركة الشعب فى القضاء ، وطبق هذا النظام فعلا فى محاكم الحراسات بمقتضى القانون رقم ٢٤ لسنة ١٩٧١ ثم فى محكمة القيم بمقتضى القانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٨٠ .

تكون كل القضايا مهما علت من اختصاص قاض واحد الا محكمة
البنقض التي ترفع اليها أعوص المسائل القانونية .

وقد شهدت أن نظام تلخيص القضايا عقيم جدا ، فإن
القاضي الملخص يكون رأييه ويحكم في القضايا سلفا وينقاد له
زملاؤه حتى الرئيس بحكم أنه واقف على تفصيل القضية ، وإذا
كان الملخص ميالا للادانة كما يقولون فإنه يغضب اذا حكم بغيرها
كأن المتهم خصمه الشخصي ، وقد رأيت هذا في قضايا كثيرة
وفي كل الأحوال ، لأن هذا القاضي يعتبر أن في مخالفته مسا
بكرامته وهذا عجيب ا

واني أحب النكتة الرقيقة البارة في مجلس القضاء وان
كنت لا ألقنها ولكن أطرب لها ، وان لم ترد على لسانى فيكفى
سماعها والتلذذ بها وتقدير أصحابها .

وفى انجلترا يسمون صاحبها Tester والنكتة الانجليزية
ليست فاترة أو باردة كما يظن الناس لبرود طبع الانجليز وفتورهم
وطول صمتهم ، فقد اشتهر منهم فى القديم السكتور جونسون
وسجلها له بزويل ، ودافيد جاريك الممثل الشهير ، وفى العهد
الأخير أوسكار وايلد ، فكان ملك النكتة فى عصره ، وهم يفضلون
أن يتخذوها وسيلة النجاح فى كتبهم فلا تضيق هباء فى المجالس .

واني أحبها ولو فى مجلس القضاء المتمم ، لأنها دواء الخمول
والجهود وضيء الظلام المخيم على الخواطر والأفئدة ، فتشجذ
الكليل وتنمش العليل وتبعث الوسنان وتوقظ الهاجع ، ولا يابأها
ألا الأبله والأحمق ، ولا يغضب منها الا المغرور وضيق الصدر .

كان محمد خالد باشات صديقا حميما وقاضيا بالماكم وقد اشتمل بالمحاماة عشرين عاما تم انتخابه للقضاء ، وكان صاحب نكتة بارعة لا يقل عن المرحوم البابلي وان تكن دائرته أضيق من البابلي وانما كانت كافية لاطهار موهبته ، وكانت شهرته في الدوائر القضائية مستفيضة بحذقه للنكتة البارعة ، فلا يكاد يقف ويبدأ الكلام حتى تشرئب الأعناق وتنطلع الأذان لما يقوله وتفتقر الشغور عن البسمات قبل أن ينطق ، والكل ينتظر منه أطرف النكات والطفها ، وكان هو أيضا يبتسم قبل أن يرسل النكتة ويعقبها بضحكة خافية لأنه أول من يعرف قوتها واصابتها وحدتها، وقد حاولت تسجيل بض نكاته في مقال لي في البلاغ سنة ١٩٣٠ (سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة في الصفحة الأدبية) ، ولكن كل تسجيل لهذه الأشعة المضيئة وتلك الشرارات المنطلعة من وهج الذكاء والبدئية يرددها باهتة خافتة .

ولا يفوتني أن باشات في قضائه كان رجلا في أعلى درجات النزاهة والعلم والأدب وله كرامة خاصة به ومظهر يدعو الى الاحترام ، وقد سألته ما يصنع ان «حزقته» نكتة أثناء النظر في القضايا ، هل يطلقها أو يكتمها ؟ فقال لي وهو يبتسم ابتسامة أعرف سرها : انى أمتنع لأن الوسط الريفى لا يلائم وأخشى أن يشهر عنى التنكيت فى القضاء وهو يذهب الكرامة ، ولكن أقول الحق انى أحيانا لا أطيق الصبر فأرسلها . فقلت له : خيرا لك أن تقيددها وتكتبها أو تبقيها الى النطق بالحكم . فضحك وقال : هى حشيات والا ايه ؟

وان صديقى العزيز باشات بجانب هذه الموهبة الجميلة ، يتلطف فى القول ويخرج من اللوم بأحسن العذر اذا اعتذر ، ويجعل من الكلام مصاييد للقلوب ويعمر المجلس ان جلد أو هزل

ويستولى على الآمد وهو وادع لأن الغريزة مواتية والطبيعة قابلة،
جزاه الله خيرا عن الأدب والأدباء والظرف والظرفاء ، فانه ذخيرة
أمنية وتحفة غالية ، فهيئات أن يجود الزمان بمثله .

كان محمد بك أبو شادى من أشد المحامين ذكاء وأكثرهم فصاحة
وأحضرهم بداهة وأقدرهم على الدفاع المرتجل ولو لم يكن ملما
بأطراف القضية ، وكانت له شهرة مستفيضة فى أنحاء القطر
المصرى ولا سيما فى صعيد مصر ، حيث كان الرجل يهدد خصمه
ويقول « أطبخك رصاصتين وأشد ولد أبو شادى » ، ضامنا صدور
الحكم ببرأته على يديه ، ولو أنه تعلم لغة أجنبية وانقطع للدرس
قضاياه لكان من أشهر محامى العالم ، كان ذا فطرة سليمة وروح
مرحة فأصابع الصحة والمال ، وكان فى آخر أيامه يخطب ويترافع
ساعات عدة فلا يتلثم ولا يتردد . ولا يرتج عليه ، وهو يفيض
بنوايع الكلم وآيات القرآن والأحاديث والشعر القديم والجديد
والنكت الظريفة المقبولة والنوادر الطريفة حتى يستلب الألباب ،
ويؤدى هذا كله ولا يمسه تعب ولا لغوب لأنه موهوب حقا ، وكان
أقدر من الهلباوى وأخف منه دما وروحا وأوسع حيلة وأشد ذكاء ،
ولكن الهلباوى علم نفسه ولم يكتف بذكائه وحضور بديهته ولم
يعثر حياته ولم ينفق ماله فى غير ما جعل له .

كان أبو شادى صحفيا وكاتبا وصديقا لسعد زغلول فدخل
مجلس النواب وانتخب نقيبا للمحامين ، وعادى الشيخ محمد عبده
أكراما للخديو عباس ولم يكن على حق فى معاداته ، فعاد واعتذر
للأستاذ المفتى واسترضاه ، وكان رحمه الله يعرف توجيه الحملات
الصحفية ضد السياسة الانجليزية فى دنشواى وبور سودان ،
ولذا عاداه القاضى بوند وكيل محكمة الاستئناف وكان يعرض عنه
فى مرافعته ليحقره ويؤذيه ويتوعده بالاحالة الى مجلس التأديب
والمحاكمة .

كان أبو شادى يصدر جريدة الظاهر وقد تعرفت بالمرحوم عبد الفتاح بيهم الذى كان يعمل مترجما فى الجريدة ، فالتح على الاشتغال فى الصحافة ، وعندما قدم على مصر سنة ١٩٠٥ المرحوم محمد كرد على والسيد عبد القادر المغربى والمرحوم عبد الحميد الزهراوى اشتركت مع كرد على والسيد عبد القادر المغربى فى تحرير الجريدة بعد وفاة عبد الفتاح بيهم .

وعندما حدثت فاجعة دنشواى سنة ١٩٠٦ وصفت على صفحات جريدة الظاهر تنفيذ الأحكام وحملت على السياسة الانجليزية حملة شعواء وأصبحت الجريدة فى مقدمة الصحف الوطنية لا تزاوحها الا جريدة اللواء التى أنشأها المرحوم مصطفى كامل منذ سنة ١٩٠٠ .

وقد ترجمت للمرحوم أبو شادى فى حفلة تأبينه التى كانت تحت اشراف سعد زغلول وطبعت جميع الخطب التى ألقيت فى هذا الاحتفال وبينها كلمتى ، وكنت قد اقترحت اقامة هذه الحفلة ، ولكن الأحقاد جعلتنى الشاغل فى الترتيب ، وأخذ رئيسها يرسل الى الرسل ليهمسوا فى أذنى بالاختصار ، وكان آخرهم الأستاذ عبد الرحمن الجديلى فقال لى عفا الله عنه : كلفت أن أرجوك الاختصار وأرى أنك خطيب الحفلة ، فاستمر فأنى أرى دولة الباشا (سعد زغلول) مسرور جدا (١) .

(١) نشرت خطبة لطفى جمعة فى حفل تأبين أبى شادى تحت عنوان « عبقرية أبى شادى وتقدير النبوغ فى مصر » من صفحة ٥٨ الى صفحة ٦٥ فى الكتاب الذى جمع مواد السيد عبد الحميد الكيلانى وعبد الحفيظ الروبى وعنوانه « محمد أبى شادى ، دراسة أدبية تاريخية » ، وقد طبع بمطبعة حجازى سنة ١٩٢٢ .
كما نشرت ايضا فى كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد الاعلام المتعاصرين والانداد » ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ ، من ٢٤٥ - ٢٥٨ .

ومن زملائي في هذه الصنعة الكريمة محمود بك بسيوني
المخامى وهو رجل فاضل بحبوح محبوب من جميع من عرفه من
زملائه وعملائه ، وكان منذ شبابه وطنيا مخلصا من أنصار مصطفى
كامل وترافع عن الوردانى مع جملة من مشاهير المحامين أمثال
الهلماوى وعلوبة باشا ، ثم اتصل بالوفد فى أول حركته وكان
وزيرا للأوقاف ورئيسا لمجلس الشيوخ ورئيس الوفد الذى سافر
الى الهند لرد زيارة البانديت نهرو وأمير الحج فى سنة ١٩٣٨
أو سنة ١٩٣٩ ونقيا للمحامين مرات متتالية ، وبالجملة نال
باخلاصه وثباته ووفائه وحسن نيته كل ما تصبو اليه نفوس
الرجال عن جدارة واستحقاق ولم ينل شيئا محاباة أو مجاملة ،
وله كعب عال فى المجامة وقدرة باهرة فى المرافعة وقد اختار
أسيوط مقرا لعمله منذ نشأته فحصل على ثروة جيدة ورعى أولاده
تربية حسنة وبوأهم المناصب العالية فى حياته .

وهو رجل بسيط المظهر طيب القلب لا تعرف العداوة طريقا
الى فؤاده ولا يتخذ من الحزبية وسيلة للبغضاء أو التقاطع ،
ولا يعتبر الخصومة السياسية سببا للتنافر ، ويعتبر كل الوطنيين
مخلصين وان اختلف مشاربهم ووسائل عملهم .

ويظهر لى أن سبب السكوت عليه من الزعماء أنه هو نفسه
زعيم ورجل كبير وذو مكانة وحرمة غير منكورة ، ولما كان مسلكه
هو الصحيح والواجب الاتباع ، ومذهبه هو الأحق بالتقدير ،
فلم يعرض له أحد بالنقد ، فان عرض له أحد بنقد فلا يؤثر منصبه
على حريته ولا يبيع شهرته بالأفق الضيق مهما دفع له فيه من
تمن .

أما كامل بك أبو الذهب فقد كان من رجال الأقباط النابهين
النابعين ، توظف فى النيابة وترقى الى القضاء وتردد حيناً فى

ترك خدمة الحكومة ليشتغل بالمحاماة فى وقت كان فيه وجه المحاماة مشرقا وفمها باسمها والدنيا مقبلة على ذوبها ، ولكنه عدل بعد سنة من تفكيره وقد أنصف وأحسن .

وهو من الأفراد القلائل فى الطائفة الذين يحسنون التكلم والكتابة بالعربية الفصحى ، وفوق هذا فانه يتحرى البحث فى المعاجم والقواميس عن أصول الكلمات وغيره ممن يفصحون لا يتحرون .

والذين عرفتهم من المحسنين فى اللغة الأساتذة وهيب دوس ومرفص فهمى وتوفيق دوس ومكرم عبيد شمسى خطباءهم ، وهو يحفظ جانبها من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهؤلاء الأربعة خطباء بجانب انهم كتاب ، ولكن مقدمهم على التحقيق مرفص فهمى . وكل من عداهم لا يحسنون النطق ولا يزنون اللمسان .

وكان كامل أبو الذهب فصيحاً ولبقاً ومحققاً وعلمه بالقانون جيد ولا سيما الجنائى وتحقيقه دقيق وأحكامه عادلة فى الأغلب ، وقد التقينا فى محكمة الجنايات مرات وهو فى كرسى الاتهام وكاتب هذه الأسطر فى موقف الدفاع ، فكان يقرع الحجج ويقيم الأدلة ويسرد البراهين بالمنطق الصحيح والنطق الفصيح ، فنشأت بيننا ألفة وصداقة وقد أيدهما الجوار فى السكن بمصر الجديدة .

وقد نقل كامل بسك الآن الى المحكمة المختلطة لأن له الماما باللغة الفرنسية ، وحدث فى احدى القضايا أن مستشارا انجليزيا وهو كلابكوت تشاغل عن سماع مرافعته ثم غفا وأغمض عينيه فأيقظه الرئيس ، فقال الرجل بصوت مسموع سمعه كامل بك كما سمعناه « بربك أيها الرئيس ليس المتكلم ديموستين !! » .

وهو أشهر خطباء اليونان ، فابتسم كامل بك كما ابتسمنا وهي عبارة جارحة تقتضى مؤاخذه المستشير الانجليزى ، ولكن الذى يحتاج على مثل هذه الاساءة كمن يؤذن فى مالطة وربما تكون شكواه سببا فى مؤاخذته ، وهذا قليل من كثير مما يرى ويسمع فى ساحة القضاء المختلط والأهلى فى عهد الانجليز وبعد عهدهم ، فان بعض الرؤساء المصريين لا يقلون كبرياء وصافا عن أسلافهم السكسون .

وكان من أردل المنتمين الى السكسون رجل مالطى اسمه « دربولغو » (١) يتحكم « ويشخط وينشر » وهو معتز بمنصبه ومعتز بصلته باللورد كرومر اذ كان يحسن احياء السهرات ، وكان ممثلا بالحق على المصريين وكراهيتهم كابن وطنه السفيف الآخر « جريك منقوسود » ، وقد كان له من لقيه نصيب ، فقد كان يجاهر ببغضه وينشر المقالات المطولة فى ذم المصريين وهو قاض ثم محام فى محاكمهم .



- ٥ -

حال المحاماة ووسائل اصلاحها

كم نقيبا تعاقب على مجلس النقابة وكم وزيرا تولى السلطة فى وزارة العدل وكم رئيسا لمحكمة الاستئناف فى مدى هذا العقد

(١) دربولغو هو القاضى الذى رأس محكمة الجنائيات التى حاكت ابراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى باشا .

من السنين ولم يفكر أحد منهم فى انتشار جلال مهنة الحمامة من هذه المهواة والوهدة التى تردت فيها هذه الأيام (١) ؟

ان السكوت عمدا عن هذه المأساة وتشجيع الذى يمثلها وترك حبله على غاربه جريمة متعمدة للقضاء على تلك المهنة التى صارت فى هذا العهد مهانة ومذلة ومدرجة للنزول الى الدرك الأسفل !

لقد عجز الحمامون الكرماء والأكفاء عن تحصيل أرزاقهم وعن سداد ديونهم ودفع أجور مساكنهم ومكاتبهم وعن تعليم أولادهم وتزويج بناتهم ، وحاروا فى أسباب هذه النكبات وحارت أفهامهم وأوهامهم ، فتارة يتلمسون الأسباب فى الأزمة العالمية ، وطورا فى حالة الحرب ومرة فى افتقار الفلاح وأخرى فى تكاثر عدد المحامين الشبان المتعجلين للكسب وأخرى فى تهافت أرباب القضايا على المرافعة بأنفسهم وتسيير دفة مصالحهم بأشخاصهم ، والصالحون منهم رموا الأقدار ودورة الأفلاك بالليل والنهار بهذا الكساد والخيبة والفشل ، والصابرون منهم قنعوا بالاضطرار ليدعوا الله بحالهم فيستجيب لهم ، فئة كبيرة من هؤلاء وأولئك أبقوا من الصنعة ذات الجلال والاکرام والتمسوا من الضيق مخرجا بوظيفة فى الحكومة أو بعمل حر لا يحتاج الى العلم والحكمة وسهر الليالى وكد الأيام . .

لقد سكتت جهات العدل وأصببت بالعى والعمى والصمم لينخر السوس فى عظم تلك المهنة ذات الخلال الجميلة ، لأن أولى الأمر وذوى الحل والعقد أرادوا اضعافها وأفقار دمهاتها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة فى سكوت وجلال خليقين بتاريخها العظيم !

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من المذكرات فى مارس سنة ١٩٤٣ .

وقد أمسى المئات من المحامين أقل من أبسط العمال ربحا
ومكانة بعد أن أفنوا أسعد أعوام عمرهم في التحصيل والاستعداد
للمحاماة ، وبعد أن أهرق أهلهم دماء قلوبهم في نفقات تعليمهم
واعاشتهم وبنوا على مستقبلهم القصور العالية وما هي الا قصور
من الرياح !

لقد اندثر الفضلاء وطفا الأوغاد والجهلاء وأيقن المتقاضون
والموكلون بهبوط هذه المهنة وبخسها وانحطاطها ، وهزلت كرامتها
في أعينهم وصارت قرينة الضعف والعجز والفاقة ، حتى لترى
الفلاح والعمال وابن البلد والأمرى الذي كان يتهمبب الدنو من
المحامى ويتحسب للتحادث اليه حسابا ، قد تحرر من قيود العرف
والأدب فيعشاه في مجلسه وموقفه وسيره لأنه عرف الأدية التى
يدفعها ويملك بها ناصيته !

ومنذ شهر واحد كتبت مجلة المصور تسأل عن ثلاثة من
فطاحل المحامين وتقول « أين هم » ، فأجابها أول المسئولين الأستاذ
مرقص فهمى بك الذى لا ينازع أحد فى فحولته وكفايته واقتداره
ونبوغه بأنه « حى ميت أو ميت حى » وأجاب ثانى المسئولين وهو
الأستاذ وهيب دوس بك بأنه خرج بالقرعة من مجلس الشيوخ ،
وأجاب الثالث (١) بأنه « فى زمرة المطمورين الذين أظلمتهم غيوم
الحرب الحاضرة ولما يرد سجل الفناء بل ما يزال حيا يرزق » .

وهؤلاء الثلاثة من دعاءات العلم والفن الخطابى ومن أعلام
القانون والمحاماة فى مصر زعيمة الشرق العربى ومهد الفصاحة
والبلاغة من قديم الزمان ، وهؤلاء ثلاثة من مشاهير خطبائها ومن

(١) كان لطفى جمعة هو المسئول الثالث (مجلة المصور ، العدد ٩٦١ ،

زعماء القانون والسياسة والأدب فيها ، أحدهم حتى ميت والثاني خرج بالقرعة والثالث مطمورا ، وهؤلاء ثلاثة ممن تشجع المصور على سؤالهم وغيرهم على الأقل عشرات ممن لا يقلون عنهم فضلا ونجاسة وكرامة قد تواروا وتداروا واختبأوا واعتزلوا وجمعوا أطراف ذبولهم ليكونوا بمنجاة عن أحوال المجتمع ، وكانت مهنتهم هي الوسيلة الوحيدة لرفع رؤوسهم وإظهار فضلهم وتمكينهم من العمل والخدمة ، ولكن أغرقهم الطوفان حتى قال لى أحد فضلاء المحامين فى بحر هذه السنة (١٩٤٣) انه يبذل من الجهد والعناء ويتكبد من المشقة ما لا يستطيع وصفه ليتمكن من التنفس للحياة مثل الغريق ، فشعرت بوخذ الحديد فى قلبى لا لفصاحته ودقة تعبيره وصدق عاطفته فحسب ، بل لأننى كنت فى نفس موقفه وأشعر شعوره وأصور حالته كتصوير حالته ، ولأنه نفس عنى بنفثة صدره لأننى وجدتهنى غير وحيد وأن فى الغبراء رجلا يعانون ما أعانى ، وتحت ظل السماء قلوبا ولهى وأفئدة قلقة وأرواحا حائرة لأنها تمسكت بالمثل العليا وحافظت على كرامتها وتشبهت بأهداب الفضيلة والعفة والمروءة ودرجت على ما نشأت عليه من الاعتزاز بالذات وبجلال المهنة التى لطلخها الحاكمون والمحكومون بأحوال الأغراض والشهوات ، فلا حول ولا قوة الا بالله وانا لله وانا اليه راجعون !

ولئن كان رداء المحاماة فى القديم رمزا للشرف والمهابة والقدرة ومعونة الضعفاء ومكافحة الباطل ونصرة الحق كما علمنا الذين لبسوه من قبل أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقاني ونصر الدين زغلول والحسينى وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفى وأخيه أحمد لطفى واسكندر عمون وعشرات من معاصريهم وأندادهم وبعض الأحياء أمثال أحمد مصطفى ووهيب دوس ومكرم عبيد

وغيرهم ، فقد صار الرداء فى هذا الزمن القبيح علم المهانة والذل
والحقارة والاستهتار والدناءة .

ولما كان تعميم هذه القبائح شرا كبيرا ، فلم يبق الا استئصال
هذه العناصر الدنيئة من جسد المهنة ليعود الى الصناعة شىء من
كرامتها ، ولكن هذا الأمل مستحيل التحقيق ، لأن النقابة - من
المفروض فيها أنها تسهر على تنقية المحاماة وتطهيرها وتنظيفها -
هى التى ساعدت على تشجيع هذه الأدران وتنميتها وتقويتها
بالإهمال والسكوت عنها وغض الطرف وصم الأذن حتى استفحل
الشرا وكبر الخطب واتسع الفتق على الراتق ، فخليق اذن بوزارة
العدل وهيئات القضاء والجمهور ألا يكثرث لمصايبها والا يمد يد
المعونة أو يحرك لسان النصيح الجماعة يظن أنها من أرقى الجماعات ،
ثم هى تترك ذويها يتسدهورون ويتردون فى المهواة لانشغال
رؤسائها بأنفسهم ومصالحهم ومنافعهم المادية ، ورغبة كل منهم
أن يحصل على أكبر قدر من الثروة وأكثر عدد من القضايا المهمة ،
ولا يبالون بما يحدث لسواهم ١٠١

لقد جعلوا هذه النقابة من سنة ١٩٢٠ الى هذه الساعة
(مارس سنة ١٩٤٣) ميدانا للتنافس السياسى ومسرحا لسيادة
الأحزاب ومعتزكا لأهل النفوذ من الرؤساء والأعضاء ، فيقفزون
منها الى مناصب الوزارة ووظائف القضاء . ان النقباء من سنة
١٩٢٠ الى الآن لم يعملوا على رفع شأن المحاماة لا بقوة ولا مجهود
ولا صلق عزيزة ، ولابد أن بعضهم حضر جلسات وشهد مذبح
المهنة « ذات الجلال والاكرام » على حد تعبير النائب العمومى
مما يدل على أن مجلس النقابة يشارك أعداء المحاماة فى رغبة
القضاء عليها بكل وسيلة . وقد لاحظنا وغيرنا أن مجلس النقابة

فى سنة ١٩٣٥ قد تحول أعضاؤه الى أكبر المناصب ، فكانت
عضوية هذا المجلس قنطرة أو مجازا وثبوا منها الى المناصب ،

ان كتابة هذه الفذلكة ليس بقصد الخدمة العامة لأن وقتها
مضى وانقضى ، ولكن لأن هذه إحدى نكبات العصر الحديث وأنا
أحد شهودها *

هذه صورة من نقائص العصر الحديث فى مصر ونقائضه
وفضائحه وكوارثه وقد رسمتها بألوان باهتة التزاما منى جانب
الاعتدال والرفقة ، لأن الأمر أخطر من هذا بكثير !!

ولكن ماذا يظن أن تكون أسباب انهيار المحاماة فى مصر ؟

يجب على أن أبحث حقيقة فى أسباب انحطاط المحاماة :

فأولا : أن هذه المهنة دخیلة على البلاد وهى تقتضى جملة شروط
فيمن يمارسها كالاستعداد الفطرى لها والذى يتوافر لأصحاب
الصحة الجيدة جدا والعقول الراجحة جدا والفصاحة
والبلاغة والخطابة والأخلاق القويمة وحب العدل وقناعة
النفس اما بثروة أصيلة واما بشرف مكسب يحول دون صاحبها
والانحطاط ، وعلم واسع بالقانون وثقافة واسعة فى كل
شئ *

ثانيا : أنه وان يكن المصريون لهم ذلاقة السنة وقدرة على الكلام
والخطابة بصفة عامة ، الا أن معظم الصفات المذكورة أعلاه
تنقصهم *

ثالثا : دخل هذه الصناعة أكبر عدد ممن ليس لهم استعداد فطرى
ولا أخلاق *

رابعاً : أن الروابط المعنوية والأدبية التي ترقى الهيئات معدومة بسبب المنافسة والجهل المتفشى .

خامساً : معظمهم متكالب على المال وكثير منهم ليس عندهم فكرة الضمير ولا الكرامة الشخصية .

سادساً : ان الوسط القضائي عند القضاة أنفسهم قد هبط والمرافعات نزلت درجتها والقضايا المهمة التي تشجع المحامي نادرة .

سابعاً : فقر الكثرة لساحقة عند المحامين أدى الى قلة أرزاقهم فتحولوا الى عمال عقليين يربحون لسد رمقهم ورمق عائلاتهم .

ثامناً : أن المبتدئين منهم لا يعرفون سابقاتهم ، وإذا رأوهم لا يرون فيهم الا مزاحمين متقدمين في السن فيتمنون زوالهم حتى ان واحداً من المنتسبين الى المحاماة حمل على المحامين الشيوخ حملة نكراء في ورقة سماها تقريراً باقتراح اصلاح المحاماة ونسى « عمود الخشب » الذي في عينيه وذكر « الذرة » التي في عين الآخرين وهي الشيخوخة والعجز عن العمل .

تاسعاً : أن انتشار الروح المادية في مصر صبغ هذه الصناعة بهذا اللون ، فذهبت بهجتها وعظمتها .

عاشراً : أن كثيراً من القضاة يحتقرون المحامين الجهلاء ويحسدون الأكفاء ، وقد درج بعضهم على الاساءة الى الجميع وقد انتزعوا من غرورهم وثبات مراكزهم وانتظام أرزاقهم طمأنينة أنسبتهم آدابهم المحترمة نحو المحامين .

حادى عشر : اشتهر كثير من كبار المحامين بفساد الذمة .

اثنا عشر : المبتدئون لا يقتدون ولا يحتذون بفضائل المحامين ممن يدربونهم على حسن الذمة واتقان العمل .

ثالث عشر : كل شيء في مصر قد انحط بفعل الاحتلال والأحزاب
فتبعه هذه الصناعة بحكم التأثير العام .

رابع عشر : لا يدخل كليات الحقوق في العهد الأخير الا الذين
لم يتمكنوا من دخول الكميات الأخرى ، واذا تخرجوا فيها
فلا يلجأ الى المحاماة الا الذين لم يتمكنوا من دخول وظائف
الحكومة .

خامس عشر : أن النقابة التي كان يظن فيها الخير والعمل على
تقدم هذه الصناعة ظهر من سنة ١٩٢٠ أنها هيئة لحماية
أعضائها وجلب الوظائف والمنافع لأنفسهم ويعتبرون العمل
للمحاماة سخرة ويعملون هم أنفسهم على الحط من شأن
المحاماة .

سادس عشر : أن الحكومة بصفة عامة والسلطات السائدة في
مصر عملت وتعمل على مناهضة هذه المهنة لأنها قدمت الرجال
الذين قاموا بالثورات والاضطرابات منذ سنة ١٩١٩ الى
الآن ، وأن الحركة الوطنية من عهد مصطفى كامل قامت على
كواهلهم ، فوجب اضعاف هذه الكواهل وقد نجحوا .

سابع عشر : درج بعض رجال القضاء والنيابة بجميع درجاتهما
على التظاهر بالترفع عن المحامين في علاقتهم الخاصة حتى
ولو كان هؤلاء القضاة والنواب ممن لا يبدلون المحامي أخلاقاً ،
وقد سرى هذا المسلك الى عروق موظفي المحاكم تقليداً وتبعاً
لرؤسائهم ، فشعر المحامون بشيء من هوان شأنهم مما يعوقهم
عن شعور العظمة المؤدى للنجاح .

ثامن عشر : علاقة المحامين بموكليهم ، ذلك أنه لما كان بعض
الموكلين سواء أكانوا من المتهمين أو من المماطلين قد نتج عنه

سوء أخلاقهم فى معاملة المحامين بأكل حقوقهم والشح عليهم
والكذب فى أخبارهم .

تاسع عشر : طبقة الموظفين عند المحامين من وكلاء وكتبة وخدم
والمندسين فى أوساطهم من السباسة .

هذه كلها أسباب مكدرة لأزمة المحاماة فى مصر ولكنها حقيقة
وذات أثر فعال فيما انتهت اليه المهنة فى هذه الأيام .

- ٦ -

قضايا

من ملداتى الحقيقية أن أدرس قضية جنائية مهمة وأعد فيها

المرافعة ، وان هذه الملدة لتطغى على جميع المتاعب التى أعانيها حتى
لا أشعر بها مطلقا ، وانى أثناء هذا الاستعداد أتخيل ابرازها عند
العمل النهائى فأزداد تحمسا ونشاطا ، وانى كنت بحمد الله أوفق
فى مطابقة النتائج لما كنت أتخيله أثناء العمل ، ومن أهم ما لاحظته
أن هذه الملدة كنت أترقيها قبل أن أدرس القانون ، وسبب ذلك
يرجع الى أمرين ، الأول رغبة شديدة من صغرى فى مكافحة المظالم ،
وأخرى فى ازالة الغموض وحل المشكلات ، والأمر الثانى كثرة
مطالباتى فى الكتب والصحف التى تسرد وقائع القضايا العالمية
ولا سيما الصحف الانجليزية .

ومن القضايا التي كانت لي فيها ملذات كبرى :

قضية قتيل باب الشعرية سنة ١٩١٣ ، قضية محمد علي
نمر - طوخ سنة ١٩١٤ ، قضية عبد المعين خليل - روض الفرج
سنة ١٩١٦ ، قضية ابراهيم عثمان - قتل أسويط سنة ١٩٢١ ،
قضية مقتل السردار السير لي ستاك سنة ١٩٢٥ ، قضية القنابل
سنة ١٩٣٢ ، قضية روزنفلد - تزييف نقود ، بورسعيد سنة
١٩٣٢ ، قضية آل الرميح - مخدرات ، العريش سنة ١٩٣٥ ،
قضية أولاد آدم ضد أولاد ذكرى ، العريش سنة ١٩٣٦ ، قضية
مصطفى الزيني ، بورسعيد سنة ١٩٣٨ ، قضية سالم الأقرع ،
مخدرات القنطرة سنة ١٩٣٨ ، قضية جبريل ايرانجيان ضد
جراييت جرجريان ، بيع وفائي سنة ١٩٤٣ ، قضية مقتل أمين
عثمان سنة ١٩٤٦ ، قضية ابراهيم محمود أبو الروس ضد فتحة
سلامة ، قتل ، الاسكندرية سنة ١٩٤٧ .

وقد ذكرت هذه القضايا على سبيل المثال ، وان بعض
القضايا من هذا النوع لو دفعت لأصحابها مالا لا ترفع فيها - وكان
ذلك في مقدوري - لفعلت ذلك .

- ٧ -

الاغتيال السياسي وأسبابه

تعاني مصر من الاغتيال السياسي منذ نحو أربعين عاما (١)
حتى أصبح داء مزمنًا ووباء فتاكًا مقيما لا ضيفا طارئا ، ونحن

(١) كتب لطفى جمعة هذه المذكرات سنة ١٩٤٩ .

نعالج كل حالة في وقتها فنتفجع ونذرف الدموع ولا ننظر في علاج قاطع مانع ولا نبذل في سبيل الخلاص من تلك الوصمة القومية بعض ما نبذل في محاربة الحميات المهلكة أو وباء الكوليرا ، مع أن القتل السياسي إذا استشرى يسمى أشد ضررا وأوخم عاقبة من بعض الأوبئة وإن اجتمعت ، فإن الاغتيال يفت في عضد الأمة ويطنها في صميم حياتها وحدتها وتضامنها ويؤدي الى تفريق الكلمة وإلى زوال الهيبة والمحبة ، وناهيك بهاتيك المصائب إذا أصابت الوطن المصري •

لقد كان الشرق أقصاه وأدناه وأوسطه طاهرا مبرا من هذا الداء الوبيل ، وكان نادرا في الغرب نفسه فيصفون مقترفيه بالفوضويين أو العدميين « نيهليست » ، وهو وصف روسي كان أول من استعمله الكاتب السياسي والأديب المؤرخ تورجنيف ، ثم شاع هذا الوصف في أوروبا وأمريكا ، وأول من لجأ إليه مذهبا وتنفيذا الثائرون الروس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في زمن القياصرة ، ثم صار علما على جماعة مستهترة وطبقة فدائية دأبها اقتراف الجرائم والجنايات بالأسلحة الفتاكة حقدا على الطبقة الحاكمة والطبقة الغنية ، أى على المستأثرين بالقوة والثراء انتقاما منهم ونكاية بهم وسعيا في تبديد النظم الاجتماعية وتفكيك عروة الحياة العامة ، وكانت خططهم التآمر والاتفاق الجنائي في الظلام ، ولم يقدم على الاغتيال السياسي في أوروبا المتحضرة بعد يوليوس قيصر أحد وذلك بتأثير الأديان والمدنية ورهبة القوانين واعتبارا بما حدث للإمبراطورية الرومانية بسبب هذه الجناية من الضعف والتشتت حتى الاندثار •

ولما كان بعض الشرقيين يميل الى التقليد ويسهل انتقال العدوى الى أممجتهم فقد سرت العدوى بهذا الشر الى مصر ، فقتل المأسوف عليه بطرس غالى باشا سنة ١٩١٠ ، ثم بدأت سلسلة

فطبعة من الاغتيالات السياسية تحت ستار الدوافع السياسية ، وفي مصرع المرحوم محمود النقراشي كان بعض الجناة يسوغون الاعتداء على الحياة بالظلم أو القسوة أو انحراف الزعماء عن سواء السبيل في الوطنية والحكم ، وإن كان الفاعلون والشركاء لا يدرون في الاجتماع والأخلاق والسياسة كثيرا أو قليلا حتى يميزوا بين الخير والشر ، فانه لا يحق لهم بحال أن يجعلوا من أنفسهم مشترعين وحاكمين وقضاة وجلادين منفذين .

إن القتل الذي يتم على هذه الصورة الوحشية يوصف بالاغتيال ، لأن الاغتيال ينطوي على الغدر والقسوة والخيانة والحسة . وقد بلغ تغليظ الزجر وتشديد العقاب على من اقترف هذه الجريمة أن تحدث النبي عليه الصلاة والسلام فقال « ليس للقاتل توبة ، يأتي المقتول يوم القيامة معلقا رأسه في الحدى يديه مثلها فاقله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقف بين يدي الله فيقول المقتول لله تعالى هذا قتلنى . فيقول الله تعالى : تعسست . ويذهب به الى النار » .

وإن الناظر في وقائع القضايا السياسية التي صاحبت مصر خلال النصف الأول من هذا القرن ، يرى أن الدافع اليها هو الاحتلال الانجليزى ومعاهدة سنة ١٨٩٩ الخاصة بالحكم الثنائى فى السودان ، فالانجليز حيثما كانوا هم السبب لكل كارثة حدثت فى مصر .

فقبل قضية الاعتداء على المرحوم بطرس غالى باشا بسنتين أو ثلاث ، عمل الانجليز على قتل الروح الوطنية فى مصر بمحاربة التعليم واضطهاد الطلاب وتخريب مدرسة الحقوق التى تخرج رجال القضاء والعدل ، وكانت هذه القضية خاتمة المطاف .

فبعد الاحتلال عمل الانجليز على محاربة الامة المصرية بوسائل شتى منها :

١ - افساد التعليم فى المدارس مثل اختصار سننى التعليم الثانوى وحذف تاريخ مصر والتاريخ الاسلامى ومقاومة مشروع الجامعة المصرية واستبداله بانشاء الكتاتيب ، وفرض اللغة الانجليزية ومحو اللغة الفرنسية واضطهاد اللغة العربية .

٢ - التثكيل بالوطنية والوطنيين فى الحكومة وفى كل مكان .

٣ - محاربة الدين الاسلامى والشريعة الاسلامية والتقليل من شأن الأزهر وتشجيع الاستهتار بالأخلاق وتسهيل انتشار الفساد .

٤ - ترك الامة المصرية فريسة للفقر والجهل والمرض ، والدليل على ذلك ما كتبه الانجليز أنفسهم « شيرول » والدكتور « بلفور » سنة ١٩٢٠ عن صحة الشعب المصرى .

وتركهم فريسة كذلك لليهود والأرمن واليونان المرابين حتى امتلك كثير من هؤلاء الأجانب الأملاك العقارية والأراضى الزراعية فضلا عن استمناعهم بالامتيازات الأجنبية وما كان يسمى حماية القناصل للرعايا المجرمين . وكانت غاية الانجليز من هذه الخطة كسب عطف الأجانب من الطبقات السفلى وهم أصحاب الخمارات ومقاهى الغناء والرقص عدا عن « البلطجية » والمقامرين والمجرمين المأجورين ، وكل هذا بقصد اذاعة الفوضى فى البلاد والاخلال بالأمن واطهار الامة المصرية بمظهر الامة العاجزة عن الاصلاح .

٥ - قتل النفوس المصرية ومجاربة عاطفة الحرية وتشجيع الطبقات المنحلة وتشجيع التجسس والخيانة ، وكبرياء الانجليز وعدم اختلاطهم بالمصريين بدليل مأساة النادى الانجليزى المصرى .

٦ - تلاعب الانجليز بالوزراء والحكومة والأحزاب (تلغراف جرانفيل فى ٤ يناير سنة ١٨٩٤) .

٧ - اتخاذ مصر والمستعمرات الأخرى أسواقا لتجارة الانجليز البائرة وتسخير مصر لزراعة الأقطان .
وبالجملة كل مضار الاستعمار بصفة عامة .

وقد حصن الانجليز أنفسهم فى عهد كرومر بالمحكمة المخصوصة وزيادة جيش الاحتلال من وقت الى آخر واستولوا على سادة البلاد ، فأهلوا الأغنياء بالمال وأوجدوا طبقة « أصحاب المصالح الحقيقية » أى أرباب الأطماع والأموال للدعاية الواسعة لكرومر ، فسكنت كل الأصوات عدا صوت الخديو عباس حلمى ومصطفى كامل ، فوقف عباس لكرومر بالمرصاد ، أما مصطفى كامل فقد أيقظ الأمة بجريدة اللواء والخطب أى بقلمه ولسانه ، وأخذ الانجليز لجانبهم بعض علماء الأزهر واشتروا بعض الجرائد وقد اغتنى أصحابها حتى صاروا أصحاب ملايين وضمّنوا الوزراء وموظفى الحكومة ، واستولوا على المدارس بالحجرات الانجليزية وعلى المديرين بمفتشى الداخلية وعلى الوزراء بالمستشارين وعلى الخديو بتهديده بالخلع ، والنفى ، ولكنه - رحمه الله - لم يكن يبالى بالوعيد .

وما زالت الحال فى ارخاء وشيد حتى سنة ١٩١٤ فحدثت الحرب الأولى ورفعت بريطانيا الأقفال السبعة من النفاق وأعلنت الحماية على مصر ونهبت الأرزاق وحدثت الرجال باسم التطوع حتى تغنى المتطوعون المرغمون بأغانهم « يا عزيز عيني أنا بدى أروح بلدى » .

تم نهضة سنة ١٩١٨ فتورة سنة ١٩١٩ ومحاکمات سنة ١٩٢٠ ، ١٩٢١ فى جميع أنحاء القطر ، فكانت القضايا السياسية بالجملة نتيجة لهذا كله لأنها أعقبت اعتداءات على الانجليز سواء أكانوا حربيين أم مدنيين .

ومن القضايا السياسية الكبرى التى باشرتھا ، الأولى سنة ١٩٢٥ وهى قضية مقتل السردار ، والثانية هى قضية القنابل سنة ١٩٣٢ وهى أكبر قضية سياسية فى مصر ، والثالثة قضية الجمعية السرية التى قتل فيها أمين عثمان باشا سنة ١٩٤٦ وضرب بالرصاص بضعة جنود انجليز .

وفى الأولى أعدم رجيل من شبان مصر أمثال شفيق منصور ومحمود اسماعيل وعبد الحميد عنايت وجماعة من العمال الذين اشتغلوا بالسياسة .

والثانية سجن نجيب اسكندر وعشرة من الطلاب مكنى الله من براءة تسعة منهم وكان بطلها ابراهيم الفلاح .

وفى الثالثة حوكم ستة وعشرون طالبا من أنجب الشبان وأحسن العائلات منهم حسين توفيق ومحمود يحيى مراد والسيد عبد العزيز خميس ومحمد أنور السادات ومحمد ابراهيم كامل وأحمد وسيم خالد ومصطفى كمال حبیشه وآخرون غيرهم من طلبة الكليات والمدارس عدا أنور السادات فقد كان ضابطا بالجيش وفصل منه وعمل مقال نقل بالسيارات .

قضايا سياسية

قضية مقتل السردار السيرلى ستاك سنة ١٩٢٥

كان سعد زغلول باشا رئيس الحكومة والهدوء سائدا في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وفجأة قتل السردار سيرلى ستاك في رابعة النهار في الساعة الأولى بعد الظهر في شارع الطرقة الغربى على بعد خطوات من وزارة الحربية .

وهذه القضية بدأت بالغموض في الدافع وانتهت بالغموض حتى بعد تنفيذ أحكام الاعدام في جميع المتهمين كما طلبت الحكومة البريطانية .

وقد نظرت هذه القضية في شهر مايو سنة ١٩٢٥ وكان المتهمون نحو عشرين شخصا من أنواع أجناس مختلفة ، فمنهم العمال والطلاب ورجال الأعمال وموظف واحد ومحام واحد ، وكان القضاة عرفان باشا ومظهر بك ومستتر كيرشو ، وكان يجلس أثناء المحاكمة متقلدا مسدسا ويصعبه في غدوه ورواحه شرطيان انجليزيان ، وفي مقعد النيابة طاهر نور باشا .

واستمرت المحاكمة أسبوعين ، وكان عدد الشهود عشرين شاهدا وخبيرا واحدا ، وكان المحامون سبعة عشر محاميا بعضهم ما يزال حيا ، وقد بلغت أوراق ملف تحقيق القضية حوالى ألفين وخمسمائة صفحة وثمنه خمسة وعشرون جنيها ، ولم توجه الى المتهمين تهمة الاتفاق الجنائى ، وقد أخذت الاعترافات فيها قسرا من

عبد الفتاح عنايت عند القبض عليه فى برج العرب عند محاولته الهرب الى ليبيا ، ومن بعضهم فى السجن بالضرب والتعذيب بقفاظات الملاكمة الانجليزية ، وقيل انه استعملت المخدرات فى انتزاع الاعترافات .

وقد أدت هذه القضية الى ضياع السودان وترحيل الجيش المصرى ومدرسة اللنبى الذى دخل على سعد يمشى شاهرا سلاحه وتلا عليه انذارا خبيثا ، ودفعت الخزائنة المصرية نصف مليون جنيه كم تأخذ منه أرملة ستاك باشا شلنا واحدا كما حصل التصريح بذلك فى البرلمان الانجليزى ، وسمح لشركة انجليزية أن تزرع وتروى مالا نهاية له من القطن فى ارض الجزيرة بالسودان ، وبمباراة أخرى انتهز الانجليز فرصة للانتقام لا مثيل لها .

وقد ظهر بعد ذلك أن اللنبى تعدى حدوده وقال وفعل أكثر مما كانت تبيع له الأوامر والنواهي ، ولكن سياسة لندن سكتوا عليه ونقلوه بعد مدة وراح على مصر كل ما اغتصبه اللنبى فى ساعة جبروت وطغيان ، لأن بعض المتهوسين من سياسة الانجليز أسفوا لأن اللنبى لم يشنق سعد باشا .

وفى هذه القضية ظهر من يدعى نجيب الهلباوى شاهد اثبات (١) ، وقد أخذ مكافأة عشرة آلاف جنيه لأنه مثل دورا عجيبا بعد وقوع الجريمة ليأخذ اعترافات جديدة .

(١) محمد نجيب الهلباوى كان مدرسا بمدرسة رأس التين واشترك مع محمود عنايت فى قضية القاء القنبلة على السلطان حسين كامل واندس بين صفوف الوطنيين بعد أن وثقوا به ، ولكن سرعان ما انقلبت وطنيته الى خيابة وغدر ، فتعاون مع سليم زكى وأحمد حمدى ورسل باشا حكمدار القاهرة فى الايقاع بالمتهمين فى قضية اغتيال السردار ونال المكافأة التى رصدتها الحكومة لمن يدل على الجناة ومقدارها عشرة الاف جنيه .

وما زالت هذه القضية غامضة في نواح كثيرة ، فلماذا قتل السردار مع أن الوفد كان حاكما ؟ وماذا كان دخل بعض الباشوات العقلاء الذين حقق معهم هذه القضية ؟ ومن وراء محمود اسماعيل أحد المتهمين بالعفو ؟ وكيف علم شفيق منصور بالجريمة قبل حدوثها ولم يبلغ عنها محافظة على موقف الوفد وسعد باشا ؟ وكيف لم تعارض الحكومة المصرية في الطلبات الظالمة التي طلبها الانجليز مع أن الحركة الوطنية كانت في عنفوانها ؟ وكيف أبيع للنبي أن يتعدي حدوده ولم تصلح انجلترا موقفها ؟ وهل كان المقصود قتل السردار لذاته مع أنه لم يعمل عملا ظاهرا ، أو كان المقصود إسقاط حكومة الوفد ولو بالتمسحجية بالسير ستاك كما حصل في مصر غوردون في الخرطوم سنة ١٨٨٤ لأخذ السودان ؟ وأين اختفى المتهمون في يوم الجناية وبعدها حتى لم يهتد اليهم أحد مع اهتمام البوئيس والنيابة والانجليز بالعثور عليهم ؟ ... علامات استفهام كثيرة .

كان بين المتهمين في قضية السردار عامل اسمه على ابراهيم محمد كانت له نواح غريبة كثيرة ، فقد كان سببا في اتهام رئيس « جمعية العلم الأبيض السودانية » وحبس ستة أشهر وقرار الدكتور محجوب ثابت الى الشام ، لأن ذلك المتهم يشبه كل الشبه رئيس تلك الجمعية الذي زار مصر في تلك الفترة ونزل ضيفا عند الدكتور محجوب ولكن لم تكن له علاقة بالقضية .

كان على ابراهيم محمد الذي توليت الدفاع عنه في هذه القضية درويشا للطريقة الخطابية ، وقد وجدت معه كناشة فيها

== (عن دور الهلباوى راجع كتاب « الشديد الصى ، عبد الفتاح منايت ، لايقته ابتسام ، الزهراء للاعلام العربى ، ط ١ ، سنة ١٩٨٧ ، من ٨٦ - ٩٩)

بعض الأحاديث النبوية وبعض أبيات من الشعر عن الجهاد ، فأثبت أن أستاذي الشيخ خطاب شاهد نفى على بعض الوقائع ، فقصدت إلى بيته ومسجده ورجوته ألا يكتم الشهادة ، فرفض الشيخ !

وزعم إبراهيم محمد أن الحاج أحمد جاد الله العامل بالعنابر كان يفرق المسدسات على العمال ويحضهم على استعمالها ، وكان جاد الله نفسه مسجوناً ، فطلبنا احضاره شاهداً للنفى أو الاثبات فرفضت المحكمة لسبب غير ظاهر لنا في ذلك الحين .

والحقيقة أنها أرادت أن تستبقه ليكون خميرة للقضية الثانية التي نظرت في سنة ١٩٢٦ وكان المتهمون فيها المرحوم الدكتور أحمد ماهر باشا وغيره من المشاهير والعظماء ، وقد حكم لحسن الحظ ببراءتهم لأن الدفاع أظهر مخزيات كثيرة للجواسيس الذين بلغ التلفيق منهم أنهم كانوا يدفنون بجوار منازل المتهمين صناديق ملأه بالأسلحة والذخيرة لتكون أدلة على اجرامهم وهم أبرياء !

وفي طنى هذه القضية الأولى التي تدرب فيها بعض رجال البوليس المصرى وصاروا بوليساً سياسياً بالمعنى المعروف الآن ، لأن بعض حيثيات البراءة بنيت على ظهور التلفيق .

وكان بطل الدفاع في هذه القضية الأستاذ أحمد لطفى بك ، وقد لقي من العنت والمشقات ما أدى إلى مرضه ثم وفاته بعد بضعة أشهر ، ولكنها على كل حال كانت سبباً في زوال الأكدار وحلول الصفاء بين الحزب الوطنى والوفد .

كان المتهمون في قضية السردار تسعة ، أولهم عبد الفتاح عنايت وأخوه عبد الحميد وكلاهما من أصل أفغانى ، ثم العامل

ابراهيم موسى والمهندس الشركى الجنسية محمود راشد والعامل على ابراهيم محمد وكان من نصيبى الدفاع عنه أمام المحكمة ، ثم راغب حسن وكان عاملا بالسكة الحديد . أما شفيق منصور فكان محاميا ودكتورا فى الحقوق وعضوا فى مجلس النواب وكان مرشحا لوظيفة مدير الأمن العام ، وقد رشح خلال سجنه للمجلس فى انتخابات سنة ١٩٢٥ فنجح ضد منافسه الذى كان حرا طليقا ، وكان أثناء المحاكمة هادئا ، فلما سجن وعلم باعتراف الأخوين عناية عايه ، أدركه هزال شديد وتغيرت نفسيته واختل توازن عقله حتى صار كثير من كلامه لونا من الهذيان .

أما محمود اسماعيل فكان أظهر المتهمين كرامة ، متمسكا بموقف الانكار ، كلماته نادرة ونظراته هادئة ، واثقا من النجاة ولو فى اللحظة الأخيرة .

وكان شهود القضية خليطا من الانجليز والمصريين ، أولهم مستر كامبل ياور السردار وجليسه فى السيارة عند وقوع الحادث وقد أصيب فى صدره كما أصيب مارش قائد السيارة ، أما الشرطى محمود عبد الجواد الذى نال جائزة ألف جنيه مصدوبة بعبادة اللذى وتهنئته بالمستشفى لأنه الشخص الوحيد الذى اقتفى أثر الجناة وأصابته رصاصة فى قدمه - فام يتعرف على أحد منهم .

أما نجيب الهلباوى الذى حصل على اعتراف عناية بحياة بارعة استغل فيها ماضيه فى الاجرام السياسى ونال عشرة آلاف جنيه مكافأة على عمله ، فقد سرد طريقة اتصاله بالمتهمين ووقوفه على المعلومات التى أدت الى القبض عليهم وكيف أنه أحدث الرعب فى قلب ولدى عناية فحاولا الفرار الى طرابلس الغرب متخفين فى زى عربيين مسلحين بنفس الأسلحة التى اقترفت بها الجريمة ، وكان ذلك سبب القبض عليهما واعترافهما .

كان اشتغال الشاهد نجيب الهلباوى بهذه القضية عقب خروجه من السجن مباشرة سنة ١٩٢٤ لأنه كان محكوما عليه فى قضية الاعتداء على السلطان حسين هو ومحمد شمس وصدر عنهما العفو ، وهو ما جعله موضع ثقة للمتهمين ومنهم الأخوان عنايت .

وشهد فى القضية أيضا أحمد أحمد حسنين الضابط بمدرسة الفنون والصناعات وكان شقيق منصور صديقه الحميم الذى لا يفارقه ، وقد أحدث حضوره بالمحكمة هرجا ولغطا لأن الجمهور كان ينتظر ألا يشهد هذا الصديق على صديقه الحميم .

وشهد محمود محمد غالى طبيب الأسنان ضد موكلى ابراهيم على محمد ، وكان المتهم قال انه فى يوم الحادث ذهب الى عيادة الطبيب المذكور ، فجاء هذا الشاهد ليكذب هذا الدفاع وينقضه . وقد احتدم الجدل بينى وبين هذا الشاهد وتدخل فى المناقشة النائب العمومى كما تدخلت المحكمة ، وتلوت شطرا من المحضر الذى دونت فيه شهادة الطبيب ، فاعترض عليها فقال له رئيس المحكمة :

— اسمع يا دكتور أنت واقف أمام محكمة الجنايات وليس لك أن تتكلم الا اذا أذنتك المحكمة ، أما حضرة المحامى فانه يدافع عن متهم مطلوب الحكم عليه بالاعدام .

وشهد فى القضية أيضا الدكتور سيدنى سميت الطبيب الشرعى المعروف فوصف اصابات السردار وأكد أن الوفاة كانت محتومة وأن المسدس الذى أصيب منه السردار ليس فى العالم مسدس سواه يعطى شكل الاصابة .

وهنا دارت مناقشة بينى وبين الطبيب الشرعى حول الرصاصة المستخرجة من قدم السردار ومدى انطباقها على شريحة المسدس المضبوط ، فقال رئيس المحكمة متحديا الدفاع : من فضلكم لا توجهوا أسئلة لا نتيجة لها . كما اعترضت المحكمة على توجيه بعض الأسئلة للشاهد ، وكانت حيننا تقاطع الشاهد وحيننا تتعجل اجابته وحيننا تقابل السؤال بنوع من التهكم .

ولم يدم استجواب المتهمين وسماع شهود الاثبات والنفى سوى جلستين الا قليلا عقدتا فى يومى ٢٦ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٢٥ .

وفى حوالى نهاية الجلسة الثانية وقف النائب العهومي محمد طاهر نور للمرافعة وكان يقرأ مرافعته على صورة خطابية مؤثرة من أوراق كثيرة أمامه ، فوصف السردار بأنه قائد جيش الأمة المصرية (كذا!) وأعلن أسفه على وفاته ، ووصف المتهمين بالأغرار المغتربين واستشهد بكلمة المرحوم مصطفى كامل « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » وقال انها شعار الأمة المصرية ، وقال ان الاجرام وقع على المصريين أنفسهم قبل أن يقع على سواهم وأن الاستقلال لا يكفى لصوننا ورفع مقامنا ، بل يجب أن نعرف كيف نهون استقلالنا ، ووصف شفيق منصور بأنه بطل هذه الحادثة وحامل لوائها الأسود ، وسرد تاريخه من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٩ وتأسيسه الجمعيات السرية التى من وسائلها العنف وسفره الى أوروبا ونفيه الى مالطة وعلاقته القديمة بمحمود عنایت شقيق الأخوين المتهمين ، ثم انتقل الى الكلام عن محمود اسماعيل فقال انه يكره الانجليز كراهية متأصلة فى نفسه وتعلم الفنون الحربية والبرية ابان عمله بخفر السواحل وشهد مواقع كثيرة فى العراق مع الجيش البريطانى .

ثم تكلم عن الأخوين عنايت عبد الفتاح وعبد الحميد فقال
انهما ضحية شفيق منصور ومحمود اسماعيل وضحية اهمال والدهما
الذى تركهما غصنين رطيين لعناية والدتهما وتزوج من غيرها ، وأن
جميع أفراد هذه العائلة اشتهلوا بالسياسة منذ عهد بعيد وأولهم
محمود عنايت الذى مات بعد الافراج عنه من الاعتقال بأشهر
قليلة . أما عبد الخالق عنايت فقد سافر الى أوروبا سنة ١٩٢٣ بحجة
تلقي دراسة الطب ولكنه كان يحضر مؤتمرات الشرقيين فى
استكهولم وروسيا وله علاقات بالسوفيت ويتناول منهم مئدا ماليا
ولكنهم ينظرون اليه بعين الريبة لأنه وطنى وداعية للجامعة الاسلامية
وشديد الحمس .

ومما يذكر هنا أن الصحف نشرت حوالى سنة ١٩٣٠ أن
عبد الخالق ارتد عن الاسلام ودرس اللاهوت وانتحل اسما أوربيا
وتخلى عن الجنسية المصرية .

ثم ذكر النائب العمومى أن سبب القبض على المتهمين تقرير
قدم اليه بعد وقوع الحادث بأسبوع (٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٤)
وأن المعلومات التى جاءت فيه أملاها نجيب الهلباوى على البوليس ،
وخيرا فعل البوليس باختياره اذ لا يقل الحديد الا الحديد !!

ثم ذكر النائب اعترافات الشقيقتين عنايت وشفيق منصور
راشد وقال ان شفيق كان يستنهض همم والده وأصدقائه لمساعدته
حتى يفوز فى الانتخابات فلما منه أن فوزه يخلصه مما هو فيه .

وختم النائب العمومى مرافعته بقوله « لقد أجهدت نفسى
حرصا على العدل وسمعة البلاد وقمت بواجبى ، فأطلب منكم أن
تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاسدة بأشد ما فى القانون ،
فليس فى ذلك قسوة اذ نحن فى ظروف عصيبة توجب ذلك » .

وقد كتب محمد بك مسعود تقريراً عن القضية قدمه الى الحكومة في حينه وأعطاني صورة منه سنة ١٩٣٦ أى بعد مضي حوالى احدى عشرة سنة من وقوع الحادث ، وقد تناول هذا التقرير وقائع جلسة ٣٠ مايو سنة ١٩٢٥ وهى آخر جلسة من جلسات المحاكمة ، ومما جاء فيه عن مرافعتى عن المتهم ابراهيم على محمد أن « لطفى جمعه استهل دفاعه بمقدمة استوعت الاسماع وحازت اعجاب الحاضرين جميعاً حتى المتهمين أنفسهم ، وقد ظل يترافع نحو الساعتين طالبا البراءة لموكله فلم يجد اعتراضاً على اسهابه من المحكمة لأن مرافعته كانت مرتبة تدلى مقدماتها الى نتائجها وقد تركت في النفوس أثراً كبيراً لمصلحة موكله » .

وذكرت جريدة الأهرام عن مرافعتى فى القضية أنه كان يتخللها نكات كثيرة أضحكت الحاضرين حتى المتهمين جميعاً فى قفصهم . وكتب محمود عزمى فى جريدة السياسة يوم ٣١ مايو سنة ١٩٢٥ تعليقا على هذه المرافعة يقول « أنا اعتزم حصر ملاحظاتى اليوم على واحد من المحامين فقط هو الأستاذ لطفى جمعة ، لكننى مقتنع أن المحامين يعذروننى وقد حضروا الجلسة كما حضرت واستمعوا الى مرافعة الأستاذ كما استمعت ، وأرجو أن يكونوا قد حكموا كما حكمت أن ما تخللها من العبارات اللطيفة والنكات الطريفة يصطبجها تلك الاشارات اللطيفة لا يمكن أن يسجل الا قائما بذاته ولا يمكن الا أن يفرد له يوم من أيام ملاحظتنا .

« كان الأستاذ لطفى جمعه كثير الاستعارات والتشبيهات فى مرافعته ، لكنه كان رشيق التعبير ، وحدث أن وصف المتهم الذى يدافع عنه بأنه كان كشافا يحمل طبلا ونفيرا ويمسك نبوتا ويلبس بنطلونا قصيرا على الرغم من أنه سنى ملتج بدل أن يترك الكشافة لابنه ، فلفت أحد المحامين نظره الى أن الأمير الجليل عمر طوسون

هو « كشاف مصر الأعظم » ، فتلقفها الأسناذ لطفى جمعه وهى طائفة وقالها للمحكمة مضميها ان الناس على دين ملوكهم فأراد ابراهيم محمد - وهو المتهم - أن يتمثل ويتشبه وأن يكون كشافا أصغر » .



- ٩ -

قضية القنابل سنة ١٩٣٢

ان هذه القضية ما تزال أضخم دعوى جنائية سياسية فى تاريخ مصر الحديث ، وقد استمر نظرها ستة أشهر متوالية فى العجاسات ، عدا سنة ونصف سنة فى التحقيق والاستعداد والتأجيلات ، وكان قضاتها المرحوم محمد نور بك و ابراهيم ثروت بك ومحمد نجيب سالم بعد فتحى محمود باشا غالب ، ورجل النيابة فيها محمود منصور ، وكان عدد المتهمين نحواً من ثلاثين منهم الطلاب والعمال والأعيان ورجال الأعمال وهى القضية الأولى التى ظهر فيها شاهد الملك علانية فى شخص ابراهيم الفلاح ، وقد ترفع فيها اثنان وثلاثون محامياً .

هذه القضية كانت ملفقة من أولها الى آخرها وقد اشتد ساعد البوليس السرى ونمى وزكا كالزراع النابغ ، واتقنوا نوعاً من الاعتراف جديداً وهو الاعتراف الآتوماتيكى ، فابراهيم الفلاح يقول أنا ذهبت مع المتهم الثانى وفعلت كيت وكيت ، والثانى - وكان اسمه عبد الرسول - يقول أنا والمتهمان الثالث والرابع عملنا كيت

وكيت ، والثالث يقول عن الخامس والسادس وهكذا ، ولم يرحموا في نهاية الأمر الا الدكتور نجيب اسكندر بعد سجنه عاما ورجلا من أعيان بولاق وأعيان الوفد اسمه محمد حسن صاحب مطحن لأنه كان يتصدق على ابراهيم الفلاح لوجه الله لا ليتقى شره .

وفي آخر يوم سقطت القضية كما يسقط بيت مصنوع من ورق الكوتشينة ، واعترف الفلاح بكل شيء ، وكان يوما رهيبا ظهر فيه ثبات أخلاق بعض الرجال ، وحكم على الفلاح بالسجن ستة قبض جائزة الألف جنيه التي وعد بها .

أما الدوافع فقد بقيت غامضة وان كان الدافع الظاهر هو الغضب على حكومة صدقي باشا ، أما الدافع الباطن فهو ارهاب الأمة واطهار حاجة الحكومة للبوليس السرى والتدليل على أن رجال الوفد هم الذين يحرضون على الجرائم .

وكانت المرافعات في هذه القضية نموذجية والقضاة من الطبقة الأولى ، وقد جلسنا نحوا من مائة وعشرين جلسة خلال ستة أشهر مستمرة ، وكانت الدعوى ملأى بالمفاجآت ، فقد طرأت خلال نظرها أحداث عديدة ، من ذلك تنحى رئيس المحكمة عن نظر القضية وانسحاب بعض المحامين من هيئة الدفاع فيها وشروع المتهم الأول ابراهيم الفلاح في الانتحار وعدوله عن اعترافاته وتقريره بأنها موعز بها اليه من البوليس .

ففي الجلسة الثانية من جلسات المحاكمة نشبت مشادة بين رئيس المحكمة محمود غالب وبين رئيس النيابة محمود منصور ، فقد أراد الأستاذ مكرم عبيد سؤال المتهم ابراهيم الفلاح ، فاعتترضت النيابة على ذلك ودار بينها وبين رئيس المحكمة الحوار التالى :

النيابة : نعارض فى استجواب المتهم من الدفاع .

رئيس المحكمة - للنيابة أن تثبت ما تريده فى المحضر وأن تطعن فى الحكم أمام محكمة النقض ولكن ليس لها أن تعترض على الاجراءات التى تتخذها المحكمة .

النيابة : أطلب اثبات ذلك

الرئيس : أمرت المحكمة باثبات ذلك قبل أن تطلبه

النيابة : وأن يثبت أن النيابة تتكلم بهدوء وأن رئيس المحكمة يرد عليها بانفعال .

الرئيس : اثبت أننى رددت على النيابة بأعلى صوتى

النيابة : وأطلب اثبات اعتراضى على استجواب المتهم من الدفاع وأحتج على رئيس المحكمة لما وجهه للنيابة من اهانة !

عضو اليمين - هذا لم يحصل

الرئيس : فيه حاجة ثانية ؟

وهنا قال الأستاذ مكرم عبيد أرجو أن يثبت أن النيابة وهى تمنعنا من استجواب المتهم انما تخطئ فى تطبيق القانون وليس هذا من حقها سيما وأن هذا المتهم - ابراهيم الفلاح - ليس متهما فقط بل هو شاهد علينا ، فمن حقنا أن نستجوبه ، ومن جهة أخرى فهذا المنع معناه من الوجهة الموضوعية أن دعوى النيابة قبل المتهمين الآخرين لا أساس لها وأنها تخاف الاستجواب لأنها تخاف أن يظهر للمحكمة وللأهل أن الدعوى مبنية على أساس موهوم وأن الاثبات مبنى على التلفيق والتجسس من قبل هذا المتهم .

وهنا قال المتهم ابراهيم الفلاح « أنا موش عايز محامى ، أنا أتكلم بنفسى ، أنا مصمم على اللى قلته من أوله الى آخره ، وعايز ذايرة ثانية تحكمنى ، وان حكمت الدايرة دى ما أقبلشى حكمها » .

وعاد رئيس النيابة يقول : لا يهم النيابة من اعتراضاتها الا تطبيق القانون وهى فى اعتراضها مستندة الى القانون .

رئيس المحكمة : هذا يكون أمام محكمة النقض .

النيابة : أنا أطلب اثبات كل ما أريد قوله بكل هدوء !

وهنا توتر الجو وتكهرب الموقف ورفع رئيس المحكمة الجلسة .

وفى الجلسة الرابعة من جلسات المحاكمة تأخر انعقاد المحكمة على غير المعتاد وراجت الاشاعات بعد أن قيل ان رئيس محكمة الاستئناف والنائب العمومى قابلا وزير العدل .

وفى الساعة الواحدة دخلت هيئة المحكمة وطلب الرئيس من كاتب الجلسة أن يشبث ما يابى « قد اجتمع لدى من الأسباب ما يحملنى على التنجى عن نظر هذه القضية وأرى من الحكمة أن أمسك عن ذكر هذه الأسباب ويكفى أن أشير الى أننى لم أخضع فى تصرفى هذا الا لسلطان ضميرى وأبدى أسفى لما يترتب على هذا التصرف من تأخير النظر فى القضية حتى يعين من يخلفنى ، وبناء عليه قررت المحكمة تأجيل النظر فى الدعوى حتى يعين من يخلف رئيس المحكمة » .

وخلف المستشار محمد نور رئيس المحكمة زميله المتنجى محمود غالب .

وحدث في اليوم السادس من أيام مرافعة الأستاذ مكرم عبيد في القضية أن أرسل مكرم اعتذارا للمحكمة على لسان زميله سيد سليم لسبب عائلي ، ولكن المحكمة طلبت من المحامين أن يكونوا دائما على استعداد للمرافعة حتى لا تحصل مفاجآت قد يترتب عليها تأخير نظر القضية .

وعلى أثر ذلك قال سيد سليم المحامي بمكتب مكرم عبيد ان مكرم مستعد لاتمام مرافعته . فقالت المحكمة : الأستاذ مكرم يترافع في دوره ، فاعتبر مكرم عبيد هذا الرد رفضا جارحا مهينا لكرامته وأبلغ محمد نجيب الغرابلي نقيب المحامين بذلك للعمل على ما يحفظ كرامته وقال له « ان عبارة تأخير مرافعتي منسورة في الأهرام وهي تشعير باهانتى من المحكمة وأنا لا أقبل هذه الإهانة مطلقا واني أبلغك بصفتك نقيبا للمحامين أنه يستحيل أن أحضر للمرافعة في هذه القضية الا اذا كلمنى رئيس المحكمة بالتليفون ودعانى للحضور لاتمام مرافعتى » . وقابل الغرابلي هيئة المحكمة لتعدل عن قرارها حتى يستأنف الأستاذ مكرم عبيد مرافعته في اليوم المحدد تجنبيا لكل ما يثير الاشكال ويعطل سير القضية ، وقبلت المحكمة أن تعدل عن قرارها اذا طلب مكرم منها ذلك لأنه لا يمكنها العدول من تلقاء نفسها عن قرار أصدرته .

ووجد الغرابلي أن في ذلك حلا مقبولا وأبلغ به مكرم عبيد ولكنه رفض هذا الحل وقال للغرابلي : « أنا أعتبر أن هذا اصرار من المحكمة على اهانتى وأبلغك بصفتك النقيب أنه يستحيل على مع هذه الإهانة أن أترافع في القضية الا اذا اعتذرت لى المحكمة فى الجلسة العلنية » فقال الغرابلي « انى لا أرى فيما حدث أية اهانة تبرر أن أطلب من المحكمة اعتذارا بالجلسة العلنية ، والحل الذى قبلته المحكمة حل مقبول فى نظرى لأنه ليس فيما تقرره المحكمة بشأن أمر يقع فى اختصاصها اهانة على محام » .

ولكن الأستاذ مكرم أصر على موقفه ، ودعا الغرابلى لمجلس النقابة للانعقاد مع باقى محامىي الدفاع فى القضية ، وحضر مكرم عبيد ضمن المدعويين وبعد أن شرح وجهة نظره رأت أغلبية المحامين الحاضرين أن لا اهانة فى تأخير مرافعة مكرم عبيد عن دوره ، ولم يشذ عن هذا سوى أربعة محامين من هيئة الدفاع هم زهير صبرى ومحمود غنام وسيد سليم ومحمد يوسف . واقتراح البعض أن يحضر مكرم عبيد بالجلسة ولا يذكر شيئا عن قرار المحكمة ويقوم ويقول فقط أنا مستعد للمرافعة ، فاذا لم تجبه المحكمة الى ذلك يحتج وينسحب ثم ينسحب معه من يرى الانسحاب من المحامين . وعرض الغرابلى باشا هذا الاقتراح على هيئة المحكمة ، وانعقدت المحكمة فوقف الأستاذ مكرم عبيد وقال أنا مستعد للمرافعة بعد أن زال عذرى القهرى ، فسألته المحكمة عما اذا كان سينتهى من مرافعته فى ذلك اليوم فأجابها بأنها فى الغالب تنتهى فى نصف الجلسة المقبلة ولا يمكنه أن يعد بانتهاؤه من المرافعة فى اليوم المذكور . فانسحبت المحكمة للمداولة ، ولما أعيدت الجلسة نطق رئيس المحكمة بقرارها ويقضى بأن يتراجع مكرم عبيد فى دور الدكتور نجيب اسكندر . وهنا طلب الأستاذ مكرم عبيد أن يثبت انسحابه من القضية وتنازله عن التوكيل بناء على هذا القرار الذى اتخذته المحكمة . وانسحب أيضا زهير صبرى وانضم اليه أغا ومحمود غنام . فبينت المحكمة أنها لم تقصد المساس بكرامة المحامين كما نفت المساس بكرامة الأستاذ مكرم ، ولكن الأستاذ مكرم أصر على الانسحاب وترك قاعة الجلسة ومعه أربعة من زملائه .

وبعد حادث الانسحاب طلب الى أن أقبل الانتداب عن توفيق العزب ، فطلبت امهالى لاستشارة بعض أصدقائي فى قبول هذا الانتداب ، فأشار على بعضهم بأخذ رأى الدكتور نجيب اسكندر وفى تلك اللحظة أقبل الدكتور نجيب اسكندر وابتدئنى

بالرجاء فى قبول الانتداب ، ووصل ذلك الى علم النقيب الغرابلى باشا ، فوقف الغرابلى وقال لهيئة المحكمة علمت أن الأستاذ لطفى جمعه يقبل الانتداب عن العزب ، فقال رئيس المحكمة لكاتب الجلسة اتبت انتداب الأستاذ لطفى عن توفيق العزب ، فقلت : هذا لا يمنعنى من الدفاع عن الدكتور نجيب .

الرئيس : أنت حر ونحن لا نمنعك من الدفاع عن الدكتور نجيب .

النقيب : المحكمة تريد تخفيف العبء عنك .

فقلت : اننى جئت هذه المحكمة لآكون بجانب الدكتور نجيب ولا يمكننى أن أتخلى عنه بأى حال من الأحوال .

الرئيس : وهو كذلك .

وبادرت الى الأساتذة المنسحبين وهم زهير صبرى ورافع ومحمود غنام وأغا ورجوتهم رحمة بالمتهمين وضنا بوحدة المحامين أن تتصدع أن ينظروا فى الأمر ويتقدموا خطوة نحو السلام وتصفية الجو ، فاستلنا لقولى وعلقوا قبولهم على قبول مكرم عبيد الذى كان حينذاك بالاسكندرية ، فعرضت عليهم السفر بنفسى والسعى لديه فوافقوا ، ثم لم يلبث أحدهم أن قال لا أظن أنه يقبل .

وقد بلغ عدد المحامين فى القضية أكثر من أربعة وعشرين محاميا انسحب منهم خمسة ، أما الباقيون فمنهم كامل صدقى وسلامة بك ميخائيل وأنطون جرجس وسامى نجيب وعزيز مشرقى وميخائيل غالى وإبراهيم الهلباوى وراغب اسكندر ويوسف الجندى وبسطا شكرى وصبرى أبو علم وأمين عامر ومحمد احسان وآخرون غيرهم .

أما المفاجأة الثالثة التي ذكرت بها هذه القضية فهي محاولة المتهم الأول فيها ابراهيم الفلاح الانتحار بالسجن بشنق نفسه ، فلما لم يبلغ مقصده أخذ يضرب رأسه بالحائط ثم صب على نفسه المتروك المملوء به الموقد الذي كان في غرفته لصنع الشاي والقهوة ، فلما حاول حراس السجن منعه استشاط غضبا وهاج واجتاحته ثورة عارمة وحاول خطف بندقية أحدهم فأطلق عليه كونه سابل رصاصا أصابته في ذراعه الأيسر ونقل الى قصر العيني لعلاج .

ولما تولت النيابة التحقيق في هذا الحادث عدل عن اعترافه وأسند الى البوليس أنهم أوحوا اليه وحرصوه على صنع القنبلتين اللتين ضبطتا للايقاع بعبد الرسول وباقي المتهمين ، كما قرر أن البوليس أوعز اليه بأن يشهد زورا ضد الدكتور نجيب اسكندر .

ولم تر المحكمة عندما اطلعت على هذه الأقوال الجديدة بدا من أن تفتح باب المرافعة في القضية من جديد بعد أن كانت قد حجرتها للحكم لتناقش المتهم في هذه الأقوال .

وقد أثار نبأ تلك المفاجأة اهتماما عظيما في إنجلترا وانهالت المكالمات التليفونية على ادارات الصحف ووكالات الأنباء للاستفسار عن تفاصيل الحادث ، وتناقلت مراكز الأخبار الصحفية في الخارج نبأ الافراج عن الدكتور نجيب اسكندر وبعض المتهمين الآخرين وفتح باب المرافعة في القضية بعد قفله وتحديد يوم للنطق بالحكم نتيجة لعدول الفلاح عن اعترافاته وأقواله التي أدلى بها بوحى من البوليس وإبعازه .

لقد كان ابراهيم الفلاح بطل هذه القضية الشهيرة ، لفقه وشهد فيها على المتهمين المظلومين ثم اعترف بالتلفيق ودحض أدلة العبث في المحكمة ثم عفى عنه ونال جائزة مقدارها ألف جنيه بددها

واقترف جرائم أخرى ، وهو شاهد الملك في هذه القضية على غرار النظام المنقول عن القضاء الانجليزى الذى يشجع الوشاية والتلفيق ويعطى جوائز لمن يفعلهما .

كان الفلاح أثناء المحاكمة يقاطع المحامين والشهود وقد تناول على بعض المحامين ، فقد حدث أثناء مرافعة ابراهيم الهلباوى عن موكله عبده عبد الرسول أن قاطعه ابراهيم قائلا : ده متشطر على قوى . فقال له رئيس المحكمة : اسكت ما يصحش تقاطع ، وأنا قلت لك من الأول انك حتسمع كثير . وبعد فترة استأذن الفلاح فى الخروج فأذن له رئيس المحكمة فقال وهو خارج من قاعة الجلسة موجها كلامه الى الهلباوى :

— اتشطر على فاطمة سرى !

فانزعج الهلباوى وقال غاضبا :

— الله ! فاطمة سرى دى ايه كمان ؟ هو أنا باعشق نسوان ؟

كان الاتهام الموجه الى المتهمين فى هذه القضية ، أنهم صنعوا القنابل واستعملوها وفجروها فى بعض الأماكن وأطلقوا النار على بعض الشخصيات وعطلوا قطارات السكة الحديد وكونوا جمعية أطلقوا عليها اسم « جمعية الارهاب » وأن الدكتور نجيب اسكندر هو الذى يمول هذه الجمعية ودفع للعمال ثلاثمائة جنيه .

فقد حدث أن قام عمال العنابر والترسانة بالاضراب عن العمل فقامت الحكومة حينذاك — وكانت برئاسة صدقى باشا — برفتهم بسبب ما كان بينها وبين الوفديين من الخصومات السياسية، فقد غاظها أن العمال قاطعوا الانتخابات فاعتقدت أنهم يناوئون

في سياستها ففصلتهم انتقاما منهم وردعا لغيرهم ، وكان واضحا ان الزج بالدكتور نجيب اسكندر في هذه القضية هو أنه كان وفديا ونائبا بارزا من نواب الوفد وكان على اتصال بالعمال المعضوب عليهم لتوزيع اعانات مالية عليهم ، وكان هو همزة الوصل بين هؤلاء العمال البؤساء وبين لجنة السيدات لمعاونتهم لما انقطعت بهم أسباب الرزق واشتد عايمهم الضيق ، وقد تألفت هذه اللجنة برئاسة ام المصريين وجسعت المال وانتقلت الى أماكن هؤلاء العمال لتواسيهم وتعينهم . وكان من بين اعضائها شريفة هانم رياض زوجة الوزير رياض باشا وزوجات المعظماء والوزراء مثل خشبة باشا وبهي الدين بركات ومكرم عبيد وغيرهم .

لم تمض الا بضعة أشهر على اسدال الستار على هذه القضية حتى ظهرت فضائح اسماعيل صدقي ظهورا مخزيا ، فكانت فضيحة الكورنيس أضخمها وكان فشله في مفاوضة وزير الخارجية الانجليزية في جنيف ، وغضب عليه الملك فؤاد الذي كان يعتقد أنه اقوى سياسى فى مصر ونبذ نبد النواة واقصاه وعزله عن السلطة وخلع من منصب الوزارة ولم ينفعه الا الأموال التي اغتالها واغتصبها بالحيل الذميمة ، فقد اتخذ القصور فى المصايف والمشاتى والذهبيات فى النيل والمساكن الأنيقة فى الضياع والأباعد ، وكانت له أثناء ذلك قصص ونوادير وتواريخ وأحاجى ، فكان عهد عهد من أدركته عمياء مجهولة وضغائن مجهولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة ، وما ساق الله به خيرا قط ولا منع سوءا قط اللهم الا لنفسه ولذويه وعن نفسه وعنهم ولا يرون احد عنه أنه أنصف في مسألة ولا اقام العدل ولو ساعة من نهار الا لدى هيبة ومكانة يرحوه أو يشاه كالملك أو سفير دولة أجنبية أو وكيل شركة عقارية أو وسيط فى معاملة مربية أو دخيل يلتبس نفعا مؤتيا مباشرا لقاء نفج مؤات مباشر ، وما يزال هذا الرجل يتدرج فى مراقى الثراء

المادى وينحدر فى مهاوى الفاقة الروحية ويكب على وجهه فى
حضيض الانحطاط الخلقى ، وكذلك يفعل هو وأمثاله !

لقد اغتصب هذا الرجل منصب الوزارة فى صيف سنة ١٩٣٠
وقلب نظام الدولة وألغى دستور سنة ١٩٢٣ وأتى بالمظالم والمغارم
فى ظل الملك فؤاد وأخمد أنفاس الحرية وتحكم بالقوة الغشوم فى
مسالك الحق فى هذه الأمة الضعيفة ولم يجد من يقاومه ، واننى
ألفت نظر المؤرخين ليتحفظوا لكتابة ما يجب أن يكتب عن عهد
اسماعيل صدقى من صيف سنة ١٩٣٠ الى شتاء سنة ١٩٣٤ ،
ولعل حياة أمثال هذا الرجل أن تكون أشد عذابا وتنكيلا له من
موته !!

ينعقيني حيثما ذهبت لأخطب تحت ستار الاعجاب بى وطلبها للفائدة العقلية ، فكان فى كل مرة يعود بخفى حنين لمن أرسلوه ، ولحظت أنه كان يكتب خطبى ولكن لا أراها منشورة فى جرائد الحزب الذى أنتمى إليه . فلما عرفت حقيقته أغضيت عنه ، وفى احدى المرات تحريرت أن أكتب خطبتي ، وقبل أن يبدأ بالتدوين فى ضوء ضعيف قلت له « أرح نفسك يا محمد بك ، لقد كتبت لك الخطبة » وناولته اياها قبل أن ألقيا ليستمتع بالسماع ولو مرة واحدة !

وكان رئيس النقابة نفسه عينا وأذا وقد درج على العمل فى قاعة مغلقة ، فكان مجلس الادارة يجتمع سرا ، فلما صرت رئيسا سترت على خطته فى الاجتماع سرا بمجلس الادارة .

وبعد فترة يسيرة أخبرنى ثقة أن اثنى عشر عضوا من الثمانية عشر جواسيس لجهات مختلفة ، على أن عملي لم يكن يتجاوز علاج عامل مريض أو دهن فقير أو مساعدة أرملة وأيتامها أو عقد قرص لعامل فى ضيق ، ولا أذكر أنني تكلمت على غير هذه الدائرة ، ولكن عدد الجواسيس كان يتكاثر وينمو ونشاطهم يزيد ، فأدركت أن الروح النقابية أو الصالح العام بعيدان جدا عن تفكير العمال ، فلم أر الا وسيلة واحدة لاحباط أعمالهم وهى أن أفتح باب غرفة المجلس على مصراعيه وأبيع لمن يشاء من الأعضاء وانجاز الأعمال فى وضوح النهار لأقضى على مظاهر السرية فلا يملك أحد من الأعضاء المتجسسين أن يزعم نقل خبر ، لأن كل ما يحدث ويدور انما يقع بمشهد ومسمع من الجميع وعلى رؤوس الأشهاد ويسجل فى دفتر معروض لأنظار الجميع .

فلما تم ذلك أخذ أعضاء مجلس الادارة يقل وحضور كثير منهم ولا سيما الاثنى عشر - يخف لأعداء واهية .

ثم ظهرت لجنة اسمها « تقويم اعوجاج النقابة » ، وكان دأب هذه اللجنة أن يخطب أعضاؤها في كل لحظة وفي كل موضوع وفي كل مناسبة ، فلما رأى الرئيس المتقدم في السن أن دوره بطل وأنه لم يعد صالحا للإدارة انسحب وترك العبء على كاهلي فاحتلمته واستمرت في هذا العمل عاما كاملا أدبت فيه ما استطعت داخل النقابة وخارجها وفي قضايا العمال الخاصة ، وهم من عزفت حالهم ، فكان على أن أخدمهم وأعينهم ، وقد صلحت الأحوال لبعض الإصلاح .

وحدث أنني سافرت في نهاية العام الى أوروبا للاستشفاء ولأؤدى امتحان الدكتوراه في كلية الحقوق بليون وعدت بعد ثلاثة أشهر ، وفي اليوم الثالث ذهبت الى النقابة فوجدت جمعية عمومية لانتخاب مجلس الادارة والرئيس ، وكان حضوري مصادفة ولم أكن أعلم باجتماع الجمعية العمومية ، فلما دخلت سمعت هتافا وتحية ، ثم رأيت وجوها وارتباكاً ، فجلست في إحدى الغرف ، ثم سمعت جدالا ونقاشا حاميين ، فسألت عن السبب فقبل لي ان رئيس الاجتماع عندما علم بحضورك فض الجمعية العمومية وأجل الانتخابات الى جاسة أخرى وأنهم يرشحون شخصا مرييا لا علاقة له بالعمال ، فسألت عنه فقبل لي انه محمد البنداري المحامي وهو شخص لا يمت للعمال ولا للأحزاب ولا للحياة العامة بأية صلة وأنه مرشح للبوليس .وقد رشحوه لأنه مأمون العاقبة وأما أنا فنسبوا الى التهيج والعمل على الثورة !

وتطوع شخص فروى لي أمورا عجيبة أثناء غيبيتي القصيرة وقال لي : أنتدخل معركة الانتخابات يا أستاذ ؟ قلت له : أنني لم أتقسم لهذا العمل لدخول معركة انما أؤدى واجبا ظننت أصحابه اختاروني لصلاحية معينة ، نادا رأوني أراحم غيري عليه حسبوا أن لي فائدة ، وبما أن هذا غير صحيح فالأولى لي أن أعزل .

قال لى : ألا ترى نفسك أقدرهم على القيام بهذه المهمة ؟ .
قلت : لا ولكن العمال وزعماءهم هم الذين رأوا ذلك . قال : ان
المرحوم عمر لطفى بك توفى وقلت زمام النقابة من يده العقلاء
وأصبحت موضوعا للمضاربة ، ظنا أنها توصل الى مراكز سامية ،
فزعيم العمال يكون أبدا مسموع الكلمة ، وقد تعرض عليه الحكومة
وظيفة لتضمن سكوته وعدم تدخله ، ولذا جاء البندارى (الذى
كان يرأس الاجتماع) وخطب وأخذ يغمض أجفانه ويرفع حاجبيه
ويلين تارة ويشتد أخرى ويمد فى ألفاظه وله غنة غريبة وأناقاة
خاصة وعطور فائحة فلم « يدخل فى مزاج العمال » ، ولكن تيار
الضغط قوى عليهم من جهات عليا لينصبوه عليهم أرادوا أم لم
يريدوا ، ولذا اقترحت عليك دخول الانتخابات فتفوز ، ولكن أنا
أعلم أنهم سيضعون الأشواك فى طريقك ، وانما يفديك العمال
بأرواحهم ، والحقيقة أن العمال « كلمة تودهم وكلمة تجيبهم »
لأنهم ضعفاء وفقراء وجهلاء ، فيجب أن تصبر عليهم وتعاملهم كالسنة
الماضية ، ان جهة كذا تنذر وتهدد وجهة كذا تشجع الشخص الجديد
وتمدد ، وجهة كذا تضعه تحت التجربة .

فقلت له : كفى ! أهى معركة وترلو ؟ ! قال : أعلم يا سيدي
أن حركة العمال منظور اليها بعين الاهتمام ، وأن الجهات تخشى أن
يكبر أمرها ويستفحل فتشمل جميع الطبقات الفقيرة وتبدأ نضالا
لا يقل عن نضال الطبقات فى أوروبا ، وأنا أعلم أنها لن تسفر عن
شئ مطلقا لأن النفوس هنا غير النفوس فى أوروبا .

فنظرت الى الرجل وتخيلت أننى أرى فى وجهه إثارة من شبه
آزيف السياسى المزدوج الوجه أول من أطلق عليه وصف « ايجان
بروفا كاتور » ، فقطن بسرعة الى سوء ظنى به مع سابق معرفتى ،
فقال :

— أنت لا تصدقنى وقد تسىء الظن بى لأننى أطلعك على كل شيء ، ولكن ستثبت لك الأيام صدق كل حرف من كلامى ، فان كنت تريد النضال ، فناضل ، وان كنت تريد أن تعرف خواتيم الأعمال قبل بدايتها فما أنا ذا شرحت لك ، وقد عملت فى كل عمل ووقفت على حقائق الأمور لا أريد أن تتحطم آمالك على صخرة الكيد والديسيسة ، فاختر لنفسك ما يحلو .

قلت له : وبم تشير على ؟ . قال : حاول دخول الانتخاب . قلت : وهو كذلك . قال : ان الانتخاب قد حددوا له يوم الجمعة المقبل ، بيننا وبينه ستة أيام فاستعد له . وانصرفنا .

والحق أقول ان هذا الرجل كان صادقا وقد دامت صلتي به عشرين عاما وكان شريفا طاهر اليد ، شديده الذكاء كثير التجربة .

وفى اليوم التالى قرأت فى الصحف خبرا يقف له الشعر وهو أن الجمعية العمومية لنقابة عمال العنابر قد اجتمعت فى الساعة كذا من يوم كذا وانتخبت بالاجماع (كذا) فلانا رئيسا ، وهو الشخص ذو العينين الناعستين والمناديل المعطرة ، وفلانا (وهو الشيخ الذى انسحب وهو موظف) وكيلًا وآخرين أعضاء مجلس الادارة ، وقد تبودلت الخطب والتهانى ودارت آكواب الشراب والحلوى الخ .

والدهش حقا أن هذه الساعة وهذا اليوم المذكورين هما اللذان كنت جالسا فيهما فى غرفة النقابة بعد فض الاجتماع وتأجيل الانتخابات وانقسام الأعضاء !

وكان هذا أول تزوير فى الحياة العامة رأيته بعينى وشهدته بنفسى ، وأول مداجاة ونفاق وخداع أذاعته جريدة فى شئ لمسته

وكابدته ، حتى ليكاد المرء يكذب نفسه ويتوهم أنه كان في حلم
لا في حقيقة !

وسرت في الطريق بضع خطوات الى مكتبي الذي كان في شارع
"البنيق" نمرة ٢٥ تجاه الباب الخلفي لبناء الأوبرا الخديوية ، وإذا
بالرجل يلاحقني وهو الذي تحدث الى في الانتخابات أمس ، فلما
رأيتني قلت هذا المدحك الأخير على سير الحوادث وأنني لست حالما ،
فابتدروني بالتحية وببيده جريدة وقال : ألم أقل لك ، ولكن الحيلة
تفوق الخيال وتعصى على الفكر ، لم يخطر ببالي مطلقا أنهم يلجأون
الى هذه الطريقة .

قلت : والعمال أنفسهم ماذا يقولون ؟

قال : عمال ! انهم يعتبرونهم قطيعا ، فالمدركون يوعدون أو
يهيّدون بالطرّد أو الرفق والبقية يقولون « ربنا يولى من يصلح ! »
أو « اللي يتجاوز أمي أقول له يا عمي !! » ، وعلى الله الشفاء ، لقد
أراد الله بك خيرا ، لقد أظهرت نيتك وعزمت على النضال فكفك
الله شر القتال ، لأنه لم يكن ليسفر عن خير ، وانك الآن لو ذهبت
زائرا أو ضيفا أو مهنثا فلعلهم يغلقون الباب في وجهك !

قلت له : قل غير هذا يا رجل ! ان فلانا الذي انتخب رئيسا
صديقي على الرغم من « تسبيل جفونه » وتعطير ثيابه ، وهو رجل
متهذب .

قال : قد يكون شقيقا !

وعلى كل حال فقد استثمرت في خدمة العمال أدبيا عن كسب .

وفى سنة ١٩١٩ تقدمت الى نقابة عمال الترام بواسطة
سكرتيرهم وهو رجل ايطالى وعرض على مرتبا شهريا فاعتذرت وقلت
له : اننى مستعد لخدمتهم بغير مقابل . فقال لى : ان المصريين
لا يقدرون الرجل الذى يخدمهم بغير مقابل الا اذا كانت له أغراض ،
فالأفضل أن تقبل المرتب ، واذا أردت فتبرع به لناحية بر .

وفى سنة ١٩٢٢ وقع فى أيديهم المرحوم الأستاذ محمده كامل
حسين فذاق المر ثم أوردوه موارد الهلاك بعد أن أنفق كل ماله
وذهب عمره .

وفى سنة ١٩٣٩ تقدم الى عمال ترام القاهرة عن يد على شوقى
باشا ، فعاونتهم مدة طويلة ثم ظهر لى أنهم أعوان للشركة والبوليس
السرى وأضرب بعضهم عن الطعام .

وأخيرا ظهر الأمير عباس حليم ! ؟ .



التكوين الروحي

(١)

يسألونك عن الروح^(١)

الاشباح والأحلام والكونت دي جلارزا

انشغلت بالتفكير في العالم العلوى في الرابعة عشرة من
عمرى •

لا يوجد ما يدعو الى المبالغة في هذا الأمر بعد أن تعديت
الخمسين ، وليس في هذا ما يدعو الى الفخار في عالم مادي شغلته
مشاغل أخرى وقد ينظر فيه الى تقرير مثل هذه الحقائق بعين
الازدراء أو على الأقل بابشام الريبة والظنون •

وأصل تفكيرى يرجع الى اكتشافى أن الأرض ما هى الا كوكب
سيار من سبعة كواكب سيارة ، وكان ذلك في سنة ١٨٩٩ قبل أن
تكتشف سيارات أخرى ، فشنغفت بدرس الفلك ، ولما أقول الفلك
أقصد الى أننى قرأت كتيباً صغيراً من تأليف عالم هولندى اشتغل
بالتعليم في كلية بيروت الأمريكية اسمه كرونوليوس فانديك ، وهو
والد ادوارد فانديك الذى تعلمت عليه دروس الترجمة بعد ذلك
بعامين • وهذا الكتيب واحد من سبعة اسمه « النقش في الحجر »

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من المذكرات سنة ١٩٤٢ •

فى المنطق والفلك وغيرهما من العلوم التى كانت تتوق إليها نفسى
ولا أطولها فى التعليم الابتدائى .

وسكنت فى أعلى طبقة فى منزل ، فاصطنعت نوعا من
« التلسكوب » لأرغب الكواكب ، وكانت الفكرة فى ذاتها صبيانية
ومضحكة ، ولكنها دلتنى على اتجاهى ، فصنعت لنفسى نظرية عقلية
وهى أنه ما دامت الأرض كوكبا سيارا ، وهناك فى السماء سيارات
أخرى وألوف الكواكب التى لا تحصى ، فما الذى يمنعها من أن تكون
مسكونة بكائنات على شاكلتنا أو على غير شاكلتنا ؟ ! وما دام
الله خالق هذا الكون كله ، فليس من المعقول أن يعنى بكوكب واحد
ليس أكبر الكواكب ولا أعلاها ولا أسرعها ويشترك بقية الكائنات
السماوية خالية ، ولم يخطر ببالى أن أهل الأرض أرقى جميع
المخلوقات قط .

وهذه أفكار وردت على عقلى من تلقاء نفسها ، فلم ألتمسها ولم
أبحث وراءها ولم أطل التفكير فيها ، ثم وقفت عند هذا الحد -
وقد قوى الفكرة فى ذهنى بعد حين ، ظنى أن فى العالم الأرضى
نفسه كائنات لا نراها ، ولا بد أن أقوال الناس وقراءة بعض
القصص كونت فى نفسى عقيدة عن هذه الكائنات التى لا ترى .

ولاحظت فى صلاة بعض أقاربى أنهم يلقون السلام ذات اليمين
وذاة الشمال عقيب كل صلاة ، فسألت عن السبب فقال ان على
كل كتف ملكين ، الأيمن يعد الحسنات ، والأيسر يعد السيئات .
وإذن يكون الدين الذى أعنتقه يقتضى أن أضيق بوجود كائنات
لا ترى تلازم الإنسان فى رواجه وغدوه وتستحق التحية بعد كل
صلاة . فإذا صدقت القصص - ولا سيما ما قرأت فى سيف ابن ذى
يزن وألف ليلة - عن وجود الجن والمردة ومعونتهما للإنسان أو
معاكستهما إياه ، فلا بد من وجود هذه الكائنات غير المرئية .

ثم سمعت من إحدى النساء وصف حفلة « زار » ، فحتمت أن أراها ، فرأيت فيها مناظر بشعة تدل على الهمجية، فيها ذبح طيور وحيوان وتلطيف أيد بالدماء ، ثم التنادى بمخلوقات خفية بأسماء غريبة وتنسب إلى بلاد مختلفة كالهند والسودان والحشمة ، وفهمت أن هذه الشخصيات المستخفية تمس بعض النساء أو تحتازهن وتتحكم فيهن في الصحة والمرض ، وتحتتم أن تجرى لها رسوم وثنية كتقديم الضحايا ودق الطبول وإعداد ملابس معينة ومصوغ غال وإيلاء ولائم وهكذا .

نعم قيل لي انها خرافات وأعمال مخالفة للدين والآداب ، وأنها وثنية الأصل ، فاعتقدت ذلك ولكنني زعمت أنه لابد أن يكون لها أصل في التاريخ أو الحالات الروحية لهؤلاء النسوة ، وكنت لا أعرف في ذلك العهد شيئا عن علم النفس أو أمراض الجهاز العصبي أو التنويم المغنطيسي .

وكانت الحوادث تجري سريعا ، فلما بلغت القاهرة لأدخل في المدرسة الثانوية ، فقد لنا شيء ثمين ، فدلونا على امرأة اسمها الشيخة « رمانة » كانت تقطن حي باب اللوق ، فذهبنا إليها وقد صممت على أن أنظر إليها عن كثب وأدرس وسيلتها وأكشفت حيلتها ، اذ ثبت في ذهني قبل رؤيتها أن عملها لابد أن يكون نوعا من الخداع والرجم بالغيب ، وكان فناء هذه المرأة مزدحما بالرجال والنساء من كل الطبقات ، وكان أجراها قرشين ، فلما جاء الدور علينا نظرت إلى المرأة - وكانت في الأربعين من عمرها ضئيلة البدن ، نظيفة الثياب ، متحلية بمصوغ وعليها هيئة الذبول ، وعيناها نصف مغمضتين - فوضعوا بخورا في مبخرة أمامها ، فلما صعد إلى أنفها انقلبت تتكلم بلسان طفل وصوت الطفل ، فقالوا هذا هو الشيخ الذي يصحبها ويطلعها على الخفايا . فكان أول ما تكلمت

أن نظرت الى ونطقت باسمي ، فلم يدهشني ذلك ، ثم قالت بلهجة الطفولة : جئتم لتسألوا عن شيء مفقود وهو طويل ونحيل وله يد ملتوية هو عصا ، فدهشت لأن الشيء الفاقد كان كما ذكرت المرأة . ثم استرسلت « انه في المنزل في الدور الأعلى تحت السرير ، تحت المرتبة » فخرجنا وأنا أعلم يقينا أن أحدا ممن كانوا معي لا يعلم موضع العصا والا ما تعبنا في المجيء اليها ، ولما بلغنا المنزل بحثنا في المكان الذي عينته ، فوجدنا العصا ، فكان هذا الأمر حديثنا يوما أو بعض يوم ولم نفكر فيه بعد ذلك .

ومضت فترة طويلة ، وقابلت رجلا حليق الشاربين واللحية ، خفيف الروح ، يلبس ثيابا عجيبية ويده عصا صغيرة ، وهو يتحلى بخواتم وعلى رأسه طاقيّة غريبة الشكل، فقصد الى — ولم أكن رأيته من قبل ولم أره بعد — فقال لي « أنت يا فلان لقد نجحت في كذا وكذا ، فافرح ولا تحمل هما » . ثم انصرف ، فقال لي أحد الحاضرين « انه ولي وصادق ومكاشف » Clairvoyance أى مطلع على الغيب !!

كانت هذه بداية التفاتني الى عالم الخفاء ، وطني بأن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن الشاعر لونجفلو الذي حفظنا له في المدرسة مقطوعة شعرية قد أشار الى هذا اشارة واضحة عندما قال :

أنت تراب والى التراب تعود
ولا دخل للروح في هذا
فليست الحياة حلما فارغا
وليست الروح الى الزوال

ان الروح خالد باق

وظواهر الأشياء لا تدل على بواطنها .

وعجبت أن شاعرا أمريكيا مسيحيا ينطق بهذا الكلام الذى كنت اظن فى حدائتى أنه من اختصاص الاسلام .

كنت فى تلك الفترة أقرأ كل شئ يقع لى ، ولا أدرى كيف وصل الى يدي كتيب اسمه « الدر المنثور فى أخبار أهل القبور » ، فقرأته فإذا هو ملآن بالعجائب عن خروج الروح من البدن وقت الموت ومراقبتها الجسم ، وحزنها من بكاء الأهل ، وفرحها بالخلاص ووحدتها واستعدادها للسياحة فى بطن الأرض أو فى ملكوت السماء ، وكان ثمن هذا الكتاب مليما واحدا ، وأن الذى وضعه مؤلفه فيه لا يختلف كثيرا عما أثبتته العلم التجريبي بعد قراءتى اياه بأربعين عاما ، فمن كان يعرف هذا الكتاب فيقرأه ليقارن بين مادته وبين ما دونه علماء الروحية فى العصر الحديث ، وهناك أدلة قاطعة على أن مؤلفه - وهو شيخ غير معروف - لم ير ولم يسمع شيئا عن تحضير الأرواح على أيدي الوسطاء وسؤالها وجوابها وتحرير محاضر الجلسات بعد التحقق والمراقبة الشديدة .

ولكن العلوم الحقة التى تلقيتها فى المدرسة الثانوية وآداب اللغات والرياضيات والتاريخ والكيمياء والطبيعة حولت نظرى وشغلت بالى عن كل ما عداها ، فما كان لطالب فى المدرسة التجهيزية (كما كنا نسميها) أن يلهو بالبحوث الروحية ، وكنت أجمع بمشايخ وطلاب أزهريين ، فلم يخطر ببالى يوما أن أسألهم فى شئ من هذا ، بل كانت مساجلاتنا فى الأدب العربى ومطارحات الشعر .

وحدث أن قرأنا فى كتاب المحفوظات المدرسية جزءا من قصة « هامليت » النرويجية على يد أستاذ اسمه « ادجار » وكان شابا انجليزيا ذكيا مطلعا ، فلما وقع بصرنا على كلمة شبح Ghost

التي تمثل والد همليت . سألناه عنها ، وسألته أنا بالذات : هل يعتقد الانجليز في وجود البعثن والعفاريت ؟ . فقال لي : كان شاكسمبير يعتقد ذلك ، وعلى كل حال فالقصة دنيوية جرت وقائعها في هازنجهور عاصمة دنمارك من مئتين طويلة . وليس شكسمبير مصري شاعر .

فنهض تلميذ اسمه محمد عفيفي (ولا أدري أين هو الآن) وكان متأثرا في ثيابه وكلامه ويقول دائما انه يعرف أكثر مما يعرف فقال للأستاذ : ما معنى Haunted-House أي البيت المسكون ؟ . فابتسم الأستاذ وقال له : أين قرأت هذه الكلمة ؟ . قال : في صحيفة انجليزية . فتعلقنا بأعذاب هذا السؤال ، فقال الأستاذ : اقرأوا الشعر أولا وأنا أجبكم بعد ذلك .

فلما فرغنا من الشعر ، قال : يعتقد كثير من المجازن (كذا) والجهال أن بعض القصور القديمة في أرياف انجلترا - وهي التي حدثت فيها حوادث مفزعة أو جرائم شقية أحرقت فيها النما - تلازمها أرواح القتلى الذين اغتالهم اعداؤهم أو دفنوا جثثهم في البعثران ، فتظلم بها كانت عليه في هذه الحياة وتصبح أو تتكلم أو تؤذي السكان ، ولكن هذه أمور لم تثبت صحتها ولا يجوز لكم أن تتشككوا بها .

فأجاب محمد عفيفي الذي كان مسحوبا من لسانه : سواء ثبت أم لم يثبت ، فان ثبت فان عندكم عفاريت مثلنا ، وهذا ما لم تكن نعلمه ، وان لم يثبت فأنتم تعتقدون بالخرافات كما نعتقد ! . فأمر الأستاذ - وكان وديعا جدا - بإخراجه من الغرفة . وانتهى الأمر في هذا اليوم ، ولم أعد أفكر فيه حتى سنحت لي فرصة بعد أشهر ، فشهدت تمثيل همليت على مسرح مصري ، ولا تسأل عن

دهشتني عندما فهمت معنى ظهور الشيخ واتصاله بآبائه همليت وأصدقائه في الهزيع الأخير من الليل وشرح حادثة مقتله وكشف الستار عن جريمة حدثت في القصر الملكي وخيانة الزوجة والأخ ، وإن تكن هذه الواقعة قد أفادتني شيئاً له قيمة ، فتعريفى بمؤلفات شكسبير ، فقد قرأت همليت ويوليوس قيصر وانطوني وكلوبطره في عام واحد ، وكان للمستتر « ادجار » فضل في إرشادي إلى مطبوعة مشروحة ومفسرة - جلست غوامض هذه اللغة العتيقة وذلك الشعر غير المففى ، وأظهرت لى جمال فن هذا الرجل القدير ، ويلم شكسبير .

وحدثت لى بعض أحلام سارة ومسيئة كنت أنساها عند اليقظة ، وكنت أرى أوجه بعض المؤلفين الذين أحب كتبهم ، وبعضهم موتى وبعضهم أحياء ، فلا أجعل لذلك شأنًا ، إلى أن رأيت رؤيا واضحة تحققت بعد أيام فدونتها ، وأخذت أسأل بعض اخوانى فروى لى بعضهم رؤى له تحققت ، بعضها سار وبعضها محزن .

وكنت أحيانا أشعر بأشياء قبل وقوعها كوصول قريب من سفن بعيد أو مرض صديق أو حادث أمر سار أو رؤية أسئلة امتحان مكتوبة ، فتتصدق الرؤيا فأخفيها وأحرص عليها ، فسألت أستاذنا من أساتذة اللغة العربية فقال لى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصادقة جزء من ثلاثة وأربعين جزءا من النبوة » ، ودلنى على كتاب ابن سيرين ثرايته ففهمنا ومرتبنا عالم حرف المذبح ، فقلبت صفحاته وعجبت المصير التى ولدها خيال المؤلف فى كل ما يراه النائم ، وعلمت أن الأحلام عالم قائم بذاته ، تقيه فيه المقول ، فأعرضت عن الكتاب وتركته وقلت ان الانشغال بالحقائق الالهية أولى وأجدر من فحص هذه السباحات الليلية ، وإنشغلت بما يشغل به الشباب .

ولقننا الشيخ طنطاوى جوهرى مبادئ الفلسفة الإسلامية من كتاب « أحياء العلوم » و « مقاصد الفلاسفة » ، وبدأ هو يدرس اللغة

الانجليزية ويقرا كتبها فيها ، ثم فكر في تفسير القرآن فكنت اعينه
بمنهج ما يكتبه .

وفي يوم دار الحديث بينه وبينى فى منزله بقلعة الكيش -
وكان رجلا عالما عاقلا منشغلا بالعلم ، لاهيا عن الدنيا ، وكنت أحبه
كثيرا وأقدره وأعتب عليه فى قلبى اهماله علوم النحو والصرف
والبلاغة فى دروسه - فقال لى : ان الذى أعلمكم اياه أفضل وأنفع ،
والنحو سهل ، والصرف قواعد جافة ، والبلاغة ذوق ، فما حاجتكم
اليها وأنت على الخصوص ؟ . فاذا كتبتم فى الامتحان موضوعا جيدا
نحجتم ، واذا حفظتم عن ظهر قلب كتاب ابن سيويو وألفية ابن مالك
ومقامات الحريري فلن نجدكم شيئا ، لأن العلم والأدب استعداد
لا اكتساب ، ولو بقيت واكتفيت بما تعلمته فى الأزهر ودار العلوم ،
لبقيت كاخوانى ، ولكننى اكتشفت على يد الشيخ حسن الطويل
ما هو أغلى وأنفع وأبقى .

ثم قال لى : كنت تسألنى عن الرؤيا الصادقة . وفاتنى أن
الفتك الى ما ورد فى القرآن عنها ، ألا تذكر سورة يوسف ، انه نبي
الأحلام ، لقد آتاه الله معجزة تفسيرها تفسيراً صادقا ، لأن الأحلام
لا ترد على صورتها الظاهرة بل تكتنفها الرموز كحلم فرعون وأحلام
الخادمين فى القصر . قلت له : وما تفسير ذلك ؟ . قال : سمعت
الشيخ محمد عبده يقول فى بعض دروسه « ان للنفس رجوعا الى
الماضى واشرافا على المستقبل » ، فاقرأ له « رسالة التوحيد » .

وكانت هذه هى المرة الاولى التى سمعت فيها باسم الأستاذ
الامام ، فعولت على قراءة رسالة التوحيد . ثم قال لى الشيخ
طنطاوى : اقرأ مقدمة ابن خلدون وقرأ مؤلفاتى « جواهر العلوم »
و « ميزان الجواهر » .

ثم انشغلت بما يشغل به الشباب من تحصیل ولهو برىء وتطلع الى المعرفة ، واشتغلت بابن رشد والمعرى وابن سينا ورباعيات الخيام ومجلة المجلات الانجليزية ، فوجدت في هذه المجلة بحثاً عجيبة عن بقاء الروح وخلود الروح والاتصال بالأرواح ، وأن صاحبها المدعو ويليم برستيد قد أسس في ادارته مكتبا لمن دعاها « جوليا » ، وأخذ يكتب هو أو سواه - لا أذكر الآن لأن هذه الحوادث ترجع الى سنة ١٩٠١ أو سنة ١٩٠٢ - عن « الشخصية الانسانية » .

ومرت فترة طويلة وأحداث جسام في حياتي بين النجاح والفشل والأفراح والأحزان والآمال والخيبات والميل والاعتدال ، الى أن كانت سنة ١٩٠٨ وكنت في مدرسة الحقوق طالبا في السنة الأولى ، وكنت في ضيق شديد وحيرة ووله وزعزعة واضطراب وارتباك ، وكانت عشية أحد الأعياد الاسلامية ، وكنت أستقبل هذه الأعياد دائما بوجوم ويأس لأنني فقدت المرح بها ففقدت معناها ، ولم تكن لها قيمة عندي الا بزيارة قبور الموتى الأعرزة الذين واريتهم التراب ، وكانت هذه الزيارات تجدد أحزاني ، وكنت اذ زرت قبرا عزيزا لدى في فجر يوم شديد البرد أن خلعت معطفي وغطيت الأحجار اشفاقا على المدفون فيه وأنا أعى تمام الوعي أنه عمل صبياني ولا معنى له ، ولكنني شعرت بعده بارتياح عظيم ، فأصبحت الأعياد عندي أشبه بالأمم منها بالأفراح ، وما زلت كذلك الى آخر حياتي أجدها أياما فارغة خالية من كل معنى ولا أعتبرها أياما عدة بل ساعات محدودة وأقضى بقيتها في الدرس أو الراحة .

ففي احدى ليالى هذه الأعياد الخلية من المعاني ، كنت أسير في الظلام والبرد ، منهوك القوى ، منشغل البال ، شديد الكرب ، توهمت أنني رأيت شبحا حائرا يتبعني أو أتبعه ، وتارة يلازمني ويستولي على ذهني ويوجهني ، وما يزال كذلك ساعات .

وفى اليوم التالى قابلت صديقا لى فدعانى الى زيارة رجل عجيب الأطوار فى أحد فنادق القاهرة الكبرى اسمه «أحمد الغرض» ، فلما وصلنا اليه وجدت رجلا لا يمكن تحديد عمره يلتحف معطفا من نوع « الحرملة » أسود اللون ويتلفح بأطرافه الضافية ويتكلم لغات عدة وينطق بهدوء بالعربية الفصحى واسمه « كونت دى جالازا » الاسباتى الأصل ووارث مناجم الفضة والزئبق ، اسلامى الثقافة ، وهو منشغل بدراسة الأرواح ، فكان كشفا غريبا لى ، وكان حديثه يدور على التغمص والتناسخ وأنه على اتصال دائم بالأرواح وانها تزوره وتكتب له رسائل على آلة من اختراعه اسمها « غرضمو متر » ، وأن بعض هذه الأرواح دلته على كنوز ثمينة فى سفح الأهرام ، وأن بين يديه وثائق فرعونية تؤيد هذا الالهام ، ولكن منظر الرجل وحديثه وأصدقائه وتفكيره لم يرقنى منها شئ ، وقد صار هذا الرجل بعد ذلك أستاذاً للفلسفة فى الجامعة المصرية وقد وضع كتابا وخرج تلاميذ وأقيمت له حفلة تكريم وله صورة شمسية مع سعد زغلول باشا ، وقد حدث له ذلك بعد أطوار عجيبة ربما ذكرتها بالإيجاز (١) .

(١) أشار لطفى جمعة فى هذه المذكرات (يوم السبت ١٠ فبراير سنة ١٩٠٩) الى كتاب وضعه بعنوان « أحمد الغرض » ، كتب عنه لى ، نفس بابا بجميع مؤلفاته المنسورة والمخطوطة سواء الكتب منها أو المجلات التى نشرت بالمصحف والمجلات فقال « أحمد الغرض أو المهدي المنتظر بعصره » أحاديث وحقائق ورسائل تتعلق بشخص صديقى الكنت دى جالازا الاسباتى المقيم بالقاهرة ، أريد أن ادرس موضوع العلم الروحى وأن اخلط الحقيقة بالخيال قليلا لاجراج هذا الكتاب كاملا ، جمعت اقوال أحمد الغرض سنة ١٩١١ ولا يزال عليها والكتابان الواجب درسهما لذلك هما « خطابات من جوليا » ناليف ، و « ستين » وكيف عرفت أن الميت يحضر » .

واقول - أنا كاتب هذه الأسطر - انى لم اعثر على أصول كتاب « أحمد الغرض » بين مؤلفات لطفى جمعة المخطوطة (ر.ل.ج) .

وأفضى الى صديق وكان ابن مستشار مشهور توفيا جميعا الى
رحمة الله - أن أباه المستشار المصرى الكهل الذى تلقى العلم فى
كلية ايكس بروفانس يؤمن بالأرواح ويعتقد بوجود صلة وثيقة
بين جميع الأديان ولا سيما دين المصريين القدماء ودين الاسلام
ووحدة المعبودات فى مصر القديمة وأصنام الجاهلية (١) ، وكتب
فى ذلك رسائل وألقى محاضرات ، وأن والده على اتصال دائم بعلماء
أوربيين مختصين بهذه البحوث ، ومنهم سيدات يحضرن الى مصر
فى كل شتاء ويقمن بالأقصر والقاهرة ويرين أرواحا قديمة متجسدة
فى طيور وحيوان ٠٠٠٠ الخ ، فلما زرت هذا المستشار وفتحت
البحث فى هذا الموضوع ، تكلم فى تحفظ شديد ونصح الى
ألا أفكر فى هذا فانه لم يؤن الأوان ، وقال لى عليك بالتفكير فى
القانون والفلسفة وعلوم الاجتماع والاقتصاد فانها تجدى أكثر من
الاشتغال بما ذكرت ، ولكن ابنه كان شيطانا فاختلس من بيت أبيه
أكثر من مائة خطاب كتبته سيده من المشتغلات بهذه الشئون باللغة
الفرنسية وأقرضنى اياها فالتهمتها ، فقال لى لك أن تنسخها أو
تنقلها الى العربية فاعل فيها فائدة ، فلم أفعل واكتفيت بمطالعتها .

(٢)

كتاب ليلالى الروح الحائر

وولت هذه الفترة يخيرها ، ولم أفكر فى شيء مما قرأت
وسمعت تفكيرا طويلا ، الى أن كانت ليلة كالتى قضيتها منهوكا

(١) كتب لطفي جمعة مقالا عنوانه « هل عبد العرب والمصريون أربابا
بذاتها ؟ وقد نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٧/٧/١٩٢٩ ، واعيد نشره فى كتاب لطفي
جمعة « دباحث فى التاريخ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

مهموما وعمدت الى منزلى شئ عشمية عيد آخر ، فلم أكد أصل حتى شعرت بدافع قوى الى الكتابة دون أن أعلم ما أكتب ، وأذكر أنني لم أصير حتى أضغ ثيابى أو أستعد فى مكتبى ، فجلست على منضدة فى المطبخ وعليها سراج ضعيف النور ، وكنت شديد الجوع ولكننى رفضت الطعام ، وأحضرت ورقا وقلما وبدأت أكتب بغير انتظار ولا انتظام ، ولعله فى حالة تشبه الذهول أو البحران ، كنت أشعر أنني غير واع بما أكتب ، وأشعر أن فكرة قوية تقودنى وتدفعنى ، فكنت كالنشموان تارة وكالصاحى اليقظ تارة أخرى ، وأخذت أكتب كالمسوق المرغم ، وكنت أنصيب عرقا ، وكان البرد شديدا وغرفة المطبخ باردة خالية من التدفئة ، فتنبهت الى معطفى فخلعته ، ولكن العرق لم يجف وحدث لى شئ واحد أدركته ادراكا حسنا ، وهو أنني كلما كتبت شعرت بأن جزءا من العبد الذى على كاهلى يخف شيئا فشيئا ، وأننى أستعيد وعيى وصحوى .

يا لها من ليلة تلتها ليال فى مصر وأوربا ! ويا لها من محنة قاسية ولذة لا تقدر ! .

ولم أبال البرد ولا العرق ولا طول السهر ولا شدة المعاناة فى الحياة ، ولم أدر فى الحق ما كنت أفعل ، ولكننى كنت أخشى على حياتى وعقلى ، وأكنتم أمرى عن كل الناس .

فلما كان الصباح ، صباح العيد (أى عيد ١٩) ارتيمت على فراشى بين الميت والحى .

وعند الظهر، جمعوا لى الأوراق المبعثرة على منضدة المطبخ وعلى أرضه ، فألقيتها جانبا ، ولما أفقت وتيقظت واستطعت أن أقرأ ، وجدت كتاب « ليالى الروح الجائر » الذى بدأته فى سنة ١٩٠٨ ونشر فى مصر سنة ١٩١٢ ، وقد جاء فيه فى صفحة ١١ :

« واننى كذلك ، واذا بصوت خفى كأنه من جوف الأرض ينطق خافتا قال : أيها الباحث عن الحقيقة ، النائه فى بيداء الريب ! فوجمت لدى سماع الصوت الخفى وخاننى النطق للوهلة الأولى ، ثم استجمعت قوتى وقلت : من أنت أيها المتكلم الخفى ؟ قال الصوت بعد صمت طويل : أنا الروح الحائر ، روح صديقك ، أتيت مجيبا نداءك . قلت : لعلك أيها الروح العزيز جئت لى بجواب سؤالى وحل لغوامض الكون ؟ »

قال : أنى لى ذلك ولا فرق بينى وبينك سوى أننى تخليت عن بدننى وأنت لا تزال تتجاهد ضد العناصر الأرضية فتغلبها مرة وتغلبك مرات . قلت : هـلا أراك أيها الروح الصديق فأطمئن اليك ؟ قال : بلى ! انظر . فنظرت ولم أر شيئا . قال : انظر نحو الزاوية اليمنى . فأمعنت النظر ، فاذا شبح أبيض فى يده مصباح ، ولكنى لم أستطع تمييز تقاطيعه . قلت : وما هذا المصباح ؟ قال : انه دليلى فى حيرتى ، فيه شعاع من نور الحقيقة . قلت : حدثنى بشيء مما رأيت . قال : ليس لدى من الوقت متمسع وموعدنا الليلة الثانية أه ص ١٢ .

وتوالى الليالى والأحاديث الى صفحة ١٩١ وهى آخر الكتاب وفيها « فصرخت من أعماق قلبى : أيها الروح الحائر ! فسمعت صوتا قصيا كأنه هاتف يقول : قل الروح المهتدى ، ألم تعلم أنها ليلة الدواع الأول !؟ » .

كانت سننى اثنين وعشرين عاما اذ كتبت هذا الكتاب ، وقد ظن الناس أنه وفاء بوعده لذكرى صديق ، ولكننى لا أدري ما هو ، وقد مضى عليه ثلاثون عاما .



(٣)

رسائل واحاديث الشيخ محمد عبده

وفى سنة ١٩٣١ نشر المرحوم السيد رشيد رضا الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فشكرته فقال لى فى داره : لم الشكر وفيه بضع صفحات من قلمك اذ كنت صبيا ؟

وفتح لى صفحة ٧٩١ الى صفحة ٧٩٦ ، فاذا بها من انشائي ، فعجبت اذ كنت نسيت ما كتبت فى سنة ١٩٠٤ قبل كتاب « ليلالى الروح الحائر » بأربع سنين ، فليقرأ من يشاء كصورة لذهن ناشئ متطلع الى الحقيقة فى الثامنة عشرة من عمره (١)، وأكتفى بمتنفس يسره تنصب على مسألة الروح كقولى فى خطابى الذى بعثت به الى الشيخ محمد عبده فى فبراير سنة ١٩٠٤ « ثم نظرت فى أصل الروح وما هى وكيف خلقت ، وهل هناك قوة هائلة هى الله وكيف خلقت النفس البشرية (كذا) وما هو الانسان ذلك الحيوان الاله العجيب (كذا) وأين النفس من جسمه ، وما معنى أنها ملازمة للجسم ؟ . وأنا لا اعتقد بالبعث بالصورة الموضحة ، أى أننا نبقى أجسامنا ونفوسنا ، ونظرت فى الجنة فقلت أن ليس فيها حور وولدان ، بل فيها كمالات نفسانية ، وأننا ننقل الى عالم أرقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب ، وهكذا حتى نصل الى أقصى درجات الكمال ، وكذلك ليست النار نارا كما يقال ، بل هى عبارة عن عذاب المضمهر لنفسه . ها هى صورة منى والسلام » .

لو لم يحتفظ الشيخ محمد عبده بهذه الملاحظات ويوصى تلاميذه ومريديه الشيخ رشيد بنشرها بعد موته — الذى احتفظ بها سبعا

(١) نشرت رسائل لطفى جمعة الى الشيخ محمد عبده فى كتاب « حوار المفكرين ، رسائل اعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن ١٩٠٤ . ١٩٥٣ » ، ص ٦١ — ٦٨ عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

وعشرين سنة ، ولم أعلم بها الا بعد نشرها فى سنة ١٩٣١ وقد تجاوزت الأربعين - لما صدقت أننى كاتبها ، فان فيها جراءة الشباب وصراحة القول ما لا أستطيعه لنفسى الآن ، ولكن العالمين الفاضلين كانا أشفق وأوسع صدرا من أن يلومانى على ما كتبت .

وفى الكتاب الثانى وهو فى سنة ١٩٠٤ وبينه وبين الأول أيام ، وهو مكتوب من حنوان « الله قوة هائلة ، والمادة هل خلقت نفسها أو خلقتها تلك القوة الهائلة ، وهل المادة جزء من القوة الهائلة (الله) ، وهل وجدت المادة قبل القوة الهائلة . هاتان هما المسألتان اللتان تمنعان الكرى عن أجفانى (كذا) ، وهذا الكون المتناهى فى العظم والكبر والفخامة ، ما عمره ؟ . انى أراه أيضا متناهى فى القدم ، وعبنا أن يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب وهذه الأقمار والشموس عبنا ، فلا بد أن يكون فيها مخلوقات لله ، وكان هذه الأشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير (عود غير محسوس منى الى فكرتى الأولى فى سنة ١٨٩٩) . وهنا تنأى أم المسائل التى أعشقتها عشقا عظيما ، وهى النفس البشرية . أجيب انها قطعة من الله ولا أقول شعاع من نوره ، أو أن الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس (كذا) ، وهى ليست موجودة فى أى جزء من أجزاء الانسان ، بل تظلل ولا علاقة مادية لها به ، ان الله والنفس شئ واحد ، هذا رب فى سمائه ، والنفس رب فى أرضها . أ هـ الخطاب الثانى ملخصا .

وكان جواب أحد العالمين قول الله « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

وقد علق الشيخ رشيد - طبيب الله ثراه - على هذين الخطابين بقوله :

« وبحشه فى زمن التعليم فى أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين » .

والحقيقة أنني لم أكن أعلم في ذلك التاريخ (سنة ١٩٠٤) أن هذه أعلى مسائل الفلسفة ، ولا أعرف لها علاقة بالدين ، لأنني في سنة ١٩٠٤ في الثامنة عشرة من عمري لم أكن أعرف ما هي الفلسفة وما هو الدين ، لأن درس هاتين المادتين كان ممنوعا في المدارس الثانوية ، وكتبتهما النافعة لم تكن في متناول يدي ، ولكن على ما يظهر كانت مسألة الروح والخالق والمادة تمنع الكرى عن أجفاني ! ، وقد حملت العبء الى الآن ، ولو شغلت بأشياء أخرى لكان أجدى علي ، ولكنني حملت رغم أنفي علي غير استعداد للعيش في هذا المجتمع ، فعشت فيه غريبا لم أحاول فهمه ولم أقدم نفسي اليه .

وكان المرحوم الشيخ محمد عبده هو الرجل الذي عرضت عليه حيرتي وفتحت له مغاليق قلبي المفعم بالأسى ، ولم تصل هذه الخطابات الى يد الشيخ رشيد الكريمة الا لأنه كان مستودع أسرار الامام وكاتب يده الخاص والمعبّر عن أفكاره وآرائه ، وحلقة الاتصال بينه وبين الجمهور ، ولكنني لم أر الشيخ رشيد الا في سنة ١٩١٢ أو سنة ١٩١٤ لأن آراءه في السياسة المصرية كانت تخالف آرائني ، ولأن زعيمى وصديقى الأعز المرحوم مصطفى كامل كان لا يتصل به لأسباب طويلة ، شرحها كل منهما في مقالاته وكتبه ، وقد عرفت هذا الرجل الفاضل ، واتصلت به اتصالا قويا ، ولكنه لم يذكر لي قط أن لديه خطابات من قلمي ائتمنه عليها الامام ، ولو علمت بها لرجوته ألا ينشرها ، فليس لها الا قيمة تاريخية .

أما الشيخ محمد عبده ، فقد بادرت في سنة ١٩٠٤ بزيارته في داره بعين شمس واتصلت به في صحته ومرضه ولم أنقطع عنه الى أن انتقل الى رحمة الله . وكنت قد لقيت المرحوم محمد حافظ ابراهيم وتحدثت اليه فقال لي ان الأستاذ الامام يريد زيارتك اياه ، ولم يكن يعلم اننى متصل بالشيخ منذ سنة أو سنتين .

وقد روى لى الشيخ محمد عبده أن أول الفتوح لعقله وقلبه كانت قراءة رسائل كتبها السيد محمد المدنى لبعض مربيه وكان شيخا صوفيا ، وهى رسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا ، فسألته عن السيد المدنى ، فقال لى أنه والد الشيخ الصوفى الشهير الذى أقام فى اصطامبول فى عهد السلطان عبد الحميد وتوفى بها ، وأن الذى أوصل إليه هذه الرسائل هو أحد أخواله (أخوال الشيخ محمد عبده) واسمه الشيخ درويش وهو رجل ذو أسفار فى صحراء لوبيا وطرابلس الغرب وصار من مریدی السيد محمد المدنى .

أقول وقد اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أن للمدنى طريقة كبيرة شاذلية وقد رأيت بعض هذه الرسائل مطبوعا .

ويروى الشيخ محمد عبده فى نبذة كتبها بخطه أنه فى رجب سنة ١٢٨٢ هجرية رأى أمامه شخصا فى الدرس يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم « بالمجازيب » ، فلما رفع رأسه إليه ، قال ما معناه « ما أحلى حلوى مصر البيضاء !! » ، فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ قال : سبحان الله من جد وجد ! ، ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما (كذا) ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا » .

وسافر الشيخ فى شوال الى القاهرة وطلب العلم فى الأزهر .

وفهمت عن الشيخ أن مرشده الروحى الأول قبل جمال الدين الأفغانى كان أحد أخواله الشيخ درويش من أهل محلة نصر ، وقد

صحبته وعلمه الزهد والبعد عن الناس ستمت سبعين من سنة ١٢٨٢
الى سنة ١٢٨٨ هـ ثم أمره أن يشتغل بالناس ليعلمهم ويرشدهم ،
وفي تلك السنة ودعه وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية .
والتصوفية من هذا الالهام والشعور ما هو معروف ومشهور .

— ٤ —

الشيخ محمد بن عبد الله والتصوف وخلود الروح

كان الكلام في التصوف أمرا غريبا على ذهني لولا أن كان
الشيخ طنطاوي جوهرى يحثني على قراءة الرسالة القشيرية التي
كان لها شأن كبير في نفسه ، وذكر لي أنها ترجمت الى لغات أوربية ،
وكذلك مقدمة ابن خلدون ، ولكنني كنت أنظر من التصوف كإشغاله
بالمطرق التي تمت أوى مؤلفاتها ومشايخها وأعلامها ، وأصبح في
امتصاصي الى أغانيهم وأنشادهم وأشهد متالفا طرائق ذكرهم .
وقرأت أن المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء
الحس توغلوا في ذلك ، غير أن ابن خلدون يؤكد أن الكلام في
المجاهدات والمقامات وما يحصل في الأذواق والمواجد في نتائجها ،
ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها (١) ، فأمر لا مدفع فيه
للأحد ، وأذواقهم صحيحة والتحقيق بها هو عين السعادة . وأما في
كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات ، فأمر
صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء الى إنكارها ، فليس ذلك

(١) انظر الى حساب النفس في كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » ، لمحمد لطفي
جمعة ، طبعة أولى سنة ١٩٢٧ ، وطبعة ثانية سنة ١٩٩٩ عن عالم الكتب .

من الحق ، وسلف المتصوفة من أهل الرسالة القشيرية من أعلام الملة ، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك ، فلا ينطقون بشيء مما يدركونه ، بل حظاروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده ، وأن الخلوة والمجاهدة ثمران كشف حجاب الحس وادراك بعض العوالم الخفية ، فيتكلمون في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى ، وقد يرى صاحب الحال ويسمع وينسم ويدرك ما لا يشاركه فيه غيره ممن ليست له تلك الحال حتى انه ليزج به في عالم المثال ينجى فيه الأرواح تتجلى في صورة الأشباح بأغرب وأعجب مما يفعله مستحضرو الأرواح .

وقال الشيخ رشيد رضا في ترجمة الأستاذ الامام ص ١٠٦ « وكان يخرج عن حسه ويزج في عالم المثال فيناجى أرواح السابقين ، ولو كان يعجز شرح ذلك لشرحنه ، وكان يقول (أى محمد عبده رضى الله عنه) ان ما يحصل للمصوفية من الأحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ، ولا تجوز كتابته بحال ، لأنه يفتن كثيرا من الناس ولا يفيد أحدا » .

وهذا التصوف الذى لا نتعرض لتاريخه ولا شرحه قديم العهد فى البشر ومعروف عند براهمة الهند وعند أهل الصين وعند اليونان والفرس ، وهو بالاستعداد والموهبة أولا ، ثم بالرياضة النفس وللمتصوفين من هذه الأجناس كشف وخوارق العادات ، غير ان المسلمين يسمون ما يتم على أيدي المسلمين كرامة ، وما يتم على أيدي غيرهم استدراجا ، ولكن اجماع العارفين - الذين تكلموا أو كتبوا - على أن من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة يقع فى عالم المثال ، فىرى فى اليقظة الطبيعية - وهى غير ما يسميه الصوفية باليقظة - ما لا وجود له فى الخارج ، ويسمع من نفسه

تارة ومن الأرواح التي تتمثل له نارة أخرى كلاما لا يسمعه غيره وإن كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما أنه لا يمكن للرجال أن يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، ويتبع هذه الأحوال معارف صحيحة وأفهام دقيقة ، وأن يكون لهم تأثير في شفاء المرضى واستهواء النفوس بأقوى من التنويم المغنطيسى .

ونحسب أن الشيخ محمد عبده قد وصل الى هذه الحال لولا أن أخرجه منها السيد جمال الدين لينتفع به في الحياة الظاهرية ، ولم يكن الشيخ محمد عبده بالرجل البسيط أو الهين أو محدود الذكاء أو المخدوع ، بل كان ذا عقل جبار وكيان أدبي كامل ، وشخصية قوية وتدير واسع وتفكير ناضج ، ولم يعقه تصوفه عن استكمال درسه وتعليمه وإطلاعه على العلوم الغربية ودرس لغات أوروبا والاشتغال بالسياسة والقضاء والإصلاح والتأليف والخطابة والاجتماع والقاء الدروس الدينية والعلمية والتشريع والسياحة .

واعتقد أنه لولا سابقة تهذيبه الصوفي وترويض نفسه وجسمه واغترابه ومقاساته في بعده عن وطنه وتحمله المظالم بألوانها ، وما وصل الى ما بلغه من الفطنة وقوة التحمل ، والصبر على الاضطهاد ، وحسد الحاسدين ومكاييد الحاقدين ، والصمود للأعداء الظاهريين والمخترفين ومقاومة الحكام الظالمين من كل جنس ودين ، ولما تمكن من ادراك الخير المحض في بيئة معظمها شر محض ، فلم يكتف بادراك الخير ، بل عمد اليه ونفذه وأخرجه من التفكير الى التنفيذ ، فترك في المجتمع الذي عاش فيه عشرين سنة أثرا لا يمحي ولا يقل عن آثار المصلحين والمجددين الذين يبعثون مرة في كل مائة عام .

فالعبرة اذن في حياة هذا الرجل كانت عبرة الروح لا عبرة الجسد ، وعبرة القوة المعنوية لا القوة المادية ولا المال ولا الجاه

ولا الحيلة . فانه كان على شدة رعب أعدائه منه وفزعهم من بطشه وبأسه وحسبانهم لتحفظه ألف حساب ، كان عديم الحيلة بمعنى المكيدة والدسيسة ، لا يعرفها ولا يلجأ لها ولا يقدر عليها الا أن يحكم تدبير أمر في سبيل الخير وما به أذى لأحد ، بل كان هو الذي يقع عليه الأذى من شياطين الانس ليجلبوا لأنفسهم منافع ثم يندمون على ما فعلوا وتسوء عاقبتهم دائما وأبدا ، وقد شاهدت ذلك بنفسى ورأيت خاتمة الشرار من أعدائه حتى الذين صفح عنهم مرغما بسنة الزمن والاحسان الى من أساء اليه .

هذا الرجل الفذ المدرك ، والفرد النادر ، كان يؤمن بالروح وخلودها ، وكان يعتقد أن للنفس البشرية بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وقد صرح بذلك في رسالة التوحيد التي وضعها منذ خمسين سنة وهي من أهم ما ألف بعد تفسير القرآن قال « ان المشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث في جميع الأنفس - موحدين ووثنيين ، ملين وفلاسفة وأمين قدماء ومحدثين ، متحضرين أو وحشيين - لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية ، وانما هو من الالهامات التي اختص بها هذا النوع بأن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود ، بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا في طور آخر وان لم يدرك كنهه .

« ذلك الهام يكاد يزاحم اليديهة في الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شائعة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهينة للدرجات من الكمالات لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة

لآلام من الشهوات ونزعات من الأهواء ، ونزوات الأمراض على
الأجساد ومصارعة الجواء والحاجات .

» شعور يهيب بالروح الى تحسس هذا البقاء الأبدى وما عسى
أن تكون عليه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد
غاب المطلوب وأعوز الدليل ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا في
العلم بما في عالم الغيب ؟ « أ . هـ .

هذا كلام عالم ناضج ، يدل على شدة اشتياق ذوى العقول
الى الوقوف على حقيقة الحال والمآل ، وضرورة البحث عن طريق
الهدى والنجاة من الضلال .

ولكن هذا القول وما يماثله لا يعد موجهاً الى كل انسان ،
ولا يمكن أن يدرك حقيقته كل انسان ، مهما كان القارئ أو السامع
من الأذكياء أو الأنقياء ، ما لم يكونوا مستعدين ومتجهين ، مستعدين
للقبول ، ومتجهين للمعرفة . وهناك طرق شتى للوصول الى هذه
الغاية ، وأهمها ما نزل في القرآن الكريم على محمد عليه الصلاة
والسلام وفي الكتب المنزلة الأخرى على بعض الرسل ، فان من
مراتب النفوس البشرية مرتبة يعد الله لها - كما يقول الأستاذ
الامام في رسالة التوحيد - بمحض فضله بعض من يصطفيه من
خلقه ، يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون
معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره . مما لو انكشف
لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهب بعقله جلالة وعظمة .

وكذلك أعد الله نفوساً مستعدة للتلقى ومشغوفة بالاطلاع
ومشتاقة الى الاتصال ، ولكنها قليلة بل نادرة في وسط كثرة غالبية
من مخلوقات مغلوطة بالمادة على أمرها ، ومحجوبة بالشهوات العاجلة

عن استجلاء حقائقها وحقائق غيرها ، وغارقة فى بحار الأثرة وحب الذات الى قمم رؤوسها لا الى أذقانها ، وفاقدة البصر والسمع والفؤاد وان كانت تملك فى الظاهر آلاتها وأدواتها .

- ٥ -

مجلة المقتطف وتكذيب الظواهر الروحية

كانت مجلة المقتطف - وهى مجلة رجعية جافة ، مادية النزعة فى ذلك العهد هى ومجلة الهلال ومجلة الجامعة - مصدر التنوير للراغبين فى العلم لولا أن هدانى الله الى الكتب الأوربية فى مكتبة المدرسة الخديوية ودار الكتب الخديوية ، فقرأت كل ما قدرت عليه ، وكنت أتردد يوميا على دار الكتب وكانت خالية من القراء ما عدا اثنين أو ثلاثة ، وهى قائمة فى بناء صغير على يمين الداخل من باب كبير فى شارع درب الجماميز ، وأصل من منزلى بشارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة عدد ٥ فى بضع دقائق ، وكان بها موظفان ، محمد صفوت أفندى (الآن باشا ووزير سابق) وعلى أفندى (بالمعاش وعلى قيد الحياة) . وقد اطلبت على اتصالى بدار الكتب الى الآن (سنة ١٩٤٢) .

ويسوؤنى أن أقول انها كانت فى ذلك العهد السحيق أنفع لى منها الآن .

كان لمجلة المقتطف الرجعية المادية النزعة الجافة - تأثير كبير بالنظر الى فقر البلاد العقل وهيبة المصريين فى انشاء مثلها ، وأن

أنشأوا فانهم سرعان ما يفشلوا وتذهب ريجهم . وكان يزعمني أن
أرى تلك المجلة تنشيء مقالات طويلة عريضة عن سميتهم « رجال
المال والأعمال » فتشيد بمجد عجول الذهب والسراقين الأمريكان
الذين حصلوا على القناطر المقنطرة من الذهب بسماء الأمم واحتكار
المواد الأولية ، ثم تشرح أعمالهم وهى جرائم ، على أنها أعمال بطولة ،
فتبني لهم معابد وهياكل وتنصب تماثيل فى قلوب الشرقيين ،
فكانها كانت تبشر بدين جديد ، وقد نجحت هذه المجلة الخبيثة
فى ذلك العهد فى توجيه الأذهان فى مصر وفى الشرق العربى طبعاً
الى عبادة الذهب وتمجيد المال وصرف النفوس عن المثل العليا ،
وكانت تعبر عن آراء أصحابها ورغباتهم ، ولعلها قتلت البقية
الباقية فى النفوس من حب الخير والعلم ، وحطمت المثل العليا التى
بدأت تتكون ، فكانت كالسموم التى تسرى ببطء فى العقول
والأجسام .

وان غيظى من هذه المجلة كان يزداد يوماً فيوماً الى أن رأيت
فيها مقالات عن التنويم المغنطيسى واستحضار الأرواح نقلاً عن بعض
المجلات الأمريكية ولا سيما «سيانتيك أمريكان» وغيرها ، وتمثلها
لنا كالوحي المنزل ، فقرأت هذه المقالات بشغف شديد ، ولكن
— وأسفاه — اكتشفت أنها كانت تنطوى على حيلة خبيثة ، وهى
أن تكذب كل الظواهر الروحية وتنفيها وتقيم الأدلة على خداع
أصحابها ، أى أنها لم تكن تؤيدها ولا تنشرها بغير تحيز ، ولكن
برغبة أن تكشف القناع عن تحايل القائلين بها لئلا تفسد عقولنا
بتصديقها .

وانى الآن أقرر وأصرح بأنه لو وضعنا كل ما قيل عن فائدة
تلك المجلة فى كفة ووضعنا الشر الذى صنعتته بنشر مقالات عجول
الذهب وتكذيب الظواهر الروحية فى كفة أخرى ، فإن شرها يرجح

خيرها وتخف موازينها وتمحو سيئاتها حسناتها ، وانها بلا ريب كانت أداة هدم وتجهيل وتقهقر فى المجتمع الشرقى العربى .

وانى لا أنكر ولا أخفى مهارة الذين صنعوا هذه المجلة ، فقد صنعوا سمومهم وصبغوها بغشياء مسكر مطلى ليسهل تناولها ، وهذا الغشاء المسكر اليراق هو مقالات الأدب الرفيع وتراجيم بعض الشرقيين والعناية بالزراعة والصناعة . . . الخ ، ولكن هذه المقالات كانت وسيلة لدس السم فى الدسم ، فاننا منذ بدأنا نقرأ المقالات التى تمجد المال وأربابه ، وتضعف الثقة فى المعتقادات الروحية ، انتقلنا الى الماديات بحكم فطرة التقليد الكامنة فى نفوسنا وتصديق المتعلمين ودعاة المعرفة فى بلد معظم رجاله جهلاء ، والمتعلمون منهم مصابون بداء الجبن الوخيم .

وقد كانت المقتطف تزعم أيضا أن النجاح لا معنى له الا تكديس الأموال ، وتنشر سير زعانف وأجلاف ولصوص فى كل أنحاء العالم وما يفوهون به من أقوال عن سر نجاحهم وما ينصحون به للشباب ، فاذن كل الموضوع يدور حول المال ، ولو أن « النجاح » منهم يقترف الموبقات ويأتى الكبائر فى سبيل ذلك .

ومن هذا التاريخ - أى بعد الخمس السنوات الأولى من القرن العشرين - انتشرت فى مصر فكرة اقتران النجاح بالمال وتجريد كل المؤهلات والمواهب الأخرى من الفضائل ، فلا العلم فى عرف المقتطف ولا الأخلاق ولا الوطنية ولا الدين ولا الاستقامة لها أية قيمة بجانب المال ، عدا عن التشكيك المستمر فى العقائد الروحية والاحتياط على تكذيب المعنويات والتقليل من شأنها بكل الوسائل الخفية والظاهرة .

كانت هذه الأفكار تجول فى نفسى ، ولكننى كنت عاجزا عن التعبير عنها ، ولو استطعت التعبير ما التفت إليها أبدا ، فكان

المجال فسيحاً والميدان متسعاً لهذه المجلة وغيرها ، وكان رجالنا العلماء والأدباء كانوا مخدريين ومشتغلين بأمور أخرى يرونها أهم من انقاذ العقول من هذا البلاء ، ولذا أظن أن الله أحبط أعمال هذه المجلة المضللة ، فلم يحالفها التوفيق أبداً ، ولم يصحبها النجاح بما فعلت ، فلم تفز بكل ما رغبت وإن كانت في ذلك العهد تباهى بعملها وشيخوختها وبما تحصلت عليه من أموال المصريين وغيرهم بفضل الباشوات المخرضين والمنومين . ولكنني للأسف لم أدرك هذه الأمور على حقيقتها في وقتها وكنت عاجزاً عن فهم مراميها ، دع عنك مكافحتها .

- ٦ -

دراستي الفلسفة

اخترت لنفسى طريقاً وسطاً واشتغلت بدراسة كتب الفلسفة بغير معلم ولا مرشد (١) ، فإن هذا الأمر كان مجهولاً ومحمولاً في بطون الكتب والتاريخ ، ولم يجاهر أحد بالفلسفة ولم يشتغل بها أحد فيما أعلم ، وأظن أن الناس كانت تخشها فلم يظهر إلا جزء من رسائل اخوان الصفاء نشرت جريدة المؤيد وملخص تاريخ ابن رشد وفلسفته نشره فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة بالاسكندرية . أما في مدارسنا فلا ، ولم تكن الجامعة المصرية قد ظهرت مشروعاتها ، ولعل الاشتغال بها في الأزهر كان يعد ذنباً أو كفراً ، فقد رأينا السيد جمال الدين الأفغانى يخرج من مصر بليل !

(١) اقرأ فيما يلى من هذه المذكرات ما كتبه لطفى جمعة في الفصل المعقود من « التكوين الفلسفى » .

كان صديقي يوسف كرم الشاب السوري هو الوحيد الذي قرأ معي بعض الشيء عن فلسفة سبينسر الانجليزى قبيل موت هذا الرجل بعامين أو ثلاثة ، ثم حصلنا معا على تراجم بالعربية لسقراط وأفلاطون وبعض حكماء اليونان ، بعضها بالعربية وبعضها بالفرنسية ، ولكنها لم تكن تشفى غليلنا لأنها مختصرات وجيزة ، وكنا نقرؤها بفخار ونشوة ما دامت هى الوسيلة الوحيدة للاتصال بهذه النفوس الكبيرة ، وكانت دار الكتب مصدرا آخر لى ، لأن كرم كان مقيما بطنطا ، وصدد كتاب فى تهذيب الأخلاق لابن مسكويه فحصلنا عليه وقرأناه وقضينا وقتا طويلا فى شرحه وتفهمه .

وكان أن نشرت مجلة الجامعة خبرا قمنا له وقعدنا ، وهو أن عالما أثريا ألمانيا اكتشف فى العراق حفريات من بينها قصة آدم وحواء والتفاحة والحية ، وأن هذه القصة لم تكن محفورة وحدها ، بل كانت مصورة أيضا بالحجر فى عمود من الحجر يرجع تاريخه الى ألوف السنين قبل الأديان المنزلة ، وقامت ضجة كبيرة فى الغرب ، واضطر الامبراطور وليم الثانى أن يعلن تمسكه بالمسيحية من جديد ، وأن يقلل من شأن هذه الحفريات .

وكان الشرق كعادته فى غيبوبة ، فلم يدركوا مطلقا أهمية هذا الاكتشاف حتى فسر له بعض المتطوعين وأفهموهم أن اكتشاف قصة الخلق وآدم وحواء على هذه الصورة يهدم الأديان من أساسها (١٩) ، فانها جاءت فى الكتب المنزلة على أنها وحى يوحى للمرة الأولى لموسى ثم لمحمد عليهما الصلاة والسلام فى التوراة والقرآن ، وأن عيسى جاء مكمل لما جاء فى التوراة ، فاذا كانت هذه القصة معلومة من قبل بألوف السنين لأقوام بابل وآشور من عهد حمورابى أو قبله ، فاذن قد نقلت هذه القصة بحذافيرها من ذلك الأصل الحجرى الذى لا شك فيه ونسبت الى وحى السماء !

وكان الاكتشاف بريثا من كل مظنة ، فانه عمل عالم ألماني نزع الى العراق وهو يعرف اللغات القديمة واستأذن الحكومة العثمانية في البحث فأذنت له ، فلما ظهرت له هذه الأحجار - ومنها هذا العمود العجيب - فسره باللغات الحديثة وصوره ونشر نصوصه ، فقرأها المستشرقون ونقلوا الآثار الى متحف برلين وذاع أمرها وفطنت حكومة ألمانيا الى أن السكوت على هذا الأمر يعد تسليمًا بصحته وبنقض الكتب المنزلة ، فأشارت على ويليم الثاني بإعلان عقيدة المسيحية « على الرغم من ظهور هذا العمود الذي يروي قصة آدم وحواء » .

وليس هنا موضع تفسير هذه المسألة ووقوفى على تحليل علمي يؤدي الى تأييد الوحي بهذا العمود تأييدا مطلقا ، غير أنني أقول الآن ان هذا العمود كان مسندا كبيرا للماديين الذين طاروا به فرحا واعتبروه ضربة المعول الأخيرة في صميم الأديان ، فباضوا وصفروا .

وترددت قليلا ثم عزمتم على مسابقة الزمن وألقيت بنفسى في دراسة الفلسفة ، وكانت دهشتى كبيرة عندما سمعت سقراط يقول « اعرف نفسك » ، وعندما علمت أن أفلاطون كان يتكلم عن الروح وخلودها وخلقها في عالم السر والغم ، ويوصل الحياة الاندسية بالحياة الآخرة ، وغفلت حينما عن الكتب المنزلة .

وكنت أبحث عن مرشد فلا أجد ، ولو كنت في زمن غير هذا وبلد غير هذا لبحث المرشدون عني وعن أمثالي، ولكنني كنت أجد التصريح والطلب والشوق الى العلم تؤدي جميعها الى الغيرة والحسد والاضطهاد ، ولا سلاح عند الناس اذا عجزوا عن الأذى بالفعل الا الأذى بالقول ، وأحد سلاحهم التهكم والسخرية ، وهما يمان عن سخائم أنفسهم ، ولكنني أعلم أن هؤلاء الأعداء الصغار يخفون وراءهم أعداء أكبر وأضخم وأقوى شأنًا وأحد أسلحة حتى لقيتهم

جميعا وجها لوجه ، حتى المقنعون منهم بسبعة آقعة من النفاق ، أراد الله أن يكشفهم لي ويقينى شرهم ، ويحمينى من هذه العداوات لا لشيء الا رغبتي فى العلم واظهارى بعض ما أكن وأضمر من الشوق والتطلع .

وجملة القول اننى شققت طريقى بنفسى على الرغم من المشططات والمعجزات ، وكانت أسماء داروين وسبنسر وكومت ودرابر ترن فى أذنى ، وألقى الى أستاذ انجليزى هو ماستر جونز مدرس التاريخ اسم توماس بين وكتابه « عصر العقل » فقرأته ، وأوعز الى آخر باسم ارنست هيكل الذى كان من أئمة العلم المادى ، ونشر شبلى شمىل كتاب بوخر الألمانية ، وهو سابق لداروين ومؤيد لنظرياته .
وقد عانيت كثيرا فى قراءة أصل الأنواع بالانجليزية وتسلسل الانسان *The Decent of Man of Universe* ، وقد حول كتاب هيكل *The Riddle* تاريخ الحياة الأرضية وأصل الانسان الى حقائق سهلة الادراك ما دام خلق البشر لا يزيد على خلق الكتكوت والفرخة والأرنب . ثم قرأت تاريخ الثورة الفرنسية وهى ثورة على الأديان والمعتقدات والملكية المطلقة وكل السلطات الدينية والدنيوية ، وورد فى أثناء قراءتى اسم « فولتير » والحاده وسخريته من المتدينين ، فكانت كتبه أول ما هجمت عليه وأول ما قرأت الفرنسية ، ثم مؤلفات روسو الذى أحببته كثيرا ، وأيقنت أن أصل البلاء فى العالم انتشار الأديان ونموها ، فانها تؤدى الى الجهل والفاقة وتولد حكم الملوك واستبداد الحكومات ، وأن فرنسا لم تصل الى العظمة العقلية والحربية والفنية والأدبية الا بعد أن خلعت نير الأديان والملوك والأقوياء ، وكنت أعجب كيف ان فرنسا فى ثورتها قلدت الانجليز فى ثورتهم وخلع ملكهم ، ولكن فرنسا طلقت الأديان بينما حافظت انجلترا فى ظاهر الأمر على دينها وتعصبيها ، وفى أحشائها نشأت المادية وداروين وسبنسر وستوارت ميل وآدم

سميث من أبنائها ، فاما أن يكون نقافا واما أن الانجليز لم يقتنعوا
بآراء فلاسفتهم وعلمائهم *

وقد قضيت هكذا بضخ سنين حتى اتصلت بكتب المستشرقين
الألمان والنمساويين وقرأت كتبهم فى تاريخ الاسلام وحياة محمد
عليه الصلاة والسلام وتسليم بعضهم بصدق نبوته أمثال « جريمه »
و « ويلهاوزن » و « نولدكه » الهولندى و « تولستوى » الروسى ،
ورأيت أن هذا العصر المادى فى الفكر قد جر على العالم مصائب
الظلم والاستعمار واعداد المبادئ السامية بقوة الحديد والبنار ،
فهلنى هذا الأمر واعتقدت أن العالم صار جحيما مستعرا وأن
ليس فيه الا ظالم ومظلوم ، القلة ظالمة والكثرة مظلومة ، ورأيت
من الأحداث فى أوربا ما غير عقيدتى فى المادة ، ولكننى رأيت
طلوع فجر جديد ضئيل النور خافت الصوت ، رأيت حركات فكرية
ونزعات الى التحرير وكسر القيود ، ورأيت المظلومين يثورون على
الآديان لا تكديبا لها ولكن يأسا من قوتها لاصلاح العالم ورفع
المظالم ، لأن رجال الدين الذين كان يرجى أن ينفقوا سدا منيعا
بين الحق والباطل ، والآكل والمأكول ، وبين المفترس وفريسته ،
قد اشتراهم الأغنياء واستندرجتهم الحكومات حتى باعوا ذمتهم
ومالوهم وانضموا اليهم ، فأبغضهم الضعفاء وأبغضوا مصادر
سلطانهم ، فكان أكبر الملحدىن فى رومه عاصمة الكشلكة ، ورأيت
بمعنى فى سنة ١٩٠٦ البابا غارقا فى نعيم أكثر من نعيم الملوك
ويخب فى الحرير والمخمل والدنتلا ، ويأتمر بأمره فى مدينة
الفاتيكان ألوف الأحراس والخدم والكرادلة ٠٠٠ الخ ، فدهشمت
من أنه يمثل أحد القديسين الذين كانوا يرقدون على القش فى
هاليل ، ولا يعرفون الا عبادة الله والكفاف من الرزق .

أما المظالم فى الشرق ، فلنتركها على جانب !

واذن كان من المحتوم أن يسمع صوت الاصلاح والعودة الى
 شيء من الحق والانصاف والرحمة ولو قليلا، ولكن أين هذا الصوت؟
 ومن يطلقه وهو عرضة لاطلاق المدافع والبنادق وحبال المشائق وحيد
 السيوف ؟!

كان العجز يتملكنى والحيرة تسود على والاضطراب يستولى
 على ذهنى ، لأننى - لبساطة عقلى - شغلت بالانسانية كلها لا بنفسى
 وأهلى ووطنى فحسب ، بل بكل العالم ، وصارت الآلام التى أراها
 أو أقرأ عنها تحز فى قلبى وروحى ، ولكن لا وسيلة الى دفعها
 أو تقليلها ، فتجلى لى الصراع المهول بين الانسان والعناصر على مدى
 الاجيال الطويلة السابقة ، وهو شيء تقشعر منه الأبدان وتضطرب
 له الأسنان ، ثم الصراع الأشد هولا بين الانسان وأخيه الانسان ،
 وهو الذى بدأ بين قايين أو قابيل وهابيل حتى قتله وحار فى مواراة
 جسمه واستحق عتاب الله وتحمل حزن والديه ، هذه القصة رمز
 للبشر الذى يسود حياة البشر ، وتجلى لى الصراع فى سبيل المبادئ
 وكان أشرف ، ثم فى سبيل السلطة والمال وهو أشنع .

واذن كان لابد لله من أن يبعث رسلا وأنبياء ومصلحين وأن
 يختارهم من هذا الجنس نفسه ، ولكن من عينة أرقى ونفسية
 أسمى ، فجعل الله النبوة التى حاول وصفها وتعليلها أبو نصر
 الفارابى .

ومن حكمة الصانع الحكيم القادر أن يخطط لارشاد الانسان
 طريقة الكلام للتفاهم ، والكتابة للتراسل ، فهو فى رسالة الأنبياء
 يجعل الاتصال عن طريق العقل والمنطق ، لا طريق التهويل
 والتخويف كما كان المظهر فى ديانة بنى اسرائيل ، فان المظهر
 الالهى لهذا الشعب كان مناسبا لحالتهم وتاريخهم وطبيعتهم ،

فاختار الله لهم موسى الكليم الذى لم يبعث الله له وحيا ، بل تجلى عليه تجليا ماديا بالصعق وظهور النار وسماع الصوت ، وكان موسى نفسه رجلا قويا عنيقا لا يعرف الدين ولا الهواة ، ولكنه على ما كان عليه من سعة الادراك ، قد انتقاد لعقل سام ، فاستطاع بالقوة تارة وبالحيلة طورا أن يقود جماعة من المتوحشين الغلاظ الاكباد حتى أصبحوا فى قبضة يده ، فجعل من هؤلاء القساسة البجهال أمة بقيت الى اليوم بفضل التعاليم التى بنىها فيهم ، وهم لا يزالون يدهشون العالم بمناعتهم المادية والمنوية بعد مرور بضعة آلاف من السنين عليهم (انظر كتاب « موسى » لسميجونند فرويد وكتاب « تحليل الأشياء » لبول جيبييه) . وان شأن موسى لظاهر جلليا فى تاريخ حياته وأعماله المدونة فى التوراة ونسب سرد حاله فى القرآن الكريم لأنه أول نبي يستحق هذا الاسم بعد ابراهيم الخليل ونوح .

وهكذا نرى أن الله قد جعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة بعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فميزهم بالفطر السليمة وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبته بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب بأذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين الاثنيين ، نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها (أى والله صحيح !) ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما شاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يسخر فى سعادتهم الآخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد من علمه .

معبرين عنه بما تتجمله طاقة عقولهم ووسع ادراكها حتى يبلغوا عنه شرائع تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم حتى ينالوا سعادتهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، وهذه الوسائل المعقدة فى ظاهرها البسيطة فى حقيقتها انما اختارها الله والنجأ اليها وهى من صنعه ، لأن هذه الوسائل ومظاهرها هى من نفس ما علم الله أنه حادث فى الأرض .

وقد جعل الله لكل نبي خصوصيات ثلاثم عصره ودهره وقومه ، ولم يكتب التوفيق لكثير منهم كما كتبه لقله ممتازة لتكون حجة على أقوامهم أقوى وأقنع ، هذه سنة الله وهذه خطته .

ولا يبدو لى أن أفيض فى تواريخ الأنبياء ، ولذا لا ألم بتاريخ عيسى عليه السلام ، وانما أنتقل الى نبي آخر وقد بعث فى الصحراء واتى بالعجب العاجب مما ينطبق عليه وصف الرسالة الصحيحة بأدق مبانيها ومعانيها (انظر كتابى ثورة الاسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله) ، فان بداية حياته قبل الرسالة معروفة ، أما ابتداء أمره ففيه عظة وعبرة .

فما السر فى هذا ؟

لا سر غير النبوة واتحاد قوة الله بقوة رسوله ، فمده بالعقل والعلم والسياسة والحنكة والمال والرجال والسلاح والهيبة والتوفيق وحسن التدبير والصبر والنصر وحسن الختام ، وأعظم من هذا كله القرآن الكريم الذى نطق به محمد تلقيا عن الله بواسطة الملك وهو روح عظيم كان ينزل عليه تارة خفيا وظورا متجسدا .

وقد سماه الله جبريل أو جبرائيل وهو نفس الروح أو الناموس الذى نزل على موسى وعلى عيسى ، وقبل عيسى نزل لأمه مريم ودار بينها وبينه حوار صريح فى القرآن « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا . قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا . قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » .

وقوله تعالى « فتمثل لها » أى رآته فى عالم المثال حسب مقامها الذى كانت فيه وحالتها فى الفلوات التى لجأت إليها نلبية لنداء الله بعد طول الصبر .

وجبريل هو المعلوم لليهود والنصارى والمسلمين ، ومعنى اسمه « خادم الله » من « جبر » بمعنى خادم و « ايل » بمعنى الله ، فهو روح خير خالده وظيفته نقل الوحي الالهى للمختارين من عباده ، وصفه سبحانه وتعالى بقوله فى سورة الشعراء « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين » ، وفى آية أخرى « ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » التكوين ، ٢٠ ، ٢١ ، وفى سورة البقرة يوصف جبريل بأنه « روح القدس » لأن خدمته لله محصورة فى نزوله عليهم بالوحي ، فجاء لموسى اثم جاء لعيسى مؤيدا « وإلقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

لم أكن فى تلك الفترة على شىء من العلم ، وما أزال كذلك ، غير أنى سمعت أن جبريل هو الملك المختص بالاتصال بالانبياء منذ موسى وربما قبله .

فجبريل روح لا ترى لغير المقصود من الله أن يراه ولا يسمع لغير المقصود من الله أن يسمع ، ما لم يتجسد هذا الروح كما روى رسول الله محمد أنه جاءه في صورة دحية أحد معاصريه من العرب ورسول النبي الى عظيم بصرى •

واذن بدأت أتوهم حقيقة الوحي على هيئة اتصال روحي بنزول الروح القدس (جبريل) على قلب محمد حتى تحدث له حالات بدنية جاء وصفها صريحا في حديث البخاري على لسان النبي نفسه وعلى لسان عائشة وعلى لسان كثير من الصحابة الذين رأوه عليه الصلاة والسلام (١) •

ولابد أن فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ التامع الأزهر قد فهم علاقة علم الأرواح الحديث بمسألة الوحي وتقريبها من الأذهان عندما كتب « والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت الى العقل امكان تحول المادة الى قوة وتحول القوة الى مادة ، وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وامكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة في طي الأبعاد ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا في تقريب قصة الاسراء فأثنى بشيء طريف » •

واني أدري أنني أؤيد الاسلام بعلم الأرواح الحديث ، وأؤيد علم الأرواح الحديث بالاسلام ، فمسألة الوحي كانت عسيرة الإدراك على العقول ، ومثلها في الدخول الى بعض الأذهان كممثل دخول الجبل بل الفيل في سم الخياط ، فالمعاصرون للرسول أنفسهم

(١) انظر مقدمة كتاب لطفي جمعة « نظرات عصرية في القرآن الكريم » ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ ، ص ٢١ وما بعدها ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٥ •

كانوا لا يدركونها ولم يدركها الا الذين وهبهم الله نفوسا شفافة وقسطا من الذوق ، فيقيسون الكثير على القليل والجليل على البسيط ، أما المصدقون بنير فحصى ولا تمحيص بمجرد التصديق والايمان ، فهؤلاء لهم أجر كبير ، أما أبو بكر الصديق ، فقد كان يصدق عن بيئة واقتناع ، وكذلك عمر وعلى وبقية المبشرين بالجنة ، فقد كانوا يعلمون حقيقة الوحى وكيفية نزوله ، ولهذا كان أبو بكر الفرد المحمدى الأوحى الذى صدق حديث الاسراء بغير جدل ولا انتظار ، لأنه كان مقتنعا مدركا بصفة قاطعة ، فلم يجد فيها الغرابة التى وجدها المعاصرون حتى أهل بيت النبى أنفسهم ، لأنه يعلم أنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ولا يقول الا الصدق .

فكان الملك أو الروح الأمين والروح البنس واسطة بين الله ورسوله ، وكان محمدا عليه أفضل الصلاة والسلام واسطة بين الله أولا والملك ثانيا وبين جميع الناس ، ولا شىء الا وهو به منوط . اذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - المتوسط ، وهذا نص من كلام عبد السلام ابن ميمش ، وفيه اشارة كافية للحقيقة ، اذ أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أعظم واسطة ظهرت فى الوجود وأعظم شخصية انسانية فى الكون ، لا بايمان المؤمنين كافة أو بادراك النابغين منهم خاصة أو باعتراف عقلاء علماء الأمم الذين فحصوا ودرسوا ، بل بأقوال الله مكررة ومعادة ومدعمة بأدلة من عالمى الغيب والشهادة .

فاذا كان علم استحضار الأرواح قد ظهر فى العالم منذ تسعين عاما ، أى من نصف القرن التاسع عشر ، فانما جاء لينقذ العالم من ويلات المادة والمذاهب المادية التى سلبت الانسانية ونهبتها وأقلقت راحتها ، فان العالم فى هذه الأجيال أردا وأخبث

وأشقى منه فى كل زمن مضى ، ولم يعم البلاء فى وسط النعيم
المزعوم بمثل ما عم الآن وقبل الآن بمائة عام •

وها نحن أولاء نرى آلافا من الأحياء ، وكل واحد منهم له روح
لها قدرها عند الله - يبلون ويذبلون من الفقر والفساد ويسقطون
صرعى فى ميدان الكفاح فى الحياة ، ويموتون جوعا ومرضاً مع
كثرة الأموال والخيرات التى استأثر بها الطغاة والأقوياء ولم
يوزعوها توزيعاً عادلاً ، وهؤلاء الضحايا هم ضحايا أشخاص
مفتربين ومغتالين ومستغلين هم المسؤولون عن هذه الآثام لأنهم
اقترفوها بأنفسهم أو ساعدوا على ارتكابها عن طريق أثرهم
وجشعهم ، وسوف يحاسبون على ذلك حساباً عسيراً عندما ينتقلون
فى مواكب الخزي والعار الى العالم التالى حيث لا قيمة للحياة
الأرضية ولا لالقب ما يسمونه شرفاً ولا لقوة المال والجاه •

أى دنيا مجنونة حققاء هذه التى نراها ؟ •

أين الاعتدال والانسجام والعدل الاجتماعى والرحمة
والانسانية ؟

أين روح الأديان ووصايا الأنبياء ؟ بل أين كلام الله وأوامره
ونواهيه ؟

لابد أن الله كشف القناع منه تسعين عاما عن عالم الغيب
للكنيع من جماح الانسان طاغية هذا الكوكب الأرضى ، ولم يبعث
رسولا لأن محمدا خاتم النبيين ، ولأن وسيلة النبوة لا تصلح لهذا
الزمان بعد التطور الذى طرأ على عقول الانسانية وقلوبها ، كما أن
الله يسر لبعض المخلوقين الممتازين وسائل الاختراع والاكتشاف ،

فظهرت فى هذه الفترة نفسها الكهرباء والبخار واللاسلكى والطيران والمحركات والصناعات الآلية ، أملا من الله سبحانه وتعالى أن تنشغل الانسانية بهذه الكمالات وتتخذها وسيلة للاصلاح من شئونها .

- ٧ -

الايمان بالاقتناع

كان من دأبى حب الاقتناع فى كل شىء بالدليل ، لا اعتمادا على نص حفظته أو رأى سمعته ، ولكن خضوعا للعقل والمنطق العقل ، وسواء أكان الأمر متعلقا بالدين أو بالدنيا ، فان مجرد الكلام لا يكفينى ، وعندما كانت التجربة ممكنة فهى خير عندى من المشاهدة ، واذا وجدت المشاهدة والخبر ، فهى خير من الخبر ، والخبر الثابت خير عندى من المبهم أو المشكوك فيه .

وقد كرهت التقليد بعقل ورأيت عواقبه فى نفسى وفى غيرى . اذ كنت وقعت فيه مرة أو مرتين ، وهو فى العقائد عندى مرذول ودليل العجز وسخافة العقل ، وقد أبيت أن أكون مسلما مقلدا ، وذهب بى العناد مع أقرب الناس الى مذهبا عنيدا ، وفضلت البقاء بغير دين مدة من الزمن على أن أكون متدينا بالتقليد ، ولكن عنادى ومعارضتى كانتا للوصول للحقيقة المجردة ، وقد كان التقليد من أسباب عدم الاستجابة للدعوة المحمدية ثلاث عشرة سنة فى مكة ، فان حجة الوثنيين أنهم وجدوا آباءهم عاكفين على الأصنام ، وكان ابراهيم أول الخارجين على التقليد ، فانه رفض عبادة الأصنام مع

أنها معبودة قومه وأهله ووالده ، ونرى أهل مكة يقولون للنبي
« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » فيرد الله عليهم « أولو كان آباؤهم
لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ويقولون في مكان آخر « انا وجدنا
آباءنا على أمة وانا على آئارهم مقتدون . قال أو لو جئتمكم بأهدى
مما وجدتم عليه آباءكم ؟ » .

وكان عنادى وابائى الخضوع للتقليد سببا فى أضرار كثيرة
أصابتنى فى الدنيا ، ولكننى لم أكرث لها فى وسط دنيا لا تهمها
المبادئ ولا يعجبها الاصرار على الحق ، وينقاد معظمها للقوة
أو للتقليد انقياد قطعان الغنم ، وقد رأيت هذه « الغنمية »
أو « البهيمية » متجلية فيمن حولي تجليا فاجعا ، فزادنى هذا بغضا
فى التقليد ، وعرفت أننى يوم أخضع للتقليد فقد فقدت روحى .

وكان بعض المجادلين لى يظنون أن البحث محرم وأن المعارضة
تورث الكفر ، فلم أبال وقلت ان كان التدين بالتقليد واجبا ،
فمعناه أن الدين لا يتحمل المناقشة ، وأنا لا أريه ديناً لا يتحمل
المناقشة ، وإن كان الدين يتحملها فأنعم به وأكرم ، وغفلوا عن
الحق ، فان مفخرة هذا الدين المسمى أنه يصمد للبحث ويطيح
العقل .

وانك لتجد الرجل منهم يجادل فى اللقمة التى يأكلها والثوب
الذى يلبسه وكأس الخمر التى يتجرعها والمرأة التى ينكحها والأجر
الذى يتقاضاه - ولو لم يؤد به عملا - والمبدأ الذى ينتحله - وإن
كان مستعدا أن يخونه - والقسم الذى يؤديه - وإن كان يتأهب
للحنث فيه - ولكنه يأبى عليك أن تجادل غيره فى دينك . أرايت
قوما أشد عمى وصمما وجهلا من هؤلاء ؟

وما أزال كذلك حتى عثرت على ما يؤيد رأيى وهو أن آيات
القرآن وأحاديث النبى وأخبار الصحابة لا يجوز الاستناد فيها الى

تقليد أصول العقائد ، وأن إيمان المقلد إيمان لا يعبا به . والاسلام صادق النظر في هذا ، لأن الايمان التقليدي إيمان بغير عمل ولا مجهود ، فكيف ينجو مؤمن من غير عمل ؟

وإذا صح في الأفهام أن ينجو المقلد بالتقليد لمجرد المصادفة لأنه اتبع أهلاً أو شيخاً كان مؤمناً ، فلما ذا يعاقب من كان كفره أو شركه بالتقليد والمصادفة لأن أهله أو مرشده كانوا كفاراً أو مشركين ، ولو أن الكافر اتبع طريقة العلم الصحيحة لكان له شأن آخر ، والمؤمن المقلد لم يتبع طرق العلم الصحيحة لأنه – وان اتبع الرسول – فهو لم يتبعه بعد أن قام الدليل عنده على صدقه ، بل اتبعه تقليداً ، ولو أنه اتبع الرسول بعد قيام الدليل عنده ، لكان ناجياً بلا ريب ، لأنه يكون قول المعصوم هدياً يصح الاستناد عليه ، ويكون كتابه هدياً يصح الاستناد إليه .

وعلى هذا الرأي كان المرحوم أستاذي الشيخ محمد عبده ، الذي لقي الآلام في هذا السبيل كما لقيها من بعده تلميذه ومريده الشيخ رشيد رضا ومن قبلهما ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، وهؤلاء أربعة من الأئمة الكبار ، وخامسهم فخر الدين الرازي الذي قال « أكثر العلماء على أن التقليد لا يكفي في أصول العقائد ويجب النظر في الأدلة على كل واحد » . وهذا الرجل من أجل المفسرين وأفطن العلماء .

أما سادسهم فهو أحمد بن حنبل الذي كان أفضل أهل الحديث وأحد الأئمة الأربعة ، فقد أخبره شخص أن فقيهين أفتياه برأيتين مختلفتين ، فقال « لا يجوز له العمل بأيهما شاء ، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع ما يطمئن إليه » وهو بذلك يفتي بما يكون للقاضي في الجرائم الكبرى من حق الحكم بالاعتناع الباطني

Convictin intime • وهو أقوى وسائل الاقتناع لانه نوع من نور البصيرة •

والسابع الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى أول العشرة السابعة من القرن الرابع عشر الهجرى (انظر اجتهاده فى تفسير سورة لقمان) •

كانت هذه القوة العقلية ورائى عندما كنت أجادل فى سن السابعة عشرة رجلا أسن وأعلم ولا يدركون من هذه الأمور شيئا غير أنهم يتهموننى بالاحاد ، فكنت أهزأ بتهمتهم ، ولست فى طلب الأدلة بمغال أو طالب محال ، فانك لا تطلب دليلا على وجود الله أن تراه عيانا ، أو على صدق النبى أن تقرأ صكا سماويا على أيدى الملائكة ، أو تحتم العثور على حفريات ونقوش على أحجار لتعلم أن ابراهيم واسماعيل رفعوا القواعد من البيت وبنيا الكعبة بمكة ، فان هذا يكون تعنتا ومن شر أنواع التعنت ، وتمسكا منك بأن لا تقتنع ولكنك تخشى التصريح ببيتك ، ولا يمكنك فى مسائل الدين والروح أن تطلب أدلة جارية على قواعد المنطق فى الأقيسة ومقدماتها وأشكالها وضروبها ، ولا على قواعد الحساب والجبر والهندسة ، بل يكفى الاستنتاج السليم الذى يضىء المحجة ، وليس اطمئنان القلب وحده بكاف الا فى بسائط الأمور ، ولكن اذا حصل الاقتناع فى الكليات وأمهاات المسائل فلا بأس بالاطمئنان فى الجزئيات والفروع ، وقد تفضل الله فنصب الأدلة وأوضح المحجة فى الأنفس والحوادث والآفاق •

ومن بين الأدلة التى أوضحها فى الأنفس والآفاق تلك الحركة الروحية التى يظنها الناس حديثة وهى قديمة بل مغرقة فى القدم كما نرى ، فليس بين الأديان القديمة والحديثة من لا يؤمن بخلود الروح والثواب والعقاب ما عدا التوراة التى لم ينص فيها عليهما •

فالمجوس الذين عبدوا زردشت وقدسوا النار ، كانوا يعتقدون
بأله واحد خلق النور والظلام ، وأن الأجسام تدخل النعيم مطهرة
مقدسة ، واليونان كانوا يعتقدون بهاديس وهى مقر الأرواح
الخالدة التى ذكرها هوميروس بالتفصيل فى قصيدته أوديسية ، وكان
البراهمة الهنود يعتقدون بالتناسخ ، فإذا تم عقاب الروح بقدر
جرمها ظهرت وانتقلت من الجسد الغريب عنها واجتمعت بجسدها
الأول وعاشت معه فى نعيم أبدى . واذن فالبرهمية تقر الخلود
والعقاب والثواب ، وإذا مات البرهمى وأحرق ، تبعته امرأته
باختيارها لأنها تعيش عيشة أخرى هنية لا تنغيص فيها ولا نكد ،
وقد وعدهن البراهمة بأن كل امرأة احترقت مع زوجها فلها بعدد
شعر رأسها تمتع ألف سنة بالعيشة المرضية ، والبوذيون يعتقدون
أن الروح الذى يعمل خيرا يدخل دار السعادة أو يرسل الى دار
الشقاء واسمها دسيجوكف ليعذب فيها حسب ذنوبه لا الى الأبد ،
والى هذا يشير المعرى :

خلق الناس للبقاء فضلت

أمة يحسبونهم للنفاد

انهم ينقلون من دار أعمار

ل الى دار شقوة أو رشاد

وان فترة العذاب تتلوها فترة تقمص فى جلد حيوان ثم
العودة الى الجسم الانسانى الأول ، فالهناء الأبدية والغاية عندهم
خلاص النفوس من الآلام والهموم والوصول الى هذه الدرجة يكون
بارتفاع الانسان من هذا العالم حتى يصير غير راغب فى الوجود .

أما اعتقاد البابليين والآشوريين والمصريين القدماء بخلود
الروح والثواب والعقاب ، فأمر أشهر من أن يذكر ، وما بقى من

آثار هذه الأمم وتاريخها وكتبها شاهد بهذه العقيدة حتى مجلس
القضاة الجالسين لمحاسبة الأرواح منقوش في سقوف قبور كثيرة
للملوك في وادى الملوك الى يومنا هذا ، وقد شاهدهته بعيني ، عدا
عما ورد في كتاب الموتى وتصوير موقف المحاسبة ووزن الأعمال في
ميزان ووزن قلب المتوفى وامتحان الروح امتحانا عسيرا في تسمع
درجات يدخل بعدها الى عليين أو يرند أسفل سافلين في جسم
حيوان أو كيان شجرة •

وان الذى يراجع تواريخ هذه الأديان وظهورها واستقلالها
عن بعضها في البيئة والزمان واختلاف الأخلاق والمنسارب ، وتباعد
الشفقة بين كل أمة والأخرى ، واختلاف اللغات والثقافات ، يرى
بينها جميعا مهما اختلفت في أمور أخرى اجماعا تاما كاملا على أن
الروح كائن حي خالد يقضى حياته على ظهر هذا الكوكب في صالح
الأعمال أو طالحها أو مزيج من هذه وتلك ، ثم ينتقل الى حياة أخرى
خالدة فيها ثواب وعقاب بعد حساب دقيق ، ومهما اختلفت المنسارب
والمآرب والأصول والفروع والأسباب والنتائج ، فإن شيئا واحدا
لا يختلف فيه اثنان من هذه الأديان من أقدم العصور الى عصرنا هذا
وهو هذا الاعتقاد ، ولم يقم دليل على تواطؤ بينها ، والتواطؤ
مستحيل ، ولو تواطأت على هذا ، كان أولى أن تتحد في العقائد
كلها ، ولكنها مع بقاء التنافر بينها والتباغض بين شعوبها وتباين
درجاتها في العلم والجهل والقوة والضعف ، قد أجمعت على خلود
الروح وحسابها حسابا دقيقا وثوابها على الخير وعقابها على الشر ،
كما أجمعت على وجود خالق مطلق القدرة والارادة ، مهيمن على
هذا الكون ، مدبر لشئونه ، واضح لقوانينه مشرف على تنفيذها
ومباشرتها • (انظر الكتاب الأول من روح الشرائع لمونتسكيو وهو
يكاد يقول بمنهج وحدة الوجود حتى اتهمه بعض ناقديه بأنه من
أتباع سبينوزا الهولندى الذى ألف كتابا في ثبوت وجود الله بأدلة

رياضية ، وشرح العالم ادوارد شوريه التاريخ السرى للأديان فى كتابه « كبار العارفين » ، وفى التطور الالهى من عهد سنفنكس الى المسيح ، والأماكن المقدسة فى الشرق القديم ، مصر واليونان وفلسطين . وهذه الكتب تحير القارئ فى أول أمرها ثم تثبتته بالقول الثابت فى صحة الخالق والمخلوق) .

وقد جاء القرآن الكريم مؤيدا لهذه الأدلة القديمة بآيات بينات وكذلك الأحاديث المحمدية الجليلة الواضحة ، فإن الله قد سلك مع الانسانية مسلك الترقى والتطور وكشف لهم القناع بالتدريج حسب معقولية الأمم والدرجات التى وصلت اليها .

فهؤلاء البابليون الذين عرفوا قصة الخلق ونقشوها على عمود من الحجر الصلد لم يسمحوا للمصريين أن ينقلوها أو يتواطأوا مع اليهود على اذاعتها فى توراتهم ، ولم ينقل عنهم الاسلام فى كتابه المنزل ، وانما الأصل الواحد والمصدر الأول هو الذى أطلع البابليين ثم المصريين ثم اليهود ثم العرب .

تم هاهم أولاء أهل هذا العصر المادى الحديث يطلعون منذ مائة سنة على تلك الحقائق الأبدية عن طريق الأرواح ، فانه من العجب العاجب أن ترى هؤلاء الغارقين فى الماديات والمنكرين للالهييات والطاعنين فى الروح ، قد اتجهوا رغم أنوفهم منذ مائة سنة الى البحوث الروحية فى أوربا ، فكانت بحوثهم الروحية على طريقة بحوثهم العلمية فى المختبرات بالدقة والحيطة والحذر والشك حتى جاءت البيانات التى تقنعهم ، وأيد علماءهم الفحول فى أوربا وأمريكا تلك المظاهر الروحية وقيدها فى مئات الكتب والمجلات المنشورة بأسماء علماء اعلام لا يرتقى الشك الى أسمائهم وشهرتهم العلمية ، ومنهم من كان ينكر انكارا باتا ويتنهم المتكلمين بالخداع حتى بعد ظهور العالم الرياضى سويدونبورج السويدي وهو من أهل الجلاء البصرى الموهوبين نعمة الكشف والناطقين بما رأوا وعلموا فى عالم

السرى ، وقد ألف كتبه فطبعته ونشرت بملايين النسخ فى اللغات العالمية (١) .

ثم الآن يسمون استحضار الأرواح جلسة ويجعلون لها محضرا يوقع عليه شهود عدول ، فما بالهم قد نسوا المحضر الأول المسجل فى التوراة ؟

(١) كتب لطفى جمعة فى الهامش ما يلى :

من العلماء الذين اشتغلوا بالبحوث الروحية هوم الانجليزى المتوفى سنة ١٨٨٦ وستانتون مويز المتوفى سنة ١٨٩٢ وكان وسيطا روحيا وانتسبا مجلة « الضياء النفسانية » ومن مؤسسى الجمعية الروحية بانجلترا ، وويليام ستيد المتوفى سنة ١٩١٢ وصاحب مجلة المجلات ومؤسس « مكتب جوليا » ولان كارديك مؤلف كتاب كبير فى الأرواح وكان يعتقد فى التقمص ، والعالمان الألمان زولتر وويبر ، والوسيلة الايطالية يوزابيا يلادينو التى قالت وهى منومة أنها عاشت على الأرض قبل ذلك مرات كرجال وبساء وترجمت مجلة المقتطف مقالات عنها سنة ١٩٠٤ ، سنة ١٩٠٥ ، ومورسيلي الايطالى صاحب الأبحاث الطويلة فى الروحية . والبروفسور ريشيه الفرنسى وله كتب ومجلة مصورة ، وأنى برايت من ملبورن باستراليا ولها مجلة « رسول النور » ، والسير جويك وويليام ياريت وإدموند جرنى من الانجليز والذين أسسوا جمعية البحوث الروحية وأبحاثهم فى ٢٥ مجلدا . ١٥ كتابا كبيرا ، وكونان دويل الذى ألف كتابا فى تاريخ الروحية ، وهنرى برجسون أشهر فلاسفة فرنسا وويليم كروكس أشهر الباحثين بقلمه وعلمه فى الروحية ، وويليم جيمس فيلسوف أمريكا الأوحى ، وأوليفر لودج العالم الانجليزى الشهير ووسيطته السيدة تومسون ، والعلامة الأمريكى هودجسون ووسيطته مسز بايير .

ويلاحظ أن هؤلاء الرجال والنساء كلهم صادقون وذوو شرف وعفة وخالفون من الخداع والكذب ومعظمهم لا يطلب المال ولا يسعى الى كسبه عن هذا الطريق ، وأراؤهم أن الناس يعيشون بعد الموت عيشة تشبه الدنيا فى المشاغل والمصالح ، وهو رأى راجح فلسفيا وجيد أخلاقيا وموافق لما تقولهُ الأديان .

لا شك أنه لا مطمع لأحد من الماديين في أن يظعن في نصوص التوراة بالتزوير أو يتهم أحد أنبياء بنى اسرائيل بالخداع أو الكذب لخدمة العلم الجديد .

انظر الى سفر صموئيل الأول في الاصحاحين ٢٨ ، ٢٩ تجد حديثاً من أعجب الأحاديث نصه الآتى « فقال شاول لعيبيه فتشروا لى على امرأة صاحبة جان فاذهب اليها وأسألها . فقال له عبيده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتنكر شاول وجاء الى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك . . . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى صموئيل (سلفه الصالح) . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول ؟ فقال لها الملك (شاول) : لا تخافى ، فماذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت اله يصعد من الأرض . فقال لها : ما هى صورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة . فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه الى الأرض ومسجد ، فقال صموئيل لشاول : لماذا أفلقتنى باصعائك اياى ؟ فقال شاول : قد ضاقت بى الأمور جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع . فقال صموئيل : قد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داوود لأنك لم تسمع لصوت الرب الخ .

فليقرأ بقية محضر الجلسة فى موضعه من التوراة من يشاء .

وترجمة هذا المحضر بلغة العصر الحديث أن هذه المرأة التي كانت تسمى « صاحبة جان » لم تكن سوى وسيطة معروفة تستحضر الأرواح ، حتى أرواح الأنبياء والملوك ، وشهود هذه الجلسة شاول والرجلان اللذان صحباه ، وتسجيل المحضر في التوراة وهو كتاب مقدس عند الكثرة المتدينة في العالم وهم النصارى واليهود .

التكوين الفلسفى

(١)

سبب دراستى للفلسفة

القراءات الأولى - محاولة التأليف - فكرة الالتحاق بالأزهر -

كيف السبيل الى الفلسفة ؟

• لا أحاول مطلعا أن أدافع عن نفسى ولا أحاول أن أدعى (١) .

فاننى شغلت بعلوم كثيرة وآداب كثيرة حتى تشعبت مطالبى ،
وأفرطت فى المطالعة والدرس وجعلت لكل فرع من فروع المعرفة
الانسانية جانبا من ذهنى .

وقد عشت فى زمن شاعت فيه فكرة التخصص ، ولست أزمع
أن التخصص ينافى العلم لأنه يضيق البحث ويحدد آفاق النفس
البشرية المتطلعة ، وان كثيرين من المتخصصين يكونون خاويي
الوفاض من كل علم وأدب غير ما انقطعوا له ، ولا أنكر ان من انقطع
لشيء أحسنه ، ولكن أفيد ذلك الاحسان بشرط النبوغ الشامل
وامتلاك الملكات والمواهب ، والا فان الرجل العاجز عن الادراك العام
يعجز حتما عن التخصص ويتدارى وراءه بحجة انه لا يمارس عملا
سواه .

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات سنة ١٩٤٢ .

نعم ان التخصص جميل ونافع فى بعض فروع الطب كطب
العيون والولادة والجراحة ، ولكن ليس معنى التخصص أن يكون
الرجل جاهلا فى كل شىء ماعدا عمله الذى اشتهر به ، فقد قرأت
لأطباء فرنسيين كتباً فى الطب تكاد تكون من الأدب المصفى من حيث
جمال الأسلوب ودقة التعبير وبلاغة الوصف ، وهى صفات لا تكتسب
لمن انقطع للطب وحده ، بل لابد أن تكون له قدم عالية فى الأدب
والتاريخ وعلم النفس ، وقرأت لمهندسين متخصصين كتباً فى فنونهم
تعد آية فى بلاغة الكتابة ، وقرأت لكبار المحامين المتخصصين فى
القانون شعراً ونثراً وقصصاً ونقداً أدبياً يعد فى الدرجات العليا ،
وفى نظرى أن العلم عند ممارسته يعد علماً حتى اذا شاء العالم أن
يكتب فى علمه فقد صار أدبياً .

ولما كانت العلوم القانونية ولا سيما المحاماة تقتضى اتقان
البلاغة لأن الخطابة جزء منها فى المرافعة على لسان الدفاع والاتهام،
وكذلك عند القضاة عندما يكتبون الأحكام المسببة ، وكذلك عند
رؤساء النيابة العامة عندما يكتبون تقرير الاتهام أو تقرير الحفظ ،
وعند أساتذة الحقوق عندما ينبرون للتأليف – فقد صار فن الانشاء
الرفيع جزءاً لا ينفصل عن تخصصهم .

ولما كانت ميولى الى القانون منذ حداثنى ظاهرة ، فقد اتجهت
الى اتقان اللغات ما استطعت ، ثم اتقان البلاغة علماً وعملاً لأنها
جزء من صناعتي ، وان لم أكن بلغت فيها الشأو الذى كنت أتمناه ،
ولكن يشفع لى أننى تخريت أن أتقن ما استطعت .

غير أن أهل زمنى وأهل بلدى لأسباب كثيرة ينظرون الى كل
شىء نظراً معكوساً حتى أنهم ليعروك بالفضيلة أو النعمة .

ولذا فقد اقترن حب العلم أو حب الاطلاع بآفات البغضاء
والحقد بدلا من أن يصحبهما التشجيع أو حب الخير أو الفرح بما
جاد الله عليك به .

ولذا نرى الرجل الذى أنعم الله عليه بموهبة اذا انطوى على
شئ ولو يسيرا من التواضع والتعفف والكرامة قد ديس تحت
الأقدام ووطأته المناسم وانمحي ذكره من سجل الأحياء ، لأن الوقحاء
والجهلاء وأهل الأحقاد الذين أتقنوا فنون الدس والوقيعة يتقدمون
بصفاقتهم ورذائلهم ليحتلوا الأماكن التى يستحقها ، لأنه ينتج
احتفاظا بكرامته .

وقد أصبح المشاهد أنه لا يكفى أن تكون كفوا أو فاضلا أو
عالما مع وداعة فى الخلق أو إباء فى الطبع ، بل يجب عليك - لتصل
الى حقك - أن تكون صفيقا رذلا منافسا متهجما لا تعرف الخجل
ولا الآداب ولا الحياء ، والا فلا سبيل الى شئ مما تستحقه أو
تتطلع اليه !

وعلى هذا دب الفساد الى الأعمال والمناصب لخلوها من أهل
الكفايات الذين لديهم خلق ، وتقدم اليها الجهلاء المتسلحون بالوقاحة
والغطرسة والطمع مع استعداد كبير للرياء والنفاق والانحطاط
وغيرها من الرذائل .

ولست هذا بسبيل البحث فى تحليل ذلك أو تفسيره ، فان
معظمه يرجع الى انحلال الأمة ووصولها الى درك الفناء الخلقى
واستيلاء العجز على مدبرى شئونها من جميع الجهات .

ترجع ميولى الى الالام بالعلوم الى علة قوية وهى فساد التعليم
فى المدارس والمعاهد التى نشأت فيها فى أواخر القرن التاسع عشر

وأوائل القرن العشرين ، لأجل هذا كنا نسمع باسم الفيلسوف
ولا نراها ، وباسم الفلك ونشتاق اليه ولا نجده وباسم المنطق ونحب
أن نطلع عليه فلا نعثر عليه وهكذا .

فكنت أئنساء الدرس أهجم على الكتب الواسعة والشمس
الاستزادة وأشعر بظماً شديداً للاستيعاب واجمع ما أستطيع من
المجلات والمراجع الكبيرة ، ولكن لا أجد المرشد والأستاذ الذى يقود
خطواتى وأجد السخرية تجرى على لسان الأستاذ أو التلاميذ اذا
لجوا معى كتاباً من هذا القبيل ، فكانت هذه بداية الاضطهاد .

ولكن هذا كله لم يفت فى عضدى بل دأبت واستمرت وانفتحت
كل ما أملك فى شراء الكتب المتبوعة البغيضة الى أساتذتى واخوانى
فى الطلب ، وليس هنا مجال ذكرها أو تعديدها أو تأثيرها فى
نفسى .

ولكن يجدر بى أن أذكر الأستاذين أو الثلاثة الذين ساعدونى
وشجعونى فى تلك الفترة من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٥ .

ففى مقدمتهم المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى الذى كان
وجوده فى المدرسة الثانوية فلتة ندم عليها رجال وزارة المعارف أى
ندم ، لأن هذا الرجل كان لا يعبأ بالنحو والصرف وعلوم الرسوم
والأشكال ، بل كان يلخص لنا كتب الغزالي ويدربنا على فصاحة
القول وبلاغة الكتابة وشرح القصائد الكبار وتفسير القرآن .

وغير الشيخ جوهرى المرحوم على فوزى والأستاذ ادوار فانديك
ورابع اسمه فوستر سميث .

أما فانديك فهو ابن المستشرق كورنوليوس فانديك مؤلف
كتاب النقش فى الحجر الذى درست فيه مبادئ الفلك والمنطق

والنبات والفلسفة بارشاد ابن المؤلف . وكان يقرضني كتباً في المنطق وأخرى في التاريخ وإن يكن درسه الرسمي هو الترجمة ، وكان ضنيناً بها ولكنه يتقنها .

وكان المرحوم على فوزى حجة في اللغتين العربية والانجليزية فأفادت بتعليمه كثيراً في دقة التعبير وتفهم النصوص .

أما فوستر سميت فكان رجلاً متحرراً مفتوح الذهن مشفقاً على التلاميذ ، وكان يلفت نظري إلى المطالعة في كتب الأدب الانجليزي ويرشدني إلى خيرها ويتحدث إلينا فيما لا علاقة له بالأجرومية والاعراب ويتوسع في شرح الشعر حتى حبيب إلى مؤلفات شكسبير ، وكان أول من ذكر لي الياذة هوميروس وفلسفة أرسطو وأفلاطون والثورة الفرنسية وتاريخ محمد تآليف واشنطن أرفنج ، فكان ذهني يشتهل عند سماع أسماء الكتب والمؤلفين فأبادر إلى الحصول عليها وقراءتها ، ولم أجد أن واحداً من هذه المؤلفات عطلني أو أخرني أو حار علي وقتي الذي فرضته لمراجعة دروس المدرسة واتقانها .

وجاء رجل اسمه جونز متخرج في أكسفورد ومتخصص في التاريخ ، وكان أول وآخر من اتبع طريقة التدريس الجامعي ، فيلقى محاضرة في دروسه ثم يرشدنا إلى المراجع في الكتب ، فرفع عن أبصارنا غشاوة الجهل وضيق نطاق العلم ، ولكن الذين انتفعوا به قليل ، وكره الرجل أن يتواطأ مع رؤساء المعارف على تجهيل الطلاب فسارق مصر بعد عام واحد واستمر يرأسني ويبعث إلى بأسماء الكتب والمؤلفين من انجلترا تارة ومن الهند تارة أخرى ، وكان يتحدثني عن تولستوى سرا ويرشدني إلى بعض كتبه ويملي علي أسماء كتب في التاريخ والأدب .

هكذا كانت البذور الضئيلة التي غرسها الله في نفسى على
أيدي هؤلاء الأفاضل خلست وأنا في الرابعة عشرة من عمرى .

أما قبل ذلك - أى أثناء التعليم الابتدائى - فكانت مطالعتى
فى غير كتب الدرس مقصورة على حديث البخارى ومجلة المفتطف
ومجلة الهلال وألف ليلة وليلة وسيف بن ذى يزن وشعر المتنبى
واعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس وبعض القصص
الانجليزية مبسطة ، وكنت أجمع بمالى مجلات انجليزية مثل ستراند
مجازين وونزور مجازين ومجلة المجلات ومعظمها أعداد قديمة من
نفاية ما يبيعه خدم الانجليز فى الطرق .

ثم عثرت على مجموعات جرائد من عهد الثورة العربية وعلى
نسخة قديمة من كتاب مصر للمصريين ، ومن أهم هذه الصحف
أبو نظارة وجريدة المدرسة والأرغول للمرحومين عبد الله النديم
والشيخ محمد النجار وبعض مقالات من مجلة الحرة الوثقى ومن
خطب الثورة العربية وشعر البارودى .

وكنت أرى قيمة لشعر أبى زيد الهلالي فجمعت أجزاءه ، وكذلك
شغفت بالأمثال الشعبية فجمعت فيها كتباً وهى أساس ما تعلقت به
من دراسة الفولكلور ، وأول من ألف فى هذا الفن المرحوم محمود
عمر وكان يجمع القصص والأمثال والأغاني الشعبية ، وهو أول
مصرى انتبه لهذا النوع من البحث دون أن يجعله للتسلية بل
للدروس والدلالة على أخلاق الأمم ، وقد توسعت بعد ذلك فى هذا
الباب وألفت فيه وجمعت قوموساً حسناً فى الملاحن Argot
واللغات السرية فى اللغة العربية (١) .

(١) للطيفى جمعة كتاب عنوانه « مباحث فى الفولكلور » ، صدر سنة ١٩٩٩
عن طريق مكتبة عالم الكتب بالقاهرة . ثم أعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة
طبعة سنة ١٩٩٩ أيضاً ضمن سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية برقم ٣٤ .

وكانت تصل الى يدي جريدة لسان العرب وروايات نجيب حداد ومؤلفات أخرى منقولة عن اللغة الفرنسية وكتب من وضع المرحوم أحمد زكي مثل السفر الى المؤتمر (باريس سنة ١٩٠٠) ، وتاريخ أمم المشرق وهو ترجمة موجزة لكتاب ماسبرو ، كما وصل الى يدي كتاب جمهرة أشعار العرب طبعه يوناني مستشرق وباعه لنا أحد أقاربه .

وهكذا كانت بضاعتى قليلة ولكنها كانت تروى شيئا من غلتى .

وفى تلك الفترة كان الأستاذ فريد وجدى ينشر مجلة باسم الحياة وفرح انطون ينشر مجلة باسم الجامعة فكنت أقتنى منهما ما يصل الى يدي .

وفى تلك الفترة حاولت التأليف ، فوضعت رسالة فى تاريخ مصر القديم وقطعة تمثيلية مسجعة ، وبدأت ترجمة مقولات فرنسيس باكون ، ولا أدري على التحقيق أين ذهبت هذه المخطوطات التى لا قيمة لها الا من حيث تاريخ عقلى وتطلعه .

فلما وصلت الى القاهرة والتحقت بالمدرسة الثانوية لم أجد فى دروسها ما يشفى غلتى ، وأدركت أن هنا عقبات فى الطريق مقصودة حتى هممت أن التحق بالأزهر بعد أن قرأت كتبه فى صحبة صديقى المرحوم محمد عثمان الفندى الذى كان أبوه محاميا شرعيا وله أصدقاء معظمهم من مجاورى الأزهر الشريف كأفراد أسرة لطفى المنفلوطى والغاياتى ، ولكن علمت أن التعليم فى الأزهر يقتضى أن أخلع زى الأفندية الذى درجت عليه وألبس العمامة والجبّة ، وتحدثت الى أحد أصدقائى فنصحنى بالعدول عن هذه الفكرة وقال لى ان المشايخ يخلعون أزياءهم ليتزينوا بالسترة والبنطلون والطرش وأنت تريد أن ترجع القهقرى ، ثم ان الأزهر لا يعلمك العلوم

الحديثة ولا اللغات الأجنبية ، فإذا دخلته خسرت كل ما تعرفه وإن يكن قليلا ولن تفيد شيئا بنفسك ، وأنت إذا جاورت تنقطع عن العالم المتمدين (كذا) ولا تستطيع الامام بالجديد وهو الذى يسير العالم فى طريقه ، بينما يمكنك وأنت فى المدارس الحديثة أن تلم بعلوم الأزهر بأن تحضر بعض الدروس وتقرأ الكتب التى تدرس فيه ، وإن كان معظمها عقيما (كذا) ولا يصلح منها للدرس الا القليل .

وكان المتكلم لى أزهريا فاضلا ، فعملت بمشورته وحاولت الاتصال بالأزهر جهد طاقتى ، وكان هذا سبب اتصالى بالمرحوم الشيخ محمد عبده .

كل هذه الثورة العقلية حدثت فى قلبى سنة ١٩١٠ أو سنة ١٩٠١ ولا يشعر بى أحد من أهلى وأساتذتى ، كنت أعد القاهرة كعبة العلوم وقلة المعرفة وأننى لابد أن أجنى من ثمارها أكبر نصيب وأن أتفهم تاريخها القديم والحديث وأن أطبق ما أعلم منه على ما أرى ، فكنت أطوف الشوارع والأزقة لأزور المساجد والمعاهد وأتسهم ريح التاريخ من جدرانها الشاهقة وأنخيل بالأمكن حقيقة ما وقع فيها من مآث السنين ، وأعتقد أن للأمكن أرواحا كالأحياء ، وأن هذه الأرواح لا تغادرها .

وبدأت تتنازعنى أهواء شتى ، فاللغة العربية لها جمالها وتاريخها وآدابها ، ولكن الذى لدى منها قشور يعطى على أيدي الأساتذة ، وأمهات الكتب ممنوعة علينا ولو أبيعحت فلا أجد من يرشدنى إليها .

أسمع بالفلسفة العربية ولا أجدها ، وليس بين يدي منها الا تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، وهو يذكر أرسطو وأفلاطون ، ولكن كيف السبيل الى فلسفة أرسطو وأفلاطون ؟

وفلاسفة الافرنج لا أصبح عنهم الا ما يرد عرضا فى المجلات
السورية كاسم سبنسر وأوجست كومت ، ولكن كيف السبيل
اليهما ؟

وأخيرا سمعت باسم ابن رشد فوجدت فى المكتبات الأزهرية
كتابا له أو كتابين مشوهين فى طبعهما ولا تنسيق فيهما وقد ملئت
هوامشهما بكتب أخرى ولم أكن درجت على قراءة الهوامش .

كما أننى فى قراءة البخارى لم أعرف علوم الحديث وسلسلة
الاسناد وتحقيق الرجال ومرامى الأحاديث نفسها ، ومعظم قراءتى
فيه كانت للبركة لا للعلم .

ومجمل القول اننى كنت فى الخامسة عشرة من عمري فى
حيزة تتنازعنى أهواء شتى ، فقد بدأت بقراءة الكتب الانجليزية
وبدأت أفكارى تصبغ بالصبغة الانجليزية وابتدأت ميولى نتجه نحو
الاعجاب بها ، لأن الذى يقرأ أدب أمة أو تاريخها يصاب بالاعجاب
بها وبغرق فى لجة تقليدها .

- ٢ -

تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل - تاريخ محمد لواشنطن أرفنج
- البحث فى أصل ومذهب داروين -
الفزالى ومبدأ الشك لديكارت

كان معنا ثلاثة طلاب أحدهم على فؤاد طلبه وهو مصري ولد فى
سيلان وكان أبواه فى المنفى ، والآخر هندی اسمه عبد الحميد من

جنوب افريقيا ، والثالث جاوى من بطاوى اسمه محمد صالح
عبد الله .

أما عبد الحميد فكان أنبغ الطلاب فى الانجليزية والرياضة ،
وكان يقرأ تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل وأقرضنى اياه فلم
أستطع حل رموزه فاشتريت كتابا آخر وثالثا من تأليف كارليل
(عبادة الأبطال وسارتور ريزارطوس) وكل منهما على طريقة
جديدة انفرد بها هذا الكاتب الفذ ، فصممت على أن أقرأ كتاب
الثورة ولكنى لم أحظ بدرسه الا بعد أن قرأت مؤلفات جورج لينوتر
بالفرنسية ، أما عبادة الأبطال فكان فيه فصلان مهمان عن محمد
صاى الله عليه وسلم وآخر عن نابليون بونابرت قرأتهمما بسهولة ،
وقد شفى غليلى عن محمد كتاب واشنطن ايرفنج الكاتب الأمريكى
وهو أوضح وأنفع من السير العربية التى تجمع ألف قول وقول ثم
يقول مؤلفها « والله أعلم » فيخرج القارئ بغير نتيجة لأن المؤلف
لا يريد أن يتورط بإبداء رأيه فى أصغر المسائل .

أما على فؤاد طلبه ، فيكاد يكون لا يعرف العربية ويتقن
الانجليزية كإنائها ، فبدأ بينى وبين عبد الحميد وطلبة صراع على
الغلبة فى اللغة الانجليزية فعملت جهدى حتى بلغت شأوهما وكان
لى القدح المعلى فى التحرير فى مجلة المدرسة الحديوية بالانجليزية
وفى الخطابة فى أندية المناقشة والمناظرات Debating Club .

أما الطالب الجاوى محمد صالح عبد الله فقد أشعل خيالى
بوصف مسقط رأسه وعرفنى بناحية من العالم كانت مجهولة لدى
وهى الشرق الأقصى وغرائب مخلوقاته ونباته وحيوانه ودخول
الاسلام فيه ووصف مشاهدته ومعابده الوثنية قبل دخول الاسلام
فيه ، وكان يسافر الى وطنه فى كل عام ويراسلنى من بطافيا الى أن
انقطعت عنى أخباره ، ولكن اسمه وصورته مازالا حاضرين فى

ذهنى بسبب خبر غريب نقله الى وهو أن بجاوه قرودة قوية كبيرة تشبه الانسان شبها كبيرا ، وقد بقيت هذه القصص مختزنة فى ذهنى الى أن قرأت بعد ذلك بخمسة عشرة سنة أن الدكتور « ديبوا » الهولندى اكتشف فى جاوه فى سنة ١٨٩٣ هيكل عظيم من العهد السابق للتاريخ ، فجمع مؤتمرا من ستة علماء لفحص هذا الهيكل ، فقال ثلاثة منهم أنه هيكل قرد شديد الشبه بالانسان ، وقال ثلاثة أنه هيكل انسان شديد الشبه جدا بالقرد ، وكان لهذا الاكتشاف ولهذا المؤتمر شأن كبير ، فانه جدد عهدا فى البحوث الخاصة بأصل الانسان ودل العلماء على كثير من الحقائق .

وأرى أن أسجل هنا أن محمد عبد الله الجاوى افادنى أكثر من طلبة وعبد الحميد لأنه غرس بذور البحث عن أصل الانسان فى ذهنى .

وبدأت فى هذه الفترة أسمع عن مذهب داروين وأعى الطعن فيه وأنه مخالف للدين وناقض لقصة آدم وهادم لعقيدة من أهم عقائد الأديان ، فوجدت نسخة قديمة من كتاب « أصل الأنواع » *Origin of Species* لداروين فحصلت عليها ، وهذا الكتاب ينقض قصة التوراة عن خلق آدم . وقرأت بالعربية فى المقتطف ما كان يكتبه الدكتور شبلى شميل وصاحب المقتطف نفسه الدكتور يعقوب صروف ، ثم هجمت على كتاب داروين فوجدت صعوبات هائلة فى أوله ثم لأن وسلس قياده بعد ثلاثين أو أربعين صفحة .

قرأت فيه غير ما يقوله الناس وأن داروين لم يجزم مطلقا بأن أصل الانسان من القرد ، ولكنه يشب قوانين النشوء والارتقاء وهى لا تخالف مشيئة الله بل تؤيد قدرته سبحانه وتعالى .

وكانت مطالعة هذا الكتاب سببا في حصولي على كتاب « تسلسل الانسان » للمؤلف نفسه وهو آية في الايضاح والتبسيط، وعثرت أثناء ذلك على نبذة في مقدمة ابن خلدون تؤيده وهي بنصها الآتي « ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتباعدت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكرة والروية » . انتهى .

فأدهشتني هذه النبذة دهشة عظيمة وأنها سابقة لمؤلفات داروين بمئات السنين ، ويكفي وجودها ليرشد العالم الطبيعي للبحث والتشقيب ، فان فيها تصريحاً لا تلميحا باستعداد المخلوقات بارادة الله للتطور والارتقاء .

ووجدت في ذلك العهد في كتب الغزالي العبارة التالية « لو لم يكن في ذلك الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفي به نفعا ، فان من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحريرة » .

وهذه قبل ديكارت الذي ناحوا عليه بمئات السنين .

وقال الغزالي أيضا « اذا وجدت تناقضا بين العلم والدين فخير لك أن تعتمد الى التأويل من أن ترمى الدين بتهمة الضعف » .

لقد عثرت على هذه النبذة مصادفة فشجعتني وسلحتني بحجة قوية ولم أجار الطاعنين والناقدين ، وكان الشيخ طنطاوى جوهري

فى صفى وقال لى ان النبذة الأولى فى « احياء العلوم » وأن الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله كان يحرم ايمان المقلد ويقول ان أعماله باطلة وغير مقبولة ، ولا بد للمؤمن من فحص ايمانه ودرس كل شىء بنفسه حتى يطمئن .

وذكر لى الشيخ طنطاوى ايضا أن الغزالى عند رده على الآراء المخالفة والمذاهب المعارضة للمذهب — كان يشرحها ويحسنها ويوضحها كأنه يدافع عنها كما فعل فى كتاب مقاصد الفلاسفة حتى ظن الكثير من قرائه أنه منهم — أى من الفلاسفة — وكان يسميهم القدامى .

أعود فأقول انه ليس معنى ما قلت اننى أؤيد مذهب داروين أو أنفيه ، بل أقول ان نسبة هذا المذهب الى داروين وحده ظلم لِمَسابِقه من العلماء الاعلام أمثال لامارك وجوردون وهوكسلى وارنست هيكل ، وكان ظهور كتاب داروين فى وسط القرن التاسع عشر ، ولكن علماء كثيرين قبله قد مهدوا له السبيل ، وقامت فى أمريكا وأوربا الآن حركة قوية لتنقش آرائه تحت تأثير تطور العلوم الطبيعية والفلكية ، ولكن كثرة من العلماء لا تزال تؤيده ، ولا أحب التعرض لهذا النزاع وأحب أن أبقى على ما وصلت اليه بالدرس الطويل ، غير أننى أصرح بأنه مهما كانت عقيدتى فى آراء داروين وأشياعه ، فلم يززع هذا عقيدتى الدينية .

ولكن داروين لم يكن عالما من علماء التشريح ، وقد أقبل على المسألة اقبال عالم بسيكولوجى لا اقبال عالم من علماء التشريح ، وبعد أن قضى سنوات عديدة فى الملاحظة الدقيقة والبحث والمقارنة ، اقتنع أن الفروق بين عقل الانسان وعقل القرد — على كبرها — هى فروق كمية لا فروق نوعية .

ولكن أين الآن مذهب داروين في عالم التشريح وعلم النفس
وعلم تاريخ الانسان ؟

لقد ظهر كتابه « أصل الأنواع » في سنة ١٨٥٩ بعد أن قضى
اثنين وعشرين عاما في الدرس والبحث والتنقيب ، وظهر كتابه
« أصل الأنواع » سنة ١٨٦٨ ، وكان في التشريح عالمة على العلامة
هو كسلى ، فأخذ قوله كلاما مسلما به ، وكان هو كسلى - على
علمه - عدوا لدودا لسير رتشارد أون أكبر علماء التشريح في عصره ،
وريتشارد أون جاء بأدلة يستنبط منها أن تاريخ ظهور الانسان
على الأرض أقدم كثيرا من التاريخ المذكور في التوراة وهو ٤٠٠٠
سنة ، ولكنه صب جام نقمته وامتهانه على الرأي القائل بأن الانسان
ارتقى من أصل قردي ، فصرح بأن الفروق بين القرود والانسان
كبيرة جدا لا يسعه معها الا أن يعين للانسان مقاما خاصا في نظام
المملكة الحيوانية .

وانبرى له هو كسلى بكتاب في سنة ١٨٦٣ « أدلة لاثبات مقام
الانسان في الطبيعة » ، دلل به على أن مقام الانسان في الطبقة
العليا من الحيوانات الثديية المعروفة « بالبريماتيس » ، وأن القردة
الشبيهة بالانسان أقرب الأحياء اليه ، وكان جمهور العلماء يعتقد
أن الانسان خلق خلقا منفصلا .

كنت أقرأ هذا وأسأل نفسي : اذا كانت القردة العليا قد
أنتجت الانسان ، فلم لا تنتج الآن وقد ارتقت بحكم الطبيعة عما
كانت عليه من نصف مليون سنة ؟ ولم لم يظهر بينها مخلوق
واحد - ولو على سبيل الاستثناء - يشبه الانسان ؟ وهل قانون
الارتقاء كان نافذا ثم تعطل ؟ ولم لم يحدث العكس والنقيض على
سبيل الرجعى وهو أن تلد امرأة مخلوقا شبيها بالقرود .

على أن البحوث الجيولوجية لم تمكن أحدا من العلماء من الحصول على الدليل القاطع على أن الانسان نشأ من أصل قردي شبيه بالانسان ، لأنهم لم يعثروا بعد على الحلقة المفقودة أى على أثر انسان فى طور الانتقال من أصل قردي شبيه بالانسان الى شكل انساني ، فكيف نقول ان الانسان فى أثناء نشوئه مر بدور كان يمت فيه بصلة الى القردة ونحن نرى الفروق الكبيرة بين الانسان والقردة فى التركيب والمظهر والتصرف ؟

لقد أسهبت فى هذا الموضوع لأنه شغل بالى فى صغرى أمدا طويلا وقرأت فيه كثيرا من الكتب والبحوث ولا سيما كتاب بوخرن الذى نقله الى العربية شبلى شميل ، وكان المقتطف يجمع فى أعداده بين مقالة فى مذهب داروين وأخرى فى بحوث روحية تثبت خلود الروح ، فكانت الحيرة كبيرة فى أذهان القراء .

وقد وقفت هنا طويلا كما وقفت أثناء دراستى الشخصية فى شبابى ولم أكن اذ ذاك مقيدا كما أنا الآن بعقيدة دينية ، بل كنت أستبيح هدم كل شئ فى سبيل وصولى الى الحقيقة ، والآن - وان كنت مقيدا - فاننى مرتاح الضمير ، ولكن لاحظت أن الناس كانوا يعتقدون خطأ أن الانسان متسلسل من القرد مباشرة ، لأن الحقيقة التى قال بها العلماء هى أن جميع « البريمات » - من لفظ بريمو أى الأول - بما فيها الانسان والقرد نازلة من جد أعلى مفترض الوجود ويطلق عليه اسم ارشبريماس : Archprimas أى الأول الأكبر أوجد البريمات الأول !

والخرق الواسع فى هذه السلسلة هو أن الجدد الأعلى هذا منقرض ومفترض الوجود ولم يعثر عليه هيكله أو جزء من هيكله أحد ولا ينتظر أن يعثر عليه .



بين الانسان والحيوان

لم أحب أن أتنازل عن الأصل الآدمي لأن آدم مخلوق على صورة الله وفيه عنصر روحاني لا شك فيه .

نعم ان الاختبار يدل على أن الانسان في الحضارة أخطأ الحيوان وأقسى من الوحش ، فان أجناس الحيوان لا تعتمد الى هلاك أنفسهم ولا تعمل بأيديها ما يقودها الى حتفها ، وهي على قوتها وشدة ذكاء بعضها لا تفكر في الاجرام وهو خصلة انسانية ، وعند الناس للحيوان أباد مشكورة ، وكل الحيوان النافع للانسان كالأغنام والجمال والأبقار والخيل والحمير والبغال والكلاب الأصيلة لا يأكل اللحم ولا يتذوقه ، ولا يشبه الانسان في نهم اللحم الا الوحوش الضارية ، ومعظم الحيوان والطيور - حتى الثعابين والعقارب - مقيدة بمواعيد معينة للسفاد ، حتى أن أنثى البقر لا تسمح للذكر بقربها أثناء الحمل ، والانسان يفعل ذلك وتشتهي أنثاه ، والحيوان لا يشرب الخمر ولا يقتل أخاه ولا يقامر ولا يسرق قوت رفيقه ، وكلاب الصيد لا تلتهم الأرائب والطيور التي تنالها مخالبتها ولو كانت جائعة ، فلو كان أصل الانسان حيوانيا لكان تشريفا له وانحطاطا للحيوان الذي تسلسل منه مهما كان نوعه !! ولو صبح هذا لكان جده الأعلى مزيجا من الذئب والثعلب وابن آوى والأفعى ، وتقديم قال المعري :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكدت أطيّر !

فعلام هذه المعركة ؟

لا شك عندى أن الأرشبريماس الذى افترضوا وجوده لم يقتل
أخاه ، ولكن قابيل قتل أخاه هابيل لأمر تفه سجلته التوراة وأثبتته
القرآن .

نعم ان الانسان أشرف الكائنات ولكن جميع العلماء يسمونه
الحيوان الناطق أو الحيوان الضاحك أو الحيوان الماشى على اثنتين
(أى قدمين) ولم يخطر ببال عالم أن يسميه الحيوان ذا الروح
العاقل أو النفس الناطقة .

نعم ان الانسان مهبط الوحي الالهى ، ومع هذا فان هناك
اعتبارا مهما وهو أن الذين أوحى لهم من بنى الانسان عدد قليل
جدا بالنسبة الى عدد الناس والى تغلغل تاريخ البشر فى القدم ،
فلو كان مليون سنة - وهو عدل تقدير - فان الوحي الالهى لم
يتجاوز أربعة آلاف عام ، ووحى الله لعيسى لم يصل الى ألفى عام
ووحي الله لمحمد لم يبلغ ألف وأربعمائة عام ، فلو كانت حياة
الانسان على الأرض تشبه النهار ، فان الوحي لم يصل اليها الا عند
الغروب بالنسبة لأهل هذا الزمان .

فعلام هذه المعركة الحامية ؟

هل ترى شروق عالم الحيوان منذ الخليقة الى الآن تصل الى
جزء من ألوف المالاين من شر الانسان وجنائته على النبات - وهو
كائن حي - والحيوان وعلى الانسان نفسه ؟

ولا أحب أن أتعرض لطبيعة الخير والشر ، ولكن أعتبر القتل
شرا والنهب شرا والاعتداء على الأعراض شرا الى أن يتبين لى أن
للقتل والفتك حكمة خافية تقلبه خيرا محضا ، أما الشر المحقق فهو

ما نراه كل يوم من الجرائم المعجزة للشياطين حتى استحق إبليس
أن يعود تلميذا لنسل آدم بعد أن كان فى أول الزمان معلمه
وعدوه !

لو قلنا ان الانسان أشرف الكائنات ، فلا ننس أن الانسان
ليس كله شريفا ولا سلميا ، وأن الكثرة الغالبة تعب الأنبياء
والمرشدون فى تقويمهم وتربيتهم وعجز الوازع الدينى عن
هدايتهم .

لم نر بين طوائف الحيوان قائد قطيع يظلم قطيعه ولا يستبد
به ولا يفسق فيه ولا يأكل قوته ولا يسد عليه طريق الماء ولا يتآمر
عليه ولا يستأثر بمنفعة ، بل رأينا هذا كله وأضعافه فى جنس
الانسان ، ورأينا الانسان يقتل ملكه ومعلمه وأباه وأمه والغريب
عنه طمعا فى دراهم معدودة أو استعجالا لميراث ، ولم نر وحشا هجم
على مروضه الا فى الندرة ، ولا بد أن يسبق انتقامه اعتداء صارخ
وظلم فاضح من الانسان على الحيوان .

انى لا أنكر أننى لست متفائلا بجنس الانسان قاطبة ، فان
الذى وقع على الحيوان من اليد الانسانية أخف بكثير من اعتداء
الانسان على الانسان ولا سيما فى الحروب .

ولا يعتدى الحيوان على الانسان الا مدافعا ، فالصياد الذى
يتسلح وينفق الأموال الطائلة كبعض أمراء مصر المعروفين ليبيد
ثروة مصر فى صيد الفيلة والتماسيح - انما يهاجم الأسد فى عرينه
ويفرق بينه وبين أنشائه وأشبالهما المجرى الشهوة واشباعا لداء
الساديزم (أى التلذذ بالأم الغير) ، فهل لا يستحق هذا الوحش
الانسانى أقل من أن يفتك به الفيل أو يبطش به الأسد أو يغتاله
النمر أو ينقر النسر عينه ؟

ومع هذا وذاك فان الانسان يعيش على لحم أكثر الحيوانات والطير وداعة كالغزلان والحملان والحمام الوديع والديكة الأليفة والارانب المسكينة ، ويستعمل الوحشية فى ذبحها ويتلذذ بلحمها ، مع أنه لم تظهر عدم فائدة التغذية باللحم وحسب، بل ظهر ضررها، ولذا تجد معظم الأطباء ينهاون عنها ويوصون المرضى بالاكثفاء بالخضر والفواكه والألبان وانك لترى أنباع التغذية بالخضر والفاكهة أصح أبدانا وأطول أعمارا وأقدر على العمل من الدمويين الذين يضيفون فى كل يوم ربما وجيفا الى رمثهم وجيفتهم .

لقد أسهبت ، ولكن هذا كان موقفا مهما من مواقف دراستي ولم أتأثر فيه بالمعري الذى بدأت قراءته من صغرى ، فقد كان متشائما وعلى غرارهِ من بعده شوبنهاور ونيشته وهنرى هيته ، وقد ارتحت اليهم جميعا دون أن أتأثر بعقائدهم الدينية ، ولكن نظرهم فى الحياة صحيح وسوء ظنهم بالشر صحيح وحكمهم بسوء طالع الانسان صحيح ، ولا يحسن الظن بالدنيا الا أحق !

ان قالوا ان الدنيا جميلة ، قلت نعم ، ولكن الانسان طمس جمالها ، وان قالوا كريمة قلت نعم ولكن طغى عليها لؤم الانسان ، وان قالوا الحياة لذيدة . نعم ولكن غمرتها آلام الانسان .

ولا أنكر أن الله جعل فى الأرض خليفة وهو آدم ، ولكن هذه الخلافة لم تفهم ولم تدرك ، وربما يأتى الزمن بعد مليون آخر أو مليونين حتى يأتى الخليفة القادر على حكمها . ليس فى القرآن الكريم نص يفيد أن الانسان لم يفسد ولم يسفك الدماء وان كان فيه نص على أنه أعلم من الملائكة ، ومع ذلك فان ظاهر النصوص لم يدلنا على أنه استفاد بعلمه ، فقد عصى بعد أن رأى عاقبة العصيان شى ابليس ، ورأى الله بواسع حكمته أنه غير جدير بعيشة الجنة ،

وليس هذا بمستغرب ، فقد قال الله من الوهلة الأولى « اننى جاعل فى الأرض خليفة » ولم يقل اننى جاعل فى الجنة خليفة ، ثم خلق الله الأسباب التى أدت بآدم الى سقوطه سقطته لم ينهض منها بعد . ولم يشرف الجنس نفسه ولم يحترم أصله الالهى ولم يدرك حقيقته الا عند أفراد قلائل ، فقد أوسع الأنبياء والأولياء والحكماء ظلما وتقتيلا ، وقد نسى كل شئ الا الظلم والاضطهاد والانتقام والحسد وكل الرذائل التى كان خليقا أن يتخلص منها ويتخلى عنها اكراما لأصله الربانى .

فى صغرى التمسست مهربا من هذا العالم ، فلم أجد غير تفكيرى فى أن الكواكب - وهى أكبر من الأرض وأبهى وأبهج - لابد أن تكون مسكونة بأجناس أرقى من هذا الجنس ، وأن الله أكرم وأعظم من أن يشغل ذاته العلية بسكان قشرة هذه الكرة الأرضية دون سواهم ، وكان أهل زمنى يعتقدون أن المريخ أهل بالسكان ، ولعل الدافع لهذه الفكرة كان كدافعى اليها .

ثم أخذ أهل عصرى يفكرون فى فناء العالم وكيف يكون ، فظنوا أنه نتيجة تصادم يقع بين الأرض وبين الكواكب المذنبة أو السيارات الضخمة أو برودة الشمس أو الزلازل ، وطالما استعدوا للقاء يوم القيامة ، ولابد أنهم لم يفكروا فى هذا الفناء الفجائى الا لأنهم سثموا الحياة على ظهر هذا الكوكب ، والا فان من يعيش عيشة هنيئة فى بيت متين الجدران لا يفكر فى أسباب زواله .

ولعلمهم أيضا ضجروا وضجوا من معاصيهم فصدقوا قرب الساعة ، ولكنهم سرعان ما ينقضى اليوم الموعود حتى يعودوا الى

فسوقهم وفسادهم ويغرقوا مخاوفهم في كثوسهم ، وهم لا يدرون حقيقة الكثوس التي تعانها لهم الحياة في أرقى عهود الحضارة !

س ٤ -

من أين وإلى أين ؟

عندما كانت هذه الأفكار نخالجنى ، ولم آكن وصلت الى يمين فى أصل الانسان أردت ان أتتبع نموه العقلى ، ولا يوجد وسيلة لاستقراء هذا النمو الا عن طريق الفلسفة . وأول الفلاسفة أهل اليونان .

نعم كان المصريون أقدم منهم ، ولكن أهل مصر لم يتركوا كتباً فى الفلسفة ولكنهم تركوا كتاب الموتى وهو يشبه خلود الروح وحسابها وثوابها وعقابها .

كان لدى سؤالان لا ثالث لهما فى تلك الفترة :

الأول من أين جاء الانسان ؟

والثانى الى أين يذهب الانسان بعد موته الأرضى ؟

أما الأول فقد تعبت فى تحصيل الجواب عليه ثم طويت كاغده ووضعتة على أحد رفوف عقلى لشدة التناقض بين ما قاله العلم وبين ما قاله الله تعالى ، وكلام الله عندى أصدق ، وقد حاولت التأويل على حد نصيحة الامام الغزالي .

على أنه مهما يكن أصل الانسان ، فقد تجلى الله عليه بروحه
وأوحى إليه وعلمه واختاره وجعله خليفة .

فان كان آدم طينا فقد رفعه الله الى أسمى مكان ، وان كان
حيوانا فقد منحه الروح ونفخ فيه وميزه بالجمال والعقل ، وهذا
العقل أى الدماغ أى المخ الذى هو الفؤاد والقلب والفكر قد خلقه
الله وأعجب به كما جاء فى الحديث القدسى ثم وهبه الانسان ،
ولا ندرى فى أى وقت ولا فى أى تاريخ من الأزل المتناهى فى القدم
كان هذا الخلق السعيد ، ولكن الله خلقه ووهبه .

انك اذا نظرت للانسان - ولا سيما الأنواع الراقية منه -
لا تجد جمالا يعدل جماله فى الذكر والأنثى ، ومهما يكون الحيوان
جميلا فى ذاته فان جماله لا يصل الى جمال الانسان .

ولكن لم أر ولم ير غيرى قردا من « البريمات » يقرب من
الانسان ولا ترتاح العين الى النظر اليه طويلا أو قصيرا ، فالانسان
الجميل هو أجمل المخلوقات وبعبقوله هو أشرف الكائنات ، وان ظهر
فيه الانحطاط فمن فعله وهو سوء الوراثة فى بعض السلالات ، وان
كانت صورة المجتمع دميمة ، فان هناك الأمل الفسيح فى تحسينها ،
وقد باتى فرد واحد من هذا الجنس الانسانى بخيرات نعم ولا تحد
ولا تقاس كما فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ،
فان عشرين عاما من حياة خاتم الأنبياء ملأت العالم نورا وقضت على
أثقال من الشر ، وانها لحياة وجيزة ولكنها عامرة بالسعادة والجمال
والخير .

مكذا الدنيا ، قد تمتلئ بكل الرذائل وألوان البلاء ، ولكن
بين الأحياء فيها عشرة رجال كالذين ذكرت ، هم القابضون على جمال

النجاة وهم قادة قوارب النجاة وهم الذين يقتلون الجراثيم التى تحملها السفينة ، ولا تعدم الدنيا أفرادا امتازوا بالمكارم كآبى بكر فى الصداقة وعمر فى العدل وعلى فى الوفاء وألوف من الشعراء والفلاسفة كسقراط وأفلاطون وهومر والمعري وشوبنهاور والمتنبى وبوذا وجوته وغيرهم من الأطباء والعلماء والأساتذة، فلن يخلو العالم من النفوس الكريمة والصحبة المباركة ، ولن يكون الرجل الصالح وحيدا ولن يشعر بالوحشة ان تعلم الأنس بسيد الخليفة .

نعم انك ترجو وتتمنى أن تشمل السعادة كل ماش على قدميه فى كل بقاع الأرض وحتى يغمر الخبر ذوات الاربع والطيور والزواحف والزرع والضرع ، ولكن ما الحيلة فى هذه الأرض الفاجرة وهذا الدهر الغادر وهذه الدنيا الغرور ؟



نعم اطماننت الى عاقبة الانسان وهى الموت والى بقاء الروح بعد الموت على الصورة التى نقلها لنا النبى محمد ولم يخطر ببالي فهد أننا خلقنا للفناء الأبدى ، وتخيلت فى أول أمرى نظرية بقاء المادة عندما كنت أبرى قلما فأرى أجزاءه تتساقط ثم لا أراها تزول بل ينضم بعضها للأرض وبعضها يبقى على الورق ، وأن مداد الدواة قد يتبخر وقد يبقى فى الطروس ذا معان شتى أكسبتها إياه يد الكاتب وعقله .

نخيل القلم والدواة والكاتب والمكتوب والقرطاس كلها خالدة باقية ، فقدت لنفسى اذا كان القلم والورق والمداد يخلد وتخلد الأفكار التى يملئها العقل وتقيدها اليد ، وهى أشياء قليلة ووضيعة بالنسبة للانسان ، فكيف يفنى الروح وهو أشرف منها جميعا ؟

الست ترى الوالد يخلد فى ولده وتمتد حياة الأب بحياة الابن ؟ ويرسم المصور صورة كالتى نقشها المصرى القديم فتعيتس أربعة آلاف عام وهى من سائل ملون بريشة طير على جدار مموه بالبياض ؟ فكيف بالروح ؟

كان اعتقادى بالثناود مزيجاً من الثميرة والمساهمة ومن الاعتزاز بكرامة الانسان والثقة بالله والشعور بأن الله لا يخلق الانسان عبثاً بعد أن أعده هذا الاعداد وجهزه وأهله بالنطق والعلم والبصيرة والفسيح وجمال الصورة +

لقد كانت هذه أفكارى فى سن المراهقة وهى فى نظرى الآن تستدرجنى للابتسام !

- ٥ -

وراء كتب الفلسفة

كان لابد لى أن أتخذ لى موقفا عقليا حيال العالم وأن أرسم لى خطة أسير عليها .

نعم كنت عاجزا وفقيرا فى العلم وبعيدا عن الكتب ولا أستطيع أن أخرج من تلك المدرسة الضيقة العطن ، الخديوية التجهيزية ، ولم أجد أحدا يأخذ بيدي أثناء هذا التخبط سوى الله ، ولم يكن بين الأساتذة فى القاهرة أحد يعرف الفلسفة أو يدرسها ، وكان

اسمها بغياضا الى الأزهرين ، وكان العهد قريبا بالأفغانى وقد سموه فيلسوفا فكان هذا الاسم مقابلا للثورة والفتنة ، فاتجهت الى دار الكتب الخديوية ، فطلبت قوائم كتب الفلسفة وقرأت أسماء تراجمة العرب وأقبلت على ما فيه منها ذكر أرسطو وسقراط ، وقد دلنى فاندك على كتاب عيون الأنباء وفيه ترجمة حسنة للفلاسفة من اليونان والعرب .

والكتب العربية تكتب عن الفلسفة وراء ستار من الدين ،
وقصد مؤلفيها أن يقدسوا أقوال الفلاسفة ويثبتوا منافاة الفلسفة للعقيدة الاسلامية كما فعل ابن حزم والشهرستاني وغيرهما ، لأنهم لم يدركوا مرامى فلسفة اليونان وكل أقوالهم وردودهم مأخوذة عن مصادر منقولة عن السريانية .

نعم كان هناك كتاب الغزالى وكتب ابن رشد ولا سيما المقاصد والتهافت للأول وجزء من الشرح الصغير لابن رشد . ولكن هذه كلها لم تشف لى غلبلا ، وقد طيب خاطرى ما قرأت فى دائرة المعارف للبستاني لأرسطو وأفلاطون لأن البستاني كان يعرف اللغات الأجنبية ، فأخذت أسأل نفسى عن مؤلفات هذين الحكيمين نفسيهما ، فدلنى مورتز مدير دار الكتب الخديوية على كتاب للفارابى اسمه « الجمع بين الحكيمين أرسطو وأفلاطون » ، وهو الآخر كتاب يحاول مؤلفه رحمه الله التوفيق بين الشريعة والحكمة أى بين الفلسفة والدين الاسلامى لأنه كان تلميذ أرسطو ومسلما ، ولعله ألفه لينجو من الاضطهاد الذى وقع فيه الكثير فى زمنه وقبل زمنه ، وقال لى مورتز ان مؤلفات أرسطو كلها موجودة بالانجليزية والالمانية والفرنسية ولا سبيل اليها الا باتقان هذه اللغات الثلاث .

وكان الشيخ طنطاوى جوهرى يسألنى عن كتب انجليزية فى الفلسفة ، فدفعته له بمؤلفات جون لوبوك (لورد آفهورى) ، ففنع

لأنه معاصر ويتخذ جمال الطبيعة وسعادة الإنسان هدفا له ،
والشيخ كان مشغولا بالتأليف في هذه البحوث وفي بداية سلوكه
في تفسير القرآن ولا أظنه درس شيئا من الفلسفة درسا منظما ،
أي أنه لم يدرس المذاهب الفلسفية بحسب ترتيبها التاريخي وتقصى
بعضها بعضا على مدى الأجيال ، ولم يتخذ نظاما معيناً System ،
لان هذا لم يكن عمله ولا وظيفته ولا اختصاصه ، وكل أمره رحمه
الله أنه كان تلميذا حسنا للغزالي وهو مطمع شريف كريم .

وأخيرا أفضيت بالأمر الى فانديك فقال لي : اسمع يا فلان
أنت تنفك كلية الأمريكان ببيروت ، فالمناهج هناك واسعة ومبسطة
(كذا) ، فاذا نجحت فلعلك تسافر الى أمريكا في بعثة .

ولم يكن الرجل ليعلم أنني لا أستطيع فككا ولا أملك السفر
الى بيروت أو غير بيروت ، ولكنه ظن شوقى يدفعني أو يدفع أهلى
لإتمام بهذه الهجرة فى سبيل العلم .

وقد اتصلت فى تلك الفترة بالمرحوم الشيخ محمد عبده بعد
ان راسلته وتقدمت اليه بالمسائل التى أتبتها المرحوم رشيد رضا
فى الجزء الأول من ترجمة الأستاذ الامام (١) ، وكان الشيخ حديث
بالرد على كتاب ابن رشد الذى نقله فرح انطون ملخصا عن
أرسطو رينان ، ومدار البحث فيه عن اتساع صدر الاسلام للفلسفة
وفلسفته فى ذلك على الدين المسيحي الذى اضطهد ذويه الفلاسفة
وكفروهم وعذبوهم وأحرقوا بعضهم ، ولكن هذا الكتاب لم يتناول
شئ من فلسفة ابن رشد ومهظم البحث فيه تاريخي وتسجيل
للمناهج الاسلام مع الحكماء ، حتى ان عقاب ابن رشد لم يتهد نفيه

(١) انظر صفحة ٢٩٤ من هذه المذكرات .

الى احدى مدن الأندلس ثم عفى عنه وعاد الى مكانته . وأين هذا من
محاكم التفتيش وخلع أوصال الفلاسفة في عواصم أوربا ، والقاء
العلماء من حالق في رومة واحراق الحكماء الذين نسب اليهم السحر
الحرام ... الخ .

ومى نهاية الأمر لم يكن هذا كله من عابثى فى شىء ، فقد كان
القصى ما وصل اليه حكيم قرطبة شرح كتب أرسطو شروحا تختلف
طولا وقصرا واسهابا واجازا ، ولم يحدد ولم يبد رأيا شخصيا
خاصا به ولم يفعل أكثر من نقل خلاصة أرسطو ، ولكنه كان يفهمه
فهما جيدا ، وقد استوفيت هذا البحث فى كتابى « تاريخ فلاسفة
الإسلام » سنة ١٩٢٧ .

وقد أدهشنى أن العرب لم يكتزنوا بأفلاطون أكثر انهم لأرسطو
وفد سموه المعلم الأول وسموا الفارابى المعلم الثانى لأنه أول من
نهله وشرحه .

وقد استعجبت العرب بسد ذلك بسنوات وهو أن أفلاطون واسمه
الحكيم الإلهى كان يعتقد بالله وملكوت السموات وخلود الروح
والعقاب ، وهذه كلها تؤيد الأديان وتنبئها وتكاد تنطوى
على العقيدة الإسلامية ، وفيها مغل على عالم السر الذى لم يبحوا
به وانب من التصوف وما وراء الطبيعة وعلم النفس وعلم الغيب ،
وكانت روح العرب الذين اشتغلوا بالفلسفة اليونانية روح مبارضة
واسماتل وتزوع الى المعارضات تقايما لعلماء الكلام الذين أصبح
أدبهم في الأندلس طرازا قديما ومجلة غير خائفة بأن تحدثنى .

واذا كانت الفلسفة القديمة كلها يشتملها أفلاطون لا تكاد تختلف
عن الإسلام فى شىء . نهما حاشيتهم اليها ؟ .

لهذا اتجهوا الى أرسطو اقتداء بالكندى والفارابى وابن سينا
فى الشرق ، وكان أرسطو لا يؤمن بشىء ، لا باله ولا بالعالم الآخر
ولا بالجنة والنار ، بل حصر جهوده فيما يراه من حياة الكون الظاهرة
وجمع العلوم وقسمها ووضع قواعد المنطق والجدل والخطابة والشعر
والأخلاق وفرق بين الفضيلة والرذيلة ، وخالف أستاذه أفلاطون فى
كل شىء ، وكان عقله جبارا فلم يشغله تاريخ بلاده كما شغل
غيره ، وكان أول من بحث فيما وراء الطبيعة ، فكان هذا كله جديدا
على المفكرين فى الاسلام ، ففرحوا به وانتحلوه ، ولكنهم للأسف
الشديد لم يحاولوا تعلم اللغة الاغريقية القديمة وتركوا طلبها
لتراجمة النصارى أمثال حنين وزكريا ويحيى ويوحنا ، وهؤلاء نقارا
الكتب الى السريانية ، لكن ابن رشد تحرى الحق ما أمكنه وتوصل
الى اللباب ما استطاع .

- ٦ -

دراسة الفلسفة بين الكلية الأمريكية ببيروت وكلية الآداب بليون -
سقراط - المهرى - عمر الخيسام - سعادى الشيرازى - مائدة
أفلاطون - تاريخ فلاسفة الاسلام - ابن خلدون - سبنسر

وفى سنة ١٩٠٣ نزلت مرغما الى بلاد الشام وقصدت الى
بيروت حيث الكلية الأمريكية وكان على نظارتها « هوارد بليس »
ومن أساتذتها المرحوم جبر ضومط ، وفى برامجها كثير من الفلسفة
والعلوم والتاريخ ، فاقتنيت ما سمعنى اقتناؤه من الكتب وصحبت
الأساتذة والطلاب وقرأت للمرة الأولى بعض كتب الفلسفة فى اللغة
الانجليزية ، وعرفت الفرق الكبير بين المدارس المصرية والمعاهد

الأجنبية ، وحصلت على مراجع مهمة واستنطبت الدرس على شاطئ البحر حيث كانت الكلية الأمريكية على هضبة صخرية اسمها رأس بيروت ، واتخذت كراسات لتدوين العلوم وتنسيقها وتدوين أسئلة والأجوبة عليها التي كنت قد استنطبتها من دروس الأساتذة أو نصوص الكتب .

وكنيت خالي الذهن من تسلسل البحوث الفلسفية والفكر الفلسفي على مدى العصور ولا أرى الا اسمين أو ثلاثة أسماء لامعة في تاريخ الفكر البشري وهي أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان سقراط في نظري بمثابة نبي مرسل لم يرد اسمه في الكتب المنزلة ، وكانت حياته التي انتهت بالاستشهاد والسجن والقتل مثالا لحياة الأنبياء الذين اضطهدوا وعذبوا ، وقد أفلح في تكوين رجال أولهم أفلاطون وفي محاربة الباطل ونصرة العدل وتأسيس المثل الأعلى في حياة الرجل المتصوف والحكيم الزاهد الذي لا يمنعه تصوفه وزهده عن حمل عبء الحياة العامة ، فلا ينجو من الحسد والحقد عليه والانتقام منه بمحاكمة صورية قضائها فساق المدنية وأشرارها ، وقد أبى طوال حياته أن يكون مؤلفا على سعة علمه وفسحة آفاق تفكيره والهامة ، فاكتفى بتخريج الرجال وتلقين الشباب أصح المبادئ ولا سيما تلميذه المقدم أفلاطون الالهي .

وكان سقراط ذا عقيدة حسنة ويعتقد بوجود الإله للكون وخضوع الكون لنظم ثابتة وقوانين لا تتزعزع ، وهو أول من لفت الانسان الى النظر في باطنه بقوله « اعرف نفسك بنفسك » .

وفي الصيف انتقلت الى ربوع لبنان وواصلت الدرس على ضفاف الأنهار ومنابع المياه وظلال الأشجار الباسقة ، ولقيت كثيرا من الرجال فوجدت من أهل لبنان عقولا ناضجة وأخلاقا قوية وألسنة

مستقيمة وطباعا حسنة وصديرا على البحث والدرس وديلا الى الجد
واحتقار المزاح ، وقد جعل كل منهم مبدءا لنفسه وخلافة قديمة لا يجيد
عنها . فاستنفدت كثيرا من أخلاق هؤلاء الرجال ومبادئهم ، وقد رأيت
أن الزمن الذى قضيته فى هذه الربوع على قصره كان أبرك من
سنوات طويلة قضيتها فى مصر .

ولما عدت من بلاد الشام ، كنت مستعدا بطائفة من الكتب
التي حملتها من هذه البلاد ، فكانت لى مددا أو معونة ودليلا فيما تلى
من الزمن .

وفد عرفت الفرق بين التعليم فى البلاد التى يقوم على شئونها
حاكم حسن النية وان يكن مستبد ، والأخرى التى يتظاهر حاكمها
بحب الحرية وفى قلبه ألد الخصام ، وعلمت لم وقعت الحكومة
المصرية فى وجه التعليم باللغة العربية ولم عارض الأقوياء فى تأسيس
الجامعة المصرية واكتفوا بتشجيع الكتائب بحجة مقاومة الأمية ،
وان سوريا التى كان يحكمها سلطان مطلق كسيد الحميد قد نال
أبناؤها نعمة التعليم الغربى على أيدي الأمر بكان والمستشرقين ،
بما كان دجلاس دنلوب يتحكم فى وزارة المعارف المصرية ويحارب
الامية ويختصر سنوات التعليم الثانوى ويقاوم تعليم البنات ويرقى
السفلة من الموظفين الى أرقى المناصب فى وزارته ويستعملهم معبرين
في حاسب عام ، بعضهم بعضا وعلى النظار والأساتذة وحتى التلاميذ
أن يتعجوا من التعجس .

وسألت شىء بعد الشام أن العوى لم يكن فيا موفيا ولا متكديا
وانما كان شاعرا متروما بالقيامة وزلزالا فى نعيمها رقد صبيها بلون
الدم لا بسبب عاهته ولكن بسبب مزاجه وفطرته المضادة للتناسل
والحياة . ولكننى ماؤلت احتومه وأعجب بتفكيره وهو لا يزيد

نى دواهبه عن أن يكون صانعا ماهرا وصائفا حاذقا للألفاظ ، ولا أنازع فى صفته الصوفية واتساع أفق تفكيره وحذقه فى وصف مكاره الحياة وتنفير ذوى العقول منها ، وما تزال صحبتي وإياه مقيمة حتى أنى لأقرأ اللزوميات بجزءها فى ليلة واحدة ورسالة الغفران كذلك فى جلسة واحدة ، وقد طربت عندما علمت أنهم شادوا له قبرا وألحقوا به مكتبة وجعلوا من ضريح شيوخ المعرة مزارا ومحجة .

وفى هذه الفترة تعرفت الى **عمر الخيام الشاعِر الصوفى الفارسي** ، وللأسف قرأته بالانجليزية لا بالفارسية ، وكان أيضا يدعى **فياسوفا** ولكنه شاعر حكيم متشائم ينادى بالفناء والشبور وعظائم الأمور ويفتن بكل ما يدل على فراغ العالم من الملذات الدائسة وينعنى على الملوك عروشهم وسلطانهم ، وعلى الأغنياء أموالهم ونسبهم ، وعلى الشباب أفراحهم مادام مآل هذه كلها الى التراب !

وقد ساهم **المرى والخيام** فى تكوين تفكيرى الجبال للزهادة والنفوس على التفاضل الذى كنت أحلم به ، فلهما الشكر لتنبهى الى مكاره الحساسة والنظر الى وجهها الحقيقى من وراء سبعة براقع للنفاس !

ولكن أين هذا من الفلسفة ؟ . لقد نجح **شوبنهاور** فى سبك مذبح فلسفى متين أساسه حكمة **المعى والخيام** ، إن فى شخص الشرق وحكمة الشرق أهمية للنظام الفلسفية ، ولكنهم عاجزون عن استنهاج رجاها فترفعهم الى شجرة الفلسفة ، وقد يتقنون العلم التجريبي والرياضيات العليا والفلك والهندسة والأدب الرفيع وبعض الفنون الجميلة كالموسيقى والبناء ، ولكنهم عاجزون عن وضع نظام فلسفى محكم كما صنع **أرسطو** و**داكن** و**ديكارت** و**سبينوزا** و**سبنسر** ، وقد

أنتجت أمريكا - على ركافة تفكيرها وانشغالها بالمال - فيلسوفا واحدا وهو ويليم جيمس ، ولكن العرب عجزوا عن انتاج مثله في كل القرون التي تلت ظهور الاسلام .

نعم كان ابن خلدون عالما اجتماعيا وباحثا لا يجارى سبق أهل أوروبا في علم الاجتماع والتشريع وتاريخ الحضارات وتحليل نفسيات الشعوب ، ولكن ابن خلدون كان فذا وقد نجح في مقدمته وفشل في تاريخه .

وقد شاءت الأقدار والمصادفات الحسنة أنني نقلت إلى العربية « جولستان » أو روضة الورد لـسـمـيـة الشيرازي وهو كتاب في التصوف ، ودلني حبي لهذا الكتاب واختياري إياه على ميلى الفطرى للتصوف واعجابى بفكرة التأمل فى الحياة والبحث فى الالهيات .

وكنت اذا عثرت على فكرة كهذه أستقصيها وأتبعها إلى نهايتها ، فأننى سمعت باسم القشيري من الشيخ طنطاوى جوهرى ، وباسم محيى الدين بن عربى منه أيضا ومن صديقى المرحوم محمد عبد الوهاب المحامى الذى لم أجد أحدا مثله يمعن النظر فى مؤلفات الشيخ الأكبر ولا سيما فصوص الحكمة وهو الذى دلنى على الفتوحات المكية قبل أن أسافر إلى أوروبا ، وقبل هذه الهجرة الثانية كنت أظن جان جاك روسو فيلسوفا وفولتير فيلسوفا وفيكتر هيجو فيلسوفا وجوته فيلسوفا وشكسبير فيلسوفا وفرنسيس باكون فيلسوفا ولا أعرف شيئا عن ديكارت ومالبرانش وهيغل وسبينوزا وأوجست كومت وبرجسون ما عدا سبنسر الذى كان يشيد بذكره أحباب الانجليز فى مصر لانجليزيتة لا لفلسفته !

فلما بلغت لندن فى سنة ١٩٠٥ أو سنة ١٩٠٦ اشتريت كتب الفلاسفة وغيرهم ممن كنت أحسبهم فلاسفة ، وكان على أن أفرق بين الفريقين .

ولما أراد الله بى خيرا ونزعت نزعا من برائن مدرسة الحقوق
 الخديوية وقصصت الى فرنسسا - على ما ذكرت آنفا فى هذه
 المذكرات - كان أول همى تعلم اللغة الفرنسية وشغل وقتى الخالى
 من طلب الحقوق فى كلية الآداب بليون ، وكان أول من لقيت فيها
 الأستاذ جوبلو أستاذ المذقة ، وقد صار الآن عمدة ومرجعا وعلمنا
 ولا سيما بعد تأليف كتابه فى المنطق ، فتلقانى الرجل الفاضل
 بصدر رحب وتعهدينى وصاحبى المرحوم على فوزى الذى توفى فى
 مقتبل العمر فى سنة ١٩١٤ بعد اشتغاله عاما واحدا بالمحاماة ،
 وكان الأستاذ جوبلو يجلس فى صومعة تكاد تكون لضيقها محرابا ،
 ولما أعربت له عن رغبتى ، صرفنى عن أرسطو وأفلاطون وقال لى
 تقرأهما فى أوقات الفراغ ، أما الآن فهليك بكتاب « الطريقة »
 لديكارت ، فهذه بداية الفلسفة الحديثة ، ولم يبق لأرسطو من اتباع
 فى أوروبا .

فأخذت برأيه وحضرنا دروسه وقرأت عليه « الطريقة » كلها
 وحضرت دروس المنطق التى كان يلقيها على فئة قليلة من
 الطلاب .

كان جوبلو رجلا متواضعا كريم الأخلاق ، حلينا ، محبا
 لتلاميذه ، وقد استمرت صلتى به ثلاث سنوات ، وكان فى تلك
 الأثناء يؤلف كتابه فى المنطق وقد نشره بعد الحرب العالمية الأولى .

ولا أنس فضل الأستاذ « سانتيلانا » فى الفلسفة اليونانية ،
 وان الذى بقى فى ذهنى من دروسه قد أودعت معظمه فى « مائة
 أفلاطون » التى نقلتها الى العربية قبل سفرى الى أوروبا فى سنة
 ١٩٠٧ ، وجعلته بمثابة مقدمة مطولة للمائدة .

وكان يحز في قلبي أن العرب يخرجون بلا انتساج من هذه
المدرسة الفكرية الموهلة ، فدأبت على وضع « تاريخ فلاسفة الاسلام » ،
وبين نشر مائدة أفلاطون سنة ١٩١٢ وتاريخ الفلاسفة سنة ١٩٢٧ ،
خمس عشرة سنة قرأت خلالها فلسفة الفرنسيين ديكارت واربينس
كرمت والانجليز لوك وهيوم وبنام وسبينس والامان يجعل وسانج
وشليجل والامان الحداثيين شوبنهاور ونييتشه وكلاهما نثر بأفكار
جوته ، وقرأت الهولندي سبينوزا ودرست كتب روسو وفولنيير
والجانب الفلسفي من هيجو (الله والشاعر وأساطير القرون) وهو
مفكر واسع الخيال كثير الكلام ولديه معين لا ينضب من الألفاظ
والأوزان والقوافي ولا يسمى فيلسوفا ، ولكنه نثر وقصص بارع
وهو يحب للعدل في وطنه وفي سائر الأوطان .

ولم ألق عنتا أكثر من الذي لقيت في الفلسفة الانجليزية ،
فانها ثقيلة معقدة وجافة باردة ، ولكنها لا تخلو من الفائدة ،
فان سبينس لم يجعل نفسه قادرا على أن يقول ما يريد في أقل من
أربعين مجلدا ضخما اتبع فيها نظاما محكما ولكنه منهاك مضى
لقارئه ، وقد اتبع الطريقة القديمة في جعل الفلسفة أقساما تحكيمية
كعلم الاجتماع وعلم النفس والحيوان والنبات ونظم الحكم والخير
والشر والجمال والعقائد الدينية ، وله هوامش وماحققات يفني
الشباب ولا تقنى ، ولكن كان لابد لي أن أقرأه لأنه الفيلسوف
الانجليزى الوحيد في القرن التاسع عشر ، فكيف نعرف نفسية
الحاكمين لنا المحتلين لوطننا دون أن نعرف آراء فيلسوفهم ؟

ويجب على أن أسجل بالثنا والفخر لهذا الرجل أنه كان
ناظما على نظام التسليم البريطاني وعلى الاستعمار والمظالم وعلى
الأنانية وحب الذات والاستئثار والمظالم الطبقات ، فابنا جلدته لم
يكونوا يمثلونه في وقت من الأوقات ، وكفى على ذلك دليلا انهم

لم يلتفتوا اليه، ولم يجروا عليه رزقا ولم يعينوه على طبع كتبه ولم يندقوا عليه عشر معشار ما أغدقوا على ممثل ماهر أو راقصة لسوب ! .

تصور أنه عاش ومات منبوذا من أهل وطنه الذين ما فتنوا يفتخرون به ويباهون به الأمم وهو يتصور ويتحرق . ولكنه مات ميتة الأسد الجريح ، لم يشك ولم يئن ولم يتألم !

والعجب الساجب أنه لم يكن له بين لانجليز سريا، واحد . بل كان تلميذه ومريده شيئا مدجى كرشنا فارما وهو الوحيد الذى خطب على قبره ، وهو الوحيد الذى وهب من ماله مبلغا كبيرا لتأسيس كرسى لتدريس فلسفة سبنسر فى جامعة اكسفورد ، لأن حياة الرجل انتقضت ولم تدخل مذاهبه فى كليات هذه الجامعة أو سواها !

ولم تنقض على هذه « الوقفية » الفلسفية خمس سنوات حتى نفت الحكومة الانجليزية ذلك الواقف الكريم شياما دجى كرشنا فارما بتهمة سياسية بعد أن هدمت « بيت الهند » **Indian House** الذى شاده وجعله ملجأ لفقراء الطلاب الهنود ، ثم حكمت الانجليز أنفسهم على فيلسوفهم بأن مبادئه أصبحت عتيقة بالية لا تصلح لهذا الزمن !

ومن العجيب أيضا أن هذا الرجل عاصر ملكين كبيرين بل امبراطورين فخمين هما الملكة فيكتوريا والملك ادوار السابع ، وكان هذان الملكان يستقبلان الكتاب الهزليين القادمين من أمريكا أمثال مارك توين ويخضران تمثيل سسارة برنار وكوكلان ويدعواهم الى ولائم القصر ويبدلان المسال للمهرجين والراقصين ويهبانهم ألقاب الفروسية (سير) ، فجعلنا سير هنرى ارفنج وسير بيربوههم وسير

جورج الكسندر ، وحتى السيئات وهبن لقب « لادى » ومنجن
أوسمة الشرف ، وقد عاش سينسر ومات ولم نعلم انه دعى للقصر
أو قلده نيشانا أو أجرى عليه رزق كثير أو قليل .

ولو أننا نقارن بين ملوك هذا الزمان في الشرق والغرب ، وبين
ما كان يفعله خلفاء المسلمين في بغداد والقاهرة ودمشق ، لا يسمنا
إلا الثناء على المسبلة الشلفاء والأمراء من الكهويين والهابسين
والفاطميين والأنبياسيين الذين فتحو قصورهم للكتاب والحكمة
والأدباء والشعراء وأغدقوا عليهم الأموال تكريما للعلم وتشجيعا
للحكمة ، حتى الملك المجنون منهم وهو الحاكم بأمر الله الفاطمى
أسس في القاهرة دار الحكمة وجعلها موثلا للعلماء وأجرى عليهم
الأرزاق وضمن لهم الكتب والورق والأقلام والمحابر ، وأكرم ابن
الهيثم الذى استدعاه من بغداد لينظر له فى مشروع خزان أسوان ،
فلما فشل ابن الهيثم لم يقطعه ولم يعرض عنه بل زاد فى إكرامه ،
وكان ابن رشد والفارابى وابن سينا جلساء الملوك ووزراءهم
وأصدقاءهم وموضع احترامهم وتمجيدهم .

أما ملوك هذا الزمان ، فهمم البحث عن فائنة أو فينة حسنة
تتقن الثوب والقفر وتحسن الغناء ، أو مهرج يضحكهم فيقلدونه
الأوسمة ، وإن صورة العصر الحديث تكون ناقصة إن لم يكونوا
هكذا !!

(٧)

حب الحكمة

ما الفلسفة ؟ وما غرضها ؟

فى أثناء هذه السنوات الخمس عشرة (من سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٧) جمعت مكتبة حسنة فى الفلسفة ، وكان من أحب المؤلفين الى شوبنهاور ونيتشه ، وقد أدهشنى الأول بشدة ذكائه ودقة فهمه واختراق فطنته لمعضلات المسائل ، وأزعجنى الثانى بجرأته حتى انك لتظن حيناً أنه مختل التوازن ، وان يكن قضى نحبه بعد فقد عقله حيناً ، الا أن جميع مؤلفاته تمت وهو سليم الادراك ولم يلحقه الداء الا بعد كتابه *Ecco Homo* .

وقد امتاز هذان الفيلسوفان باحتقار شعبيهما وازدراؤه والسخرية من فلاسفة الاشكال والالفاظ أمثال هيجل وشليجل .

وهكذا يكون كل فيلسوف سابقاً لزمته .

ولكن فى ظنى من سنبنسر أنه كان محافظاً وملازماً صيغ الأدب فى أمة لا تعرف غير الشلل والجنيه والبنس ! ، فكان الرجل الطيب كلما رأى أمورا لا توافقه بل تثير ضميره يلجأ الى طريقة الخطاب المفتوح فى جريدة التيمس وهى متبهرج ، وقد اعتقد أن المجتمع كائن حى يشبه الانسان ، ولكنه خار فى تعريف الحياة بعد أن عقد لها فصلين من مؤلفه فى « مبادئ البيولوجيا » استعرض فيهما كل ما تقدم به العلماء فى التعريف ، واقترح تعريفاً جديداً ، ولكنه اضطر فى نهاية الأمر أن يعترف بأنه لم يجد تعريفاً يشمل كل

ما هو معلوم فى مظاهر الأجسام الحية ويخرج ما هو معلوم من مظاهر الأجسام غير الحية ، وعكف أيضا على الوراثة وجعل لها قيمتها العلمية لأنه أراد أن يحارى داروين فى مذهب النشوء والارتقاء وجعله شاملا لحياة الجماعة كما هو ثابت فى الطبيعة .

واننى أتساءل ما بال سبنسر بالبيولوجيا فى القرن العشرين ولها أساتذة متخصصون يدرسونها فى كليات الطب ؟

فى نظرى أن هذا لا دخل له فى الفلسفة ، الفلسفة فى نظرى علم النفس وما وراء الطبيعة أى دراسة الانسان ودراسة الالهيات ، أما علم النفس العملى أو التجريبي فلا أعيره اهتماما ، وخير من كتب فى هذا العصر الحديث برجسون الفرنسى ولا سيما فى آخر كتبه « النبعان للدين والفضيلة » *Les Deux Sources* .

ففرض الفلسفة فى نظرى الضعيف هو البحث فى أصل الانسان وفى نهايته ، أى موره ومصدره . أما حياته فى هذا العالم ، فهى من اختصاص الأطباء ورجال القانون والمهندسين وعلماء التعليم والاقتصاد ورجال الدين وليست من اختصاص الفلاسفة .

كان فرنسيس باكون الانجليزى رجلا عمليا ، ألف كتابا سماه « تقدم العلم » بحث فيه عن الأساليب التى تتقدم بها المعارف وعن كيفية جعلها مفيدة لنوع الانسان وارتقاء العمران حتى يهتم بهذا الناس كما يهتم رجال العلم أنفسهم ، ولذا نرى الذين يدرسون الفلسفة الانجليزية يتجهون الى فلسفة « أبيقور » كما فعل جيو Guyau ، وترى بين أبيقور وبنطام آصرة قرابة عقلية ونسب ذهنى ، ولكن الفلسفة الصحيحة بعيدة عن فكرة المنفعة ، والمنفعة بعيدة عن الله وعن الخير والشر ، وهذه أخص مسائل الفلسفة .

ان حب الحكمة نعمة يمنحها الله ، وهو حيرة طويلة اليمه ،
ولكنها همزوجة باللدّة ، وفيها تفتح الدهن ونمو المواهب ورغبة
الوصول الى الحقيقة ، وعلى محب الحكمة أن يكون منتبها دائما
مستعدا لسماع صوت الطبيعة ولو كان ركزا ، ورؤية اشارتها
ولو خفيت عن الأبصار ، وأن يكون شجاعا صبورا .

واتباع الحكمة يخفف أعباء الحياة ويحبب الحكيم فى الانسانية
ويصحح موقفه .

ولكن لم تجمع الآراء على نظام معين يتبع فى الفلسفة حتى يكاد
يكون لكل فيلسوف مدرسة وأتباع الأتباع يتفرعون عن الأصل
كأغصان الشجرة الواحدة ، ومن الصعب على الناظر أن يجمع بين
شذات الفلسفة الهندية وبين فلسفة أوجست كومت ، أو بين آراء
سبينسر وخطته وبين شوبنهاور ، ولكن كلا منهم يعد فيلسوفا كالسائر
فى أحد شوارع مدينة كبيرة يقصد الى معبدها أو ديوان حكمها الذى
بنوه على القمة وجعلوا جميع الطرق موصلة اليه ، ولا أدري كيف
يعيش الانسان بغير الشير الطويل - ولو كان مضنيا - فى شوارع
تلك المدينة ، ولكن أعلم أن من كل عشرة آلاف رجل لا يخطر بنفسه
سوى رجل واحد فى تلك السبيل الوعرة الملتوية التى تتسع حيناً
وتضيق أحيانا ويسودها الظلام الحالك كأنها نفق حالك السواد
لولا أشعة من الأمل ونور الله تشجع الباحث وتدفعه الى الأمام .



(٨)

الفيلسوف

التعلق بتراجم الرجال - حب الخير والحق والعدل والجمال وحب
الانسانية - عدم انطواء الفيلسوف - موهبة حب الحكمة - المال
والشهرة والشهوات - قوة العقل والارادة عند الفيلسوف - اعتزاز
الفيلسوف بشخصيته

درجت منذ نشأتى شديد التعلق بمعرفة الرجال ، ولا يكفينى
قراءة كتبهم ، فاذا وقفت على طرف من ترجمة بطل أو كاتب أو
شاعر ، أصبحت مشغولاً بتقصي أخباره وتطبيق حياته على أعماله ،
ومحاولة التعرف على شخصه من عمله وعلى عمله من حياته لاعتقادي
أن لكل انسان - وربما أرباب المواهب - شخصيتين أو ثلاث
شخصيات ، وما أزال أتذكر أن الجانب الشخصى من حياة أرسطو
طاليس وحياة أستاذه أفلاطون يستهوينى ، وكنت أشعر بغيظ عندما
لا أجد من تفصيل تراجم علماء الشرق وأدبائه ومفكره ما أجد عن
أهل الغرب من قديم الزمان .

وكنت طوال حياتى مشغولاً بالفلسفة والفلاسفة ، شديد
المواظبة على القراءة ، عظيم المسرة كلما اشتغلت بها ، فلا أجد
معاناة ولا تعباً ، ولا أشعر بانقضاء الزمن مهما طال مادمت مكبا على
كتاب من كتبها . وكلما وردت مكتبة عامة أو خاصة ، كان أول
همى أن أبحث عن الكتب التى تبحث فيها ، ثم ألتمس التهاما كل
ما له علاقة بموضوعاتها ، حتى أن قلبى ليسرع فى دقه كلما لمحت
بين الأسطر كلمة فيلسوف أو فلسفة !! . لم تكن حماسة بل كان
تهيجا ملحوظا فى نفسى وانفعالا يحدث لى كلما لمحت هذه الكلمة ،
ثم لا أجد صعوبة فى الفهم لشدة الشوق ، ولكنى أجد طربا ونشوة
كلما صادفت فكرة توافق تفكيرى أو سبق أن عرضت لى بغير قراءة .

ولم يخير ببالي قط أن أكون فيلسوفا ، ولكن قلت إن كنت معاصرا لواحد من هؤلاء ، لكنت أطوع تلاميذه وأشدهم تعلقا به .
ولم أشعر قط بحاجة إلى الجفيف أو التدوين ، لأنني أشعر بقوة الذاكرة والقدرة على الاحتفاظ بكل ما أطلعته في هذه الكتب والرغبة السريعة في الإدراك والفهم .

ويجذبني إلى هؤلاء الرجال حبهم الخير والحق والعدل والانسانية ، لأن حب الحكمة - وهو خصلتهم الأولى - تدعوهم إلى ذلك ، ويعزيني - إن لم أكن فيلسوفا - فقد أشاركهم في حب الحق والعدل والانسانية والخير وأبغض أصدادها وأمقت كل من يحب الباطل والظلم ويدافع عنهما وينتصر لهما .

وخلة أخرى وهي حب الجمال ، فقد كان ديدني حتى أصبحت أتشبع أشهر التصاوير والتماثيل في متاحف أوربا وأرى الجمال جزءا مكبلا للعقل ، وما شهدت أجمل من شواطئ اليونان ووادي الأرنو ومدينة فلورنسا وضواحيها ، ولا أتخيل فيلسوفا ينشأ في وسط دميم أو يقيم في مكان واحد بصبر طويل غير سقراط .

وأدركت أن حب الجمال والخير وانطباع النفس عليهما جزء من الفلسفة ، وإن يكن الجاهل عميا عن العلاقة بين الجمال الظاهر وسمو العقل ، وكذلك لا يسع الفيلسوف إلا أن يكون محبا للجمال وشديد التأثير به كما أنه شديد التأثير بالانسجام ، ولذا يجب للموسيقي والغناء والرقص الفني والتمثيل وسائر الفنون الجميلة ويجعلها مع حب الجمال والخير جزءا من نظامه الفلسفي ، وقد أذن اخوان الصفا للحكيم أن يستمتع بهؤلاء جميعا لأنها تابعة لنظام حركة الكواكب والأجرام السماوية التي لها في حركتها ودورتها أصوات مطربة يسمعونها الموهوبون والذين لا تحجب جواسهم موانع من المادة !

والفيلسوف وإن لم يكن شاعرا ، فإن فيه مواهب الشعراء ودقة احساسهم وتلبية أنفسهم لنداء الجمال في جميع صوره وأشكاله وأوضاعه ، حتى أنهم ليروا الجمال في الجمار والمبعض والنبات والحيوان كما يرونه في الانسان ، وفهمت أن الفلاسفة ان لم يكونوا مطبوعين على تلك الصفات ، لا يستطيعون أن يدركوا جمال الكون والخليقة وجمال الحق وجمال العدل وجمال المعاني وجمال الترتيب الرباني وسائر أنواع الجمال المعنوي . فمن لم يكن محبا للجمال ومجذوبا اليه لا يكون فيلسوفا ، لأن الحكمة جميلة فلا يحبها الا اذا رأى جمالها . وقد يهفو الفيلسوف ويخدع ويغر بنوع من الجمال ، ولكن الأعذار له ملتزمة وحسن التعليل منه مقبول .

ولا ينبغي أن يكون الفيلسوف منطويا على نفسه ، مبالغا في الوقار والوحدة مثل ايمانويل كانط أو سبينوزا ، ولا غابسا مقطبا حزينا مثل نيتشه ، ولا ضيق العطن حرج الصادر مثل كارليل والمغري ، ولئن كان مزجا طروبا - كما كان ديكارت وسقراط وأفلاطون - فهو خير .

ولا يكون الفيلسوف ضيقا محدودا الا اذا كان مريضا ، فالمرضى يغلب توازن الأمزجة ، وإن يكن لا يحرم العقل من مواهبه ، فإن الفيلسوف مخلوق من شيتين مختلفين في الظاهر ، عقله المركب تركيبا خاصا كمية ونوعا ، ومزاجه الفطري ، فإن ساد التوفيق بينهما كان الفيلسوف عظيما حقا كما اتفق لأبيقور وبرجسون وهيجل ، والا فنصيب العالم من الفيلسوف بقدر قوة عقله واعتدال مزاجه وقوة بنيته التي تسمح له بالعمل الطويل المضني ، فإنه لابد له من الصبر الطويل والجهود المتواصلة حتى يفهم مسألة ، ويلزمه أن يتلقى الإلهام قائما أو قاعدا أو راقدًا على جنبه ، فإن كثيرا من الفكر الفلسفي يأتي على صورة الخواطر التي تشرق عليه

كأشعة نادرة أو شرر متوالى الاشتعال ينقذح متتابعا لعين عقله وحتى يكاد يشعر به ، فهو أبدا متيقظ كالصائد المترقب ، وبدلا من أن يكون الصيد غنيمة ، فان فكرة الفيلسوف التى تشرق عليه نعمة يتلقاها وكلاهما رزق .

ويخطئ فى نظرى كل من يحسب الفلسفة وحب الحكمة تسلية أو لهوا أو هواية ، لأن الفلسفة وحب الحكمة ليست تسلية ولا لهوا ولا هواية ، وانما هى موهبة واستعداد وصناعة شاقة ومهنة قاسية وحرفة غيور على محترفها تقتضيه الوقت والجهد والتضحية ، فالفيلسوف يجب عليه أن يحافظ على ذاته من الانخداع بالمال والجرى وراء الشهرة والاندفاع فى الشهوات ، فهذه الأشياء الثلاثة التى هى نعم الحياة ومآرب الحياة وغاية الرجال والنساء فى الوجود ، هى آفات الحكمة وعدواتها اللدودات وأضدادها وتقاوضها ، ومن ينشغل بها أو بواحد منها فلا أمل له فى الفلسفة ولا نصيب له منها مهما كان اجتهاده ، ولو جاهد الفيلسوف على هذه المرغبات الثلاث ، فلا يعد نفسه ناجيا من المعركة ، فان أمامه ووراء أعداء آخرين كحقارة الأوساط الاجتماعية ومعاكسة الأقدار وحسد الأصدقاء ونكد العيش الناشئ من حياة الأسرة وحاجات البدن الضرورية ومطالب الحياة التى يحتاج اليها المتعلقون بعنق الحكيم واللائنون به . واللاصقون بأهدابه من أهل وأقارب وولد .

ولأجل هذا كان الزهد والخمول - أى الفرار من الشهرة أى خمول الذكر لا خمول العقل - والقناعة والعزوبة وقطع العلائق العادية من أهم الأسباب فى نجاح الفيلسوف ، وان يكن ما تقدم ذكره - ما عدا المال والشهرة والشهوات - لا ينفى الفلسفة ولا يحزم الرجل من ممارستها حرمانا باتا وان كان يصعب الطريق ويزرعه بالأشواك الا أنه يستطيع أن يكون فيلسوفا ، فقد كان أشهرهم متزوجين وأزواج أسر وعيلات حتى سقراط وفيثاغورس ولقمان كانوا آباء وأزواجا .

فى نظرى أين الفيلسوف رجل شاذ فى أظهر أموره ، فهو يخالف
 عامة الرجال فى طباعه وميوله ورغائبه ، بل فى تقسيم قواه العاقلة
 والمبركة وتغلب بعضها على بعض ، فان قوة العقل عند الفيلسوف
 تكون عادة أكبر من قوة الارادة ، وقوة الارادة هى المظهر الأكبر
 للحياة العملية ، ولذا نرى الفيلسوف قليل الحرص فى كل شىء
 ما عدا عقله وتفكيره ، ان الارادة كلما قويت فى الرجل جعلت نظره
 الى الحياة ماديا ، والعقل كلما قوى فى الرجل جعل نظره الى الحياة
 معنويا ، ولذلك كنت أنظر دائما للرجل ، فان كان ميله الى نفسه
 ونظيره الى شغفه واشغاله بطاعة هواه ، كان فى نظرى غير صالح
 للفلسفة ، أما اذا كان نظره مندفعاً الى الأمور الخارجة عنه كالكون
 والطبيعة والفلك والأشياء المغايرة لشخصه والمخلوقات المختلفة
 عنه ، كان أقرب الى الفلسفة ، وقد تقوت هذه العقيدة عندى بالاختبار
 والتجربة ، فالإنانية فى الحركات والسكنات تمنع الاتصال بالحكمة .

بيد أن الفيلسوف اذا اتبع الخطة التى ذكرتها ، لا يكون
 متبعاً برغبته ولكنه يتبعها رغماً لأنه هكذا خلق ، وهى خطة لا يمكن
 تقليدها ولا يمكن املاؤها على النفس ، فالفيلسوف ليس مقلداً
 ولا مطيعاً لمعلم انما ملبياً نداء فطرته .

وقد رأيت أن بعضهم يزعم أن الفلاسفة جماعة من المرضى
 والمحبين للراحة والخروج من ميدان الحياة والفرار من المعركة
 وأنهم شادوا لانفسهم حصونا من الوحدة والعزلة باسم الحكمة ،
 وما هى الا مظهر من مظاهر حب النفس والجبن عن خوض غمار
 الحياة .

والحقيقة أن الفيلسوف ليس معتزلاً ولا متوحداً ولا متباعداً
 عن غمار الحياة ، انما هو معتز بشخصيته ، بعيد عن مواطن

الشبهات ، يتقى السقوط فى الهاوي والمخزيات ، ولكنه يعيش مع الناس ويغامر معهم ويخالطهم ويمتزج بهم كما كان يفعل سقراط وپروسو وأفلاطون ، فان لكل من هؤلاء تلاميذ وأهلا وأصدقاء وأشبعا وأتباعا ، ولا يمكن أن يكون الرجل فيلسوفا ان لم يذق آلام الحياة ، أى يشترك والجماعة فى معاناة شرور الدنيا والشعور بها شعورا تاما ، وهذا لا يتأتى بدون اختلاط .

أما الذين يزعمون أنهم يعيشون فى برج من العاج أو حصن من الذهب أو خيمة من الخز والديباج ، فهؤلاء مرضى ومختون ومتكبرون وأدعياء ولا يعدون فلاسفة بحال من الأحوال ، ولقد أدركت هذا الأمر على مشقته بالخبرة وان تكن قليلة ، ولكن التجارب بنوعها لا بتعدددها وبلونها لا بكميتها ، خصوصا فى عالم معرض لتكرار الحوادث وتشابهها .

لم يسمح العصر الماضى بتحجب الفيلسوف ، فانه كان مقصودا فى كل مكان ومتبعا ومطلوبا لأهل العلم الذين ينشدون الحقيقة ، وكان للفلاسفة مدارسهم وطلابهم ، وكان الملوك يدعونهم الى بلادهم لينتفعوا بهم كما كانت حالة صولون اليونانى ، والعصر الحديث أشد حرصا على الاختلاط بالفيلسوف ، فهو اما أستاذ فى جامعة ، أو مؤلف مشهور أو محاضر معترف به فى عواصم الدنيا أو بحانة تتزاحم مطالب المطابع على بابيه ، وحتى هربرت سبنسر على شدة رغبته فى التحجب والهجرة والوحدة والفرار من المتطفلين وأهل الفضول لا أهل الفضل ، كان يكتب الى الصحف والمجلات ، وكان لا يغلق باب بيته فى وجه قاصديه ، حتى عرفه الأفغانى ومحمد عبده وويلفريد بلنت وعشرات من أهل الشرق والغرب ، وكان أحب تلاميذه اليه طالب هندى هو شيامدجى كريشنافارما .



(٩)

محاولة البحث عن فيلسوف يمثل الفلاسفة ومذهب يمثل مذاهبهم

كان كل همى كلما رقت على فلسفة رجل من هؤلاء المشاهير أن أتبع تاريخ حياته وأقابل بينه وبين غيره في المواهب والميول لاستنبط شخصا يمثل الجنس كله ، كما نقول أن لقمان يمثل الحكماء أو قارون وروكفلر يمثلان الأغنياء أو هنرى بوانكاريه يمثل علماء الرياضة وجوته يمثل الشعراء وبركليش يمثل الخطباء ، أخذت أبحث عن رجل يمثل هذه الطائفة وأبحث عن مذهب يمثل مذاهبهم .

وانك لتجد رجلا يسألونك عن دين الفيلسوف ، أمؤمن هو أم ملحد أم مرتاب ؟ أم متظاهر بالايمان أو بالالحد ؟

وهذه كلها أسئلة آقنة باطلة ، فالفيلسوف فى نظرى لا يكون مؤمنا ولا ملحدا الا فى آخر حياته ، انما هو طوال حياته قد اتخذ موقف الفحص والنظر ، مستعدا ليحبذ أو ينتقد ، فقد يمدح وقد يذم وقد يناقش ، وقد تخلو نفسه من العقيدة ، وقد يكون فؤاده فارغا كفؤاد أم موسى ، حتى اذا قطع الشوط الملائم فى الحياة ، استقر قراره فى هذه المسألة كما يستقر فى سواها ، كالقطع بأن الانسان ميال للخير أو للشر أو كضيعة الأمل فى مستقبل الانسانية أو كالتسوية بين المذاهب الفلسفية بغير تفضيل ، هذه أمور يصل إلفيلسوف فى أخريات أيامه الى حلها والوقوف على حقيقتها .

وحملة اقوى فى هذا الفصل الذى أنشأته ليكون تاريخا لنمو عقلى ، أننى حاولت أن أصل الى المعرفة الكاملة للفلسفة ، لا عن طريق الكتب والمذاهب وحدها ، بل عن طريق الرجال

أنفسهم ، كما تبعت هذه الخطوة في معرفة رجال الصوفية عندما تعلقت بها واتخذت منها أصدقاء كالحلاج وأبي سفيان الثوري والسهروودي والطوسي والقشيري والدباغ وآل عبد السلام (محمد ومحمود وسيد عبد السلام) (١) .

لقد اتخذت الاستدلال على صحة المبادئ من تراجم أصحابها .
كان كل جهدي على مدى خمس عشرة سنة من ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٧ منصبا على استخلاص فلسفة عامة وانتهاج منهج ينطبق على الحقيقة ، وتنقية الفلسفة من التناقض الذي يبدو جليا في المذاهب المتتالية ، وهو - وان بدا جليا - الا أنه تناقض ظاهر وحسب ، لأن الفلسفة في كل عصر تتأثر بالزمن والعلم والاجتماع والسياسة والأخلاق ، فيكذب بعضها بعضا وينقضه ، والحقيقة أنها حلقات شديدة الاتصال متينة الأسر في سلسلة واحدة .

ولذا لزم الغيلسوف أن يلم بكل شيء مما كتبه وقاله أسلافه وكل ما دونه وحرروه وأودعوه كتبهم ودروسهم وصدور تلاميذهم ، فقد يجد حلقة مفقودة في كلمة دراسة ، أو فكرة لازمة في كراسة مغمورة .

ولكن الأستاذ جوبلو قال لي عليك بديكارت ودع عنك أرسطو وأفلاطون لأن ديكارت أبو الفلسفة الحديثة غير منازع وقيمته أكبر من يكون الانجليزى ، لأن يكون عملي وديكارت نظري ، والفلسفة نظرية لا عملية وهى علم العلوم ، ويكون فيه بقية ميل للاتجار

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بال عبد السلام وخاصة الشيخ محمد عبد السلام وأخيه الشيخ سيد ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨١ - ٢٩٠ .

بالعقل وصيغ الفلسفة بصيغة التقدم والفائدة ، ولكن ديكرات
ذو فلسفة خالصة من شوائب المادة والمنفعة العاجلة .

ولأن ديكرات فرنسي وهو مواطن جوبلو ومن أسلافه فقد
نصحنى بديكرات ، ولو كنت في إنجلترا لنصحنى الأستاذ بدراسة
سبنسر ولوك وستوارت ميل، واذن فستكون خسارتى العقلية ضخمة،
لأن هؤلاء فلاسفة أسفار وأرقام واحصاء ومشاهدات ، سائحون في
البلاد النائية ومعظمهم يميل الى درس القبائل البائدة والشعوب
الغانية .

وأنا أقر لهؤلاء السادة بالفضل وأدرس كتبهم عند ارادة
الاستقراء العلمى أو التعمق فى سوسيولوجيا أو اتنولوجيا أو تاريخ
الزواج عند الأجناس لأستنبط منها عن طريق القياس ما يستنبط ،
أما الفلسفة فلا .

ولا أجب أن يظن أحد أننى أنتقص الشعب الانجليزى أو أنال
من فلاسفته وادبائه وعلمائه ، فقد أدوا فى جملتهم لخدمة جليلة
للانسانية بغض الطرف عن مواضع النقد فى اخلاقهم السياسية ،
فقد رأيت أفرادا كثيرين من أعلى قمتهم الاجتماعية يتجرون الحق
وينفقون أعمارهم فى مناصرة المظلومين والأخذ بيد الضعفاء ،
ولو كان ذلك على حساب أنفسهم ، وقد ضحى بعضهم بماله وحياته
فى مقاومة عناصر الشر والفساد التى استشرت وتفاقت فى القرن
التاسع عشر .

(١٠)

حقيقة الفلسفة

طالما سألت نفسى عن حقيقة الفلسفة ما هى ؟

لقد اختلف الفلاسفة أنفسهم فى تعريفها . ان حبا الحكمة تعبير واسع جدا ، وقد كان أفلاطون يراها ادراك الأفكار ، أى معرفة حقيقة الأشياء أو معرفة كنه الأشياء وجوهرها وماهيتها معرفة تامة ، ولذا ابتكر نظرية المثل الأفلاطونية ، وقد جمع فيها بين السماء والأرض والروح والمادة والمعانى العلوية وأسس مدرسته لفرس مبادئه فى أذهان تلاميذه ولا سيما أشهرهم وأقدرهم أرسطو .

وقد بقيت لنا كتبه التى أهملها المسلمون واكتشفها اليونان عند سقوط القسطنطينية فى نصف القرن الخامس عشر ، فجاءت كاملة وقد اعتمد فيها على طريقة الحوار وهى أفضل الطرق لإبراز الأفكار وتوضيحها ، ولولا مؤلفات أفلاطون ما عرفنا شيئا عن سقراط ولا قرأنا دفاعه المجيد عن الحق وعن نفسه أمام قضاته .

وأهم كتب أفلاطون فى نظرى كتاب الجمهورية وحوار الخلود ،
خلود الروح .

وقد شد عنه تلميذه أرسطو وجعل الفلسفة المعرفة الشاملة لكل الكائنات ، ولم يتعرض لعالم السر والغيب الا قليلا ، وان يكن قال ما يشعر باعتراده بخلود النفس واستقلالها ، ولكنه لم يتوسع كما توسع أستاذه ، ويعد ذيكارت الابن البكر لأرسطو وأضاف اليه نظرية العلل .

وفي الحق كان اليونان أعظم من اشتغل بالحكمة وخدمها ، وأول من نظر في الكون نظرة شاملة ، وجعلوا لكل فكرة مذهبا ومدرسة وبذلوا جهودا جبارة في توضيح أغراضها ، فتارة يرون سعادة الانسان غاية الغايات ، وطورا يرون تحليه بالفضائل وتخلصه من الرذائل ، وهذه هي الناحية التي مال اليها فلاسفة العرب ونسجوا على منوالها ليكونوا أقرب الى آداب الشريعة الاسلامية ، ولكنهم لم يلموا بالفلسفة اليونانية لجهلهم باللغة والمخالفة للاسلام للعقائد الوثنية القديمة ، ولذا كانوا يكرهون اليونان ويحذرون التورط في حكمتهم ، وان يكونوا قد اقتبسوا منهم الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء ونظرية أصل الأشياء ، ولو لم توجد شروح ابن رشد لأرسطو قبل اكتشاف مؤلفاته في سنة ١٤٥٣ ما عرفتها أوربا الحديثة وما ألت بها ، فكانت اللغة العربية في القرون السابقة على عصر النهضة لغة العلم والفلسفة والأدب والطب في أنحاء العالم حتى ان أول كتاب طبعته مطابع البشرا كان كتابا عربيا ، أولف مصرى في محاسن الأخلاق .

ولكن العقول الغربية قد استقبلت الفلسفة استقبالا حسنا ، ولم تكن لديهم شريعة تناقضها وتعطلهم .

ولعلنا نرى رأييت أن العرب أخطأوا اذ ظنوا أن بين الشريعة والحكمة تناقضا ، ولم تدب هذه الفكرة في أذهانهم الا في عصور الظلام والانحطاط ، والا فهن يزعم أن القرآن والسنة يحرمان النظر في الحكمة وهما يدعوان الى ذلك دعوة حارة ؟

وان لم يكن هنا مجال الدفاع عن سعة صدر الاسلام للفلسفة ، ولكنني أروى من ذاكرتي طريقة تكوين عقلى ورغبتي في اشباع شوقى وتطلعى .

أليس غرض الفلسفة الأول الوصول الى لم شمل النتائج النهائية لفروع المعرفة ، ونفى التناقض والتخالف بينهما ، وإثبات وحدة الوجود في المعلومات العقلية والأفكار كما هو الشأن في الماديات والأحياء حتى تستنبط القوانين الثابتة والقواعد الأساسية التي هي سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ؟

وهكذا تصير الفلسفة الكوة التي تطل منها النفس على عالم الروح ، والأفما علة اختلاف الفلاسفة فيما بينهم ؟

ان الحال في العلم غير ذلك بالمرة ، فان كل عالم يسعى لتأييد رأى سابقه ولا يؤخذ برأى الا اذا سبق تمحيصه ، وحتى اذا استجد رأى فلا يحصل التحول اليه والعدول عن سابقه الا بعد التثبت والبحث الطويل ، ألم يحدث ذلك في علم أصل الانسان حتى ظفر داروين بنظرية النشوء والارتقاء ؟ وحدث ذلك أيضا في نظرية النسبية التي قال بها أينشتاين ؟ .

ولكن الفلاسفة يشيدون ويستقلون عن بعضهم بعضا حتى ولو كان الثاني تلميذ الأول ، فان تعاليم سقراط يثبتها أفلاطون ولكنه يحصرها ويؤيدها ويضيف إليها آراءه الخاصة ، فقد جعل الأول همه في محاربة السفسطائيين ، ولكن أفلاطون يشيد في جمهوريته بناء جديدا للمجتمع .

ولا بد لكل بيئة أن تخرج الفلسفة التي تلائم طبيعتها ، ولأجل هذا لم يخرج المصريون فلسفة لانغماسهم في المادية ، أقصد في العصر الحديث ، فان الشغوب المحبة لذاتها ليس فيها من الجهد ما يعين على انتاج فلسفة ، وكذلك الايرلنديون وأهل أمريكا الحديثة ، أما الألمان فقد أنتجوا فلسفة عظيمة في العصر الحديث أمثال فيخته

ووننت ووندلاند وريهل وليبس وهيجل وشليجل
وشوبنهاور ونيتشه .

لقد شغلني هذا التفاوت بين الفلاسفة مشغولية عميقة ، وعز
على أن يقصر كل فيلسوف جهوده على دائرة بحوثه ولا يعمل على
تمحيص ما سبقه ، ولكنني لم أنس أن التطور والتحول في حياة
العالم قد تحكما في حياة الفكر ، فليس لديكارت أن ينظر فيما نظر
فيه أرسطو الا فيما يتعلق بالمعلومات النهائية ، أما الطريقة والحكم
على الأشياء فقد تطورا بتطور الزمن ، ولذا ملت في فترة من الفترات
الى القول بأن هذا التناقض قد لا يكون الا ظاهرا لا حقيقيا ، فان
نيتشه لم يغفل النظر في الدين والأدب والاجتماع وأصل الكون
والمخلوقات والفنون الجميلة وعلاقة الرجل بالمرأة والحاكم بالمحكوم
والغنى بالفقر ، ولكنه جعل هذا كله في أسلوب غير الأساليب
السابقة ينطبق على نفسيته وروح زمنه وتطور الأفكار والحياة
في زمنه .

وفي الواقع لا يملك نيتشه او غيره أن يغفل الدين والعلم
والفنون ، ولا يملك سواه أن يرى هذا التقسيم في معرفة البشر
وكل ما يستجد عليها كعلوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلم
النفس ، وهذه لم تكن سوى أفنان للفصوص التي تنمو وتتفرع من
شجرة العقل .

لقد أدهشني ألا يكون للهنود فلسفة ولا للصين فلسفة
ولا لليابان فلسفة . . . قد تكون الخصوبة الأرضية وغازة الخضرة
وتوافر الأغذية وتكاثر الأنهار وقلة الحاجة الى الحركة والتزاحم في
ميدان الحياة من أسباب الحرمان ، وقد يكون فقد الحرية والاستقلال
وتحكم الأجنبي سببا في خمود النفوس وجمود المواهب وجفاف
العقول والأرواح .

ولكن الهند هذه كان لديها كتاب « الاوبانيشاد » وهي فلسفة دينية ، وكان عند الفرس كتاب « الأفستا » ، وكان عند الصين فلسفة كونفوشيوس ، ثم جفت الأقلام وتعطلت القرائح ، كما جفت الأقلام في مصر القديمة بعد كتاب الموتى وحكم بتاح حوتب ، وهذه كلها كتب دينية ولكنها كانت هي الفلسفة العصرية بالنسبة لهم كما كانت تعاليم فيثاغورس في عصره وكما كان تشريع حمورابي في عصره وكما كانت كتب التوراة بعد موسى على ألسنة الأنبياء ولا سيما أيوب وداوود وسليمان ، وقد تتخذ الفلسفة صوراً مختلفة كما شعرت وأدركت بفطرتي ، فسفر أيوب لون من فلسفة الحياة والأخلاق والدين وعلم النفس ، وكانت أناشيد داوود (المزامير) وتفجعه فلسفة عملية للتدب والتوبة وقد كان أشجع أهل زمانه وأكثرهم مجازفة وأحبهم الى ربه فأنطقه بالحكمة وقربه وأنعم عليه ، وكان سليمان ابنه ملكاً وحكيماً وعادلاً .

وكان عهد الفلسفة الدينية في الهند قريباً من نبوغ اليونان ، وقد تأثر أفلاطون بحياة الشرق ولا سيما بزيارته للكهنة في وادي النيل ، كما سبقه اليه فيثاغورس فكتب حواراه في « فايدو » و « فايدروس » و « تيمائوس » ، وكلها فلسفة دينية وبحث عميق مستور في علاقة الخالق سبحانه وتعالى بالمخلوق الممتاز .

ولا أحب أن يظن أحد أنني اعتبرت النبوة فلسفة أو وظيفة اجتماعية ، وإن صح هذا في كل الأحوال ، فلا يصح في حالة محمد ابن عبد الله الذي اعتقد اعتقاداً صريحاً أنه نبي مرسل موحى اليه وقد تلقى الوحي من الله بروح جبريل الملك ، ولا أرفض نبوغ الرسول العربي في كل شيء ما عدا الوحي ، فإن حياته كلها لم تكن وحياً إلهياً ، بل كان فيها اجتهاد وتفكير وتدير شخصي إنساني كالذي ظهر في حروبه وتنظيم دولته ووضع دستور المدينة وتنسيق

العلاقات بين المهاجرين والانبصار وبقية القبائل ، وكانت له أفكار خاصة ووجهات نظر خاصة في الحياة والاقتصاد والتعليم والسلوك والزواج والاجتماع قد تكون في مجموعها نظاما فلسفيا ضخما عظيما ، ووصفه بالفلسفة هنا يقصد به أنه نظام حكيم .

ولا يدهش أحد من وصف التعليم الديني بصفة الفلسفة ، فان الدين لم يخرج في وقت من الأوقات عن تبين العلاقة بين الخالق والمخلوق .

(١١)

أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان في الحياة
ومحنة الروح بالحياة - وحدة الفكر الفلسفي - هل الفلسفة علم ؟

لقد ظهر لي بعد حين أن مجرد سؤال عن مورد الانسان ومصدره وتاريخ حياة الروح منذ ولادتها الى عودتها الى عالم السر ، ليس الا خطوة فطرية في سبيل الفكر الانساني ، وقد تفرع عليهما في ذهني ما لا يقل عنهما في هذا الشأن وهو أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان في الحياة ومحنة الروح بالحياة والعيش على قشرة هذه الكرة الأرضية ودرجة الرقي المطلوب منها أن تصل اليها في وسط الأشواك والعقبات والأخطار التي لا تعد ولا تحصى ، ومحاربة الشهوات والتغلب على المصاعب وخوض بحر خضم من التبعات ، وشرب كثوس العذاب في الوحدة والانفراد ، وفي الجماعة والألفة ، والتنازع بين الآمال والخيبة ، وظهور الأشياء بغير مظهرها ، كل هذه وثلك دون أن تبرز الى العالم الخارجي ، فليس الاقتصاد

والاجتماع ومحاربة التمر والحروب والسياسة من دائرة الفلسفة
الا اعتبارا وتجاوزا .

فالفلسفة في عالم العقل والروح وما وراء الطبيعة ، وقد تحاول
الفلسفة أحيانا أن تجد العلاقة بين الفرد والمجتمع كما صنع سبينسر
في فلسفته ، فانه نظر الى دنياه هو وهى العالم الانجليزى فى القرن
التاسع عشر ومستقبل علاقة الفرد بالمجموع فى ضوء العلوم الحديثة
والحضارة المعاصرة ولكن سبينسر بعد عن الحقيقة لأنه حصر آراءه
فى وسط معين واستخدم كل علوم البشر لتأييد فكرته وهى أن
المجتمع كائن حى يصح عليه من الأحكام ما يصح على الكائن الحى .

ولا يقل خطؤه - مع عظيم احترامى له - عن خطأ أوجست
كومت الفرنسى الذى أشقى نفسه ليسعد العالم بخلق دين جديد
ومجتمع جديد بناء على ما تخيله من تقسيم تاريخ حياة الانسانية
الى عصور الدين والحروب والاقتصاد ، فى مقابل العصور الحجرية
والبرنزية والحديدية .

لقد أحببت أوجست كومت حبا جما عن طريق الاشفاق عليه
لأنه حاول انقاذ الانسانية من شرورها ، ولكن نظرة واحدة كانت
كافية للحكم على مشروعه بالفشل ، فان فرنسا فى القرن التاسع
عشر لم تكن لتسلم فى نفسها لهذا الفيلسوف الصالح الذى أراد
أن يهدم كل شئ لبنى بناء جديدا غير مأمون العاقبة .

عدت بذهنى الى محاورات أفلاطون ، فليس عندى وقت
للمراجعة الدقيقة لأنى لا اضع كتابا ولكنى أسجل خطوات عقلية ،
وعدت الى كتب أرسطو فى المنطق والطبيعة والحيوان والروح
والشعر والخطابة ، وتأملات ديكارت ومقولة كانط (نقد العقل

المجرد) وشو بنهاور وسجنس ، رجعت بذهنى الى هذه الثروة الضخمة التى أخذت من عمرى نصيبا كبيرا ، فوجدتها مختلفة كل الاختلاف كأنها معارك وملاحم بشرية ، ولكنها بعد الاهتضام والتأمل تتكشف لى عن وحدة تامة كاختلاف القاصدين الى مركز الدائرة وقد سار كل منهم من أحد أقواسها أو من نقطة من محيطها ، فكل منهم يَضْرُغُ مسألة أو جملة مسائل ، ويفرغها فى قالب تفكيره ثم يسعى فى إيجاد حل لها باذلا جهودا فى تدعيم الحل الذى يفتح به عليه وتأييده بأدلة من عنده على طريقة علمية واضحة .

غير أن سجنس يسمى هذا نظاما System وكانط يسميه نقدا وشو بنهاور يسميه تحكم الارادة فى العالم وماخ يسميه تحليل الاحساسات وديكارت يسميه تأملات .

ولكن هل اعتبر الفلسفة علما كما اعتبر الفلك والكيمياء ما دامت الأدلة الواردة على صحة الحلول قائمة على أساس على طريقة علمية ؟

لم أستطع أن أجيب عن هذا السؤال بالإيجاب أبدا ، وإن كنت تأكدت صدقه عند محاولة التمدوين فى مسألة فلسفية . ولكننى ما أزال أقول ان الفلسفة ليست علما ، اننى لم أتعلم هذا الجواب ولم أتلق هذا الرأى عن أحد ولم أجده فى أحد الكتب ، ولكننى كنت منذ نشأتى ولأول احتكاكى بهذه المسألة ، أنفر منه وأحكم بغفلة من يقول به .

ان العلوم التى يطلق عليها هذا الاسم معروفة لدينا ، فهل الرياضة كالفلسفة ؟ وهل الطب كالفلسفة ؟ وهل الفلك كالفلسفة ؟ لقد قرأت فى يداية أمرى أن من اليونان من كان يتعلم الفلسفة عن طريق الاشراق والتلقى من الأستاذ مباشرة ، واذاً يكون الفرق

الجوهرى بين العلوم والفلسفة أن العلوم تنتقل بواسطة التلقين والمران والتدريب والتجربة ، أما المعرفة في الفلسفة فقد تأتي عن طريق الإلهام ، لأن مادة العلوم حقائق ثابتة ، أما مادة الفلسفة - أن صبح هنا ذكر المادة - فهي أفكار وخواطر ، وهذه تستلهم ويوحى بها ويتلقاها الحكيم أو محب الحكمة بدون واسطة ، انها تشرق عليه كالنور الطبيعي الذي يعم العالم من الشمس والقمر ، وقد يأتي لك النور بمفردك وفي عزلتك اذا كنت متأملا ومستعدا ، وقد يأتي اليك وأنت لاه عنه أو مشغول بغيره أو غير منتظر اياه ، وقد يأتي اليك وأنت في صحبة صديقك أو حبيبك ، أو في مناقشة خصمك أو عدوك ، فهو نعمة وفيض لا علاقة له بالخارج ، ثم ينمو الخاطر أو الفكرة حتى يصير شغلا شاغلا ، وكلما أنعمت فيه النظر تفتحت لك أبواب وظهرت لك مسالك وتشعبت طرائق .

ولأجل هذا كنت أجيب بفطرتي أن الفلسفة ليست علما ، ولكنها شيء آخر . انها ربح عقلي سببه التأمل وصفاء النفس والاستعداد والتلقى ، وأفلاطون يشير الى ذلك ، وبلوتين صاحب الأفلاطونية الحديثة يستلهم ، وسبينوزا يستلهم ويحاول الوصول الى الحقيقة عن طريق الاتجاه الروحي كالذي يصنعه المتصوفون ، وأخذ هؤلاء الفلاسفة يتلقون الوحي والإلهام ويشتون وجود طريق للمعرفة غير التلقى والدرس ، ثم يهمسون به حتى صرح به شيلنج وسماه « الإدراك العقلي » . وأخيرا أثبت برجسون نظرية الافتطار في كتابه « مواهب الوعي المباشر » Donnés imidiates de la sensation ، وكان ذلك ردا مفجما على فترة الخذلان التي أصابت الفلسفة في القرن التاسع عشر تحت ضغط العلوم المادية التي اختصت بتطبيق التفكير على التجربة وهي الطريقة المتبعة في العلوم العبادية .

ولم أقتنع أبدا بأن الفلسفة خاضعة للعلوم لأنها لا تتبع قواعد ولا تقريرات ولا تخضع لما يخضع له العلم العملي كالرياضة والطب .

ان الفلسفة تلقى على العالم أسئلة وتسعى فى الاجابة عنها .
من أين جئنا وإلى أين نذهب ؟ وما الخطة المثلى فى سلوك الانسان
مدى الحياة ؟ وما الروح والنفس والعقل ؟ وكيف نفكر ؟ وكيف
نشعر ؟ وكيف نعيش وكيف نموت ؟ وكيف نحكم على الأشياء ؟
وما ماهية الأشياء وما جواهرها وأعراضها ؟

ان الفلسفة تقطع أشواطا يقصر عن مداها العقل وتنعر أقدامه
فى الوصول إليها ويعجز عن التطلع إليها ، والفلسفة لاكتفى بالروح
والالهيات وعلّة الأشياء ، بل تبحث فى الحياة العامة ولا تعرض
عن البحث فى نتائج العلوم المادية كالأخلاق والآداب والطبيعة ،
وحتى علم الحياة والتشريح الحيوانى والانسانى لا يخرجان عن
دائرتها .

ان قلت ان الفلسفة علم العلوم والمهيمنة على المعارف الانسانية
بغير قيد ولا شرط ، فربما كان هذا التعريف قريبا من الحقيقة ،
لأنها غير معصورة ، فالفيلسوف يبحث عن الموسيقى لأنها مظهر من
مظاهر الانسجام كما فعل الفارابى ونيتشه .

هى أم العلوم وأصلها ونشأتها ، ولكنها مستقلة عنها ،
كالوطن الأكبر بالنسبة الى الولايات والأعمال والمقاطعات ، فان قلت
انها علم العلوم أو معرفة المعرفة ، كنت قريبا من الحقيقة ، وقد
يترقى بعض العلوم فيدخل فى حيازتها ويلتمس حمايتها .

فان بحث شوبنهاور فى الضوء ونظر الألوان بحث فلسفى ،
ولكن طريقة البحث عن الذهب ليست من الفلسفة ، والبحث فى

أصل الأنواع وتسلسل الإنسان معرفة فلسفية وإن كانت جزءاً من علوم شتى كالحفريات وطبقات الأرض والتشريح ، ولكن الطب نفسه الذى عليه قوام حياة الإنسان ، ليس من الفلسفة ، وتركيب الأجسام من عناصر أو عنصر واحد ، والذرة والتكهرب ، جزء من العلوم التى ارتقت الى درجة الفلسفة ، وتطور الأحياء كذلك سواء أكانت نباتاً أو حيواناً أو إنساناً جدير بنظر الفلسفة ، ولكن العمل على ترقية الأنواع لا يدخل فى نطاقها ، ويدخل تحت لوائها بلا ريب علم الفلك فى درجاته العليا والطبيعة العليا وعلم الحياة ، وقد رأينا جهاد سبنسر فى تعريفه وتخصيصه مجلدين من « نظامه » لدرسه ، وعلم النفس وعلم الاجتماع هما صفحات من كتاب الفلسفة الأعظم ، ولو أن جميع هذه العلوم تقوت وتوسعت واستقلت ، ولو أن جميع المسائل الناشئة عن الحياة فحصت ودرست وحلت حلولاً موفقة ، فلا يزول مع هذا سلطان الفلسفة من عالم الفكر لأن الأفكار تتولد فى كل يوم ، ولأن سيل الإلهام مستمر لا ينقطع ، ولأن الحقائق تظهر فى كل لحظة وتدفع بالأفكار الى الظهور من عالم الخفاء ، وفى كل لحظة يشعر الإنسان بحاجة الى هذه البوتقة العظيمة المهولة التى تفرغ فيها الأفكار والخواطر لتصفى وتنقى ثم تصاغ .



(١٣)

أزمة فلسفية

إنك تدهش إذا تقرأ أو تسمع أن عصر الفلسفة قد انقضى ، وأن العصر الحديث لا يفسح لها مجالاً ، وأن تطور العالم يقتضى

ذوالها ، وأن الذى حل محل الفلسفة هو درس تاريخها ، فتبتسم وتعلم أن الكاتب والقائل كمن يخبرك بوقف دولاب الحياة وانتهاء المواليده ، وأن عالم الأحياء ينتظر الموت الجارف الذى يذهب بالأخضر واليابس ، **فالفلسفة لا تموت إلا إذا مات الجنس البشرى وانقرض** ، وما دام العقل حيا ينبض ، **فالفلسفة عائشة لا تموت** ، وهى لا تنكسف ولا تختفى إلا فى البلاد الميتة أو العائشة على الأوهام والشهوات كـبعض بلاد الشرق الاسلامى فى هذا العصر الحديث ، وطالما عجزت كيف تعيش هذه الأهم بغير فلسفة ، لأن الفلسفة هى الشوق للمعرفة ، فكيف يعيش أحبانا بغير شوق الى المعرفة ؟ .

فغاية الفلسفة - غير ما ذكرنا - هى اشباع رغبة المعرفة عند الإنسان المدرك حتى يستغرق ، وقد أعطى فيثاغور حياته لاشباع هذه الرغبة ، كما وهب أفلاطون حياته اجابة للدهشة من جمال الكون ، وديكارت للشك ، وكلاهما - الدهشة والشك - انفعال ناشئ من عدم الاقتناع العقلى أو من النهم الفلسفى ، كالطفل الذى يحب أن يعرف كل شئ عند تنبه مواهب الإدراك فيه ، فالفيلسوف طفل كبير لا يسألك أسئلة الطفل الساذجة ، ولكن يسألك عن القضاء والتدر وسعة الكون وعلة انتظام الأجرام السماوية ، وهل هناك جنة ونار ونواب وعقاب ؟ ويعلل الحب والبغض ، وحقيقة الوحي ، والفرق بين العبقرية والجنون ، وهل تسلسل الإنسان من القرد « البريمات » يمنع حلول الروح فيه ، وما حقيقة خلق آدم وحواء ، وما علاقة قانون الجاذبية بحياة الإنسان ، وهل الإنسان خالد أو فان ، ولم كان الحكم عليه بالخلود أو الفناء من أعلى مسائل الفلسفة ، وما أثر الموت فى الإنسان ، ولم كان الاعتقاد بالشواب والعقاب مهما فى نظر الإنسان ؟ وهل بينه وبين العدل ارتباط ؟ وما هو الله - جل شأنه - ذاتا وصفات ؟ وما علاقة الإنسان به ، والقضاء والقدر والنبوة والرسالة والسعادة والشقاوة والبعث

والنشور . وما هية الذنب والمعصية ، وبالجمله كل ما هو عام واجماعى وثابت يهتم الفلسفة ، وكل ما كان خاصا وافراديا ومعرضا للزوال يهتم العلوم الفردة .

ينبغي ان تكوين الثروات الضخمة فى أمريكا عن طريق الاحتكار والاجرام لا يهتم الفلسفة ، ولكن يهتم تقسيم الأرزاق وتوزيع الثروة ، لأن الأول يعود بالنفع المباشر على أفراد معدودين ملعونين منهوضين ، والثانى يعود بالنفع على الملايين .

وجود الله - سبحانه وتعالى - ضمان للخلود والعدل والرحمة فى هذه الدنيا وما وراءها ، وتأمين من الضعف والألم وفقدان الحيلة والحاجة للمعونة ومخاطر الوجود البشرى وقلق الانسانية وحيرتها ، وفوق هذه كلها فان البحث فى الله - عز وجل - يشفى غليل الراغب فى المعرفة العليا .

(١٣)

الاعتزال والتصوف

الأفكار الفلسفية بين النظرية والتنفيذ - الفلسفة لا تؤثّر

لقد أمكننى ان أدرك أن الاسلام قد أنتج جرکتين فى غاية الأهمية والتطورة وكبر الشأن ، ويزيدهما أهمية أنهما نشأتا فى مستقبل شبابه ، وهما الاعتزال والتصوف .

فالمعتزلة أو علماء الكلام هم فلاسفة الاسلام ، ولذا وجب على
أطالِب المسلمين بفلسفة بعد ظهور فلسفة الفرق التي رمت
بالكفر والزندقة وعذب كثير منها بالجلد والسجن والذبح وهم من
خيار الأمة ولم يعذبوا ولم يضطهدوا الا ارضاء للدهماء واحتفاظا
بسلطة الملوك المستبدين الذين كانوا يسمون بالخلفاء (الأمويين
والعباسيين) ، وهؤلاء خلفاء حقا لأنهم أفسدوا في الأرض وسفكوا
الدماء ، وما أعظم القرآن الكريم عندما يقول الله سبحانه وتعالى
« ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك
يفعلون » .

فقد شهدت قرية بغداد وقرية دمشق وقرية القاهرة من المظالم
باسم الدين ما يشيب من هوله الولدان ، كما شهدت روما وباريس
ولندن وآثينا وبابل وطيبة ومنف .

اننى رجل مسلم مؤمن أدين بالسلفية وبالتصوف وبرسالة
محمد عليه الصلاة والسلام وبالكتب المنزلة وبكتب الحديث السنة
وبآراء الخلفاء الراشدين ، ولكننى أحب أن أقول الحق ، فان الله
سبحانه يسمح لى أن أمارس العقل وأنتفع به وأن أصرح بآرائى ،
وهو عز وجل أفسح صدرا وأعظم علما وحلما من كل الحكومات
العادلة ، فما بالك بالظلمة المستبدة ، وقد أمرنى وأمر صريحة
بالتفكير والتأمل والتدبر والتفكر ونهائى عن الجمود والجبن
والخوف ، فلذا أحزن على الذين قتلوا وان كانوا قد قتلوا وعذبوا
لحكمة أعرفها وأحترمها ، ولا أرى أن حياتهم أفضل من موتهم ،
لأن موتهم كان أعظم وأنجى لهم ، وذهبوا فداء لغيرهم جاءوا بعدهم
ولم تحتد اليهم الأيدى بالسياط والسيوف .

فهؤلاء المعتزلة الذين صبروا ، بحثوا فى الجبر والاختيار
والقضاء والقدر والأعمال والأقوال والقدرة والارادة والسماء والجنة

والنار والثواب والعقاب والتبعية والحرية والعدل والرحمة والحساب والجزاء والذنوب والمعاصي . هذه كلها مسائل فى أعلى درجات الفلسفة ، فلا يضيرهم النقد والتعذيب ، ولا يضيرهم ما كتبه ابن حزم والشهرستاني ، ولم يمنع القتل والتعذيب ظهور غيرهم استقبلوا السمقاء والاضهاد بصدور رحبة ، لأنه لا توجد قوة على الأرض تمنع العقل عن البحث والدرس والنظر والتأمل والتفكير والتدبر والتمحيص والتشكك فى سبيل الوصول الى اليقين ، وهذا فضل الاسلام بوصفه نظاما فلسفيا عاليا ، فهو يمجّد العقل ويعجب به ويأمر بالاستفادة منه ، ويذمّ البلهاء والغافلين والجامدين ، ويجعل العقل السليم قرين الايمان الصحيح .

لقد خدمت الفلسفة الأديان خدمة جليلة .

وأما الحركة الثانية وهى حركة التصوف ، فقد قامت على نظرية المعرفة المباشرة والتلقى بالالهام والوحي ، وقد ذهبت لها ضحايا كثيرة كالحلاج والثورى وغيرهما .

ان كل فيلسوف مثل كل صوفى ، الصوفى يريد الاتصال بالله بغير واسطة ، والفيلسوف يريد الاتصال بالحقيقة بمجهوده الذاتى ، وكل حقيقة عنده مقدسة بشرط أنها حقيقة لا شك فيها ، ويدفعه الى البحث عن الحقيقة ما يراه من شغف الطفل بالسؤال لماذا ؟ وكيف ؟ وما يشعر به من منطق الأشياء وتسلسل الأسباب والنتائج والرغبة الكامنة فى نفسه والقدرة على الفهم ، وقد وصفت الفيلسوف آتفا بأنه طفل كبير تختلف أسئلته عن أسئلة الطفل نوعا وكمية ، ويقصر الطفل عن ادراكها ، ولكن الطفل مدفوع للسؤال عما يقع تحت حسه المباشر بالنظر والسمع المباشر ، وكثيرا ما يجد أجوبة سخيفة على الأسئلة والديه أو أقارب سخفاء وان تكن

بعض أسئلته محيرة ، ولكن يدهشك أن الطفل يعرف السؤال ويوجهه . ولكنه لا يدرك الجواب عليه ولا يقنع به الا ظاهرا ، وهذه الحالة نفسها دليل على حاجة الانسان للفلسفة وأنها شوق فطري ملازم للعقل البشرى منذ نعومة الأظفار .

ويندر أن يسأل الطفل سؤالا ذا نفع عام ، ولكن الطفل الكبير - وهو الفيلسوف - فيسأل أسئلة جديدة عن الموت وعواقبه ، لأنه مشغول بضرورة العدل في الثواب والعقاب وتسوية الحساب ، وينتظر أن يكون خالدا ليرى انعقاد المحكمة السماوية وأخذ كل انسان نصيبه من الخير والشر .

وقد يكون الفيلسوف قانعا وزاهدا ومستغنيا ، ولكنه يسأل عن أسباب التفاوت بين البشر في الأرزاق والتقسيم والحظوظ والمظالم ، ولكن هذا الفيلسوف القانع أو الزاهد أو المستغنى يسأل هذا السؤال ليعود بالنفع على المجموع لا على نفسه ، فانه ان أعرض ودافع عن مصلحته ، هوى من درجة الفلاسفة ودخل في صفوف النفعيين وأرباب المصاحبة الذاتية .

وقد يكون الفيلسوف معذما ثم يدافع عن مصلحة للأغنياء ، لأنها تنطبق في نظره على الحق والعدل .

ومهما تقدمت الحياة في العمر واستغرقت في القدم ، وتغلغت في أغوار الأجيال ، فان أسئلة الحياة والموت والحظ والرزق والعدل والظلم ما تزال جديدة قشبية ، لأن كلا من الفلاسفة يجيب عنها جوابا يخالف جواب صاحبه .

غير أن الذي كابفته أن الفلسفة تغرى بالتفكير ولا تدفع الى العهول ، وهذا طبيعي لأن الوصول الى أسمى الأفكار ، لا يستطاع

مع الحركة ولا يتفق مع التنفيذ ، ولأنه لا يوجد بين الأفكار الفلسفية ما يمكن تحويله الى حل عملي ، كتفكير التاجر الذي يتبعه الشراء للبيع بالربح ، أو تفكير المحارب الذي يتبعه التجنيد والتسليح والحشد والهجوم ، ان التفكير الفلسفي يعد وسيلة وغاية في ذاته ، هو سؤال يوجه من النفس الى النفس ، وينتهي المقصود منه بمجرد الجواب عليه .

والفيلسوف الصحيح لا ينتقل ولا يتحرك ولا يشغل بغير ما هو فيه ، وليس هذا معناه ان يقيم الفيلسوف في مكان واحد ، ولكن معناه أن ورود المخاطر واستعراض المسائل والعثور على حلولها لا يحتاج الى ابراز في عالم المادة والى تجربة عملية ، فأفلاطون لم يكن يرجو أن يرى خطة الجمهورية ونظم الحكم والتعليم والمشاعية والجندية وتسليم زمام الأمور للحكماء في الدولة تتم وتنفذ في حياته ، لأن الأفكار الفلسفية نظرية وهذه هي ميزاتها البالغة ومكانتها العالية ، هي تمكين العقل الراقى من أداء وظيفته .

ويظهر لى أن الفلسفة الكبرى - شأنها شأن النبوة العظمى - لا تورث ، فلا يمكن الفيلسوف أن يجعل ابنه فيلسوفا ، ومعظم هؤلاء الفلاسفة الكبار يذهبون ولم يرزقوا غير حكمتهم ، ومن يخلف منهم نسلا يكون نسله في الأغلب فرعا جافا من تلك الشجرة التي امتصت ماء الحياة لنفسها ولم تستطع تغذية فروعها .

والفيلسوف يتأمل ويشاهد ويجرب ، في عقله معمله ، ومخبره ذهنه ، ولا حاجة به الى أدوات غير التفكير والقياس والفهم والذاكرة القوية والخيال القوى ، فغاياته أفكاره .

وقد يبذل الفيلسوف جهدا في مراقبة الكائنات كدعوة المؤمن الى رؤية آيات الله فى الآفاق ، ولكن الفلكى يبني مرصدا ويعد منظارا مضخما وعدسة مجدولة وأرقاما لا تحصى، وكذلك الرياضى والكيميائى وبعض علماء علم النفس التجريبي الذى ثبت فشله لأنه ولد ميتا .

فالفكر الفلسفى مستقل عن العمل وفى غنى عنه .

وقد يكون الفيلسوف نفسه محتاجا للعمل فى دائرة أخرى كالتدريس والصناعة ، فقد كان أفلاطون أستاذا وكان سبينوزا صانع ساعات وكان جوبلو أستاذا وكان كومت رياضيا ، ليرتزقوا ويعولوا من عندهم ، أما سفراط فقد كان صانع تماثيل فى أول أمره ثم طلقها .

فالفلسفة وظيفة ومهنة تستبعد سواها كالنبوة ، كان ابن رشد قاضيا وفتيها وابن سينا طبيا والفارابى موسيقارا وابن خلدون قاضيا وديكارى ضابطا وشوينهاور من أبناء الأعيان ونيشيه أستاذ لغات ، ولكنهم فشلوا فى صناعتهم ولم يربحوا منها ، ولذا كانوا فى ضيق أو عاشروا عمالة على الأمراء والمجتمع ، ولذا فأنى أعد المجتمع الانسانى فى طفولته لأن أعظم خدامه لا يصلون الى المال الذى يصل اليه الحائك والصباغ والجلاد الخ .

ولكن وراء هذا الاستغناء عن العمل والحركة فكرة سامية وهى عدم الحاجة ، وكلما اكتفى العبد كان قريبا من الرب ، لأن الحاجة قرينة المذلة والخضوع .

ألا تلمح فى هذا الميل الى الزهادة خلقا صوفيا ؟ اليس الصوفيون زهادا وأغنياء عن كل أحد ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ويرون السؤال مسبة وعارا ومخالفة للإيمان الصحيح ؟

وسواء أكان الفلاسفة متوكلين على الله حق التوكل ، فانهم عاشوا في ضنك أو فرج ، ولم يشكروا ولم يتألوا ، حتى الذي كان ملحدا منهم ، لم يعرض نفسه لمذلة الحاجة . فعلى الفيلسوف الصادق أن يكتفى بضروريات الحياة ولا بد له من الصبر على الحرمان وكبح جماح النفس ووقفها عند حدها :

والنفس راغبة اذا رغبت بها واذا ترد الى قليل تقنع

ويتبع القناعة في الحياة رفض الامتلاك والمسررات والشهرة والمناصب وهو الذي يسميه الصوفيون « حالة الحمول » أى انطواء الذكر لا حمول العقل ، وقد وجد كل فيلسوف وسيلة للوصول الى هذه الغاية ، فقال اريستوتيس « ان شغلك بالحاضر وبالساعة التي أنت فيها يغنيك عن التفكير في المستقبل ، ويقيك شرور السعي والادخار » ، وقال أبيقور « عليك بهدوء العقل وهو لا يتأتى الا بتطليق المطالب والآمال والتفكير فيما يجلبه الغد » .

ولا يصل الفيلسوف الى هذه الحالة الا بقوة الارادة والعزوبة والعزلة في الاكتفاء بالذات أى اكتفاء النفس بما لديها بغير نظر الى المال والجمال والنساء والأطفال والصدقة والمناصب ، لأن هذه النعم أو النقم تابعة للحظوظ وليست تابعة لأنفسنا ، وليست كلها خيرا ، فاذا حضرت وتوافرت فالفيلسوف يحظى بها ويأخذ بنصيبه منها ، وان لم تحضر ولم تتوافر فلا يجرى وراءها ولا يبحث عنها ولا يأسف عليها ولا يندم على حرمانه منها .

وفى هذا القدر كفاية .

الزواج

ان طريقتى فى كتابة هذا المخطوط (١) هى أن أنظر حول ،
أنظر حول فأجد عائلتى فأصحبى فأمتى فالعالم الخارجى الذى
يمثل مدنية هذا العصر ، وأحب أن أقول ان الأفكار الدينية
أو الفلسفية أو السياسية لا دخل لها فى بحوثى هذه مطلقا .

أقول اننى منذ سنة ١٩١٧ فقدت آخر عضو فى عائلتى التى
نشأت فيها ولم يبق الا والدى المرحوم الذى توفى فى أغسطس
سنة ١٩٣١ ، أى منذ عشر سنوات كاملة ، وكان اجتماعى به قليلا
جدا لأنه كان مقيما فى الاسكندرية ولم يكن فى مقدورى أن أقنعه
بالانتقال الى القاهرة ، وعلى كل حال فقد كان تأثيره على محدودا
فيما عدا الناحية الدينية لأنه كان رجلا صالحا جدا على طريقة
المتدينين لا على طريقة المعجبين بدين معين لأسباب عقلية ، وهذه
الطريقة الأخيرة هى التى أميل اليها لأنها تجعل التدين حياة فكرية
ونفسية تماشى الحياة العادية ، ولا أحب أن أسهب فى هذه الناحية
لأنها ليست من الناحيات المقصودة بذاتها .

اذن فى سنة ١٩١٧ فقدت آخر فرد فى عائلتى التى نشأت
فيها ونظرت حولى فإذا أنا فى حالة وحدة ، وكنت منذ بضع سنوات

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات فى يوم الاثنين

١٨ أغسطس سنة ١٩٤١ .

قد عولت على العزوبة التامة المطلقة التي لا أتجول عنها الى درجة
أننى كنت أعيب الزواج على رجل عرفته أعزب ثم أراه يشزوج ،
وكانت فكرة العزوبة متمكنة منى لأسباب كثيرة ، أولا لاعتقادي
أن المرأة المصرية فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين لم
تكن تصلح لمعاشرة رجل مصرى ، فضلا عن أنها بصفة عامة - حتى
ولو كانت متعلمة تعليما عاليا - لا يمكنها أن تعاشر الرجل العقل
intellectuel ، ولا تصلح لتربية الأولاد ولا تستطيع أن تصعد
مع الرجل من الدرجات الأولى فى سلم الحياة الى آخر الدرج .

وعدا عن هذا فقد كنت فى الحق أعتقد أن المرأة عنصر تسيب
وضجر وضرر للرجل خصوصا الرجل الذى له أغراض مهينة فى
الحياة ، ولذا كنت كثير الاهتمام بتدوين كل ما يصل الى علمى
مما يؤيد نظرتى الى المرأة من الأفكار المعروفة كذكر الشرور التى
حصلت فى العالم بسبب النساء والأحوال التى اطلعت عليها
بالمطالعة أو المشاهدة ، ومن ذلك ما رواه لى فى سنة ١٩٠٤ أحد
موظفى المرصد فى حلوان عندما كنت معلما فى مدرسة حلوان من
أن الرئيس الانجليزى قال للموظفين عندما سألوه لم لا تتزوج
يا جناب المدير وأنت رجل صحيح الجسم والفكر ميسور الحال ؟
فقال : لقد سألته نفسى وخيرتها بين الكتاب (يرمز الى العلم والدرس
والمطالعة) وبين المرأة (يعنى الحياة العائلية) فاخترت الكتاب
لان الجمع بينهما مستحيل . كانت أمثال هذه الأقوال تستهوينى
وأرتاح اليها ، كما كنت أرتاح كلما عثرت على تاريخ أو قصة
أو حادثة تثبت صحة نظرى فى المرأة ، فكان لسورة يوسف فى
نظرى شأن كبير ولا سيما آية « ان كيدهن عظيم » ، فقد كنت
أقف أمامها معجبا لأنها صيغة نهائية a final formula مثل قوله
تعالى « ولكم فى القصص حياة » .

وكان أبى رحمه الله يكتب لى خطابات فى أوربا يعرض على فيها زواجا من فلانة وفلانة قريباته وقريباتى أو من فلانة التى صفتها كذا وكذا ، فكنيت أسخط حيننا وحيننا أسخر !

فلما حدثت هذه الوفاة ، شعرت بوحدة أليمة فى الحياة ، وشعرت بحاجتى الى من يؤنسنى ، وشعرت بضرورة المرأة فى حياة الرجل اذا كان يريد أن يعيش مستقيما وأن يضمن السلام فى حياته الداخلية وأن يضمن التوازن فى حياته العقلية ، وبالجمله شعرت بكل ما يشعر به صاحب العمل العقل من الحاجة الى مرفأ أمين يستريح الرجل لديه بعد الزوايح الخارجية ، وكان هذا الشعور طبيعيا وانه لشعور عظيم اذ جرت المقادير به وبما تلاه ، هو شعور منطقى وطبيعى اذا نظرت اليه نظرة مثالية واعتقدت أن الوسط الخارجى يتلاءم مع نظرتك الى الحياة وأناك تجد من يعينك ويغهم ميولك ويخلص لك .

ولقد ثبت لى بطريقة قاطعة حاسمة جليلة واضحة أن الطبيعة البشرية هى فى كل زمان ومكان وفى كل الظروف ، وأن المرأة الشرقية كالغربية والمتعلمة كالجاهلة والذكية كالغبية والصبيبة كالعجوز ، لا فرق مطلقا ، وأن الزواج هو فح متين جدا تضافر على صنعه الطبيعة البشرية والدين والنظام الاجتماعى ، وهو بمثابة تقديم تضحية انسانية هى الرجل للمرأة التى تمثل الحياة ، ولا بد أن هذه التضحية تحترق وتقنى لتتم مراسم هذه العبادة !

لقد سبق لى أن عشت مع امرأة أوربية مثقفة وكانت قارئة وكاتبة وقد سمحت معها فى بلاد أوربية كثيرة وأقامت معى فى مصر عاما وبعض عام (١)، فوجدت أن عنصر حياتى هو العنصر العقلى ليس العنصر المادى ولا الغذائى، ويضاف الى هذا العنصر العقلى عنصر الفن

(١) انظر صفحة ٢١٩ - ٢٢٧ من هذا الكتاب .

والجمال . وقد وجدت في هذه المرأة الأولى كل معنى . فقرأنا كتبنا معا وزرنا المتساحف معا وتجولنا في الغابات وفي البحار والبحيرات وعلى ضفاف الأنهار معا ، وكانت هذه المرأة مخلصنة وعاقلة وشديدة الذكاء ، وكان يجب على أن أجعل هذه الحياة دائمة ، ولكن عقبات شديدة قاسية قد وقفت في طريقي ، فضحييت بهذه السعادة في سبيل اعتبارات كنت أظنها أسنى من السعادة وهي الواجب العائلي ، ولكنني اكتشفت خطئي بعد ذلك ، وكان يجب على أن أكون مستائرا أنا نيا أنظر لحقوق نفسي على قبل أن أنظر إلى حقوق الغير ، ولكن هكذا جرى القدر ، فعلمت أن تضحيتي لم تنفع أحدا ولكنها أضرت بي ضررا بليغا ، ولكنني لم أندم لأنني تعودت أن أفضل الغير على نفسي سواء أكان قريبا و غريبا . وأظن هذا في ضوء العلم الحديث يعد نقصا أو مركبا واسمه العلمى الحقيقى « inhibition » ويكون ملازما لأمثالى ، ومن عناصره أو مظاهره التواضع ونكران الذات والايثار وانتظار نتائج معنوية كبيرة من التضحية والبذل ، ولكنني اكتشفت دائما أن الناس لا تعير صاحب هذه الخصال التفاتا ولا اهتماما ، وكثير منهم يسخرون منه في دخيلة أنفسهم ويضحكون في أكمامهم لاتجاه الكثرة من الناس الى استغلال الذين عندهم هذه الخصال التى لا تعد فضائل فى كل الأوساط بل لا تعد فضائل الا عند القوى الجبار القادر على القهر واستلاب الغنيمة ، وأما الذى يفرط فى حقوقه لأجل « المبدأ » فهيئات أن يؤبه له .

وعلى كل حال فاننى عدت الى وطنى تحت تأثير فكرة خاطئة ، فقد كان من الميسور لى أن أعيش بعيدا أو أن أعيش سعيدا أو أنتج نتاجا موفقا وأن أعيش عمرا مديدا فى سعادة محققة ، ولكن اعتبارات وطنية ودينية وعائلية هى التى حولت سفينة الى شواطئ تلك البلاد « الوطن العزيز » .

كنت أرى فى لندن وباريس وإيطاليا والنمسا عجائب هذا الوجود وعظمة الانسان مما يحير العقول ويسمى الإعجاب ، فأقول ان بلادى مع انحطاطها وسقوطها أجمل من هذا كله وأنى خليك بان أخدمها وأعمل على رفعتها لتصل الى هذا المستوى أو قريبا منه .

حقا لقد كنت أشعر مع الإعجاب بالغيرة أو الغبطة ، فأتمنى أن يكون لنا فى وطننا أشباه ما أرى فى الأخلاق والآداب والتعليم والحقوق والتعاون والكرامة الانسانية والحرية الرشيدة ولم أكن أعلم قط ما تخبئه الأقدار ! . كنت وأمثلة محمولين على أجنحة الخيال والمثل العليا ، وكنت أعتقد أن وجودى فى وطنى أمر ضرورى ، ويزيدنى تجمسا واعتقادا ما أسمعته عن نفسى وقدراتى وملكاتى عن اليمين وعن الشمال فصدمت ، ولكن هذه كلها كانت أقرالا لا تتلوها أفعال ونفاقا ومراة وتدريب السنة ذربة على الباطل والخداع !

كان هذا الوطن فى نظرى قبل أن أكابد الحياة فيه بمثابة الجنة وكنت أصلى وأحارب الشهوات وأمرن نفسى على الصبر لأبر بوالدى وأهلى أو من بقى منهم وأزكى من مالى وان قل ، وأضحى بفكرى وعقلى وصحتى طمعا فى الوصول الى الأمل المنشود وهو رفعة الوطن ، ولم أبدأ فى رفعة نفسى ، وكان معى أناس قد رسموا خططهم وفرغوا منها فى تقلد الوظائف واقتناء الأموال وزواج النسوة الغنيات السخ .

لا أحب أبدا أن أظن أن الانسانية كلها مريضة بهذه الأدواء ولا أن كل الناس مصابون بهذه العلة ، ولكن المشاهدة والاختبار دلتنى على ذلك ، وأن العالم منقسم الى قسمين واضحين كل الوضوح ، أصحاب الآراء وضحايا المثل ، وأصحاب المنافع الذاتية والأطماع « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا واذكر

اسم ربك بكرة وأصيلا » • وان أفراد القسم الأول ينتهون بالحبية والفشل والاحباط ، والآخرين « ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا • نحن خلقناهم وشددنا أزهرهم واذا شئنا بدلناهم تبديلا • ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا وما تشاءون الا ان يشاء الله • ان الله كان عليما حكيما • يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدا لهم عنايا أليما » •

ان أصحاب المثل العليا - حتى اننوايغ منهم - لا يصلون الى شىء من أمانيتهم الا اذا اتخذوا الوسائل الملتوية وعطلوا مواهبهم التى تخيلت أنها لا تستقيم ولا تزدهر الا فى جو من الفضيلة ، ولكننى للأسف وجدت أن الفضائل حبر على ورق ووعود خلافة ما لم يكن لديك القوة المنفذة وفراغ الفؤاد تماما من الموانع الأدبية، أما أبواب هذه الموانع والموانع الأدبية والمعنوية فلا ينجزون ، والنجاح هنا معناه جمع المال بآية طريقة والوصول الى بيئة النفوذ فى الأمة مهما كانت هذه الأمة ساقطة •

فما أجمل أخلاعى وأحلام أمثالى وما أجمل آمالى وآمالهم فى وقتها وهى القائمة على الوحى والكتب المنزلة وأقوال الحكماء !

وفوق هذا كان فى نفسى اقتناع باطنى يشع من الضمير ، ذلك الضمير الذى لا يقبل غير هذه المبادئ الجميلة ، وكان هذا الاشعاع قويا بحيث أكذب المشاهد والمرئى والمسموع والملموس والمحسوس وأخدع نفسى بأن الذى أراه هو أشباح وصور ، وأن الذى فى نفسى هو الحقيقة المطلقة ، ولكن استمر ثبوت الأشباح والصور وطالت آجالها وتقوت أواصرها بينما أخذت مبادئ تقاوم وتنافى وتدافع ضد تيارات قوية جدا ، فاستمدت تارة من الدين والقرآن ، وتارة من حياة العظماء ، وتارة من حبنى للمعرفة والاستزادة منها وثقتى التامة المطلقة بما كتب وقيل وأكد لنا •

وكان كلما يقترب اليوم الذى يحتم على فيه أن أحكم حكما قاطعا ، أتخذ كل الوسائل لتأجيله كأنه قضية مهمة معلق على رأسى سيفها ، أى الطريقين حق وايهما أحق بالاتباع ، أى الخطتين أصدق وأصح وأسلم عاقبة ؟

لا تظنوا أننى بقيت فى الحيرة زمنا طويلا ولكننى صممت على أن أتبع الطريق الأول الذى اعتنقته واعتقدته على الرغم مما أعانى فيه ، ولكن لم يغب عن ذهنى مطلقا أن وقت التضحيات الكبرى قد مضى وانقضى ، وأننى أعيش فى غابة وحوشها مطلقة القيد وأفاعيها منسابة وجوارحها منقضة •

ومن المصائب الكبرى أنك لا تجد بجانبك سندا ماديا من رجال أو أشياء فتشعر بوحدة أليمة وحولك الضحكات والسخرات المكنمة الجبابة ، ووراء يومئذ الألسنة المسممة والأعين الخبيثة والقلوب السوداء ، وحولك الغيبة والنميمة والتشفى والاشفاق الكاذب ، وحولك الحسد وأمانى السوء وتربص الخونة والكلمات الملاذعة تهمس وقد تنازع • وشيئا فشيئا رأيت الحقيقة ، وأن الأعوام تجرى والدهر لا يقف والعمر لا يتناول الى تحقيق الأمانى ، والأهم لا تنقى ولا ترقى ولا تهذب فى أعوام ولا فى عشرات الأعوام ، وربما تتم تنقيتها فى المئات ما لم يكن الأمر مكتوبا ليتم على يد نبي عظيم أى نبي ناجح ، وحتى الأنبياء ينجح بعضهم وتفشل الكثرة العظمى ولا تبقى من سيرتهم الا نعيهم والأسف عليهم فى الكتب المنزلة • وحتى هؤلاء الأعداء للحق وخصوم العدل وأنصار الظالم لا يتركون لك جو الحرية لتعيش ضمن الرعايا المقضى عليهم بالصبر والرضا ، فهنا معركة حامية حتى على حقل فى الحياة ! ، فلا يكفيهم أنهم يستأثرون بكل شيء ليخربوا كل شيء وينهبوا كل شيء ويعدموا كل شريف وعزيز وغال ، بل يعملون على محاربتك لينتزعوا منك

مقعدك الصغير في مضمار الحياة ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا .
وحتى عندما تحصر غايتك في ترقية نفسك وتهذيبها وتنقيتها
وتكف عن الخدمة العامة ، فانهم ينفسون عليك ذلك ويعملون على
عرقلتك بوسائل صامتة خبيثة كالنار التي تاكل الحطب ، وكلما
أطفأناها ازدادت سعيرا واشتعالا .

وقد اكتشفت خطط « الشلل » والعصابات Cliques
التي تعمل بانتظام وعمل اللصوص والمجرمين وعددتها وحددتها
وعرفت وسائلهم فقد درج المصريون في مطلع هذا القرن والتحدثون
منهم أيضا على أن يكونوا شللا تتعاون على الوصول الى أغراضها
مثل المناصب والأموال والشركات ، وهي غير الشلل الأخرى التي
درجت على تنظيم الفساد ، وهذه الشلل تجتمع وتذيع أنها ألفا خلق
الله في المشروعات السياسية والعلمية والأدبية ، ومن قوة هذا
المذهب فيهم أنهم قد يتناقضون أحيانا ، ولكنهم يتصدون هم أنفسهم
لنفس الأعمال المتناقضة .

فمثلا بعض الوزراء الموقعين على دستور سنة ١٩٢٣ هم الذين
أوقفوه وعطلوه سنة ١٩٢٨ أو ألغوه سنة ١٩٣٠ ، وعندما خطر ببال
الحكومة وضع دائرة معارف مصرية وهو مشروع فكرت فيه من
سنة ١٩٠٩ وخاطبت فيه الملك فؤاد سنة ١٩٣٤ ظهر نفس
الأشخاص المشهورين في الأدب والذين لا تخلو منهم مجلة أو جريدة
أمثال طه حسين ومنصور فهمي ولطفى السيد .

كان أفراد هذه الشلل والعصابات يودون أن يضموني الى
صفوفهم ولكنني عرضت عنهم واحتقرتهم ولم أقبل أن أتواطأ معهم
على وطني ، وما الوطن الا هؤلاء المساكين من الفقراء والضعفاء
واللادين والعائشين بغير شعور ، فكان ترفعي وابتعادي عن دوائر

الاحتلال ، وجعلوا لسانهم الناطق أو الشاعق أحمد لطفي السيد ،
وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية الذي أسسه الشيخ علي
يوسف سنة ١٩٠٧ أيضا بإيعاز من الخديو والانجليز وضم أعضاء
كانوا جميعا خدما للانجليز وللخدويو وكانوا أرباب مطاعم ومصالح .

في هذه الفترة لفنت هذه الأحوال نظرى الى معضلة العائلة
والزواج وطننت أن السلوى والمشوى والملجأ والحصن الحصين
والركن الركين ، هو ذلك البيت أو المرفأ الأمين ، مستظل الزوجة
ومملكة المرأة ومراح الرجل ومتنزه الوالد ومرتع هناء البنين ومسرح
مسراتهم ومجتمع الأقارب والأصدقاء ومعبد الله وهيكل المعرفة
ومستقر المتعوب والمنهوك الى حين .

وأبادر فأقول اننى لست من أنصار ما يسمى بالحب العر
« amour Libre » الذى يبيع العشرة بغير تعاقد ويمحو القيود
التي تربط الرجال بالنساء لمصلحة الزوجين والأولاد ، وأبادر
فأقول أيضا مخاصمتى لهذا النظام ليست «احتراما منى للقوانين
أو للنظم السائدة فان هذا الاعتبار خارج عن نطاق بحثى ، ولكن
أرفض « الحب الحر » لأنه لا يقدم ولا يؤخر ، فها أنا - كمسلم -
أملك الطلاق والانفصال عن المرأة ولا أخشى فى طلاقها لومة لائم اذا
تبت لى أنها غير صالحة للحياة الزوجية ، ولكن مادام الرجل ليس
سكيرا ولا مقامرا ولا زير نساء ولا مصابا بداء خلقى خفى، وما دامت
المرأة التى اتخذها زوجة ، عفيفة وأمينة على عرضه - ولو كانت
سفيهية أو مبذرة أو سليطة اللسان كزوجة سقراط - فلا بد أن
يقيمها فهو بها أولى وعلى صونها أقدر ، ولكن رجلا مثل ابراهيم
لنكون ما كان يصح له أن يحتفظ بامراته ولكنه صبر عليها وهى
تضع العقبات فى طريقه وتعطل حيساته واحتفظ بها الى أن مات
مقتولا باغتيال سياسى ، وصبر سقراط على زاتييب لانها لم تعطل

فلسفته وتعليمه ولم تعترض حريته ولم تعرقل عمله ، دعاش كما يشاء ومات كما يشاء وأثنى عليها قبل موته ، وهى بلا ريب لم تفهمه ولم تفهم كلمة من فلسفته ، ولكنها لو فرت منه ما كان يسعى لاستجلابها فيكفى أن يصبر عليها دون أن يسعى فى استردادها .

وقد قوانى على نبذ نظام الحب الحر كراهية حياة الانسداد والاحتياج الى عشرة المرأة المباحة فى تحفظ ، ولا أقول ان مثل هذا النظام يشمل دائما ولكنه ينتهى دائما بأن الرجل يرغب فى النهاية على الزواج من المرأة التى عاشرها ، كما فعل أوجيست رودان مع الخادمة التى أعطته حياتها أو أناتول فرانس ، ويسمون ذلك تصحيح الموقف ، ويدخل فى ذلك الاعتراف بالنسب بعد أن ينتضى الأولاد فترة من أعمارهم منسوبين الى أمهاتهم ، وأنا لا أطيق ذلك ولا أحب أن أرزق أولادا الا اذا ضمنت لهم الانتساب الى ، فكيف أرى بالحب الحر ، حاشا لله أن أفعل ذلك أو أقبله .

ألا ترى لقصة « المذنب » تأليف فرانسوا كوبيه ؟ ألا ترى لنسب ديماس الكبير على أنه رزق ابنه بغير زواج شرعى فلم يستطع التخلي عنه ولم يعجن عليه الا الفضيحة مع نبوغ الابن حتى فاق أباه ؟

وبالجمله فان هذه النظرية التى هى زواج المتعة معذلا لا تروقنى ولا أقرها ولم أقرها فى شبابى ، فكيف كنت أقرها بهذا بلوغ الثلاثين ؟

لقد حاول بعضهم أن يقضى على الزواج فى أوروبا لأنه مبنى على التدين والتدقيق ، فاذا تقوض قبل أن ترسخ فى النفوس

أصول جديدة للآداب ، تقوض أعظم ركن من أركان المجتمع الرأسمالي الحديث ، فان المجتمع الحديث في أوربا وأمريكا - على الرغم من تخليه عن العقائد الدينية - لا يريد أن يتخلى عن نظام الزواج . نعم انهم اباحيون تقريبا ولا يترفع أحدهم عن اتخاذ السرارى والمحظيات كلما كسرت ثروته ، وقد تنسرى المرأة الغنية باتخاذ رجال مأجورين لممارسة صناعة الحب المحرم ، وقد كتب كاميل موكليز في أوائل هذا القرن كتابا بعنوان « مقال فى الحب البدنى » أباح فيه عهارة الرجال ، وفي أوربا وأمريكا فى هذا العصر المضمحل وضعوا تسهيلات للطلاق لا تخطر على العقل ، فيأتى الزوج أو الزوجة ليعترف صراحة بأنه زنى ليحكم بالطلاق ويهاجر أحدهم الى ولاية مجاورة ليدفع رسم الطلاق فيتم فى بضع دقائق ، وقد حكم قاض فى سنة ١٩٣٨ فى محكمة باريس بغرامة خمسة عشر فرنكا (١٥ قرشا !) عقوبة على زوجة زانية بحضور زوجها وحماتها وقد شهدا تلبسها بالجريمة !!

ولكن هذا المجتمع الغربى الذى وصل عنده العرض الى هذه الدرجة ، ما يزال مع ذلك متمسكا بالزواج الشرعى لاعتبارات اقتصادية وسياسية .

ولذا كان اعتقادى أن الارتباط بعقد الزواج ضرورى لى أنا شخصا ، وأبيت أن أتزوج من امرأة أجنبية أوربية أو شرقية (كالتركيات والشركسيات) لأسباب كثيرة وجيهة فى نظرى ، وان كنت قد تذوقت السعادة العقلية فى عشرة نسوة من هذا القبيل ، فعندى أن الجنس المتحد - ولو كان منحطاً - خير من الجنس المختلط النوع ولو كان راقيا ، فان أولادى مهما كانت درجتهم العقلية سيحبون وطنهم ودينهم وأمتهم ولن يتبرأوا من أحدهما كما أرى « أولاد الذوات » الذين يفاخرون بأنهم ترك وشركس وأكراد وأرانطة وروم ومغاربة أو خليط من هؤلاء جميعا .

وملخص القول اننى فى مستهل السنة الثانية بعد الثلاثين

تزوجت بامرأة مصرية صميمة (١) ، وهى سن حسنة ومعقولة بالنسبة لظروفى الخاصة وان كانت مناشرة قليلا بالنسبة لشرقى ومصر والاسلام ، وكان يصح لى ما دمت مقدورا لى ان افق فى هذه « الحفرة السعيدة » ان أتزوج فى الخامسة والعشرين على الاكثر ، ولكنى من الخامسة والعشرين الى الثانية والثلاثين كنت فى ظروف اليمية بسبب مرض آخر أفراد أسرته مرضا خطيرا اقتضى حبه له واحترامى لذاته وتقضى لله أن أتفرغ لخدمته والعناية به طول هذه السنوات السبع من ٢٥ - ٣٢ وهى الآن فى نظرى خير سنوات الحياة والسبب ، ولكن هكذا كان القدر .

اتعلم على من وقع اشتياؤى ؟ . لقد انشرت بالنسبة العامة التى أوصانى بها هذا القريب (وهو سيده) والتى قالت لى « لقد تبعت هذه الفتاة لتكون زوجة لك » . على كل حال وقعت فى « الفخ » وأنا أظن أن هذه الفتاة تدهل أورا أو عينا وأمانة من هذا القريب العزيز (وهو سيده كما قلت) وأنها وصلت الى عن طريق الوصية التى سمعتها بأذى ، وأضيف الى ذلك أن البنت أظهرت من الولاء والاخلاص ما جعلنى أعنفق أننى ظفرت بدرة الدهر وبنيمة الزمان وحجر الفلاسفة وخاتم سليمان !

كنت فى سنة ١٩٠٤ فى السابعة عشرة من عمري كتبت قصة مصرية « فى وادى الهموم » وذلك فى طفولة الشباب قبل أن أستدير الى العزوبة ، وقد جرى قلمي بوصف الزوجة التى أتمناها ، فكتبت بقلم طفل أننى أريد فتاة مخلصه طيبة القلب تقودنى بيدها البريئة فى دياجير الحياة ، وليس يهمنى جمالها ولا مالها ، بل اننى لا أريدها

(١) هى السيدة الحسبة السيدة نفيسة هاشم محمد فهى حسن الامراسى .

ذات مال بقدر ما تهمنى طبيعتها وإخلاصها وأمانتها . . . الخ . طبعاً
هذه آمال طفل وأفكار طفل ونظرة طفل للحياة ، وقد عرفت فى
الحياة وقبل الزواج غير هذا النوع من النساء ، ولكننى حافظت
على حياتى واستقامتى على قدر طاقتى .

ولكن ما قولك أن هذه الآمال وتلك الأفكار بقيت فى قلبى
خمس عشرة سنة كاملة الى أن تزوجت ، وقد شاعت المصادفة أن هذه
التي تزوجتها كانت تنطبق عليها معظم هذه الصفات ؟ . وقد وقع
فى قلبى منذ رأيته أنها ستلد لى أولادا ، ولم أدر كيف يتم هذا الأمر
ولم أفكر مطلقاً فى الزواج ، وهذان الأمران يجب أن أسجلهما
لغرابتهما ، لم أنفر منها عند رؤيتها للمرة الأولى وأحسست أنها
ستكون أم أولاد لى .

لقد كان من أقوى الأسباب الكامنة فى عقلى الباطن التى عجلت
بهذا الزواج كلمة أستاذ لى كنت أحبه وأحترم آراءه وهى « أن قلب
الرجل المحبوب من زوجته أعظم لها وأنفع وأجدى عليها وأبرك من
جامعة عليا تتلقى فيها علوم الدين والدنيا » . وقد فهمت هذه
الكلمات التى تلقيتها عنه وأنا فى الخامسة عشرة بالمعنى الذى
يقصد اليه وأعجبت بها ، ولكن أستاذى هذا وهو المرحوم على فوزى
المتوفى فى الاسكندرية وحيداً منفرداً فى سنة ١٩٣٥ لم يتزوج
وقد طاف أنحاء العالم وكان عالماً أديباً ولم يعلم عنه أحد سوءاً قط ،
وطالما عجبته فى رجولتى كيف أدرك الرجل هذه الحقيقة وهو لم
يمارس الحب على ما كان يظهر منا نحن فريق أصدقائه وتلاميذه ،
ولكن من يدرى ، فلعل حذره كان أكبر من حبه أو عقله أضخم من
عاطفته أو خوفه من المرأة أقوى من انجذابه اليها ، على كل حال
كانت هذه الكلمة ماثلة لذهنى .

فلما انقضت أيام العدد (وقد جعلتها ثمانية أشهر من ديسمبر سنة ١٩١٧ الى سبتمبر سنة ١٩١٨) ، وقبل نهاية الحرب الكبرى وقبل الحركة المعروفة باسم « ثورة ١٩ » بسبعة أشهر ، عقدت زواجى على هذه السيدة الحسبية النسبية نفيسة هانم محمد فهمى الابراشى .

كانت حياتى معها فى الجملة هادئة ، فان الله لم يسمح لاحد من الأقارب أن يكشروا عن أنيابهم أو يستدرجوا السيدة الى حظائر « الغضب الزوجى » أو الاحتجاج ، لأن السيدة نفسها لم تنشأ أن توافقهم ولم تمكنهم ، ولعلها أحسست بفطرتها أن مجرد خروجها من بيتها بهذه الفكرة قد يخلقه فى وجهها الى الابد ، فاننى وان كنت لبنا هينا ، الا أننى لا أفهم نظرية « الغضب الزوجى » القائمة على الشجار والفراغ والمفاوضات فالصلح فالرضا ! ولا أفهم عقلية الزوج الذى يعيد الى بيته زوجة خرجت منه غاضبة ، فان المرأة الغاضبة لا أمان لها على نفسها .

ويجب على أن أسجل للحق والعدل أن السيدة قد فهمت مبكرة وجهة نظرى وقامت بأعمال ايجابية عقلية وروحية دلت على أنها تشاكرنى هذا الرأى وتحرص على رأى وارادتى من هذه الناحية .

واذا نظرت من ناحية أخرى الى حديثها وطريقة فهمها للأشياء والأشخاص ، فما وجدتها تخطئ فى فهمها جميعا فهما جيدا جدا الا نادرا جدا ، مثال ذلك لا تخطئ فى نتيجة خطلة رسمت بواسطة أو بواسطة الغير ، ولا تخطئ فى تحليل حادث بل تجد بسهولة تامة كل حلقة مفقودة ، فأكثر فى حديث أو فى سلسلة وقائع ، فتكمل أخلاق شخص اذا عرفت طرفا منها ، يصدق حكمها دائما فى المسائل الخاصة بالذوق والجمال والحق والعدل .

ولقد فطرت على حب المعرفة والشوق الى الكتب والقراءة والكتابة وان لم أقتض ساعات معينة في كل يوم في هذا العمل العقلي الهادئ ، فلا يستقر لى قرار ولا أستطيع الحياة ، ويجب على أن أقرر أن حياة السيدة وهديها قد مكنتني من التمتع العقلي الذي أريده مع التغلب بمجهود طفيف على العقبات .

اننى لا أؤمن بالزواج الذى يقوم على الحب ، لأن عمر الحب قصير وعمر الزواج طويل ، فاذا قصر أحدهما عن الآخر انهار البناء . وهو كذلك ليس زواج مصلحة ، لأننى لم أطمع فيما تملك وإن طمعت هى فيما أملك فمن حقها ، فكان زواجى منها نوعا من التعاون المادى والمعنوى والاشترار على قطع مراحل الحياة ، وكانت آمالى محصورة فى أن أعمل وأن أرزق أولادا من هذه المرأة بذاتها وأن أعنى بتربيتهم .

لم أكن أعتبر الزواج مقدسا كما ينظر اليه العامة ، ولكنه مقدس فى نظرى بالنسبة لأولادى . ولأننى لا أحب أن أعتبر المرأة سلعة أو محظية أو أداة للملذات ، فلا بد أن أشعرها أن أولدها أولادا بكرامتها الانسانية وحريتها فى الحياة وحقوقها كزوجة ، ولكنها لم تشترط على أن لا أطلقها أو أن لا أتزوج من سواها ، وهو ما لم يحدث والحمد لله — ولم تحتفظ بهذين الحقين لنفسها وإن كنت عرضت عليها حق الاحتفاظ بعصمتها (أى يكون طلاقها بيدها) عند العقد أمام المأذون والشهود فرفضت .

ان الزواج الشرعى ان لم يكن مضمونا بالاخلاص والصدق والتقدير فلا قيمة له ، وقد كانت السيدة مخلصه وصادقة ومقدرة .

من يوميات سنة ١٩١٧

الأحد ٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ . .

تقابلت مع وجيه بك سكرتير الجامعة بناء على طلبه وفأوضني
في تدريس القانون الجنائي وقبولي مبدئيا ووعده بارسال خطاب
مؤيد للاتفاق الشفوي .

الاثنين ٨ أكتوبر . .

" مقابلة صادق فهمي بكتبه واخبره بما تم في شأن تدريسي
القانون الجنائي في الجامعة . ، وقد أفضى الى إحداث مناقشة في
هذا الموضوع .

الجمعة ١٢ أكتوبر . .

وصول خطاب من الجامعة المصرية مؤيدا للاتفاق الشفوي
ممهواً بامضاء محمد علوي باشا ومقابلة صادق فهمي ليلا والمحادثة
معه في هذا الموضوع ، وارسال رد على هذا الخطاب الى الجامعة
بالقبول .

السبت ٢٠ أكتوبر . .

ألقيت اليوم المدرس الأول على طلبة الحقوق بالجامعة المصرية
من الساعة الرابعة الا ربعا حتى الخامسة الا ربعا .

من يوميات سنة ١٩٢٢

١٢ مايو سنة ١٩٢٢

حديث محمد نافع باشا عضو شورى القوانين عن الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والشيخ محمد درويش (١) :

حدثني محمد نافع باشا بحضور الدكتور فوزى أبو السعود بمصر الجديدة ، قال الباشا المذكور « لقد أدركت الشيخ جمال الدين الأفغانى منذ أكثر من أربعين عاما ، كان الأفغانى وسطا فى جسمه لا طويلا ولا قصيرا ولا بادنا ولا نحيفا ، ولكن كان عريض العظام واسع الهيكل ، وكان وجهه عريضا وله عظام بارزة فى الخدين بروزا واضحا ، وكانت جبهته كنصف هذه المائدة (وأشار إلى منضدة من الممر) وكان لونه زيتونيا وشعر لحيته أسود ويلبس عمامة عالية وجبة وصديرية وسراويل مثل علماء الأتراك ، وكان يتهادى فى مشيته ويتكلم بغاية الثانى بصوت أقرب الى صوت الشباب من صوت الرجولة ، وكان فى نحو الخمسين من عمره وكانت عيناه واسعتين وحركات وجهه تدل على ما بنفسه ، وكان ساعرا خلابة بلفظه وأسلوب كلامه ونظراته .

(١) كتب لطفى جمعة مقالا ضمنه هذا الحديث نشره بالبلاغ الأسبوعى « فى ١٩٢٩/١/١٣ وأعيد نشره فى كتاب لطفى جمعه « مباحث فى التاريخ » ، عالم الكتب ، القاهرة . سنة ٢٠٠٠ م .

ولم أكن أعلم شيئا عن تميّاته الخاصة ولا أين يسكن ولا كيف يعيش ، ولكن كنت أراه يأتى كل يوم الى قهوة متانبا وكانت أوجد وأجمل قهوة بمصر ، فيجلس تحت إحدى قناطرها (البواكى) ويشرب الشاي ويدخن نارجيلة ، وبعد نصف ساعة يحضر نحو مائة شخص فيجلسون حوله ، وأقربهم اليه الشيخ محمد عبد و ابراهيم اللقاني والشيخ حسن الطويل ، وكان ابراهيم الهلباوى يحضر وهو يلبس عمامة ، وكان الشيخ جمال الدين يبدأ يتكلم من حوله فيلقى محاضرة أو درسا ، ولم أكن فى ذلك الوقت أفهم شيئا مما يقول ولكن أدرك أنه لو كتب كاتب كل ما كان يلقبه لخرج كتابا حسنا .

وكان أعيان مصر وذواتها يتهافتون عليه ويتقربون منه ويتشرفون بمعرفته مثل ثابت باشا وغيره .

وكان الشيخ فى كلامه يحض على الثورة والضيان ضد الظالم ويعطى على استبداد اسماعيل باشا ويهيج أفكار المصريين . وقد أتى له أن يلقى دروسا فى الأزهر الشريف فحدث عليها إقبال شديد ، ثم أن الوزير رياض باشا منعه من الاستمرار ، ولما استغنى عن أمره سفروه ليلا الى السويس .

كان الشيخ جمال الدين طروبا ويحب مجالس الأنس ويتكلم باللغة العربية فى كل مكان . حضرته مرة فى حفلة غناء حيث كانت تغنى ألحان الشهيرة وكانت عادة تغنى دورا وتستريح ، فيقف « مطيب » لها اسمه حسن الصدفجى وكان مهرجا ، وكان الشيخ قد طرب ليلة فوضع يده على جبينه ثم انقطع الغناء وبدأ حسن الصدفجى يهرج ، فنهض الشيخ جمال وقال : يا حسن يا صدفجى . فقال له الصدفجى بصوت ولهجة الهازى « نعم يا صيدى ! » فقال له : من تحب أكثر ؟ فأجاب الصدفجى : امرأتى . فضحك الشيخ وقال : أقصد من من أولياء الله . قال : سيدنا الحسين

فقال الشيخ : حلفت عليك به أن تبطل التهريج والمسخرة ، فاما غناء باستمرار واما سكوت تام الى أن تعود الست الى الغناء . وعند ذلك صار الناس يهمسون باسمه وينهون المطيب عن الاستمرار في لهوه اكراما للشيخ .

ثم قال نافع باشا « ويغلب على ظني أن الشيخ حضر الى مصر مرتين وأقام في كل مرة مدة طويلة ولولا ذلك ما أمكن تلاميذه أن يتفقهوا عليه ، فقد اقتضى تفقهم مدة حسنة .

وقد أنشأ الشيخ جريد « القاهرة الحرة لا انفصام لها » ، فصححت له تقصد « العروة الوثقى » . قال نعم وأيضا أنشأ القاهرة الحرة ، وأظن أن سبب الاقبال على الشيخ جمال وعظم تقديره بواسطة المصريين في زمنه أنه كان منفردا بعلمه وكان علمه واسعا بالنسبة لأهل زمنه ، وكان المصريون في غاية الجهل ، فكانوا يكتبون « بمشيقة الله سيمر الباشا لتفاد الأحوال » يقصدون « بمشيقة الله سيمر الباشا لتفقد الأحوال » ، وأن بضعة النبهاء الذين كانوا في البلد كانوا متعطشين لعالم مثله ، وأظن أنه لولا حضوره وزيارته مصر ما كان أحد يظهر ممن ظهروا بعد ذلك بالفكر وسعة العلم كالشيخ محمد عبده وأصحابه وتلاميذه .

ثم قال نافع باشا « وكانت عقيدته غير الاسلام الصريح ، Athée وعلى هذا كان أتباعه فيما أظن وان كان يتظاهر به (١) .

ثم استطرد الباشا الى وصف الشيخ محمد عبده فقال :

« كنت أراه في صباه اذ كان يحضر مجالس الشيخ جمال الدين ، فكان في مقتبل العمر وعليه علامات الذكاء الخارق

(١) هكذا سجل لطفى جمعة نقلا عن محمد نافع باشا .

والهيبة والجلال بالرغم من شبابه ، وكان أقرب المقربين للشيخ ،
 وكان يسميه اسما خاصا كآنى به « روح الجماعة » أو « عقل
 الحلقة » أو ما أشبهه .

ثم استطرد نافع باشا الى وصفه اذ كان عضوا فى مجلس
 شورى القوانين حيث كان نافع نفسه عضوا فقال :

« لقد أوجد الشيخ محمد عبده فى المجلس لنفسه مركزا
 ممتازا ، فكان يدخل قاعة المجلس وعلى عينية نظارة وحول رقبتنه
 فرو وفى يده قفاز والآخرى خلو من قفاز وفيها سيجار كبير من طباق
 « هافانا » ، وفى يده عادة شئ يقرؤه ويستمر فى قراءته الى أن
 يصل الى وسط الغرفة فيقف له جميع الأعضاء ويتهافتون عليه
 لتحيته ، فيلمس أكفهم المبسوطة بأطراف بنائه ، وكانت مقابلتهم له
 أشبه بمقابلتهم للخويو وقد تكون أميز .

ثم استطرد الباشا الى ذكر قصة مدارها احتقار الشيخ
 محمد عبده لطلبة باشا سعوى وقال ان الشيخ رحمه الله كان يتصنع
 الكبرياء وكانت هذه الصفة مكروهة فيه ، ويظهر أنه كان يتكبر
 على بعض الناس ويتلطف مع البعض .

ثم وصف نافع باشا زيارته للشيخ فى مرض الموت فى بيته
 بعين شمس فقال انه كان مجلس علم وكان يخاطب زائرا أزهريا
 نجيبا فى مسألة علمية مدارها تحرى النبى فى أمور وتطبيق قواعد
 العلم عليها دون الاكتفاء بالدعاء أو الصلاة . وكانت ابنته الصغيرة
 تحمل له وردا من الحديقة وقد أجلسها بجواره فى السرير .

ثم تحدث نافع باشا عن الشيخ محمد درويش شريك الجبرتى
 فى تحرير التاريخ المشهور فقال « كان يوجد رجل شهير اسمه

محمد بك سيد أحمد والد أمين باشا سيد أحمد وكان يشغل منصباً مهماً في الحكومة ، وكان فوق ذلك مشتغلاً بالعلوم والآداب ، فعلم بوجود رجل عالٍ في بلدنا دمديط وكان شريك الشيخ الجبرتي أو تلميذه أو كاتب يده في تأليف كتابه ، فأراد الاستعلام منه عن مسألة معينة وردت في التاريخ المذكور ، فحضر إلى بلدنا وإلى منزلنا فأحلفنا به وطلب مقابلة الشيخ محمد درويش ، وكان الشيخ المذكور يسكن في حارة معروفة باسمه وكان رقيق الحال جداً شبيمة العلماء ، فلما علمت بقصد البيك ، قلت له : ان الشيخ يحضر إلى هنا . فقال البيك : كلا بله من ذهابي إليه . وأنا قلت ذلك لعلمي برقة حال الشيخ وكون بيته خالياً من مظاهر الغنى ، فبعلاً أرسلت حالاً بعض الخدم بسجاجيد وطنافس وفرشوها في بيت الشيخ . وبعد قليل قمنا إليه ، وكان الشيخ عبارة عن قصص عظام ولكنه كان يستطيع النظر والقراءة إلى آخر عمره ، وكانت سنة اذ ذاك ١٢٠ سنة وكان لا يدخن ولا يفرط في شيء ، فلما دنونا وضع يده على جبهته لتظليل نظره ، ثم سأل عن البيك وقال له أنا أسمع أنك محب للعلم ومشتغل به ، وربت عليه ودعا له . ثم سأله البيك عن النقطة التاريخية المطلوبة ، فرواها له الشيخ وقال له : اننا كتبناها أولاً على الصورة الفلانية وهي الحقيقية ، ولكن الباشا (يقصد محمد علي باشا) أرسل إلى الشيخ في بيته في شبرا وطلب منه أن تكتب العبارة الفلانية وغيرها على صورة مخالفة للحقيقة وموافقة لهوى الباشا ففعل .

ثم قال نافع باشا « واننى لا أتذكر ولم أكن أدرك المسألة المذكورة . ثم انصرف البيك بعد أن قبل يد الشيخ لدى القدوم ولدى الانصراف .

الاثنين ٣ يوليو سنة ١٩٢٢ ٠٠

● وفاة فرح انطون

فى الساعة السابعة صباح اليوم طرق بابى طارق من طرف
أجزخانة قيعانى بمصر الجديدة وأخبرنى أن « أنطون فرح » قد مات ،
فأدركت للحال أنه يقصد صديقى القديم « فرح أنطون » المريض
فى منزله منذ شهرين بتصلب فى شرايين القلب . وعند الساعة
الثالثة بعد الظهر قصدت منزله الذى هو فى الواقع منزل صهره
نقولا حداد بشبرا أمام المدرسة التوفيقية ، وقد صحبني بعض
الطريق صحافى مصرى اسمه « توفيق حبيب » ، فوجدت فى قهوة
صغيرة أمام المنزل فئة لا تزيد على عشرة أشخاص بينهم من الكتاب
خليل مطران ، وعلمت أن فريقا من الأصدقاء قد صعدوا الى شقة
المتوفى وهى فى الطيفه الرابعه - فلم أستطع الصعود لنسنة
تأتري .

وتكلم الجماعة عن وفيات الأدباء فذكر خليل مطران وفاة
جرجى زيدان فقال انه سمع نعيه ليلا من امرأة خرجت تشق جوف
الليل بصراخها وشرفة منزله وقال انه تألم لما أبغى أهله هذا المسكين
ليلة بطولها بغير دفن مندفعين وراء وهم حياته الذى وضعه فى رأسهم
حسين همت أحد الأطباء الشبان ، ثم ظهر فساد زعمه .

وقال خليل مطران انه لا يرهب الموت وأنه رأى خمسين وفاة
وأن أشنع الموت موت الطبيب اللبيب ، فانه يعلم سير المرض ويراء
فى نفسه (أقول وقد وضع بول بوجيه هذه الفكرة فى كتاب
Les Deux Sources .

واننا كذلك نتحدث اذا بشخص من الجالسين خارج القهوة
يقول لنا : هذه جنازة عبد الحليم المصرى الشاعر سائرة . فذعرنا

جميعها لعدم علمنا بوفاته ولغرابه هذه المصادفة المؤلمة . وفعلنا خرجنا
فراينا أشخاصا وثقنا برؤيتهم من صحة الخبر مثل محمود باشا
شكري وبعض موظفي البلاط ، فسرنا في الجنازة مشيعين الى نصف
الطريق ثم عدنا ، وكانت جنازة فرح قد استعدت وكان عدد المشيعين
ضئيلا جدا وبينهم من الأدباء الشيخ رشيد رضا ووحيد بك الأيوبي
وخليل مطران وإبراهيم سليم النجار وداوود بركات وبعض أفراد
أسرته ، ولم أجد أحدا ممن له علاقة بالتمثيل سوى محمود جبر
وسليم أبيض ومنسى فهمي ، وكنت من حملة بساط الرحمة .

ولما ركبنا المركبات نضال العدد جدا ، فكنا في الكنيسة عند
الصلاة عليه لا نزيد على عشرة أشخاص وفيما أقاربه وأختاه وكان
منظرهما وهما تسيران خلف النعش يفتت الأكباد حقا ، وقد
صلى عليه في الكنيسة ، وأخبرني سليم أبيض أنه كان معه للساعة
العاشرة من مساء الأحد أى قبل موته بسبع ساعات وكان يكلمه
ويضحك ، وكان محمود جبر أشهد الحاضرين بكاء وتأثرا .

ولما نقل الى المدفن حاول جماعة الدفانين تغطية الصندوق
بسرعة ، فاستوقفتهم ورثيته بتأثر شديد (١) ثم غطوه ونقلوه
الى حفرة وأهالوا التراب عليه الى الأبد وسألت جماعة عن المدة التي
يبقى فيها الصندوق فقالوا ثلاث سنين على الأكثر .

وفي العودة قال لي إبراهيم النجار ان عمر فرح كان خمسين عاما
وأن سبب موته حياة الفلاكة وعدم التنظيم في معيشته ، وأن التي
قضت عليه في الواقع امرأة أرمنية عرفها في سنة ١٩١٣ فأجهد

(١) نشرت هذه المراثية تحت عنوان « كلمة الموداع الأخير » بمجلة الرجال
والسيدات ، عدد يوليه سنة ١٩٢٢ . وأعيد نشرها في كتاب لطفى جمعه « قطرة
من مداد لاعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ٢١٢ - ٢٣١ .

نفسه فى حبها خمرا وغراما وأنها كانت تستحوذ على كل ربحه من التآليف ثم تركته وعشقت ضابطا أجنبيا وكان هذا سبب هلاكه .

١١ يولية سنة ١٩٢٢

حفلة احياء ذكرى الشيخ محمد عبده بالجامعة المصرية فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ : كان المكان غاصا بهجماهير الأزهرين وبعد قليل من ذوى الشأن لتقدم موسم الصيف وخلو القاهرة من الكبراء ، وكانت اللجنة مجتمعة حول مائدة خضراء وهى مكونة من الشيخ بخيت رئيسا ومن أعضاء أمنال الشيخ عبد الرحيم دمرداش باشا (صاحب الفضيلة والارشاد) وحنا بك باخوم والشيخ الدكتور الأستاذ طه حسين والشيخ زكلاوى وأحمد لطفى السيد وثلاثة أو أربعة على شاكلة هؤلاء السادة .

وخطب الشيخ بخيت من ورقة قرأها فقال ان الشيخ محمد عبده لم يكن له مثيل ولم يعقب ولم يخلف أحدا ، وكانت الناس تهمس بما كان بينهما من الحزازات وما اتهم به هذا الشيخ أخبرا من انتحال مقالة برمتها من مؤلفات الشيخ عبده .

ثم تلاه أحمد لطفى السيد وكانت تبدو عليه الكتابة والمرض وتكلم بصوت خافت من وراء نظارته فقال ان الشيخ محمد عبده عاش ومات فى سبيل الانسانية .

ثم تلاه الشيخ مصطفى عبد الرازق فألقى محاضرة سبق أن ألقاها فى ست جلسات فى جامعة الشعب منذ خمس سنين ، وقال فيها اليوم هذه المرة ان الشيخ عبده كان ضد حرية الاجتماع وحرية الكتابة والخطابة (١٩) ، فذعر الحاضرون ، ثم عاد وقال انه كان

من أنصار حرية الفكر. وأغفل الجانب السياسي من حياة الرجل .
وكان كلما وصل الى نبذة ذات شأن خفت صوته كأنه فتاة مخطوبة
ونزل من المنبر مثل انطفاء السراج الضئيل .

ثم تلاه منصور فهمي فقرأ من ورقة وقال انه في عنقوان شبابه
رأى رجلا شاييا (كذا) فقيل له هذا الشيخ محمد عبده ، وسمع
الناس يقول انه عالم ومصلح وعظيم ثم مات . مع أن منصور لم يكن
اذاك يدرك معنى العلم والاصلاح والعظمة ، وتعالى في القاعة صوت
يسمى : كم كان عمرك ؟ ثم خلط في الكلام عن العظمة ونزل من
المنبر وقد حزن جدا لخطبته .

ثم صعد الشيخ زكلاوى وقال ان اللجنة المحترمة منعه من
الكلام ولكن الحظ ساعده وصعد على المنبر ، ثم تكلم على الاكاديمية
والاقلية بعبارات مبهمه ثم نزل .

وتكلم الشيخ رشيد رضا بلهجة سورية كلام من لم يستعد
لموضوعه ، فقال ان ابراهيم باشا نجيب قال له ان الشيخ عبده
سيعرف قدره بعد ثمانين سنة (كذا) فصفق له واحد فقط وهو
الياس شحاته صاحب مخزن نيويورك لبيع الاحذية ، ثم قال الشيخ
رشيد ان مختار باشا الغازى - وكان عالما جدا (كذا) - قال ان
دماغ الشيخ عبده لو وزن (٩٩) لكان أعظم من دماغ بيسمارك
بل أثقل من كل جمجمة فى الأزمان القديمة والحديثة (١١) ، ثم
قال ان الشيخ عبده قال له لو وجد فى مصر مائة رجل لثالت كل
أمانها ، وأن الدكتور يعقوب صروف قال ان الشيخ عبده امام
لأنصارى ولبس للمسلمين فقط (كذا) .

ثم صعد حافظ ابراهيم وألقى قصيدة كان نظمها رثاء
لعنه ناصف وهي قصيدة بائسة ثم حورها وحذف منها وأضاف اليها

بصفة ظاهرة ، فكان ذكر حفنى وذكر حافظ أول وآخر ما يؤرد
فى القصيدة ولم يذكر الشيخ محمد عبده الا مرة واحدة فقال واحد
من الحاضرين هذه قصيدة « روباييكيا » !

وانتهت الحفلة .

وقد نشر الشيخ الكاظمى قصيدة فى المقتطف جميلة جدا ، منها :

يثرى الفقير بعلمه	والصدر كنز متفعل
ولربما عاد الغنى	لجهله يتسول
ويرى الفئوع من الهنا	مالا يرى المتمول
لا شيء أفضل من يد	لهدى البرية تعمل
الذل ذل بدلوا	فى شكله أم عدلوا
قالى الأمانى أمة	عن جدها لا تعدل
والى النجاة سفينة	ربانها لا يغفل

وهذه القصيدة وحدها أفضل فى نظرى من الاجتفال الذى
كانت عليه مسحة من السخافة والنفاق والابتذال .

ووصف لى محمد بك فهمى حسين مجلس الشيخ محمد عبده
فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر حوالى سنة ١٨٩٦ فقال :

« كان ستة أشخاص يجتمعون معا دائما فى كل يوم ، الشيخ
محمد عبده وحسن باشا عاصم وقاسم أمين وسعد زغلول وفتحى

زغلول وكان رشيد رضا يحضر مجلسهم ولكن نادرا ، ولم يكن له شأن كبير .

كان الشيخ عبده ماهرا في اللغة العربية وآدابها وكان يقرأ كثيرا من الكتب الفرنسية في القانون والفلسفة ، وكان يحب المناقشة ويجيد الفرنسية ويقارن بين آداب العربية والفرنسية ، ولذلك كان يمتاز على قاسم الذي كان ضعيفا في العربية ، وكان الشيخ عبده يدرس الأديان ويقارن بينها وفي الواقع كان متحررا جدا ولكنه كان يخفي ذلك وكان يرمى بدرسه وسياحاته الى أن يظهر اسمه وتعمم شهرته ثم يبدأ في عمل غايته وهي جعل الدين الاسلامي موافقا لروح هذا العصر .

وكان قاسم أمين عمدة المجلس في تفسير القوانين وهو مدين بالتشجيع الكثير في تحرير المرأة لهذه الجمعية ، ولذلك أهدى كتابه لسعد زغلول ولم يشأ أن يهديه للشيخ محمد عبده خوفا على نفوذه الديني من العوار .

ولم يكن لأحد من هؤلاء الستة امتياز على الآخر ، ولكن لكل واحد منهم ميزة اختص بها ، فالشيخ عبده امتاز بسعة العلم والجمع بين آداب العرب والافرنج والأديان المقارنة وحرية الفكر ، وسعد زغلول بقوة الحجج وشدة المعارضة والحدق في المناقشة ، وقاسم أمين بالمهارة في تفسير القانون والأمور الفلسفية .

أعود الى حفل تأبين المرحوم الشيخ محمد عبده ، فقد بادرت الى مراسلة لجنة احياء ذكرى الامام بعد سبعة عشر عاما من موته وطلبت منها أن تتيح لي فرصة للتعبير عن عواطف احترامي وتقديرى واعجابي بأستاذي المرحوم ، وقد كنت أقرب اليه بالفكر والعقيدة

والمبادئ من كثيرين ممن دعوا الى هذه الحفلة ، ومهما يكن الخلاف السياسي بيني وبين الذين قاموا بهذه الحفلة ، فلم أكن أظن أنهم يفكرون في حرمانى أنا وغيرى من مريدى الأستاذ وتلاميذه من اظهار عواطفنا نحوه فى تلك الذكرى .

ولأجل هذا بادرت فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٢٢ بالكتابة الى صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت أخبره بعزمى على تابين الأستاذ ، فتفضل حضرته وأجابنى بالكتاب الآتى :

الخرنفسى فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢

حضرة ولدنا محمد لطفى جمعه

بعد اهداء السلام ، لقد استلجيت خطابك بيد السرور وعلمت ما فيه ، وانى لا أرى مانعا من أن تكون بين الخطباء خصوصا لما أعلمه من أنك مجيد عظيم ، غير أن مدة الحفلة ستكون ساعتين فقط فأرجوك أن تقابل الشيخ مصطفى عبد الرازق لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء ، ومع ذلك يمكنك أن تلقى كلمة وجيزة وفيية بقدر الامكان وانى ممنون ومتشكر لهذه الصدفه التى جعلتك تخاطبى ، فانى أود أن تدمر العلاقة بينى وبين أولادنا النجباء أمثالك . واقبلوا فائق الاحترام . محمد بخيت .

فبادرت بالكتابة الى صديقى الفاضل السيد مصطفى عبد الرازق وأرسلت اليه صورة من نص كلمتى وكانت لا تستغرق أكثر من عشر دقائق لأننى أعتقد أن الخطيب الذى لا يستطيع أن يقول فى عشر دقائق ما يجب أن يقال ، فخير له الا يقول .

وانتظرت رد فضيلة السيد مصطفى عبد الرازق على خطابي ،
وبعد أيام ورد الى الجواب الآتي :

حضرة الأستاذ لطفى جمعه

قررت لجنة الاحتفال باحياء ذكرى الأستاذ الامام الشيخ
محمد عبده أن تشكر لحضرتكم ما تفضلتم به من اظهار الرغبة في
القاء كلمة بالحفلة ، ولقد كانت اللجنة حريصة على أن تجيب رغبتكم
النبيهة لولا أن اضطرها ضيق الوقت الى الاقتصار على عدد من الخطباء
محدود جدا لم يتسع لكثير من أصدقاء الامام وتلاميذه وأنصاره الذين
كانوا يودون أن تكمنهم الفرص من القاء شيء في الاحتفال .

واللجنة مع اعتذارها لحضرتكم ترجو أن لا يحرم الجمهور من
تلاوة مقالكم في المجموعة التي ستنشر متضمنة ما يلقي في الحفلة
وما يختار من المقالات والقصائد التي ترد الى اللجنة .

وتفضلوا بقبول تحياتي الخالصة واحترامي .

مصطفى عبد الرازق

فلما وصل الى خطاب السيد مصطفى عبد الرازق عجبت
كثيرا ، ووقفت على الحقيقة وهي أن هناك أوامر معينة أو خطة
مرسومة تقضى بالآي خطب في هذا الاحتفال أي انسان لا يتفق
مع لطفى السيد في السياسة والمبدأ ، وكان اذا ورد أمامه اسم
شخص معين لا يحبه هو أو لا يريد خطابته - يقول « ما علينا
بأشيخ بقي احنا قاعدين علشان نظهر خطباهم على خطابانا !! » .

ومع ذلك حضرت الاحتفال ، وسمعنا فى تلك الحفلة المعجب والمطرب ، فقد خطب أحدهم وقال « ان الشيخ محمد عبده كان عظيما جدا ٠٠ رجل عظيم (كذا) ٠٠٠ » .

وبعد نهاية الحفلة أرسلت الخطاب الآتى الى صديقى السيد مصطفى عبد الرازق :

سيدى الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة والكمال مصطفى عبد الرازق حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، فقد تسلمت بيد السرور خطاب فضيلتكم المؤرخ ٩ يوليو سنة ١٩٢٢ وقد علمت منه أن لجنة الاحتفال باحياء ذكرى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده تعتذر عن اجابة ملتقى لضيق الوقت .

وعلى الرغم من أننى لم أدع الى الحفلة برقصة كغيرى من خلق الله ٠٠ فان حبنى لاحياء ذكرى الأستاذ الامام دفعنى الى حضور الحفلة بغير دعوة ، فاعذر يا سيدى الأستاذ الأجل هذا الاندفاع منى فى سبيل العلم والأدب ، وكان من حسن بختى أن حظيت بسماع الخطباء ، فحمدت الله الذى ألهمكم فكرة عدم اجابة رغبتي الطائشة ، فأين كان يذهب الضعيف كاتب هذه الأسطر بين هؤلاء الفطاحل الذين اعتلوا منبر الخطابة وفى أية سوق كنت أعرض بضاعتى الضئيلة ، وقد جعلتم من الحفلة ثكاطا أخرى ٠٠ اننى أؤكد لسيدى الأستاذ أننى حقا استفدت أولا وطربت ثانيا وحمدت الله ثالثا .

هذا واننى يا سيدى الأستاذ أقسم لك بقبر الأستاذ الامام الأبر اننى لم أظهر رغبتي فى الخطابة حبا بها أو سعيا وراء شهرة

استفيدةا أو استشفاء من داء الكلام الذى أصيب به بعض الناس فى هذه الأيام ، ولكن كان ذلك قياما بواجبى واعترافا بجميل ، فقد تشرفت بمعرفة الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٢ ولدى منه رسائل شتى ، وكان مرشدى ومعينى فى التعليم ببيروت فى سنة ١٩٠٣ وبعلم ذلك جيدا كل من السيد محبى الدين حمادة والشيخ رشيد رضا ، ورثيته يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٠٥ فى محفل كبير وفى جمعية النشأة الحديثة بالقاهرة وبعد أن اشتركت فى تشييع الجنازة فى الثغر وفى مصر ، وحفلة التأبين المذكورة مشبته فى الصحف فانظر يا سيدى الى عجائب الدهر التى جعلتنى فى العشرين من عمرى كفؤا لتأبين هذا الرجل العظيم والاشترك فى تكريمه ، وحرمتنى هذه النعمة اذ شارفت على الأربعين ! . حقا ان فى ذلك لعبرة لمن يتأمل . . » .

وبقيت بعد ذلك أفكر فى تنظيم الاضطهاد الذى أتقنه جماعة من المصريين أو « Clique » أى « شلة » معينة سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الأدب ، واننى أعتبر هذا العمل مضرا بالمجتمع ضررا بليغا ، فقد ظهر أن الخطباء الذين خطبوا فى الحفلة - ما عدا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق المؤرخ الفاضل والكاتب البليغ والفكر الصادق - كانوا كلهم خطباء ضرورة ، تغتم نفس الشيخ محمد عبده لو سمعهم حيا وميتا ، ولا سيما ذلك الذى قال انه عرف الشيخ من ظهره وقيل له انه الشيخ محمد عبده !! » .

اذن لم يكن منعى لتقديم فطاحل الخطباء ولا لتفضيل علماء مصر على غيرهم ، ولكن لمجرد عدم انتمائى الى هذه « الشلة » سياسيا ولا عقليا ولا أخلاقيا ، وقد انفضحت هذه الشلة الآن تماما وظهر أنهم جماعة من الوصوليين ودعاة الهزيمة والاندحار وفريق من المغامرين فى السياسة والأدب .

ثم علمت أن لجنة قد تألفت في الاسكندرية لتأبين الشيخ ،
فبادرت بالكتابة اليها وبادرت اللجنة بدعوتي ، لأنه لم يكن بين
أعضائها دسائسون ولا مرءون ولا منتطمعون مدعون .

وأرسل الى صديقي الدكتور الأستاذ مرسى محمود المحامى
الخطاب الآتى :

الاسكندرية فى ١٢ يوليو

عزيزى لطفى

سلاما وشوقا ، وبعد فقد وزعت لجنة الاحتفال بذكرى الشيخ
محمد عبده المواضيع على الخطباء وخصصتكم بموضوع دقيق ألا وهو
التكلم عن الأستاذ الامام كمصلح للقضاء ، وهو موضوع يتناول
البحث فى المشروعات الاصلاحية كالمحاكم الشرعية وماذا كان يريد
بها الشيخ رحمه الله ، وكيف أنه فى الواقع لامس مسألة من أدق
المسائل الحيوية ، ولو تم كل أو أكثر ما فكر فيه ، لما شكنا الناس
هذه الشكوى التى نسمعها كل يوم .

سيكون الاحتفال بتياترو الحمراء يوم الاثنين ١٧ يوليو
سنة ١٩٢٢ .

واليك تحيتى وحبى .

وكان الاحتفال فخما وبين أعضاء اللجنة صاحب الدولة
محمد سعيد باشا و عرفان باشا وسليمان بك يسرى وكل قضاة
البلد الأهليين والشرعيين ومحاميهـا وأساتذتهـا وبعض رجال
النيابة .

وانتهت الحفلة فى الساعة التاسعة مساء بعد ان دامت
أربع ساعات وقضيت وقتا سعيدا فى بيت صديقى سليمان
يسرى بك وعدت الى القاهرة فى قطار الصباح بعد أن أدت دينى
للأستاذ الراحل (١) .

● ٣ أغسطس سنة ١٩٢٢ :

حديث حافظ جلال ابن عثمان جلال صاحب « العيوان
اليواظ » :

قابلت اليوم حافظ جلال ابن المرحوم عثمان جلال صاحب
كتاب « العيوان اليواظ » وهو أسمر اللون بادن جدا فى نصف
العقد الثامن ، بيضاوى الوجه لامع البشرة مقسم التقاطيع
لطيف العشرة . كان فيما مضى يركب طول يومه فرسا زرقاء وقال
انه ركب أيضا هجيناً وحماراً ، وفى دمه على ما سمعت منه جرثومة
« الخيالة » ، وقد تعلم الطب وأخذ فيه شهادة وربما كان ذلك من
أكثر من خمسين سنة ولا يعرف لغة أجنبية ، وقد ترك الطب الحديث
وتعلق بالطب القديم ، فهو يجمع الكتب المخطوطة ويطبب من يحتاج
الى علمه العتيق بوصفات من تلك الكتب التى لا يعتبرها عقيمة ،
ورأيته يضع الكحل فى أعين المرمودين فى قهوة عامة ويقول انه
« الاثمد » الذى كانت تستعمله زرقاء اليمامة ، وقال انه يعالج
الفالج وضعف الباه وسائر الأمراض من كتاب طب قديم سرقه
الجن من سيدنا سليمان وعثر هو عليه فى تل بوبسطة بين لوحين
من الخشب مسمرين !!

(١) سجل لطفى جمعة . ما جاء بهذه المذكرات عن الاحتفال بذكرى الشيخ
محمد عبده فى مقال له عنوانه « كيف حرمت من تأبين الشيخ محمد عبده فى
القاهرة ، وكيف وصلت الى غايته فى مدينة الاسكندرية » نشر بصحيفة البلاغ
الاسبوعى فى ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٠ .

وتكلم عن كتبه التي في منزله ، فقال ان كلها مخطوطة وأنها موضوعة في صناديق « سحارات » وأنه فقد كتباً ذات شأن عظيم ، منها كتاب في الجفر أنبأ بحاضر مصر ومستقبلها وبه شمس المعارف بخط السلطان محمود وفيها الاسم الأعظم الذي كتب بأحرف من نور في خلوة مظلمة كان يتعبد فيها الامام على رضى الله عنه ، وقد أخذ هذا الكتاب أبو شادى بك المحامى مقابل دفاعه عن سعيد ابن الدكتور حافظ جلال في قضية جنائية ، ثم أخذه من أبى شادى الشيخ القاوقجى الصغير . والكتاب الثانى اسمه « المسكر » عن ظهور الامام المهدي من الشرق الاقصى ووصف حاله وحربه ووصف خور عزيمة الجيش الذى يحاربه وضعف همتهم وكيفية انهزامه أمام الامام المنتظر وقد أخذه أحد علماء الأزهر من منزله .

ثم تكلم الدكتور حافظ عن نفسه فقال انه يعيش الآن بعيداً عن الست الوالدة وقال ان عمرها مائة وعشرة سنين وأنها أخفت جميع مخلفات المرحوم والده واستأثرت بكل فائدة مادية أو أدبية تركها الشاعر الهزلى الشهير الذى ترجم مولير وبرناردين سان بيير ، وقال انه شفى بكحله سائلاً ضريراً فأبصر ، فباع من هذا الكحل بائنين وثلاثين جنيهها . وقال ان والده كلف مؤنس الخطاط الشهير بكتابة هذين البيتين فى لوح محفوظ فى بيته الى يومنا هذا ، وهما من نظم والده :

وبلدة من ملل جمعت لا ينتظم حالها ولا تستقيم

كأمرأة ما أحصنت فرجها فهى على مر الليالى عقيم

والنكتة عند الدكتور حافظ عادية أقرب الى السوقية منها الى
نكتة الخاصة ، ومعظم ما يضحك من قوله خاص بالعلاقة الجنسية ،
وهو كاهل الأمم السالفة يعيشون في الجيل الحاضر مثل
« بيك فان وينكل » « Pik Van Winkle » ، وقد أعتنى بتربيته
أولاده فخرج أحدهم ابراهيم جلال قاضيا ومؤلفا ألف رواية العمدة
وغيرها •

من يوميات سنة ١٩٢٦

الاثنين ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٦

— قابلت اليوم فؤاد صروف بالمقتطف وسلمته مقالة عن
العبقرية فوعد بنشرها في العدد الذى يظهر فى أواخر مارس (١) .

السبت ٣ مارس سنة ١٩٢٦ .

— أرسلت خطابا للجنة النشر والترجمة بشأن طبع كتابين
من كتبى .

٢٨ أبريل سنة ١٩٢٦

قرأت كتاب « الابريز » لعبد العزيز الدباغ فى حدائق
روض الفرج وهو كتاب عجيب مكتوب على طريقة غريبة وأقواله
صحيحة فأحدث لى أثرا حسنا وكانت قراءتى له فى صيف سنة
١٩٢٥ وهو من الكتب المهمة التى يجب أن تقرأ بامعان مثل كتاب
« اللمع » و « عوارف المعارف » و « الرسالة القشيرية » .

ومما لفت نظرى فى هذا الكتاب كلام لطيف عن الفرق بين
الحديث القدسى والحديث الشريف والقرآن الكريم .

(١) عنوان المقال « كلام فى العبقرية » ، مجلة المقتطف ، مجلد ٦٠ (سنة
١٩٢٦) ، ص ٢٤٣ ، ٢٢٣ .

نوفمبر سنة ١٩٢٦

● كتاب الشهاب الراصد في الرد على كتاب الدكتور طه حسين « في الشعر الجاهلي » :

في شهر يونية سنة ١٩٢٦ حضر الى وفد من علماء الأزهر ومنهم يوسف الدجوى والشيخ مفتاح رئيس الوعظ (١) والخضر حسين وغيرهم وعرضوا على مبلغ خمسين جنيها لرفع دعوى على الدكتور طه حسين لما كتبه في كتاب الشعر الجاهلي ، وعرضوا على الكتاب فرفضت الأتباع وصممت على تأليف كتاب في الرد على طه حسين وكان نتيجة هذا هو كتاب الشهاب الراصد الذي نشر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٦ .

(١) ولد الشيخ عبد ربه مفتاح باحدى قرى مركز اطسا محافظة الفيوم ثم التحق بمعهد القاهرة الدينى وأكمل تعليمه بالأزهر ، وعندما تخرج عين اماما بالوقوف ، ولما انشأ قسم الوعظ والارشاد بالأزهر سنة ١٩٣٨ عين مفتشا عاما له فنهض به نهضة واسعة ، وحمل الوعظ مسئولية نشر الدعوة الاسلامية والثقافة والمعرفة بين الناس ومحاربة البدع والانحرافات وتقويم السلوك الاجتماعى ومحاربة الجريمة ، وقام الشيخ مفتاح بتأسيس مجلة « نور الاسلام » لتكون لسان علماء الوعظ والارشاد وعندما اصدر طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » تصدى الشيخ مفتاح لتفنيده ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، معتصما بعزة نفسه وكرامته ، كما كون مع لطفى من العلماء والادباء جمعية ادبية أطلق عليها اسم « اخوان الصفا » وجعل من بيته مقرا لها . وقد توفى الشيخ مفتاح سنة ١٩٣٨ .

(٢) للوقوف على مزيد من المعلومات عن الشيخ عبد ربه مفتاح ، راجع مجلة الأزهر ، عدد ابريل سنة ١٩٩٣ ، س ٦٤ ، ج ١٠ ، ص ١٢٣٠ - ١٢٣٣ . وعن نقد لطفى جمعة لكتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » راجع كتاب الأستاذ أحمد حسن الطماوى « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والادب » ، مكتبة عالم الكتب ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٣٥٩ - ص ٣٧٨ .

ديسمبر سنة ١٩٢٦

تدور في ذهني فكرة مشروع كتاب عن المحاماة أتكلم فيه على
تذكاراتي الشخصية عن هذه المهنة الشريفة وأتناول بعض مشاهير
المحامين والقضاة الذين عرفتهم ، وأتحدث فيه عن بعض القضايا
الشهيرة التي رأيته وبعض القضايا المهمة التي باشرتها ووصف
بعض المناقضين وأعمال المكاتب وعمالها والاصلاحات الواجبة
للهوض بهذه الصنعة .

من يوميات سنة ١٩٢٨

الأحد ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٨

ولد لي مولود جديد الساعة ٧ر٤٥ أسميته رابع .

من يوميات سنة ١٩٣٠

الثلاثاء ١٨ مارس سنة ١٩٣٠

لقاء الروائي العالمي توماس مان الحائز على جائزة نوبل بنادي
الضيافة بشمارع دير البنات بالقاهرة (١) .
الأربعاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠

فكرت في الاصطيف مع أولادي وخصوصا العناية بصحة معالي
ورابع ، خاصة وأنا لم نخرج من بيتنا بعد ذهابنا الى رأس البر
في رخصة زكريا . وقد فكرت حتى وقع اختياري بعون الله على
بورسعيد فأخذت أولا أعد العدة بالمال وأظن أول يوليو يوما صالحا
للانتقال تبعا للاجازه القضائية .

ولا يمكننا النزول في فندق فلابد لنا من استئجار منزل ،
وسوف أسافر الى بورسعيد .

الخميس ٣ يوليو ١٩٣٠

لا أعرف أحدا في البلد .

استحضرت كتبا كثيرة وجرائد فرنسية « كانديد »
و « جرنجوار » . والأولاد يلعبون بالرمال ويبنون أهراما ومعهم
جرادل وأداة للحفر ، والفاكهة العنب والبطيخ كثير ورخيص وكذلك
الأسماك .

أكتب مقالاتي للبلاغ بانتظام ولا سيما « لعل وعسى » .

(١) كتب لطفي جمعة عن هذا اللقاء مقالا عنوانه « مع توماس مان في القاهرة » ،
نشر بجريدة البلاغ في ١٩٣٠/٤/٥ وأعيد نشره بكتاب لطفي جمعة « في الأدب
والنقد » . عام الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

السبت ٥ يوليو

أطالع كتاب كلود فاربر عن لوتي Lotti .

الأحد ٦ يوليو

أنزل البحر وأمّرح مع الأولاد ولا سيما مطيعة التي عمرها ٨ سنوات ويحيى بعزم جيدا وكذلك أخوه زكريا والصغار تتولى أمهم استحمامهم .

الثلاثاء ٨ يوليو

أخبار القاهرة سيئة جدا .

قرأنا خبر عزم النحاس باشا على السفر الى المنصورة وعزم الحكومة على مقاومته بالقوة .

الأربعاء ٩ يوليو

اليوم وقعت الواقعة وحصلت معركة المنصورة بين الجيش والوفد وأمل البلد .

الجمعة ١١ يوليو

فى الصباح ذهبت لزيارة مراد محسن الذى هو مدير هنا أو المحافظ فأحسن الرجل لقائى ورد لى الزيارة .

السبت ١٢ يوليو

- الصحف حافلة بأخبار مجزرة المنصورة وقد طعن سنوت حنا بسنجة عسكري يقال أنها قاتلة وكان المقصود بها النحاس باشا رئيس الوفد وانفرد البلاغ بعدد بيع بعشرين قرشا .

- كتبت قطعة عن الثورة الفرنسية للبلاغ بمناسبة عيد ١٤ يوليو الذي يستعدون له هنا استعدادا عظيما .

الأحد ١٣ يوليو

كل البلدة مزدانة زينة باهرة في البر والبحر وقيل عن اطلاق الألعاب النارية .

جلست في إحدى قهوات البلد بالشارع الرئيسى وأعطانا جيد بك شكرى دعوة الى احتفال لشركة قنال السويس على شاطئ البحر حفلة نهائية فعولت على أخذ الأولاد للفرجة . ان تأثير الشركة الفرنسية قوى جدا .

الثلاثاء ٥ يوليو

قامت مظاهرات وبدأ حشد الجماهير وحضرت الى بورسعيد « أورطة » يقودها ضابط اسمه اسكندر بك وعسكرت في الشوارع .

الأربعاء ١٦ يوليو

ان بورسعيد تحترق في هذا الصيف ، فقد أوقفت الحكومة الدستور وألغت دستور سنة ١٩٢٣ ووضعت دستورا جديدا مستعينة في ذلك بعبء التهميد بدوى ، وتعطل جورنال البلاغ ولم

يظهر يوم ١٤ يوليو • لقد وصل طغيان اسماعيل صدقي باشا الى
أقصاه •

الخميس ١٧ يوليو

قابلت الميرالاي اسكندر بك الذى جاء لقمع الفتنة ، وأهل
بورسعيد درجوا على رجم رجال البوليس بالحجارة وخصوصا فى
حى العرب والمناخ وكلمت اسكندر بك بشدة وقلت له : اياك أن
تطلق الرصاص على أهل وطنك • فقال لى : ان كفوا لا أفعل ولكنهم
يهاجموننا •

الاثنين ٢١ يوليو

زرت المحافظ مراد محسن ، انه يريد أن يبتعد عن السياسة
ويقول انه موظف ادارى ويظن أن سينقل الى منصب بالسراى بسبب
مصاهرته مع عائلة رشيد التى منها محمود وابراهيم رشيد جناحا
اسماعيل صدقى فى هذا الانقلاب Coup d'etat . ولا أعرفهما ولكنهما
سببان لتعريضهما هذا الرجل •

الخميس ٢٤ يوليو

الخوف من ثورة بورسعيد المنتظرة والافرنج فى جزع من
التهب والسلب وتعدى أولاد العرب •

الجمعة ٢٥ يوليو

— يزداد الهياج يوما عن يوم •

— كنت أرسلت سبع مقالات للبلاغ ، فلما تعطل البلاغ لا أدرى مصيرها ويادر عبد القادر حمزة بتسوية حسابى معه الى نصف يوليو بحجة أن مصاريق الاصطيف كثيرة ، فعجبت لتعجله كأنه لا يرجو أن تصدر الجريدة مرة ثانية •

الأحد ٢٧ يوليو

فى الصباح قابلت المحافظ فرأيت بهجاً ومتبرماً فى وقت واحد وقد وضع على « كابينته » بالشاطئ حارساً من أرذل خلق الله يمنع المارة من مجرد المرور كأن الكابن هيكى مصرى قديم ! • وقد تطور مراد محسن ويسمونه الباشا المحافظ تملقاً • أما محمود عزمى وكيل المحافظ فرجل ديمقراطى •

الاثنين ٢٨ يوليو

— أترقب البريد الأوروبى فأقرأ •
Nouvelle Litteraire, Candide ; Gringoire, Detective,
Mercure de France

غير الكتب •

— أوقفت الكتابة لأن البلاغ تعطل •

الخميس ٣١ يوليو

كلما ينقضى يوم من الشهرين أشعر بأسف لأننى أشعر من الآن أن هذه أيام لا تعد من العمر ، ان أفراح الأبوة فى هذه السن للأطفال لا نعد وأهمها أنى أراهم يأكلون بشهية ويشبعون ويسبحون

ويجرون ويلعبون ويضحكون ويستريحون من عناء الدرس ومن حر القاهرة ، ولو أمكننى أن أبقى الى آخر سبتمبر فلا أتأخر غير أن فى أوله تفتح مدارس الفريد ويبدأ الموسم القضائى .

الست كذلك تحسنت صحتها وكذلك معالى ورابع الذى يمشى وبتت أنوار ورفيعة ٨ ، ٧ سنوات كالأولاد الصغار وأنا أحبهما جدا .

الجمعة أول أغسطس سنة ١٩٣٠

– اليوم الأول من الشهر الثانى . لم أغير نظامى وقد استفدت كثيرا .

– القلق يزداد فى المدينة .

– سمعت أن جيراننا الفرس بهائيون . رؤية البنت الفارسية التى أوجت الى قصة « قرّة العين » (١) .

الثلاثاء ٥ أغسطس

اشتد النزاع فى البلد على المرور بين الأحياء ، والجند يهددون أبناء العرب ، والأفرنج يخشون ، وقد سمعت عرضا فى الطريق أنه فى سنة ١٩٢٢ شهدت بورسعيد مذبحه بعد أن حصل سلب ونهب فى دكاكين الأفرنج .

(١) « قرّة العين » قصة بهائية نشرها لطفى جمعة مسلسلته فى حلقات بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٤ .

الخميس ٧ أغسطس

حضر الى المنزل المدعو على الألفى ومحمود الصفتى وآخرون ودعوني لحفلة المولد النبوى بمنزل الشيخ الصياد وانشاد الشيخ على محمود ، وبقينا للصباح وحضر المحافظ وجلس معى ومع القاضى الشرعى وسألنى المحافظ عن كتب فى الفلسفة بالفرنجى فأعطيته بياناً بها . وقيل لى ان على الألفى المذكور كاتب حسابات عند تاجر طيور وشاعر فى الوقت نفسه .

السبت ٩ أغسطس

اتصل بى المدعو على الألفى وقال انه مسافر الى دمياط عند على العزبى وعرفنى بأخوته وهم عصابة وقال لى المحافظ ان هذه العصابة هم سبب القلاقل فى بورسعيد لأنهم سياسيون وينتمون الى الوفد ، فدافعت عنهم .

الاثنين ١١ أغسطس

رأيت المدعو نجيب ريجانة (لا ريجانى كما يقول مينا وزورا) فرحب بى وقال انه قادم ليهتل بضع ليال ، وتكلم معى بما يشعر أن النجاح قد أفقده عقله ، فأنا أعرفه من سنة ١٩١٣ .

الأربعاء ١٣ أغسطس

أقيمت حفلة وداع للمحافظ لأنه نقل الى وظيفة فى القصر بسبب مصاهرته وحضرت الحفلة بالكازينو وألقى على الألفى قصيدة .

الثلاثاء ١٩ أغسطس

رأيت الشغب الذى حدث فى البلد وتبادل الحجارة ورصاص الجيش وقذمات بضعة أشخاص من الأهالى وجرح آخرون ، وكان الحكمدار هين الانجليزى يقود المعركة وقد أصيب بحجر فى صدره وآخر فى جبهته ، واستدعوا على الألفى وهو سكرتير لجنة الوفد ليهدى الضوضاء مع أنه هو الموعز بها .

الخميس ٢١ أغسطس

قابلت الميرالاي اسكندر الذى ضرب المتظاهرين بالرصاص ومد يده لمصافحتى فرفضت وقلت له : لا أصافح من لطخ يده بدماء أبناء وطنه . فلم يتكلم .

الاثنين ٢٥ أغسطس

أكثر الدكتور محمد سليمان الطبيب بمستشفى الحميات من زيارتى والاحتفاء بى وقدم لى أشخاصا كثيرين من الوفدين لأنه ينتمى اليهم ، ومنهم ابراهيم عطا الله ومحمد الشردى وهو مفصول من الخدمة ولكنه خفيف الروح .

الخميس ٢٨ أغسطس

— قربت أيام السفر ! . ان هذا البلد جميل جدا ، ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان !

— عرفنى على الألفى بمن يدعى عبد الفتاح العايدى وولديه محمد وجمال وقال انهم من أغنياء الحرب الكبرى الماضية قعد بهم الدهر ، ويقيم الألفى حفلة أسبوعية لاهياء ذكرى أمه بقراءة القرآن . وهذا وفاء جميل جدا .

شاهد — ٥٤٥٠

السبت ٣٠ أغسطس

شعرنا بروح الوداع للبحر فتملكتنا حالة حزن شديد وشعرنا بحب عظيم للشاطئ والبيت والجيران ، وكان بودنا أن نقيم شهرا آخر لولا موعد افتتاح المدارس لأن الإقامة هنا أفادت الأولاد كثيرا .

الأحد ٣١ أغسطس

هذا يوم السفر وودعت أصحابي بسرعة وودعنا الجيران وتحركنا الساعة الخامسة وحشدت المحطة بعدد وفير ممن عرفنا فتأثرنا كثيرا ولوحوا لنا بمناديل بيضاء عند تحرك القطار .

وصلنا الساعة الحادية عشرة ليلا وركبنا سيارتين الى المنزل بمنشية البكرى وحمدنا الله على سلامة العودة ، وتحدثنا طويلا عن الذكريات ولكن الأولاد ما زالوا صغارا لا يشعرون الا بالسعادة المؤقتة ، وقد تحسنت صحتهم واستعدوا للعودة الى المدرسة غدا صباحا ، أما مطيعة فتعود بعد شهر في أكتوبر الى المدرسة .
والحمد لله .

الثلاثاء ٢ سبتمبر ١٩٣٠

قابلني خالد بأشأت وقال لي انه اشتاق الى كثيرا أثناء غيابي ، وقضينا سهرة جميلة جدا وهو كثير التنكيت ، ان لباشات عبقرية في التنكيت العالي وقيل لي انه يشبه أباه في هذه الناحية وأنا أحبه كثيرا واسمه عندى أبللو

الأربعاء ٣ سبتمبر

زرت عبد القادر حمزة في دار البلاغ الجديدة التي بناها
وتحدثنا فأتيت له أنه يكفي إصدار جريدته باسمها بعد المساء
بمنى القانون الذي أصدره صدقي ، ففرح جدا وأخذ يستعد وعصبت
أنه لم ينتبه لذلك قبل الآن ، وتحدثنا طويلا ونفى وصول الظرف
الذي به سبع مقالات كنت أرسلتها من بورسعيد ويظهر أنها فقدت
أثناء الانتقال .

الجمعة ٥ سبتمبر

قابلني محمد علي الطاهر وذكر لي أن الأستاذ عبد العزيز
الشمالي (١) حضر إلى مصر ولم أوه من سنة ١٩١٣ وقال لي انه يريد
مقابلتي لتحديد الصيغة خصوصا وقد أقام طويلا الى سنة ١٩٢٦
بمصر ولم أتصل به وكان أصحابه في تلك الفترة بيت عبد الرزاق
ومنصور فهمي وطه حسين ومن اليهم .

السبت ٦ سبتمبر

قابلني الشمالي في القهوة وهو يدمن الشيشة .

الاثنين ٨ سبتمبر

يحضر محمد علي الطاهر مجالسنا الليلية وهو نابلسي ينشر
جريدة الشورى للدفاع عن وطنه وعن الاسلام ، وهو شديد الولاء
للشمالي .

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفي جمعة بالشمالي ، راجع كتاب « محمد
لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣١٢ ، ٣٢٢ . وايضا
كتاب لطفي جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع السابق ، ص ١٤١ - ١٥٧ .
سنة ١٩٩٨ .

ونحن نجلس في قهوة فينكس أو عماد الدين ويدخن الثعالبي
الشيشة ويروي أحاديث سندباد بحرى عن حوادث وطنه تونس
ورحلاته في الهند والشرق الأقصى ، وهو رجل لطيف فشبهته بأبن
بطوطة وابن خلدون (١) .

الأحد ١٤ سبتمبر

يظهر أن الثعالبي في كل رحلة الى مصر يعاشر فئة من الناس
ويترك السابقة ، وهو في هذه الكرة مراقب من حكومة العراق على
بعثات الطلاب العراقية من قبل الملك فيصل ويتقاضى خمسين جنيها
شهريا وله صفة رسمية مع وزارة المعارف ، ويدب الشقاق أحيانا
بينه وبين محمد علي الطاهر بسبب رعونته هذا الأخير فيقاطعنا أياما
طويلة ثم يعود لأنه يحب الحديث اللذيذ الذي يصل الثعالبي حباله
طوال الليالي والأيام ، وهما كالدون كيشوت وتابعه بانزا .

الثلاثاء ١٦ سبتمبر

لمحمد مسعود قضية على البرنس يوسف كمال وكلمنى فيها
وخطبني كعادته بصوت منخفض وبطء شديد .

الجمعة ١٩ سبتمبر

حرية أفكار المرحوم الكواكبي :

(١) كتب لطفي جمعة مقالا عنوانه « السيد عبد العزيز الثعالبي ، زعيم
شرقي ومفكر مصلح » نشر بجريدة المساء في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠ جاء به
« انك اذا سمعت حديث الثعالبي رأيته مزيجا معقولا ، مصريا من ابن خلدون
وابن بطوطة وجمال الدين الأفغانى »

— روى لى الاستاذ عبد العزيز الثعالبي أن المرحوم الكواكبي كان يبحث دائماً عن الأعمال المثمرة مادياً ، وكان ينظر الى الأدب والسياسة كهواية لا يربح منها صاحبها ، وكان اغترابه وارتحاله لثلاث علل :

الأولى : أن يفر من ظلم الترك في وطنه وأن يشن عليهم غارة شعواء في الشرق العربي ، فكتب « طبائع الاستبداد » وأعطى الدواء في « أم القرى » .

الثانية : البحث عن أخلاق الأمم وأحوالها الاجتماعية والسياسية .

الثالثة : أن يربح من التجارة وما يماثلها ، فمول ابنه ليفتح قهوة في مصر اذ رأى عمل المقاهي هي أنجح الأعمال ، وهو في ذلك على رأى بعض فلاسفة اليونان (أفلاطون وأرسطو) اذ كانا يتجران في الرقيق كأهل بلدهم في زمنهم ، أما الفلاسفة فهواية . وقد أصاب الكواكبي لأن كل الأدباء في الشرق جاعوا لانقطاعهم للأدب .

وكان الثعالبي يقلده ، فانه اشتغل طول حياته بالتجارة وكان يقرض ماله مع أصحاب المتاجر الكبرى في الشرق الأقصى والخليج الفارسي أمثال سيد علي زينل والسيد الكاف بسنجاfore ویتجر فی الأرز وغیره .

وروى لى مرة أنه فائته تجارة « أنديجو » عرضت عليه بثمان بخس ورفضها ولو اشتراها لاقتنى الملايين .

ولكن أصحابنا الأفغانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد لم يتركوا هذا الباب وأنفوا أن يشتغلوا بالماديات ،

وكان ويلفريد بلنت من الأغنياء بسبب الزراعة وتربية الخيل الأصيلة ، أما كتبه وأدبه فهواية ولذا جاءت على غاية الاتقان .

• سنة ١٩٣٠ :

* اللغات الرمزية :

اللغات الرمزية Aryot اشتغلت بها وبما يتفق عليه منها أهل الاجرام وكتبت فيها بحثا طويلا وألقيت محاضرة في العشرة الثالثة من هذا القرن (حوالى سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦) وعملت لها قاموسا في مصر (١) وقرأت أخيرا في مجلة لوكار بقلم Gaston Esnault مقالا عن لغة رمزية جديدة اكتشفت في ٨ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بواسطة مجرمين لمحاربة البوليس الدولي وضبطت ألفاظها مع من يدعى بنتو Pinet من المجرمين واسم اللغة Gyria (انظر اعداد المجلة المذكورة سنة ١٩٣٠) .

وادمون لوكار المذكور آنفا طبيب شرعى وخبير جنائى بليون وصار عالميا خليفة للدكتور Lacassgne أستاذنا في المادة نفسها بليون سنة ١٩٠٩ أنشأ مجلة Revue Criminalistique سنة ١٩٢٨ وله جملة طرق مبتكرة لمعرفة المجرمين منها نفى ملابسهم لخراج الآثار التى تعلق بها فى محل الجريمة مثل نشارة الخشب ويزادة الحديد والمعادن أو البدرة التى كانت فى جسم المرأة القتيلى ، وقد أثقن تحقيق الأنامل والخطوط واللغات الرمزية وهو كاتب ممتاز وعالم صادق ، وقد تخرج من تحت يده المدعو

(١) انظر دراسة عن هذا القاموس مقال رابع لطفي جمعة « اللغة السرية لبعض الطوائف والمهن الشعبية فى مصر » ، مجلة الماثورات الشعبية ، الدوحة - قطر ، العدد ٢٧ ، السنة العاشرة ، يناير سنة ١٩٩٥ ، ص ٤٣ - ٥٧ . وانظر أيضا كتاب لطفي جمعة « مباحث فى الفولكلور » ، المرجع السابق ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٩ .

محمد زكى وهو وكيل تحقيق الشخصية بمصر وأثبت فى العدد ٤ من السنة الثانية من مجلته (سنة ١٩٣٠) أن الشرقيين فى الأقصى لا سيما الصين عرفوا الاستفادة من السمات لتحقيق الشخصية هند مئات السنين ، وأن الفضل فى الاستعمال الحديث لها لرجل انجليزى وآخر من بوهيميا (شيكوسلافاكيا الحديثة) .

أهم أحداث سنة ١٩٣١ (١)

- تأليف كتاب حياة الشرق .
 - الأولاد فى المدارس ، والحياة البيتية ، والعمل فى المحاكم .
 - تأسيس محكمة النقض والابرار المدنية .
 - عهد اسماعيل صدقى وإرساله الى الأستاذ وهيب دوس لانضم اليه ورفض ذلك .
 - حصول حادثة القنابل أثناء وجودى فى السويس يوم ١٨ و ١٩ يولييه .
 - أهل السويس والشيخ اسماعيل البار والأيام التى قضيتها فى المدينة .
 - سفرى الى بورسعيد لاعداد منزل الاصطياف .
 - مقابلة غاندى والعظماء الواردين معه فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، شوكت على وأساليبه .
-
- (١) لم يدون لطفى جمعة الكثير من مذكراته عن هذه السنة واكتفى بكتابة مقوس مواضيع تحت عنوان « أهم أحداث سنة ١٩٣١ » .

— النزاع السياسي في بوزسعيد .

السفر في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣١ من بورسعيد وحفلات
توديعي بالمحطة •

من يوميات سنة ١٩٣١

٨ يناير سنة ١٩٣١

اليوم الساعة الثامنة مساء الاحتفال في حارة اليهود بذكرى
موسى بن ميمون وقد حضرته وكتبت عنه في مجلة الصباح وهذا
كان أصل الاحتفال الرسمي به بدار الأوبرا بواسطة الحكومة ولم
أدع إليه .

۹ فضا پر

إقامة حفلة شاي للشعاليي بمحل ليمونيا وقد خطبت فيها .

۱۵ یناير

محاضرة لى جمعية الشبان المسيحية الساعة السادسة عن
الشاعر أحمد العاصى (١) وحضور عبد الرحمن الجديلى وظهر
أنه قرأه .

(١) أحمد العاصي أديب وشاعر ولد سنة ١٩٠٣ بمدينة فارسكور ومات منتحرا في سبتمبر سنة ١٩٣٠ وله ديوان شعر مطبوع وكذلك رواية مطبوعة عنوانها « غادة لبنان » ورواية أخرى عنوانها « الأديب المنكود » لازالت مخطوطة ، وقد كتب لطفي جمعة عن هذا الشاعر قصولا ضافية بجريدة المساء عقب وفاته (انظر مقال الأستاذ رجاء النقاش بمجلة الدوحة وعنوانه « الشاعر العاصي ومأساته » عدد ٤٣ ، يوليو سنة ١٩٧٩ ، ص ٤٠ - ٤٤ ، وكذلك مقال رايح لطفي جمعة بالمجلة ذاتها وعنوانه « الشاعر أحمد العاصي ، أضواء جديدة على مأساته ورواية مجهولة له » ، عدد ١٢٣ ، مارس ٨٦ ، ص ٢٨ - ٣١) . وانظر مقالات لطفي جمعة عن العاصي في كتاب لطفي جمعة « في الأدب والنقد » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

الجمعة ١٦ يناير

تفديت عند حامد العلايل • وفي الساعة الرابعة حفل شاي
عند أحمد زكي باشا (١) مع الثعالبي ووزير تونس سيدي عمر
البكوش وفي الساعة التاسعة مساء حفل بالأوبرا •

الأحد ١٨ يناير

— عيد ميلاد ابني زكريا •

— زواج خالد باشات ، حضرنا الحفل وكان معي الثعالبي •

الثلاثاء ٢٠ يناير

موعد السفر الى فلسطين لثراء المرحوم محمد علي الهندي •

الخميس ٢٩ يناير

افتتاح المعهد التمثيلي الاهلي الساعة الثامنة مساء •

الجمعة ٣٠ يناير

محاضرة الثعالبي الساعة الثامنة والنصف في جمعية
الشبان المسلمين وبعد أن ألقاها تكلم شوكت علي وهذا كله ملخص
في كتابي حياة الشرق •

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفي جمعة بإحمد زكي شيخ العربيه ،
راجع كتاب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ،
ص ٤١١ - ٤٤٨ • وكتاب لطفي جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع السابق ،
ص ١١٣ - ١٢١ •

١٤ سبتمبر

لقضاء غاندى :

لقيت غاندى على ظهر الباخرة راجبوتانا فى ميناء بورسعيد
قضيت فى صحبته ثمانى ساعات كانت أسعد ساعات الحياة ،
كان الزعيم الهندى فى طريقه الى مؤتمر المائدة المستديرة ، وكان
فى صحبته بعض أقيال الهند ورؤسائها وأصحاب الفكر فيها .

وصلت الباخرة الساعة الثالثة صباحا وألقت مرساها على
رصيف الميناء ، فانتابنى قلق وخوف من عدم تحقيق الأمل برؤيته ،
ثم صعدنا الى الباخرة ، وفى حوالى الثالثة والرابع ظهر غاندى فجأة
ومعه المس سليد .

لقد دهشت دهشة عظيمة لدى رؤيته ، فقد كانت رؤيته
بالنسبة لى أملا عظيما تحقق عندى ، وبعد أن أفقت من نشوة
لقائه ، شدتنى اليه شدة أسره وقوة جاذبيته النادرة .

ان وجهه وثيابه تخالف الحقيقة وكافة الصور الفوتوغرافية
التي شاهدناها والأوصاف الكتابية التي قرأناها ، فبدنه أشبه
بأى قروى فى أى قرية من قرى الوجه البحرى أو القبلى فى مصر ،
ولكنه نظيف جدا ، وأعتقد أنه فى منتصف الحلقة السابعة من
عمره ، رأيت حليق الرأس قد شاب شعره وعيناه صغيرتان
سوداوان يبدو فيهما الذكاء والألم ، وتتجلى فيهما الزهادة والاضواء
عن كل شئ من أعراض هذه الحياة الدنيا ، وعندما يتكلم تلمح فى
عينيه بريقا خافضا كأنه نور الفئار الذى يضئ ظلمات المحيط
ليكشف الطريق للسفن الحائرة فى خضم الأمواج ، أما أذناه

فكبيرتان مما يدل على قوة حاسة السمع لديه ، ولا يستتر جسده الا قطعة من قماش القطن ، وهو في جلسته يشبه بوذا ، لأن جلسته يرى قدميه ظهرا وباطنا ، ويداه مشغولتان بالغزل على مغزل يدور مفروش أمامه على الأرض ، ويده اليمنى تدير العجلة واليسرى تملك الخيوط .

ان كل ما نعلمه عن غاندى سابقا بالدرس أو بالقراءة يتحقق لديك عند رؤيته كحقائق مادية واقعية ثابتة ، ومن هنا ينشأ شعور لديك كأنك تعرفه وتجبه من قديم الزمن ، فقد شعرت لدى رؤيته بهذا الشعور .

ان منح هذا الرجل أداة من أعجب أدوات الخليفة انتظاما وتركيبا ، ويمتاز بمظهرين هما العقل وقوة الارادة ، ومما لا شك فيه أنه شديد الذكاء والدهاء ، انه شخص قد في العالم في الوقت الحاضر ومظهر الهى في الكون ، وسره العظيم يكمن في روحانيته لكونه روحا حرا طليقا ليس بينه وبين الحقيقة حجاب ، وهذا دليل على أن قوة الروح تتغلب على الجسم وتفوز عليه .

ان الرجل الذى وصفه نيتشه وتخييله وتمنى وجوده ، يمكن تحقيقه بالقوة المعنوية فى شخص غاندى ، وفى ذلك تكذيب للفلسفة المادية .

ومعلوم أن نيتشه كان تلميذا الفيلسوف شوبنهاور الذى تعلم فلسفة الهند وتشبع بالفكرة الهندية عن الانسان الكامل ، وقد تحققت هذه الفكرة فى شخص غاندى بعد موت شوبنهاور بخمسين عاما .

ان الشرق مصدر النبوات ومهبط الوحي الالهى ، وقدأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر « السوبرمان » فى هذا الشرق ، فغاندى رجل مفرد فى التاريخ ، وسبب تفرده أنه جعل من التصوف الهندى حياة عملية فعالة فى المدنية الحديثة ، وقد تشبع بفلسفة راماكريشنا وفيفيكنندا وهى فلسفة روحانية ظهر بها المهاتما بمظهر رجل سياسة ، ولكنها ليست كسياسة أوروبا ولا من ذلك النوع التقليدى الذى ظهر فى الشرق ، بل انها رسالة فى صورة سياسة لانقاذ الانسانية المتألة المعذبة .

قال لى فيما قال : لقد كانت حياة راماكريشنا مثالا حيا وفعالا فى بارماهمسا (١) - أى الاعراض عن العنف - وكان حبه كاملا وشاملا تاما وعاما ، فليبارك الله وليجعل خيرا وحبا والهاما طاهرا لكل من يقرأ حياة راماكريشنا ، فلا يمكن لانسان أن يقرأ هذه الحياة دون أن يقتنع ويؤمن بأن الله هو الكائن الحق وحده دون سواء وأن كل ما عداه ومن عداه خيال متخيل أو أباطيل مبطل .

لقد اصطلح غاندى بأعظم قوة فى العالم وهى قوة بريطانيا ، ومع ذلك فهو غصة فى حلق بريطانيا وشوكة فى جنبها يقلقها ويقض مضجعها ويصيبها بالحمى بالرغم من تكوينه ونشأته من عناصر أوربية بحكم تعليمه ، وأعتقد أن عمله الذى اشتغل به فى حياته وهو المحاماة كان هو نواة حياته الحالية .

(١) الهمسا أو اللاعنف وبعبارة أخرى الحب فى أسنى صورة كان هو منطلق أفكار غاندى ويقول عنه « ان عدم العنف هو أعظم القوى فى خدمة الجنس البشرى ، انه أقوى من كل سلاح ابتدعه الانسان » ، راجع كتاب « كل الناس اخوة ، حياة المهاتما غاندى وآراؤه كما رواها » ، اعداد كريشنا كريبالانى ، ترجمة يونس شاهين ، دار الكتاب العربى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، وخاصة الفصل الرابع المعقود فى « الهمسا » أو طريق التنزه عن العنف ، ص ١٥٤ .

تقوم فلسفة وسياسة هذا الرجل جميعها على الحب المطلق الذى بدأه بمحاولة انقاذ أبناء وطنه فى جنوب أفريقيا وفى الهند ، والسر فى نجاحه انه أخذ كل شئ فى الحياة من زواج وذنوب وجهاد وفكر بجدية ، فهو خال من المزاح أو التهكم أو الاستهتار ، وأن رجلا كهذا لابد أن ينجح .

وفى اعتقاده أن اقبال الناس عليه فى بلاده وخارجها هو فى الواقع تلبية من نفوسهم لدعوة الحب العظيمة الكامنة فى نفسه وفى وجدانه وفى ضميره .

انه لا يريد شيئا من العالم ، فهو اذن أكبر من العالم ، يهزأ لقوة المادة لا احتقارها لها ولا استخفافا بها ، ولكن لأنها لا تناله ولا تؤثر فيه ولا تغلبه ولا تقهره ، فقد تحرر من جميع قيودها ، انهم يسجنونه ولكن لا يعذبونه ، وعقوبة السجن لا تغيظه لأنه متحرر روحيا فلا يجد فى السجن ضيقا لشعوره بالحرية .

قال لى ان الفرق بين القرون الوسطى والعصر الحديث أن دولة مثل انجلترا لا تقتله رميا بالرصاص مع امكان ذلك ، وأن الانجليز لا يقدمون على ذلك بدافع من الانسانية أو العطف - فانهم يقتطفون فى العالم مع الأفراد والجماعات ما قد يزيد على اعدامه أو تعذيبه - ولكنهم موقنون بأن اعدامه سوف ينتج عنه عشرات أمثاله ، فقلت له : ربما كانت هذه الفكرة وهمية أو خاطئة لأنك لست فقط نتاج الظلم أو الضغط ، بل أنت مكون من عناصر روحية، ولكن الانجليز يتوهمون أنه ربما يكون فى بلاد الهند التى أخرجتك شخص أو أشخاص يشبهونك ، فقال لى هذا لحد ما صحيح .

وقلت له ان بلادا تخرج مثلك هى بلاد عظيمة وهى فى الحق لا تموت ولا تضيع ، وأنه من الطواهر الخارقة أنه بعد مائتى سنة من الاستبداد والادماج وتعليم الانجليزية يظهر رجل مثاك يكون بمثابة احتجاج ضد كل هذه المظالم ، انك رد فعل للشعب الهندى ضد محاولات تغييره وابتلاعه والقضاء على شخصيته الشرقية الغنية بالعجائب ، لقد أظهر الهنود من قديم الزمان تقدما عقليا وثقافة عريقة قبل مجيء الاسكندر المقدونى بألفى سنة كما تدل على ذلك أناشيد اليندا وتبحرهم فى الرياضيات والفلك والفنون الرفيعة ، وظهر فى الهند فى العصر الحديث كتاب وشعراء وعلماء اشتهروا فى الغرب وصارت لهم مكانة عظيمة مثل طاغور والسير بوز الذى نبغ فى العلوم الطبيعية .

وتاريخهم أطول وصفحتهم أكثر سوادا ، ولذلك يجب عليكم في مصر أن تستشهدوا بحركتنا . كما أننا في الهند نستشير بحركتكم فان زعماءنا كثيرا ما ضربوا المثل بالاتحاد بين المسلمين والأقباط عندكم في مصر ودعوا أمثنا من هنالك ومسلمين الى مثل هذا الاتحاد في الهند .

فسألته عن علاقة الهنالك بالمسلمين في الهند فقال ان المسلمين اخواننا وأصلنا وأصلهم واحد ولا يوجد غزاة منهم الآن ، وزعمائهم العاملون في مجال السياسة أصدقائي وشركائي في الجهاد مثل محمد علي وأخيه شوكت علي وعشرات غيرهما ، وكلنا نفهم خطر الانقسام بيننا ، فانه لا يستفيد به الا خصومنا وأعداؤنا .

ثم تحدثني عن المسائل المعضلة التي يعانيها عقله وهي مسألة الملاح وسياحته التي قام بها وقبضت عليه الحكومة بسببها في مايو العام الماضي ، كما تحدث عن رأيه في العنف والجرائم السياسية ، فاستنكرها وقال ليس معي سلاح ولا قوة الا العصيان المدني وعدم التعاون ومقابلة الشر بالخير وانكار العنف ولكن الى درجة وهي الا يبلغ انكار العنف حالة الجبن ، وسلاحى الثانى هو الصوم عن الكلام يوما في الأسبوع هو يوم الاثنين والصوم تكفير عن ذنوب بعض أتباعى ، والصوم اذا حصل خلاف بينى وبين السلطة .

ثم قال لي لقد شعرت على الدوام وصرحت بناء على هذا الشعور بأن عطية الحرية العظيمة لن تنالها أمة بالإحسان والتصديق ، اذ ان علينا ان نكتسبها قبل أن نفتنيها ، وستأتى للهند فرصة اكتسابها عند ما تثبت لذلك الشعب الذى يحكمها بحق الفتح أن أخلاقنا أسمى من أخلاقه وأن عندنا من الرجولة ما يجعلنا تكف عن معاملة المحتلين حتى يرحلوا عن بلادنا .

وفى الحق أن هذا الرجل رسول عظيم للسلام والانسانية ،
يفيض قلبه حبا للجنس الانسانى فى كل مكان ، ولا تعرف روحه
الا المحبة والاخلاص والتضحية ، ولذلك أحبته الأمم وأحبه الأغنياء
والفقراء ، وأحبه الصغار والكبار ، وأحبه عدد كثير من رجال
السياسة والمال فى الممالك الأجنبية القوية ، سواء فى ذلك الذين
رأوه وخاطبوه أو الذين لم يروا وجهه ولم يسمعوا صوته .

ان رسالته هى تحرير الهنود وتخليصهم من العبودية
بمجموعة من الأسلحة الأدبية أو السلبية هى نفسها القوة المعنوية
التي تنال بها الحقوق فى النهاية ، فمهما اختلفت الظروف وتنوعت
الأسباب فان الهدف الاوحد والاول والاخر لغاندى هو استقلال
الهند وتخليصها من الظلم والطغيان والفساقة والجهل والأمراض
والذل ، وحبه ليس مقصورا على أهل جنسه وبنى ملته ، بل هو
شامل للمسلمين والمنبوذين وكل من يعيش على أرض الهند (١) .

أهم أحداث سنة ١٩٣٢ (٢)

— قضية القنابل وما يتبعها .

— قضية حامد العلايلى وموت أخيه عبد الحلليم .

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالمهاثما غاندى ، راجع كتاب
« محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٥٣٥ - ٥٤٩ .
(٢) اكتفى لطفى جمعة بكتابة رؤوس مواضيع تحت عنوان « أهم
أحداث سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٣ » دون أن يدون شيئا عن هذه الأحداث خلال هاتين
السنتين .

على أنه بالنسبة لقضية القنابل والمرافعة فيها ، فقد تحدث عنها لطفى جمعة
عند الكلام عن « المصامة » ، أما قضية روزنفلد فقد سجل واقعاتها فى كناشة
مستقلة .

من يوميات سنة ١٩٣٣

٧ فبراير سنة ١٩٣٣ :

وقوع المظالم على الفلاحين في بلادهم من حكومتهم ومن الأجانب

نشر مستر هانن سوافر في ٧ فبراير ١٩٣٣ مقالا في جريدة ديلي هيرالد قال فيه « يعيش الفلاحون على ما يقرب من العدم وقد اغتنى الملاك بالرى دون سواهم ، وهم يزرعون ويتعبون والملاك يجنون الثمر والبوليس يضربهم علنا ، وفي سنة واحدة لأسباب سياسية وقعت ٢٦٠٠ حادثة تعذيب وضرب ، وكلهم يعيشون في اكواخ من الطين من عهد الفراعنة ، فماذا صنعت لهم الحضارة وماذا صنعت لهم بريطانيا ، وأن الفلاحين ضحايا الحكومات والأغنياء والمستعمرين من ٥٠٠٠ سنة » أه المقال عن مصر . انظر بلاغ ١٩٣٣/٢/٧ .

٧ فبراير سنة ١٩٣٣ :

قبر عبد الرحمن الكواكبي :

وجد قبر الكواكبي في قرافة باب الوزير في سنة ١٩٢٦ في حالة متهمة ، وقيل ان الذي اكتشفه ثلاثة السيد عبد القادر

- قضية روزنفلد (تزوير عمالة) وقضايا مدنية وجنائية أخرى .
- بلوع معنين سن سنة واحدة .
- المرافعة في قضية القنابل في ١٥ أغسطس وسفرى الى دمياط قبل ذلك في مولد النبي .
- الحياة العائلية وحركة الصيف بين مصر وبورسعيد .
- ختام السنة والأولاد في المدارس .
- وفاة شوقي الشاعر الشهير .

أهم أحداث سنة ١٩٣٣

- اتمام الدور الثاني من المنزل بمنشية البكرى .
- عدم السفر الى بورسعيد للاصطياف بسبب عدم الانتهاء الى منزل .
- رواية عايذة وكيفية تأليفها ووحيا (١) .
- البهائية ورغبتى في تنفيذها .
- الاحتفال باحياء ذكرى شوقي بدار الأوبرا (ديسمبر سنة ١٩٣٣) (٢) .

(١) نشرت رواية « عايذة » في حلقات مسلسل جريدة البلاغ خلال المدة من سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٤ .

(٢) شارك لطفى جمعة في هذا الاحتفال بمحاضرة قيمة عنوانها « اثر الشعر الأوربي في نظر شوقي » وقد نشرت في كتاب لطفى جمعة « في الأدب والنقد » عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٤ م .

والوقوف على مزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بأمير الشعراء ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٦١ .

الدباغ وكان يلزم الفقيه في حياته وحضر وفاته ودفنه ومنصور
فهمي ومحمد علي الطاهر وتكليفهم بالبحث كان بواسطة جمعية
الربطة الشرقية ومكتوب عليه بيتان من شعر حافظ ابراهيم :

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

ثم عبارة « هذا قبر المرحوم العلامة الكبير السيد عبد الرحمن
أفندي الكواكبي الحلبي المتوفى في ٦ ربيع أول سنة ١٣٢٠ هـ »
ولم يعمل في مصلحة القبر أي شيء (انظر البلاغ في ١٩٣٣/٢/٧).

من يوميات سنة ١٩٣٤

بورسعيد الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٤ .

نهضت في الساعة الخامسة صباحا وكان الأولاد قد أعدوا
كل شيء للسفر . قطعنا الطريق بسلام بعد أن ودعنا بورسعيد
وصلنا مصر بالمتزل الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر .

الجمعة ٣١ أغسطس

صليت الجمعة بجامع بسوق الكائنو ونزلت عصرا لفسحة
قصيرة بمصر الجديدة وأرسلت خطابات لبورسعيد لشكر الذين
خدمونا وخصوصا أحمد مرجان ومحمد المغربي ومحمود الهندي
والدكتور عباس الديدي (١) ومحمد العايدى وأبوه عبد الفتاح وحامد
الجزار . . . الخ .

السبت أول سبتمبر سنة ١٩٣٤

— على بركة الله أول موسم العمل .

— اتصل بى تليفونيا محرم أحمد (٢) الذى كنت عرفتته معرفة
بسيطة قبل السفر ولا أعرف عن أصله وفصله شيئا ، كما

(١) دكتور عباس محمد الديدي كان مديرا لحدائق الحيوان بالجيزة .
وهو من عائلة الديدي من أكرم عائلات السويس ، ومن هذه العائلة الدكتور
عبد الفتاح الديدي .

(٢) عن محرم أحمد ، انظر كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد » . المرجع
السابق ، ص ٥٧ - ٦٢ .

اتصل تليفونيا صلاح الدين الشيشيني وحفيد محمود الشيشيني بك ، المذكوران يعملان فى راديو وادى الملوك وقله زرت الاستوديو مرتين أو ثلاثا .

الأحد ٢ سبتمبر

زارنى جعفر أفندى منصور جارنا وقريب اسماعيل صدقى باشا وقال لى ان دينه وإيمانه هو الماسونية ولا يوجد شىء سواها ويظهر لى أن دينه تضائل بجانب عقيدته المنحصرة فى الماسونية لظهورها أمامه بمظهر ماذى . غفر الله له .

الثلاثاء ٤ سبتمبر

— اشتريت بعض الكتب ووصل الى خطابان أحدهما من عباس الديدى والآخر من محمود شبانة .

— قابلت محمد على الطاهر وقال ان الثعالبى أرسل الى معه سلما مرتين .

— فكرت فى البحث عن مدرسة لرابح المولود فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ ولعلها تكون مدرسة فى مصر الجديدة .

الأربعاء ٥ سبتمبر

— استعرت كتباً من دار الكتب خاصة بأشهر القضايا فى التاريخ .

— وأرسلت خطابا الى البلاغ طيه شكوى اولاد أخ حافظ ابراهيم الشاعر (١) وهم يموتون جوعا لأن بعض اقاربه الأغنياء وضعوا يدهم على تركته .

الخميس ٦ سبتمبر

اشتغلت في الصباح بكتابة ثلاث مقالات في الصوفية والصلاة .

الجمعة ٧ سبتمبر

اشتغلت طول اليوم بانجاز رسالة « أشهر القضايا » (٢) .

السبت ٨ سبتمبر

— ذهبت الى دار الكتب واستعرت ثلاثة كتب خاصة بالتاريخ الجنائي لأجل كتابي الجديد « أشهر القضايا وأبلغ الرافعات في الشرق والغرب » واطلعت في بعض الجرائد القديمة على ثلاث قضايا جنائية حدثت في سنة ١٨٩٠ (جنايتا قتل وقضية اغتيال تركة الخاندار) .

— في الساعة الثامنة مساء تركت المكتب وقصدت الحسين وقابلت عبد العزيز الاسطامبولي صاحب مجلة المعرفة فدعاني لزيارة

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي جمعة بشاعر النيل حافظ ابراهيم ، راجع كتاب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق . ص ٢٦٢ - ٢٧٣ .

(٢) « سجل أشهر القضايا » رسالة أصدرها لطفي جمعة سنة ١٩٣٤ وكانت تتضمن أشهر القضايا الجنائية والسياسية والعاطفية كقضية دريفوس الشهيرة وغير ذلك من الأبحاث القانونية .

منزل جلال سليم ابن عم فؤاد بك سليم بشارع سوق السلاح
فوجدنا مدخلا شرقيا جميلا وحديقة والتقيت بالشيخ أسعد خليل
المدني وقد وجدته ييكي خشية للقرآن ويكثر من الصلاة على النبي
وعنده حالات وروى لي تاريخ سلوكه ، وهو شاب ظريف يلتف حوله
الباشاوت والوزراء والعظماء ٠٠٠ الخ وطريقته نقشبندية •

الأحد ٩ سبتمبر

في الساعة الخامسة ذهبت الى المكتب حيث زارتني سيدة
متقدمة في السن أهدت الى نسخة من ديوان الألحان الضائعة نظم
حسن كامل الصيرفي وقالت انها حمة الشاعر الذي تزوج ابنتها
بواسطة أحمد زكي أبو شادي وطلبت مني تقييد هذا الديوان •

الأربعاء ١٢ سبتمبر

- قابلني محمد علي الطاهر وخير الدين زركلي وتكلما مليا
عن أحمد زكي باشا وتحدثنا عن سيرة الثعالبي ومنعه من السفر الى
تونس • وذكر لي الزركلي كتابين مهمين ، مفتاح السنة ورجال
السبعائة (أى القرن السابع الهجرى) وتكلم أحدهما وقال انه
رأى حقى بك العظم فى صحة وهيئة مدهشة وكأنه عاد بالحياة
أدراجها من الصحة والقوة •

- كتبت مقالة فى التصوف •

الخميس ١٣ سبتمبر

- قابلت الدكتور على العناني فوجدته فى حال يأس وصحة
سيئة وهو فى صمت عميق غير مفهوم وقد نفذى يديه من الماسونية

أو كاد . ويظن أنه ينقل مكتبته الى مكان ثابت لأن الاتحاد العربى العام يدخل فى النزاع بفضل همة محمد رفعت ودجله .

— وبعد الظهر ذهبى الى « الماسون » لحضور حفلة رثاء أحمد عمر فرأيت ترتيبا مسرحيا ، نعيش وجمجمة وورد ومباخر ! ، وكان رجال الوفد قد وعدوا بالحضور فلم يحضر أحد ، وقام محمد رفعت وبعض القداماء بمراسيم الجناز الماسونى بحالة مرتبكة مضطربة وأدخلوا آيات قرآنية فى النصوص الماسونية مما أظهر التناقض ، وألقيت فى الحفل كلمة تأبين ثم تلاى العنانى فواحد آخر ثم ابن الفقييد .

— وفى الساعة التاسعة والنصف مساء قصدت سوق السلاح لزيارة الشيخ أسعد خليل المدنى فأهدانى لوحة مكتوب عليها « رأس الحكمة مخافة الله » وأهديته كتابى « تاريخ فلاسفة الاسلام » .

والشيخ أسعد عندما رأيته شاب فى العقد الثالث أسمر اللون حجازى اللهجة يبتسم أحيانا وأحيانا يتطور ويحلق لحينه ومعظم شاربه وله لمة شعر سوداء ويلبس ثيابا من الكتان بسيطة وطاقية من الصوف .

وهو اذا اعترته الحال أغمض العين ويبدأ ينشد أشعارا أو أقوالا مسجعة يرتجلها ويستند فيها الى أية كلمة تقال أمامه أو شئى له مناسبة كقوله « هات القهوة ، القهوة دى شهوة ، وأنا جات لى شهوة ، جات الدنيا لهوة » ، « هذا الكون من سلطانك ، ما أعظم شأنك ، كل الأمور حسبائك ، وهذا الفعل شيطانك » .

وإذا اعترته الحال يحدث له شبه تشننج فى أعضائه ويكفهر وجهه ويحرق الارم أحيانا ويسمع لها صرير شديد . وللشيخ خلوة

بأسفل الدار ، وقد أفضى الى بأشياء كثيرة من حياته الماضية كرحلته الى تونس والى باريس وزواجه من « روضة العرافة » وسفروه الى اصطامبول والشام ٠٠ الخ ومجلسه لا بأس به وطريقته نقشبندية ، ويتكلم ببساطة قلب .

— أعددت مقالات للبلاغ .

الأحد ١٦ سبتمبر

— فى الساعة الخامسة صباحا خرجت من الدار وقصدت ضفاف النيل حيث شهدت فيضان النيل العجيب من عند روض الفرج ، فهو صحيفة واسعة من الماء المحمر الجميل ، هادىء فى أماكن وفوار فى أماكن أخرى ، وقد صارت القرى والجزائر التى دنا منها وضمها الى صدره كأنها صور فى لوحات ، ألوانها زاهية وكذلك النخيل والحقول والسفائن التى تمخره كأنها لعب صغيرة يلهو بها هذا الجبار الكبير . وفى الساعة الثامنة ركبت رفاصا Launch الى القناطر الخيرية وكان المنظر بهيجا ونحن نسير ازاء الضفتين مندفعين بقوة التيار ووصلنا الساعة العاشرة فارتفعت على الحشائش الخضراء تحت ظل الأشجار حتى الساعة الرابعة ، وتحرك الرفاص الساعة الخامسة بعد الظهر وقرأت فى الطريق بعض قصص ادجار آلن بو ، وخطر فى بالى مشروع كتاب « دليل السالكين » للشهاب المثقفين فى التصوف الحديث ووضعت المشروع وكتبته .

— وصل الى خطاب من عبد العزيز الاسلامبولى يطلب فيه

كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام والشهاب الراصد .

الاثنين ١٧ سبتمبر

وصلنى خطاب بالبريد من عبد العزيز الشعباني يشكو حاله
ويطلب منى مقالة عن الجزائر ولكن المعلومات تهوونى ، وفى الخطاب
نفسه كلمة من محمد اسعاف النشاشيبي يدعونى لزيارة المقدس .

الخميس ٢٠ سبتمبر

حضرت جلسة قضية عبد القادر حمزة والآن مضى على هذه
القضية سنة ونصف وحضرته دفع لى خمسة جنيهات مقدم آتعايب
ومبلغ التعويض الذى يطلبه ألف جنيه ، وهذا الاستغلال يرتكن
فيه هذا الرجل الطيب الى أننى أبعث اليه بمقالات أسبوعية ولعله
ينتظر أن أحدهم مجانا وكان هذا والله أولى . لقد حضرت حتى الآن
أكثر من عشرين جلسة وقدمت مذكرة مطبوعة ، وهكذا الصداقة
والا فلا . فاذا ضميمناه الى محمد مسعود الذى يريد اغتيال حقى
فى قضية البرنس يوسف كمال حيث ربح ألف جنيه - كان هذا
أجمل مظهر لرجال الأدب فى مصر ومعاملتهم لأصدقائهم الذين
ينفعونهم ، وبعد فراق ثلاثة أشهر بينى وبين عبد القادر حمزة لم
يقل لى كلمة طيبة ولا تحية تدل على شوق ونظريته هى أنه لو قال
لى الحمد لله على السلامة مقالتك حسنة لكان ذلك سببا فى طمعى
فى تقديره أو اعتقادى برضاه . فتأمل !

الجمعة ٢١ سبتمبر

صليت الجمعة بجامع الكخيا ورايت أحمد حسين صاحب
« مصر الفتاة » يخطب ويقول « الله أكبر الله أكبر ! أيها المسلمون ،
كنا نحن المسلمين أعزاء وفتحنا العالم والآن نحن أذلاء يحكمنا

الأجانب » فلم يكتث له جمهور المصلين وقبض عليه البوليس خارج المسجد وتوجه به الى قسم عابدين ثم أفرجوا عنه .

الأحد ٢٣ سبتمبر

ذهبت الى المكتب وحضر مظلوم الزجال وصديق مصطفى الصباحي وهو رجل صعيدى طيب القلب وأخبرنى أنه يريد أن يلقي أذجالا بمحطة الاذاعة الحكومية وطلب منى الوساطة فى ذلك .

الثلاثاء ٢٥ سبتمبر

قرأت فى التصوف كتاب « الانسان الكامل » للجيل وماسينيون فى الحلاج ، ودهشت من قول الجيل ان افلاطون قطب زمانه !

الأربعاء ٢٦ سبتمبر

— فى الصباح أخذت معى عوايد المنزل وقصدت محل العوايد المذكور وعلمت أن منزلنا المبارك أخذ نمرة ٤ شارع حسن بك فايق الذى بنى بعدى بخمس سنين ولكنه نسيب محمود شكرى باشا فسررت بهذا (١) !! .

— عدت الى البلد وقصدى أن أشتغل فى جو هادى فى عمل أبحاثى عن اللغات السامية ، وزرت للمرة الأولى رابطة الأدب العربى وهى غرفة واحدة وفى وسط صحراء من البلاط والفراغ فى أعلا دور بعمارة تيرينج وهى المؤسسة التى تحارب عليها أحمد زكى

(١) أصبح اسم الشارع بعد ذلك « شارع الأسىوطى » .

أبو شبادى وكامل كيلانى وآلت الآن الى الشيخ عبد الله عفيفى
(ع . ع . ٠ بالبلاغ) لذى لم أراه الا مرة واحدة فى محطة راديو
وادى الملوك ونزلت من هناك قبيل الغروب .

الأحد ٣٠ سبتمبر

فى الساعة الخامسة بعد الظهر قابلت الثعالبى صدفه فى
الأزهر واشترت كتاب « الكهف والرقيم » .

الاثنين أول أكتوبر سنة ١٩٣٤

زرت البلاغ وتحدثت مع محمد مسعود بالتليفون وطالبت
بأتعابى فاعتذر واستمهلنى لثلاثة أو أربعة أيام لمرض ابنه الصغير
زكريا ، فذكرته بالحق والصدق وكان يجاوبنى مجاوبة أهل
المظالم (١) .

٢ أكتوبر

راجعت فصلا من السيرة النبوية التى كتبتها باسم « بطل
الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله » . وقصدت لزيارة الشيخ
خليل أسعد المدنى فى سوق السلاح فقابلنى جلال سليم بك أخ
فؤاد سليم وأعلمنى أنه « عزل » الى دار وراء قصر عابدين فتركته
وذهبت الى الدار الجديدة للشيخ خليل وسلمت عليه وتركته
وانصرفت .

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد مسعود ،
راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ -
٢٩٠ .

الأربعاء ٣ أكتوبر

- فى الصباح لقيت عبد القهار مذكر (الملايو) فقال انه
انشق على جمعيتهم الخيرية (الجمعية الخيرية الاسلامية) وأنه
سيسافر الى بلده لوفاة أمه .

- وفى الساعة الرابعة نزلت لمقابلة فؤاد سليم بك (١) لموعد
سابق فعلمت انه ذهب لجنازة أخت مصطفى كامل باشا رحمه الله
فلم أدركه .

- وبعد ذلك زرنا الشيخ محمد أمين البغدادي الكردي
النقشبندى فوجدنا عنده أعيانا وبينهم الشيخ الطواهرى شيخ
الجامع الأزهر وقد أثبت كلامهم ومجلسهم فى غير هذه المذكرات .

الجمعة ٥ أكتوبر

- أداء صلاة الجمعة بمصر الجديدة .

- مقابلة على العناني عظماء بقبوة « وازين » بمصر الجديدة
وقراءتي له نبذة من كتاب السيرة النبوية تأليفى وهى القسم الخاص
بالأجناس البشامية والآرية .

(١) فؤاد سليم هو زميل وصديق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق ووالده
سليم باشا الحجازى أحد قادة الجيش المصرى فى عهد محمد على ، وكان من
زعماء الضباط الذين ثاروا ضد وزارة نوبار باشا فى فبراير سنة ١٨٧٨ فى
عهد الخديو إسماعيل (عبد الرحمن الرافعى) كتاب « مصطفى كامل » ط ٢ ،
القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ص ٢٦ وما بعدها .

السبت ٦ أكتوبر

ذهبت عصرًا لزيارة الثعالبي لأعطيهِ خطابًا ورد إلى بعنواني ،
ثم ذهبنا إلى زيارة الدكتور طه حسين بمنزلة بالزمالك وافترقنا في
المباشرة .

الاثنين ٨ أكتوبر

تعدينا اليوم في منزل الشيخ علي شقرون بشوارع حمام
الجمعة ببولاق وكان معنا محمد علي الطاهر والزكلكوني والرصاص
والثعالبي .

الأربعاء ١٠ أكتوبر

وسيطت الدكتور أحمد ضيف (١) في مسألة محمد مسعود
وانعابي المستحقة طرفه فأظهر مسعود نفورا من الدفع ولفق أحاديث
وقصصا سداها ولحمتها وغايتها هضم حقوقي .

الخميس ١١ أكتوبر

تخاطبت مع محمد مسعود بالتليفون وقلت له : كيف تريد
أن أفقد الأتعاب وأفقد صداقتك وكيف تمتنع فجأة من زيارتي ؟
فقال : هو أنا كنت صديق حضرتك ؟

وأظن هذا الرجل يضحى بكل شيء في سبيل المال . وان
شاء الله أفوض أمري في هذا الرجل .

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفي جمعة بالدكتور أحمد ضيف ، راجع
كتب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٦١ - ٤٦٦ .

الجمعة ١٢ أكتوبر

قضيت معظم هذا اليوم من الصباح مع علي العناني وتللمنا في كل شيء من قديم وحديث وقال لي : ان الدكتور أحمد ضيف لم يقصر في مأموريته مع محمد مسعود واستحسن أن ينصحني بأن أستعوض الله خيرا في أتعابي التي تقدر بمائة جنيه ، ولكنه لاحظ أن مسعودا لابد أن ضميره يؤنبه وأنه شاعر بمسئوليته نحوي .
هل رأى الناس مثل هذا الجحود ؟

الأحد ١٤ أكتوبر

- زيارتي ليلا للشيخ أسعد خليل وإيحاء فكرة تدوين سلسلة كبرى الدين من الصغر الى الآن كجزء من مقدمة كتابي عن النبي .
- نشرت خطاباتي للشيخ محمد عبده في تاريخ الشيخ تأليف الشيخ رشيد رضا بالجزء الأول ، ص ٧٩٢ - ٧٩٦ .

الثلاثاء ١٦ أكتوبر

قابلت الثعالبي بسيدنا الحسين وقابلت علي العناني وأحمد ضيف وخليل مطران (١) بمصر الجديدة .

الخميس ١٨ أكتوبر

- موعد حفلة تأبين زكي باشا شيخ العروبة عند العمروسي .

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي جمعة بخليل مطران .
راجع كتاب د محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام . المرجع السابق . ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

• - مقابلة الثعالبي لتاجر منزل له .

• - زيارتي ليلا للشيخ محمد خليل الشاذلي .

الجمعة ١٩ أكتوبر

صلاة الجمعة ومقابلة الثعالبي والحديث معه في تاريخ النبي
والكتابة في تاريخ مكة للانتهاء من هذا القسم الأول .

الخميس ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤

• - استأجرنا بيتا للأستاذ الثعالبي نمرة ١٠٦ شارع شبوا
ودفعنا أجرة شهر والعقد لمدة ثلاثة شهور واستلام البيت باكر .

• - ذهبت والثعالبي ومحمود الرصاع والفتيانى الى الشيخ
محمد خليل الشاذلي في مصر عتيقة وقال انه ألف كتابا في الزواحف
(الثعابين والعقارب) وأنه قادر على ترويضها وهي تعيش في غرفة
خاصة ببيته وأنه يشفى المرضى بسر الاسم الأعظم « الله أكبر بسم الله
الرحمن الرحيم » ، وأرانا الشيخ مئات الخطابات المغلفة التي لم
تقرأ الى الآن وجملة دوسيهات لطلاب الحاجات ، وقال للثعالبي
انه صبور ويحمل في جسمه بلوى وتركناه الساعة الواحدة وبعد
الخروج من عنده قال الثعالبي « هذا أدجل ما رأيته عيني » .

الجمعة ٢٦ أكتوبر

• زرت الثعالبي وصلينا الجمعة بجامع الخازندارة وأكلنا ظهرا
وتحدثنا في تاريخ النبي ومكة وعبادة العرب قبل الاسلام .

الخميس أول نوفمبر سنة ١٩٣٤

- قضيت اليوم في كتابة تاريخ مكة .

- سهرت عند النعالي وحضر عثمان عصمان من تونس وهو تلميذ ماسينيون وطالت السهرة الى الساعة الثانية بعد نصف الليل واقترح النعالي أن أقضي الليلة عنده ففعلت وقرأت قبل أن أنام الى ساعة متأخرة .

الجمعة ٢ نوفمبر

نهضت من النوم مبكرا بعد أن قضيت الليلة بمنزل النعالي وحضر محمود الرضاع . وصلينا الجمعة في جامع الخازندارة .

الأحد ٤ نوفمبر

أجبت دعوة الشيخ ماضي أبو العزائم في صيوان كبير وسمعته يخطب خطبة في الاسراء وينقلها للجمهور ابنه الشيخ محمد (١) .

الثلاثاء ٦ نوفمبر

- زرت الشيخ أبو العزائم فتكلمنا طويلا وتكلم هو في عالم التشبيه والتنزيه وعالم المثل والخيال وسجود الملائكة لآدم للمعرفة وأسرار التصديق والانفراد والوحدة ، وفسر سورة « قل هو الله »

(١) للوقوف على مزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ محمد ماضي أبو العزائم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٠١ - ٣١١ .

أحد « واحترق الملائكة الكروبين (١) Cherubin وقال انهم مملؤون بالكرب (كذا ١٩) ، ثم كلمته بشأن مريده محمد عبد ربه فقال انه تلميذ ضال .

- قابلت النائب العمومي لبيب عطية بك فقابلني أحسن مقابلة
فله الشكر .

الأربعاء ٧ نوفمبر

أهم حادث اليوم هو ما وقع بيني وبين عبد العزيز الشعالبي ، فان هذا الرجل انفلت عياره المعنوي ، فقد قلت له يجب عليك أن تستثمر مواهبك العالية وأنه بدلاً من قضاء مدة في الكلام مع الشبان الذين يزورون هذا المكان يحسن أن يدربوا على التسويد والتبيض ، فذهب ذهنه الى أنى أتهمه بأمور شاذة ، وأرغى وأزبد ، فدهشت . ولاحظ أنني ذهبت الى بيته الساعة الرابعة وقرأت له مسودات كتابي « بطل الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله » وقضيت معه أكثر من ثماني ساعات وأكلنا معا خبزاً وجبناً وفاكهة . وقد حضر هذا الحادث محمود الرصاع ابن وطنه .

(١) الكروبين أو الكروبيم في التوراة مخلوقات ليس لها وظيفة الملائكة من حمل رسالة الله ، ولكن لها ست وظائف ذكرها العهد القديم وجميعها تندرج تحت وظيفتين أساسيتين : الأولى - الحراسة : (خراصة تابوت العهد ، خراصة الهيكل وخراصة شجرة الحياة) ، والثانية حمل عرش الله سبحانه وتعالى . ويقول النحشري في كتابه « الفائق » ان الكروبين هم سادة الملائكة ، جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، وهم المقربون من كرب أى قرب ، وقيل ان الاسم مشتق من الكرب وهو الحزن لشدة خوفهم من الله وخشيتهم اياه ولكن هذا خطأ .

الخميس ٨ نوفمبر

— فى الصباح تنقيح المقالات الأولى من كتاب « أشهر القضايا العالمية » .

— طلب الشيخ سيد عبد السلام مقابلتى فقابلته ومعه صادق عنبر .

الجمعة ٩ نوفمبر

نشرت الأهرام اليوم مقالتي « مصر فى مفترق الطرق » .

السبت ١٠ نوفمبر

— قابلت الصاوى محمد وكلمنى عن التعاون معه فى مجلة سيصدرها قريباً ويعاونه فيها توفيق الحكيم (١) .

— ذهبت الى محطة الاذاعة وقابلت أحمد سالم (الطيار) وقهمت أن سعيد لطفى بك أخ أحمد لطفى السيد أصبح لا شأن له بالاذاعة وأنه مستشار شرفى وطلب منى محمد أفندى فتحنى المذيع فى محطة اذاعة الحكومة مراجع فى علم الفولكلور .

الأحد ١١ نوفمبر

— ذهبت للشيخ محمد أبو العزايم فتكلم فى التصوف وعرض على الإشراف على مجلته « المدينة المنورة » .

(١) هى مجلة « مجلتى » التى صدر العدد الأول منها فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ وجاء فى افتتاحيته أن « رسالة مجلتى هى اللحاق بالادب الغربى الذى خلق بالطيارة ، بينما أدبنا يسير كالسلفاة ، واكبر عماد للادب الغربى هو القصة . لذلك ستكون القصص عماد « مجلتى » . بين كلاسيكية قديمة وعصرية مستحدثة من كل اللغات الحية ومن صميم الحياة المصرية . . . وستعنى عناية خاصة بمشاكلنا الاجتماعية وشئوننا النسائية وحركتنا الأدبية والفنية والرياضية . . . » .

— قابلنى محمود الرصاص واعتذر لى عن الثعالبى وقال لى انه ندم كثيرا وقضى ليلته لا ينام وليلة أخرى وقال كان يجب على أن أتأكد من نية الأستاذ لطفى قبل أن أواجهه بالعداء . فلم يهمنى هذا القول .

الاثنين ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤

— هذا آخر ما كتبتة فى هذه المفكرة اليومية .

— من أغرب المصادفات أننى لم أعر على هذه المفكرة الا اليوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٢ ، أى بعد ثمانى سنوات كاملة . وفى نفس الوقت الذى وقفت فيه كتابتى فيها من سنة ١٩٣٤ أعدت قراءتها وقراءة ما خططته سنة ١٩٤٢ ، وأعجب ما وجدت أن الناس لم يتغيروا نحو الخير بل الناحية الأخرى وأننى باق على حالتى المعاشية والأخلاقية أشكو ما كنت أسكوه ، وانه لحكمة أننى اكتفيت بهذا القدر فى الماضى ليكون نموذجا لكل الحاضر كأن الحوادث تتكرر ، بيد أن كثيرين ابتعدوا بانتقالهم أو بالموت كعبد القادر حمزة . غير أن الأولاد كبروا وأزمة الحرب العالمية مستحكمة . وسأعيد الكرة بقراءة ما كتبتة فى ٧٢ يوما كاملة من سنة ١٩٣٤ فانه نموذج لحياتى العملية والعائلية والعاطفية فى مدينة القاهرة بعد عودتى اليها من أوروبا بعشرين عاما فتأمل !

محمد لطفى جمعه

١٩٤٢/٩/١٢

سنة ١٩٣٥

فبراير سنة ١٩٣٥

قال لى أحد الأشخاص انه سمع من رجل أمريكي يشغل منصبا علميا أن الانجليز قالوا انهم مستعدون أن يعقدوا اتفاقا مع الحزب الذى يتفق معهم على معاهدة على أن يضمنوا له الحكم الدائم فى مصر مع حمايته وترك حريته مطلقة فى حكم البلاد . وقال لى هذا الشخص ان هذا يكون من أعجب الامور (١) .

(١) هذا فقط ما سجله لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٣٥ .

سنة ١٩٣٦

من يوميات سنة ١٩٣٦

١١ ديسمبر سنة ١٩٣٦

لم أتناثر مثل ما سمعت اليوم الساعة الثامنة عشرة خطبة
الوداع التي ألقاها ادوار الثامن في وداع وطنه وتهنئة أخيه
والتوصية به ورغبته في خدمة وطنه وتمسكه بحبه ورغبته في انشاء
بيت سعيد وحياة هادئة ، وأنه سيتترك بلاده لبعض الوقت
some time ولكنه مستعد لخدمة البلاد ، وكان صوته متهدجا
ومتأثرا .

١٤ ديسمبر

— زيارتي للشيخ اسماعيل الباز أخيرا في عيد الفطر بالسويس
وترجمة حياته ووصفه وأحاديثه الصوفية .

— كتابة موضوعات لمجلات أبو شادي (١) عن الشعراء
المنصوفين كابن الفارض وابن عربي ورابعة العدوية وغيرهم ومذكرات
وذكريات عن المدرسة الخديوية بالمقطم والطائف .

(١) للوقود على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشاعر أحمد
زكى أبو شادي ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ،
ص ٤٠٣ - ٤٢٢ . وراجع أيضا رسائل أبو شادي الى لطفى جمعة في كتاب
« حوار المفكرين » ، رسائل اعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن
(١٩٠٤ - ١٩٥٣) ، ص ٣٢٨ - ٣٥٧ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

١٩ ديسمبر

اقترحت الحكومة البولندية اسكان الزائدين لديها من اليهود في جزيرة مدغشقر الفرنسية . والمفهوم أن حكومة فرنسا أجابت أن حالة الجو وغيره في تلك الجزيرة لا تسمح بقبول أكثر من عدة مئات من الأوروبيين وقد أعلنت فرنسا رضاها بادخال هذا العدد المحدود الى مدغشقر بشرط ألا يكون كلهم يهودا بل من ملل مختلفة ، وينتظر أن ترى بولندا في ذلك فشل مشروعها .

٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٦

تسير المقاطعة العربية في فلسطين بشكل صامت بغذيه الكراهية فلا يدخل عربى متجرا يهوديا وقد حرم اليهود على فقراهم شراء اللبن من فلاحى العرب ونقلوا متاجرهم فى القدس الى أحيائهم الخاصة ، ومحا العرب الكلمات العبرية التى كانت مكتوبة على اللوحات المعلقة على متاجرهم .

سنة ١٩٣٧

من يوميات سنة ١٩٣٧

ليست العبرة في تدوين المذكرات بالوقائع التي يصفها الكاتب أو بالأشخاص الذين يصفهم أو بالأحاديث التي تنطوي عليها ، ولكن العبرة في كل ذلك بأسلوب المذكرات وفهم الكاتب لما يريد أن يكتب والمغزى الذي يستطيع استنباطه ، فأولا وضوح ذهن وجعل الأسلوب منطبقا على الأفكار المفزعة في قلبه ، وصدق الوصف ونقل صورة صادقة من جو الحوادث والشخصيات .

انظر الى مذكرات تاسيت عن عهد تيريوس ونيرون والى مذكرات أحمد شفيق باشا في نصف قرن ، فانه بينما ترى كتاب تاسيت كأنه كائن حي ينطق ويلعب في يدك ، ترى مذكرات شفيق كالجسد الميت الأصم الأبكم بسرده حوادث وألفاظ مرصوفة وألقاب ورتب ونفوذ بدون ثمرة أو نتيجة .

السبت ٢ يناير سنة ١٩٣٧

مساء قابلت اسكندر مكاريوس فتكلم معي في أمور كثيرة فقال انه يتقن منافقة الحكومة الوفدية ، فهو ينتقد مسألة انزال الطيارين ولكنه يحمى الحكومة في جريدته ، ثم قال انه كان يفضل التخلص من مسز سمبسون على طريقة السلطان عبد الحميد ويعطوا عشرة

آلاف جنيه لأرمنى يهودى أو رومى (كذا) ليسفيها فنجان الشاى
 ممزوج بالسهم ، فدهشت من كلامه ، فقال : هكذا يجب أن تكون
 الحياة السياسية ! ولم أكن أظن أن هذا الشخص الذى يتظاهر
 بالوداعة والشفقة أن يكون مبيحا للقتل لأى سبب ، وقال انهم
 يقتلون الملايين فى الحرب فلا بأس من قتل امرأة واحدة لانقاذ
 الامبراطورية البريطانية (١٩) .

١٠ يناير

— قابلت نقولا حداد بقهوة بول نور ولخصت له مسألة روايتي
 « بقطة الضمير » وأن خليل مطران تواطأ مع ادمون تويما على اغتيالها
 وصنعوا فيها سيناريو أعطوه لأم كلثوم وشركة فيلم الشرق باسم
 « نشيد الأمل » ، فدافع عن خليل مطران ، ولما توجهنا للأوبرا
 قابلنا تويما وقدم لنا « بروجرام » الفيلم الذى سيعرض غدا (!!)
 بسيما رويال ، ثم قال لنا فجأة « أنا أخذت القصة من أصل
 فرنسى ولكن بتوع الفيلم غيروه » . فقال لى نقولا حداد ان هذا
 الكلام منه أمامى بدون مناسبة دليل على وجود شيء فى ضميره
 يحتاج لتبرير موقفه أمامك ، وقرأ معى الملخص ووافقنى على قولى
 وأشار على بمقابلة خليل مطران ومفاتحته فى المسألة وقال انهم
 يستحقون رفع قضية عليهم .

— قابلت الدكتور على العنانى وحسين شفيق مجتمعين ، فقال
 حسين شفيق انه سمع من تويما أنه أخذ قصة السيناريو « نشيد
 الأمل » عن أصل فرنسى ولكنه لم يقل عن المؤلف . وقال عنانى
 ان مطران قال له ان رواية لطفى بك قبلت وأنها ستمثل ولكنه
 تعجل فطلبها . وبحثت معهما المسألة ، فقال حسين شفيق أنا مقتنع
 بكلامك وأنتك أحدثت لى حسرة ما بعدها حسرة وهذه خيبة أمل
 لا مثل لها وفى من يشق ومن نأتمن بعد ذلك ؟ .

وقال العناني انه يجد مبررا لمطران لو أنه أثبت أن تويما سرق القصة بدون علمه ، فرد عليه حسين قائلا : كان مطران رئيس لجنة بنك مصر واطلع على سيناريو لطفي وهو مدير الفرقة وقرأ الرواية ووسط وسيطا بين أم كلثوم وتويما وقدم لها الفيلم بأنه جيد وفوق الجيد فهو اذن يعلم ولو لم يكن هو الذي توسط فعلى الأقل قرأ في كل الجرائد ملخصه وموضوعه ، ولابد أنه يكون شاهده فماذا عمل بعد الخطاب الذي أرسلته اليه في أربع صفحات ؟

ورأى العناني وحسين شفيق هو رفع دعوى على الشركة وعلى الرجلين (مطران وتويما) ومسئولية خليل أنه مكن تريما من سرقة الرواية . أما نظرية توارد الخواطر فهي مرفوضة لأنها تصح في حالة عدم وجود الأصل . وأهم ما يراه شفيق الزام تويما بأبراز الأصل الفرنسي .

١١ يناير سنة ١٩٣٧

قال الشيخ البغدادى بحضور المفتى عبد المجيد سليم انه وهو طفل كان يرى الأولياء المدفونين على صورة أحياء جالسين ، فرأى أبا حنيفة ومعروف الكرخى . . . الخ وكلهم على هذا الوضع . ثم قال : يرى الله سبحانه وتعالى رؤية قلبية يقينية . فقال الشيخ عبد المجيد سليم ان أبا حنيفة قال انه رأى الله أربعين مرة ، وأن الشيخ محمد عبده روى له (أى لعبد المجيد هذا ؟ !!) أنه رأى شيخه حسن رضوان وساعده فى حل مسألة عويصة فى الغيط ! ورأى النبى مرة وقال يرى النبى يقظة . وقال عبد المجيد سليم رؤية الله فى المنام . فقال الشيخ البغدادى هذا ضعيف بل فى اليقظة . ثم رجا الشيخ ذلك المفتى فى مساعى قضائية فرده الشيخ عبد المجيد مستندا على قول الشرع والقانون أن الرجا فى القضاء

حرام وأنه لا يقابل أحدا من أرباب المصالح حتى الافتاء . وظهر
لى أن الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية شخصية
بسيطة ، ومن المدهش أنه حل المحل الذى كان فيه الشيخ محمد
عبد والشيخ أبو خطوة .

١٤ يناير

فى ١٤ يناير سنة ١٩٣٧ بمدينة لكو مارست امرأة من
البراهمة العادة التقليدية باحراق ذاتها أمام هيكل أجرا أثناء
الاحتفال بتشييع جنازة زوجها ، فكان صراخ الألم يكاد يغطى على
دق الطبول ورنين الصنوج ، ووقف جمهور كبير ليشاهد المرأة وهى
تحترق حتى ماتت قبل أن تتمكن الشرطة من التدخل فى أمرها .
وعلقت جريدة أفرنجية على هذا الخبر فقالت « ان الاستعمار
الانجليزى لم يستطع منع هذه العادة التى هى من شعائر الدين
وأن وجود المتفرجين بكثرة دليل على تأصل التمتع بالقسوة
« ساديزم » فى قلوبهم » .

ولكن الفضل يرجع الى الشارع الذى جبل نفس الشعب على
اعدام المرأة على هذه الصورة صيانة لها بعد موت زوجها ، فهو
علاج للغيرة الحاصلة بعد الموت Posthumons ، ولعل هذه العادة
من دواعى اخلاص الزوج لزوجته طول حياته ومن موانع تعديها على
حياته بايعاز عاشق أو مزاحم ، لأنها تعلم أن عمرها ينتهى بانتهاء
عمره ، فالتضامن جميل فى ذاته وان كان ثمنه غاليا .

**والهند تقلل عدد النساء بهذه العادة الدميمة وتقاوم كثرة
المواليد بقتل الاناث** وهى تقابل عادة وأد البنات فى جاهلية العرب .
ولماذا لا يحترق الزوج عند وفاة زوجته ؟ لأنه بطبعه — حتى فى

حياته - قد أرادته الطبيعة مزواجا Polygume ، ولو عرفت المرأة الأوربية أنها تحترق بعد وفاة زوجها لكانت عنايتها بغذائه وراحته وصحته أعظم مما نرى ، ولنفخذ هذه العادة فى روح العفة والأخلاق وريأت المرأة من أن تكون متاعا لجملة رجال اذا مات زوجها الأول .
فما أبعد المسافة من أخلاق المرأة التى تحترق بعد الزوج والأخرى التى تقبض بوليصة التأمين بصفة « دوطه » لهريس جديد !

ان فى الشرق أمورا يحتاج الغرب لتعلمها .

١٥ يناير

كتبت خطابا الى خليل مطران بخصوص سرقة روابتى بواسطة ادمون تويما (١) ، وتكلمت مع مصطفى القشاشى صاحب مجلة الصباح ولخصت له الموضوع .

١٨ يناير

- قابلت ابنى زكريا وهنأته بعيده الذى هو عيدى .
- وقابلت الشيخ سيد عبد السلام فى قهوة بلدى وحضر الشوربجى والشيخ محمود عبد السلام ثم ذهبنا الى سيدنا الحسين فصلينا العشاء .

٢١ يناير

- خطب أحمد ماهر فى محفل الشرق الاكبر وقال عن معاهدة سنة ١٩٣٦ « قد حصلنا على هذه المعاهدة على ما فيها من نقص وعيوب وهى تعد خطوة فى نيل غايتنا وهى الاستقلال » .

(١) انظر هذا الخطاب فى كتاب « محمد لطفى جمعة ومؤلف الاعلام »
المرجع السابق ، ص ٤٢٧ - ٤٣٠ .

— تكلم معي نقولا حداد فقال ان وجود الاسرة على وضعها الحالى اكدوبة كبرى اذ هي استغلال للزوج طول حياته لمصلحة الأولاد والزوجة ، ويعيش الزوج كل حياته يعمل حتى يقع تحت عبء خمله ، وقال ان هذا الموضوع مهم لأجل رواية توضع فيها كل هذه الأفكار لأنها خلاصة ثورة اجتماعية كبرى وأن هذا الموضوع يعجبه ويجوز في خاطره منذ زمن طويل .

٢٢ يناير

حكى لي اسكندر مكاريوس في محل الأمريكيين قصة المقطم فقال لي ان في الحياة البشرية الحقيقية مأس أفزع مما تراه في السينما ، فخالي الدكتور فارس نمر الذي أنعموا عليه برتبة باشا وهنائه أكبر رجل شرير على سطح الأرض ، كره جميع المصريين عند جميع الشعوب وظلمنا يميناً وشمالاً وقلبه خال من الإيمان والانسانية ، فقد ظلم أبى شاهين مكاريوس صاحب فكرة المقطم وعمل حيلة شيطانية هو وصروف على ظلمه وجعل تصيبه الربع بدلا من الثلث وكان أبى دنيا يهتج ومات من الجزن . وظلم أخى سليم فقد أعطاه مائتين وأربعين جنيهها للعلاج ، فلما مات احتسبها من مرتبه ولم يجعلوا له مكتبا في المقطم مع أنه قد عمل كل حياته في انهاضه ، والمحرج جميل فهمي انتحر من اليأس وجاءت امرأته تطلب مصاريق دفنه فرفض الدكتور نمر فجمعها لها عمال المطبعة .

والساء الى كل انسان احبك به واجتهد أن يأكل حقوقه وقد أكلها بالفعل . وقد اقتني ٧٠٠٠ سبعة آلاف فدان وبعضها أطيان يعقوب صروف نفسه ، ضحك عليه حتى اشتراها منه وجرد أسرة صديقه وشريكه من الملك العقارى وان ثمنها على الأقل ٧٠٠ ٠٠٠ سبعمائة ألف جنيه وأن ايراده لا يقل في العام عن عشرة آلاف جنيه

وأنه نموذج للخیل واللؤم والخیانة لأصدقائه وأقاربه وأنه أعظم ممثل للانانية والغرور والشح فى العصر الحديث .

وشكوى مكاريوس الآن تدور حول أن فارس نمر باشا (!!) هو وخیل ثابت (زوج أخت مكاريوس) يدسون لينزعوا نصيب مكاريوس وأخوته من المقطم ليستولى علیه فى النهاية خلیل ثابت ، وأن هذا هو السبب فى إهمال المقطم فى الوقت الحاضر ليسقط إیراده ويسترده نمر بأرخص ثمن من عائلة مكاريوس مع أن نمر يستفيد من المطبعة ومن إیراداته الخاصة .

وقال لى مكاريوس ما نصه « اننى شامى ومحب للانجليز وهذا الرجل خالى ولكننى لم أدهش ولم أغضب ولم أحتقر عملا من أعمال الحكومة أو الأمة المصرية مثل منح لقب باشيا لهذا الرجل الذى قضى حياته فى خیانة مصر ومقاومة جريبتها والخط من قدر أبطالها مثل مصطفى كامل ، فأى مثال سيى يعطى للخونة والأشرار فى المستقبل من نفس هذه الأمة التى نالوا منها وشتموها ؟ » .

ثم قال بعد ذلك انه اذا كان البرنس محمد على (رئيس مجلس الوصاية) هو الذى صنع ذلك فقد وصم تاريخ حياته الى الأبد .

وقال انه عندما عين خلیل ثابت عضوا فى مجلس الشيوخ هاج نمر وماج وأحضره وقال له بدون أن يهنئه « من الذى أعطاك هذه الوظيفة وكيف تم ذلك بدون علمى ؟ » . فقال له خلیل ثابت : وماذا يهمك أنت يا باشا ؟ أنا لم أعرف ولكنك أنت نلتها قبلى ولعلك لست مبسوطا لأجل ذلك ولكن تعيينى فى المجلس ليس غلطى .

وقد علم كريم ثابت بهذا الحديث فهاج وماج وسب وشتم
ويظهر أن هذا من أهم أسباب خروجه على المقطم واشتغاله في
جريدة المصري .

٢٧ يناير

- أرسلت اليوم خطابا للنحاس باشا أطلب فيه تسهيل الحج
لى فى هذا العام .

- قابلت اليوم مصطفى القشاشى حسب وعدنا واطلعت على
ملخص الفيلم « الحب والواجب » أو « يقظة الضمير » التى انتحلها
ادمون تويما لنفسه فاقتنع خصوصا عند رؤية عبارة اللعب والطفل .
وفيما يلى ما قاله لى :

انه اتصل بعبد الحليم محمود أحد أعضاء الشركة فقال له
اننا أخذنا تعهدا على تويما بأنه مسئول فى حالة ظهور أنه سرق
هذا الفيلم من أى مؤلف وأنهم استدعوا تويما وسألوه فأكد لهم أن
الموضوعين مختلفان كل الاختلاف (أى موضوعى وموضوعه) .
وهنا قال القشاشى فمن أين له معرفة موضوعك ان لم يكن قد اطلع
عليه . فقالوا له ان الشركة لا تريد أن توجد بين لطفى جمعه وبينها
علاقة قانونية ، فرد عليهم القشاشى بأن لطفى اذا رفع عليكم قضية
فأنتم تدخلون فيها تويما وما يحكم به ضدكم للطفى يحكم به على
تويما لكم فقالوا اننا مستعدون للقاءه ونشرب القهوة معه فى بنك
مصر فى أى وقت شاء .

ثم قال لى القشاشى اننى استوضحت الأمر تماما وأرجو أن
ترسل الخطابين الى تويما ومطران واننى مستعد لنشر كل ما تريد
نشره فى المجلة وهذا واجب على لك . ورسم الخطة الآتية :

مقابلة عبد الله أباظة وارسال الخطابين ومقابلة مطران
شخصيا ونشر الخطابين ثم الفيلم ثم تحليل الفيلم وأخيرا رفع
القضية .

ثم قابلني مصطفى الصباحي وعنوانه كوكب الشرق شارع
الوابور سيدى زين العابدين نمرة ٥ وحكى له فجزم بأن مطران
مشترك مع تويما بالأدلة الآتية :

١ - أن خليل مطران اطلع على الرواية الأصلية التمثيلية وبقيت
عنده سنة وأكثر وقال لك انها مقبولة وأنت سترى ثمرات
مجهودك على المسرح .

٢ - أنه اطلع على السيناريو الذى أرسلته الى بنك مصر وعليه
ختم الشركة .

٣ - أنه بشرك بالنجاح عنه فى التليفون وفى المقابلة التى تمت
فى سبتمبر سنة ١٩٣٦ .

٤ - أنه قدم الفيلم الذى انتحله وادعاه تويما الى أم كلثوم وقال
لها انه « كويس وفوق الكويس » .

٥ - أنه سمح لرجال فرقته بالتمثيل فيه .

٦ - أن الفيلم نشر فى جميع الجرائد ولا يمكن أن مطران لم يطلع
عليه .

٧ - أن تويما يد مطران اليمنى فى الفرقة القومية .

أما الأدلة على تويمها فهي :

١ - ادعاؤه أنها ترجمه عن الفرنسي ولم يبرز الأصل وقد قال:
هذا القشاشي كما قاله لي بحضور نقولا حداد .

٢ - أنه بادر بإعطائي نسخة من البروجرام .

٣ - أنه طلب مني رواية للمسرح أمام طاهر حقي مع أنه كان يعلم
أن روايتي مضى لها سنة عند مطران أي في متناول يده وقد
قرأها .

أما سبب عدم تمثيل روايتي بواسطة مطران فهو خوف مطران
من ظهور موضوعي بعد الفيلم أو قبله ، فيقارن الناس وتظهر
الحقيقة ، فخلق مطران روايتي ولذا حمدت الله على أنني سمعته
ولم يحرقوها أو ينكروها .

وقال الصباحي ان مطران خانني شخصيا فلم يعطني مبلغ
١٢ جنيها أجر كتابة مقالات أسبوعية في كوكب الشرق والبلاغ
والأهرام مدحا في الروايات التي مثلت وهذا المبلغ من ضمن مبلغ
آخر لأجل الدعاية .

الخميس ٢٨ يناير

- فكرت في تأليف رسالة صغيرة موضوعها « الاشتراكية في
الاسلام » أو الاشتراكية الدينية التي تنطوي على التكافل والتعاون
والتراحم والعدل الاجتماعي .

— أرسلت خطابا الى حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا
اطلب فيه قبول هديتي الى مشروع الدفاع الوطني وهو خمسمائة
نسخة من كتابي فلاسفة الاسلام ثمنها مائة وخمسون جنيها ،
واقترحت عليه تسهيل سفرى الى الحج لأداء الفريضة .

— حفلة احياء ذكرى حافظ ابراهيم :

كانت لجنة رثاء حافظ ابراهيم بطرف جعفر ولى قد كتبت
الى لأشترك فى اللجنة . واليوم قصدت جمعية الشبان المسلمين
لحضور الحفلة فوجدت شبان الحقوق يحاولون التثقف وفيهم من
لا بأس بهم كالذى بحث فى شعر حافظ وميله للبؤس ، وكلمة فريد
وجدى لا بأس بها ، أما رئيس الجماعة حمادة الناحل فمشروع
خطيب ويمكنه أن يثير الجماهير الساذجة .

٣٠ يناير

— كتب صحفى انجليزى فى الديلى هيرالد عبارة كانت تتردد
فى نفسى منذ عشرات السنين وهى أن العالم مخدوع فى أن حكومة
سويسرا حكومة حرة ، وعدد الكاتب مظالم سياسية خفية كاضطهاد
الصحفيين وتلفيق القضايا للاشتراكيين (برتونى سنة ١٩٠٩)
ومضايقه أحرار الفكر ومؤازرة روسيا القيصرية (واسبليف)
وايطاليا (حرب الحبشة) .

فاتخاذ جمعية الأمم مقرا لها فى هذه المدينة الظلمة مسألة
فيها نظر . فهى التى أقامت محاكمة سرفيه (ميشيل) مكتشف
الدورة الدموية وتحكم كالفن فى حكمها دينيا ومدنيا وبوليسها أسوأ

بوليس وحكومتها أخبت حكومة والخلصة فان نفاقها يلائم نفاق
جمعية الأمم التي اختارتها مقرا .

— يفكر الشسوام فى احياء ذكرى أحمد فارس الشدياق .
لقد بدأ الشرق ينهض ويحيى ذكرى رجاله .

— ان سومرست ماحوم هو وحده الذى فهم المرأة باعتبار
انسانى وعالجها فى كل أحوالها وحكم عليها حتى جعلها وهى أم
تتواطأ على قتل ولدها المريض الميئوس منه لتخلصه من عذاب الحب
والآلم ، والمرأة فى نظره دائما خاضعة للحاجة الجنسية وهى التى
تحركها وهو يغض الطرف عن تأثير الطبيعة فى تكوينها وحاجاتها .

وأحب أن أكتب له خطابا وأتصل به وأن أكتب تمجيذا لأنه
الكاتب الوحيد الذى يوافقنى ، دع عنك توماس هاردى فهو الآخر
كذلك ولكنه غامض ومحتشم ومتردد .

أول فبراير سنة ١٩٣٧

— فى الساعة الرابعة بعد الظهر قابلت خليل مطران فجأة
بباب جريدة الأهرام فقلت له : أجر وعافية ، فقد سمعت بمرضك
وترددت بمنزلك لعبادتك .

فقال : أهلا وسهلا بالصديق الحبيب ، أنا شاكر لك فضلك
وان لم يخبرنى أحد بحضورك ، وقد قضيت أربعين يوما طريحا
فى الفراش وآسفاه على أن هذه الحوادث السيئة لا تقع الا مع
الأحباب وهكذا شاءت الأقدار . أحب أن أحضر اليك لأجلس معك
مجلسا لطيفا .

فقلت : بأى خصوص يا أستاذ ؟

قال : بخصوص خطابك الذى وصل الى ولم أرد عليه لعجزى بسبب المرض ، فانى الآن لا أستطيع أن أكتب شيئا ، والآن أقضى أسوأ الليالى فى حياتى ، فلا أنام بل أرق وضيق فى التنفس ولا أهضم شيئا من الطعام ، فاذا أكلت « لبن زبادى » أو خضارا مسلوقا أعود كالمرأة الحامل والليل طويل طويل يا أستاذ !

فقلت : لا بأس عليك .

قال : وأنا أخرج نادرا « للتشميس » وأجلس عند الطرابيشى الذى على قمة الشارع أمام النقابة الزراعية لأكون قريبا اذا طلبنى أحد .

فقلت : وإلى أين ذاهب الآن يا أستاذ .

قال : أنا ذاهب لمقابلة الموسيو اميل فابر فانه نازل فى فندق متروبوليتان ولم أتمكن من الذهاب لاستقباله كما أشاءوا أننى ذهبت الى اسكندرية بل عينت له بعض الموظفين فى الفرقة القومية ليعطوه المعلومات التى يطلبها وأنا أقابله فى الفندق من حين الى آخر وهذه هى المقابلة الثالثة ، فأنا تحت أمرك فى أى يوم تضرب لى تليفون فى النقابة الزراعية فأحضر اليك فى عربة مقفلة « ليهوزين » فنجلس مجلسا لطيفا نتحدث فيه ونصفى كل شىء .

وكان خليل مطران يتكلم بصوت واطى ولم يستطع أن يرفع وجهه أو عينيه فى وجهى ولم يجروا أن ينظر الى وجهها لوجهه en face ، وكان معنى الرأس ، معنى الظهر وأذناه متدليتان بحالة مؤلمة .

وقد علمت أن أقول له قولاً موجعاً وهو يصعد في تعب مصطنع
أو حتى في سلام فندق متروبوليتان ولكن أشفقته عليه ولم أشأ
لأن جميع شخصه وهسلكه كان يدل على أنه مذنب مريب ويكاد
يقول « خذوني » ، بل يطالب الرحمة ، فأمهلته إلى أن أخاطبه بعد
يومين لأدعوه لهذا المجلس الذي يصفه « بالطف » .

— خاطبني رجل يدعى الاشتغال بالسياسة الخارجية وفههما
فقال :

ان انجلترا تندهور وتنحل بالأدلة الآتية :

- ١ - قانون وستمنستر الذي فكك أوصال الامبراطورية .
- ٢ - استقلال ايرلندا .
- ٣ - ميل كندا الى الانضمام الى الولايات المتحدة الأمريكية .
- ٤ - انتصار ايطاليا في حربها مع الحبشة .
- ٥ - انهزام انجلترا أمام ايطاليا في البحر الأبيض .
- ٦ - دستور الهند .
- ٧ - معاهدة الجنتلمان بين ايطاليا وانجلترا عن البحر الأبيض .
- ٨ - معاهدة مصر وانجلترا سنة ١٩٣٦ ، وان كانت ضد مصر
الا أنها تقهر بريطاني .

٩ - رغبة ايرلندا فى ادخال (٠٠٠) (١) معها .

١٠ - عزل ملك الانجليز ادوار النامن وهو أقوى ملك بعد فيكتوريا .

١١ - انحطاط مستوى رجال السياسة وظهور أمثال بولدوين وهور وايدن وأمثالهم .

٤ فبراير

- عندما قابلنى مطران يوم أول فبراير سنة ١٩٣٧ كان يعلم أنه سيسافر الى اسكندرية مع الفرقة القومية ومع اميل فابر ولذا سيفيغيب جملة أيام ، فطلب منى أن أخاطبه فى التليفون ليزوغ ويمضى الوقت المناسب للعمل ، وأذن فقد تكلم معى ووعد بسوء نية ثابتة لا شك فيها .

١٢ فبراير

صلاة الجمعة مع الملك فاروق :

دعيت الى ذلك فى جامع مصر الجديدة الذى بنته الأوقاف ، فذهبت عند الساعة الحادية عشر والنصف وكان الجمهور مكتظا وراقنى رؤية الأطفال والبنات من المدارس المسيحية فى انتظاره بباب المسجد ، ودخلت فاذا المسجد ينقسم الى قسمين فى وسطهما ممر ، الأول للمدعوين وهى القريب من المحراب والثانى فيه عامة المصلين ، ووراء الأولين وأمام الآخرين صف من جنود الحرس الملكى وضباطهم وهؤلاء لم يصلوا طبعاً .

(١) كلمة تقراً « استر » ولعلها استراليا .

وفى الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق حضر الملك يتقدمه عدد عظيم جدا من ضباط الحرس ثم ظهر نحيفا أشقر أحمر أزرق العينين يتكلف الهدوء وكان مصننا للخطبة وكان منظر العلماء يدعو الى الدهشة وهم يتحشرون ويتزاحمون ، وفى أثناء خروجه ودخوله هجم عليه عنصر الأعيان لا سيما الشباب منهم ، مصفقين وهاتفين ، وعند خروجه ارتمى على قدميه رجل بائس فقبض عليه وفتشوه وسلموه للأمور القسم ، ثم خلع الملك على الخطيب والامام شالات كشمير قيل لى انهم يبيعونها فى خان الخليلى بثمن بخس .

١٤ فبراير

— تكلم معى مصطفى الشوربجى فقال ان اختباره دله على أن النساء ثلاث :

١ — لك وهى البكر لأنها تنطبع بطابعك .

٢ — عليك وهى التى رزقت من زوجها الأول فتأخذ ما لك ولولتها .

٣ — لا لك ولا عليك وهى الشيب التى لم ترزق ولدا . والثانية والثالثة لا تنطبعان بطابع الزوج الجديد .

أما الغنية والمتعلمة والفقيرة ، فتقول الغنية انتظر حتى أجلس أنا أولا وتقول المتعلمة اسمع لما أقول أنا أولا . أما الفقيرة فتقول حاضر يا سيدى وهى الفضلى بينهن !!

— روى لى أصدقاء الشيخ سيد عبد السلام الذين عرفوه قبل حاله أنه كان مقرئا ذا مقام وصوت جميل جدا وكان شديد الأناقة

واللهندام الحسن وبدأ حاله بهذيانه ثم باع ثيابه في سوق المؤيد بأربعين قرشا وهى تساوى أربعين جنيها ثم جذب فأدخله أبوه الشيخ عبد السلام مستشفى الأمراض العقلية ثم أخرجه فصار يقلد مشاهير القراء ولا سيما الشيخ ندا وسكر ، وكان يتطور ويهيج أثناء حياة أخيه ووالده ثم هدأ وثبت وصار على أحسن حال ، أما كراماته فهى المكاشفة وخدمة أحبابه برفع « الحملات » عنهم وشفاء مرضاهم بأمر الله سبحانه وتعالى ، ويحرص الشيخ على أن يظهر « كرامات » للمنكرين أو المتشككين ، وهو دقيق فى كلامه وحسابه وعفيف اللسان واليد وخفيف الروح جدا وتنفذ إرادته دائما بالحسنى أو بالشدة .

— جلست جلسة خاصة مع حامد العلايل بمناسبة قضيه ضد اللوزى وقال لى حامد أنت (١) « Sublime » ومخاص ، وسباني عندي أن أكسب القضية أو أخسرها ، فما دمت كسبت الثقة وأنت رجل الحق والصدق والشرف والوفاء والتضحية وقد لمست فيك هذه الخصال منذ كنت تخدم القضية الوطنية مع المرحوم محمد فريد فى مؤتمرات الحزب الوطنى فى جنيف وباريس وبروكسل ، وقال لى أن زوجته قالت له فى غيبتي أنت مقصر فى حق لطفى بك وسوف ترى إخلاصه وشرفه . وقال أن ابنته « دودو » أصيبت بقطع جسيم فى قدمها وأن « بولا » بلغت أشدها وتطلب الزواج ولا تجده وأن خدمه يصرخون من علاقته الجديدة بصاحبه عبد العزيز اسماعيل الذى صارت له امتيازات .

وقالت الزوجة أمام حامد : كلما أرى غلظة زوجى أسأل نفسى
كما كان يفعل أبى شوقى ابن تعليم اكسفورد ؟

(١) يعنى سام أو رفيع أو مهيب .

وقالت بولا العلايلي (تصغير اقبال) وهى ذاهبة الى الجمكانة (سيق الخيل) سأذهب بنيايى العادية ، فكل الناس عندى سواء الى أن أجد خطيبا . وقال العلايلي عندما رأى صورة نظام حيدر آباده فى الجريدة « الرجل ماشى زى التجن بقوة المال فان ايراده أكثر من مليون جنيه فى السنة ، صحيح أن البلاشفة معذرون ، رجل ايراده هكذا ، وألوف بل ملايين لا يجدون القوت الضروري » .

١٥ فبراير ٥٠

قابلت بدار المقتطف فؤاد صروف فقال لى ان العالم الآن فى حالة جنون وأن داء المدنية لا شفاء له ، وكان نجيب هاشم حاضرا فحدث على البلاشفة بمناسبة مقالة « حنا خياز » فى المقتطف ، فحياء فؤاد قائلا « تحية يا أعظم الرأسماليين ! » . وحضر على محمود داء المهندسين الشعاع وأظهر أنه يفهم مسألة الجنس ويعالجها فى شعره وأنه تأثر ببيرويلين وفيرلين وتل شعراء Decadence ثم ذكر مقالا نشر فى جريدة العروبة وصف فيه كاتبه ليلة غرامية فى باريس بكل صراحة فى الألفاظ أو المعانى حتى علاقة الفراش ! .

وحضر يعقوب فام وهو مجرد أمرد كهل كأنه طواشى قديم من عهد الفراعنة وهو يكتب فى التربية ولا سيما المسائل الفرويدية لأنه لم يتزوج ، وأسمعنا على محمود طه من شعره المنشور .

الجمعة ١٩ فبراير

بعد صلاة الجمعة فى مسجد بعلاوية باب الخلق مع حسين فهمى - قابلت حامد العلايلي الساعة الواحدة فى قهوة بار اللواء وصحبته الى داره وتغدينا معا . ثم سافرنا بالسيارة الساعة الثانية

الى عزبته في برمبال الجديد ، ووصلنا داره الساعة السابعة والنصف مساء ورأيت وجوه الفلاحين الذين أحبهم لولا مسخهم بالتسليق لملأهم . وأفرد لي العلايلي غرفة بالدور العلوى ، وكان الوجد في ضرسي شديدا ولكنى قاومت وتحملتته وعكفت على الصيام وقراءة كتاب مارى انتوانيت تأليف ستييفان زفيج ، وفى الصباح لقيت مضيفى على مائدة الفطور ، ثم خرجت لوضع خطاب فى البريد فمررت بالبحر الصغير وعبرت على سفينة محظمة وسلم أعوج من الحجر الزلج ، وقابلنى رحل من البر الثانى « كفر علام » فجبهنى بأن حامد بك متقلب فى السياسة وأن البلد كلها وفدية وأن الانتماء للوفد عقيدة ، فأكدت له تتدبرى للوفد .

وفى الليل يقضى حامد بك السهرة فى ملاعبة بعض القرويين بالقمار (كنشينة البصرة) ويربح منهم قروشاً و « شلنات » وهم فقراء ويقضى نهاره فى تشذيب بعض الأشجار .

ورئيس الدار الشيخ عبد المجيد ، والشيخ محمد أبو عبده خولى أو ناظر عزبة الوقف الخيرى البالغ مساحتها ٧٠٠ فدان والشربيني هو الطباخ والسفرجى والكرارجى والساقى تعاونه بركة أخت زوجته .

وفى صباح يوم العيد ٢١ فبراير كان قلبى متحرقا على أننى لم أتمكن من الحج فى هذا العام وعلى بعدى عن أولادى .

ثم ذهبنا لتعزية السعيد رمضان القاضى بمصر لوفاة والدته فلم نجده فقابلنا أخاه . ثم زرنا الشيخ محمد أبو حقنى عمدة كفر علام والتف حولنا عشرات من الأشخاص وتحدثنا فى كل شئ .

وفى صباح يوم ٢٢ فبراير ذهبت مع محمد حفى والشبى
شبانة - وهو محام شرعى شقيق محمود مبارك - الى ميت النصارى
لزيارة الشيخ سيد أبو حلاوة أحد الأولياء فوجدناه فى المنصورة
وأضافنا الشيخ حافظ أبو سرايا وانصرفنا عند الغروب بعد أن رأينا
الشيخ محمد صالح عمدة ميت الولى وهو نوع غريب من الفلاحين
يتكلم الفرنسوى من القرن الماضى وله نواذر لطيفة ، وسألنى
أبو سرايا عن « أطيانى » فابتسمت ، والرجل لا يتخيل أن مثلى
لا تكون له جملة عزب وأبعاد !!

وألف نكتة أن عمدة ميت الخولى ألح على دعوتنا الى بيته
لشرب القهوة بصفة جدية ، فلما علم بوصول العربية التى تعيدنا
الى منزلنا قال بالفرنسية لى ! ٠٠٠٠ Dieu est grand,
sait pas d'argent يعنى لقد علم الله بعجزه عن تقديم القهوة
فبعث بالركبة لتنقلنا وتنقذه ، وكان مضحكا للغاية !

وفى الساعة السابعة ألحوا فى زيارة الحاج لطفى وأخيه الحاج
زكى (؟ !) عمدة ميت عاصم ولهما قصر على النسق الايطالى ،
فوصلنا الى الدار الساعة التاسعة مساء واجتمعت بالفلاحين ودارت
أحاديث مختلفة ، وكان أكثرهم اهتماما بحديثى هم الذين لهم مصالح
يرجوننى فيها .

لقد سأمت الاقامة بالريف وفقدت شهيتى وتولانى الأرق ،
فخرجت يوم ٢٣ فبراير للغيط راكبا فرسا ومعى بعض الخدم
للمرور بالأطيان التى يملكها العلابى وهى ٣٠٠ فدان غير أطيان
الوقف ومقدارها ٧٠٠ فدان ثم عدت غروبا وحضر أهل كفر علام
لتوديعى وتحديثنا طويلا .

وفى الليل لعب حامد بك البصرة مع عبده أبو وفا شريكه
فى المقامرة وكان أبو وفا يستعين على حامد باستحضار الأولياء والجن
ويقول : يا أبو سريع ! يا قروع ! يا خلعتس (كذا) .

وفى يوم ٢٤ فبراير شددت رحلى وقصدت الى ميت النصارى
للشيخ سيد أبو حلاوة فودعنى عشرات الأشخاص على المحطة وكان
الزحام شديدا بمناسبة مولد السادات بذكرنس .

وصلت الى البلدة ومشيت الى دار أبو سرايا فصحبنى الى
دار الشيخ فنفر منا فى أول أمره ثم قبلنا ودعألى وانصرفنا الساعة
الواحدة وركبت القطار الى المطرية ولم نجد « لنشا » فركبنا سفينة
شراعية الى بورسعيد وكانت الليلة قمرية جميلة للغاية وقد أزعجنا
أثناء الرحلة الشيخ صالح الخريبي وهو قصاص دينى وراوية أمى
من أغرب الأنواع وقد تكلم أكثر من أربع ساعات بدون انقطاع !

وصلت بورسعيد الساعة الثامنة مساء ولاحظت أن البلد قائم
قاعد للزينة لاستقبال الملك فاروق .

وفى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٧ صليت الجمعة فى المسجد
التوفيقي وكانت البلدة فى حالة زينة عجيبة لأن الملك يحضر غدا
ليبحر الى أوروبا حيث يقضى فيها خمسة أشهر .

وفى المساء توجهت الى المحطة ولم آكل طول اقامتى فى
بورسعيد سوى مرة واحدة خبزا وجبنا وفاكهة . ووصلت القاهرة
نصف ليلة الجمعة .

٢٧ فبراير

مما يدل على روح هذا العصر التنعيس مونولوج المدعو يوسف حسنى فى الاذاعة واسمها « الدنيا هى هى » وهو مونولوج يدل على الضجر السائد والملل من الحياة والوقاحة Cynisme ، كقوله : « الدنيا هى هى والشغلة هى هى والماهية هى هى والبوسة هى هى والنومة هى هى !! » . وهذا المخلوق يشبه صورة هزلية مشوهة من ماجول Magol (١) ، ولكن أخص ما أخذ عنه خنائه ، أما الفن فدون الوسط .

٢٨ فبراير

— الشيخ « قلق » منجم غريب الشكل يجلس أمام مسجد ببيرس الذى يخلو فيه الشيخ البغدادي ويقيم فى حانوت عطار ليس فيه الا أحقاق قديمة فارغة ويتناول نقودا أقلها خمسة قروش ولا حد للأكثر ، ويكتب فى ورقة من أسفل الى أعلا رموزا وأرقاما ثم يتكلم . ويقول الكثيرون انه يصدق فى ذكر أسماء الغائبين وتحذير المستفتى أو تطمينه . وقد حذر حامد العلايلي من جملة ناس كما طمأنه عن ناس كثيرين ، ويدعى العلايلي أن الرجل ذكر أصدقاء بذكر أسماء وحوادث .

والرجل فى الخامسة والستين من عمره أسمر الوجه ضخم البدن غليظ التقاطيع عامى التعليم ميال الى طريقة الكهان فى السجع السقيم ويخلط كثيرا ويكثر من كلمات مبهمه مثل « مانوفه » أى جيدة ، وقد رأيتَه يسجل على العلايلي فعلا فى حادثة شقاق بنته مع ابن صدقى ثم طلاقها ، فأعطاه بيضة وأوراقا تحرق ٠٠٠ الخ ودفع

(١) أدلر ما كتبته لطفى - مجموعة عن مايول « فى كآبه » فى الأدب والفن ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

العلاليل ثمنها جنيها مصريا • وعندى أن العلاليل كالنساء فى معتقداته •

— ان محمد على طاهر كان خادما للانجليز فى أيام الحرب العظمى الأولى وكان بوابا على باب جريدة الكوكب التى رأس تحريرها الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهى جريدة ضد الترك فى أنحاء العالم • وقد سمعت محمد على طاهر يتكلم فى السياسة الدولية ويطعن فى الترك بمناسبة لواء الاسكندرونة (يناير سنة ١٩٣٧) فى جمع من الشوام السذج ، وغايته جمع نقود باسم عمل حركة للجنة الدفاع عن الشوام والفلسطينيين ولبنان ••• الخ ، فعجبت لأن هؤلاء قوم ضرب الفرنسيون بلادهم وهتكوا أعراض بناتهم ومع ذلك انتهوا بمؤازرتهم على تركيا وساعدوا على خراب الدولة العثمانية فتأمل !!

— كتبت مقالة عن كثرة الملاحى التى يعلن عنها فى الجرائد وعدم وجود اجتماعات علمية •

— كتبت خطابا بقصد السعى لمقابلة ماسينيون المستشرق الفرنسى المهتم بأخبار العلاج واطلاعه على التصوف المصرى الحديث • كما كتبت خطابا الى كليلاند لتنظيم نوع جديد من المحاضرات يقصد بها الى الثقافة العليا واعطاء جداول بعناوين كتب تجب قراءتها بهدف تثقيف وتنوير الشباب •

— أرسلت خطابا الى حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا أطلب فيه قبول هديتى لمشروع الدفاع الوطنى وهو خمسمائة نسخة من كتابى تاريخ فلاسفة الاسلام ثمنها مائة وخمسون جنيها •

— تحرير مقالة عن نشر الجرائم فى الصحف والتشجيع فيها على الطريقة الجديدة وأنها تكون الرأى العام تكويننا سيئا كالقسوة على المتهمين الذين قد يكونون أبرياء •

ان وظيفة الصحافة هي الحث على أعمال تؤدي حقيقة الى محاربة الجريمة والرديلة مثل الدعوة لعقد مؤتمر من المتعلمين والعقلاء ورجال الاصلاح الاجتماعى ، وأن أوروبا وأمريكا فيها جرائم أشنع مما نرى فى مصر وفيها زعماء دوليون للجرائم .

— أقرأ فى هذه الأيام كتابا عن النبى صلى الله عليه وسلم للسير أرنولد جاء فيه أن « جريمة » و « كائتاني » قالوا أن محمدا بعث للعرب فقط وأن القرآن خال من أى إشارة الى أنه نبى للعالم (١٩) . وهذه الفكرة التى أذاعها المستشرقون هي فكرة تعصبية ودينية من جهتهم ، لأنهم سلموا بنبوته وصدقته وبعثه للعرب فقط ، فلو قالوا للعالمين لأرغموا على الاسلام . ولكن هذه الفكرة من السهل أن يرد عليها بشيء واحد وهو أن القرآن قال انه جاء أيضا للجن وهم عالم خفى فمن باب أولى أن يكون لجميع البشر ، وفيه نصوص للذين يعلمون ويتدبرون ويعقلون ويتفكرون ، وبالطبع ليس العقل والتدبر والذكاء مقصورا على العرب فقط ، فالدعوة بالدخول فى الاسلام لكل أهل الكتاب ، لأن فكرة المستشرقين الخبيثة ترمى الى ما يأتى : أن محمدا سلم بالتوراة والانجيل واحترم أصحابهما نصح العرب لأنهم مشركون وثنيون . ولكن فات المستشرقين أن العرب كان فيهم نصارى ويهود أى أصحاب كتاب . وإذا كان محمد جاء للعرب فقط فلماذا حارب فى حياته الروم وتحدى الفرس ثم حاربهم المسلمون .

ويقول المستشرقون ان مسألة الوفود الذين ذهبوا للملوك فى حياة النبى موضوعة بعد وفاته . وأنا أسلم بأن على خطب هؤلاء الوفود صبغة الانتحال وهذا للأسف ناشئ من أن المؤرخين والأدباء فى الاسلام لا يتحرون ما قيل ولكنهم يفرغون المعانى فى قوالهم فتشابه ثم يسوقون أسماء بدون تحقيق ، ولكن هجرة المسلمين الى الحبشة

ناب من روايتها شعرة السجاشي للاستاذ بطريفة خير مباشرة عندما تليق
عليه سورة مريم • ولا شك في ارسال بعثة لمصر عقبها اهداء مارية
الى النبي وطبيب وبغلة أنجبت مارية ابراهيم • وتودد المصريين
للعظماء بالهدايا معروف من قديم الزمان •

— كذلك أقرأ هذه الأيام كتاب تاريخ لينين تأليف أورسندوفسكى
Orsendowski الذى استعرتة من دار الكتب فى سنة ١٩٣٧
وهو كتاب فظيح لا أدري ان كان له أم عليه ، ولكن أدري أن الصورة
عن لينين التى تركها المؤلف فى ذهنى تدل على أن هذا الرجل كان
شيطانا فى جسم انسان ، فإن مناظر الدماء والنقتل وتبش الشهور
وانتهاك المحارم التى رآها وسكت عليها ووصفها بأنها « غيظ النساء »
فى أول أيام غضبه « شىء لا يقبله قلب انسان عادى • طبعاً قد
يلتمسون له أعذاراً ولكنه شىء يتقرز منه الذوق والعقل ، ولم أشعر
بألم من قراءة كتاب الا مرتين ، الأولى تيريز راكان لاميل زولا وهذا
الكتاب عن لينين • انه وصف حقيقى ولذا فهو مر وفظيح •
وأهم ما قرأته فى ترجمة هذا الشيطان الذى وصفه أنصاره بأنه (١)
le plus humain parmi les humains

أنه كان صبوراً جداً وقادراً على ضبط نفسه وكبح جماح عواطفه حتى
فى أقسى الأوقات التى يصيبه فيها أشد الألم والبلاء وهذه موهبة
مدهشة ولكنها صادرة عن شيطان ولا يقدر عليها ملك •

— قابلت سليم قبعين وهو شخصية غريبة وأصله معلم قديم
فى المدرسة العبيدية وصاحب مجلة الاخاء ومطبعة وأديب يترجم عن
الروسية وهو فى الستين من عمره • هذا الرجل قابلنى وقال انه
لا يقرأ الا مطبوعات الروس البيض الواردة من باريس وبرلين ، وهو
يعتقد أن لينين مختل الشعور ولكنه نجح فى قلب نظام الحياة والحكم

(١) من معانى كلمة Parmi بين الناس أشراف •

فى روسيا ، وقرأ عنه فى كتاب أنه كان داهية فى الذكاء ولا يعيب عليه الا الحاده ولو لم يكن ملحدًا لكان من خيرة الناس (١٩) •
ولا يعتقد قبعين أن القيصرية تعود الى روسيا ولكنه يعتقد أن العهد البلشفي سوف يزول لأن الأغلبية ساخطة من مظالم سنالين (كذا)
وأن مظالمه تفوق مظالم القيصر ، لأن القيصر على الأقل لم يقتل أصحابه بل حارب أعداءه •

— ان أعمال موظفى الحكومة الآن عبارة عن توزيع اختصاصات وهروب من المسئوليات وانشغال بال يعملات ودرجات وكادر •
والموظفون هم وحدهم الطبقة الميسورة التى لا تحمل هما للرزق ولا خوف المستقبل ، فصار منهم ملاك والارستقراطية والرأسماليون بعد أن كانوا طبقة بائسة فى الصف الأخير من الأمة يقومون بالخدمة العامة مقابل جعل مقبول معقول ، فصاروا الآن سادتها •

٤ مارس سنة ١٩٣٧

زرت الشيخ البغدادى وكان هاشا باشا يقلب الشاى عندما دخلت عليه ، فتكلم عن مظالم الحكام وظلمهم وجبروتهم وبخلهم وضرب مثلا بالسلطان عبد الحميد والخديو عباس حلمى وقال لقد خرجا من ملكهم أذلاء صاغرين وحتى لم يصلوا الى حقوق الأفراد العاديين ، وقال ان عبد الحميد أراد أن يكون كالاله • ثم انتقل الى الكلام على الترك فوصفهم بكل ذميم فى الحكم والظلم وقلة الايمان الا نادرا • ثم تكلم عن الدنيا وعدم أهميتها عند الله وعند العارفين ، فقال ان ابراهيم ابن آدم ترك الملك وخرج الى الجبل والوحدة والعمل وحضرت له أمه فأراها كرامة وهى طاعة الجوان فى البر والبحر له ، وهذه لطيفة سليمانىة • ثم تكلم عن الولاية فقال الموهبة فى النبوة والولاية كسبية بدم القلب وتعذيب الجسم واذلال اللحم

والعصب والباب مفتوح للجميع • وقال ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب
أولها عمارة وآخرها خراب •

ولم أسمع منه عبارة تدل على فهمه حقيقة حالى فقد كان كلامه
لى كما لو كنت من أرباب الأموال أو المتمسكين بالدنيا ولكنه بشرنى
بشرى حسنة وقال لى إيمانك حسن ان شاء الله • ثم تكلم عن حافظ
الشيرازى وأنه كان يلبس اللباد فزار وزيراً تركيا بحضور الوزراء
فى يوم التشريفه فجلس بجوار صاحبه بحالته فسأله الوزراء عنه
فقال هو حافظ الشيرازى ، فقال حافظ ان الجواد الأصيل ظهره
مجروح تحت البردعة والحمير (يقصد الوزراء) أعناقها موضوعة فى
أطواق الذهب (يقصد قلادات الزينة) فطأطأوا رؤسهم وتدلت
آذانهم وبدوا فعلاً كالحمير ! ، ولما عرفوا اسمه تهافتوا عليه لتحيته •

وعندما صب لى الشيخ البغدادى الشاى قال لى اشرب يا أخى
واطرب • ثم سألتنى عن محل سكنى وحييته وصليت العصر
وانصرفت •

٦ مارس

— حفلة تأبين حافظ ابراهيم :

حضرت الحفلة بنفسى فى الأوبرا فى الساعة السادسة فاذا
المسرح حافل بحرافيش لا عددهم ووراءهم ستار والجمهور
عراميش • وكان الذى يقدم الخطباء أحمد ربيع المصرى وقد خطب
على زكى العربى باشا وزير المعارف وابراهيم دسوقى أباطة ، ولم
يبد على الخطيب أنها كانت موضع بحث أو دراسة أو تمحيص ولكن
لأجل الشهرة والحصول على الصيت واعادة أبيات المرحوم حافظ ،

ومن أغرب ما فيها انه اشتغل بالمحامة فى طنطا فى أول أمرها وأمره قبل سنة ١٨٩٠ ثم ترك المحامة واشتغل بالحربية وسافر الى السودان • وكانت القصائد والخطب رثة لاسيما قارىء ناب عن شاعر السودان فكان يلحن و « يتقصع » ويلعب حواجه فأسكتوه • وكانت قصيدة أحمد الزين قوية ضد الأخلاق الحاضرة وهى بائية ومنها « فنفسك لم تخلق لسخر الألاعب » ومنها أيضا « اذا كان بالتهريج نيل المراتب » ومنها « اذا الشعب بالاهمال أرسب عاليا ، فلا بدع أن يعلو به كل راسب » وكانت لها صبغة سياسية ولكنه هاجم الشعر الحديث ، أما شعر الكاشف فكان سخيلا وكذلك شعر أمين الغريب الشاعر السوري فهو مهوش وكان كلامه غير مفهوم ولعله مترجم من كتب أمريكية لم يفهمها وترجمها ترجمة حرفية •

وفى النهاية قامت مظاهرة لمحمد محمود باشا وخطب فيهم فقال انه مريض ولولا اجلاله لحافظ ما غادر سريره ، وهو شديد الاعجاب بخطبة أخيه التى قال فيها ان حافظ ابراهيم لم يكن ينمى بؤس نفسه بل كان ينمى بؤس وطنه وضحك كثيرا عندما قال كرد على أعطيت حافظا طبقا من « كل واشكر » • وهو صنف من الحلوى وقلت له « كل واشكر » فقال الباشا « هذه نكتة شامية » !

بالجملة فان الحفلة كانت تسودها الفوضى وخير شعرائها من

شرق الأردن •

٧ مارس

حضور ادوار لامبير الى مصر :

— وصل الاستاذ لامبير يوم الأربعاء الماضى وفاجلته فى فندق شبرد الساعة الخامسة فى دعوة الدكتور السنهورى وعانقته وحيت

زوجته التي ألحت عليها الشيخوخة على سابق جمالها ، أما الرجل فلا يزال بنشاطه وشبابه وزاد مرونة ونقاء فكر ووضوح وهي سيما العلماء وشيئتهم ، وكان الاحتفال جميلا جدا ولم يحضر من الأقدمين الا عزيز ميرهم صادق فهمي وعبد السلام ذهني ، وقال له صادق فهمي « احتراماني Mes respects » . وكانت الغالبية أجانب وبعض المصريين المشهورين كوزراء المعارف والمواصلات وكانوا (١) Very awkward ، وحضر لطفى السيد وعلى ابراهيم باشا وقد اعتذر له لامير ليكمل حديثا ضافيا يعطيه لجريسة الجهاد عن الماضي والحاضر قيل انه ينشر غدا ٨ مارس سنة ١٩٣٧ وأخذت له جملة صور .

وعلمت أنه مقيم في كونتيننتال لمدة شهر ونصف يلقي خلالها -حوالي ١٠ محاضرة في القانون المقارن ، رغبته من حضوره إنشاء مكتبة أو قسم في كلية الحقوق لتدريس هذا الفرع من العلم الحديث الذي خدمه في أيون أثناء الحرب وبمساعده ، وقال انه مسرور ومندم وشاكر للمصريين على حقواتهم به .

حياة بأكملها عادت الى ذاكرتي عندما رأيته ! ، وقد قال لي :
لقد عجزنا كلانا ولكن أنا أكثر . وهو هو بحالته لم يتغير مثل كل
العظماء والجلال يحوط زوجته الكريمة .

وقد رأيت بعض الشباب الجديد وهم جامدون ومتقنون
التيافة ، ورأيت بعض بنات طالبات الحقوق وعجبت لغياب رجال
أمثال مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي واسماعيل كادان .
خدمهم لامير خدمات جزيلة .

(١) من معاني كلمة awkward : مزعج ، مقلق ، مشوش .

— دهشت لحالة النفاق التي تجلت في شخصية أنطون جميل رئيس تحرير جريدة الأهرام من غرور وادعاء ، فهو يتكلم بتهزيء ومراوغة وقد حق له ذلك فهو غنى ولا أهل له ورئيس تحرير جريدة كبرى وعضو مجلس الشيوخ ، وبعض هذا لا كله لا يحصل الا فى البلاد المتعسة التي تظلم بنبيها وتحقرهم وتعظم الأجانب وتقدهم وتعليهم على ظهورها وان هذا من أغرب الأمور .

واننى اذا قارنت بين هذا الرجل الذى أطغته النعمة بالمأسوف عليه داوود بركات أو خليل ثابت فانهما أفضل منه بمراحل أو على الأقل أقدر على المحافظة على المظاهر ، ولعله من عينة فارس نمر كما وصفه ابن أخته مكاريوس فيما سبق ، وهو خليط من دجال ومن آمن مطمئن يتقاضى أموال الحكومة والصحافة ولا ينفق حتى على شهواته وقد أتنه الدنيا بكل محاسنها .

— قال الشيخ سيد عبد السلام فى دار عبده الشناوى ان الله خلق أولا أهل الطاعة والاستقامة ثم خلق النبى من نوره ثم خلق بقية الخلق وأنزل العلم وليس العلم هو الرسوم أو علوم اللغة أو أحكام الشريعة ، بل العلم هو الذى يوهب للعالم المتحقق (يريد الولى) . وقال ان العالم عندما يكبر يزيد عقله ويتسع والجاهل عندما يكبر يخرف ويضيق عقله لأن العلم يغذى العالم . وقال دعاء هو « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » مع الصمدية وقال انه يغذى القلب ويريح وينفع .

— قابلت فيليكس فارس (١) فى حفلة حافظ ابراهيم وكنت أحب أن أراه من سنة ١٩٢٧ قال لى أنا شاعر فى أوقات والشعر لا يليق لكل الظروف وأنا أترجم لنيثشه « هكذا تكلم زاراتوسترا »

(١) عن علاقة لطفى جمعة بنيلكس فارس ، انظر كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٣٣ - ٤٤٠ .

ولموسيه « اعتراف فتى العصر » • أنا نائر قديم وكنت أعمل مع الفرنسيين في سوريا الى أن وصلت الى درجة لم أتمكن أن أتعاون معهم فقالوا أنت لا تنفعنا ، وقال أنا لا أطيق أن ألتطخ يدى بدماء أهل وطنى ، وقد هاجرت الى مصر لا طالبا رزقا ولكن لأفر بنفسى من جو ظالم وأنا الآن أعمل مترجما فى المجلس البلدى باسكندرية وقد ألفت كتابا فى تاريخ وطنى وأهمية العروبة فلم يقدره الذين كتبته لأجلهم ، وأنا الآن عمى ٥٢ سنة ثم قال ان عيوب نيتشه ترجع الى أن أباه كان مصابا بالزهرى ، وفى كتابه ارتفاع واسفاف •
وفيلكس رجل شرقى جميل الصورة حلو الحديث شديد الالفة •

٩ مارس

— حضرت جلسة محكمة الجنايات بمناسبة قضية أحمد حسين فقابلت فيها بعض الوجوه المألوفة والأغلبية من الحاضرين من حزب مصر الفتاة وكان جو التهريج والحدة سائدا •

ومن العجب تغير رأى ضد الوفد على هذه الصورة مع أنه هو الحزب الأكبر وحزب الأغلبية فى هذا البلد • وكان الزحام شديدا وقال أحدهم ان أحمد حسين يمتاز بفضيلة واحدة هى « الغرور » ، والحقيقة أن هذا الشخص الأجنبى لا يعجبنى فيه شئ وأجده من أكثر الناس غرورا •

وقد حكم بمصادرة عدد واحد من جريدة الضياء وتخلي عنه عبد الحميد حمدى كعادته وكان قد قبض من المصاريف السرية •

— وصف الحاج براون فى كتابه « بونابرت فى مصر » الثورة الأولى التى قام بها أهل القاهرة على نابليون فقال انهم ظلوا أيقاظا وراء متاريسهم لا ينامون فى ليل أو نهار ولا يلتمسون الراحة

ولا يتناوبون المراقبة والحراسة ، فقفصوا أربعاً وعشرين ساعة رابضين مرابطين راصدين وراء المتاريس مفتوحى العيون لا يغفون لأن حداثة عهدهم بالثورة المسلحة على جيش منظم أوهمتهم أن النوم والأكل من المطالب التى لا سبيل إليها فى حرب أو ثورة ، وقد حفظوا فى هذه الثورة الأولى درسهم فلم يركبهم مثل هذا الموعم فى ثورتهم الثانية على جيش نابليون •

وهذه حادثة سيكولوجية مصرية عجيبة •

٩ مارس

قابلت محمد محمود باشا وهو رجل مهذب لطيف ~~الخصم~~ أنيس العشرة ولكنه مريض جداً يتنفس بصعوبة ويتكلم بصعوبة وتشوبه صفرة فاقعة وفى بياض عينيه أثر لليرقان وهو غليل جداً ولعله مصاب فى كبده وفى رئتيه رلاً يمكن تقدير سنه لصغر وجهه وحلاوة طبعه وترقرق عينيه بماء التشبث بالحياة وشعره أسود فاحم وهو دقيق الفهم •

ويضرب الباشا الأمثال بحامد العلالي فى قلب الآراء • وفى الحقيقة فإن العلالي أشد الناس سداجة ، فقد جاءنى ذات يوم يمدح حزب مصر الفتاة الجديد ويشنى على المدعو أحمد حسين ويعجب به ويدعى أنه مؤمن بمبادئه وأن له مستقبلًا طاهرًا ، وهذا اللون من التقلب قد تعودته منه ، فهو صديق لكل أعداء الوفد ، وهذا اللون من الرجال كلون حميه المرحوم أحمد شوقي ، فقد وافق شئ طبعه • والعلالي يزور أحمد حسين ويتكلم اليه ويدعى أن العظماء يزورونه وأنه يحب تعضيده فلم أجابه على كلامه لأننى أعلم مقدار ذبذبه وتعامله على الوفد فى غير قصد مع أنه كان قد تشيع للوفد

حيناً في أيام الائتلاف سنة ١٩٣٣ أيام وزارة صدقي وقبل انسحاقه على محمد محمود باشا . فيا لخيبة آمال هذه البلاد بهذا الرجل وأمثاله !

١٠ مارس

قبلت محمد علي عزيمة باشا في محكمة الأزركية مع القاضي أبو بكر فابتدعني علوبة بقوله هل ألفت لنا كتاباً جديداً بعد « حياة الشرق » ؟ الحقيقة أننى كلما أراك أشعر بأنك ضحية وأنك مظلوم وأنا أشعر بأن الظلم واقع على شخصي وأخجل عند رؤيتك من مواجهتك لأننى أشعر أحياناً كأننى ظالمك . فقال له القاضي باسم : لماذا يا باشا ؟ قال : يسود العدل عندما يدعى الأستاذ لطفى الى المكان الذى يليق به من مناصب الدولة بدون سعي بل لمجرد الاعتراف بكفائته ، ويكون الظلم كلما طالب الاعضاء عنه وعدم الانتفاع به .

وهذا الكلام المعسول لم يخذعنى ولم يحزننى لأننى فى غاية الفناعة والسرور .

الجمعة ١٢ مارس

شهدت فيلم « ليلي بنت الصحراء » تمثيل السيدة بهيجة حافظ فلم أجدها فنانة فى شيء سوى اشرافها على العمل .

وقد تأثرت من غناء حياة محمد لقطعة من الشعر التديم وأعادها ابراهيم حمودة منها :

ليت للبراق عيناً فترى ما ألقى من غناء وبلى

ومنها أيضا :

قيدونى غللوئى ضربوا ملمس العفة منى بالعصا

وقد بكيت طويلا عند سماع هذه القصيدة القديمة من ديوان
« ليلي العفيفة » ، ولعل شعورى بآلام دفينه وظروفا أخرى اقتضى
هذا البكاء .

من ١٢ - ٢٠ مارس سنة ١٩٣٧

عن جبران خليل جبران :

قرأت فى أسبوع واحد كتاب فيلكس فارس « على المنبر »
وكتاب ميخائيل نعيمة عن « جبران خليل جبران » ففهمت أن فارس
تصدى للدفاع عن ذكرى جبران دفاعا مصطنعا وإن كان حارا
ومجتهدا فيه تحت لواء « اذكروا حسنات موتاكم » وأن الوفاء كان
يقتضى كذا وكذا ولا يصح كذا وكذا . ولكن نعيمة أراد أن يعطى
صورة صادقة مختصرة لجبران صاحب العقلية والروحانية وقد نجح
الى حد كبير .

وبالطبع هو فى كتابه لا يجارى لطول عشرته لجبران ولقوة
فكره أكثر من فارس ، وفارس صديق لجبران قصير المدة ولم يفهم
روح جبران ولا أخلاقه كما فهمها نعيمة الذى عرفه وعجمه حتى
فهمه وأدركه .

ويلخص رأى فى أن جبران لم يكن نبيا ولا وليا ولا حتى
نصف درويش كما زعم عباس العقاد ، بل كل أدبه وعلمه وتصوفه
نوعا من « الزعبرة » الأرثوذكسية مرتكنة الى المصادر الآتية :

١ - الانجيل والتوراة وما يتبعهما •

٢ - الشاعر المصور ويليام بليك William Blake
الذى قلده جبران مع تقصير كثير •

٣ - نيتشه فى كتاب « هكذا تحدث زارا ذوسترا » •

٤ - تاريخ حياته وأسرته والوسط الأمريكى الذى عاش فيه •

وفى نظرى أن نجاح جبران فى أمريكا مبالغ فيه ولعله عند
الأمريكان لبساطتهم كمصور ساذج • أما أنه كاتب فلا اعتبره
شيئا ، فكل أسلوبه الحق أقول لكم •• وهكذا • وهو يقلد أسلوب
أنبياء بنى اسرائيل •

ان أمين ريحانى - وهو أقدم من جبران اذ كان كاتباً من
سنة ١٩٠٣ - وفرح أنطون وجبران يكادون يكملون بعضهم بعضاً ،
وان كان الريحانى أقلهم تدبيرا ونقصا ، وفرح أكثرهم عفة وبؤسا ،
وجبران أشدهم مكررا وأتقنهم فنا •

أما أحبهم الى نفسى فلا أحد وان كان الريحانى أخفهم ظلا •

١٧ مارس

- من أغرب الوقائع مجاهرة أربعة من الجبهة الوطنية
(محمد محمود وصدقى ويحيى وحلمى) بالانفصال عن الوفد عندما

دعاهم النحاس باشا ليبدو رأيهم فى مسألة الامتيازات الأجنبية فردوا برفض الحضور ، وهو انسحاب من الميدان ردا على احتقار الباشا صاحب المقام الرفيع لهم مدة عشرة أشهر ، فلم يريدوا أن يكونوا مسئولين معه الى النهاية وهم مع ذلك عليهم الغرم وليس لهم غنم ما . ولكن الخطابات المتبادلة بين الفريقين لم تنتشر وأظنها تنشر بعهد قليل . -

والناس تعلق أهمية كبيرة على مؤتمر مونتريو ويدعى بعضهم أن عمر هذه الوزارة الوفدية محدد بالنجاح أو الفشل فيه ، « التبر برة ويعيد !! » فانه لا أمل لنصر بدونها !!

— مقارنة بين اعتدال الانجليز وظلم الطليان :

عندما ضربت قنبلة فى كنيسة فى أديس أبابا ، قتل الطليان انتقاما للجنرال جرازيانى — الذى لم يمت بعد — أكثر من سبعة آلاف حبشى غير المنازل التى خربوها وأحرقوها ، وظهرت تصريحات خطيرة فى مجلس اللوردات والنواب الانجليز . ونذكر أنه عندما قتل السردار لى سستاك فى مصر (نوفمبر سنة ١٩٢٤) غيلة لم يتحرك جندى انجليزى واحد وقدم المتهمون للمحاكمة ونالوا أقصى العقوبة بحسب القانون المصرى ، وكانوا فعلا هم الفاعلين ، فلم يقع ظلم ولا قتل ولا نهب ولا قسوة وحشية . فما أعظم الفرق بين الانجليزى والايطالى وان كان كل منهما شر وبلاء !

— أقاموا احتفالات كبيرة لموسولينى فى طرابلس الغرب وتقدم منافق كبير يدعى الامارة وسلمه ما دعاه كذبا « سيف الاسلام » ، ففضحته الجرائد وقالوا ان الأمير المزيف تركى الأصل وآلة فى يد الطليان وأن الأمير الحقيقى من آل السنوسى ، وتباخ نفقات السيف ألفى جنيه فتأمل !!

وقد تكلم موسولينى بتمشيد المعهود فقال انه سيخدم الاسلام
ويبدن أفريقيا •

١٩ مارس سنة ١٩٣٧

— ذكرى ١٩ مارس :

هل اسمه آذار ؟ ما أجمل اسمه !

فى ١٩ مارس سنة ١٩١٠ التقيت بها (١) فى مدينته جنيف
بيسى لانسى (بنسيون راسين) فكان يوما من أيام القضاء والقدر .
فبعشنا وسعدنا وتعينا وتلدنا وتألما الى سنة ١٩١٢ ، وكان سبب
تعارفنا حامد العلايل الذى وصفته فى رواية « قلب المرأة » نحت
شخصية « جودياس » فى صفة وغد الرواية Vilain . وكان ذلك
فى يوليو سنة ١٩٠٨ فى لوزان حيث قضيت من ٥ الى ١٥ أغسطس
ولم يعرف حامد شيئا عن هذه العلاقة •

وفى هذا اليوم بعد حوالى ثلاثين عاما مرت وتحقق كثير
مما تكهنت لى به فى الحياة — لا أعلم ان كانت لا تزال من أهل
هذه الدنيا • وآخر ما وصلنى عنها فى سنة ١٩٢٨ بعد صمت دام
ست عشرة سنة • وها هى تسع سنوات أخرى •

أخبرتني فى سنة ١٩٠٨ أنها فى الثلاثين من عمرها وأنها من
مواليد سنة ١٨٧٨ ، فكانت اذ ذاك تكبرنى بثمانى سنين ، ولكنها
كانت لى أختا وصديقة وحبيبة ، وقد لعب الدهر بعقلها وعصفت
الاهواء بقلبها فافترقنا فى يوليو سنة ١٩١٢ فى فيلا سيلفيا بفيفى
سنة ١٩١٢ • وقد أوحى الى أحسن ما أنتجت فى عملى •

(١) يقصد لطفى جمعة السيدة الأدبية الروسية أوجستا دامانسكى
انظر كتاب لطفى جمعة « تذكارات الصبا » ، ذكرى ١٩ مارس » ، عالم الكتب ،

وها أنا ذا أرى وجه جودياس فى نفس هذا التاريخ فأذكرها
وأسجل الذكرى بابتداء كتاب جديد « ليالى الروح المهتدى » .

سلام عليها وعلى روحها وذكرياتها وآسفا !!

– قابلت حامد العلايلي فى بار اللواء الساعة الخامسة بعد
الظهر وقد أقبلت عليه الدنيا فسدد ديونه ولا يظهر الفقر الا أمامى
لأجل أن لان يدفع لى أتعابا ، وذهبت معه الى السينما رويال وشهدنا
رواية الشرق والغرب لجورج أرليس فأبدع . وقد أذكرتنى مناسبة
هذا التاريخ (١٩ مارس) بذكريات غريبة كان للعلايلي فيها شأن .

– موضوعات لليالى الروح المهتدى :

- ١ – الملحة الحمراء .
- ٢ – المعرفة .
- ٣ – أبو شادى الشاعر الطيب .
- ٤ – عودة بعثة الأزهر من الهند لأنهم عادوا يسخرن من
المنبوذين .
- ٥ – القاضى القاتل .
- ٦ – خذ الحياة كما تجيء .
- ٧ – كيف نجح طه حسين (لأنه شتم الأمة وسب دينها واحتقرها) .
- ٨ – الأفعى المطيبة (زينب) (١) .

(١) لم أعثر ضمن أوراق لطفى جمعة على شيء مما كتبه من كتاب « ليالى
الروح المهتدى » (ر.ل.ج) .

— من أخطاء المعارضة وطيشها أنها وصلت ضد الوفد لقمعتها
عندما تظاهر الطلبة ضد جريدة البلاغ وحطموا أبوابه ونوافذه
وحاولوا تعطيله بالقوة • والجرائد حافلة بالأخبار والصور •
ومن المؤلم أن يحدث هذا قبيل سفر الوفد الى مؤتمر مونترية
للمفاوضة في إلغاء الامتيازات الأجنبية • فواسفاه على مصر !

٢٠ مارس

نشرت الأهرام اليوم بالصفحة (٥) صورة غريبة لم أكن
رأيتها من قبل فيها لامبير وأسرته وفريد بك وبعض أقطاب السياسة
الفرنسية مأخوذة في ليون سنة ١٩٠٩ عقيب مؤتمر جنيف وعليها
مقالة شرح حسنة ، وفيها صورتى ملتصقا وكنت اذ ذاك في الثالثة
والعشرين من عمري •

٢٢ مارس

توجهت الساعة الخامسة بعد الظهر الى الجامعة الأمريكية
لاجتماع لصالح السلم العام ، فوجدت توفيق دوس عائدا من حفلة ،
وابتدأت فتكلمت في اظهار فوائد السلم وتطاحن المبادئ في
أسبانيا •

الثلاثاء ٢٣ مارس

— موعد اجتماع المؤلفين المسرحيين مع زكى طليمات بالأمريكين
(فشل أهل الكهف وسر المنتحرة لتوفيق الحكيم) •
— موعد الساعة الثانية عشر مع الدكتور أحمد ماهر •

١٤ أبريل سنة ١٩٣٧

هل أدب الأمم يمثل حقيقة حياتها وفكرتها ولا سيما الأدب المسرحي ؟

ها هم الفرنسيون قد تغلغلوا في فهم المرأة ، حبها وقلبها وخيانتها وخداعها ولا يدور بحثهم الا حول هذا وذاك الا في الندرى .

وهؤلاء الانجليز لهم مسائل أخرى ، المجد والعظمة والاعمال والاشواق والمبكي في سواد الفضيحة والاسرة واذا شئت واحد اهلكوه ، ولذا لم يستطع توماس هاردى أن يتكلم الا حذرا وأمامه أمنال أوسكار وايلد . ولكن رجالا مثل موجام استجدوا وتجروا ، ولكنه هو أيضا حصر نفسه في دائرة المستعمرات .

أما الروس فهم في التفكير السياسي والفلسفي ، والطليان في تأملات أشبه بالقضاء والقدر وهي روح شرقية غامضة مترددة ، والألمان يرمون الى ما هو أعلى ، الحكمة الكبرى وسياسة الدولة والعظمة . والأمريكان شاغلهم المقعد والقيم المال والجريمة وهكذا .

لقد حصر الفرنسيون أنفسهم في دائرة ضيقة ، فشغلوا بفلسفة البطن والفرج وما تحتهما ، ولم يصعدوا فوق ذلك ولا جروا بعده ، حب وخيانة وسلوى وشوق وحنين وموت في سبيل الهوى ، ولعلهم أصدق الناس في درس أهم مظاهر الحياة المادية .

٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧

وزارة الوفد الرابعة ماتت بهدوء مع السنة الحالية وفي آخر أيامها وذهبت غير مأسوف عليها .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان	٥
مقدمة رابع لطفى جمعه	٧
تقديم صاحب المذكرات	١٣
الطفولة	٤٣
١ - المولد والعائلة	٤٣
٢ - من ذكريات الطفولة	٤٩
التكوين العقلى والعلمى	٥٥
١ - التعليم الابتدائى	٥٥
٢ - نظام التربية والتعليم فى المدارس المصرية	٥٩
٣ - التعليم الثانوى ، أول يوم فى المدرسة	
الخديوية الثانوية	٦٩

الصفحة

الموضوع

- ٤ - دو جلاس دنلوب وسياسة التعليم في مصر . ٧٥
- ٥ - ذكريات المدرسة الخديوية ٨٠
- ٦ - الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين ٨٤
- ٧ - تأليف أول مجموعة قصصية مصرية « في بيوت الناس » ٨٩
- ٨ - جليلة هانم ٩٢
- ٩ - حياة القسم الداخلي بالمدرسة الخديوية . جمعية شمس الهدى ٩٨
- ١٠ - صداقات الشباب ١٠٤
- ١١ - العمل بمهنة التدريس والصحافة . . ١١٥
- السفر الى فرنسا لطلب العلم وخدمة الوطن . . ١٢٣
- ١ - كلية الحقوق بليون ١٢٣
- ٢ - جان جاك روسو ١٢٩
- ٣ - النافذة الأولى من الطلبة المصريين بليون ، جمعية الطلبة المصريين بليون ، اترك لنا شمال أفريقيا ١٣١
- ٤ - ضحك كالبكاء ١٣٩

الموضوع	الصفحة
من يوميات سنة ١٩٠٩	١٤٢
أوجيستا دامانيسكي ، ذكرى ١٩ مارس	٢١٩
العام الدراسي ١٩٠٩ - ١٩١٠	٢٢٩
١ - زيارة جون نيني ، اصدار صحيفتي صوت الشعب ومصر ، عيد العمال في أول مايو ، ظهور المذنب هالي	٢٢٩
٢ - فترة جديدة ، جان جاك روسو ، سياسيتان فور ، جان جوريس ، برتوني ، مجلة ميركور دي فرانس ، الرافضة العالمية ايزيدورا دنكان	٢٣٤
٣ - الاستعداد لامتحان الليسانس ، الإقامة في تماربونير ، خلوة الشرق ، حياة الريف الفرنسي ، حالة العالم في أوائل القرن العشرين	٢٤٠
٤ - النجاح في امتحان الليسانس	٢٤٤
٥ - عقب النجاح في امتحان الليسانس	٢٤٧
سباحة ايطاليا	٢٥١
١ - قراءة مؤلفات ريناز ، زيارة معالم جنوا	٢٥١
زيارة مسقط رأس متزيني	٦٢٧

الموضوع	الصفحة
٢ - فلورنسا	٢٥٤
٣ - فلورنسا مدينة الفن والخير والجمال ، فلورنسا بين بلدان أوروبا ، أثر فلورنسا في النفوس والعقل والعاطفة ، جولة في متاحف فلورنسا ، زيارة بيت ماكيافيلي ودير سافونارولا	٢٦٢
المؤتمر الوطني المصري في بروكسل سنة ١٩١٠	٢٧٣
السفر الى باريس ، عزيمة دي رشبرون ، التجسس على المؤتمر ، اشتراك الهنود في المؤتمر ، كريشنا فارما ، مدام كاما	٢٧٣
المحاماة	٢٩٩
١ - أول حديث عن المحاماة مع كبار المحامين ، امتحان المعادلة ، طلب القيد في جدول المحامين ، محاولة عبد الخالق ثروت معي للعمل في النيابة العامة ، القيد في جدول المحامين	٢٩٩
٢ - اختيار سبيل الحرية والكرامة	٣١٦
٣ - فترة التمرين ، التمرين في مكتب اسكندر عمون ، العمل أمام المحاكم المختلطة ، عدالة القاضي نيهولم	٣١٨

الموضوع	الصفحة
٤ - ذكريات عن القضاء والمحاماة	٣٢٧
الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى محاكم الجنايات ، نظام تلخيص القضايا ، النكتة فى مجلس القضاء ، قضاة ومحامون . . .	٣٢٧
٥ - حال المحاماة ووسائل اصلاحها	٣٣٧
٦ - قضايا	٣٤٥
٧ - الاغتيال السياسى وأسبابه	٣٤٦
٨ - قضايا سياسية	٣٥٢
قضية مقتل السردار السيرلى ستاك سنة ١٩٢٥	٣٥٢
٩ - قضية القنابل سنة ١٩٣٢	٣٦١
أعمال فى خدمة نقابات العمال فى القاهرة . . .	٣٧٣
التكوين الروحى	٣٨١
١ - يسألونك عن الروح ، الأشباح والأحلام والكونت دى جلارزا	٣٨١
٢ - كتاب ليلالى الروح الحائر	٣٩١
٣ - رسائل وأحاديث الشيخ محمد عبده . . .	٣٩٤
٤ - الشيخ محمد عبده والتصوف وخلود الروح	٣٩٨
	٦٢٩

الصفحة

الموضوع

- ٥ - مجلة المقتطف ونكذيب الطواهر الروحية . ٤٠٣
- ٦ - دراستي الفلسفة ٤٠٦
- ٧ - الايمان بالاقتناع ٤١٨
- التكوين الفلسفي ٤٢٩
- ١ - سبب دراستي الفلسفة ، القراءات الأولى ،
محاولة التأليف ، فكرة الالتحاق بالأزهر ،
كيف السبيل الى الفلسفة ؟ ٤٢٩
- ٢ - تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل ، تاريخ
محمد لواشطنون ارفنج ، البحث في أصل
ومذهب داروين ، الغزالي ومبدأ الشك
لديكارت ٤٣٧
- ٣ - بين الانسان والحيوان ٤٤٤
- ٤ - من أين وإلى أين ؟ ٤٤٩
- ٥ - وراء كتب الفلسفة ٤٥٢
- ٦ - دراسة الفلسفة بين الكلية الأمريكية ببيروت
وكلية الآداب بليون ، سقراط ، المعري ،
عمر الخيام ، سعدى الشيرازي ، مائدة
أفلاطون ، تاريخ فلاسفة الاسلام ، ابن
خلدون ، سبنسر ٤٥٦

الصفحة

الموضوع

- ٤٦٥ ٧ - حب الحكمة ، ما الفلسفة ، وما غرضها .
- ٨ - الفيلسوف التعلق بتراحم الرجال ، حب الخير والحق والعدل والجمال وحب الانسانية ، عدم انطواء الفيلسوف ، موهبة حب الحكمة ، المال والشهرة والشهوات ، قوة العقل والارادة عند الفيلسوف . اعتراز
- ٤٦٨ ٩ - الفيلسوف بشخصيته
- ٤٧٤ ٩ - محاولة البحث عن فيلسوف يمثل الفلاسفة ومذهب يمثل مذهبهم
- ٤٧٧ ١٠ - حقيقة الفلسفة
- ١١ - أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان في الحياة ومحنة الروح بالحياة ، وحدة الفكر الفلسفي ، هن الفلسفة علم
- ٤٨٢ ١٢ - أسئلة فلسفية
- ٤٨٧ ١٣ - الاعتزال والتصوف ، الأفكار الفلسفية بين النظرية والتنفيذ ، الفلسفة لا تورث
- ٤٨٩
- ٤٩٧ **الزواج**
- ٥١٤ من يوميات سنة ١٩١٧
- ٥٦٦ من يوميات سنة ١٩٢٢

الصفحة	الموضوع
٥٣٥	١٩
٥٣٧	
٥٣٨	
٥٥١	
٥٥٢	١٩٣١
٥٦١	١٩٣١
٥٦٢	١٩٣٣ سنة
٥٦٣	من يوميات سنة ١٩٣٣
٥٦٥	من يوميات سنة ١٩٣٤
٥٨٢	سنة ١٩٣٥
٥٨٣	سنة ١٩٣٦
٥٨٣	من يوميات سنة ١٩٣٦
٥٨٥	سنة ١٩٣٧
٥٨٥	من يوميات سنة ١٩٣٧
٦٢٥	الفهرس

صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ .
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر .
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد العظيم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة .
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى .
د . عليا عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ .
لمى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي .
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبروتى لازمة الحياة الفكرية .
د . على بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل .
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية .
محمود فوزى ، ١٩٨٧

- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير .
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨
- ١٣ - أكتوبية الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية .
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية .
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي .
د. علي حسني الخربوطلي ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) .
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني .
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية .
د. علي السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد الفطرين .
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي .
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

- ٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ١ ،
 د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر
 جمال بدوي ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ٢ ، امام التصوف
 في مصر : الشمراني ،
 د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
 د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامي والغرب :
 تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د. أحمد
 عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة ،
 د. سعيد اسماعيل علي ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
 تأليف : ألفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
 ١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
 تأليف : ألفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
 ١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،
 د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

- ٣٠ - الموظفون في مصر في عصر محمد علي ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمى المطيعي ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقي : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومي ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع المصود الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامي والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د . سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر
العثماني ،
د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د . جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبد المنعم المسوقى الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د . رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الاوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم المسورى ، ترجمة وتقديم : د . حسن حبشى ، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،
د . زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٥٤ - ١٩٤٦) ،
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر ،
د . الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د . محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن اقليم
المنوفية ،
د . حلمي أحمد شلبي : ١٩٩٢
- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التسليم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،
لمعي المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور .
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣ .
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة
وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ج ٣ ،
تأليف : ولهم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٣

- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - اهل اللمة في الاسلام ،
تأليف : أ . س . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي .
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - اهل اللمة في مصر ، في العصر الفاطمي الاول ،
د . سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د . سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قنائة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د . رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد تيلين ، ج ٣ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمري ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٥

- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الفؤلة الإسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د . نبية بيومي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) .
ج ٢ ،
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدتها للنشر د . عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحروب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) .
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد

- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني - الروماني) ج ٢ ،
د . سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة .
أ . د . عبد العزيز صالح ، أ . د . جمال مختار ،
أ . د . محمد إبراهيم بكر ، أ . د . إبراهيم نصحي ،
أ . د . فاروق القاضي ، أعدتها للنشر : أ . د . عبد العظيم رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد كفاي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير / جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،
د . تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د . علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ - ١٩٨٧) ،
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ، ج ٢ ،
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هير ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ١ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ٢ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي ،
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د . اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
احمد رشدى صالح
- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - اديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د . البيومي اسماعيل
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث
لوييس جرجس

- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د . محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد احمد البدوى .
د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د . محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صحفية
جمال بدوى
- ١٢٩ - الدين الصام (وائثره فى تطور الدين المصرى)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣)
د . يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧)
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرؤوف أحمد عمر
- ١٣٢ - دار المندوب السامى فى مصر ج ١ ، (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د . ماجدة محمد حمود

- ١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر ج٢ (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د. ماجدة محمد حمود
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
لدارندلى
بقلم / عزت حسن أفندى الدار ندلى
ترجمة / جمال سعيد عبد الغنى
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق تقديم / د. عبد العظيم رمضان
- ١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٣٨ - الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب
في مصر
السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الفناء المصرى في القرن العشرين
محمد قابيل
- ١٤٠ - سياسة مصر في البحر الاحمر
في النصف الأول من القرن التاسع عشر - طارق
عبد العاطى غنيم .
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار .
- ١٤٢ - مذكراتى في نصف قرن ج ٤
أحمد شفيق باشا .
- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة في القرنين الثانى والاول ق.م.
د. منيرة محمد الهمشرى .

- ١٤٤ - كشوف مصر الافريقية
 فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) -
 د . عبد العليم خلاف .
- ١٤٥ - النظام الادارى والاقتصادى فى مصر
 فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) -
 د . منيرة محمد الهمشرى .
- ١٤٦ - المرأة فى مصر المملوكية
 د . أحمد عبد الرازق .
- ١٤٧ - حسن البناء [متى . . كيف . . ولماذا ؟]
 د . رفعت السعيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
 تأليف / د . سمير فوزى
 ترجمة / نسيم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
 حسام محمد عبد المعطى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (اصولها وتطورها) .
 د . سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
 تأليف / السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
 (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
 د . محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
 د . عليّة عبد السميع الجنزورى

١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في
العصور الوسطى

د . علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ - عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر

(١٨٠٥ - ١٨٨٣)

د . عبد الحميد البطريق

١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث في العصر
الإسلامي

د . سمير يحيى الجمال

١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع في العصر
الإسلامي والحديث

د . سمير يحيى الجمال

١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /

١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

د . محمد عيد الفنى الأشقر

١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الأول

د . محمد فريد حشيش

١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الثانى

د . محمد فريد حشيش

١٦١ - السيف والنار في السودان تأليف سلاطين باشا

١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان

(١٩٣٦ - ١٩٥٣)

د . تمام همام تمام

١٦٣ - مصر والحملة الفرنسية

المستشار / محمد سعيد العشماوى

١٦٤ - العدد المصرية السودانية عبر التاريخ

(اعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الاعلى للثقافة

بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة

القاهرة » ٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧)

اعداد / د. عبد العظيم رمضان .

١٦٥ - التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر

سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ - مذكرات مقتول سياسى

صفحة من تاريخ مصر

السيد يوسف

١٦٧ - الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط

منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الأغشيديّة

د. صفى على محمد

١٦٨ - مؤرخون مصريون من عصر المموسوعات

يسرى عبد الغنى

١٦٩ - مدن مصر الصناعيّة فى العصر الإسلامى الى نهاية عصر

الفاطميين

(٢١ - ٥٦٧ هـ / ٦٤٢ - ١١٧١ م)

د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠ - القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ - تاريخ الجالية الأرمنية في مصر
القرن التاسع عشر
محمد رفعت

١٧٢ - تاريخ أهل اللمة في مصر الإسلامية ج١
(من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى)
د . فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ - تاريخ أهل اللمة في مصر الإسلامية ج٢
د . فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ - مصر وليبيا (فيها بين القرن السابع والقرن الرابع ق م
د . أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ - محمد توفيق نسيم ودوره فى الحياة السياسية
عادل ابراهيم الطويل

١٧٦ - الملاحة النيلية فى مصر العثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨ م)
د . عبد الحميد حامد سليمان

١٧٧ - سياسة مصر العسكرية ازاء حروب الشرق الاوسط
لواء / د . صلاح سالم

١٧٨ - العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى
فى القرن الثامن عشر
د . سحر على حنفى

١٧٩ - دور الحماية العثمانية فى تاريخ مصر
(١٥٦٤ - ١٦٠٩ م)
د . عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ - الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس

بقلم / د . عبد العظيم رمضان

١٨١ - الحرب الصليبية الثالثة ج ١

صلاح الدين وريتشارد

ترجمة وتعليق وتحقيق / د . حسن حبشي

١٨٢ - الحرب الصليبية الثالثة ج ٢

صلاح الدين وريتشارد

ترجمة وتعليق وتحقيق / د . حسن حبشي

١٨٣ - شاهد على العصر

مذكرات محمد لطفي جمعة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٩٣ / ٢٠٠٠

ISBN - 977 - 01 - 6651 - 0

هذا الكتاب «شاهد على العصر»، وهو مذكرات الأديب والصحفى الكبير المرحوم محمد لطفى جمعة، وهو واحد من الرواد الأوائل الذين تركوا بصمتهم على الحياة الأدبية والفكرية والسياسية من موقع انتمائه إلى الحزب الوطنى، وقد ترفع فى بعض القضايا السياسية التى شغلت الرأى العام.

وقد جمع هذه المذكرات وأعدّها للنشر ابنه المستشار رابح لطفى جمعة، وهو أكثر من رأيتهم من الأبناء وفاءً لوالدهم.

وتشمل المذكرات التى بين أيدينا مذكرات الكاتب فى الفترة من ميلاده فى يناير ١٨٨٦ إلى ديسمبر ١٩٣٧، وأهميتها أنها تصور عصراً بأكمله من زواياه الاجتماعية والفكرية والسياسية، بقلم أديب صناعته الأدب، وسياسى وطنى حظى بتقدير عصره.

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية



0273592

مطابع الهيئة المص

٦٧٥ قرشاً